الحركة الصليبية

صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى

الجزء الأول

بتأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية
١٩٧١

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٢٢٨ لسنة ١٩٧١

مطابع سجل العرب

إهداء الكتاب

إلى

المؤمنين بفلسطين العربيّة

وحقوق أصحابها العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

« لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية »
(الحاقة ، ١٢)



(١)

ترجع أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لنا إلى أنها تشكل تجربة فى تاريخ العروبة والإسلام جميعاً ، سواء فى المشرق أو فى المغرب . وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج ، وإنما هى تجربة كبرى خطيرة مليئة بالدروس والعظات ، مما يتطلب منا أن نتأملها ونبحثها فى كل وقت — الآن وفى المستقبل — لنستفيد من أخطاء الماضى ونتجنبها ، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها ، وبذلك نحفظ للعرب حقوقهم وللعروبة كيانها ، ونضمن لأبنائنا حياة حرة كريمة فى وطننا العزيز .

ثم إن ذيول الحروب الصليبية انتهت فى القرن الخامس عشر تقريباً لتفصح عن نتائج غريبة متناقضة بالنسبة للشرق العربى والغرب الأوربى . فإذا كانت هذه الحروب صفحة مثيرة فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، فما السر فى أنها انتهت بتدهور وركود وانحلال استمر طويلا عقبها فى البلدان العربية ، فى حين صحبت هذه الحروب وأعقبتها مباشرة نهضة شاملة فى الغرب الأوربى هى أساس نهضته الحديثة ؟ ؟ الواقع إن هذه الظاهرة تسترعى الانتباه وتستحق منا التفكير العميق . فقد تكون الحروب الصليبية فى حد ذاتها مسئولة عن الانهيار الذى تعرضت له البلدان العربية فى أواخر العصور الوسطى بعد أن استنفدت جهود هذه البلدان فى الدفاع عن كيانها ، وكرست مواردها ونشاطها للقضاء على الأخطبوط الصليبي الذى ثبت أقدامه فى بقعة هى بمثابة القلب من الوطن العربى ، وأخذ يسعي من ذلك المركز المتوسط إلى تهديد بقية الشام والعراق ومصر والحجاز فضلا عن المغرب والأندلس . ولعله من الواضح أنه كان من الصعب على العرب وسط ذلك الخطر الذى أحدق بهم فى صميم بلادهم أن يشتغلوا بالإنشاء والتعمير والنشاط الحضارى . على أنه ثمة حقيقة يجب أن

نذكرها دائماً من باب الأمانة التاريخية ، هي أن مظاهر الضعف والانحلال السياسى والتأخر الحضارى بدت فعلا فى بعض أجزاء الوطن العربى قبل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق بكثير ، وقبل بداية حركة الاسترداد فى أسبانيا بكثير أيضا . وإن من يتأمل أحوال المشرق العربى منذ القرنين التاسع والعاشر للميلاد ليسترعي نظره كثرة الثورات والخلافات المذهبية التى قامت فى جوف الدولة العباسية ، فضلا عن الانقسامات التى تعرضت لها تلك الدولة مما أدى إلى قيام دويلات مستقلة على حسابها فى المشرق والشام ومصر وشمال إفريقية . ولا شك فى أن وقوع الخلفاء العباسيين أنفسهم تحت سيطرة البويهيين ثم السلاجقة إنما هو دليل واضح على ضعف الخلافة وانحلال المشرق العربى قبل بداية الحروب الصليبية بأمد طويل . فإذا انتقلنا إلى الأندلس ، فإننا نلاحظ أيضاً أن الضعف أخذ يسرى حثيثاً فى جسم خلافة قرطبة منذ أوائل القرن الحادى عشر ، مما شجع القوى المسيحية فى شمال أسبانيا على أن تعمل لطرد المسلمين من الأندلس .

فجذور الضعف امتدت فى الوطن العربى إلى ماقبل الحروب الصليبية ، وليس حقيقة أن تلك الحروب وحدها هى المسئولة مسئولية تامة عن حالة الذبول التى تعرضت لها البلدان العربية فى أواخر العصور الوسطي . وربما كان أقرب إلى الحقيقة أن نعترف بأن عوامل الضعف ومظاهره كانت موجودة فعلا قبل بداية الحروب الصليبية ، ثم جاءت هذه الحروب لتستنفد مابقى للوطن العربى من طاقة وجهد ، مما جعل معظم البلدان العربية — وبخاصة فى الشرق الأدنى — تسقط فريسة سهلة أمام العثمانيين وحكمهم الرجعى المظلم .

أما عن أن الحروب الصليبية انتهت بنهضة الغرب الأوربى نهضة كبرى شاملة ، فهذه حقيقة ثابتة يؤكدها التاريخ . وإذا كانت بدور النهضة الأوربية

الحديثة قد بدأت قبل بداية الحركة الصليبية بقليل . فإن الحقيقة التى لاشبهة فيها ولا جدال حولها ، هى أن تلك البذور نمت نتيجة للاتصال بالحضارة العربيــة الإسلامية . فهذه الحضارة التى كانت باعتراف جميع الباحثين أعظم حضارة شهدها العالم فى الشرق والغرب طوال العصور الوسـطى ، هى التى غذت بذور النهضة الأوربية وأمدتها بما كانت تفتقــر إليه تماماً من علوم ودراسات وفنون ومناهج بحث .

ومن المعروف أن هناك معابر أساسية انتقلت عنها حضارة العــرب إلى الغرب الأوربى ، ولــكن الثابت أن حركة ترجمة العلوم والمعارف العربيــة إلى اللاتينية نشطت بالذات على عصر الحروب الصليبيــة ، وأن المركز الأول لتلك الحركه كان أسبانياً حيث أخذ المسـيحيون يحاربون المسلمين فى قوة وعنف . وكلما اســتولى المسيحيون على بلد إسلامى وجدوا أنفسهم أمام ثروة ضخمة من آلاف المخطوطات العربية فى العلوم والفنــون والآداب وغيرها من الدراسات . وهذا هو التفسير الصحيح لحقيقة النهضة الأوربية الغربية التى صحبت الحركة الصليبية والتى ازدادت نمواً فى أعقاب تلك الحركة مباشرة . هذا كله بالإضافة إلى أن الحروب الصليبية ألهمت الغرب الأوربى نظرة جديدة واسعة إلى الحياة ، وكان هذا الاتساع فى الأفق والخروج بغرب أوربا من نطاق العزلة الواضحة التى عاش فيها المجتمع الأوربى فى العصــــــور المظلمة ، هو أهم ما أفادته أوربا من الحركة الصليبية ، فضلا عن نمو روح الـكشف والمغامرة عند الأوربيين .

(٣)

وسواء كان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيد ، فمن الواضح أن الأوضاع التى تحيط بالعالم العربى فى الشرق الأدنى اليوم تجعلنا نشعر بأننا فى وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذى عاش فيه أجدادنا العرب منذ ثمانية قرون ونصف ، الأمر الذى يتطلب منا دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية دقيقة .

فإذا كنا نقف اليوم وجهاً لوجه أمام خطر إسرائيل التى أقامها الاستعمار فى أرض فلسطين والتى يحرص الغرب دائماً على مساندتها وإمدادها بالمال والسلاح والرجال ليمكنها من المضى فى غيها وعدوانها ؛ فإن أجدادنا فى نهاية القرن الحادى عشر وجدوا أنفسهم أمام دولة غريبة قامت فى البقعة نفسها من أرض الشام ، وحرص الغرب أيضاً على تزويدها بالرجال والسلاح والمساعدات ليضمن لها البقاء والاستمرار .

وإذا كانت إسرائيل تستهدف الآن — تحت ستار إقامة وطن قومى لليهود — السيطرة على جميع البلدان العربية فى منطقة الشرق الأدنى ، مما يضمر إقامة دولة للصهاينة تمتد من النيل إلى الفرات ؛ فإن الصليبيين فى العصور الوسطى لم يكادوا يثبتون أقدامهم فى فلسطين حتى شرعوا يتوسعون شرقاً فى إقليم الجزيرة والفرات وجنوباً فى اتجاه مصر والنيل ، بل لقد ركبوا البحر الأحمر ووصلوا إلى شواطىء الحجاز لهدم الكعبة فى مكة ومقام الرسول فى المدينة .

وإذا كان التاريخ لا يبرأ حكام الدول العربية وساستها الذين استكانوا للاستعمار الغربى ولإسرائيل، وتآمروا على فلسطين وأبنائها حتى تمكنت إسرائيل من الوقوف على قدميها ، فإن التاريخ أيضاً لا يغفر لحكام المسلمين فى مصر والشام والعراق « عدم اكتراثهم بالفرنج » عند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام، حتى أن

المؤرخ أبا المحاسن يتساءل عن السبب فى عدم خروج بعضهم لدفع الصليبيين «مع قدرتهم فى المال والرجال ! » .

وإذا كانت البلدان العربية قد ابتليت اليوم ببعض الحكام الرجعيين الذين دفعهم الحرص على مصالحهم الخاصة إلى الاعتراف بإسرائيل عن طريق غير مباشر ، ومهادنتها علنا أو محالفتها سرا ضد القضية العربية الكبرى ، وطلب معونتها — ومن ورائها الاستعمار الغربى — لضرب الحركات التحررية فى الوطن العربى ؛ فإننا نسمع فى عصر الحروب الصليبية عن معين الدين أنر حاكم دمشق الذى دفعته شهوة الحكم والخوف من تيار الوحدة الذى أوشك أن يعصف بملكه إلى محالفة الصليبيين فى بيت المقدس وطلب معونتهم ضد المنادين بوحدة الصف لمواجهة الخطر الصليبى ؛ بل لقد بلغ الأمر بمعين الدين أنر — وهو الحاكم المسلم — أن زار الصليبيين فى مدنهم وحصونهم ليبارك جرائمهم ضد أبناء وطنه ودينه . وما يقال عن معين الدين أنر فى دمشق يقال أيضاً عن ضرغام وشاور — وهما من وزراء الخلافة الفاطمية المتداعية فى مصر — وعن الصالح إسماعيل الأيوبى صاحب دمشق ، وكلهم حالفوا الصليبيين وطلبوا معونتهم ضد القضية العربية .

وإذا كان أشد ما تخشاه إسرائيل — ومن ورائها الدول الغربية الاستعمارية اليوم — هو قيام وحدة عربية تجمع بين صفوف العرب وتضيف إلى وحدة الهدف وحدة الصف ؛ فإن الصليبيين فى العصور الوسطى استماتوا فى منع تحقيق وحدة الصف العربى ، وقاوموا حركة الوحدة العربية ، أولا بين مدن بلاد الشام الإسلامية والعراق ، حتى إذا ما فشلوا فى ذلك ورأوا أن نور الدين محمود نجح فى ضم دمشق وتوحيد صف المسلمين فى بلاد الشام ، استدار الصليبيون نحو مصر وحاولوا بمختلف الطرق منع الوحدة بين مصر والشام والعراق ، لأنه إذا تمت هذه الوحدة «فلن يبقى لهم (للصليبيين) فى بلادهم مقام» على قول أحد المؤرخين المعاصرين .

وإذا كان الاستعمار الغربى قد حرص بعد الحرب العالمية الأولى على أن يجعل إقليم الأردن تحت سيطرته ليستغل تلك المنطقة الشرقية من فلسطين فى الفصل بين العراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وبذلك يحول دون قيام أية وحدة عربية فى المنطقة ، ويجعل الوطن العربى فى الشرق الأدنى دائماً أبداً ممزق الأوصال ، مما يتيح للاستعمار وصنيعته إسرائيل أن يلعبوا وفقما شاءوا بمصائر الأمة العربية ؛ فإن الصليبيين ما كادوا يقيمون دولتهم فى فلسطين حتى قاموا بالمحاولة نفسها فسعى ملكهم بلدوين إلى السيطرة على الأردن ووادى عربة ، وشيد حصن الشوبك جنوبى البحر الميت ، ومن ذلك المركز سعى الصليبيون دائماً إلى قطع الاتصال بين مصر والجزيرة العربية والعراق والشام .

وهكذا يبدو أن التجارب التى تمر بها الأمة العربية اليوم ليست جديدة عليها ، فقد سبق أن تعرضت هذه الأمة للأساليب نفسها من الخيانات والألاعيب والدسائس والمؤامرات فى عصر الحروب الصليبية . وبقى علينا اليوم أن نستفيد من هذه التجارب ، مما يتطلب منا دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية أمينة ، لنتعظ من دروس الماضى ونأخذ منها عبرة ، تعيننا فى التغلب على أفدح خطر يواجه الأمة العربية اليوم ، وهو خطر إسرائيل وأعوانها من القوى الاستعمارية والرجعية .

(٣)

والواقع إن الوطن العربى شهد فى عصر الحروب الصليبية مؤامرات عدة : مؤامرات من الغرب الأوربى لسلب العرب حريتهم وأرضهم . ومؤامرات من الصليبيين بالشام ضد وحدة الصف العربى . ثم مؤامرات من بعض حكام المسلمين

أنفسهم ضد إخوانهم فى الوطن والدين . ولكن هل نجحت هذه المؤامرات ؟ وإلى أى حد كان نجاحها أو فشلها ؟

إن نتيجة أى عمل هى التى تحددمقدار ماأصابه هذا العمل من نجاح أوفشل. وهنا نجد الحروب الصليبية انتهت — بعد عدة قرون من الجهود الجبارة التى بذلها الدخلاء وصنائعهم — بالفشل ، وبطرد الصليبيين طرداً تاماً من الشام ، وتطهير الأرض الطيبة من أطماع الطامعين ، وعودة البلاد إلى أيدى أصحابها من العرب ومهما تعددت الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة ، فإننا يجب أن نذكر فى مقدمتها وعى الشعب العربى ، وهو ذلك الوعى الذى برز قويا وبوضوح فى كتابات المؤرخين المعاصرين،أمثال ابن الأثير وأبى شامة وابن شداد وابن واصل ، ثم أبى المحاسن والمقريزى وغيرهم . وإن من يدرس تاريخ الحركة الصليبية يستوقف نظره أحياناً نجاح الصليبيين فى تفرقة الصف العربى عن طريق تخويف بعض الحكام العرب من إخوانهم ؛ ولكن ذلك كله لم يجد أمام إيمان العرب بوحدة الهدف ، تلك الوحدة التى غذاها شعور الإيمان بالله ثم الإيمان بالحق المغتصب.

وهكذا لم يرض أى جزء من الشعب العربى أن يحكمه حاكم خائن يحالف الصليبيين ويتآمر على حياة العرب وأرض العرب . نعم ؛ لم يرض أهل دمشق عن حاكمهم معين الدين أنر الذى آثر أن يضرب عرض الحائط بنداء الضمير ، فرفض دعوة الوحدة وحالف الصليبيين فى سبيل الاحتفاظ بملكه . وكان أن ثار الأبرار من أهل دمشق على ذلك الوضع المشين ، واتصلوا سراً بنور الدين محمود وأقروه على أن يتسلم بلدهم تحقيقا للوحدة الشاملة وتمهيدا للقيام بحركة الجهاد الكبرى ضد الصليبيين .

وعندما حاول الصالح إسماعيل صاحب دمشق أن يتآمر مع الصليبيين لغزو مصر (١٢٤٠ — ١٢٤٤) ، وجمع جيشاً من أهل الشام سار به جنبا إلى جنب مع الجيش الصليبي لغزو أرض النيل ، حدثت المفاجأة التى تتكرر اليوم عندما تلجأ بعض القوى الرجعية فى الوطن العربى إلى ضرب الحركات التحررية . ذلك أن الجيش الشامى لم يكد يصل قرب غزة ويرى أمامه الجيش المصرى ، حتى انفض أهل الشام عن حاكمهم الخائن ورفضوا أن يشتركوا مع العدو الدخيل ضد إخوانهم فى العروبة « فساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة ، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم !! »(١) .

وبفضل هذا الإيمان بوحدة الهدف والتمسك بوحدة الصف ، أمكن للشعب العربى أن ينتصر فى معركة الحروب الصليبية فى العصور الوسطى . وعندما ينضج هذا الوعى أيضاً سيأتى عن قريب اليوم الذى يتمكن الشعب العربى المتحرر من من أن ينتصر فى معركته ضد إسرائيل والاستعمار والرجعية .

وسواء يبدأ تيار الوحدة من الفرات إلى النيل — كما حدث فى القرن الثانى عشر — أو يبدأ من النيل إلى الفرات — كما يحدث اليوم — فالمهم هو أن يكون هذا التيار نابعا من جوف الوطن العربى وليس دخيلا عليه أو مفروضا على أبنائه فى صورة أحلاف ينظمها الدخلاء والعملاء لخدمة أغراضهم وتنفيذ مشاريعهم الخبيثة . وقد أثبت التاريخ دائما أن هذه الوحدة المنبثقة من صميم الواقع العربى ، المعبرة عن أمانى الأمة العربية فى تحقيق سلامتها والمحافظة على

---

(١) انظر : المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٣٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٣

كيانها وطرد الدخلاء الغاصبين من محيطها ، لابد وأن تنتصر فى تحقيق أهدافها رغم مايصادفها من عقبات يحرص الدخلاء وأذنابهم على وضعها فى طريق المؤمنين الأحرار .

والواقع إن أهم مايسترعى انتباهنا عند دراسة تاريخ الحقبة الصليبية هو ذلك التوافق الشديد بين أجزاء الوطن العربى ، وتلك الاستجابة السريعة التى أحس بها كل عضو من أعضاء ذلك الجسد الكبير نحو بقية الأعضاء : فلا يكاد الصليبيون يغزون الشام حتى تخرج الجيوش من العراق لمنازلة الغزاة المعتدين ، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرع جيوش الشام للذود عنها ، ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه فى مصر حتى يسخر جميع مواردها البشرية وطاقاتها المادية لطرد الصليبيين من الشام ؛ ولا يكاد أرناط حاكم الكرك الصليبى يخرج فى البحر الأحمر لتهديد الحجاز حتى تشيد السفن فى مصر وتحمل على ظهور الجمال إلى البحر الأحمر لدفع الخطر عن الحرمين ؛ ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد نزل سنة ١٢٧٠ على رأس جيوشه فى تونس حتى تتخذ الإجراءات السريعة لدفع عادية البغاة والاحتفاظ للمغرب بعروبته وحريته .

وهكذا ظل التجاوب سريعا وتاما بين جميع أجزاء الوطن العربى مشرقه ومغربه ، الكل شعب واحد يحس بإحساس واحد ، بحيث لايشكو عضو إلا استجابت له بقية الأعضاء فى سرعة وإيمان . وهذا هو السر فى انتصار العرب فى المعركة الصليبية ، ونجاحهم فى طرد الدخلاء من أراضيهم .

(٤)

وفى هذا الكتاب حاولت أن أقوم بدراسة علمية أمينة للحركة الصليبية بمختلف أدوارها ومراحلها، معتمدا على ماأمكننى الوصول إليه من وثائق ومخطوطات ومراجع معاصرة — عربية وغير عربية — فضلا عن المؤلفات الأوربية الحديثة.

والواقع إنه لمن المؤسف حقاً أن تظل المكتبة العربية حتى اليوم خلوة من مؤلف واحد شامل يتناول تاريخ الحركة الصليبية، مع مالهذه الحركة من أثر بالغ وأهمية عظمى فى تاريخ الشعب العربى وعلاقته بغرب أوربا فى العصور الوسطى. وفى الوقت الذى تطالعنا قوائم دور النشر فى أوربا وأمريكا كل عام بكتب جديدة عديدة تحمل اسما واحدا هو « الحروب الصليبية »؛ إذابالمكتبة العربية لايوجد فيها حتى اليوم مؤلف حديث واحد يعالج تاريخ الحركة الصليبية بأكملها — من بدايتها حتى نهايتها — علاجا أميناً يعبر عن وجهة النظر العربية.

وكل ما هنالك هو بعض الكتب المترجمة إلى العربية عن اللغات الأوربية، والتى تقف عند حد سرد آراء مؤلفيها من الأوربيين ووجهات نظرهم؛ فضلا عما فى بعضها من أخطاء وتحريفات لعدم الدقة فى ترجمة أسماء المواضع والأعلام ووضعها فى صيغتها العربية السليمة.

وإننى إذ أقدم لقراء العربية هذا الكتاب ليسد فراغا ملموساً فى المكتبة العربية، أرجو أن يقبلوا عذرى فى تأخر صدوره. ذلك أننى وعدت قرائى بإصدار هذا الكتاب فى أقرب فرصة منذ خمس سنوات. ويشهد الله على أننى لم أتخل عن وعدى طوال هذه السنوات الخمس، وإنما هى طبيعة الموضوع وكثرة أحداثه

وصعوبة تقسيمه وتبويبه ، وتشعب وثائقه وأصوله ، هي التي استأثرت بكل جهدي ووقتي طوال هذه السنوات .

ولا أدعي أنني وفيت هذا الموضوع حقه من البحث ، وإنما هي محاولة أولى لدراسة تاريخ عصر من أهم عصور التاريخ العربي ، وأرجو أن تتبعها محاولات أخرى حتى يستوفي هـذا الموضوع الهام حقه من الدراسة على أيدي المؤرخين العرب مثلما استوفى حقه من البحث على أيدي المؤرخين الأوربيين .

وقد دفعتني رغبتي في تسهيـل مهمة من يتابع دراسـة موضوع الحروب الصليبية إلى تذييل هـذا الكتاب بقائمة كاملة للمراجع التي اعتمدت عليها في البحث ، فضلا عن تدعيم الكتاب بعدد لا بأس به من الخرائط والملاحق والجداول المفيدة . ويؤسفني أنني لاحظت في بعض الكتب العربية الحديثة التي تعرضت لنواح من تاريخ الحروب الصليبية أن مؤلفيها أخطأوا في كتابة أسماء بعض المدن والأعلام الجغرافية لأنهم نقلوها نقلا حرفيا من المراجع الأوربية دون أن يحاولوا البحث عن أصولها العربية . لذلك أوردت في نهاية الكتاب كشافا مرتبا ترتيبا أبجديا بأسماء المدن والمواقع الجغرافية ، كما وردت في الحوليات غير العربية والمراجع الأوربية ، وحققت اسم كل منها كما ورد في المراجع العربية المعاصرة تحقيقا دقيقا يستطيع أن يعتمد عليه من يبحث في موضوع الحروب الصليبية .

وكل ما أرجوه هو أن أكون قد وفقت فيما قصدته من خدمة الأمة العربية وتاريخها بإبراز صفحة من أروع صفحات البطولة التي يعتز بها كل عربي .

والله ولي التوفيق .

سعيد عبد الفتاح عاشور

الباب الأول

فلسفة الحركة الصليبية

« لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »
(الأنعام ، ٦٧)

الفصل الأول

ماهية الحركة الصليبية

أحوال الغرب الأوربى عند بداية الحركة الصليبية :

اعتاد المؤرخون أن يبدءوا الكلام عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى أحوال الشرق الأدنى فى القرنين العاشر والحادى عشر ، فيتعرضون للدولة العباسية أيام ضعفها حتى كان ظهور السلاجقة ، ثم ينتقلون إلى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين فى آسيا الصغرى ، وكيف أدت استغاثة البيزنطيين بالغرب الأوربى وبالبابوية عقب موقعة مانزكرت إلى إثارة الحروب الصليبية .

ومع اعترافنا بوجاهة اتخاذ أحوال الشرق الأدنى مدخلا للحروب الصليبية ، إلا أننا نرى أن المدخل الطبيعى للموضوع يأتى من ناحية الغرب لا الشرق . حقيقة إن الاستغاثة ضد المسلمين أتت من الشرق ، ولكن البواعث التى دفعت الغرب الأوربى إلى تلبية تلك الاستغاثة ، والإسراع بالاستجابة لها والرد عليها رداً عمليا ، هذه البواعث كلها غربية ولا يمكن فهمها إلا بالوقوف على أوضاع الغرب الأوربى وقت قيام الحروب الصليبية . ولا أقل من إلقاء نظرة سريعة على غرب أوربا فى العصور الوسطى لنستطيع فهم البواعث التى حركت الحركة الصليبية .

أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية فى غرب أوربا على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦ فترة قاتمة امتدت حتى القرن الحادى عشر ، وأطلق بعض المؤرخين

على تلك الفترة فى التاريخ الأوربى اسم « العصور المظلمة » . ولم تقتصر مظاهر التأخر والانحلال التى أصابت المجتمع الأوربى فى تلك الفترة على الانحلال السياسى ، وإنما امتد التدهور إلى الجوانب الاجتماعية والثقافية والإقتصادية . وإذا كان غرب أوربا قد شهد صحوة ملحوظة على أيام شارلمان فى أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر. ولم تلبث جموع الفيكنج أن أخذت تنزح من الشمال لتغير على مواطن الحضارة وتدمرها فى غرب أوربا ، فى الوقت الذى أوغل الهنغاريون فى وسط القارة حتى شرق ألمانيا ، يخربون ويفسدون . وفى وسط تلك الأزمات تحايل الغرب الأوربى بالنظام الإقطاعى للحصول على قدر من الأمان والحماية ، فانحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع، واضطر الأباطرة والملوك إلى التنازل عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطاع . ولكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعيين قد نجحوا فى حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية ، فإن أولئك الرعايا دفعوا الثمن غالياً فى ظل نظام اعتمد فى فلاحة الأرض على الإقنان وعبيد الأرض وقام على أساس تحكم القوى فى الضعيف .

ولم يكن فى استطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأى جهد لتعديل تلك الأوضاع ، لأن الكنيسة نفسها — التى ظلت منذ سقوط الامبراطورية الغربية فى أواخر القرن الخامس تمثل أكبر قوة فى المجتمع الغربى — تعرضت هى الأخرى لموجة جارفة من الإنحلال والذبول فى القرنين التاسع والعاشر ، فجرف التيار الإقطاعى رجال الدين وتصدع سلطان البابوية ، وانحط المستوى الخلقى لرجال الكنيسة[1] .

على أن تلك الغمة لم تلبث أن أخذت تنكشف فى القرن الحادى عشر .

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

ويميل بعض الباحثين إلى إعطاء سنة ١٠٠٠ للميلاد أهمية خاصة فى تاريخ أوربا، على أساس أن هذه السنة تمثل نقطة تحول كبرى فى تاريخ الغرب الأوربى[١].
ومع أننا لا نؤيد مبدأ اختيار سنة بعينها لتحديد بداية حركة حضارية فى التاريخ، إلا أنه لا يمكننا أن نتجاهل الصحوة الكبرى التى تعرض لها غرب أوربا منذ القرن الحادى عشر، وهى الصحوة التى بلغت ذروتها فى القرن الثانى عشر واستمرت بعد ذلك حتى نبعت منها النهضة الأوربية فى القرن الخامس عشر[٢].

ويطلق المؤرخون على هـذه الصحوة التى تعرض لها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر اسم « نهضة القرن الثانى عشر » . وليس هذا مجال الخوض فى تفاصيل هذه النهضة ، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها مست جميع أركان الحياة فى غرب أوربا . فى المجال السياسى بدأت أوربا تشعر بنوع من الاستقرار بعد أن انتهت إغارات الفيكنج ، فأخذ ملوك الغرب يسعون سعيا حثيثاً لتدعيم سلطانهم فى بلادهم . وفى المجال الثقافى أخذ الأوربيون يعملون فى نهم لتحصيل أكبر قدر من العلوم والمعارف التى استقوها وترجموها عن الكتب العربية ، وبالتالى فقد بدأ التطور الذى نبتت منه الجامعات لأول مرة فى غرب أوربا . وفى المجال الاقتصادى ظهر نشاط المدن وبخاصة فى شمال إيطاليا ، وصحب هذا النشاط هجرة كثير من أقنان الأرض إلى المدن للعمل فيها مما أدى إلى تطور اجتماعى خطير[٣].

ثم إن هذه الصحوة الكبرى التى تعرض لها المجتمع الأوربى منذ القرن الحادى عشر كان لها أيضاً مظهرها الواضح فى مجال الدين . ذلك أن

---

(1) Archer : The Crusades, p. 14.

(٢) سعيد عاشور : النهضات الأوربية ص ١١١ — ١١٢

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٩٢ وما بعدها .

الـكنيسة تعرضت عندئذ لحركة إصلاح شاملة تعرف باسم الحركة الـكلونية . وقد بدأت هذه الحركة بقصد إصلاح الحياة الديرية فى القرن العاشر ، ولـكن لم يلبث أن اتسع نطاقها فى القرن الحادى عشر حتى أصبح هدفها الرئيسى إصلاح الـكنيسة بوجه عام وعلاج الأمراض الخطيرة التى شكت منها الـكنيسة عندئذ ، وأهمها السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى[1] . وإذا كانت الـكنيسة قد أفلحت فى علاج السيمونية وزواج رجال الدين داخليا عن طريق عدة مجامع عقدت فى القرن الحادى عشر ، فإن السعى لحل مشكلة التقليد العلمانى أوقع الـكنيسة فى صراع عنيف مع السلطة العلمانية ، وهو الصراع الذى نطلق عليه النزاع بين البابوية والإمبراطورية فى العصور الوسطى[2] . وقد بدأت أولى حلقات هذا النزاع سنة ١٠٧٦ — أى قبل الحملة الصليبية الأولى بنحو عشرين عاماً — واستمر بعد ذلك سنوات طويلة ؛ وفيه حشدت كل من البابوية والإمبراطورية جميع قواها وإمكانياتها للتغلب على الطرف الآخر .

وخلاصة القول أن النهضة التى بدأت مظاهرها فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر أمدت الغربيين بطاقة هائلة وأمدت الـكنيسة بقوة جبارة كان لابد من استنفادها . ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن النزاع بين البابوية والإمبراطورية إنما جاء وسيلة لاستنفاد الطاقة التى تزود بها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر . على أنه كان من المتعذر أن تستنفد هذه الطاقة كلها محليا وفى صراع داخلى ، وصار لابد من البحث عن منفس خارجى لتوجيه قدر من تلك الطاقة إليه . وعندئذ ظهرت فكرة الحرب

(1) Thompson : The Middle Ages, vol. I, pp. 427-428.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٤٥ وما بعدها .

الصليبية لتهيء للغرب الأوربى ميدانا واسعاً يستغل فيه نشاطه المكبوت وحماسته المنطلقة .

ماهية الحركة الصليبية :

ولعل السؤال الذى يواجهنا بعد ذلك هو : ما المقصود بالحركة الصليبية ؟ الواقع إن الإجابة على هذا السؤال تعددت بتعدد النوافذ التى أطل منها المؤرخون على الموضوع ، فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الصراع التقليدى القديم الذى ظهر بوضوح فى النزاع بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والروم . ومن الواضح أن هذا الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأى عامل دينى ، حيث أنه دار فى عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين ؛ وربما بدا من الأرجح ربطه بالعامل الحضارى بوصفه صراعا بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين وأسلوبين فى الحياة متباعدين . ويرى أنصار هذا الرأى أن الصراع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور أحياناً ، حتى كانت نهاية القرن الحادى عشر فاشتد غليانه وثورانه ، وعندئذ وجد منفساً فى الحرب الصليبية . وزاد من حدة ثوران البركان فى تلك المرة أنه وجد سبباً جديداً قويا للخلاف بين الشرق والغرب ، هو الخلاف الدينى بين الإسلام والمسيحية .

وهناك فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية وما ارتبط بها من محاولات كبرى ومشاريع عديدة لغزو الوطن العربى — وبخاصة فى الشرق الأدنى — ليست فى حقيقة أمرها إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات الكبرى التى صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية (1) . ذلك أن سقوط تلك الإمبراطورية

(1) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 15.

سنة ٤٧٦ أعقبته موجات من الهجرات التى قام بها المواطنون فى بلاد الإمبراطورية الغربية . وقد تفاوتت هذه الهجرات فى مداها الزمنى وفى اتجاهاتها وأثرها ، ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفزع والقلق الذى نجم عن سقوط الإمبراطورية، ودخول عناصر جديدة من الجرمان داخل أراضيها . وكان الناس فى غرب أوربا فى العصور الوسطى يتصورون الإمبراطورية فى صورة دعامة كبرى لابد للعالم منها ولا حياة لهم بدونها ، لأنها تعنى الاستقرار والنظام والأمن والحضارة . وفى ضوء هذه العقيدة يمكننا أن نفسر شعور الفزع والرعب والقلق الذى انتاب الناس عندما سقطت الإمبراطورية فى الغرب ، إذا رأوا فى ذلك نذيراً بنهاية العالم وفنائه، وظنوا أن الساعة لا بدو أن اقتربت. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن سقوط الإمبراطورية الغربية جاء مصحوباً بتدفق جموع الجرمان وقبائلهم داخل أراضى الإمبراطورية ، الأمر الذى ترتب عليه زعزعة أركان المجتمع الرومانى القديم وقيام مجتمع جديد هو خليط من الرومان والجرمان . ولم يلبث الجرمان أن إعتنقوا المسيحية ، فأمدوا العالم الرومانى بروح جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها فى كثير من الهجرات التى اتجهت إلى شمـال أفريقية ، وانجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا . وينادى بعض الباحثين بأن الحركة الصليبية فى حدذاتها ليست إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس .

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا إنطلاقة كبرى decumanus fluctus نتجت عن عملية الإحياء الدينى التى بدأت فى غرب أوربا فى القرن العاشر والتى بلغت أشدها فى القرن الحادى عشر ، كما سبق أن أشرنا. ذلك أن حركة الإصلاح الكلونية كانت فى حقيقة أمرها حركة إحياء دينى بكل معانى الكلمة، ترتب عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة، وتحقيق نوع من الإشراف المركزى الدقيق على كافة الكنائس الغربية ، وتقوية

الجهاز الكنسى وتدعيمه ، وربط أطرافه بالمركز الرئيسى فى روما ، ثم إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام فى الغرب الأوربى . ومهما يكن من أسباب الحرب بين البابوية والإمبراطورية ، وعنف تلك الحرب ، فإن الاتجاه المتزن نادى دائماً بألا يحارب الأخ أخاه . ولذلك ظهر شعور قوى فى القرن الحادى عشر بالرغبة فى العثور على منفس خارجى تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التى نجمت عن حركة الإحياء الدينى فى غرب أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر . وإذا كان الغربيون قد عرفوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس ، إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية ، وإذا خرجت جماعة من غرب أوربا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالباً أصابع اليد الواحدة[1] . أما القرن الحادى عشر فقد عرف لأول مرة ظاهرة الحج بالجملة « en masse » ، فكان يخرج للحج بضعة مئات تحت زعامة أسقف أو نبيل ، ويتجهون سويا من غرب أوربا فى صورة مظاهرة دينية سلمية قاصدين الأراضى المقدسة بالشام[2] . ومن أبرز هذه الجماعات الكبرى ، تلك التى خرجت من نورمنديا سنة ١٠٦٤ بزعامة رئيس أساقفة مينز ، ثم تلك التى خرجت بزعامة روبرت الأول أمير فلاندرز سنة ١٠٨٩[3] .

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أن الحروب الصليبية التى بدأت الدعوة لها سنة ١٠٩٥ ليست إلا استمراراً لحركة الحج الجماعى إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطور فى الأسلوب ، وهو أن الحج الجماعى صار حربياً بعد أن كان سلمياً . ويدلل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بأنه إذا كان عدد الحجاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ مع رئيس أساقفة مينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم بعض الأسلحة

(1) logra : Hist. des Croisades, pp. 3 - 11.
(2) Setton : A Hist. of the Crusades, vol 1. p. 76.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 269.

للدفاع عن أرواحهم في الطريق ، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب وأية حملة صليبية تالية سوى فى الأسلوب الذى اتبعه كل فريق فى بلاد الشام ؟ أما ذلك التطور فى الأسلوب فمرجعه تلك الأخبار التى أخذت تصل إلى الغرب الأوربى عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد استيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة ١٠٧١ م استيلائهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وطرد البيزنطيين منها ، مما جعل الغرب يؤمن بأنه لابد من استخدام القوة لتأمين عملية الحج إلى الشام[1] .

وأخيراً فإن هناك رأى رابع أخذ به بعض الباحثين ، ورأى فى الحروب الصليبية الوسيلة التى تحايل بها الغرب الأوربى للخروج من أوضاع العصور الوسطى والانطلاق إلى حياة أوسع أفقاً . ذلك أن الغربيين ظلوا طوال العصور الوسطى يعيشون داخل دائرة معينة حددت أفقها الكنيسة تحديداً ضيقاً . وكان كل من يحاول الخروج عن هذه الدائرة يتعرض لغضب الكنيسة وطرده من رحمتها، وبئس المصير . على أن الاتصالات التى تمت بين الغرب الأوربى والمسلمين — سواء المسلمين فى الأندلس أو فى المشرق — أظهرت للأوربيين أن الحياة أوسع أفقاً مما يظنون ، فأخذت نسبة كبيرة من الناس فى غرب أوربا تشعر بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجالها . وهكذا جاءت بشائر النهضة الأوربية الوسيطة فى القرن الحادى عشر مصحوبة برغبة الناس فى التخلص من القيود المفروضة عليهم وتطلعهم إلى حياة أفضل . وكان من المتعذر فى الظروف التى أحاطت بالناس فى غرب أوربا فى ذلك الوقت تحقيق أمنيتهم إلا بالمشاركة فى حركة ضخمة — مثل الحركة الصليبية — تدعو لها البابوية وتؤيدها الكنيسة ، وفى الوقت نفسه تمكنهم من الخروج إلى أرض الله الواسعة للوصول إلى حياة دنيوية أفضل . وبعبارة أخرى

---

(1) Setton: op. cit., vol. I, p. 78.

فقد كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتيحت للغربيين للجمع بين الخلاص فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

هذه هي أهم النوافذالتيأطل منها الباحثون على الحروب الصليبية. ونستطيع نحن فى ضوء الآراء السابقة وغيرها أن نعرف الحركة الصليبية بأنها :

« حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربى المسيحى فى العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربى استعمارى على بلاد المسلمين وبخاصة فى الشرق الأدنى بقصد امتلاكها . وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والإجتماعية والإقتصادية والدينية التى سادت غرب أوربا فى القرن الحادى عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين فى الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق » .

أدوار الحركة الصليبية ومداها الزمنى :

جرى الوضع فى كتب التاريخ على تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بين سنتى ١٠٩٥ ، ١٢٩١ . ولكن هذا التحديد فى الواقع لايعنى سوى الدور الحاسم التقليدى فى تلك الحركة ، وهو الدور الواقع بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام . وسنرى أن الحركة الصليبية بمعناها الواسع لها جذور ومقدمات سبقت سنة ١٠٩٥ زمنياً ، كما أن التيار الصليبي استمر بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ ، الأمر الذى ترتب عليه عدم توقف الحرب الصليبية طوال القرن الرابع عشر وشطر كبير من القرن الخامس عشر . ومن هذا يبدو أن تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بين سنتى ١٠٩٥، ١٢٩١ إنما هو تحديد خاطىء لايقوم على أساس سليم ولايعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة ، وإنما يكتفى بعلاج مبتور يشمل جزءا من تلك الحركة ، لايعبر عن جذورها وأصولها من ناحية ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخرى .

ومن ناحية أخرى يلاحظ عـدم صحة ماجرى العرف عليه من تحديد عددالحملات الصليبية التى خرجت من الغرب إلى الشرق فى المدة الواقعة بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر بثمان حملات . والواقع أنه غـير معروف بالضبط لماذا فازت بعض الحملات بترقيم عددى فى التاريخ دون البعض الآخر . فمنذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧ ، لم يمر عام واحد دون مجيء جموع صليبية جديدة ، وبعض هذه الجموع فاقت فى كثرة أعدادها وفى أهمية ماحققته من نجاح الحملات الصليبية المألوفة التى فازت بأرقام فى التاريخ ، ومع ذلك فإن معظم هذه الجموع أو الحملات لم تمنح أرقاماً تضفى عليها قسطا من الأهمية فى التاريخ .(1)

أما الحملات الثمان التى فازت بأرقام عددية ميزتها فى التاريخ ، فقد اتجهت أربع منها نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) واثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) ، وأخرى نزلت بشمال افريقية (الثامنة) . ولا يعرف على وجه التحديد السبب فى تمييز هذه الحملات بإعطائها أرقاماً عددية دون غيرها من الحملات ، وإن كان يبدو أن السر فى هذا التمييز إنما يرجع إلى ماحصلت عليه من شهرة بسبب ماحققته من نجاح فى الأراضى المقدسة (مثل الحملة الأولى) أو ما كان لها من اتجاه خاص جديد غير مألوف فى غيرها من الحمـلات الصليبية (الرابعة والخامسة)؛ أو لخروجها تحت زعامة كبار ملوك الغرب (الثانية والثالثة والسادسة والسابعة والثامنة) .

---

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 3.

الفصل الثانى

بواعث الحركة الصليبية

يتضح من تعريفنا للحركة الصليبية أن هذه الحركة دفعتها بواعث حقيقية وأسباب قوية ، انبعثت من صميم المجتمع الأوربى الغربى . حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين عنـــدما تعرضوا لضغط السلاجقة وغزوهم لأراضى الإمبراطورية استعانوا بالبابوية وطلبوا النجدة العاجلة من الغرب الأوربى ؛ ولـكن لو لم يكن لدى الغرب عندئذ أسباب قوية جعلته يتحرك لما لبى نداء الاستغاثة ولما استجاب لدعوة الامبراطورية البيزنطيـة فى تلك السرعة والقوة .

وسنحاول فى هذا الفصل أن نلقى نظرة سريعة على البواعث التى أدت بغرب أوربا إلى القيام بحركة من أهم الحركات فى تاريخ البشرية بوجه عام ، وفى تاريخ العصور الوسطي على وجه التحديد .

الباعث الدينى :

اعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هى زاوية الدين ، وأن يعالجوها علاجا مبتورا فى ضـــوء العامل الدينى وحده ؛ متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية . من ذلك أن ريان Riant عرف الحروب الصليبية بأنها « حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالشام » .[1]

(1) Archives de l'Orient Latin, I, ps. 2, 22,

حقيقة إن الحركة الصليبية لها فى اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التى كيفت بعض أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها ؛ ولكن ليس معنى هذا أن التيار الدينى هو المسئول الوحيد عند إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة الموجهة لها . وإن المدقق فى تاريخ الحروب الصليبية ليسترعي نظره أن الروح الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت فى بعض حلقاتها ، وأن الباعث الدينى كثيراً ماذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص(١) .

وللوقوف على قيمة الباعث الدينى فى الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل أوضاع الحياة فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى ، وما اعترى تلك الأوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادى عشر ، وذلك حتى لا ننزلق فى الطريق نفسه الذى انزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين ؛ وهم الذين اعتادوا أن يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة فى سوء أحوال المسيحيين فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ، وكيف أن كنائسهم خربت، وأديرتهم أغلقت، وطقوسهم عطلت . . . فضلا عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات،وما تعرضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الإسلامية التى مروا بها .

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضلل بعيد عن الحقيقة والتاريخ ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها لا أساس له من الصحة ؛ بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية من هذا الباب الوهمى كفيل بأن يصرف الباحث عن المدخل الحقيقى للموضوع. فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون— الشرقيون والغربيون — فى البلدان الإسلامية،إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades pp. 1-2.

الإسلام وطبيعة الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية وعناية ، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة « فإن أسلموا فقد إهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد [1] » .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً فى كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة هانئة ، تشهد عليها الرسالة التى بعث بها ثيودسيوس بطرق بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطرق القسطنطينية ، والتى امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أى تدخل فى شئونهم الخاصة . وذكر بطرق بيت المقدس بالحرف الواحد فى رسالته: « إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت » [2] حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً فى بعض البلدان الإسلامية لنوع من الضغط أو الاضطهاد ، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التى حرص الإسلام دائماً عليها ، وهى التسامح المطلق مع أهل الكتاب . وإذا كان بعض المؤلفين الأوربيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلا على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين فى عصر الحروب الصليبية ، فلعل هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صحب إنتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من إضطهادات لإرغام غير المسيحيين على إعتناق المسيحية ، وما قام به شارلمان فى القرن الثامن من فرض المسيحية

---

(١) « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ؛ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب . وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لا حجة بيننا وبينكم ؛ الله يجمع بيننا وإليه المصير » . (سورة الشورى ١٤ ، ١٥)

(2) Thompson: Economic and Social Hist. vol. 1, p. 385.

على السكسون والبافاريين والآفار بحد السيف، حتى أنه قتل من السكسون وحدهم فى مذبحة فردن الشهيرة أكثر أربعة آلاف فى جملة واحدة؛ وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة فى محاولتهم نشر المسيحية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطىء البحر البلطى (١). هذا كله فضلا عما أتاه المبشرون الجزويت فى القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية فى الهند (٢).

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوربيين إن حالات الاضطهاد الفردية التى تعرض لها المسيحيون فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأى حال سببا حقيقيا للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية فى ظل الحكم الإسلامى، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا فى مكتباتها كتباً دينية متنوعة فى اللاهوت (٣). ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التى عومل بها المسيحيون فى البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقا ما قام به رجل عرف بشذوذه — مثل الخليفة الحاكم بأمر الله — من تصرفات تجاه أهل الذمة. ولم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون فى مصر والشام يحظون بما ألفوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة فى بيت المقدس، ثم وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة فى أمن وسلام (٤).

(١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٩، ١٩٤، ٦٤٣، ٦٤٩

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣١.

(3) Vasiliev: Byzantine Empire, I, p. 393.

(4) Setton. op. cit, vol. I, p. 74.

وإذا كان دعاة الحروب الصليبيةفى أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم فى غرب أوربا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين فى آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحى منصف قرروا فى صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين فى الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالا من إخوانهم الذين عاشوا فى قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها ؛ « وأن ما اعترى المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى من متاعب فى ذلك العصر ، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم [1] » .

ولكن هل معنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر فى تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من كلامى السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماما عند الكلام عن القوى التى وجهت الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر ؟ الواقع أننى لم أقصد ذلك مطلقا وإنما أردت أن أصحح اعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عندمعالجة موضوع الحركة الصليبية . أما الإعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقا القول بأن هناك اضطهاد فريد فى نوعه حل بالمسيحيين فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سببا لاستثارة الغرب الأوربى . وإذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى — وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه — قد استغلوا فكرة الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلى فى الدعاية لمشروعهم فى غرب أوربا ، فإن عامة الناس فى مختلف بلدان الغرب الأوربى لم يكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين فى البلدان الإسلامية . والاعتبار الثانى هو أنه لا صحة إطلاقا للفكرة الخيالية

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, vol. I; p. 391.

التى ظلت سائدة أمدا طويلا والتى صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوربا إلى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادى عشر فى صورة المسيحيين المخلصين، الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجرة الوطن والأهل والأحباب فى سبيل تحقيق رسالة دينية سامية ، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد فى سبيله .

حقيقة إن العصور الوسطى فى الغرب الأوربى عرفت فى التاريخ باسم «عصور الإيمان» ، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس فى غرب أوربا فى تلك العصور ؛ وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا هى التي دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥، وأن هذه الدعوة ترتب عليها ماحدث من خروج الناس أفواجا فى شكل حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى الشرق الأدنى . ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأراضى المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذى دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة ، ودفع جموع الناس — من أمراء وعامة — إلى تلبية نداء البابا فى سهولة ويسر، والخروج أفواجا من غرب أوربا قاصدين الشرق الأدنى .

أما عن البابوية فكانت قد بلغت فى القرن الحادى عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ، مما فتح أمامها آفاقا واسعة لتجعل سلطاتها عالمية ، بمعنى أن يكون البابا — بوصفه خليفة المسيح والقديس بطرس — الزعيم الروحي لجميع المسيحيين فى الشرق والغرب[1] . والمعروف أن البابوية ظلت دائما ترغب فى إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها ، ولكن النزاع الذى استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى، جعل من

(1) Vasiliev ; op. cit, II. p. 397

المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وإزالة ما بينهما من شقاق[١]: وأخيرا جاء استنجاد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربى ضد السلاجقة فى القرن الحادى عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور فى صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحى كافة فى صراعه ضد المسلمين، ولمحاولة إدماج الكنيسة الشرقية فى الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضى المقدسة فى فاسطين[٢].

هذا عن البابوية، أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى، فلم يكن الهدف الدينى هو الباعث الرئيسى الذى دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة فى الحركة الصليبية. وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بأن غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا فى الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية، وإما للخلاص من حياة الفقر التى كانوا يحيونها فى بلادهم فى ظل النظام الإقطاعى، وإما للتهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها، وإما فرارا من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى بلاد الشرق[٣]. وأى وازع دينى كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الرابعة، والذين اتجهوا نحو القسطنطينية — وهو البلد المسيحى الكبير — لينهبوا كنائسها، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب وهم جميعاً إخوانهم فى الدين؟؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج١ ص١٥٢-١٥٦، ٤٣٦-٤٣٧.
(2) Ostrogorsky : Hist. of Byzantine State, p. 320.
(2) Thompson : op. cit., vol. 1, p. 302

نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعلينا بالبحث فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر .

الباعث الاقتصادى

أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادى وأهميته فى تحريك كثير من الهجرات والحروب الهامة فى التاريخ . ونحن مع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، نميل إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادى بالذات فى تلك الحركة .

ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية فى غرب أوربا — وبخاصة فرنسا — فى أواخر القرن الحادى عشر . فالمؤرخ المعاصر جيوبرت نوجنت Guibert Nogent يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعانى مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فندر وجود الغلال وارتفعت أثمانها ارتفاعا فاحشا مما ترتب عليه حدوث أزمة فى الخبز . وفى ضوء هذه الحتمية يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين فى الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أى بلد آخر من بلدان غرب أوربا .

ومهما يقال من أن هذه الأزمة كانت مفتعلة ، افتعلها التجار المستغلون — وجلهم من اليهود — فالذى يهمنا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلا فى الغرب الأوربى عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، وأن هذه الأزمة ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش[1] . وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية فى الغرب الأوربى فى ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ، وهى الحروب التى لم تنجح الكنيسة أو الملوك فى وقفها ، مما أضر بالتجارة وطرقها

(1) Thompson : op. cit., I. p. 392

والزراعة وحقولها أبلغ الضرر . وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى فى غرب أوربا بابا جديداً للهجرة ، وطريقا للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى عاشوا فيها داخل أوطانهم .

ولم يكن عجباً أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعا غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدى القانون . وجميعهم كانوا يفكرون بوحى من بطونهم لا بوحى من دينهم ، بدليل ما أتوه طوال طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التى مروا بأراضيها ، مما يتعارض مع أى وازع دينى .

ثم إن الباحث فى تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منقطعة النظير من جانب المدن التجارية — فى إيطاليا وغير إيطاليا من الغرب الأوربى — للمساهمة فى تلك الحركة، سواء بعرض خدماتها لنقل الصليبيين عن طريق البحر إلى الشرق، أو فى نقل المؤن والأسلحة وكافة الإمدادات إلى الصليبيين بالشام ، أو مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانى البحرية ببلاد الشام، وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانى ضد هجمات الأساطيل الإسلامية . وهنا أيضاً نستطيع أن نقرر أن جمهوريات إيطاليا البحرية لم تكن مدفوعة إلى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع دينى ، وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة، ورأت فى الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً[1] . وسنرى فى صفحات هذا الكتاب أن البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى ، فوجهتها نحو غزو القسطنطينية — وهى البلد المسيحى الآمن — بدلا من أن تتركها تسير

(1) Heyd : Hist du Commerce, I, pp. 131 - 133.

فى طريقها الطبيعى المرسوم لها ضد المسلمين . وكان ذلك عندما رأت البندقية أن مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر .

والواقع إن الصليبيين بالشام كانوا لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة أساطيل « الثلاثة الكبار » — البندقية وجنو وبيزا — حيث أن هذه الأساطيل قامت بدور فعال فى ربط بلاد الشـــام الصليبية بالغرب الأوربى . وإذا كانت هذه الجمهوريات الإيطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين ، فإنها لم تفعل ذلك إكراما للكنيسة وابتغاء لمرضاة الله ، وإنما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية بالشام وحصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة . فى معظم موانى الشام ومدنه الكبرى التى استولى عليها الصليبيون ، تمتعت المدن الإيطالية التجارية بإعفاءات خاصة ، فضلا عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الإيطالية التى قدمت خدماتها لحاكم الإمارة الصليبية التى يتبعها الميناء . ولم تلبث مرسليا بجنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الإيطالية فحصلت على امتيازات كبيرة لتجارها فى عديد المدن الصليبية بالشام ، إذ منح الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس تجـــار مرسليا حيا خاصا بهم فى مدينة القدس ذاتهـا سنة ١١١٧ ، ثم أعفاهم الملك فولك من الضرائب بعد ذلك ، حتى لجـــأ الملك بلدوين الثالث سنة ١١٥٢ إلى منحهم امتيازات وإعفاءات من الضرائب فى كافة الموانى الصليبية فى فلسطين .

وهكذا اصطبغت الحركة الصليبية من أول أمرها بصبغة اقتصادية استغلالية واضحة . فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق ، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب وحرب المسلمين ، وإنما جريا وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم فى قلب الوطن العربى ، بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها ، والحصول على أكبر قدر ممكن من

الثروة . حقيقة أن الإستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الإنقلاب الصناعى فى القرن الثامن عشر ، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الاستعمار منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدامى . وفى العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية « أول تجربة فى الاستعمار الغربى قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق » ؛ وذلك على قول أحد المؤرخين المحدثين (١) .

وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغلالية على عقول كثير ممن أسهموا فى الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات — بل حروب أهلية — بين الصليبيين بعضهم وبعض فى بلاد الشام . وقد استمرت هذه الحروب وبخاصة بين الثلاثة الكبار ـ البندقية وجنوا وبيزا ـ فى أشد الأوقات حرجا بالنسبة للصليبيين ؛ أى فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر عندما أخذت البقايا الصليبية بالشام تتساقط فى أيدى المسلمين واحدة بعد أخرى .

وعبثا ذهبت صيحات العقلاء من البابوات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذى يوشك أن يعصف بهم جميعاً ؛ فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الاستعماريين بعضهم وبعض أعمق جذوراً وأقوى أثراً وأكثر نفعا من شعور الولاء للدين والكنيسة .

الباعث الاجتماعى :

تألف المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى من ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين — من الكنسيين والديريين — ، وطبقة المحاربين — من النبلاء

(1) Thompson : Economic and Social Hist., I, p 397.

والفرسان — ، وطبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض . وكانت الطبقتان الأولتان أقلية تمثل فى مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الإجتماعية ، فى حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية المغلوبة على أمرها ، والتى كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين (١) .

والواقع إن آلاف الفلاحين عاشوا فى غرب أوربا عيشة منحطة فى ظل نظام الضيعة ، حيث شيدوا لإنفسهم أكواخاً قذرة من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش ، دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أثاث ، عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية والمعدنية (٢) . وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والأقنان الذين ارتبطوا ارتباطا وراثياً بالأرض التى يعملون عليها ، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادىء الحرية الشخصية ، فكل مايجمعه القن يعتبر ملكا خاصا للسيد الإقطاعى لأن القن محروم ، حتى من الملكية الشخصية (٣) .

ثم إن أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات ، فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيد الإقطاعى مثل فلاحة أرضه الخاصة ، فضلا عن تسخيرهم فى أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر . كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس التى يتعين على كل قن دفعها سنويا رمزاً لعبوديته ، هذا عدا الضرائب المفروضة

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٦٣ .

(2) Boissonade : Life and Work in Med. Europe. p 85

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٧٧ — ٧٩ .

على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضروات[١]. فإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التي ألزم الفلاحون بقبولها، أدركنا مدى الهوان والذلة التي عاشت فيها غالبية الشعب الأوربي في القرن الحادي عشر. فالسيد الإقطاعي صاحب الضيعة هو الذي يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة بل أحيانا البئر الوحيد في الضيعة. وفي هذه الحالة يصبح كل قن ملزما باحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها، ويحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها... كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأقنان والفلاحون لسيدهم الإقطاعي، وهم صاغرون. فإذا امتلك فلاح طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التي من حق السيد الإقطاعي وحده أن يحتكرها، صار ذلك جرما خطيرا يحاكم عليه[٢].

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس في غرب أوربا يحيون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان. وكان ذلك في الوقت الذي علت الدعوة للحرب الصليبية، فوجدت تلك الألوف من البؤساء في الغرب الأوربي فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا. ومهما يكن في الدعوة الجديدة من أخطار، فإن أخطارها هانت أمام الفاقة والهوان والذلة التي كتب على جمهرة العوام أن يعيشوا فيها في غرب أوربا دون أمل في الخلاص. فإذا ماتوا في تلك الحرب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية. وإن وصلوا إلى الأراضي المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأي حال أسوأ من حياتهم التي يحيونها فعلا في بلادهم الأصلية.

---

(1) Heaton : Economic Hist. of Europe, p. 95

(2) Painter : Med. Society, p. 51

ومن هذا يبدو جليا أنه إذا كانت ألوف العامة من أهل غرب أوربا قد أسهموا فى الحركة الصليبية ، فإنما دفعتهم إلى ذلك عوامل اجتماعية واقتصادية هامة ، فوجدوا فى تلك الحركة منفذا إلى حياة أفضل . ونستطيع أن نقرر أنه لو تيسرت لتلك الجموع فى بلادهم الأصلية حياة حرة وقدراً مناسباً من كرامة العيش ، لما غامروا بترك أوطانهم جريا وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة فى تقديمها .

الباعث السياسى :

ولكن إذا كانت الفاقة والحرمان والذل والهوان هى التى دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة فى الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل، فما الدافع الذى دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوربا وأمرائها وفرسانها إلى المشاركة فى تلك الحركة ؟ .

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا فى الحروب الصليبية مثل فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس وفردريك الثانى ، فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها ، بل بتهديدها . وربما كان هذا الحكم بعيداً عن الصحة فى حالة واحدة هى حالة لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقديس ، والذى أراد أن يعبر عن حماسته الدينية تعبيراً عمليا بالمشاركة فى الحركة الصليبية مشاركة فعالة . أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوربا وتاريخ الحركة الصليبية يشهد على السفارات العديدة التى دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوربا يلحون عليهم فى الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين .

وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوربى فى تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيدا مدى قوة البابوية وعظم سلطانها ، وأن ملكا من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمرا أو يرد لها طلبا ، وإلا تعرض للحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها ، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولاء شعبه . وأبرز مثل لدينا الامبراطور فردريك الثانى الذى أخذ البابوات واحداً بعد آخر يلحون عليه فى الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين . ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان ؛ وعندئذ خرج الإمبراطور — مكرها لا بطل — على رأس فئة قليلة من رجاله قاصدا الشام ، وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبى ليشرح له موقفه وأنه « ماله غرض فى القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج ! »[1] .

هذا عن الملوك ، أما الأمراء الذين أسهموا فى الحركة الصليبية ، فمعظمهم كان يجرى وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استقرارهم فيه . والمعروف أن النظام الإقطاعى ارتبط دائماً بالأرض ، وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية فى المجتمع . وفى ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التى يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هي عدم وجود إقطاع أو أرض له ، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ . وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعى فى الغرب الأوربى إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض ، لأنه من القواعد الأساسية فى هذا النظام أن الإبن الأكبر وحده هو الذى يرث الإقطاع ، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه[2] . ومن الواضح أن هذا المبدأ يعنى بقاء

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٤٩

بقية الأبناء بدون أرض ، وهو وضع ممقوت فى المجتمع الإقطاعى ؛ الأمر الذى جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع . وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح بابا جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض فى غرب أوربا ، فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة فى تلك الحركة لعلهم ينجحون فى تأسيس إمارات لأنفسهم فى الشرق تعوضهم عما فاتهم فى الغرب . حتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيهم فى بلادهم الأصلية ، وجدوا فى المشاركة فى الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم .

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمراء الغربيين الذين أسهموا فى الحركة الصليبية من الخلافات التى كثيراً ما دبت بينهم وبين بعض ، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبى . وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمراء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يقسمون الغنيمة وهم فى طريقهم إلى الشام ، أى قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلا ، وكيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية من أجل رغبة كل منهم فى الفوز بها ، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً فى الطريق قنع بذلك الكسب وتخلى من مشاركة إخوانه الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس ، وهو الهدف الأساسى للحملة . كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن استقروا فى بلاد الشام كثيراً ما دب الخلاف فيما بينهم حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة . وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمراء الصليبيين بالشام أن المسلمين يحيطون بهم ، وأن الواجب يستدعى تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم . ولكن تلك الصيحات ذهبت مع الريح لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً ، ولم يكن يهمهم كثيراً رضاء البابا أو سخطه . بل إن بعض الأمراء الصليبيين بالشام لم يحجموا ـ كما سنرى ـ عن

الباب الثانى

المسلمون والمسيحيون حتى نهاية القرن الحادى عشر

«لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون».

(المائدة ، ٨٢)

الفصل الأول

الإســـلام والمسيحية

الأستاذة الدكتورة
إسمت غنيم

التوسع الإسلامي وأثره في العالم المسيحي

شهد القرن السادس للميلاد حدثاً خطيراً فى تاريخ البشرية ،هو مولد خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والســـلام ، ثم بعثه للتبشير بديانة جديدة شعارها [لا إله إلا الله — محمد رسول الله] . ولم تلبث هذه الدعوة أن نجحت فى وضع حد للفوضى الاجتماعية والسياسية التى عاش فيها عرب شبه الجزيرة قروناً عديدة، فصاروا يخضعون جميعاً لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد فى جو من الوئام والألفة .

ولـكن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم، لأن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداً شاهداً ومبشراً ونذيراً ليهدى الناس كافة إلى الإسلام. ولذلك غدت مهمة الرسول بعد أن استقرت له الأمور فى شبه الجزيرة العربية أن يدعو بقية الأمم لاعتناق الإسلام والإيمان برسالته . ويبدو أن بعض السفراء الذين أوفدهم النبى عليه الصلاة والسلام إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراضاً وأذى مما جعل النبي يعد العدة للجهاد ، وإن كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد وتتسع إلا بعد وفاة النبي نفسه سنة ٦٣٢ (٢) .

وكان أن أخذ العرب يهاجمون الفرس والروم فى وقت واحد، وهم أصحاب أكبر امبراطوريتين شهدهما التاريخ فى ذلك الوقت . وإذا كان الاحتكاك بين

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٧٠ .

المسلمين والروم قد بدأ فعلا فى بادية الشام سنة ٦٢٩. إلا أن الحرب بين الطرفين لم تتخذ طابعاً جديا إلا فى عهد الخليفة أبى بكر الذى عهد إلى أبى عبيدة الجراح بمحاربة الروم وغزو الشام سنة ٦٣٢ . وقد حاول هرقل امبراطور الروم إرسال قوة بقيادة أخيه تيودور لإنقاذ موقف الامبراطورية المتداعى فى فلسطين، ولكن القائد العربى خالد بن الوليد ـ الذى كان يعمل ضد الفرس فى العراق ـ أتى مسرعاً مما أدى إلى إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية فى موقعة أجنادين سنة ٦٣٤ [١].
وعندما توفى أبو بكر فى السنة السابقة خلفه عمر (٦٣٤ ـ ٦٤٤) الذى اتسعت الفتوح الإسلامية فى عهده ، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل . وهنا أدرك هرقل خطر تلك الحركة الجديدة ، فحشد ثمانين ألفاً من من رجاله لقتال العرب . ولكن خالداً أنزل هزيمة جديدة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ [٢] . وقد خيل لهرقل فى تلك المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطى بنفسه ضد المسلمين، ولكنه سرعان ماأحس بعجزه عن النهوض بذلك الحمل الشاق بعد أن جاوز الخمسين من عمره ودب الخور فى جسده . وإذا كان هرقل قد قضى سنتى ٦٣٥ ، ٦٣٦ فى جبهة الشام ، إلا أنه أيقن صعوبة مقاومة العرب ، فترك بيت المقدس تقع فى أيديهم (٦٣٧ ـ ٦٣٨). ولم تلبث المدن والمعاقل الهامة الموجودة فى أطراف العراق والشام ـ مثل ماردين والرها وميافارقين ـ أن سقطت فى قبضة العرب (٦٣٨ ـ ٦٣٩) ثم استولى العرب على قيصرية سنة ٦٤٠ ، وبذلك فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس [٣].

وبعد ذلك جاء دور مصر ففتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١ . ويعتبر فتح مصر بالذات دليلا واضحاً على مدى نجاح تلك القوة الجديدة ، كما يتخذ برهاناً

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٣ هـ.
(٢) الواقدى : فتوح الشام ج ١ ص ١٦٥ .
(3) Vasiliev: op. cit., 1. p. 211

قوياً على مدى ضعف الإمبراطورية البيزنطية وانحلالها السياسى[1]. وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام فى جوف الدولة الإسلامية الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠، ومن ثم استأنف العرب فتوحاتهم بنفس القوة والنشاط. ثم أخذ العرب فى فتح ولاية إفريقية سنة ٦٦٤، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة البلاد «فدخل كثير من البربر فى الإسلام واتسعت خطة المسلمين، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان»[2]. وكانت حروب المسلمين فى إفريقية طويلة وشاقة، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب، بل كان عليهم أيضاً إخضاع البربر المعروفين بقوة المراس. ومهما يكن من أمر فإن قرطاجة سقطت اخيراً فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧؛ وإن كان نفوذ الخلافة الإسلامية لم يستقر تماماً فى شمال افريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير.

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال افريقية حتى المحيط الأطلسى، وإنما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا سنة ٧١١، كما عبر طارق بن زياد المضيق الذى عرف باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتى ٧١١، ٧١٣[3]. وبفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية، إذ فقدت بلاداً ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر، فضلا عن بلاد أخرى كانت بمثابة أعضاء أساسية فى العالم المسيحى مثل شمال افريقية وأسبانيا. وفى جميع البلاد التى فتحها العرب أقبلت نسبة كبيرة من الأهالى على اعتناق الإسلام « عن اختيار وإرادة حرة »، كما يقول أحد المستشرقين[4].

(1) Butler; The Arab Conquest of Egypt, p. 205

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠ هـ .

(3 Dozy; Moslems in Spain, p. 232

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٥١ .

والمعروف أن الإسلام احترم المسيحية احتراماً بالغاً ، وكرم نبيها عيسى بن مريم عليه السلام تكريماً لم يحظ به أحد غيره من الأنبياء السابقين ، فنادى القرآن بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا . ولكن المسيحيين المعاصرين لم يفهموا طبيعة الديانة الجديدة التى بشر بها محمد عليه الصلاة والسلام ، وكل ما أدركوه هو أن أتباع محمد خرجوا من شبه الجزيرة العربية ليبتلعوا بلداً بعد آخر من البلدان التى كانت المسيحية قد سبقت إليها ، وانتشرت فيها ، وصارت تعتز ببقائها فى حوزتها . وبعبارة أخرى فإن الكنيسة ورجالها لم يروا فى الإسلام والمسلمين إلا خطراً جاثماً هددهم وهدد كيانهم ، فراحت الكنيسة تدعى أن الإسلام إنما انتشر بحد السيف، وأن الغزوات الإسلامية إنما استهدفت إجبار الناس على اعتناق الديانة الجديدة . وهكذا خلطت الكنيسة ورجالها بين انتشار الديانة الإسلامية وانتشار نفوذ العرب السياسى ، وتجاهلت حقيقة كبرى اعترف بها جمهرة المستشرقين اليوم ، هي أن نفوذ العرب السياسى هو الذى انتشر بحد السيف، أما الديانة الإسلامية نفسها فلها من سلامة المنطق وقوة الحجة ما جعل غالبية أهل البلاد المفتوحة يدخلون فى دين الله أفواجاً[1] . ولو حاول رجال الكنيسة المعاصرون أن يتفهموا طبيعة الديانة الإسلامية وروحها لوجدوا أكثر من آية فى القرآن الكريم — وهو دستور الإسلام والمسلمين — تأمر الرسول بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن « فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

ومهما يكن من أمر ، فإن رجال الكنيسة لم يستطيعوا حتى نهاية العصور الوسطي أن ينسوا الخسارة التى لحقت بهم وبكنيستهم نتيجة لانتشار الإسلام ، مما جعلهم يشعرون دائماً بالرغبة فى الانتقام من الإسلام والمسلمين .

---

(1) Cam, Med. Hist. vol. 4, p. 330.

الصراع بين المسلمين والبيزنطيين حتى القرن العاشر :

وكانت الدولة البيزنطية — أو دولة الروم — أقرب القوى المسيحية إلى حدود المسلمين ، إذ ربطتها بالدولة الإسلامية الناشئة علاقات مباشرة وفصلت بينهما حدود مباشرة أيضاً ، مما جعل الإحتكاك لا ينقطع بين القوتين . وعندما وجد المسلمون أن خصومهم يمتلكون قوة بحرية كبيرة هددت شواطىء دولتهم الجديدة ، أسرعوا إلى ممارسة ركوب البحر والاهتمام بأمر الأساطيل البحرية . ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية لها حسابها فى البحر المتوسط ، فغزوا جزيرة قبرص سنة ٦٤٨ وأغاروا على الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى تمكنوا من إنزال هزيمة كبرى بالاسطول البيزنطى فى موقعة ذات الصوارى سنة ٦٥٥ (١) .

وإذا كانت الظروف التى تعرضت لها الدولة الإسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بمهاجمة القسطنطينية نفسها عقب موقعة ذات الصوارى مباشرة ؛ فإن الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً على نطاق واسع ، حتى وصلت إغاراتهم إلى بحر إيجه سنة ٦٦٥ . ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا عندئذ خبرة كافية بفنون البحر ، جعلتهم يعبرون إلى تراقيا (٦٦٨ — ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها . كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرص ورودس وغيرها من المواقع البحرية الحصينة فى بحر إيجه ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ — ٦٧٨) ، ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية عندئذ من السقوط فى أيدى المسلمين سوى اختراع النار الإغريقية التى أنزلت بالسفن الإسلامية ضرراً جسيماً (٢) .

---

(1) Ostrogorsky ; Hist. of the Byzantine State, p. 104.

(2) Vasiliev ; op. cit., vol. I, p. 214.

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية براً وبحراً حتى كان أوائل القرن الثامن ، وعندئذ اعتقد الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ — ٧١٧) أن الوقت حان للقيام بحملة كبرى تمكن المسلمين من الإستيلاء على القسطنطينية والإحاطة بالإمبراطورية البيزنطية . وقد اختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على رأس تلك الحملة التى شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته إلى الشاطىء الأوربى سنة ٧١٧ . وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، أحكم الأسطول الإسلامى حصاره على المدينة من ناحية البحر حتى كادت القسطنطينية تقع فى أيدى المسلمين لولا صمود الإمبراطور ليو الأيسورى واستعانته بالنار الإغريقية التى لعبت دورها مرة أخرى فى تشتيت سفن المسلمين . وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف القوات الإسلامية « أرسل إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول بمن معه من المسلمين » ، فانسحب المسلمون سنة ٧١٨ ، بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (١) .

ويبدو أن فشل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن شجع البيزنطيين على دفع خطر المسلمين تدريجياً عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ منتهزاً فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية فى خريف عمرها . وفى العلم التالى أحرز البيزنطيون نصراً بحرياً على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرص (٢) . ثم لم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية فى بغداد. وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزاً لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضى البيزنطية ، بحيث كان الخطر الإسلامى على الدولة البيزنطية

---

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٩٩ هـ

(2) Cam. Med. Hist. vol 4, p. 12.

شديداً وملموساً فى العصر الأموى . ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل الدولة البيزنطية وأراضيها أكثر بعداً عن قلب الدولة الإسلامية، ومن ثم قل تهديد المسلمين لحدود الدولة البيزنطية بصورة واضحة فى العصر العباسى .

وليس معنى هذا أن العداء توقف بين المسلمين والبيزنطيين بعد سنة ٧٥٠، إذ نسمع أن الامبراطور البيزنطى ليو الرابع هاجم المسلمين شرقى الأناضول سنة ٧٧٨ ، فردعليه الخليفة المهدى العباسى بمهاجمة أراضى البيزنطيين فى العام التالى(١) . ثم اشتدت إغارات المسلمين على أراضى الدولة البيزنطية فى عهد الخليفة هارون الرشيد، فاجتاحت الجيوش العباسية آسيا الصغرى سنة ٧٨٦ حتى بلغت البسفور، دون أن تستطيع الامبراطورة إيرين التغلب على ذلك الخطر، مما دفعها إلى شراء الصلح من المسلمين مرة بعد أخرى مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية ضخمة من المال .

وقد رفض الإمبراطور البيزنطى نقفور الأول (٨٠٢ـ٨١١) الاستمرار فى دفع الجزية التى تعهدت بها إيرين ، مما جعل العباسيين يجددون هجماتهم على الدولة البيزنطية(٢). وفى ذلك الوقت استطاع مسلمو الأندلس الاستيلاء على جزيرة كريت (٨٢٣ ـ ٨٢٥) ، فظلت الجزيرة بأيدى المسلمين مدة تربو عن قرن وربع دون أن يستطيع الآباطرة البيزنطيون استرداد الجزيرة. ومن الواضح أن ضياع جزيرة كريت جاء ضربة قاسية للتجارة الامبراطورية فى بحر إيجة ، لاسيما وأن المسلمين من شمال أفريقية غزوا جزيرة صقلية سنة ٨٢٧، مما مكنهم من

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ١٦٣ هـ ، سنة ١٦٥ هـ .

(٢) يروى ابن الاثير أن نقفور بعد أن استتبت له الأمور كتب إلى الرشيد يقول « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق؛ فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها ، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ؛ وإذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها ؛ وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك . وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

السيطرة على طريق الملاحة فى البحر المتوسط(١) . هذا إلى أن المسلمين الذين سيطروا على كريت استغلوا موقع تلك الجزيرة فى تهديد قلب الامبراطورية البيزنطية كما حدث سنة ٩٠٤ عندما خرجت السفن الإسلامية من كريت لغزو مدينة سالونيكا فى البلقان ، ونجح المسلمون فعلا فى السيطرة على هذه المدينة بعض الوقت فى أوائل القرن العاشر(٢) .

وعندما ظن الامبراطور البيزنطى ثيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢) أن العباسيين أمسوا بعد وفاة الرشيد فى حالة من الضعف لا تمكنهم من الدفاع عن دولتهم، أخذ يهاجم الدولة العباسية ، واستفز الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) بإيواء بعض الهاربين من وجه الخليفة ، مما أثار حربا متقطعة بين الطرفين استمرت أكثر من ثلاثين سنة . وقد بدأ الخليفة المأمون بغزو الجهات القريبة من الدولة البيزنطية حتى وصلت جيوشه هرقلة سنة ٨٣١ ، فى الوقت الذى أغارت الأساطيل العباسية على الجزر القريبة من الشاطىء الغربى لآسيا الصغرى(٣) ويبدو أن حماسة الخليفة المأمون لحرب البيزنطيين دفعته إلى أن يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات فى آسيا الصغرى ، فاستولى على ممرات طوروس ثم على مدينة الطوانة (Tyana)العظمية التى اتخذها قاعدة لعملياته الحربية فى تلك الجهات(٤) . على أن حسن حظ الامبراطور شاء أن يموت المأمون فى تلك المرحلة بعد أن أرسل إليه ثيوفيل رسلا يطلبون الصلح ، فانسحبت الجيوش الإسلامية إلى طرسوس بعد أن أخلت البلاد التى فتحتها وراء جبال طوروس(٥).

---

(1) Ostrogorsky ; op. cit, p. 182, 185.

(2) Schlumberger ; Recits de Byzance et des Croisades 1, pp. 13 – 23.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنتى ٢١٥ هـ ، ٢١٦ هـ .

(4) Cam. Med. Hist. vol. 4, ps 36, 128.

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢١٨ هـ .

وكان أن ظهر ضعف الخلافة العباسية واضحا فى عصر الخليفة المعتصم ، وعندئذ استطاع ثيوفيل أن يتحول من الدفاع إلى الهجوم ، فهاجم أعالى الشام ومابين النهرين حتى بلغ زبطرة وقتل من فيهـا من المسلمين ،وأغار على ملطية وغيرها من المدن والحصون المجاورة « وسبى المسلمات ومثل بمن صارفى يده من المسلمين ، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم » . ولم تلبث جرأة البيزنطيين فى مهاجمـة أراضى الدولة الإسلامية وإغاراتهم على مدينة زبطرة ـ مسقط رأس الخليفة المعتصم ـ أن استثارت الخليفة ، فنزل بنفسه إلى ميدان المعركة سنة ٨٣٨ على رأس جيش كثيف،بعد أن أقسم على تدمير مدينة عمورية ـ مسقط رأس الامبراطور وأسرته ـ « وهى أشرف عندهم من القسطنطينية » . وقد أسرع ثيوفيل لإنقاذ بلدته ، ولـكن الهزيمة حلت بجيوشه،واستطاع المسلمون الاستيلاء على عمورية وقتل عدة آلاف من أهلها ، فضلا عن عدد كبير من أعيان الروم ساقهم المعتصم إلى سامرا [1] .

على أن وصول الجيوش الإسلامية إلى جوف آسيـا الصغرى فى النصف الأول من القرن التاسع لم تعقبه مضاعفات خطيرة على الإمبراطورية ، لأن المعتصم اكتفى بالانتقام لمدينـة زبطرة ثم قفل راجعا من حيث أتى ، وبذلك عادت الامبراطورية واستردت أراضيها فى آسيا الصغرى حتى جبال طوروس . ولم يلبث أن ساعدت مشاغل كل من الخليفة المعتصم والامبراطور ثيوفيل على عقد هدنة بين الطرفين استمرت حتى وفاة الاثنين سنة ٨٤٢ [2] .

---

(1) Diehl, Marcais ; Le Monde Oriental, pp. 312 - 313, &
ابن الأثير : الـكامل : حوادث سنة ٢٢٣ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 131.

ضعف الدولة الإسلامية وانقسامها :

على أن الموقف بين البيزنطيين والعباسيين فى الشرق الأدنى لم يلبث أن تبدل فى نهاية القرن التاسع ،عندما فقدت الخلافة العباسية هيبتها وانحلت قوتها . ذلك أن الخليفةالمعتصم العباسى ، أفرط فى الاعتمادعلى الترك،الأمر الذى جعله يهجر بغداد وينقل عاصمته إلى سامرا سنة ٨٣٦ ولم يلبث أن أصبح الخلفاء العباسيون أداة سهلة فى أيدى أمراء الأتراك ، حتى غدت السلطة الفعلية فى القرن العاشر فى يد كبير أولئك الأمراء الذى اتخذ لقب «أمير الأمراء» [1] وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والخلافات الدينية مثل الحركة الخرمية التى تزعمها بابك الخرمى (٨١٦ ـ ٨٣٧) وحركة المعتزلة ، فضلا عن نشاط الشيعة فى جوف الدولة . فإذا أضفنا إلى ذلك ثورة الزنج فى جنوب العراق (٨٧٧ ـ ٨٨٣) وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق سنة ٨٩٠ ، استطعنا أن نكون فكرة عامة عن عوامل انحلال الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال [2].

وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية وتفككها فى تلك الفترة من الحركات الانفصالية التي قامت فى جسم الدولة ، والتى أدت إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة ، مثل الدولة السامانية (٩٧١ ـ ٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٨ ـ ١٠٤٧) والدولة الغزنوية (٩٦٢ ـ ١١٨٦) والدولة الحمدانية ، (٩٢٩ ـ ١٠٠٣) والدولة البويهية (٩٣٢ ـ ١٠٥٥) . ويهمنا من هذه البيوت فى المشرق السامانيون والبويهيون . أما السامانيون فقد غدت لهم السيطرة على الجزء الشرقى من بلاد فارس ، أعنى خراسان وبلخ وماوراء النهر فضلا عن فرغانة وخوارزم . وقد اتخذ السامانيون بخارى وسمرقند مركزين

(1) Diehl, Marcais : op. cit. pp 378 - 381
(2) Cam. Med. Hist, vol 4, p. 276.

لحكمهم ، واستمروا يحكمون تلك المنطقة الفسيحة حكما مستقلا معظم القرن العاشر . وأما البويهيون — وهم من أصل فارسى أيضاً — فقد سيطروا على الجزء الغربى من بلاد فارس — أعنى عراق العجم وكرمان وخوزستان — كما سيطروا على العراق العربى بما فيه بغداد بين سنتى ٩٤٥ ، ١٠٥٥ . وفى تلك الفترة اتخذ أمراء بنى بويه لقب إمرة الأمراء ، وسلبوا لأنفسهم كل ما للخلفاء العباسيين من سلطان ونفوذ ، حتى صار أمير الأمراء من بنى بويه هو الحاكم الفعلى فى الدولة[١] .

على أنه يلاحظ أن كلا من هذين البيتين — السامانيون والبويهيون — كانوا من أصل فارسى ، ومن ثم وجهوا جل عنايتهم نحو الأقاليم الفارسية من الدولة العباسية ، ولم يهتموا بالأقاليم العربية كالجزيرة وبلاد الشام ومصر . والواقع إن بلاد الشام ومصر لم تكونا أقل تعرضا للفوضى والانقسام من بقية أجزاء الخلافة . ذلك أن الإخشيديين استقلوا بمصر والجزء الأكبر من بلاد الشام — حتى طرابلس وبيروت شمالا — (٩٣٥ — ٩٦٩) . أما شمال الشام وإقليم الموصل فقد استقل بهما الحمدانيون (٩٢٩ — ١٠٠٣) الذين ظلوا فى منازعات مستمرة مع البويهيين من ناحية والإخشيديين من ناحية أخرى[٢] . وزاد من الفوضى التى تعرضت لها بلاد الشام فى تلك الفترة انتفاضة القبائل العربية ، فسيطر العرب الجنوبيون أو اليمنيون على جنوب الشام ووسطه حيث صارت الغلبة فى فلسطين لبنى طى وفى وسط الشام لبنى كلب . أما عرب الشمال أو القيسيون فقد سيطروا على شمال الشام والجزيرة حيث ظهر من قبائلهم بنو كلاب وبنو نمير وبنو عقيل . وجميع هذه القبائل

---

(١) ابن الأثير : الكامل، سنة ٣٢١ ﻫ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4. p. 245

العربية ربطتها علاقات بالقرامطة ، بل إن بنى طى وبنى كلب شاركوا فى ثورة القرامطة التى حدثت فى مستهل القرن العاشر[1] .

أما الخلافة العباسية نفسها فاستمرت تنتقل أوضاعها فى القرن التاسع من سىء إلى أسوأ ، حتى تولى منصب الخلافة فى مدى ثمان سنوات (٨٦١ — ٨٦٩) أربع خلفاء مات منهم إثنان مقتولين ، هما أبو عبد الله محمد المعتز بالله ، وأبو اسحق محمد المهتدى بالله .

صحوة الدولة البيزنطية فى القرن العاشر :

ولعل ذلك الانحلال الذى أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذى اعترى وحدة الدولة الإسلامية هو الذى مكن الأباطرة البيزنطيين منذ منتصف القرن التاسع من الوقوف موقفاً أكثر حزماً وصلابة من جيرانهم المسلمين . ولم يلبث أن تحول موقف الإمبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر من الدفاع إلى الهجوم ، وذلك عندما أدرك البيزنطيون أنهم لا يواجهون على حدودهم الشرقية دولة إسلامية موحدة مثلما كان الحال أيام الأمويين والعباسيين الأوائل ، وإنما صاروا لا يرون إلا دولة مفككة أضعفتها الإنقسامات السياسية والمذهبية . وكان ذلك فى الوقت الذى استولت على العرش فى القسطنطينية أسرة من أقوى الأسر فى التاريخ البيزنطى ، هي الأسرة المقدونية التى نفخت فى الدولة روحا جديدة بفضل ماوفرته لها من استقرار داخلى وقيادة رشيدة[2]

وهنا نلاحظ أن البلقان لم يعد فى ذلك العصر مركز الروح الهلاينية فى العالم البيزنطى ، بعد أن اجتاحت أراضى البلقان كثير من الشعوب السلافية ، فضلا

---

(1) Setton : A Hist. of the Crusades, p. 87.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤١٧ ومابعدها .

عن البلغار . وكان أن ظهرت الأقاليم الآسيوية لتخلف البلقان وتصبح مركزاً للروح الهللينية منـــذ القرن التاسع . ففى آسيا الصغرى بالذات ظلت التقاليد البيزنطية قائمة خالصة ، ومن آسيا الصغرى استمدت الإمبراطورية البيزنطية مواردها المـالية والبشرية . ثم إن آسيا الصغرى هى التى أمدت الإمبراطورية بخيرة البيوت الحاكمة والقـادة الأقوياء مثـــل آل فوقاس وآل شمشقيق وآل كومنين[١] .

وكان أن بدأت جهود الدولة البيزنطية للتوسع على حساب المسلمين فى أطراف آسيا الصغرى والشام فى عهد قسطنطين السابع (٩١٣ ـ ٩٥٩) ثالث أباطرة الأسرة المقدونية . من ذلك أن الجيوش البيزنطية استطاعت تحت قيادة قائد أرمنى الأصل — إسمه حنا كوركواس John Curcuas — الاستيلاء على أرضروم من المسلمين ، كما أجبرت حكام ملطية وديار بكر وميافارقين على دفع إتاوة للبيزنطيين[٢] . وعند ما ثارت ملطية على ذلك الوضع دمرها كوركواس سنة ٩٣٤ واستولى على الجهات المحيطة بها[٣] . وفى سنة ٩٤١— ٩٤٢ استولى البيزنطيون على ميافارقين ، وعندئذ أسرع حاكم الرها المسلم إلى شراء مسالمة حنا كوركواس . ولم يلبث البيزنطيون أن استولوا على مرعش (٩٤٨ـ٩٤٩)، كما استطاع القائد البيزنطى الجديد ليوفوقاس الاستيلاء على طرسوس عاصمة إقليم قيليقية ، ثم على ديار بكر وسميساط سنة ٩٥٨ . وهكذا لم تحل سنة ٩٥٩ إلا وكان ليوفوقاس قد وصل على رأس الجيوش البيزنطية إلى ما وراء نهر دجلة[٤] .

على أن تلك الحروب لم تـكن سوى مقدمة لحركة شاملة أزمعت الدولة البيزنطية القيام بها للانتقام من المسلمين مما حل بها على أيديهم طوال القرون

(1) Brehier : Vie et Mort. de Byzance, pp. 179 – 180

(٢) ابن الأثير : الـكامل سنة ٣١٥ هـ .

(3) Vasiliev : op. cit. I, p. 306.

(4) Ostrogorsky : op. cit., p. 250

الثلاثة السابقة . وكان أن نجح القائد نقفور فوقاس فى طرد المسلمين من جزيرة كريت سنة ٩٦١ ، ثم قام بغـزو إقليم قيليقية الذى كان تابعاً لسيف الدولة الحمدانى ، واستولى سنة ٩٦٢ على مركزين من أهم مراكز ذلك الإقليم هما عين زربة وسيس ؛ ومن هنالك اتجه إلى أطراف بلاد الشام لينتزع من سيف الدولة عين تاب ومنبج (١) . ثم اختار نقفور فوقاس ألا يعطى خصومه فرصة للاستعداد، فزحف مباشرة — وبصحبته القائد حنا شمشقيق — على حلب ، واستولى عليها فى أواخر ديسمبر سنة ٩٦٢ . وعند ما عجز نقفور فوقاس عن الاستيلاء على قلعة حلب ، اكتفى بتدمير المدينة « وأحرق المساجد » ، ثم قفل راجعاً إلى قيليقية ومعه عدد كبير من أسرى المسلمين (٢) .

وبعد أن عاد نقفور إلى القسطنطينية حيث توج إمبراطوراً ؛ رجع إلى الشام مرة أخرى ليغزو الحمدانيين سنة ٩٦٤ . وفى ذلك الوقت بالذات تعرض الحمدانيون لطعنة من الخلف من جانب بنى بويه ، إذ قام أمير الأمراء معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه بانتزاع الموصل ونصيبين من الحمدانيين ، ولم يرد الموصل إليهم إلا بعد أن تسلم مبلغاً طائلا من المال (٣) . وهكذا ظهر جلياً أن الظروف فى العالم الإسلامى صارت مواتية لأن يقوم الإمبراطور البيزنطى بهجوم جديد ، فأرسل إنذاراً إلى الخليفة العباسى فى بغداد يهدده بالويل والثبور وينذره بأن الجيوش البيزنطية لن تلبث أن تستولى على بلاد العراق والشام ومصر ، وأنه من الخير للخليفة أن ينسحب إلى بلاد الحجاز ويترك تلك البلاد لأصحابها القدامى من البيزنطيين ! ويهمنا فى هذا الإنذار أنه كان يفيض بالروح الصليبية ، إذ ضمنه

---

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٣٥١ هـ .

(2) Schlumberger : Nicephore Phocas, pp. 232 – 251. &
ابن الأثير : الكامل سنة ٣٥١ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنتى ٣٤٧ – ٣٤٨ هـ .

الإمبراطور عبارات دينية حماسية ، وتهديد صريح بهدم الكعبة ونشر المسيحية في الشرق والغرب جميعا[١] .

وكان جديراً بالمسلمين في تلك الظروف أن يفيقوا لأنفسهم ويتنبهوا لحقيقة الروح الجديدة التي أخذ يعمل بها البيزنطيون ، ولكن المسلمين ظلوا غارقين في خلافاتهم الداخلية التي أنهكتهم وأضعفت قواهم . من ذلك أن السامانيين في خراسان أرسلوا نجدة عاجلة إلى الحمدانيين لتساعدهم في صد الخطر البيزنطي، ولكن بدلا من أن يستغل الحمدانيون تلك النجدة في غرض الجهاد ، أرادوا استخدامها في محاربة خصومهم أمراء بني بويه ، وعندئذ خمدت حماسة أولئك الخراسانيين وتفرقوا دون أن يشتركوا في قتال . وهكذا ثبت أن الخلافات الداخلية بين أمراء المسلمين كانت أقوى من أن تؤلف بين قلوبهم بدافع مواجهة الخطر المسيحي ؛ وفي ضوء تلك الانقسامات يمكن أن نفسر الانتصارات التي أحرزها البيزنطيون في القرن العاشر ، ثم تلك التي أحرزها الصليبيون الغربيون منذ نهاية القرن الحادي عشر[٢] .

أما نقفور فوقاس ، فقد أرسل أحد قواده لاسترداد جزيرة قبرص من المسلمين (٩٦٤ - ٩٦٥) ، حتى إذا ما تم له ذلك ، عاد مرة أخرى إلى غزو قيلقية بغية القضاء على نفوذ الحمدانيين فيها ، فاستولى على المصيصة وطرسوس[٣] . والواقع أن هاتين المدينتين لم تسقطا في أيدي البيزنطيين إلا بعد حصار طويل (١٣ يولية ٩٦٥) ، وعندئذ أرسل الإخشيديون نجدة لإنقاذ الموقف ، ولكن النجدة وصلت بعد فوات الأوان . وفي سنة ٩٦٦ عاد نقفور فوقاس إلى الإغارة

---

(1) Schlumberger ; Nicephore Phocas, pp. 427 - 430

(2) Grousset ; Hist. des Croisades, I, p. XIII.

(٣) ابن الاثير : الكامل سنة ٣٥٤ هـ . ويروى ابن الأثير أن نقفور فتح المصيصة عنوة بالسيف « فقتل منهم مقتلة عظيمة » في حين استولى على طرسوس صلحاً « فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون »

على بلاد النهرين ، فهاجم آمد « ولم يمكنهم فتحها » ، فانصرف إلى دارا وقارب نصيبين حيث صادف البيزنطيون قافلة للمسلمين آتية من ميافارقين فنهبوها . ثم اتجه نقفور إلى أطراف الشام حيث « نازلوا أنطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها ، فلم يمكنهم فتحها ، فخربوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس »[١] . وفى تلك الأثناء توفى سيف الدولة الحمدانى فى يناير سنة ٩٦٧ ، وخلفه فى حكم حلب ابنه سعد الدولة أبو المعالى شريف (الأول) الذى عجز عن صد خطر البيزنطيين ، فضلا عن المنازعات التى دبت فى تلك الفترة بين أبناء البيت الحمدانى[٢] .

وفى سنة ٩٦٨ عاد نقفور فوقاس إلى الشام « فلم يمنعه أحد ولا قاتله » فأغار على معرة النعمان وكفر طاب وشيزر التى أحرق مسجدها وحوله إلى رماد . ثم استولى على حماة وحمص وأحرقهما أيضاً . وبعد أن عاث نقفور فوقاس فسادا فى حوض نهر العاصى ، عبر الجبال إلى ساحل لبنان فاستولى على جبله وعرقه وانطرطوس . أما اللاذقية فقد أسرع واليها باعلان خضوعه للامبراطور الذى لم يلبث أن عاد بعد قليل إلى القسطنطينية وصحبته خمسة آلاف أسير، بعد أن « أقام فى الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد »[٣] . وعند عودة نقفور ترك خلفه فى بلاد الشام قوة كبيرة قرب أنطاكية . ولم تلبث هذه القوة أن تمكنت من الاستيلاء على أنطاكية فى أول نوفمبر سنة ٩٦٩ فطرد البيزنطيون أهل أنطاكية المسلمين « وأخرجوا المشايخ والعجايز والأطفال من البلد وقالوا لهم : اذهبوا حيث شئتم » ، وأحلوا محلهم جموعا غفيرة من المسيحيين[٤] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٥ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. ps. 246, 250

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٨ .

(4) Schlumberger : Un Empereur Byzantin au Dixieme Siecle, Nicephore Phocas p. 723 &

ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٥٩ هـ .

وكان لاستيلاء البيزنطيين على أنطاكية دوى هائل فى العالم المسيحى — الشرقى والغربى — نظراً لما لهذه المدينة من مكانة فى تاريخ المسيحية . وباستيلاء البيزنطيين على أنطاكية بلغوا قمة حركتهم التوسعية على حساب المسلمين فى القرن العاشر . وكان المفروض أن يأتى دورحلب بعد ذلك ، ولاسيما أن النزاع الداخلى بين صاحب الحق الشرعى فى الحكم — سعد الدولة الحمدانى — ومغتصب السلطة فيها — قرغوية (مولى سيف الدولة) — أثر تأثيراً خطيراً فى أحوال حلب. ولكن يبدو أن أمر حلب استعصى على البيزنطيين ، فصالحوا قرغوية فى يناير سنة ٩٧٠ «على هدنة مؤبدة» بشرط أن يدفع لهم مالا معينا ويسهل لهم تموين جيوشهم فى حالة خروجهم لغزو الشام[١] . ثم إن نقفور إستولى فى السنة نفسها على ملاز كرد من أعمال أرمينية « فضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة » . وهكذا لم يمت نقفور فوقاس إلا بعد أن دخل الجزء الشمالى من بلاد الشام بأكمله تحت سيطرة البيزنطيين الذين قويت هيبتهم « وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون فى أقطار البلاد»[٢] .

وشاءت الظروف أن يشهد العالم الإسلامى فى ذلك الوقت تطورا خطيراً ، إذ نجح الفاطميون فى غزو مصر سنة ٩٦٩ والقضاء على حكم الإخشيديين فيها، وبذلك أصبحت مصر — وملحقاتها فى الشام حتى دمشق — مركزا لخلافة شيعية منافسة لخلافة بغداد السنية. وهكذا قدر للعالم الإسلامى أن يظل طوال قرنين (٩٦٩-١١٧١) منقسما على نفسه بين خلافتين ومذهبين مختلفين، الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة ، مما ترك أثراً خطيرا فى قوة المسلمين فى الشرق الأدنى ظهرت نتائجه فيما بعد على عصر الحروب الصليبية[٣] .

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى : التاريخ ١٣٤ — ١٣٦ ، ابن الأثير : الكامل . حوادث سنة ٣٥٩.

(٢) ابن الأثير : الكامل . حوادث سنة ٣٥٩هـ.

(3) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. I. p.p. 85-86

وقد أعقب نقفور فوقاس فى عرش القسطنطينية الإمبراطور حنا شمشقيق (زمسكيس) الذى وجد فى حروب سلفه ضد المسلمين سابقة إستند إليها. وصادف حسن حظ ذلك الإمبراطور أن الفاطميين واجهوا عندئذ متاعب جمة فى ممتلكاتهم بالشام، مما قلل من خطرهم على البيزنطيين فى ذلك الدور. هذا إلى أن دمشق وقعت سنة ٩٧٤ فى قبضة أحد المغامرين الأتراك ـ واسمه افتكين ـ الذى كان تابعاً للخليفة العباسى فى بغداد، ثم تظاهر بالدخول فى طاعة الفاطميين [1]، حتى رأى أخيرا أن يستفيد من الخصومة بين العباسيين والفاطميين فيعمل لحسابه الخاص ويستقل بدمشق لنفسه. [2] ومن الواضح أن تلك الأحداث وما نجم عنها من فرقة فى العالم الإسلامى أمدت الإمبراطور حنا الشمشقيق إمبراطور القسطنطينية الجديد (٩٦٩ ـ ٩٧٥) بفرصة مناسبة لتحقيق أطماعه.

وقد قام حنا بحملته الحربية الأولى فى آسيا الصغرى سنة ٩٧٤، فبلغ حدود أرمينية التى كانت تحكمها عندئذ أسرة ملكية إقطاعية. وعندما علم ملك أرمينية ـ آشوت الثالث ـ بنية الامبراطور البيزنطي فى القيام بحرب صليبية ضد المسلمين، أظهر رغبته فى مشاركة الامبراطور مشاريعه وجهوده، وقدم للامبراطور قوة حربية ضخمة تألفت من عشرة آلاف جندى لمساعدته فى حملته [3]. وكان أن اتجه الامبراطور حنا على رأس تلك القوة المسيحية الضاربة إلى أطراف بلاد النهرين فى خريف سنة ٩٧٤، حيث اضطرت ميافارقين وديار بكر إلى دفع إتاوة، ثم دخل البيزنطيون نصيبين فى ١٢ أكتوبر بعد أن هجرها أهلها

(١) «وكاتب المعز (الفاطمى) مكاتبة على سبيل المداجاة والمغالطة والمداجة والتمويه والانقياد له والطاعة لأوامره» (ابن القلانسى ص ١٢).

(٢) محمد جمال الدين سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٢٢.

(٣) ويثبت الخطاب الذى أرسله حنا الشمشقيق إلى حليفه ملك أرمينية عندئذ أن الإمبراطور البيزنطي كان بصدد القيام بحملة صليبية فعلا ضد المسلمين، ليسترد بيت المقدس وكنيسة القيامة من المسلمين (Vasiliev. op cit., 1, p. 310).

« فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد » [١] هذا فى الوقت الذى اضطر أمير الموصل أيضاً إلى دفع إتاوة للامبراطورية البيزنطية. وهكذا حقق الإمبراطور حنا الشمشقيق كثيراً من المكاسب دون عناء ، مما جعله يحلم حينئذ بالزحف على بغداد والاستيلاء عليها [٢].

وفى ربيع سنة ٩٧٥ اتجه حنا الشمشقيق نحو الشام، فغادر أنطاكية فى ابريل مخترقا وادى نهر العاصى ، وعندئذ بادرت حمص إلى دفع الإتاوة دون مقاومة. أما بعلبك التى أبدت نوعاً من المقاومة فقد عاقبها الامبراطور فى قسوة ،ومنها اتجه صوب دمشق . وكانت دمشق – كما سبق أن أشرنا – تحت سيطرة الأمير افتكين التركى الذى ظل يتأرجح بين إعلان ولائه للفاطميين حيناً وللعباسيين أحياناً ، حتى إذا ما أحس باقتراب البيزنطيين من مدينته ، رأى فى تلك القوة الجديدة ما مكنه من التخلص من نفوذ الفاطميين والعباسيين جميعاً ، فأعلن ولاءه للامبراطور البيزنطي وتعهد بدفع الجزية له [٣]. ولاشك فى أن هذه الخطوة من جانب افتكين ساعدته على الوقوف فى وجه أطماع الفاطميين بوجه خاص ، فى حين غدت سيادة الامبراطور البيزنطى على الأجزاء الداخلية من من بلاد الشام شبه تامة بعد أن اعترفت له دمشق بالسيادة ودخلت انطاكية تحت سيطرته الفعلية ، كما أعلنت حلب تبعيتها للامبراطورية البيزنطية [٤].

ومن دمشق اتجهت الجيوش البيزنطية صوب طبرية ، حيث اتخذ الزحف البيزنطى طابعا صليبيا واضحاً ظهر بجلاء فى الرسالة التى أرسلها الامبراطور حنا إلى ملك أرمينية آشوت الثالث ، والتي ذكر له فى عبارات عاطفية كيف أن رجاله

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣٦١ هـ .
(2) Ostrogorsky : op, cit., P. 263.
(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى : التاريخ ص ١٤٥
(٤) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ص ١٤١ — ١٤٤ .

يزحفون نحو الأرض المقدسة التى شهدت مولد المسيح والتى دفن فيها ، مما يثبت صدق الروح الصليبية فى تلك الحملة[1] . وكان أن شق حنا طريقه إلى بيت المقدس دون أن يصادف مقاومة تذكر ، فتعهدت عكا بدفع الأموال للامبراطور رمزا للتبعية ، وسقطت قيسارية فى قبضة القوات الإمبراطورية . وإذا كانت الحامية الفاطمية فى بيروت قد قاومت إلا أنه نجح فى إخضاعها وأسر جزءاً كبيرا منها ، وبعد ذلك اتجه الامبراطور صوب صيدا التى بادرت بدفع الأموال وإعلان الخضوع . ولم يستعص على الامبراطور سوى طرابلس بسبب حصانة موقعها ، إذ أنزلت حامية المدينة بمعاونة الأسطول الفاطمى الهزيمة بالجيوش الامبراطورية فعبر حنا الشمشقيق عن غضبه بإتلاف الضياع المحيطة بها وتدمير بساتين الكروم والزيتون[2] . على أن الإمبراطور حنا لم يستطع الوصول إلى بيت المقدس ، فاكتفى بإخضاع بعض القلاع والمراكز مثل بانياس ، ثم عاد إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية حيث مات فى أوائل سنة ٩٧٦ . وكانت أقصى نقطة وصل إليها فى بلاد الشام جنوبا هى مرج ابن عامر[3] .

ومن الواضح أن الحرب التى شنها البيزنطيون على المسلمين سنة ٩٧٥ لم تحقق هدفها الصليبى سوى تحقيقا جزئيا . نعم إنها أدت إلى سيطرة الإمبراطورية البيزنطية على أطراف حوض نهر العاصى فضلا عن دمشق وطبرية والجزء الشمالى من ساحل بلاد الشام ؛ ولكن الامبراطور البيزنطى حنا شمشقيق ارتد مسرعا قبل أن يؤمن هذه المكاسب ويصل إلى بيت المقدس ، ، فضلا عن بقاء طرابلس — ذات الموقع الهام — فى أيدى الفاطميين . لذلك ظلت الفكرة السائدة طوال

---

(1) Grousset : Hist. de l'Armenie, p. 484 f. &
Cam. Med. Hist Vol. 4, p. 148.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكى : التاريخ ص ١٤٦

Cam. Med, Hist. vol. 4, p. 148.

(3) Cam. Med. Hist. vol 4, p. 148, & vol. 5, p. 249.

عصر الحروب الصليبية هى أن الصليبيين الغربيين وحدهم هم أصحاب الفضل فى استرداد بيت المقـــدس من المسلمين ، وليس للبيزنطيين أى فضل سابق فى ذلك .

ومهما يـكن من أمر ، فإن هذه الحملات المبتورة التى قام بها الأباطرة البيزنطيون ضد المسلمين فى القرن العاشر أدت إلى إشكالات ومناقشات قانونية طويلة فيما بعـد (١٠٩٨ – ١٠٩٩) عندما اشتد النزاع بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول ملـكية المدن الـكبرى ببلاد الشـام . وإذا كان البيزنطيون قد استطاعوا إثبات حقهم الشرعى فى ملـكية أنطاكية بحكم فتحهم لها فى القرن العاشر ، فإنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال تطبيق هذا المبدأ على طرابلس وبيت المقدس [٢] .

أما عن الإمبراطورية البيزنطية ، فإن الامبراطور باسل الثانى – خليفة حنا الشمشقيق – قنع بالسيطرة المباشرة على أنطاكية وسيادته غير المباشرة على حلب. وقد استطاع سعد الدولة الحمدانى أن يتغلب على منافسيه داخل حلب ، ولـكنه لم يستطع مقاومة النفوذ البيزنطى، فاعترف هو الآخر بالتبعية للدولة البيزنطية. وربما رأى الحمدانيون عندئذ فى تلك التبعية ضمانا كافيا لحماية أنفسهم من مطامع الفاطميين [٣] .

وفى ذلك الدور أخذ الفاطميون يشددون هجماتهم على دمشق، الأمر الذى جعل افتـكين يستنجد بالحسن بن أحمد زعيم القرامطة . ولـكن الخليفة العزيز الفاطمى خرج بنفسه إلى الشام – ومعه القائد جوهر – واستطاع أن ينزل الهزيمة بقوات افتـكين والقرامطة عند الرملة سنة ٩٧٨ ، وبذلك سقط افتـكين ونجح الفاطميون فى تثبيت نفوذهم فى دمشق . وبعـد أن نجح الفاطميون فى بسط سيطرتهم

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. XV.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 250.

على دمشق وجنوب الشام، شرعوا فى القيام بعدة هجمات ضد حلب ، ولكن البيزنطيين حموا أميرها سعد الدولة ثم ابنه وخليفته سعيد الدولة أبو الفضائل[١].

وهكذا تطور النزاع بين الحمدانيين والفاطميين إلى نزاع بين البيزنطيين والفاطميين . ويبدو أن مشاغل باسل الثانى فى البلقان ــ وبخاصة من ناحية البلغار الذين هددوا الامبراطورية عندئذ تهديداً خطيراً ــ جعلته يحرص على عدم الدخول فى حرب مكشوفة ضد الفاطميين ، فسعى لعقد هدنة سنة ٩٨٧ لمدة سبع سنوات مع الخلافة الفاطمية ، وتعهد باطلاق سراح من لديه من أسرى المسلمين ؛ فضلا عن الدعاء للخليفة العزيز الفاطمى فى جامع القسطنطينية[٢] . على أن هذه الهدنة لم تستمر طويلا ، إذ أمر الخليفة العزيز قائده منجوتكين بالزحف على حلب بعد قليل ، فتعرضت حلب لحصار الجيوش الفاطمية حتى اضطر صاحبها سعيد الدولة أبو الفضائل إلى الاستنجاد مرة أخرى بالامبراطور البيزنطى باسل الثانى ، فكتب إليه يستثيره ويقول : « متى أخذت أنطاكية أخذت حلب ، ومتى أخذت حلب، أخذت قسطنطينية »[٣] وكان باسل الثانى قد فرغ عندئذ من مشاكله فى البلقان واطمأن مؤقتاً إلى جانب البلغار ، فحضر بنفسه إلى الشام سنة ٩٩٥ (٣٨٥ هـ) واستولى على شيزر من الفاطميين ، كما استولى على حمص ودمرها وكذلك أنطرطوس ، فى حين صمدت طرابلس تلك المرة أيضاً واستطاعت حاميتها الفاطمية الدفاع عنها[٤] .

(١) قائمة الحمدانيين فى حلب :

سيف الدولة أبو الحسن على	٩٤٤ — ٩٦٧
سعد الدولة أبو المعالى شريف (الأول)	٩٦٧ — ٩٩١
سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد	٩٩١ — ١٠٠١

(أنظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠١) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥١ — ١٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكى : كتاب التاريخ ص ١٦٦ .

ولكن لم يكد الإمبراطور باسل الثانى يرجع إلى بلاده ، حتى تمكنت الجيوش الفاطمية من إنزال هزيمة بحاكم أنطاكية البيزنطى ، مما استدعى عودة باسل الثانى إلى الشام سنة ٩٩٩ ، فاسترد شيزر ووطن فيها جالية من الأرمن، وأحرق حمص واستولى على بعلبك . ولم يصادف باسل الثانى توفيقاً فى الأعمال الحربية التى قام بها بعد ذلك ضد المدن الساحلية ، كما فشل مرة أخرى أمام طرابلس[١] . وكان أن ارتد الإمبراطور البيزنطى إلى أرمينية ، وفى تلك المرة آثر عقد الصلح مع الفاطميين ليتفرغ مرة أخرى لخطر البلغار . وقد تم الصلح بين الطرفين فعلا ، وإن ظلت العلاقة سيئة بين الإمبراطورية البيزنطية من ناحية والخلافة الفاطمية من ناحية أخرى بسبب سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله تجاه أهل الذمة . وهكذا ظلت العلاقات بين البيزنطيين والفاطميين تتحسن حينا وتسوء أحياناً حتى قيام الحروب الصليبية [٢] .

والواقع أن جهود باسل الثانى فى الشام تعتبر خاتمة للحرب الصليبية التى قام بها البيزنطيون فى القرن العاشر ، وهي الحرب التى حالت دون امتداد النفوذ الفاطمى بالشام إلى ما وراء أنطاكية،مع احتفاظ البيزنطيين بنوع غير واضح من السيادة على إقليم حلب . ويبدو أن سياسة التقاعس التى اتبعتها الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر أدت إلى تمكين الفاطميين من فرض سيادتهم على حلب سنة ١٠١٥ ، وظل النفوذ الفاطمي قائما فيها حتى استطاع أحد زعماء قبيلة بنى كلاب ـ وهو صالح بن مرداس ـ أن يطرد الفاطميين منها ويؤسس ملكا لبنى مرداس فيها سنة ١٠٢٣(٣) . وقد ظل بنو مرداس يسيطرون على حلب

(1) Cam. Med Hist. vol. 4, p. 149 & Settou : op' cit., I, ps. 75, 90.

(2) Vasiliev, op. cit; I, p. 311.

(٣) محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٢٥ ، زامباور : معجم الأسرات ص ٤٥ ، ٥١

من سنه ١٠٢٣ حتى سنة ١٠٧٩ ، أى قرابة نصف قرن ،لم تبطل فيه المنازعات بينهم و بين الفاطميين بسبب السيادة على حلب . أما البيزنطيون فقد فقدوا كل نفوذ لهم فى حلب ، لا سيما بعد أن استطاع شبل الدولة المرداسى أن ينزل هزيمة بالجيوش البيزنطية سنة ١٠٣٠ « وغنم المسلمون جميع ما كان معهم »(١) .

على أن أحد القادة البيزنطيين ـ وهو جورج مانياكس Georges Maniakes حاكم سميساط ـ نجح فى أن يحول دون امتداد نفوذ بنى مرداس إلى أنطاكية(٢) ولم يلبث هذا القائد البيزنطي أن استغل فرصة المنازعات الداخلية فى الرها — حيث تولى الحكم فرع آخر من بنى كلاب — ليستولوا عليها من المسلمين سنة ١٠٣١ ، وعندئذ «قتل الروم المسلمين وخربوا المساجد »(٣) ولم تفلح النجدة السريعة التى أرسلها الفاطميون و بنو مرداس لإنقاذ الرها ، إذ تمكن القائد البيزنطى من تحقيق نجاح سريع بفضل المعونة الفعالة التى قدمها له أهل الرها من المسيحيين ، وهم خليط من السريان والنساطرة والأرمن . وهكذا ظلت الرها من الناحية العملية فى حوزة الإمبراطورية البيزنطية حتى وصول الصليبيين فى أواخر القرن الحادى عشر ، مما أثار حول ملكيتها مشكلة فقهية بين البيزنطيين والصليبيين ، لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية .

على أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن قوة الفاطميين لم تكن العامل الوحيد الذى صرف البيزنطيين منذ أوائل القرن الحادى عشر عن بلاد الشام ، وإنما كان هناك عامل آخر يتمثل فى انشغال الإمبراطورية البيزنطية بشئون أرمينية . وكان ملوك أرمينية بحكم جوارهم للخلافة العباسية من ناحية وللدولة البيزنطية من ناحية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٢١ هـ .

(2) Cam. Med. Hist; op. cit, 4, p. 150.

(3) Vasiliev : op. cit; I. p. 312 &

ابن الأثير . الكامل ، حوادث سنة ٤٢١ هـ .

أخرى يقسمون ولاءهم بين الطرفين[٦] . وعلى الرغم مما انتاب أرمينية من ضعف وانحلال سياسى ، إلا أن هذه المملكة بلغت فى أواخر القرن العاشر درجة من الرخاء لم تتحقق لدولة أخرى مجاورة فى الشرق . وقد ظهر أثر هذا الرخاء فى التقدم الحضارى الذى أحرزته أرمينية فى تلك الفترة ، وبخاصة فى ميادين العمارة والأدب والشعر وتدوين التاريخ...[٢] . ويبدو أن هذا الرخاء كان من العوامل التى أغرت الإمبراطور البيزنطي باسل الثانى على السعى فى ضم أرمينية إلى ممتلكاته . وقد ساعد باسل الثانى على تحقيق غرضه المنازعات والخلافات الداخلية فى أرمينية من ناحية ، وتخوف الأرمن من الأتراك السلاجقة الذين أخذوا يهددون الحدود الشرقية لبلادهم من ناحية أخرى ، مما جعل أرمينية تلقى بنفسها بين أحضان الإمبراطورية البيزنطية **١٠٢١**[٣] . وقد تبدو هذه الخطوة مصدر قوة للطرفين ، وضماناً لحماية أرمينية من خطر السلاجقة ، ولكن الحقيقة هى أن أرمينية ألقت عبئاً جديداً على الإمبراطورية البيزنطية ، فى الوقت الذى ترتب على وضع أرمينية الجديد عدم استطاعتها القيام بأى إجراء سريع لمواجهة الأخطار المهددة لها دون الرجوع إلى القسطنطينية ، مما جعلها طريقاً سهلا مفتوحاً أمام الغزاة الوافدين من الشرق إلى جوف آسيا الصغرى .

الحروب الصليبية فى الأندلس :

لم تعبر الروح الصليبية عن نفسها تعبيراً عملياً فى الشرق الأدنى فحسب ، بل ظهرت واضحة فى المغرب أيضاً ، حيث دارت منذ القرن الحادى عشر حرب بين

---

(1) Vasiliev : op. cit; vol. I, p. 314.
(2) Grousset : Hist. de l'Armenie, p. 517 f.
(3) Ostrogorsky : op. cit; p. 278 &Vasiliev : op. cit; I, p. 315.

المسلمين والمسيحيين فى الأندلس لم تنته إلا بعد عدة قرون بطرد المسلمين من أسبانيا .

ومن الملاحظات التى استرعت نظرنا أن المؤرخ ابن الأثير حرص على أن يفتتح كلامه عن الحروب الصليبية واستيلاء الصليبيين على أنطاكية سنة ٤٩١هـ بالإشارة أولا إلى الحروب بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس وصقلية ، مما يوضح أن هذا المؤرخ الواسع الأفق ربط ربطاً قوياً بين أطراف الحركة الصليبية فى أسبانيا وصقلية وشمال إفريقية والشام ، واتخذ الحروب الصليبية فى الأندلس مدخلا للحروب الصليبية بالشام (١) .

والواقع إن إستيلاء المسلمين على أسبانيا فى أوائل القرن الثامن للميلاد ، وإقامة دولة إسلامية قوية فيها ، كان أمراً لا يمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية أو شعوب أوربا المسيحية . فأسبانيا كانت من أولى البلاد الأوربية التى وصلتها المسيحية ؛ وغدت تحتل مكانة ظاهرة فى العالم المسيحى الغربى بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة جعلت المسيحيين يحجون إليها من مختلف أنحاء الغرب الأوربى . لذلك ظلت القوى المسيحية فى غرب أوربا تتحين الفرصة المناسبة لاسترداد ذلك الجزء المفقود من الوطن المسيحى . وحسبنا ما قام به شارلمان من حرب ضد المسلمين فى أسبانيا فى أواخر القرن الثامن للميلاد ، وهى

---

(١) قال ابن الأثير الجزرى فى حوادث سنة ٤٩١ هـ : « وكان ابتداء ظهور دولة الفرنج واستيداد أمرهم وخروجهم إلى الإسلام وبلادهم واستيلائهم على بعضها — سنة ٤٧٨ هـ ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس — وقد تقدم ذكر ذلك — ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها — وقد ذكرته أيضاً — وتطرفوا إلى أطراف أفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم ، ثم ملكوا غيره على ما تراه ، فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام» . (الكامل — حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

الحرب التى حرصت أغنية رولان فى القرن الحادى عشر على اكسابها طابعاً صليبياً واضحاً (١).

والملحوظ أن المسلمين فى الأندلس لم يستطيعوا مطلقا فى وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه جزيرة أيبريا ، وإنما ظلت بعض الجهات — وبخاصة فى الشمال الغربى — خارجة عن نفوذ المسلمين، فقامت بها أربع دويلات مسيحية هى : مملكة ليون ومملكة نافارى وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة (٢) . ومن هذه الوحدات المسيحية انبعث الخطر الذى هدد المسلمين فى الأندلس ، فى الوقت الذى تدهورت الخلافة الأموية فى قرطبة حتى سقطت فعلا سنة ١٠٣١ (٣) . ولم يلبث أن بلغ التوسع المسيحى على حساب المسلمين بالأندلس درجة خطيرة فى عهد ألفونس السادس (الأذفونش) ملك ليون وقشتالة (١٠٦٥ — ١١٠٩) ، وهو الذى أوغل فى وادى نهر تاجة حتى استولى على مدريد ثم على طليطلة نفسها سنة ١٠٨٥ ، وبذلك خسر المسلمون معقلا من أهم معاقلهم فى الأندلس (٤) .

وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ دوى هائل فى جميع أرجاء العالم المسيحى الغربى ، إذ استثار الشعور والحماسة لطرد المسلمين كلية من أسبانيا . أما فى الجانب الإسلامى فإن ضياع تلك المدينة ـ التى هى « من أكبر البلاد وأحصنها » (٥) هز المسلمين جميعا فى المشرق والمغرب ، وجعل مسلمى الأندلس يفكرون فى طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من ناحية واسترداد ما فقدوه من أراضى

---

(١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٩٢ — ١٩٣ ، ج ٢ ص ٢٤٨

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 366.

(3) Dozy : Spanish Islam, pp 589-592.

(4) Chapman : A Hist. of Spain p. 72.

(٥) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٧٨ هـ .

وبلاد من ناحية أخرى . وهنا لم يتردد ملوك الطوائف فى الاستعانة بالمرابطين فى شمال إفريقية ، وهم أقرب قوة إسلامية يمكنها أن تدفع خطر المسيحيين عن مسلمى الأندلس[١] . ولم يلبث أن عبر يوسف بن تاشفين — ملك المرابطين — مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦ على رأس جيش كبير من البربر الأشداء، حيث التقى مع ألفونس السادس فى موقعة الزلاقة فى أكتوبر سنة ١٠٨٦ . وفى تلك الموقعة حلت الهزيمة ساحقة بالقشتاليين ، ففر ألفونس السادس مع فلول جيشه، تاركا خلفه عدة آلاف من القتلى والأسرى ، فى حين قفل يوسف بن تاشفين راجعا إلى شمال إفريقية[٢] .

وقد أدى تجدد الخطر المسيحى على المسلمين بالأندلس من ناحية ، واتساع الخلاف بين ملوك الطوائف المسلمين من ناحية أخرى إلى عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة ١٠٩٠ ليشن حربا على ملوك الطوائف المسلمين، فضلا عن المسيحيين . ولم يلبث المرابطون أن استولوا على بلاد الأندلس الإسلامية بأكملها، عدا مدينة طليطلة . وعندما دالت دولة المرابطين وحلت محلها دولة الموحدين فى شمال إفريقية ، فكر الموحدون — بوصفهم ورثة المرابطين — فى ضم الأندلس إلى ملكهم ، واستطاع قائدهم عبد المؤمن أن ينجح فى ذلك سنة ١١٤٦[٣] .

---

(1) Dozy : op. cit, p, p. 694–695.
(2) Cam. Med. Hist: vl 6, p. p 398--399, & Watts : Spain. P. 67 &
حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٧٦ .

(3) Cam. Modern Hist., vol. 6. p 407.

وفى ذلك الوقت كان المسيحيون فى أسبانيا قد وجدوا بطـلا جديداً فى شخص ألفونس الأول ملك أرغونه (١١٠٤ — ١١٣٤) . وقـد استطاع ألفونس الأول هذا أن يواصل إغاراته العنيفة على المسلمين فى الأندلس ، حتى وفاته أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤[١] . ولم تقتصر جهود المسيحيين فى تلك الفترة على ما قامت به أرغونه وملوكها ، إذ استطاع ريمون برنجار الرابع — كونت برشلونة — أن يغزو طرطوشة سنة ١١٤٨ . أما فى الجبهة الغربية ، فقد تمكن الفونس الأول ملك البرتغال من التوغل داخل الأراضى الإسلامية وراء نهر تاجة[٢] .

وثمة أهمية خاصة للجهود الصليبية التى قام بها ألفونس الأول هذا ضد المسلمين بالأندلس ، هي أنه استعان سنة ١١٤٧ بأسطول صليبي يحمل جماعة من الإنجليز والفلمنكيين والألمان ـ كانوا فى طريقهم إلى الشام للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية ـ فاستوقفهم ألفونس الأول ، وتمكن بمساعدتهم من طرد المسلمين من لشبونة التى غدت عاصمة مملكة البرتغال الناشئة[٣] . وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية فى ذلك العصر على المشرق والأراضى المقدسة ، بل شمل أيضاً المغرب وأسبانيا ؛ فأسهم الصليبيون الوافدون من انجلترا وألمانيا فى فتح لشبونة ، كما اشترك الصليبيون الفرنسيون فى مساعدة برنجار كونت برشلونة وبروفانس ؛ هذا فى الوقت الذى مد فرسان الداوية والاسبتارية نشاطهم إلى وادى نهر إبرو بأسبانيا ، فضلا عن بلاد الشام[٤] . ولم تلبث هيئة الرهبان السسترشيان أن أقامت لنفسها مركزاً فى أسبانيا سنة ١١٤٩ ، حيث أقاموا قوة حربية للدفاع عن مصالحهم

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 470.

(2) Stephenson : Portugal, p. p. 18-19 &
Chapman, op. cit. 76.

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 194.

(4) King : ThetKinghts Hospitallers in the Holy Land, p. 133

من ناحية ولحرب المسلمين من ناحية أخرى . ثم تكاثرت بعد ذلك فى أسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية ، مثل هيئة القديس جوليان التى أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢ ، والتى اتخذت بعد ذلك — سنة ١٢١٨ - اسم منظمة القنطرة ، وذلك عندما استولى المسيحيون على بلدة القنطرة الواقعة على نهر تاجة واتخذها أولئك الفرسان مركزاً لنشاطهم (١) .

ولم تتردد البابوية فى تشجيع تلك المنظمات التى نهضت فى أسبانيا بالدور نفسه الذى قامت به الإسبتارية والداوية والتيتون فى بلاد الشام . بل إن الفضل يرجع إلى البابا اسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث فى قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها أسبانيا ، وهى منظمة سنتياجو . وبفضل نشاط هـذه الهيئات وجهودها اشتدت حماسة المسيحيين فى حرب المسلمين فى الأندلس ، كما أخذ الطابع الدينى يغلب على هـذه الحرب ليجعل منها حرباً صليبية مقدسة لا تقل أهمـية فى نظر الأوربيين المعاصرين عن الحرب الصليبية الدائرة عندئذ فى المشرق (٢) . وهكذا دخل الصراع بين المسيحيين فى أسبانيا دوراً جديداً لم يعد فيه مجرد حروب محلية متفرقة بين حكام الفريقين ، وإنما أصبح صراعاً شاملا بين حضارتين مختلفتين وديانتين سماويتين متباينتين ، ظلا يتقاسمان النفوذ ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبى الغربى من أوربا طوال عدة قرون (٣) .

وفى هـذه الحروب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة ، حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بألفونس التاسع ملك قشتالة فى موقعة الأرك سنة ١١٩٥ (٤) . على أن البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) — وهو صاحب الفضل فى إثارة الحماسة الصليبية

---

(1) Tout : The Empire and the Papacy, p. 471.

(2) Chapman : op. cit. p. p. 94-96.

(3) Tout op cit, p. 471

(4) Cam. Med. Hist. vol. 6.p. 409.

فى أسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالى البلاد الغربية على المشاركه فى الحرب الدينية ضد المسلمين ـ لم يستطع أن يسكت على هزيمة الأرك . ولم يلبث هذا البابا أن أعلن الحرب الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، فاجتمع عدد كبير من فرسان أوربا للمشاركة فى تلك الحرب تحت زعامة رئيس أساقفة ناربون(١) . وكان أن تضافرت فى تلك الحرب جهود ملك أرغونة وملك نافارى وملك قشتاله ، مما ساعد على إنزال هزيمة كبرى بالموحدين فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢(٢) .

ولم تقم قائمة للموحدين بعد ذلك بالأندلس ، فأخذت المدن والمعاقل الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى فى قبضة المسيحيين بحيث لم يتبق للمسلمين فى أسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة . وفى تلك الرقعة الضيقة بين جبال نيفادا والبحر، قدر لبقايا دولة المسلمين أن تعيش فترة أخرى من الزمان بلغت نحوا من قرنين ونصف(٣) .

---

(1) Painter : op. cit. p 195.
(2) Cam Med Hist, vol. 6, p. 410

(٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ١٨٤ — ١٨٥ .

الفصل الثانى

الاتراك وإحياء قوة المسلمين

ظهور السلاجقة — طغرل بك :

فى الوقت الذى تنازعت السيادة على المسلمين فى الشرق الأدنى خلافتان ، إحداهما فاطمية شيعية والأخرى عباسية سنية ، وفى الوقت الذى ساءت أحوال هاتين الخلافتين ، الأولى بسبب سياسية الخليفة الحاكم بأمر الله وازدياد نفوذ الوزراء العظام ، والثانية بسبب تفاقم سلطان بنى بويه الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين سيطرة تامة ؛ فى ذلك الوقت ظهرت قوة فتية على مسرح الشرق الأدنى — هى قوة الأتراك — لتبث فى العالم الإسلامى روحا جديدة ، مما أدى إلى تغيير ميزان القوى مرة أخرى بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق الأدنى[1] .

والملحوظ أن بنى بويه اعتراهم الضعف منذ أواخر القرن العاشر للميلاد بسبب المنازعات بين أمرائهم . وكان ذلك عندما ظهرت قوة أخرى فى إيران — هي قوة الغزنويين الأتراك — الذين استطاعوا أن يقضوا على آخر الأمراء السامانيين سنة ٩٩٩ . ولم يلبث أن تمكن محمود الغزنوى (٩٩٨ — ١٠٣٠) من السيطرة على إقليم خراسان بأكمله ، كما انتزع من البويهيين جزءاً من عراق العجم ، مما يشير إلى ازدياد نفوذ العنصر التركى فى العالم الإسلامى[2] . وبينما واصل الغزنويون فتوحاتهم فى شرق إيران والهند ، إذا بقبيلة أخرى — هي

---

(1) Cam, Med. Hist, vol 4, p. 302.

(2) Setton : A Hist, of the Crusades, vol. I, p. p. 139 - 140.

قبيلة السلاجقة ـ تخرج من منطقة الإستبس المحيطة ببحر آرال لتوغل فى إقليم خراسان .

والسلاجقة قوم من الأتراك الغز ، نسبوا إلى جدهم سلجوق بن تقاق وعاشوا أول أمرهم فى إقليم تركستان حتى نزحوا إلى بلاد الإسلام على حدود نهر سيحون ، وهناك اعتنقوا الديانة الإسلامية . وبعد وفاة سلجوق رحل السلاجقة إلى إقليم بخارى حيث ظلوا يتبعون الغزنويين تبعية غامضة ، حتى ثاروا عليهم فى نهاية الأمر ، واستطاع زعيمهم طغرل بك الاستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان سنة ١٠٣٨ (٤٢٨هـ) فى الوقت الذى كان الغزنويون مشغولين عن تلك الأحداث بفتوحاتهم الجديدة فى الهند(١). وأخيراً تنبه السلطان مسعود الغزنوى إلى خطر السلاجقة ، فحاول أن يقضى على ذلك الخطر ولكن بعد فوات الأوان ، إذ أنزل به طغرل بك الهزيمة فى مايو سنة ١٠٤٠ وغنم السلاجقة « من العسكر المسعودى ما لا يدخل تحت الاحصاء » ؛ وبذلك تمت سيطرة السلاجقة على خراسان ، واقتصر نفوذ الغزنويين على أفغانستان(٢). وعندما أدرك مسعود الغزنوى أنه من الصعب إخضاع السلاجقة عن طريق القوة ، حاول استمالتهم ودفع خطرهم بالحيلة والسياسة ، فكتب إليهم يعدهم «بالمواعيد الجميلة والخلع النفيسة ، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشط ـ وهى مدينة على جيحون ـ ونهاهم عن الشر والفساد» ولكن السلاجقة استخفوا بالرسول ، ولم يطمئنوا إلى نوايا السلطان مسعود ووعوده ، وقالوا « نحن لا نطيعه ولا نثق إليه(٣) » .

وفى ذلك الوقت اختار بقية زعماء السلاجقة من أسرة طغرل بك أن يعمل كل منهم لحسابه الخاص ، فأخذوا يتوسعون على حساب المسلمين والبيزنطيين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol 4, p. p. 303-304

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

جميعا ، ونجحوا فعلا فى بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق وأرمينية وآسيا الصغرى . أما طغرل بك نفسه فقد نظم دولته الجديدة وأقر النظام فيها ، كما استولى على الرى سنة ١٠٤٢ — ١٠٤٣ ، وعلى أصبهان سنة ١٠٥٠ ، واتخذ الأخيرة حاضرة لدولته[١] . ومن ذلك المركز الجديد ، أخذ طغرل بك يتدخل فى شئون الخلافة العباسية .

والواقع إن الخلافة العباسية كانت تمر عندئذ بمحنة قاسية ، بعد أن ظلت قرابة قرن — أى منذ سنة ٩٤٥ — ترزح تحت وصاية بنى بويه وسيطرتهم. ذلك أن بنى بويه عملوا على الحد من نفوذ الخليفة العباسى فى بغداد ، فضلا عن البلاد الأخرى التابعة للدولة العباسية . ثم إن اعتناق بنى بويه للمذهب الشيعى وتعصبهم لذلك المذهب وإرغامهم السنيين على الاشتراك فى أعياد الشيعة ، كل ذلك أدى إلى انتشار الفتن المذهبية فى العراق[٢] . وكان أمير الأمراء من بنى بويه فى أواسط القرن الحادى عشر هو الملك الرحيم أبو النصر خسرو فيروز (١٠٤٨—١٠٥٥)، الذى ترك مقاليد الأمور لفئة من أعوانه ، ظهر منهم رجل مغامر اسمه المظفر أبو الحرث أرسلان المعروف بالبساسيرى[٣] . ولم يتورع البساسيرى هذا عن تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية ، بل إنه راسل فعلا الخليفة المستنصر الفاطمى فى هذا الشأن[٤]. وإزاء ذلك الخطر لم يسع الخليفة القائم بأمر الله العباسى سوى أن يستنجد بالسلاجقة السنيين لمساعدته فى إنقاذ الخلافة العباسية . وفى الوقت الذى قصد البساسيرى

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ ، سنة ٤٤٢ هـ .

(٢) يروى ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٥ هـ (فى هذه السنة فى المحرم زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة ، وكان ابتداؤها أواخر سنة أربع وأربعين فلما كان الآن عظم الشر وأطرحت المراقبة للسلطان واختلط بالفريقين طوايف من الأتراك)

(٣) وصفه ابن القلانسى (ص ٨٧) بأنه (واحد من الغلمان الأتراك عظم أمره واستفحل شأنه ... واستولى على العباد والبلاد » .

(٤) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ٩٨ — ١٠٠ .

دار الخلافة فى بغداد « ونهبها وأحرقها ونقض أبنيتها واستولى على كل ما فيها» سار طغرل بك إلى بغداد سنة ١٠٥٥ ليقضى على البساسيرى ويقتله. وهكذا حل السلاجقة محل البويهيين فى الوصاية على الخلافة العباسية « وتقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبه لطغرل بك بجوامع بغداد ، فخطب له يوم الجمعة »[1].

ولا شك فى أن ما قام به طغرل بك من إنقاذ الخلافة العباسية والمذهب السنى أضفى عليه مكانة خاصة فى العالم الإسلامى. هذا إلى أن طغرل بك استطاع بتلك الخطوة أن يحقق للمسلمين قدراً كبيراً من الوحدة هم أحوج ما يكونوا إليها عندئذ؛ فصارت إيران والعراق تؤلف وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسى وبالزعامة الدنيوية للسلطان السلجوقى[2]. أما طغرل بك نفسه فقد خلع عليه الخليفة العباسى وأضفى عليه ألقاب التشريف ، كما زوجه الخليفة من ابنته[3].

وهكذا تبدل الموقف فى العالم الإسلامى عند وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٧ ه.

(2) Cam. Med. Hist. vol.4, p. 304

(٣) يلاحظ أنه إذا كان السلاجقة قد ظلوا فى ذلك الدور الأول من تاريخهم قوة واحدة كبرى ، إلا أنهم لم يلبثوا أن انقسموا داخل هذا الإطار إلى خمسة بيوت :

١ — بيت طغرل بك وتسمى دولته دولة السلاجقة الكبرى ، وقد ملكوا خراسان والرى والعراق والجزيرة وفارس والأهواز ، واستمرت دولتهم من سنة ١٠٣٩ (٤٢٩ ه) حتى سنة ١١٢٧ (٥٢٢ ه) عندما سقطت على يد الخوارزمية.

٢ — بيت سلاجقة كرمان ، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو أخو ألب أسلان . واستمرت دولتهم من سنة ١٠٤١ (٤٣٢ ه) حتى سقطت على يد الغز التركمان سنة ١١٨٧ (٥٨٣ ه).

٣ — سلاجقة عراق العجم وكردستان ، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧ (٥١١ ه) حتى سقطت على يد الخوارزمية سنة ١١٩٤ (٥٩٠ ه) ،

٤ — سلاجقة الشام ، وهم من بيت تتش بن ألب أرسلان ، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٩٤ (٤٨٧ ه) واستمرت حتى سنة ١١١٧ (٥١١ ه) .

٥ — سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، وكانوا من بيت قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق ، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧ (٤٧٠ ه) ولم تسقط إلا على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٣٠٠ (٧٠٠ ه) وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً .

فبعد أن كانت الامبراطورية البيزنطية تجد على حدودها الشرقية فى القرن العاشر دولة إسلامية منحلة سياسياً ، ومنقسمة على نفسها مذهبيا وحربيا ، إذا بالعنصر التركى الذى ظهر على مسرح الأحداث فى القرن الحادى عشر يبث فى الدولة الإسلامية ، روحاً جديدة وعزيمة قوية ، ويهيىء للمسلمين فى الشرق الأدنى قدراً من الوحدة مكنتهم من استئناف التوسع من جديد ، وبخاصة على حساب جيرانهم البيزنطيين . (١) وكان ذلك فى الوقت الذى دخلت الدولة البيزنطية دور ركود جديد ، بعد الصحوة التى مرت بها فى القرن العاشر ؛ مما أتاح فرصة مواتية للسلاجقة للتوسع على حساب البيزنطيين فى آسيا الصغرى توسعاً آمنا مطرداً فى القرن الحادى عشر (٢) .

على أنه ينبغى ألا نعتقد أن الغزو السلجوقى لأراضى الدولة البيزنطية اتخذ طابعاً إجماعياً مفاجئاً . فمنذ النصف الأول للقرن الحادى عشر اعتادت الدولة البيزنطية أن تتعرض بين حين وآخر لغزوات قام بها بعض المغامرين من الأتراك السلاجقة ؛ أمثال ابراهيم بن أينال وقتلمش . من ذلك ما قام به إبراهيم بن أينال سنة ١٠٤٨ من غزو أرمينية — التى كان الأباطرة البيزنطيون قد ضموها إلى دولتهم كما سبق أن أوضحنا — فأوغل السلاجقة فى الأراضى البيزنطية حتى وصلوا إلى ملاز كرد وأرزن وبلغوا طرابيزون على شاطىء البحر الأسود ، وعندئذ أكثر السلاجقة من «القتل فى الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم» (٣) . ومع ذلك فإنه يبدو أن طغرل بك لم يكن راغباً فى فتح باب العداء عندئذ مع القسطنطينية ، فأمر باطلاق سراح القائد البيزنطى الذى أسره ابراهيم

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 302
(2) Vasiliev, op. cit., I, p. 355
(3) Grousset ; Hist. de l'Armenie, p. p. 595 - 596 &
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٠ هـ .

الدويلات الإسلامية
في الشرق الأدنى
في القرن الحادي عشر

ابن أينال[١] ، وأرسل بعثة إلى القسطنطينية ، لعقد الصلح[٢] . وليس معنى ذلك أن الأمور هدأت سريعاً بين السلاجقة والبيزنطيين ، إذ استمر المغامرون من السلاجقة يشعلون نار الحرب مع البيزنطيين ، فاجتاح السلاجقة إقليم قرس سنة ١٠٥٢ ، بل إن طغرل بك نفسه غزا أرمينيـة سنة ١٠٥٤ ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وجورجيا وأرزن[٣] ؛ وإن كانت الجيوش البيزنطية لم تمكنه بأى حال من الاستيلاء على ما ذكرت ، فاكتفى بأن « حصرها وضيق على أهلها ، ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها »[٤] .

ومع أن الأتراك السلاجقة استطاعوا فى عهد قسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٤) مد إغاراتهم إلى جميع أنحاء أرمينية بغيـة السلب والنهب ، إلا أنهم لم ينجحوا فى احتلال مركز قوى يثبتون فيه . على أن الموقف تغير عند ما اشتدت هجمات السلاجقة على أراضى الدولة البيزنطية بين سنتى ١٠٥٧ ، ١٠٨١ ، فاجتاحوا كبادوكيا ونهبوا ملطية (أكتوبر ١٠٥٧) .[٥] وفى سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة حتى سيواس وذبحوا فريقاً من أهلها ثم عادوا محملين بالأسلاب والغنائم . ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن إغارات السـلاجقة استمرت حتى وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ تستهدف غالباً السـلب والنهب دون أن يحاولوا الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل أراضى الدولة البيزنطية [٦].

---

(١) يذكر ابن الأثير أن طغرل بك أسر « قاريط ملك الأبخاز ، فبذل فى نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجبه إلى ذلك » (حوادث سنة ٤٤٠هـ) .

(٢) ويقول المقريزى أن ملك الروم هو الذى أرسل يطلب الهدنة من طغرل بك وهداه « وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك » (السلوك ج ١ ص ٣٢) .

(3) Grousset ; Hist. de. l'Armenie, p. p, 596 - 597.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٦ هـ .

(5) Setton . op, cit.. I, p. p. 144-147,

(6) Grousset ; Hist. des Croisades, I, p. XXX,

ألب أرسلان وموقعة مانزكرت:

وبوفاة طغرل بك وقيام خليفته ألب أرسلان (١٠٦٣—١٠٧٢) مكانه في الحكم ، دخلت سياسة السلاجقة تجاه الدولة البيزنطية دوراً جديدا، إذ غدت هذه السياسة تستهدف الاستيلاء على أراضى تلك الدولة وامتلاكها ، بدلا من مجرد القيام بإغارات محدودة للسلب والنهب. فى سنة ١٠٦٥ استولى ألب أرسلان على آنى ثم على قرس، وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية، والمركزان الأساسيان لقوة البيزنطيين ونفوذهم فى الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى (١). وبعد أن دمر السلطان ألب أرسلان مدينة آنى اضطر إلى العودة إلى فارس ليخضع بعض أقربائه الذين ثاروا ضده . ومنذ ذلك الوقت غدا الطريق مفتوحا أمام السلاجقة إلى داخل الأناضول، بعد أن استولوا على قلب أرمينية، فاستمروا منذئذ — دون أن يرتبطوا بخطة حربية معينة — يجتاحون القرى والضياع ، متجنبين بقدر الاستطاعة المراكز القوية المحصنة ، حتى دمروا إقليم كابادوكيا بأكمله ، ثم وصلوا إلى قيصرية فخربوها سنة ١٠٦٧ ، واعتدوا على كنيسة القديس باسل (٢). كل ذلك والامبراطور البيزنطى قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧) جامد لا يتحرك، ولا يحاول إنقاذ البناء الكبير الذى شيده أسلافه فى القرن العاشر، وبخاصة باسل الثانى .

على أنه لم يلبث أن تولى عرش الامبراطورية بعد ذلك رجل نشيط على جانب من الكفاية الحربية ، هو رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١) فبدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية فى الدولة، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطى الذى غدت الفرق الأساسية فيه تتألف من جند مرتزقة من النورمان الإيطاليين والتركمان الأسيويين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦ ه .

(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 355.

فضلا عن الفرنجة الغربيين . وبذلك الجيش غير المتجانس شرع الامبراطور رومانوس الرابع فى استرداد الأناضول حتى الفرات شرقاً من جموع السلاجقة . وعلى الرغم من الظروف القاسية التى أحاطت برومانوس ومهمته ، إلا أنه نجح إلى حد كبير فى تحقيق غرضه . هذا وإن كانت خفة الأتراك السلاجقة وسرعة حركتهم لم تمكنه من تنفيذ برنامجه وفق ما كان يشتهى (١) .

وقد سلك رومانوس الرابع طريق سيواس وقيصرية للوصول إلى مرعش على الحدود بين الشام وقيليقية (سنة ١٠٦٨) . ولم تكد تنتهى تلك السنة حتى كان الامبراطور قد وصل إلى منبج « فى عسكر كثيف » على الضفة الغربية لنهر الفرات — وهناك ترك حامية فى أرتاح شرقى أنطاكية (٢) . ولكن جموع السلاجقة لم توقف نشاطها فى تلك الأثناء ، وإنما واصلوا إغاراتهم المدمرة حتى نهبوا عمورية فى قلب فريجيا ، وبذلك لم تعد أرمينية تقف حاجزا بين السلاجقة وقلب آسيا الصغرى ، وصارت مسالك تلك البلاد مألوفة لهم (٣) . على أنه إذا كان السلاجقة قد أوغلوا بهذه الصورة فى قلب آسيا الصغرى ، إلا أنهم حرصوا دائما على عدم الاصطدام بالجيش الامبراطورى ، حتى أنهم كثيرا ما كانوا يتركون خلفهم ما جمعوه من مغانم ومكاسب . ثم كان أن استطاع رومانوس الرابع — على الرغم من ثورة أحد زعماء النورمان المرتزقة فى قيليقية — أن يطارد السلاجقة حول قيصرية وأن يوغل فى غرب أرمينية ، وإن كان قد قلل من شأن هذه الانتصارات الهزيمة التى أنزلها السلاجقة بحاكم ملطية البيزنطى ، ثم استيلاء السلاجقة على تلك المدينة . وفى سنة ١٠٧٠ أنزل السلاجقة هزيمة

(1) Ostrogorsky : op. cit; p. 304.
(2) Groussel ; Hist. de l' Armenie, p. 626. &
ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٢ هـ .
(3) Vasiliev : op. cit. I, p. 355

أخرى بالقائد البيزنطى مانويل كومنين قرب سيواس وأسروا ذلك القائد . هذا مع ملاحظة أن الرها — فى بلاد النهرين — ظلت طوال تلك الأثناء فى قبضة البيزنطيين ، فصمدت لجميع الهجمات التى تعرضت لها من جانب السلاجقة (١) .

أما ألب أرسلان فكان قد انتهى فى ذلك الوقت من تصفية المشاكل الداخلية فى دولته ، فعاد من إيران وقد صمم على اتباع سياسة الجهاد الدينى العام ضد الروم . وكان أن استولى ألب أرسلان على ملازكرد (مانزكرت) سنه ١٠٧٠ ، وهى تقع شمالى بحيرة فان ، وكانت من البقايا الأخيرة التى تبقت للدولة البيزنطية فى أرمينية ، ثم اتبع ذلك باسترداد ملطية مرة أخرى من البيزنطيين . وأخيراً قصد الرها « فحصرها فلم يظفر منها بطائل » ، وعندئذ اتجه ألب أرسلان على رأس قواته ضد حلب — وأميرها وقتئذ رشيد الدولة محمود المرداسى — فخضعت حلب للسلاجقة ، وأعلن بنو مرداس تبعيتهم لألب أرسلان الذى « خلع على محمود (المرداسى) وأعاده إلى بلده » (٢) .

وفى تلك الأثناء شرع رومانوس الرابع فى القيام بمحاولة جديدة لاسترداد أرمينية — وكان ذلك فى ربيع سنة ١٠٧١ — فخرج على رأس جيش ضخم يتألف من مائة ألف مقاتل ، وإن كان معظم هذا الجيش مؤلفاً من مرتزقة من النورمان والتركمان ، مما جعله مفتقراً إلى حسن التنظيم . وعند وصول رومانوس الرابع إلى أرزن ارتكب خطئاً كبيراً بتقسيم قواته ، فأرسل جزءاً من جيشه لمهاجمة مدينة خلاط ، فى حين سار هو على رأس بقية الجيش تجاه مانزكرت واستولى عليها فعلا . ولم يكد ألب أرسلان يسمع تلك الأخبار حتى ترك حلب قاصداً أرمينية ، حيث اتبع السياسة التقليدية للسلاجقة ، وهى تجنب الإصطدام

(1) Grousset : L'Empire de Levant, p. 165.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٣ هـ

بالجيوش البيزنطية . وعندما أرسل ألب أرسلان إلى الإمبراطور رومانوس الرابع يطلب مهادنته ، رد الإمبراطور قائلا « لاهدنة إلا بالرى » أى أنه ينوى غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم بالرى ؛ وعندئذ انزعج السلطان ألب أرسلان ، ولم يعد هنالك مفر من القتال [١] .

وفى ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ التقى ألب أرسلان بخصمه رومانوس الرابع جنوبى ملازكرد (مانزكرت) ، أو على وجه التحديد بين مانزكرت وخلاط . وفى الموقعة الحاسمة التى دارت بين الطرفين حلت الهزيمة بالبيزنطيين ، ووقع الإمبراطور رومانوس الرابع نفسه أسيراً « وقتل من الروم مالايحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى » [٢] . ويقال إن الإمبراطور البيزنطي أبلى بلاء حسناً وحارب بشجاعة وبسالة حتى سقط فرسه قتيلا من تحته ؛ ولكن الخيانة لعبت دورها عندئذ فى إضعاف قوة البيزنطيين ، إذ انفض عنهم جنودهم المرتزقة من التركمان واستجابوا لنداء رابطة الدم فانضموا إلى جانب السلاجقة . بل إن بعض القادة البيزنطيين تخلوا عن إمبراطورهم فى تلك اللحظة الحرجة فأشاعوا خبر الهزيمة والمعركة مازالت دائرة ، وعندئذ فر الجند تاركين الإمبراطور يقع فى قبضة أعدائه [٣] .

ومهما يكن من أمر ، فإن موقعة ملازكرد (مانزكرت) كانت أكبر كارثة حلت بالإمبراطور البيزنطية حتى نهاية القرن الحادى عشر . وليس هذا مجال الإفاضة فى أثر الموقعة فى التاريخ البيزنطى ، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها جاءت دليلا على نهاية دور الدولة البيزنطية فى حماية المسيحية من ضغط الإسلام ؛ وفى حراسة الباب الشرقى لأوربا من غزو الأسيويين ، وبذلك صار على الغرب

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٣ هـ.

(٢) المرجع السابق والسنة نفسها .

(3) Vasiliev : op· cit. I, p 356.

الأوربى أن يقوم بدوره فى هذا المضمار بدلا من اعتماده حتى ذلك الوقت على الإمبراطورية البيزنطية . وبعبارة أخرى فإن موقعه مانزكرت تبرر — فى نظر كثير من المؤرخين — ماحدث سنة ١٠٩٥ من دعوة للحرب الصليبية فى الغرب الأوربى ، على أساس أن هذه الدعوة إنما جاءت رد فعل للكارثة التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١[1] .

على أنه ثمة حقيقة أخرى أكسبت موقعة ملازكرد (مانزكرت) أهميتها الخطيرة فى التاريخ ، هى أن المجتمع البيزنطى كان قد بلغ عندئذ درجة من الانحلال جعلته لا يقدر خطورة تلك الكارثة . حقيقة إن انتصار السلاجقة فى ملازكرد كان لا يعنى — بالنسبة لأفقهم المحدود فى ذلك الوقت — أكثر من امتلاكهم أرمينية ثم أنطاكية والرها . وفى ضوء هذه الحقيقة عامل السلطان ألب أرسلان أسيره الإمبراطور رومانوس الرابع معاملة طيبة ، فأحسن وفادته ثم أطلق سراحه بعد ثمانية أيام من أسره ، وأعاده إلى بلاده معززاً ؛ بعد أن جهزه بعشرة آلاف دينار يستعين بها على السفر[2] ويبدو أن كل ما كان يطمع فيه ألب أرسلان هو أن تقف الامبراطورية البيزنطية موقف الحياد إزاء جهود السلاجقة لتوحيد الدولة الإسلامية فى الشرق الأدنى ، وأن يقوم الامبراطور برد خصوم السلطان الفارين من وجهه إلى الأراضى البيزنطية[3] . وهكذا بدلا من أن يستغل ألب أرسلان انتصاره فى محاولة احتلال بقية آسيا الصغرى ، إذا به يتجه سنة ١٠٧٢

(1) Ostrogorsky, op. cit. p. 305

(٢) يروى ابن العبرى أن ألب أرسلان عندما رأى الإمبراطور الأسير وبخه وقال له: «ألم أرسل لك فى المهادنة فأبيت؟» فقال: دعنى من التوبيخ وافعل ماتريد. فقال السلطان « ما عزمت أن تفعل بى إن أسرتنى؟» فقال «القبيح !» قال له : «فما تظن أننى أفعل بك؟» قال «إما أن تقتلنى وإما أن تشهرنى فى بلادك، والاخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائباً عنك». قال «ماعزمت على غير هذا». ففداه بألف ألف دينار وأن يطلق كل أسير عنده من المسلمين. (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ١٨٥).

(3) Setton ; op. cit. ps. I; 149, I93.

إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر (جيحون)[١] .
ولكن البيزنطيين — بانشقاقهم وانقسامهم على أنفسهم — هم الذين وسعوا الخرق وضاعفوا من خطر الهزيمة ؛ فلم يكفهم ضياع أرمينية ، وإنما تسببوا فى فتح أبواب آسيا الصغرى على مصاريعها أمام السلاجقة . ذلك أن أخبار كارثة ملازكرد لم تكد تصل إلى القسطنطينية حتى أعلن ميخائيل السابع امبراطورا (١٠٧١ — ١٠٧٨) . وعند إطلاق سراح رومانوس الرابع ألقى القبض عليه وسملت عيناه ، وعلى تلك الصورة توفى رومانوس بعد ما أبداه من شجاعه فى مانزكرت[٢] .

أما ألب أرسلان فقد قتل سنة ١٠٧٢ أثناء حروبه فى بلاد ما وراء النهر (جيحون) ، فخلفه ابنه ملكشاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) الذى ثبت دعائم دولة السلاجقة حتى اتسعت فى عهده وامتدت من حدود الصين شرقا حتى بحر مرمرة غربا .[٣] ومع ذلك فإنه من الخطأ الاعتقاد فى أن امتداد دولة السلاجقة غربا على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية ، لأنه من الحقائق التى تسترعى انتباهنا أن هذا السلطان لم تطأ قدمه أرض الأناضول ، وإنما قام بمواصلة الحرب ضد البيزنطيين أحد أقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلمش الذى تمكن من بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريبا[٤] . وساعد سليمان

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٣ — ٤٦٥ هـ .

(2) Vasiliev : op. cit, I, p. 356.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٥ هـ ؟ ابن العبرى ص ١٨٦

(٤) حدث فى أواخر أيام السلطان طغرل بك أن انشق عليه أحد أبناء عمومته وهو قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق ، ونزح إلى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبى بحر قزوين ومعه بعض التركمان . ولم يلبث قتلمش أن أعلن الثورة على ألب أرسلان . واختار أبناء قتلمش — ومع كل منهم عصبية من التركمان — أن يحتموا بجبال آسيا الصغرى وفيافيها . وقد ظهر من هؤلاء الأبناء سليمان بن قتلمش الذى أخذ يعمل على التوسع فى آسيا الصغرى لحسابه الخاص ضد ملكشاه والبيزنطيين جميعاً ؛ مما يعتبر مقدمة لدولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .
« Setton ; op. cit,. I p. 150 ».

ابن قتلمش فى تحقيق سياسته الحالة التى أمست عليها آسيا الصغرى من انحلال اجتماعى ونقص فى السكان ، بعد أن هجر كثيرون أرضهم ، وبخاصة فى الجهات الشرقية والشمالية من شبه الجزيرة ، مما ترك الطريق مفتوحا أمام السلاجقة لاحتلال الضياع الخربة التى هجرها أصحابها من البيزنطيين فى آسيا الصغرى .

توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى :

ثم كان أن قامت حرب أهلية جديدة داخل الدولة البيزنطية ، مكنت السلاجقة من الاستيلاء على فريجيا وبيثنيا حتى بحر مرمرة ، ومن الاستيلاء على ليديا وأيونيا حتى بحر إيجة . وحسبنا دليل على انحلال أوضاع الامبراطورية البيزنطية فى القرن الحادى عشر أنه تولى عرش الامبراطورية فى مدى ست وخمسين سنة (١٠٢٥ - ١٠٨١) ثلاثة عشر امبراطورا منهم امرأتان ، بمعدل أربع سنوات تقريبا لكل امبراطور ، مما يشهد على حالة عدم الاستقرار التى كانت تعيش فيها الامبراطورية فى ذلك العصر . ثم إن جميع أولئك الأباطرة — باستثناء واحد أو اثنين — كانوا على قدر ضئيل من القدرة والكفاية ، مما أتاح فرصة طيبة للطامعين من حكام المدن والولايات للثورة والاستقلال عن الحكومة المركزية فى القسطنطينية[1] .

وقد حدث فى مستهل سنة ١٠٧٨ أن خرج نقفور (Nicephorus Botaneiates) — حاكم إقليم عمورية فى فريجيا — على الأمبراطور ميخائيل السابع دوقاس . ولم يتردد نقفور الثائر فى إعلان نفسه إمبراطورا باسم نقفور الثالث ، بل إنه استعان بالسلاجقة الذين تدفقوا على غرب آسيا الصغرى واستولوا باسم الحاكم الثائر على كثير من المدن مثل نيقية ونيقوميديا وخلقدونيا والبسفور . وكانت هذه أول مرة يحتل فيها السلاجقة نيقية بوصفهم حماة الأمبراطورية ، أى باسم الإمبراطور

(1) Chalandon ; Regne d'Alexis Comnenie, p. 1, f.

نقفور الثالث (١٠٧٨) .[1] وإذا كانت تلك المدن قد ظلت من الناحية الشكلية تابعة للامبراطورية البيزنطية ، إلا أن الحاميات الامبراطورية الجديدة التي قامت فيها جاءت من نوع غريب ، إذ تألفت من رجال يدينون بالإسلام ويجدون لذة في الإغارة على القرى والضياع المجاورة للنهب والتدمير ، فضلا عن أنهم قطعوا الاتصال بين القسطنطينية وداخلية الأناضول . ولم تكد تنتهي سنة ١٠٧٨ إلا وكانت حامية نيقية السلجوقية قد رفعت راية العصيان في وجه نقفور الثالث الذي أقامها في تلك المدينة .[2] وفي تلك المرة لم يعدم السلاجقة وسيلة للعثور على خائن بيزنطي جديد — اسمه نقفور أيضاً Nicephorus Melessenus عقد اتفاقية مع سليمان بن قتامش ، فتعهد الأخير بمساعدة الثائر في الاستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة على نصف المدن والأقاليم التي سبق أن ساعدوا نقفور الثالث في الإستيلاء عليها[3] .

وكان أن أقلع نقفور الثائر من كوس سنة ١٠٨١ ومعه جموع جديدة من السلاجقة ، فاحتلوا نيقية وبيثينا بأكملها . وكان احتلال السلاجقة لتلك المراكز وغيرها نهائياً وثابتاً في تلك المرة . ولكن إذا كان السلاجقة قد باشروا نشاطهم الحربي عندئذ بوصفهم حلفاء لنقفور الثائر ، إلا أنه حدث في السنة نفسها (سنة ١٠٨١) أن صفت الامبراطورية مشاكلها الداخلية بإعلان ألكسيوس كومنين امبراطورا أوحداً ، ودخول نقفور الثائر في طاعة الامبراطور الجديد ، وعندئذ رفض السلاجقة وزعيمهم سليمان بن قتلمش الاعتراف بأي حق للامبراطورية البيزنطية في المدن والأراضي التي احتلوها في آسيا الصغرى .[4] وقد اختار سليمان بن قتلمش السلجوقي مدينة نيقية لتكون مركزا له ، وهي المدينة التي أصبحت

---

(1) Vasiliev : op. cit., I, p. 357.
(2) Ostrogorsky ; op. cit., p. p. 308-309
(3) Ostrogorsky : op. cit., p. 308
(4) Vasiliev. op. cit. I, p. 357.

أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم فى الأناضول ، حتى حلت محلها قونيه فيما بعد (١٠٨١ — ١٣٠٢) . كذلك خسر البيزنطيون فى ذلك الوقت نيقوميديا التى لم يستطع الامبراطور ألكسيوس كومنين استردادها إلا بعد أن توفى سليمان سنة ١٠٨٦ . ثم كان أن احتل الأتراك السلاجقة مدينة أزمير على بحر إيجه ، فقام أميرها التركى زاخاس بإنشاء أسطول مكنه من غزو الجزر الكبيرة القريبة من شاطىء آسيا الصغرى ، بل لقد هدد القسطنطينية ذاتها[١] . وفى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة استطاعت أسرة دانشمند التركمانية تأسيس إمارة قوية حول قيصريه وسيواس وأماسيا ، وكانت هذه الإمارة مستقلة عن سلطنة الروم وتابعة للسلطان ملكشاة مباشرة[٢] . ولا شك فى أن هذه الإمارات العديدة التى نشأت فى ظل حركة التوسع السلجوقى ، والتى أخذت كل منها تعمل لحسابها الخاص تحت ستار سلجوقى عام ، أقول إن هذه الإمارات جعلت مهمة استرداد آسيا الصغرى صعبة وشاقة أمام المسيحيين[٣]

وهكذا كان الأتراك — عند قيام ألكسيوس كومنين امبراطوراً على الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ — هم السادة الحقيقيون فى آسيا الصغرى من الفرات شرقاً حتى بحر مرمرة غرباً[٤] . على أنه من المهم أن نلاحظ أنه لم توجد وحدة تربط أولئك الأتراك ، وإنما ظل الأمراء المحليون — مثل زاخاس أمير أزمير ، ودانشمند فى كابادوكيا — لا يعترفون بالطاعة لسليمان بن قتلمش . وبعبارة أخرى فقد ظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موحدة تسيطر عليها حتى قيام سلطنة قونية سنة ١٠٩٢ على يد قلج أرسلان الأول ، ابن سليمان[٥]

(1) Ostrogorsky : op cit, p 3I9.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p p. 170 - 173,

(3) Cam, Med, Hist, vol. 4. p, 331

(4) Setton : op. cit: vol 1, p. 213.

(5) Cam. Med. Hist, vol, 4, p. p. 331-332.

أما سواحل آسيا الصغرى ـ السواحل الشمالية المطلة على البحر الأسود بما فيها طرابيزون ، والسواحل الجنوبية المطلة على البحر المتوسط حتى قيلقية - فقد ظلت فى قبضة البيزنطيين . ولعلهمما يسترعى انتباهنا أنه بينما كانت نيقية على مشارف البسفور بيد الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٨١ ،فإن هناك مدن أخرى متطرفة فى الشرق ـ فى الشام مثل أنطاكية،وشرقى الفرات مثل الرها ـ بقيت تابعة للدولة البيزنطية ، فقامت بها حاميات بيزنطيةوزعماء من الأرمن يعترفون بالسيادة للقسطنطينية ، واستمرت أنطاكية على ذلك الوضع حتى سنة ١٠٨٥ والرها حتى سنة ١٠٨٧[١].

ولم تلبث أن أخذت المدن الكبرى فى آسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد أخرى للأتراك بعد أن خربت الأراضى المحيطة بها بسبب كثرة ما تعرضت له من هجمات، مما جعل كثيراً من أهالى المدن والضياع البيزنطيين يهجرونها ويتركونها قاعا صفصفاً ليحتلها الأتراك . ويبدو أن سليمان بن قتلمش حرر كثيراً من عبيد الأرض الذين كانوا يفلحون ضياع كبار الملاك البيزنطيين فى آسيا الصغرى ، وبذلك اكتسب ولاء تلك الفئة التى طالما قاست الكثير من الاستعباد والظلم . ولعل هذه الحقائق كلها هى التى جعلت من الصعب على آل كومنين وعلى رجال الحملات الصليبية التى أخذت تفد من الغرب منذ أواخر القرن الحادى عشر استرداد أراضى الأناضول من الأتراك، بعد أن انتشرت فيها قبائل السلاجقة والتركمان وضربوا فيها خيامهم حتى غدت وكأنها قطعة من مراعى القرغيز[٢].

---

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. 12

(2) Groussel : L'Em

الفصل الثالث

الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر

النورمان فى آسيا الصغرى :

استعان الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع بجموع من النورمان المرتزقة ، الوافدين من صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان يرجو أن يتمكن بفضل هذه القوة من صد خطر السلاجقة فى آسيا الصغرى[1] . وقد برز من هؤلاء المغامرين النورمان رجل طموح اسمه رسل باليل Roussel de Bailleul أراد أن يستغل الصراع بين البيزنطيين والسلاجقة فى الشرق لتحقيق مكاسب خاصة لنفسه ، ففكر فى إنشاء دولة مستقلة فى الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً[2] . ولم يلبث رسل باليل أن أعلن عصيانه سنة ١٠٧٣ فأخضع لحسابه الخاص الجهات المحيطة بقونية وأنقره ، وأخذ يوجه هجماته ضد البيزنطيين حيناً والسلاجقة أحياناً . وهكذا وجد القائد البيزنطى اسحق كومنين ـ الذى كان مكلفاً بمحاربة السلاجقة فى آسيا الصغرى ـ نفسه بين نارين مما أوقعه أسيراً فى قبضة السلاجقة[3] .

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع السكوت عن خيانة رسل ، وهو المفروض أن يكون أجيراً للامبراطورية خاضعاً لها مطيعاً لأوامرها ، فأرسل الإمبراطور حملة جديدة ضد رسل بقيادة حنادوقاس عم الإمبراطور . ولكن هذه الحملة منيت هى الأخرى بالهزيمة جنوبى عمورية ، وأسر القائد البيزنطى تلك المرة

(1) Setton : op, cit. I. p. 200
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance I. p. 283
(3) Schlumberger ; Recits de Byzance et des Croisades. p, 82.

أيضاً [١] . ولم يلبث أن ازداد بأس رسل وبطشه بعد أن شعر بقوته وتفوقه على الإمبراطورية الهزيلة ، فشق طريقه إلى البسفور فى مواجهة القسطنطينية ؛ حيث أحرق بعض القرى البيزنطية . ثم إن رسل لجأ إلى إعلان أسيره حنا دوقاس إمبراطوراً حتى يكسب نفسه وحكمه صبغة شرعية[٢] .

وهنا خشى الامبراطور ميخائيل السابع أن يفعل النورمان بالأناضول مثلما فعلوا فى البلقان ، لذلك استنجد بالسلاجقة ضد النورمان مما أنزل أبلغ الضرر بالنفوذ البيزنطى ، لما ترتب على ذلك من تثبيت أقدام الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى[٣] . ذلك أن سليمان بن قتلمش عقد اتفاقية مع الامبراطور البيزنطى سنة ١٠٧٤ تعهد فيها السلاجقة بتقديم المساعدة المطلوبة للأمبراطورية ، بشرط استيلائهم على الأراضى التى يفتحونها . ولم يكن مع رسل دى باليل أكثر من ثلاثة آلاف من المغامرين النورمان ، فلم يستطع الصمود فى وجه السلاجقة وحلت به الهزيمة ، وإن كان قد استطاع أن يحتفظ لنفسه برقعة ضيقة من الأرض قرب سيواس ، ومن هناك أخذ يحاول مرة أخرى ضرب البيزنطيين بالسلاجقة وتهديد موانى البحر الأسود . وصادف عندئذ وصول قائد سلجوقى جديد إلى الأناضول — هوتتش — الذى أخذ بدوره يساعد البيزنطيين ، فاستدرج رسل باليل حتى قبض عليه ثم سلمه للقائد البيزنطى الجديد فى آسيا الصغرى ، وهو ألكسيوس كومنين الذى غدا امبراطوراً فيما بعد[٤] .

وهكذا استسلم أتباع رسل من النورمان فى أسيا الصغرى ، وفشلت تلك المحاولة التى قام بها النورمان لإقامة دولة لهم فى الأناضول ، وذلك قبل أن يقيم

(1) Ostrogorsky: op. cit. p. 307.
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 284
(3) Schlumberger : Recits de Byzance, p. p. 84 - 85
(4) Brehier : op. cit. p. 284

الصليبيون النورمان إمارتهم فى أنطاكية بعشرين سنة . ومهما يكن من أمر ، فإن أهمية حركة رسل باليل ترجع إلى كونها أول محاولة قام بها بعض الغربيين لتثبيت أقدامهم فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية ، فضلا عما ترتب عليها من ازدياد نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى [١] .

دولة الأرمن الأولى فى طوروس :

اتخذت حركة انتشار السلاجقة فى آسيا الصغرى اتجاها أفقياً من الشرق إلى الغرب ، عبر أرمينية وكابادوكيا وفريجيا وبيثينيا وأيونيا،حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . أما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الصغرى — حول طوروس وملطية ثم الرها وأنطاكية — فلم يتجه إليها السلاجقة فى أول الأمر ، مما أدى إلى عزل تلك المنطقة عن بقية بلاد الإمبراطورية البيزنطية ، ثم وقوعها بين شقى الرحى فى الصراع القائم بين البيزنطيين والسلاجقة فى آسيا الصغرى . ولم تلبث هذه الأقاليم أن أصبحت مركزا لحركة إحياء أرمينية فريدة فى نوعها وذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تفسر لنا السهولة التى استطاع بها الصليبيون بعد عشرين سنة الوصول إلى الجزيرة والشام والاستيلاء على الرها وأنطاكية [٢] .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد منحت ملوك أرمينية وأمراءها ضياعاً واسعة فى إقليم كابادوكيا ، مما ترتب عليه هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم فى شرق آسيا الصغرى [٣] . ولكن توسع الأتراك السلاجقة فى كابادوكيا واستقرارهم فى ذلك الإقليم ، جعل أولئك الأرمن يبحثون عن مأوى

(1) Grousset : L'Empire du Levant p. p. 168-169

(2) Grousset : Hist. de l'Armenie, p. 554.

(3) Setton : op. cit p. 179.

جديد،فاتجهوا نحو إقليم قيليقية الجبلى فى جنوب شرق آسيا الصغرى، وتركزوا فى الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية [١].

وليس هناك من شك فى أن تلك الهجرة الأرمينية ترتب عليها تغيير معالم المنطقة، فضلا عن أن الحكومة البيزنطية — رغم عدائها التقليدى للأرمن بسبب الخلاف المذهبى بين الكنيستين [٢] — استطاعت أن تجد فى ذلك الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى جنوداً اعتمدت عليهم فى مواجهة الغزو السلجوقى. ويأتى فيلاريتوس براخاميوس Philaretos Brakhamios [٣] على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الإمبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها فى جنوب شرق آسيا الصغرى. وكان هذا القائد الأرمنى قد عمل تحت قيادة الامبراطور رومانوس الرابع، حتى إذا ماحلت هزيمة مانزكرت بذلك الإمبراطور سنة ١٠٧١، رفض فيلاريتوس الاعتراف بالإمبراطور الجديد ميخائيل السابع [٤].

وهنا يلاحظ أن الأرمن فى شرق آسيا الصغرى استخفوا بالبيزنطيين بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١. وفى الوقت نفسه عمل الأرمن على استرضاء السلاجقة بقدر المستطاع ومهادنتهم [٥]. ولم يلبث فيلاريتوس أن دعم مركزه حول مرعش ورعبان والإبلستين، حيث أقام إمارة قوية مستقلة عن الحكومة البيزنطية، ازدادت منعة بعد أن نجح فى استرداد ملطية التى كان السلاجقة قد استولوا عليها سنة ١٠٦٩. وعندما ظهرت قوة فيلاريتوس واتضحت أهميته، دخل فى تبعيته بعض زعماء الأرمن المجاورين؛ الذين كانوا بدورهم قد انتزعوا أجزاء متفرقة من قيليقية. وهكذا أصبح فيلاريتوس يسيطر على ثلاث مدن رئيسية

---

(1) Iorga : L'Armenie Cilicienne p. p. 87 - 88

(2) Idem, p 89.

(٣) أطلق عليه ابن الأثير اسم القلادروس (الكامل، حوادث سنة ٥٠٠هـ)

(4) Brebierr: op. cit. p. 284,

(5) Cam. Med. Hist, vol. 2, p. 260

فى قيليقية، هى طرسوس والمصيصة وعين زربة. وفى سنة ١٠٧٧ أرسل فيلاريتوس أحد رجاله للاستيلاء على الرها من البيزنطيين، فحاصرها ستة أشهر، حتى استسلمت له المدينة أخيراً بفضل مساعدة من بداخلها من الأرمن . أما أنطاكية فقد قتل آخر حاكم بيزنطى عليها سنة ١٠٧٨ ، فخشى أمراء المدينة وأهلها — ومعظمهم من الأرمن — أن يستولى السلاجقة المسلمون عليها ؛ ولذلك سلموها مختارين لفيلاريتوس [١] .

والواقع إن المسيحيين فى أنطاكية والرها وغيرهما من المدن والأقاليم الشرقية التابعة للدولة البيزنطية، وجدوا أنفسهم وسط محيط واسع من الأتراك السلاجقة، بعد أن قطع الطريق بينهم وبين قلب الامبراطورية البيزنطية ، مما تعذر معه وصول نجدات إليهم من القسطنطينية . لذلك لم يجدوا أمامهم مخرجاً سوى تكوين إمارات صغيرة مستقلة تحت زعامة الأرمن وقيادتهم ، وهم الفريق الوحيد بين المسيحيين الشرقيين فى تلك المنطقة الذين احتفظوا بكيانهم وروحهم الحربية [٢] .

وهكذا وضع فيلاريتوس أساس دولة أرمينية جديدة فى جنوب شرق آسيا الصغرى ، وهى الدولة التى اكتمل نموها فيما بعد — أى فى القرن الثالث عشر — على عصر روبان وهيثوم ملوك أرمينية الصغرى [٣]. حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين — أو على وجه التحديد — الثلاثة الأوائل من آل كومنين (١٠٨١-١١٨٠) استردوا جزء من تلك الدولة الأرمينية التى وضع أساسها فيلاريتوس ؛ ولكن ذلك لم يحل دون استمرار دولة الأرمن فى طوروس [٤] . ولم يلبث الامبراطور نقفور الثالث (١٠٧٨ - ١٠٨١) أن اتبع سياسة حكيمة استهدفت تدعيم

(1) Brehier : op. cit. p. 285.

(2) Grousset : L'Empire du Levant. p. 180

(3) Jorga : l'Armenie Cilicienne. p. 89.

(4) Vasiliev : op. cit. vol. 2. p. 415.

العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمنى ، فى الوقت الذى أظهر فيلاريتوس من جانبه إعتدالا وحكمة ، فاعترف بسيادة الامبراطورية ، وإن كان قد ظل مستقلا من الناحية العملية . ثم إن فيلاريتوس كان حذراً تجاه جيرانه المسلمين ، فاعترف فى حكمه للجهات القريبة من الموصل بالتبعية لبنى عقيل ؛ وهم أمراء الموصل العرب [١] . ويذكر المؤرخ ميخائيل السريانى أن فيلاريتوس أراد أن يؤمن ممتلكاته من ناحية السلطان ملكشاه أيضا ، وأنه كان مستعدا ـ إذا دعى الأمر ـ لاعتناق الإسلام فى سبيل خدمة مصالحه الخاصة [٢] .

على أن السلاجقة كانوا لا يمكن أن يغضوا البصر تماما عن تلك الإمارة الأرمينية التى اعترضت طريق توسعهم إلى الشام . لذلك انتهز سليمان ابن قتلمش السلجوقى فرصة الاضطراب الذى حدث فى دولة فيلاريتوس نتيجة لتآمر ابنه ضده ، وباغت أنطاكية « وملكها سرقة » سنة ١٠٨٥ ، أى قبل استيلاء رجال الحملة الصليبية عليها بثلاث عشرة سنة [٣] . وهنا نلاحظ أن قصر المدة بين استيلاء السلاجقة المسلمين على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وفتح الصليبيين لها سنة ١٠٩٨ أمر له دلالته بالنسبة لدارس تاريخ الحروب الصليبية ، لأن تلك الفترة القصيرة لم تكف لمحو معالم الحكم البيزنطى وإزالة بقايا الإدارة البيزنطية

---

(١) سيطر العقيليون على الموصل سنة ٩٩٦ على يد الأمير حسام الدين المقلد ، وظلوا يحكمون هذه المدينة حتى سنة ١٠٩٦ عندما انتزعها منهم كربغا (كربوقا) السلجوقى. وفى الفترة التى نتكلم عنها كان حاكم الموصل من بنى عقيل وهو شرف الدولة أبو المكارم مسلم أمير الموصل من سنة ١٠٦١ حتى ١٠٨٥ .

(٢) كذلك يؤكد المؤرخ ابن الأثير أن فيلاريتوس (الفلادروس) مثل بين يدى السلطان ملكشاه، وأن الأخير «أمره على الرها فلم يزل عليها حتى مات وأخذها الأمير نزار (بزان) » .

(الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٠ هـ) .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٧ .

من المدينة ، مما جعل الدولة البيزنطية تتمسك بحقها الشرعى فى أنطاكية ،وتصر على ذلك الحق منذ اليوم الأول الذى قامت فيه إمارةأنطاكية الصليبية (١)

وثمةملاحظة أخرى هى أن الإمارةالأرمينية التى أقامها فيلاريتوس لم تندثر تماما من صفحة التاريخ فى عصر الحروب الصليبية ، لأنه فى الوقت الذى سقطت أنطاكية فى أيدى المسلمين ثم الصليبيين ، احتفظ أحـد الأرمن من رجال فيلاريتوس — واسمه جبريل — بملطية ، وإن كان قدأعلن ولاءهللسلاجقة(٢). ومثل ذلك حدث أيضاً فى الرها ، فباستثناء فترة قصيرة احتل فيها الأمير التركى بوزان (١٠٨٧ — ١٠٩٤) مدينة الرها ؛ استطاع ثوروس—وهو قائدأرمنى آخر كان أبوه من رجال فيلاريتوس - أن يحكم المدينة حتى وصول الصليبيين(٣) حقيقة إن تتش — أخو السلطان ملكشاه — استولى على الرها سنة ١٠٩٤ ، ولـكنه أقر ثوروس فى حكم المدينة (٤).

وهكذا مهد الحـكم الأرمنى فى شرقآسياالصغرى وأطراف العراق والشام لحـكم الصليبيينالغربيين ، كما سيتضحلنا عند دراسة تاريخ الحملة الصليبيةالأولى وتأسيس إمارة الرها الصليبية سنة ١٠٩٧ . كذلك مهد ذلك الحـكم الأرمنى لنشأة مملـكة أرمينية الصغرى الصليبية فى أواخرالقرن الثانى عشر ،وهىالمملـكة التى قامت فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، ونهضت بدور بارز فى تاريخ الحروب الصليبية بل فى تاريخ الشرق الأدنى فىتلك الحقبة ، كما سنشرح ذلك بالتفصيل فيما بعد.

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. XL III.
(2) Setton, op. cit, I, p. 299
(3) Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p. 175& Runciman : A Hist. of the Crusades, I, p. 75.
(٤) ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٤٨٦

السلاجقة وبلاد الشام :

يلاحظ أن استيلاء الأتراك على أنطاكية لم يتم دون إثارة عدة خلافات فى صفوف المسلمين فى الشرق الأدنى . ذلك أن فيلاريتوس رضى بأن يحكم أنطاكية بوصفه تابعا لأمير الموصل شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى ، وأن يدفع لهذا الأمير جزية،إشارة لتلك التبعية . ويبدو أن شرف الدولة أراد أن يستفيد من حالة عدم الاستقرار السائدة فى المنطقة المحيطة به لإقامة دولة قوية تمتد من كردستان إلى شمال الشام ؛ ولذلك تحالف مع السلاجقة سنة ١٠٧٨ للاستيلاء على حلب من بنى مرداس ، وهم القبيلة العربية المنافسة الذين ظلوا يحكمون حلب منذ نصف قرن [١] .

وفى ذلك الوقت حضر إلى الشام الأمير السلجوقى تاج الدولة أبو سعيد تتش ابن السلطان العادل ألب أرسلان،وأخو ملكشاه[٢] . وكان سبب حضوره إلى الشام أن أخاه ملكشاه « أقطعه الشام ومايفتحه فى تلك النواحى » [٣] . وكان أن بدأ تتش بمحاصرة حلب بمساعدة الأمير شرف الدولة مسلم ، ولكن مسلم لم يلبث أن أدرك خطورة سياسته لما يترتب عليها من تثبيت أقدام السلاجقة فى بلاد الشام . لذلك أسرع مسلم العقيلى إلى التخلى عن تتش الذى لم يستطع الاستيلاء على حلب بمفرده فرفع الحصار عنها واتجه جنوبا صوب دمشق .

وقد أسرع مسلم من الاستفادة من الموقف فى شمال الشام عقب انسحاب تتش ، فاستولى على حلب سنة ١٠٧٩ من صاحبها سابق المرداسى ، وبذلك أصبح مسلم

---

(١) كان أمير بنى مرداس فى حكم حلب عندئذ هو أبو الفضائل سابق بن محمود ، وهو آخر امراء تلك الأسرة (١٠٧٦ - ١٠٧٩) .
(انظر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٢٠٤) .

(٢) يلقب ابن القلانسى تاج الدولة تتش بلقب السلطان (ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢) .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣١ ، ابن الاثير : الكامل : حوادث سنة ٤٧١ هـ .

العقيلي سيد حلب والموصل، واعتقد أن فى استطاعته مقاومة السلاجقة والحد من نفوذهم. ثم إن الأمير مسلم لم يكتف بأن خدع تتش أخا السلطان ملكشاه واستولى على حلب عن طريق تلك الخدعة، وإنما دخل أيضاً فى صراع مكشوف مع سليمان بن قتلمش الذى سبق أن رأينا جهوده فى فتح الأناضول. ذلك أن سليمان استولى فى أوائل سنة ١٠٨٥ على أنطاكية من فيلاريتوس، وهى المدينة التى أدعى بنو عقيل أحقيتهم فى ملكيتها، وبذلك بدأ الصراع بين سليمان بن قتلمش من جهة والأمير شرف الدولة مسلم من جهة أخرى، وهو الصراع الذى لم ينته إلا باستيلاء السلاجقة على الشام[١]. وقد دارت معركة ضخمة بين الطرفين المتنازعين قرب أنطاكية فى صيف سنة ١٠٨٥ انتهت بهزيمة الأمير مسلم ومقتله، وعندئذ اتجه سليمان بن قتلمش مباشرة لحصار حلب[٢] التى قاومت الحصار بقيادة الشريف حسن الحتيتي[٣].

أما تتش — أخو ملكشاه — فكان فى تلك الأثناء قد استولى على جزء كبير من بلاد الشام، فاتجه بعد فشله فى الاستيلاء على حلب إلى دمشق سنة ١٠٧٩ حيث وجد أنصارا للسلاجقة.

ذلك أن أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان - واسمه أتسز ابن أوق - كان قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بغزو فلسطين ودمشق لحسابه الخاص[٤]. ولم تنته سنة ١٠٧١ إلا وكان أتسز قد استولى من الفاطميين على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها، عدا أرسوف. وفى سنة ١٠٧٥-١٠٧٦ استولى أتسز أيضاً على دمشق والمنطقة المحيطة بها. وعندما ثارت بيت المقدس

---

(1) Setton : op. cit. I, p. p. 150-152.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٩١ — ٩٢ (مطبوع)

(٣) وهو الشريف أبو على الحسن بن هبه الله الهاشمى المعروف بالحتيتى.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ — ٩٩.

الشرق الأدنى
زمن الحروب الصليبية

البحر الأسود

بحر قزوين

البحر المتوسط

سينوب

طرابزون

أماسيا

سيواس

ملطية

قونية

هرقلة

طرسوس

أنطاكية

حلب

قبرس

طرابلس

حماه

حمص

دمشق

صور

طبرية

يافا

بيت المقدس

الكرك

الشوبك

وادى

الإسكندرية

دمياط

القاهرة

سيناء

مصر

الرها

حران

الموصل

الجزيرة

تكريت

بغداد

كربلاء

الكوفة

واسط

البصرة

آنى

قرس

منازكرت

فان

مراغة

الموت

فارس

همذان

المدينة

مكة

ضده وأعلنت تبعيتهـا للخليفة الفاطمى ، أخضعها أتسز فى عنف وأحدث فيها مذبحة رهيبة سنة ١٠٧٦ ـ ١٠٧٧

على أن أتسز لم يلبث أن فشل فى محاولته غزو مصر سنة ١٠٧٧ بعد أن تصدى له أمير الجيوش بدر الجمالى وأنزل به الهزيمة[1] . ويبدو أن هذا النصر الذى أحرزه بدر الجمالى شجعه على إرساله حملة لأسترداد دمشق، فشرع الفاطميون فى حصارها فعلا ، فى الوقت الذى أخذ تتش يزحف من حلب إلى دمشق ، مما جعل الفاطميين يؤثرون الانسحاب، فى حين رحب اتسز بمقـدم تتش « وخدمه و بذل له الطاعة والمناصحة وسلم البلد إليـه »[2] . ومع ذلك ، فإن تتش لم يرض بأن يكون أتسز إلى جانبه فى دمشق ، ففـكر فى التخلص منه ، وقتله فعلا سنة ١٠٧٩ ، وبذلك لم يعد هناك من ينافس تتش فى دمشق «فأحسن السيرة فى أهله وعدل فيهم » . وبذلك صار تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام ، وكان ذلك فى الوقت الذى استنجد به أهـــل حلب سنة ١٠٨٦ ضد سليمان بن قتلمش الذى أخذ يحاصر مدينتهم فى شدة وعنف[3].

وهكذا أصبحت المعركة المقبلة فى شمال الشام محصورة بين اثنين من أمراء السلاجقة، أحدهما سليمان بن قتلمش فاتح الأناضول من نيقية إلى انطاكية، والثانى هو تتش أخو السلطان ملـكشاه نفسه . وكان أن اصطحب تتش قائده ارتق بن اكسب — الذى أقطعه بيت المقدس — واتجه نحو حلب لمنازعة سليمان تلك

(1) Setton ; op. cit. I. p. 94.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٩ — ١١٢ . ويروى النويرى أن أتسز صاحب دمشق أرسل إلى تتش «يستنجده على العساكر المصرية لأنها قد حاصرته بدمشق، من قبل أمير الجيوش بدر الجمالى » .
(نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٢) .

(٣) ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الـكروب ج ١ ص ١٥ (مطبوع) .

المدينة الهامة . وفى المعركة التى دارت بين الطرفين قرب حلب، انهزمت قوات سليمان الذى خر قتيلا فى المعركة سنة ١٠٨٦[١] . ومن الواضح أن مقتل سليمان بن قتلمش ترتبت عليه نتائج خطيرة بعيدة الأثر . ذلك أنه لم يخلف سوى طفلا صغيرا هو قلج أرسلان داود ، مما جعل الأناضول يبقى بين سنتى ١٠٨٦ ، ١٠٩٢ دون حاكم قوى من السلاجقة ، فأتيحت الفرصة لصغار الأمراء من التركمان للظهور . ثم إن عدم وجود رجل قوى من زعماء السلاجقة فى الأناضول فى تلك الفترة بالذات أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى، لأنه مكن الصليبيين عند وصولهم إلى آسيا الصغرى من أن يشقوا طريقهم فى غير صعوبة كبيرة إلى الشام ، فاستولوا على نيقية ، وأحرزوا انتصارهم على السلاجقة فى موقعة ضور ليوم ، كاسيلى . هذا كله بالإضافة إلى أن مقتل سليمان بن قتلمش عند حلب أثار الفرقة فى صفوف السلاجقة ، وجعل سلاجقة الروم لا يغفرون لأقربائهم سلاجقة فارس والشام ذلك الجرم . ولذلك لم يقدر للسلاجقة مطلقا أن يتحدوا جميعاً لمواجهة الخطر الصليبي ، ولم يحاول أبناء بيت ملكشاه وتتش أن يتعاونوا مع سلاجقة الروم — وهم خلفاء سليمان بن قتلمش — لإقامة جبهة قوية تحول دون وصول الصليبيين إلى الشام . وهكذا شاء حسن حظ الصليبيين أن يواجهوا كل فرع من بنى سلجوق على انفراد ، مما مكنهم من إنزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة[٢] .

أما عن تتش فيبدو أن انتصاره أمام حلب جعله سيد الموقف فى بلاد الشام بأكملها . هذا وإن كان أخوه الأكبر السلطان ملكشاه قد أخذ يتخوف من اتساع نفوذه ، ولذا لم يتركه ينعم بالشام منفردا . وقد استغل ملكشاه فرصة إصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم إلا للسلطان ملكشاه نفسه ، واتجه من

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ (مطبوع) .

2 - Grousset : Hist. des Croisades, I, P XLVI.

عاصمته أصبهان إلى حلب عن طريق الموصل ، وذلك ليقوم بتنظيم أوضاع بلاد الشام[١] . ولم يلبث أن استولى على قلعة جعبر وعلى منبج[٢] ، حتى إذا ما اقترب ملكشاه من حلب رأى تتش أنه من الحكمة أن يبتعد عنها[٣] . وكان أن دخل السلطان ملكشاه حلب ليعيد توزيع الإمارات الشامية ، فمنح حلب لحاجبه المخلص قسيم الدولة آقسنقر مؤسس البيت الزنكى (سنة ١٠٨٧) « فعمرها وأحسن السيرة فيها »[٤] ؛ ثم توجه ملكشاه بعد ذلك إلى أنطاكية، فتسلمها من الحسن ابن طاهر وزير سليمان بن قتلمش . ثم اتجه إلى السويدية ــ وهى ميناء انطاكية القريب ــ فصلى على شاطيء البحر « وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب »[٥] :

أما الرها فقد منحها ملكشاه لقائد آخر من الأتراك اسمه بوزان (بزان) ، فى حين صارت أنطاكية ـ التى ظلت دون حاكم منذ وفاة سليمان بن قتلمش ـ من نصيب قائد تركى آخر هو مؤيد الدولة ياغى سيان[٦] . وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين ، كما ظلت بيت المقدس بيد الأمير أرتق ، الذى خلفه بعد وفاته سنة ١٠٩١ ابنه سكمان الأول . وهكذا استطاع ملكشاه أن يمنع أخاه تتش من إقامة دولة كبيرة موحدة بالشام[٧] . وكما أن ظهور تتش

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٠ (مطبوع) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ .

(٣) يروى ابن واصل أن الأمير أرتق أشار عندئذ على تاج الدولة تتش « بأن يكبس السلطان » ؛ ولكن تتش رد قائلا « لا أكسر جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فإنه يعود على بالوهن أولا » .

(ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨ — مطبوع) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠١ (مطبوع) .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩ (مطبوع) .

7 - Cam. Med. Hist. vol. 5. p. p 263 - 264.

على مسرح الأحداث فى شمال الشام سنة ١٠٨٦ أدى إلى مقتل سليمان بن قتلمش مما ترتب عليه حرمان آسيا الصغرى من رجل قوى يتزعم السلاجقة ضد خطر الصليبيين المقبل ، فكذلك جاء تدخل ملكشاه بعد ذلك ضد تتش حائلا دون قيام سلطنة للأتراك فى الشام ، مما جعل هذه البلاد تعانى الكثير من فوضى الانقسامات . وفى كلتا الحالتين استفاد الصليبيون من ذلك النزاع والانقسام بين أمراء آسيا الصغرى والشام. هذا بالإضافة إلى أن السلطان ملكشاه اصطحب معه عند عودته إلى فارس الأمير الصغير قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش[1].

على أن تلك الأوضاع لم ترض تتش ، فلجأ إلى السياسة ، وتوجه إلى أخيه السلطان ملكشاه فى بغداد سنة ١٠٩١ واسترضاه، واستأذنه فى التوسع ببلاد الشام على حساب الفاطميين، وعندئذ أذن له ملكشاه بالعود ، « وأمر آقسنقر صاحب حلب وتوران (بوزان) صاحب الرها أن يسيرا فى خدمة أخيه (تتش) بعساكرهما إلى أن يستولى على ما هو للمستنصر العلوى صاحب مصر بساحل الشام ، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها ! »[2] وكان أن بدأ تتش بمحاصرة حمص حتى استولى عليها من صاحبها ابن ملاعب « وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسلمين » وأسر ابن ملاعب نفسه وولديه ، ثم استولى تتش على عرقه وأفاميه وحاصر طرابلس ، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها[3] .

وهكذا غرقت بلاد الشام فى بحر من الفوضى بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاجقة والفاطميين

(١) استطاع قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش العودة بعد ذلك إلى ملكه الذى ورثه عن أبيه بآسيا الصغرى ؛ وقد عرف قلج هذا فى التاريخ باسم « ابن سليمان » كما أطلقت عليه الحوليات الصليبية المعاصرة اسم « سليمان » . انظر :

Setton : op cit; vol. I, p. 163.

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٢ (مخطوط) .

(٣) المرجع السابق ورقة ٣٢ — ٣٣ .

من ناحية والبيوت العربية التى كونت لنفسها إمارات مستقلة ببلاد الشام من ناحية أخرى . وزاد من خطورة تلك الفوضى التى عمت بلاد الشام عندئذ ، أنها جاءت فى الوقت الذى أخذ الخطر الصليبى يلوح فى سماء الوطن العربى فى الشرق الأدنى .

تفكك دولة السلاجقة :

يبدو أن ملكشاه كان يحلم وهو فى حلب سنة ١٠٨٧ بإقامة دولة إسلامية واسعة تركية — عربية ، على غرار الدولة العباسية بجناحيها العربى والفارسى - أيام ازدهارها ونضرتها . وكان أن عهد ملكشاه فعلا بشئون الحكم فى دولته إلى أحد رجاله المؤمنين بهذه الفكرة ، وهو الوزير الشهير نظام الملك أبو على الحسن بن اسحق الطوسى . على أن هذا الوزير اعتمد على العنصر التركى فى تنفيذ سياسته ، وهؤلاء الأتراك كانوا سنيين متشددين ، مما أغضب العنصر الفارسى الشيعى فى الدولة . وهكذا لم يهدأ الشيعة إلا بعد مقتل نظام الملك فى خريف سنة ١٠٩٢ بيد رجل ديلمى من الباطنية ، مما أحدث فراغاً ضخماً ؛ بل هزة عنيفة بجسم دولة السلاجقة [١] ، وذلك « لما كان عليه (الوزير نظام الملك) من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن والعلم ، وحب الخير وحميد السياسة » [٢] . أما ملكشاه فكان قد زوج ابنته للخليفة العباسى المقتدى ، وأنجبت هذه الزيجة طفلا صغيراً اسمه جعفر [٣] ، مما أثار فى نفس ملكشاه رغبة قوية فى أن يتولى هذا الطفل الخلافة فيجمع بين ملكى العباسيين والسلاجقة . ولتحقيق هذه الأمنية اكتفى ملكشاه بأن جعل أصبهان مقره الصيفى ،

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٢ .
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٠ ﻫ

فى حين نقل مقره الشتوى إلى بغداد ، ثم لم يلبث أن دعا الخليفة العباسى إلى التنازل عن الخلافة لإبنه جعفر . ولم تمض على هذه الدعوة بضعة أيام إلا وتوفى ملكشاه فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ ، وقيل إن الخليفة العباسى دس له السم [١] .

وقد جاءت وفاة السلطان ملكشاه إيذاناً بتفكك إمبراطورية السلاجقة . ذلك أن السلطان ملكشاة كان له ثلاثة أبناء أشقاء هم بروكياروق (بركيارق) ومحمد وسنجر . على أن ملكشاه كان قد تزوج زوجة جديدة أنجبت له سنة ١٠٨٧ إبنا رابعاً هو محمود الذى كان فى الخامسة من عمره تقريباً عند وفاة أبيه . وسرعان مادب النزاع بين محمود الصغير وأمه تركان خاتون من ناحية ، وبركياروق (بركيارق) أكبر أبناء ملكشاه — وكان فى الخامسة عشر من عمره — من ناحية أخرى [٢] . وانتهى النزاع بأن احتفظ محمود بأصبهان وفارس ، على أن تكون بقية الدولة السلجوقية بما فيها لقب السلطنة من نصيب بركياروق . على أن محمود وأمه لم يلبثا أن توفيا بعد قليل — خلال سنة ١٠٩٤ — وعندئذ اتجه بركياروق « فى الحال إلى أصبهان فدخلها وملكها » [٣] .

ولكن الخطر الأكبر الذى هدد بركياروق جاء من ناحية عمه تتش ، الذى لم يرض عن التنظيم الذى أجراه أخوه ملكشاه فى بلاد الشام سنة ١٠٨٦ — ١٠٨٧ . ففى الوقت الذى كان تتش يؤمل أن تكون بلاد الشام كلها من نصيبه ؛ إذا بالسلطان ملكشاه — كما مر بنا — يعطى حلب لحاجبه آقسنقر ، وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وأواسط الشام . لذلك لم يكد تتش يسمع

---

(١) اختلفت روايات المؤرخين فى سبب وفاة ملكشاه ، فذكر ابن الأثير مثلا (حوادث سنة ٤٨٥ هـ) أنه خرج للصيد فعاد مريضاً ، وأن سبب مرضه أنه أكل من لحم الصيد دون أن يستوفى اللحم المضج « فثقل مرضه ، وكانت حمى محرقة » . انظر أيضاً ابن العبرى ص ١٩٤ .

(٢) عن أحداث هذا النزاع ، انظر ابن الأثير : حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

بوفاة أخيه ملكشاه حتى أسرع إلى الإستفادة من حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى أمست فيها الدولة السلجوقية لتحقيق مطامعه ، فاستولى على هيت « وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة » [١] . وبعد أن جمع تتش عساكره « وأخرج الأموال » اتجه نحو حلب حيث طلب من أقسنقر الاستسلام له . وعلى الرغم مما كان يضمره آقسنقر من عداء لتتش ، إلا أنه لم يجرأ على المعارضة ، لأنه رأى « اختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم ، فعلم أنه لا يطيق دفع تتش فصالحه وصار معه ، وأرسل إلى ياغى سيان صاحب أنطاكية وإلى بوازن صاحب الرها وحران ، يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش حتى يرواما يكون من أولاد ملكشاه » [٢] وهكذا خضع آقسنقر وياغى سيان وبوزان — أى حلب وأنطاكية والرها — للأمير تتش « وخطبوا له فى بلادهم » ؛ فجمع تتش هذه القوى الثلاثة وزحف بها على فارس يبغى الحصول على السلطنة . وفى الطريق استولى تتش على الرحبة « وخطب لنفسه بالسلطنة » ، ثم صار إلى نصيبين « ففتحها عنوة وقهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً » (فبراير ١٠٩٣) كما عزل ابراهيم ابن قريش العقيلى أمير الموصل واستولى عليها (ابريل ١٠٩٣) وبذلك انتهت أسرة ابن عقيل فى الموصل [٣] . كذلك استولى تتش على ميافارقين من حكامها بنى مروان والأكراد [٤] ، وبعد ذلك دخل فارس عن طريق أذربيجان لخلع بركياروق .

ولم يكد تتش يقترب من خصمه حتى حدثت المفاجأة ، إذ تخلى عنه آقسنقر

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٨٦ هـ. ويذكر ابن الأثير أن تتش كان فى طريقه إلى بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه، وبينما هو فى هيت بلغته وفاة أخيه السلطان فعاد إلى دمشق .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٨ .

(٤) كان آخر حكام بنى مروان فى ميافارقين هو أبو المظفر منصور ، (١٠٧٩ — ١٠٩٣) — انظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠٧ .

أمير حلب وبوزان أمير الرها « وسار إلى بركياروق » ، وبذلك لم يبق مع تتش إلا ياغي سيان أمير أنطاكية . وكان انسحاب آقسنقر وبوزان محطما لخطة تتش، الذى آثر أن ينسحب بسرعة عائدا إلى الشام فى حين « انبسطت يد بركياروق واستقامت أحواله » ودخل بغداد دخول الظافر فى نهاية سنة ١٠٩٣ [١].

وكان أول مافكر فيه تتش عندعودته إلى الشام هو الإنتقام من آقسنقر أمير حلب وبوزان أمير الرها، بعد أن خاناه وتخليا عنه وقت الشدة . لذلك بدأ تتش بمهاجمة حلب فى صيف سنة ١٠٩٤ ، وعندئذ اتحد آقسنقر وبوزان ، فى حين أرسل بركياروق إليهما نجدة قوية بقيادة الأمير كربغا (كربوقا) . [٢] ولم تلبث أن دارت المعركة بين الطرفين قرب حلب ، فانتصر تتش انتصارا حاسماً ووقع آقسنقر فى يده فقتله على الفور [٣]، فى حين فرت فلول الجند المنهزمين إلى حلب حيث اعتصموا بها وأرسلوا إلى السلطان بركياروق يطلبون النجدة . على أن تتش أسرع إلى اللحاق بهم فاستولى على حلب ، وعندئذ وقع فى يده كربغا وبوزان ؛ فضربت عنق بوازن صاحب الرها وحمل كربغا أسيراً إلى حمص [٤].

وبعد أن قضى تتش فى حلب بضعة أيام زحف على الفرات ، فاستولى على حران والرها ، ثم « سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعاً ، ثم ملك ديار بكر وخلاط » ؛ وبعدذلك قصدفارس لمنازلة بركياروق نخضعت له أذربيجان واحتل

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ (مطبوع) .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥ (مطبوع) .
(٣) يروى ابن العديم أنه عندماوقع آق سنقر فى يد تتش، سأله الأخير « لو ظفرت بى ما كنت صنعت ؟ » قال : « كنت أقتلك » فقال له : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم على » فقتله .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٧ (مطبوع) .

همذان والرى [١] . وكان الموقف حاسما بالنسبة لبركياروق ، فاتجه من أصبهان إلى الرى لمواجهة خصمه ، ودارت المعركة قرب الرى فى أوائل سنة ١٠٩٥ . وللمرة الثانية تعرض تتش لخيانة بعض أعوانه المقربين إليه « فانهزم عسكر تاج الدولة تتش واستبيح ونهب ، وقتل فى ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه فى الحرب » . [٢] وهنا نلاحظ أن أعوان تتش وأمراءه كانوا يتخلون عنه ساعة الشدة لقسوته وعنفة وبأسه ، مما جعلهم يخشون على أنفسهم وعلى مطامعهم منه . وعلى العكس أدى ضعف بروكياروق ولين عريكته إلى اتجاه الأمراء نحوه؛ حيث أن شخصيته ستمكنهم من تحقيق مطامعهم الشخصية . وهكذا جاء انتصار بركياروق إيذانا بانحلال قوة السلاجقة فى الوقت الذى بدأت الاستعدادات للحرب الصليبية تجرى فى الغرب الأوربى [٣] .

ثم إن بركياروق (بركيارق) اكتفى بحكم فارس وبغداد ، دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه . وكان تتش قد ترك ولدين هما فخر الملوك رضوان وشمس الملوك دقاق ، فأخذ الأول ملك حلب وأخذ الثانى ملك دمشق [٤] ، وذلك دون أى اعتراض أو تدخل من جانب بركياروق . وكان كل ماطلبه بركياروق من رضوان هو إطلاق سراح كربغا الذى كان تتش قد سجنه بعد أسره . ولم يكد يفرج عنه حتى حصل كربغا على إذن من بروكياروق

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٤ (مخطوط).

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١١٩ (مطبوع) .
ويروى ابن القلانسى أن رأس تتش قطع «وطيف به فى العسكر، ثم حمل إلى بغداد وطيف به فيها » (ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠) .

(3) Grousset ; Hist. des Croisades, I, p. LI.

(٤) قتل رضوان أخويه أبا طالب وبهرام. أما أخوه الثالث دقاق فقد راسله ساوتكين الخادم — نائب تتش فى دمشق — ودعاه لتسلم المدينة . وكان أن غادر دقاق حلب سراً « وهرب إلى دمشق من غير أن يعلم به أحد»؛ وعندئذ أرسل رضوان قوة للحاق به ، ولكن تتش وصل سالماً «وصارت دمشق وبلادها بحكمه »(ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢١ — مطبوع) .

للاستيلاء على الموصل فحاصرها بضعة أشهر واستولى عليها من آخر أمرائها العرب من بنى عقيل ، وهو الذى كان تتش قد تركه بالموصل . أما فى القطاع الشرقى من دولة السلاجقة ، فقد منح بركياروق أخاه سنجر ملك خراسان وماوراء النهر (١).

وهكذا لم تحل سنة ١٠٩٦ إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة ، هى : سلطنة فارس (أصبهان) وعلى رأسها السلطان بركياروق نفسه الذى كانت له السيطرة على بغداد ؛ ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها أبو الحرث سنجر ؛ ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش ؛ ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش ؛ وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش . هذا مع ملاحظة أن بيت دانشمند التركمانى فى كابادوكيا أفاد من الفترة التى قضاها قلج أرسلان فى الأسر لتحقيق استقلال ذاتى ، مما زاد من حدة الانقسام فى آسيا الصغرى . وخلاصة القول أنه إذا كان السلاجقة قد أثبتوا فى وقت من الأوقات أنهم سيوف الإسلام الزائدون عنه ، فإن هذه القوة لم تلبث أن انفلّت وتفتت عند فجر الحركة الصليبية ، مما صار له أكبر الأثر فى نجاح الحملة الصليبية الأولى.(٢)

وليت الانقسام والانحلال الداخلى فى دولة السلاجقة قد وقف عند ذلك الحد بل لقد حدث سنة ١٠٩٩ أن ثار محمد تبر وهو أخ ثالث لبركياروق (٣) ؛ مما جعل بلاد فارس والعراق مسرحاً للحروب بين الأخوين ، حتى انتهى الأمر بالصلح بينهما فى أوائل سنة ١١٠٤ ، فاحتفظ بركياروق بأصبهان وفارس وعراق العجم على أن تكون

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ.

(2) Gibb : The Damascus Chronicle, p. 14.

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

« السلطنة له »، وأخذ محمد تبر أذربيجان وأرمينية وديار بكر والموصل [١] ؛ فى حين ظل الأخ الثالث ـ وهو أبو الحرث سنجر ـ يحكم خراسان وما وراء النهر [٢] . ولا شك فى أن تلك الحروب الطويلة بين الإخوة دت إلى تحطيم البيت السلجوقى من ناحية ، وبقاء سلطنة فارس مقسمة بين ملكيات ثلاث مستقلة من الناحية العملية من ناحية أخرى . أما الخليفة العباسى فى بغداد فقد انتهز فرصة الصراع بين بركياروق وأخوته ، وما نجم عن ذلك الصراع من إضعاف قوة الطرفين ، وعمل على تحرير نفسه من سيطرة السلاجقة جميعاً ، « وقطع دعوة الترك من بغداد » [٣]

ومن جهة أخرى فإن قبيلة بنى مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات استغلت الظروف التى أحاطت بالسلطان بركياروق واستقلت عن سلطانه . وقد بنى شيخ هذه القبيلة ـ وهو صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدى ـ منزلة الحلة سنة ١١٠١ واتخذها مقراً له . وبذلك قامت إمارة عربية امتدت من هيت إلى الكوفة وواسط ، وصارت خطراً هدد الأتراك وحال دون استمرار سيطرتهم على العروبة وأرضها [٤] . ولم يتردد أمراء الحلة فى سبيل تحقيق هذه الغاية فى محالفة الصليبيين ، كما سيلى فيما بعد .

أما فى بلاد الشام ، فإن السيادة السلجوقية أخذت تنحسر سريعاً . ذلك أن ابنى تتش ـ وهما رضوان صاحب حلب (١٠٩٥ ـــ ١١١٣) ودقاق صاحب

---

(١) ذكر ابن العبرى أن ممتلكات محمد تبرهى « ديار بكر والجزيرة والموصل والشام » ومن الواضح أن ذكر الشام هنا غير صحيح حيث كانت دمشق وحلب فى حوزة ابنى تتش . (تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧) .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧ ، ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ٢٥ ورقة ٢٧ .

(٤) المرجع السابق ورقة ١٢ .

دمشق (١٩٠٥ — ١٠١٤) لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التى تمكنهم من مواجهة الأوضاع القلقة التى عاشت فيها بلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر . ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة فى بلاد الشام والعراق وغيرها عندئذ هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة إلا الاتصال بالبيت السلجوقى . ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابكة ؛ وبعض هذه الوحدات صغير جداً لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة . وأتابك لفظ تركى معناه «مربى الملك»، فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعاناً فى تكريمه[1] . ومن أظهر تلك الأتابكيات أتابكية دمشق ، ومؤسسها ظهير الدين طغتكين الذى كان مملوكا ثم قائداً للملك تتش ، وأتابكا لابنه دقاق أى مربياً له . وقد استمرت هذه الأتابكية من سنة ١١٠٤ حتى سنة ١١٥٤ . أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكى بن آقسنقر ، وقد استمرت من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١٢٦٢[2] . وعدا ذلك وجد عدد كبير من الأتابكيات التى أخذت تظهر تباعاً على أنقاض دولة السلاجقة فى الشام وسنجار والجزيرة وأربل وأذربيجان وفارس وغيرها (٣) .

أما فلسطين ، فقد سبق أن أشرنا إلى أن تتش كان قد أقطعها قائده التركمانى أرتق ، الذى خلفه سنة ١٠٩١ ولداه سقمان (سكمان) وإيلغازى (إيل غازى) . ولكن حدث سنة ١٠٩٨ أن أفاد الفاطميون من تعرض السلاجقة لغزو الصليبيين، فخرج من مصر جيش فاطمي تحت قيادة الوزير الأفضل نفسه لمحاصرة بيت المقدس « ونصب عليه المناجيق » ، حتى اضطر الأراتقة إلى الانسحاب من المدينة فى

(1) Setton : op. cit, vol. I, p. 162.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٣٤ وما بعدها.

(3) Gibb : op. cit, p. 23,f.

أغسطس من العام نفسه . ولم تلبث بقية فلسطين أن سقطت بعد ذلك فى أيدى الفاطميين (١) . هذا إلى أن الوزير الأفضل أرسل من مصر إلى رضوان ملك حلب يدعوه إلى طاعة الخليفة المستعلى بالله الفاطمى وإقامة الدعوة له ، ووعد الأفضل رضوان أن يمده بالمساعدة ضد خصومه ، فاستجاب رضوان لذلك « وتقدم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التى بيده ... للمستعلى ثم للأفضل ثم لرضوان ... » هـذا ، وإن كان رضوان لم يستمر على ذلك الوضع سوى بضعة أسابيع أعاد بعدها الدعوة « للامام المستظهر (العباسى) ثم للسلطان بركياروق ثم لنفسه (٢) » .

ومن جهة أخرى فإن الفاطميين استغلوا تفوقهم البحرى على السلاجقة وظلوا يسيطرون على ساحل الشام (٣) . هذا وإن كان الفاطميون قد خسروا طرابلس قرب منتصف القرن الحادى عشر عندما استقل بها أحد أتباعهم، وهو القاضى الشيعى ابن عمار أبو طالب. وقد استطاع ابن عمار هذا وخليفتاه جلال الملك أبو الحسن على (ت١٠٩٨) ثم فخر الملك أبو على عمار (١٠٩٨ — ١١٠٨) أن يجعلا من طرابلس إمارة غنية اشتهرت بمدرستها التى حوت مكتبة ضمت عشرة آلاف مجلد . على أن قيام هذه الإمارة البحرية الصغيرة لا يخفى الحقيقة الواقعة، وهى زيادة تفتت بلاد الشام سياسياً .

ولاشك فى أن عملية التجزئة التى تعرضت لها بلاد الشام على ذلك الوجه ؛ فى الوقت الذى شق الصليبيون طريقهم إلى بلاد الشام ، كانت من العوامل الرئيسية التى ساعدت الصليبيين فى تحقيق أطماعهم . وقـد أدرك هذه الحقيقة وذكرها المؤرخ الصليبى وليم الصورى (٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٩ (مطبوع) .

(٣) يذكر ابن الأثير (الكامل، حوادث سنة ٤٨٢هـ) أن الجيش الفاطمى الذى خرج من مصر فى تلك السنة استولى على صور وصيدا وعكا وجبيل « واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الأمراء والعمال » .

(4) Giullaume de Tyr (Rec, Hist. Cr. Occid II.) 1015-1016.

ولم يكن ملك السلاجقة فى الأناضول أقل تفتتاً عندئذ من بقية دول السلاجقة فى الشرقين الأدنى والأوسط . ذلك أن مملكة السلاجقة فى آسيا الصغرى لم تلبث أن تدهور بها الحال عقب الخاتمة المؤلمة لحياة مؤسسها سليمان بن قتلمش ، وهو الذى قتله تتش — كما سبق أن ذكرنا — سنة ١٠٨٦ . ومنذ تلك السنة حتى سنة ١٠٩٢ ظل ابن سليمان الصغير ، وهو قلج أرسلان ، شبه أسير فى فارس ، تحت رقابة ملكشاه . وفى تلك الفترة التى قضتها آسيا الصغرى دون سلطان ، عمل الأمراء المحليون — مثل أبى القاسم أمير نيقية وزاخاس أمير أزمير والملك غازى بن دانشمند أمير كابادوكيا — على الإستقلال عملياً [1] . وكانت نيقية عاصمة السلاجقة فى الأناضول ، ومن ثم فقد أخذ أميرها أبو القاسم يحلم بأن يحل محل بيت سليمان بن قتلمش فى حكم آسيا الصغرى . ولم تقف أحلام أبى القاسم عند هذا الحد ، بل بات يحلم أيضاً بالإستيلاء على القسطنطينية ، وشيد أسطولا لهذا الغرض ولكن البيزنطيين حطموا أسطوله [2] .

وعندما استرعت أطماع أبى القاسم السلطان ملكشاه ، أرسل ضده حملة حاصرته فى نيقية سنة ١٠٨٦ ، مما جعل أبا القاسم يستنجد بالإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين . وبعد ذلك بقليل عاد ملكشاة وأرسل إلى الأناضول حملة كبيرة على رأسها بوزان أمير الرها للقضاء على أبى القاسم والإستيلاء على نيقية [3] . وقد حاول بوزان أن يقنع ألكسيوس كومنين بالتخلى عن مساعدة أبى القاسم مقابل التعهد برد بعض الأراضى التى فى حوزة السلاجقة للبيزنطيين [4] . ولكن ألكسيوس أدرك أنه من الخير أن يجاوره أمير صغير مثل أبى القاسم بدلا من السلطان ملكشاه ، وفعلا قدم الإمبراطور البيزنطى مساعدته لأبى القاسم ، وبفضل هذه

---

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4. p. 331.

(2) Setton: op. cit. vol I, p. 215-216.

(3) Chalandon, Alexis Comnene, p. 102.

(4) Idem. p. 125.

المساعدة تمكن الأخير من الدفاع عن نيقية ؛ ورفع حصار بوزان عنها . ولم يلبث أبو القاسم أن طلب عفو ملكشاه ودخل فى طاعته ، فقتله الأخير سنة ١٠٩٢ [١] .

وعند وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ أطلق خليفته بركياروق سراح قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش ، الذى غدا حاكم نيقية وزعيم سلاجقة الروم . وإذا كان الامبراطور ألكسيوس كومنين قد نجح فى تلك الفترة فى انتزاع بعض مراكز من السلاجقة فى آسيا الصغرى ، فإن زاخاس أمير أزمير كان أكثر خطورة على الامبراطورية البيزنطية ، إذ شيد أسطولا واستولى به على عدة جزر هامة مثل لسبوس وخيوس وساموس ورودس . ولم يلبث أن ازداد الخطر على الدولة البيزنطية عندما تزوج قلج أرسلان من ابنة زاخاس أمير أزمير . على أن اسحق كومنين استطاع بسياسته الماكرة أن يفرق بين الطرفين ، أى بين قلج أرسلان وحميه ، وأن يجعل قلج أرسلان ينقلب ضد حميه ، فى الوقت الذى كان زاخاس يحاصر أبيدوس ، وهى مفتاح الدردنيل . ولم يلبث أن استدرج قلج أرسلان زاخاس وقتله ، وبعد ذلك تم الوصول إلى تسوية بين قلج أرسلان من ناحية والامبراطور ألكسيوس كومنين من ناحية أخرى [٢] .

أما الركن الشمالى الشرقى من آسيا الصغرى فلم يكن فيه لقلج أرسلان أى نفوذ ، إذ قامت هناك إمارة الدانشمند (١٠٦٣ — ١١٧٤) التى أسسها الأمير التركمانى أحمد غازى ، والتى قامت على حساب الممتلكات البيزنطية فى كابادوكيا وأماسيا وجانجرا ونكسار (قيصرية الجديدة) [٣] . وكان الدانشمند يعترف بالتبعية

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 331.

(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 385 & Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 304.

(3) Setton : op cit. vol. I. p. p. 163 - 164.

للسلطان ملكشاه سلطان السلاجقة فى فارس ، وبالتالى لم يعترف مطلقا بسيادة سليمان بن قتلمش . وقد قام ابن الدانشمند وخليفته الملك غازى جمشتكين (١٠٨٤ — ١١٢٦) بالاستيلاء على قسطمونى من البيزنطيين . وكان التنافس وسوء العلاقات مستحكما دائما بين السلاجقة فى الأناضول من ناحية ، وإمارة الدانشمند التركمانية من ناحية أخرى ، بحيث لم تتحد القوتان إلا عندما أحستا بأن الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما جميعا[1] .

وهكذا نخرج مما سبق بأن توسع السلاجقة جهة الغرب توقف حوالى سنة ١٠٩٥ ، مما جعل الظروف مناسبة لأن تسترد الدولة البيزنطية سيادتها على الأقل على الجهات الساحلية فى بيثنيا وأيونيا . وكان البيزنطيون والأتراك متعادلين فى القوة فى ذلك الوقت على الرغم من انقسام الأتراك على أنفسهم . ولكن بوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق لمساعدة البيزنطيين بدأت كفة المسيحيين ترجح على كفة الأتراك المسلمين .

الشقاق بين المسيحيين الشرقيين :

وإذا كان الانقسام بين البيوت العربية والتركية فى العالم الإسلامى قد مهد لانتصار الصليبيين ؛ فإن الشقاق فى العالم المسيحى بين الكنائس الشرقية سهل وقوعها تحت حماية الكنيسة الرومانية الغربية ، أو بعبارة أخرى ساعد هذا الشقاق الأخير على قيام دولة للصليبيين الكاثوليك فى الشرق . ذلك أن العداء المذهبى بلغ أشده بين البيزنطيين والأرمن والسريان اليعاقبة ، وذلك عقب حركة التوسع البيزنطية فى الشرق فى القرن العاشر ، مما جعلهم يتعرضون جميعا لكارثة

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p.p. LVII - LVIII.

مشتركة فى القرن الحادى عشر ، ولا يستفيد من هذا الموقف سوى الغربيين الكاثوليك[١] .

من ذلك أنه لم يكد يمضى قليل على ضم أنطاكية للامبراطورية البيزنطية فى عهد حنا شمشقيق ، إلا وبدأ رجال الدين البيزنطيون حملة اضطهاد ضد إخوانهم رجال الدين الأرمن . كذلك حدث بعد أن اتخذ الأرمن آنى عاصمة لهم[٢] ، أن تعرض بطرس الأرمنى ثم ابن أخيه جاجك الأول (٩٩٠ - ١٠٢٠) لمتاعب جديدة بقصد إجبارهم على التسليم بمبادىء الكنيسة الأرثوذكسية . أما الملوك الذين تخلوا عن ممالكهم الوراثية للامبراطورية البيزنطية ليأخذوا بدلا منها إقطاعات فى كابادوكيا ، فقد وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين حتى يعتنقوا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية . ولذلك نجد المؤرخين المعاصرين من الأرمن - مثل متى الرهاوى - يظهرون ارتياحهم للكارثة التى حلت بالبيزنطيين فى مانزكرت ، بل لقد بلغ بهم الأمر إلى مديح ملكشاه والاطراء عليه لما حققه من راحة بال للأرمن[٣] . وقد اتهم البيزنطيون القوات الأرمينية التى اشتركت فى موقعة ملازكرت بأنها تقهقرت ولم تثبت ، كما أنه حدث بعد موقعة مانزكرت أن انتقم المهاجرون الأرمن فى كابادوكيا باضطهاد رجال الدين الأرثوذكس . من ذلك أن جاجك الثانى ملك آنى السابق قبض على مطران قيصرية الأرثوذكسى وحبسه فى جوال محكم ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه . وكان أن رد

---

(١) عن أصول الانشقاق بين الكنيستين الأرمينية والبيزنطية انظر :

Grousset : L'Empire du Levant p.p. 76 - 78.

(٢) كانت مدينة آنى أول عاصمة للأرمن فى مقرهم الجديد فى جنوب شرق آسيا الصغرى قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلى سيس فيما بعد، وما زالت بعض أسوار هذه المدينة وآثارها قائمة تشهد على رقى مستواهم الحضارى فى القرنين العاشر والحادى عشر. انظر

Schlumberger ; Recits I, p. 127 & Vassiliev, op. cit, I. p. 314.

(3) Mathieu d'Edesse (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm. p.p. 46 - 48).

البيزنطيون على ذلك بأن نصبوا كمينا للملك جاجك الثانى حتى تصيدوه . وقتلوه سنة ١٠٧٩[1] .

ولم يكن حنق المسيحيين السريان على البيزنطيين أقل شدة ، لاسيما بعدأن استرد البيزنطيون أنطاكية والرها . وهنا أيضاً أساء رجال الدين البيزنطيون إلى الكنيسة المحلية . لذلك لم يتمالك ميخائيل السريانى نفسه من الفرح عندما حلت الهزيمة بالامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث على يد المسلمين قرب حلب سنة ١٠٣٠[2] . وتعبر كتابات ميخائيل السريانى تعبيراً صادقاً عن استيائه لأن البيزنطيين يضطهدون السريان واليعاقبة ، وقال إنه لذلك يفضل سيطرة الأتراك السلاجقة على حكم البيزنطيين لأن الأتراك ينهبون ويسلبون ولكنهم لايتعرضون للعقيدة ، فى حين أن اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد نكاية وأسوأ أثراً .

وهكذا يبدو كيف أن الحركة التى قامت بها الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر لاسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها فى شرق آسيا الصغرى وفى بلادالشام أدت إلى استياء مختلف العناصر التى كان من الممكن أن تظل حليفاً طبيعياً للامبراطورية ضد الصليبيين الكاثوليك. وقد كان لهذا الشعور أثره فى تسهيل قيام الامارات اللاتينية فى الشرق، لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بنفور من الصليبيين الغربيين مثلما نفروا من البيزنطيين الأرثوذكس . وكان أن نظر الأرمن فى قيليقية والرها إلى الصليبيين الغربيين على أنهم محرورهم وحلفاؤهم ، كما أن عصر الحروب الصليبية شهد تقارباً ملحوظاً بين الكنيسة الأرمينية والبابوية[3] هذا فى الوقت الذى أحسن الصليبيون

(1) Grousset ; Hist. de l'Armenie, p.p. 620 - 622.
(2) Runciman : A History of the Crusades, I. p. 75.
(3) Iorga : L'Armenie Cilicienne. p. 91.

الغربيون معاملة الأرمن والسريان بوجه عام ، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ليس ضد المسلمين فحسب ، بل ضد البيزنطيين (١) .

الدولة البيزنطية بين السلاجقة والنورمان :

لم تقتصر الكوارث التي تعرضت لها الدولة البيزنطية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر على ما فعله الأتراك بالأقاليم الآسيوية للامبراطورية ، وإنما تعرضت الأقاليم الأوربية في ذلك الوقت أيضاً لخطر النورمان ، مما أوقع القسطنطينية بين نارين .

والمعروف أن القرن الحادي عشر شهد هجرة جموع غفيرة من النورمان الوافدين من دوقية نورمنديا في غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها فضلا عن صقلية . وكان زعيم تلك الجموع سنة ١٠٤٢ وليم هوتفيل، ولكن الفضل يرجع إلى روبرت جويسكارد في تأسيس دولة النورمان في إيطاليا وصقلية ، بعد أن تم إعلانه دوقاً على أبوليا وكالبريا سنة ١٠٥٩ (٢) . وحسب روبرت جويسكارد هذا أنه انتزع من البيزنطيين آخر معاقلهم في إيطاليا مثل أوترنتو وبرنديزى سنة ١٠٦٢ ثم بارى عاصمتهم سنة ١٠٧١ ، أى في نفس الوقت الذى تعرضت الجيوش البيزنطية في آسيا الصغرى لكارثة مانزكرت على أيدى السلاجقة (٣). ولعل هذه الحقيقة الهامة هى التى جعلت المؤرخ فاسيليف يقرر خطورة سنة ١٠٧١ بالذات في التاريخ البيزنطى بأجمعه (٤) . وبعد أن نجح النورمان أيضاً في انتزاع صقلية من المسلمين ، أخذوا يوجهون أبصارهم نحو الشاطىء الشرقى للبحر الأدرياتى للاستيلاء على أبيروس ومقدونيا ، بل لقد طمعوا في القسطنطينية نفسها، ثم باتوا

(1) Settou: A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 634.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٣٠ — ٣٣١ :

(3) Haskins: The Normans in European History, p 200, f.

(4) Vasiliev, op. cit, I, p. 361.

يحلمون بمواصلة الحرب ضد المسلمين فى الشرق ، إتماماً لحربهم ضد المسلمين فى صقلية [١] .

وفى الوقت الذى نزل فريق من النورمان بزعامة وليم هوتفيل وروبرت جويسكارد فى إيطاليا البيزنطية ، اتجه فريق آخر من المغامرين النورمان نحو الدولة البيزنطية نفسها ودخلوا فى خدمتها جنداً مرتزقة . وقد رأينا كيف أفاد هـذا الفريق الأخير من الـكارثة التى حلت بالبيزنطيين على أيدى السلاجقة ، وحاولوا أن يؤسسوا لأنفسهم إمارات مستقلة فى آسيا الصغرى . وأوضح مثل لهذا النوع من المغامرين النورمان رسل باليل الذى سبق أن أشرنا إليه ، والذى صار فى وقت ما مهيمنا على إقليم كابادوكيا والجهات المجاورة (١٠٧٣ — ١٧٠٤) [٢] .

وكان أن حاول روبرت جويسكارد أن يحذو حذو رسل باليل ، ويقيم دولة نورمانية فى الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً . لذلك أنزل روبرت قواته فى صيف سنة ١٠٨١ عند افلونا ومنها اتجه إلى دورازو حيث هزم قوات ألـكسيوس كومنين واستولى على ذلك الموقع الهام فى أوائل سنة ١٠٨٢ [٣] . وبعد ذلك زحف روبرت على القسطنطينية مباشرة ولـكنه اضطر أثناء زحفه عليها إلى العودة إلى إيطاليا حيث كانت أحوالها تستدعي وجوده ؛ فترك قيادة قواته فى البلقان فى صيف سنة ١٠٨٢ لابنه بوهيموند الذى صار فيما بعد بطلا من أبطال الحملة الصليبية الأولى [٤] .

وقد استطاع بوهيموند أن ينزل الهزيمة بألـكسيوس كومنين أكثر من مرة ، كما استولى على عدة مراكز هامة فى أبيروس ومقدونيا وتساليا ، بحيث أوشكت الامبراطورية على السقوط فى أيدى النورمان ، مما جعل الـكسيوس كومنين

(1) Longnon : Les Francais d'Outremer au Moyen - Age, p. p. 26 - 28.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 168 - 169.

(3) Cam. Med. Hist. vol 4, p. 329.

(4) Ostrogorsky ; op. cit, p. 317.

يسرع إلى الاستنجاد بسليمان بن قتلمش زعيم سلاجقة الروم ، الذى أمد الإمبراطور بسبعة آلاف رجل . وبفضل هذه النجدة استطاع الإمبراطور البيزنطى أن يواجه الموقف وأن يحرز انتصاراً على بوهيموند فى تساليا ، فعاد بوهيموند إلى إيطاليا لإحضار إمدادات جديدة (سنة ١٠٨٣)[1] .

ولم يلبث أن حاول روبرت جويسكارد وابنه بوهيموند معاودة الكرة ، وتحديا الأسطول البندقى — المحالف للبيزنطيين — قرب كورفو[2] ؛ ولكن الحرب طالت بين الطرفين على سواحل ابيروس حتى توفى روبرت فى صيف ١٠٨٥ ، فانسحب النورمان بعد ذلك من البلقان عائدين إلى إيطاليا[3] .

ومع ذلك فإن خلفاء روبرت من ملوك النورمان — وبخاصة بوهيموند — لم ينسوا مطلقا طريق الشرق ، وهو الطريق الذى لم تلبث الحروب الصليبية أن أمدتهم بفرصة طيبة لاختراقه . والواقع إن المشاركة فى الحركة الصليبية كانت بالنسبة لبوهيموند تجديدا لحملة ١٠٨١ ، ومحاولة أخرى لتأسيس مملكة للنورمان فى المشرق ، وهو الأمر الذى تحقق فعلا باستيلاء النورمان على أنطاكية ، وإقامة إمارة لهم فيها .

---

(1) Vasiliev; op. cit, II, p. 381.

(2) Chalandon ; Regne d'Alexis Comnene, p.p. 70 - 71.

(3) Cam. Med. Hist, vol. 4, p. 330.

الباب الثالث

الحملة الصليبية الأولى

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد »

[إبراهيم : ١٥]

الفصل الأول

الدعوة للحملة

البابا أوربان الثاني وإعلان الحرب الصليبية :

أوضحنا فيما سبق أن الحروب الصليبية بمعناها الشامل بدأت فعلا قبل القرن الحادى عشر ، أى قبل أن يدعو البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ للحملة التى عرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى . فمنذ توسع للسلمين فى حوض البحر المتوسط ، والحروب لم تنقطع بينهم وبين المسيحيين الأوربيين . وقد اتخذت تلك الحروب صبغة دينية فى كثير من أدوارها ، واشتهر من بين ميادينها آسيا الصغرى وأسبانيا وشمال أفريقية وصقيلة ، فضلا عن بعض جزر البحر المتوسط، مثل صقلية وكريت (١) .

على أنه بحلول القرن الحادى عشر واتجاه الغرب الأوربى نحو إرسال حملات كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين ، بدأت المرحلة النشطة فى الحركة الصليبية . والواقع أنه منذ كارثة مانزكرت التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ وأباطرة الدولة الرومانية الشرقية لاينقطعون عن طلب النجدة العاجلة من البابوية ضد السلاجقة المسلمين . من ذلك أن الإمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٩) ألح على البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) فى إرسال نجدة سريعة لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية وأراضيها فى آسيا الصغرى ، ووعد ميخائيل بأن يرد الجميل للبابوية بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية (٢) .

---

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 15. & L'Armenie Cilicienne, pp. 16 - 17.

(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 270.

ويقال إن البابا جريجورى السابع — بما عرف عنه من حماسة دينية فائقة — استجاب لتلك الدعوة ، وأرسل إلى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم سوء موقف المسيحيين فى الشرق ، وماتعانيه الإمبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك المسلمين ؛ ولكن دعوة البابا ذهبت مع الريح. هذا إلى أن البابوية شغلت فى ذلك الدور بالصراع ضد هنرى الرابع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة حول مشكلة التقليد العلمانى ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة [١] . وهكذا استمرت الأوضاع حتى عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩ ، وحل محله الإمبراطور نقفوز الثالث (١٠٧٩ — ١٠٨١) ، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت باعلان ألكسيوس كومنين امبراطورا (١٠٨١ — ١١١٨) [٢] .

وكان الإمبراطور ألكسيوس رجلا قديراً ، حاول أن يعالج مختلف المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهت الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت . وعندما واجه ألكسيوس مشكلة السلاجقة وجد أنه لاقبل له بهم ، فاتجه من جديد نحو البابوية ، واتبع سياسة تجاه البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩) تتصف بالمرونة المطلقة واللباقة الفائقة [٣] . وهنا يبدو أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق — بالصورة التى تم عليها الأمر فعلا — هذه الفكرة لم تكن من ابتكار الإمبراطور ألكسيوس كومنين أو بطرس الناسك ، وإنما الذى يرجع إليه الفضل فى ابتكار هذه الفكرة وتنفيذها هو البابا أوربان الثانى نفسه . ففى ضوء ماسمعه هذا البابا عن اضطهاد الأتراك السلاجقه للمسيحيين والحجاج ، بدأ أوربان الثانى يفكر فى مشروع لطرد المسلمين من آسيا ، بنفس

(1) Vasiliev, op. cit; 1, p. 358.
(2) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p.p. 47 - 50.
(3) Ostrogorsky : op cit; p.p. 316 -320.

الجهد والعزيمة التى يجرى بها طردهم من أسبانيا . هذا بالإضافة إلى ماسبق أن أشرنا إليه من وصول البابوية عندئذ إلى درجة كبيرة من سعة النفوذ والسلطان، مما جعلها تفكر فى انتهاز فرصة تلك الحرب ضد السلاجقة لبسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية[١] .

والواقع إن البابا أوربان الثانى كان أصلح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبى الجديد ؛ إذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها ، فضلا عما عرف به من بعد النظر ومقدرة فى اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير عليهم . ثم إن البابا أوربان الثانى لم يقل مرونة عن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ، فلم يكد ذلك البابا يلى منصب البابوية حتى فتح باب المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطى لتسوية المشاكل المعلقة بين الطرفين ، كما رفع قرار الحرمان الذى كان موقعا على ذلك الإمبراطور[٢] الأمر الذى أدى إلى نوع من التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية ،وإلى منح الكنائس الكاثوليكية فى البلاد الأرثوذكسية قسطا من الحرية فى تصريف شئونها . وفى سنة ١٠٩٠ أرسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين سفارة إلى البابا أوربان الثانى تحمل له اخلاص الإمبراطور ومحبته[٣] .

على أن تبادل السفارات والمجاملات لم يكف لتخليص آسيا الصغرى من خطر السلاجقة ، لذلك أراد الإمبراطور البيزنطى استغلال تلك العلاقات الطيبة مع البابوية للحصول على مساعدة عملية من الغرب ضد المسلمين ، فانتهز فرصة عقد مجمع دينى برآسة البابا فى بيا كنزا ـ بشمال إيطاليا ـ فى مارس سنة ١٠٩٥ ، وأرسل بعثة من القسطنطينية لحضور المجمع وطلب مساعدة البابا[٤] . وقد نجح

(1) Setton : op. cit; 1. p.p. 226 - 227.
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 307.
(3) Runciman : op. cit. I, p p. 101 - 102.
(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 156.

مبعوثو الإمبراطور فى إقناع البابا بأن السلاجقة لايهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون المسيحية جمعاء ، وأن قوتهم أخذت فى الضعف والانحلال بحيث تكفى ضربة واحدة قوية للاجهاز عليهم ، وأنه لولا حاجة الإمبراطورية البيزنطية إلى الرجال ومسئولياتها الجسيمة فى حماية حدودها على امتداد الدانوب، لقامت وحدها بتوجيه ضربة قاضية ضد السلاجقة . وكان أن آمن البابا أوربان الثانى بضرورة معاونة الإمبراطورية البيزنطية ضد المسلمين ؛ فضلا عما وجده فى هذه الفكرة من توجيه جهود الأمراء والفرسان وجهة صالحة تخفف من الحروب والمنازعات المحلية الدائرة بينهم فى غرب أوربا . وازداد إيمان بقية رجال الكنيسة الغربية بتلك الفكرة عندما سمح للمندوبين البيزنطيين بالكلام فى المجمع للتدليل على وجهة نظرهم(١) .

على أن البابا أوربان الثانى اختار أن يحيط مشروعه الجديد بالسرية التامة ، وأخذ يقلب الفكرة فى ذهنه ، وهو فى طريقه إلى كليرمونت لعقد مجمع دينى للنظر فى بعض المسائل الكنسية المتباينة ، ومن جملتها توقيع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا فيلب الأول . وعندما انعقد هذا المجمع الدينى فى كليرمونت فى نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، انقضت الأيام التسعة الأولى منه فى مناقشة المسائل الكنسية المتعددة، حتى إذا ماتم ذلك وجه البابا دعوته فى اليوم العاشر إلى المسيحيين جميعاً للاتحاد لاستخلاص الأراضى المقدسة من المسلمين(٢) . وقد عرض البابا على المجتمعين — فى أسلوب بلاغى جذاب — مدى ماتعانيه الأراضى المقدسة وحجاجها من متاعب بسبب سيطرة المسلمين عليها ، الأمر الذى صار يتطلب من المسيحيين الغربيين الإسراع لنجدة إخوانهم فى الشرق . ونلاحظ أن أوربان الثانى وجه دعوته هذه للقادرين والفقراء سواء ، ليترك الجميع مشاحناتهم فى غرب أوربا ويوجهون

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 272.

(2) Michaud : Hist. des Croisades. I, p.p. 92 - 94.

جهودهم ضد المسلمين فى الشرق ، حيث يرعاهم الله ويبارك جهودهم ويغفر ذنوبهم ؛ ثم نادى البابا بالإسراع فى تقديم النجدة بحيث يكون جميع المتطوعين على أهبة الرحيل إلى الشرق مع بداية فصل الصيف[١] .

وخلاصة القول أننا نخرج من أقوال المؤرخين المعاصرين الموثوق فيهم أن فكرة الحرب الصليبية نبعت من خطبة البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت ، ولم تنشأ — كما ظن البعض — من دعوة بطرس الناسك ومواعظه . ذلك أن نداء البابا لم يلبث أن صادف استجابة من جمهور الحاضرين فى كليرمونت ، فصاحوا جميعاً صيحة رجل واحد : « هذه مشيئة الله Deus lo volt » ، وجاءت هذه الصيحة إيذاناً ببداية صفحة جديدة فى تاريخ الحركة الصليبية قدر لها أن تستمر عدة قرون[٢] .

ولم يكد البابا أوربان الثانى يفرغ من خطبته التى دعا فيها لحرب المسلمين ، حتى جثا أدهمار — أسقف بوى Puy — أمام قدمى البابا راجياً أن يكون له شرف المساهمة فى الحرب المقدسة ضد المسلمين ، وبذلك صار ذلك الأسقف أول من افتتح قائمة المتطوعين ، واختاره البابا أوربان مندوباً بابوياً فى الحملة الأولى[٣] . وكان معنى حرص البابوية على تعيين مندوب عنها يرافق الصليبيين فى رحلتهم إلى الشرق ، أنها أرادت تحقيق إشرافها وسيطرة الكنيسة على الحركة الصليبية وعلى الأراضى التى سيفتحها الصليبيون . وفعلا حدث بعد ذلك — عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس — أن نادى المطران دايمبرت Daimbert بأن هذه المدينة إنما من نصيب البابوية ، ودخل فى نزاع بسبب ذلك الموضوع مع بلدوين الأول مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية[٤] .

---

1 - Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p. p. 37 — 41
2 - Vasiliev : op. cit; II, p. 402.
3 - Cam. Med. Hist., vol 5. p. 273.
4 - Grousset : Hist. des Croisades, I. p. 4

وجدير بالملاحظة أن أحداً من كبار الأمراء العلمانيين لم يكن حاضراً مجمع كليرمونت ليبدى استعداده للمشاركة فى تلك الحرب المنتظرة ضد المسلمين فى الشرق . وقد أحس البابا أوربان الثانى من أول الأمر بأن مشروعه الصليبى فى حاجة إلى تأييد من القوى العلمانية ، فجمع الأساقفة وأصدر المجمع قراراً بأن كل من يشترك فى الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه ، فضلا عن أن ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طوال مدة غيابهم [1] . كذلك استقر الرأى على أن يحيك كل محارب صليباً من القماش الأحمر على ردائه الخارجى من ناحية الكتف رمزاً للحركة التى اشترك فيها والفكرة التى خرج ليحارب من أجلها . ثم إن كل من يضع هذا الصليب بغية المشاركة فى الحرب المقدسة ، عليه أن يتجه فوراً إلى الشرق ، فإذا تردد وعاد دون أن يؤدى واجبه أو أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب ، فانه يتعرض لعقوبة الحرمان [2] .

ولكن هيمنة الكنيسة على تلك الحركة الصليبية لم تلبث أن تعرضت لهزة عنيفة عندما أعلن أحد كبار أمراء فرنسا — وهو ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس (١٠٨٨ — ١١٠٥) — عزمه على المشاركة فى المشروع الصليبى الذى دعا له البابا . ولم تكن هذه المرة الأولى التى أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين ، إذ سبق له أن شارك فى حربهم فى أسبانيا ، كما يروى ميخائيل السريانى أن ريموند سبق أن حج إلى بيت المقدس [3] . وهكذا تجمعت عوامل كثيرة لتجعل الزعامة العسكرية للحملة الصليبية المقبلة لريموند ، على أن تبقى الزعامة الروحية للمندوب البابوى أدهمار .

أما عن البابا أوربان الثانى فلم يكتف بما قاله فى كليرمونت ، وإنما أخذ يتنقل

1 - Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p p. 44 – 45.
2 - Runciman : op. cit. I, p. p. 108 – 109.
3 - Michel Le Syrien : (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm.) I, p. 327.

بين المدن والبلدان داعياً للحرب الصليبية ، فعقد مجمعاً في ليموج Limoges (ديسمبر ١٠٩٥) ، وكرر الدعوة نفسها في أنجرز ومان وتورز وبواتييه وبوردو وتولوز وغيرها (يناير — يونيه ١٠٩٦) . وأخيراً اصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع في مجمع نيم (يوليه ١٠٩٦) مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جذري في الإعداد للحملة الصليبية الأولى ، وإن لم يعين رسمياً قائداً لتلك الحملة[١]. ثم إن ريموند هو الذي نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوربان الثاني مبعوثين إلى جنوا طالباً مشاركتها في المشروع الصليبي الكبير . ولم يلبث الجنوية أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا اثنتي عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلا عن ناقلة كبيرة[٢] . وبذلك حققت جنوا لنفسها سبقاً كبيراً مكنها من اكتساب حقوق في بلاد الشام ، وهي حقوق لم يستطع البيازنة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل[٣] .

وأخيراً عاد البابا أوربان الثاني إلى إيطاليا في أواخر سنة ١٠٩٦ بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبي ، إذ أقبل بعض الأمراء وكثير من الناس على المشاركة في الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة — مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا — بل أيضاً من البلدان البعيدة مثل سكتلند ودانمرك وغيرها[٤] .

حملات العامة ، الرعاة :

أثارت دعوة البابا أوربان الثاني حركة شعبية ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم بطرس الناسك . ذلك أنه إذا كان البابا قد طلب من الأساقفة الدعوة

1 - Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 273.
2 - Heyd : Hist du Commerce, I, p. 133.
3 - Setton : op. cit,: I, p. 252.
4 - Runciman, op. cit,; I, p. 112.

للحرب الصليبية ، فإن الأمر لم يقتصر عليهم ، وإنما ظهرت طائفة جديدة من الدعاة قاموا بجهد كبير واسع النطاق فى الدعاية لمشروع الحرب المقدسة . ويذكر التاريخ دائماً على رأس هؤلاء الدعاة اسم بطرس الناسك ، وهو رجل متقدم فى السن حاول أن يقوم بالحج إلى بيت المقدس ولكنه تعرض فى الطريق لضغط الأتراك فعاد إلى بلده دون أن يحقق أمنيته ، مما ترك أثراً فى نفسه(١) . ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة ـ بثيابه المهلهلة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج ـ جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء فى غرب أوربا ، بحيث أنهم كانوا لا يكادون يستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة ، فيجتمعون فى سرعة غريبة ويشرعون فى الزحف صوب الشرق ، دون إعطاء البابا والأمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيما جدياً من الناحيتين السياسية والحربية (٢) .

وقد مضى بطرس الناسك فى دعوته بقوة ، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا مثل أورليان وشامبنى واللورين ، وخرج من هذه الأقاليم بعدد ضخم من الأتباع — حوالى خمسة عشر ألفاً — اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم . وهنا نكرر أن فصاحة بطرس الناسك وقوة تأثيره لم تكن وحدها العوامل التى أدت إلى استجابة تلك الجموع الغفيرة من الفقراء والمعدمين للدعوة الصليبية . فهناك الظروف القاسية التى عاش فيها الفلاحون فى غرب أوربا فى تلك الفترة ، والتى كان لها أكبر الأثر فى ترحيبهم بالدعوة الصليبية بوصفها طريقاً للخلاص مما كانوا يقاسونه من أهوال . فكثير من الأراضى الزراعية تعرضت للخراب نتيجة لغزوات الفيكنج وغيرهم من البرابرة ، فقلت الأقوات فى الوقت الذى ازدادت أعداد السكان . ثم إن الحروب والمنازعات بين الأمراء والإقطاعيين أسهمت فى الإخلال

1 - Setton : op. cit; I, p. 78.
2 - Grousset : Hist des Croisades, I, p. 5.

بالأمن وتعريض أرواح الناس للهلاك وممتلكاتهم للنهب ، مما جعل الغالبية العظمى من أهالى غرب أوربا يعيشون فى حال يرثى له من الفقر والحرمان والخوف دون أن يجدوا أى ضمان لحماية أرواحهم وممتلكاتهم وأرزاقهم(١) . فإذا أضفنا إلى ذلك كله النكبات الطبيعية والاقتصادية التى عانى منها الغرب الأوربى وقت الدعوى للحرب الصليبية ، أدركنا السر الحقيقى لإقبال كثير من الفلاحين والمعدمين على المشاركة فى تلك الحرب ، إذ لا داعى للخوف من الموت ومن حرب المسلمين وهم فى حال أقرب إلى الموت فعلا . وكل ما هنالك هو أنه بدلا من أن يموت الرجل من الجوع فى بلده محملا بما عساه ارتكبه من ذنوب فى حياته ، فإن من الأفضل أن يموت فى حرب مقدسة مما يضمن له غفران ذنوبه ودخوله الجنة(٢) .

وفى الوقت الذى كان بطرس الناسك ماضياً فى دعوته فى الغرب الأوربى ، ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه والتر الملقب بالمفلس . وسرعان ما قاد والتر أتباعه عبر هنغاريا ثم أراضى الدولة البيزنطية . وفى الطريق نست تلك الجموع أنهم يخترقون بلاداً مسيحية ، فأخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالى الآمنين(٣) . ومع ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون فى البلقان بتلك الجموع الصليبية رغم مظهرها الرث الذى يدل على سوء تنظيمها وجهل أفرادها بأبسط مبادىء القتال . وهكذا شق الصليبيون طريقهم إلى صوفيا وأدرنة حتى بلغوا القسطنطينية فى يوليه سنة ١٠٩٦ ، وهناك سمح لهم الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول بطرس

---

1 - Michaud : op. cit, Tome, I, p. p. 105 — 106.

2 - Runciman : op. I, p. p. 114 — 115.

3 - Vasiliev : op. cit; vol. II, p. 404.

الناسك . ولا بد أن يكون الامبراطور قد تأكد فى تلك الأثناء من سوء استعداد أولئك الصليبيين وحاجتهم إلى التنظيم [١] .

أما بطرس الناسك فقد غادر كولونيا فى إبريل سنة ١٠٩٦ على رأس جموعة مخترقا ألمانيا وهنغاريا ، حتى وصلوا إلى الحدود الهنغارية البيزنطية . وقبل أن يغادر الصليبيون بلدة سملين Semlin الهنغارية وقع خلاف بينهم وبين الهنغاريين بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم ، فلم يكن من الصليبيين إلا أن أحدثوا مذبحة رهيبة فى تلك البلدة الهنغارية أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء [٢] . ولا شك فى أن هذه الجريمة البشعة التى أتاها الصليبيون كان لها أثرها فى إثارة ريبة البيزنطيين وتشككهم فى تلك الجموع التى أتت إلى الشرق لتحارب باسم المسيح والمسيحية ، وفى الوقت نفسه لم تتورع عن ذبح آلاف المسيحيين الأبرياء . لذلك رأى الإمبراطور البيزنطى ألا يترك لأولئك الصليبيين فرصة للعبث بأراضى الإمبراطورية ومدنها ، ووضع خطة استهدفت تخليص الإمبراطورية البيزنطية من شرهم فى أقصر مدة ممكنة. وفعلا تولى بعض الموظفين البيزنطيين قيادة الصليبيين سريعاً صوب القسطنطينية ، وإن كان أتباع بطرس الناسك قد استمروا فى طريقهم إلى البسفور ينهبون ويسلبون كل ما وصل إلى أيديهم ، فنهبوا بلجراد ونيش وغيرهما من المدن والقرى الآهلة ، حتى وصلوا فى نهاية المطاف إلى أسوار القسطنطينية فى أول أغسطس سنة ١٠٩٦ حيث وجدوا والتر المفلس وجموعه فى انتظارهم [٣] .

وعلى الرغم من البوادر السيئة التى بدرت من الصليبيين أثناء عبورهم أراضى الإمبراطورية الشرقية ، إلا أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أحسن

---

1 - Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 61 – 62.

2 - Albert d'Aix : Hist. Occid. IV, p. 276.

3 - Cam. Med. Hist. vol 5, p. p. 275 – 276.

استقبال بطرس الناسك، وقدم له ولأتباعه النصح بألا يتعجلوا فى العبور إلى آسيا الصغرى قبل أن تصل إليهم إمدادات وقوات نظامية من الغرب تساعدهم على الصمود فى وجه الأتراك السلاجقة (١) . على أن انتظار تلك الجموع أمام أسوار القسطنطينية لم يلبث أن سبب متاعب جمة للدولة ، إذ أخذ الصليبيون يواصلون نهب القرى والضياع المجاورة ، ويعتدون على الأهالى ويسلبونهم أقواتهم وأمتعتهم ، بل إن الكنائس لم تسلم من اعتداءات أولئك الرعاع (٢).

وهكذا أحس الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين وشعبه بخيبة أمل واضحة ، بعد أن طلبوا من البابوية إمدادهم بجيوش حربية منظمة تساعدهم فى دفع خطر المسلمين، فإذا بهم يفاجئون بوصول آلاف من الدهماء ، دخلوا أراضى الإمبراطورية ليحصلوا على الغذاء والكساء إن لم يكن بالطريق السلمى فليكن عن طريق السلب والنهب والاعتداء على رعايا الإمبراطور الآمنين (٣) . وأمام ذلك الخطر الجديد بدأ ألكسيوس كومنين يعيد النظر فى سياسته ، فدفعه الخوف على عاصمته إلى الإسراع بنقل الصليبيين إلى الشاطىء الآسيوى للبسفور ، وبدأت هذه العملية فعلا فى أوائل أغسطس سنة ١٠٩٦ . ومع ذلك فإن الإمبراطور ألكسيوس استمر يحسن النصح للصليبيين ، فأشار عليهم بالتجمع والانتظار عند أحد المراكز الحصينة قرب البسفور ، حتى تأتيهم الإمدادات والجيوش النظامية من الغرب (٤) . ولكن جموع العامة لم يستطيعوا ضبط أنفسهم والكف عن النهب والسلب ، فاستمروا يعتدون على المزارع والضياع والقرى والكنائس القريبة ، وأخذوا يوسعون دائرة نشاطهم دون أن يدروا أن نيقية — قاعدة

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p p. 76 - 77.
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance p. 310.
(3) Runciman ; op. cit; I, p.p. 115 - 116.
(4) Cam. Med. Hist; vol. 5, p. 276.

السلطان قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش — على بعد عدة كيلو مترات فقط منهم [١] .

ولم تلبث أن بدأت المناوشات بين الصليبيين من جهة والأتراك السلاجقة من جهة أخرى . وقد أحرز الصليبيون بعض انتصارات محلية فى تلك المناوشات الأولى ، مما جعلهم يغترون بقوتهم ويتمادون فى الإغارة على أراضى السلاجقة . وفى أكتوبر سنة ١٠٩٦ انتهز الصليبيون فرصة ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور البيزنطى وقرروا الزحف على نيقية [٢] . وكانت عدة الصليبيين خمسة وعشرون ألفاً منهم خمسمائة فارس فقط على أكثر تقدير ، والباقون من المشاة المعدمين الذين لا يربطهم نظام ولا توحد بين صفوفهم قيادة . وعندما باغت السلاجقة الصليبيين أثناء زحفهم ، لم تستطع غالبية العامة المقاومة ، فأعمل فيهم السلاجقة ذبحاً وتقتيلا بحيث لم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين إلا نحو ثلاثة آلاف . وقد أسرع الإمبراطور ألكسيوس كومنين — عندما سمع بنبأ الكارثة — إلى إرسال بعض سفنه الحربية تحمل إمدادات إلى الصليبيين ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ؛ فحملت فلول الصليبيين إلى القسطنطينية حيث ظلوا فى رعاية الإمبراطور حتى وصول حملة الأمراء [٣] .

وهكذا أخفقت حملة العامة التى قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس . ولم تكن بقية الحملات المماثلة التى قادها فولكمار Volkmar وجوتشولك Gottschalk وإميخ Emich أحسن حالا ، بل على العكس صارت كلها وصمة سوداء فى تاريخ الحركة الصليبية [٤] .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 8.
(2) Vasiliev : op. cit; II, p. 405.
(3) Ostrogorsky : op. cit, p. 321.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 9.

الصليبيون واليهود :

انتشر اليهود على هيئة جاليات عديدة على طول الطرق التجارية فى غرب أوربا . وقد ظل هؤلاء اليهود طوال العصور الوسطى على صلة وثيقة بإخوانهم يهود الشرق – فى البلدان الإسلامية أو فى الدولة البيزنطية – مما قوى مركزهم التجارى والاقتصادى ، ومكنهم من القيام بنشاط مالى كبير وتأسيس عدة بيوت لإقراض الأموال للأمراء والفرسان وغيرهم(١) . ومن المعروف عن اليهود فى كل زمان ومكان أنهم لا يرحمون من يتعامل معهم ، فوقع فى شباكهم عدد كبير من المدينين فى أوربا العصور الوسطى ، وهؤلاء ساءت أحوالهم المادية نتيجة للفوائد الباهظة التى فرضها اليهود عليهم . ثم جاءت الحروب الصليبية لتضيف إلى قائمة المدينين عدداً كبيراً من الفرسان ، الذين اضطروا إلى اقتراض المال لإعداد العدة وتجهيز أنفسهم بالسلاح اللازم للحرب المقدسة ؛ مما أثار نوعاً من الاستياء العام ضد أو لئك المرابين المستغلين فى غرب أوربا على عصر الحركة الصليبية (٢) .

ثم إن موقف اليهود أنفسهم من مشروع الحرب الصليبية كان موقفاً معادياً . ففى ديسمبر سنة ١٠٩٥ كتب اليهود فى شمال فرنسا إلى إخوانهم فى ألمانيا يحذرونهم من أن الحركة الصليبية ستعود بالضرر على اليهود ؛ وبالتالى فقد أخذ اليهود – عن طريق خلاياهم وجالياتهم المنبثة فى مختلف أجزاء الغرب الأوربى – يعرقلون جهود الصليبيين . وكان أن انتشرت إشاعات مؤداها أن جودفرى بوايون – الذى كان يعد عدته للمشاركة فى الحرب الصليبية – قد أقسم على أن ينتقم للمسيح بقتل جميع اليهود . وعندما انتشرت هذه الشائعة ، لجأ يهود

1 - Pirenne : Economic and Social Hist. of Med. Europe. p. 133.

2 - Thompson : Economic and Social Hist. of thé Middle Ages p. 394.

مينز وكولونيا فى حوض الراين إلى أسلوبهم الرخيص الذى لا يعرفون غيره حتى اليوم ، فجمعوا الأموال وقدموها لجودفرى بوايون على سبيل الرشوة ليعدل عن نواياه [1].

على أن مثل هذه الحلول كانت لا يمكن أن تنجح فى جعل أتباع الكنيسة — وهم فى موجة حماستهم الدينية — يغفرون لليهود مسلكهم تجاه المسيحيين والمسيحية . وإذا كانت الحركة الصليبية قد أيقظت فى المسيحيين روح الانتقام من أعدائهم ، فلماذا يختص المسيحيون المسلمين بذلك العداء ويتركون اليهود ؟ أليس اليهود هم الذين صلبوا المسيح عليه السلام ؟ ألم يكن اليهود هم الذين حاولوا سحق المسيحية وهى فى المهد ؟ أليسوا هم الذين اضطهدوا المسيحيين الأوائل وشردوهم وحرضوا عليهم الحكام الرومان ليعملوا فيهم قتلا وتذبيحاً ؟ [2] وهكذا لم يكن منتظراً أن تمر موجة الحماسة الصليبية بسلام دون أن يصيب اليهود فى أوربا شيئاً من رشاشها .

وكان أن تجمع فى حوض الراين فى إبريل سنة ١٠٩٦ جمع من الصليبيين الألمان ، زاد عددهم على عشرة آلاف ، تحت قياده فولكمار ، ومن هناك شرعوا فى الزحف شرقاً للحاق ببطرس الناسك . وفى الوقت الذى شقت تلك المجموعة طريقها نحو براغ ، إذا بمجموعة أخرى تتكون بعد قليل فى حوض الراين بزعامة الأمير إميخ Emich [3] . وقد استهل إميخ هذا نشاطه الصليبى فى أوائل مايو سنة ١٠٩٦ بمهاجمة اليهود فى مدينة سبير Spier ونهب أموالهم وقتل اثنى عشر يهودياً ، فى حين لم ينقذ الباقى سوى أسقف المدينة الذى استظلهم بحمايته. ولم يكد إميخ وجموعه يصلون بعد ذلك إلى ورمز حتى انتشرت إشاعة بأن اليهود قتلوا

1 - Runciman : op. cit: I, p. p. 135 — 136
2 - Cary : A Hist. of Rome, p p. 589 — 590.
3 - Setton : op cit. I, p. p. 263 — 265.

مسيحياً وحفظوا جثته فى إناء به ماء ليستخدموا ذلك الماء فى تسميم آبار المدينة[١].
وسرعان ماأدى انتشارهذه الإشاعة إلى اشتراك الفلاحين من الجهات والضواحى القريبة مع رجال إميخ فى إحداث مذبحة كبرى باليهود (٢٠ مايو) ، هلك فيها أكثر من خمسمائة يهودى[٢]. ثم اتجه إميخ بعد ذلك إلى مينز حيث أغلق رئيس الأساقفة أبواب المدينة فى وجه الصليبيين . على أن اقتراب رجال إميخ من مينز أدى إلى حركة ضـــد اليهود قتل أثناءها أحد اليهود ، وعندئذ فتح الناس أبواب المدينة للصليبيين الذين اقتحموا المبانى التى اختبأ فيها اليهود وقتلوهم ، فى حين أعلن بعضهم اعتناقه المسيحية لينجو من ذلك المصير الرهيب . وقد قدر عدد قتلى اليهود فى حوادث مينز وحدها بألف قتيل[٣] . ولم تـكن حوادث مينز هى الأخيرة بالنسبة لليهود فى حوض الراين ؛ وإنما اتجه إميخ ورجاله بعد ذلك صوب كولونيا حيث قتلوا بعضهم ، ثم قصدوا القسطنطينية بعد ذلك عن طريق هنغاريا.

وسرعان ما وصلت أخبار ما فعله إميخ باليهود إلى مسامع بعض الجماعات الصليبية التى سبقت إلى الشرق ، ففعل فولكمار وأتباعه باليهود فى براغ مثلما فعله إميخ بهم فى مدن الراين (٣٠ يونيه) . وقد حاول فولكمار أن يكرر التمثيلية ضد اليهود فى مدن هنغاريا ، ولكن الهنغاريين لم يسمحوا له بذلك ، وهاجموه وأعوانه من الصليبيين ففرقوهم وقتلوا كثيرا منهم . وعندما أتى بعد ذلك إميخ ورجاله إلى هنغاريا ، قابلهم الهنغاريون بنفس الأسلوب ، مما أدى إلى تدمير حملتى إميخ وفولكمار فى هنغاريا[٤] .

---

1 - Grousset : Hist: des Croisades, I, p. 10.
2 - Cam. Med. Hist., vol 5, p 277.
3 - Albert d'Aix, IV. p. p. 292 – 293.
4 - Runciman : op. cit; I, p. p. 134 – 141.

هذا ، وقد استمر شعور العداء تجاه اليهود فى غرب أوربا طوال عصر الحروب الصليبية . ولم تكن البابوية نفسها أقل عداء لليهود ، فأصدر البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ مرسوماً بابوياً يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء فى عمليات الإقراض أو رهن الممتلكات أو غير ذلك[1] .

---

1 - Thompson : Economic and Social Hist. p. 409.

الفصل الثانى

الأمراء الصليبيون والدولة البيزنطية

جودفرى بوابون وألكسيوس كومنين :

فى الوقت الذى أخذت حملات العامة من المعدمين والغوغاء يذبحون فى اليهود ويعتدون على الشعوب الأوربية المسيحية التى سلكوا أراضيها ، جرى تنظيم الشطر الثانى من الحملة الصليبية الأولى ـ وهو الشطر المعروف بحملة الأمراء ـ وإعداده إعداداً رتيباً . والواقع إن الشطر الخاص بالأمراء فى الحملة الصليبية الأولى تألف من عدة حملات أو جموع ، لكل منها طابعها المميز الذى لازمها منذ أول الأمر ، وميز نشاطها فى الشرق(١) . وبعبارة أخرى فإن الروح الإقطاعية بدت واضحة فى الشطر النظامى من الحملة الصليبية الأولى ، إذ تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة ، مما جعل تلك الحملة فى حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات ربما عملت أحيانا فى اتجاهات متعارضة (٢) .

أما المجموعة الأولى من حملة الأمراء فكان على رأسها جودفرى بوايون أمير لوثرنجيا وبرفقته أخوه بلدوين البولونى، فضلا عن عدد آخر من كبار الأمراء(٣) . ويبدو أن المكانة البارزة التى تمتع بها جودفرى بوايون فى الإمبراطورية المقدسة، وأهمية الإمارات التى شارك أصحابها فى تلك الحملة ، جعلت لها مكانة خاصة دفعت كثيراً من الفرسان إلى الانضمام إليها ، فاكتسبت طابعاً مميزاً من أول

---

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. p. 279-280.

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٦٥

(٤) Michaud : Hist des Croisades, I, p. p. 146-147.

الأمر [1] . هذا مع ملاحظة أن معظم المشتركين فى هذه الحملة كانوا من القطاع اللاتينى فى الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولم يكن من القطاع الألمانى سوى القليل ، مما جعل الطابع العام لحملة جودفرى بوايون فرنسيا . وقد ظهر أثر ذلك عندما استقر أولئك الصليبيون ببلاد الشام ، إذ سرعان ماذبلت العلاقات الاقطاعية التى ربطتهم بإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وأقاموا ملكية جديدة فى بيت المقدس وفق النظم والتقاليد الفرنسية [2]

وكانت حملة جودفرى بوايون أول حملة صليبية نظامية شقت سبيلها إلى الشرق . وقد سلكت طريق هنغاريا — مثل حملات العامة التى سبقتها — فى وقت كان الهنغاريون مازالوا يحملون كثيراً من الحقد والضغينة للصليبيين ، بعد الضرر الذى لحق بهم على أيدى جموع بطرس الناسك وفولكمار وإميخ [3] . لذلك رأى جودفرى أن يبدد تلك المخاوف عند الهنغاريين قبل أن يعبر بلادهم ، فعقد اجتماعا مع كولمان ملك هنغاريا على الحدود الهنغارية الألمانية . وفى ذلك الاجتماع قدم جودفرى أخاه بلدوين البولونى ليظل رهينة لدى الملك الهنغارى حتى يتم انتقال قواته عبر الأراضى الهنغارية . وفى الوقت نفسه أصدر جودفرى أوامر مشددة لرجاله ليحول بينهم وبين أعمال النهب والعدوان على الأهالى أو ممتلكاتهم [4] .

وبوصول جودفرى بوايون إلى الحدود البيزنطية فى أواخر نوفمبر سنة ١٠٩٦ بدأت « المسألة الصليبية » فى تاريخ الدولة البيزنطية . ففى ذلك الدور بالذات وضع الأمبراطور ألكسيوس كومنين سياسة ثابتة تجاه الصليبيين ، وهى السياسة

(1) Runciman : op. cit; I, p. 147.
(2) Grousset : op. cit; I, p. 12.
(3) Setton : op. cit; I, p. 268.
(4) Albert d'Aix, IV, p. p. 299-305.

التى لم يتخل عنها خلفاؤه أباطرة القسطنطينية طوال قرن من الزمان . ذلك أن ألكسيوس كومنين أراد أن يستغل الحركة الصليبية ويسخرها لتحقيق أهدافه ومصالح دولته الخاصة ، فلما فشل فى ذلك انقلبت سياسته تجاه الصليبيين إلى عداء صريح (١) . وقد بدأ الإمبراطور البيزنطى بإرسال رسل إلى جودفرى بوايون لاستقباله فيما بين بلغراد ونيش ، وهناك عقدوا معه اتفاقية تمهيدية باسم الإمبراطور ، تعهد فيها جودفرى بمنع رجاله من القيام بأى عمل من أعمال السلب والنهب داخل أراضى الإمبراطورية ، مثلما فعل أتباع بطرس الناسك وغيرهم من جموع العامة . وفى مقابل ذلك تعهدت الإمبراطورية بامداد الصليبيين بكل مايلزمهم من تموين ، حتى وصولهم إلى جبهة الحرب ضد السلاجقة (٢) .

وعلى أساس الإتفاقية السابقة استأنف الصليبيون طريقهم حتى وصلوا إلى شاطئ بحر مرمرة حيث توقفوا قليلا للراحة على شاطئه عند بلدة سليمبريا Selymbria ، وكان ذلك حوالى منتصف ديسمبر سنة ١٠٩٦ . على أنه حدث فى ذلك المكان أن أفلت زمام الصليبيين فترة من يد جودفرى ، وفقدوا روح النظام التى تحلوا بها حتى ذلك الوقت ، فقام رجال جودفرى بنهب سليمبريا (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن أهم ما كان يعنى الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الدور هو تحديد الجانب القانونى للعلاقة بينه وبين الصليبيين . فالحرب الصليبية جاءت شيئاً جديداً على الغرب الأوربى ، فى حين كان الصراع ضد المسلمين أمراً مألوفاً للبيزنطيين منذ القرن السابع . وهكذا أراد الإمبراطور البيزنطي أن يتصور حملة جودفرى بوايون فى صورة نجدة سريعة وصلته وسط معركة طويلة ضد المسلمين ، لنصرة المسيحية وطرد السلاجقة من الأراضى التى احتلوها فى آسيا (٤) .

---

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. p. 164-165.
(2) Albert d'Aix, IV, p. p. 299-305.
(3) Idem, p. p. 304-305.
(4) Brebier : op. cit; p. 310

والواقع أنه منذ وصول حركة الفتوح الإسلامية إلى شواطىء البحر المتوسط فى القرن السابع ، والدولة البيزنطية فى صراع ضد المسلمين لايكاد يهدأ قليلا حتى يشتد طويلا . ومنذ توسع السلاجقة فى الشرق الأدنى،والدولة البيزنطية تتحمل وحدها الضربة تلو الأخرى من جراء ذلك التوسع . وبعبارة أخرى فان الدولة البيزنطية — وليس الغرب الأوربى — هى التى تولت عبء الدفاع عن الأماكن المقدسة فى الشرق ضد المسلمين طوال عدة قرون ؛ فلا أقل من أن يتولى الإمبراطور البيزنطى قيادة الجيوش الصليبية التى أخذت تفد من الغرب الأوربى منذ أواخر القرن الحادى عشر لمحاربة المسلمين (١) .

وربما أراد الإمبراطور ألكسيوس كومنين أن يجعل من جودفرى بوايون صورة للقائد النورمانى رسل باليل الذى سبق أن حضر على رأس جموعه لمحاربة السلاجقة تحت راية الإمبراطور البيزنطى . وكل ماهنالك هو أن جودفرى جاء أكثر قوة وعتاداً من سلفه رسل باليل، مما جعله يبدو أعظم نفعاً للإمبراطورية البيزنطية وأكثر قدرة على خدمة أغراضها . وفى الوقت نفسه أدرك ألكسيوس أن قوة جودفرى من الممكن أن تجعله أكثر خطراً على الإمبراطورية ومصالحها (٢) . ولعل الدرس الذى أخذته الإمبراطورية من ثورة رسل باليل عليها واغتصابه أراضيها وانضمامه إلى السلاجقة ضدها ، هذا الدرس لم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد نسته بعد عندما وصل جودفرى بوايون على رأس جيوشة إلى أراضى الإمبراطورية فى أواخر القرن الحادى عشر . لذلك حرص الإمبراطور ألكسيوس على ألا تتكرر مأساة رسل باليل ، وبدأ يتصرف تجاه جودفرى فى شىء من الحزم ، فطلب منه أن يقسم يمين الولاء للامبراطور ، بمعنى أن يقسم القائد الصليبي أن يكون تابعاً للامبراطور البيزنطى

(1) Grousset, op. cit, I, p. 16.
(2) Chalandon : Premiere Croisade, p p. 119-121.

فى الأراضى الآسيوية التى عساه ينجح فى استردادها من المسلمين(١) .

هذه هي وجهة نظر الامبراطور ألكسيوس كومنين ، ويبدو أنه لم يستهدف أى هدف آخر عدا إقناع جودفرى بالولاء للامبراطورية ورد الأراضى التى يستردها من السلاجقة فى آسيا . وهذا الأمر وحده كان كافياً لتحديد العلاقة بين الامبراطورية البيزنطية من ناحية والصليبيين الغربيين من ناحية أخرى .

وكان الإمبراطور ألكسيوس — عندما سمع بما فعله الصليبيون فى سليمبريا — قد أرسل إلى جودفرى طالباً منه ردع قواته عن النهب ، والحضور ومعه رجاله أمام أسوار القسطنطينية ، فحضر جودفرى على رأس قواته وعسكروا أمام سور العاصمة فى ديسمبر سنة ١٠٩٦ ، وعندئذ أرسل ألكسيوس إلى جودفرى مرحباً داعياً إياه لمقابلته ، ليقسم له يمين الولاء(٢). على أن جودفرى بوايون رفض تلك الدعوة ، لأنه بحكم مركزه فى الإمبراطورية المقدسة ، وبحكم تبعيته للامبراطور الغربى كان يتعذر عليه أن يقسم يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطي(٣) .

وكيف كان يستطيع أمير أن يوزع ولاءه بين الإمبراطور هنرى الرابع فى الغرب والإمبراطور ألكسيوس كومنين فى الشرق ، مع ما بين الإمبراطوريتين من تنافر ؟ وأخطر من هذا ، كيف يستطيع جودفرى — وهو الأمير الكاثوليكى الذى وفد على رأس حملته تنفيذاً لدعوة البابا أوربان الثانى — أن يقدم ولاءه

---

(1) Runciman : op. cit; I. p. 149

(2) Chalandon : Alex s Comnene, p. 176.

(٣) أشار ابن الأثير إشارة سريعة إلى ما نشأ من خلاف بين زعماء الحملة الصليبية الأولى والإمبراطور البيزنطى ، واشتراط الإمبراطور على أولئك الزعماء تسليمه مايفتحونه من بلاد وعلى أن يقسموا له يمين الولاء . فقال فى حوادث سنة ٤٩١ هـ : « فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد المسلمين ويسيروا فى البر فيكون أسهل عليهم . فلما وصلوا إليها ؛ منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده ، وقال : لاأمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا أنكم تسلموا لى أنطاكية.! »

(الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

للامبراطور البيزنطى حامى الكنيسة الأرثوذكسية ، مع مابين الكنيستين الشرقية والغربية من شقاق ونفور ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة جودفرى فى عدم توريط زملائه الأمراء الصليبيين اللاحقين به ، أدركنا حرج موقفه وأسباب تمنعه عن تلبية دعوة الإمبراطور البيزنطى[1] . لذلك أخذ جودفرى يماطل فى تحديد موعد المقابلة مع الإمبراطور حتى تصل بقية الجيوش الصليبية من الغرب ، فيتخذ الأمراء الغربيون موقفاً موحداً تجاه الإمبراطور البيزنطى ويضطرونه إلى التنازل عن مطالبه . هذا وإن كانت بعض المراجع تعلل تمنع جودفرى عن مقابلة الإمبراطور بأنه كان يخشى على نفسه من غدر الإمبراطور ، وأنه طلب رهائن تبقى لدى رجاله لحين عودته إليهم سالماً ، وهو الطلب الذى اعتبره الإمبراطور إهانة له ، وماسا بشرفه[2] .

وعندما ضاق ألكسيوس بتسويف جودفرى ، وأدرك أنه يماطل لكسب الوقت اتخذ قراراً خطيراً هو منع تموين الصليبيين ، فرد الصليبيون على ذلك بنهب الضياع والضواحى المحيطة بالقسطنطينية مما جعل الإمبراطور يعدل بسرعة عن قراره[3] . وفى الوقت نفسه عمل الإمبراطور على استرضاء الصليبيين بالسماح لهم بالإقامة فى ضاحية بيرا Pera – من ضواحى القسطنطينية – حتى يحتموا بها من قسوة الشتاء من ناحية ، وحيث يسهل على الإمبراطور مراقبتهم والإشراف عليهم من ناحية أخرى[4] .

على أن هذه الإجراءات من جانب ألكسيوس لم تحل المشكلة ، إذ ظل جودفرى بوايون طوال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٠٩٧ قابعاً مع جنوده

(1) Runciman : op. cit; I, P. p. 149-150.
(2) Cam. Med Hist vol. 5, p 281.
(3) Brehier : op. cit; p. 311.
(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 178-179.

فى بيرا ، ورفض أن يؤدى يمين الولاء للامبراطور البيزنطى أو حتى يقبل دعوته لمقابلته . وعندما أحس الإمبراطور بأن الصليبيين النورمان تحت قيادة بوهيموند فى طريقهم من إيطاليا إلى القسطنطينية عن طريق مقدونيا ، فكر فى إجراء سريع للحيلولة دون التقاء هاتين المجموعتين من الصليبيين ، فمنع التموين عن قوات جودفرى مرة أخرى (أوائل إبريل سنة ١٠٩٧) مما أدى إلى صدام جديد بين البيزنطيين والصليبيين . وكان أن هاجم الصليبيون البيزنطيين فى بيرا ، وبعد ذلك انسحبت قوات جودفرى منها بعد أن نهبتها وأحرقتها وأخذت تعيث فساداً فى المناطق القريبة من القرن الذهبى ، بل لقد هاجمت أسوار القسطنطينية نفسها [1] . وإزاء ذلك اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى أن يأمر جيشه بمهاجمة الصليبيين لدفع خطرهم ، ففر رجال جودفرى ولم يستطيعوا الصمود أمام الجيش البيزنطى . وهكذا أدرك جودفرى بوايون حقيقة قوته ولم يجد بداً من مسالمة الإمبراطور [2] .

وأخيراً اضطر جودفرى بوايون إلى قبول شروط ألكسيوس كومنين ، فقصد القصر الإمبراطورى لتقديم ولاءه للامبراطور البيزنطى وإعلان وضع حملته الصليبية فى خدمة الامبراطورية لاسترداد الأراضى التى اغتصبها السلاجقة من الإمبراطورية [3] . وبعبارة أخرى فقد تعهد جودفرى بوايون بتسليم الامبراطور جميع الأراضى التى كانت ملكا للامبراطورية البيزنطية قبل موقعة مانزكرت ، والتى سيستردها الصليبيون من السلاجقة . ومعنى ذلك أن الاتفاق لا يشمل فقط البلاد والمدن الواقعة فى الأناضول مثل نيقية ، بل يشمل أيضاً البلاد والمدن الواقعة فى أطراف الشام والعراق مثل أنطاكية والرها . وهكذا جاءت تلك الاتفاقية

(1) Albert d'Aix, p. p. 307—308.
(2) Runciman : op. cit; I, p. 151.
(3) Guillaume de Tyr, I, p. p. 87-88.

التى تمت فى أبريل سنة ١٠٩٧ واضحة حاسمة ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تعتمد عليها وتتمسك بهافى المطالبة بحقوقها من الصليبيين طوال القرن الثانى عشر. وزاد من تعقيد المشكلة أن الإمبراطورية البيزنطية اختارت ألا تفسر الاتفاقية السابقة فى ضوء ما كان للامبراطورية من ممتلكات فى القرن الحادى عشر ـ على عهد باسل الثانى ـ وإنما فى ضوء ما كان للامبراطورية قديماً من أملاك واسعة فى الشرق على عهد الإمبراطور جستنيان . وفى تلك الحالة لم تكتف الإمبراطورية بالمطالبة بحقها فى أنطاكية والرها ، وإنما طالبت أيضاً ببيت المقدس وطرابلس . على أننا سنرى أن الصليبيين ما كادوا يثبتون أقدامهم فى تلك المدن ويستولون عليها ، حتى تناسوا كل ما للامبراطورية من حقوق وكل ما قدموه لها من وعود مما أثار مشاكل طويلة بين الجانبين طوال القرن الثانى عشر[1] .

ومهما يكن من أمر ، فإن يمين الولاء الذى أقسمه جود فرى بوايون جعل منه ـ ولو من الناحية الأدبية ـ تابعاً للامبراطورية البيزنطية . وكان أن غمر الإمبراطور ألكسيوس الأمير جودفرى بالهدايا الثمينة والخيول المطهمة ، كما غالى فى إمداد الجيش الصليبى بالإمدادات السخية[2] . وفى عاشر أبريل سنة ١٠٩٧ أمر ألكسيوس كومنين بنقل جودفرى وجيشه إلى الشاطىء الآسيوى حيث انتظر جودفرى وصول الحملة النورمانية . ولم يكد يتم نقل جيش جودفرى إلى البر الآسيوى حتى وصل جيش النورمان بقيادة بوهيموند إلى أسوار القسطنطينية ، وبذلك يكون ألكسيوس كومنين قد نجح فى تنفيذ خطته الخاصة بعدم اجتماع الحملتين ـ حملة جودفرى وحملة بوهيموند ـ أمام أسوار عاصمته ، ليتمكن من مفاوضة كل فريق على حدة[3] .

(1) Grousset : op. cit. I,p 19.
(2) Michaud : Hist. des Croisades. I, p. 176.
(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 183.

بوهيموند النورمانى وألكسيوس كومنين :

كان ذلك فى مستهل سنة ١٠٩٦ عندما أخذ بوهيموند النورمانى — أكبر أبناء روبرت جويسكارد — يحاصر مدينة أمالفى التى ثارت ضد النورمان فى إيطاليا . وفى تلك الأثناء ترامت إلى مسامع بوهيموند أن جيوشاً غفيرة خرجت من فرنسا ولوثرنجيا وألمانيا فى طريقها إلى بيت المقدس[١] . ولم يكد بوهيموند يتأكد من طبيعة تلك الحركة وأهدافها حتى ترك حصار أمالفى وأزمع هو الآخر الخروج إلى الشرق على رأس حملة نورمانية كبيرة ، وبصحبته ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية . وفى نوفمبر سنة ١٠٩٦ نزلت الحملة النورمانية فى أفلونا Avlona على شاطىء ألبانيا ، ومنها اخترقت البلقان شرقاً عن طريق تراقيا إلى القسطنطينية[٢] .

على أن حملة النورمان الصليبية سرعان ما سببت فزعاً للبلاط البيزنطى أكثر من حملة جودفرى . فهل حقيقة أن الحملة النورمانية الكبيرة ليست إلا مجرد حملة صليبية استهدفت حرب المسلمين ، أم أن لها أغراض وأهداف وأطماع أخرى فى قلب الدولة البيزنطية نفسها ؟ إن النورمان بالذات لهم سوابق خطيرة فى الهجوم على الإمبراطورية البيزنطية ، فضلا عن أن هذه الحملة جاء على رأسها ابن روبرت جويسكارد الذى ما زالت محاولته لغزو الدولة البيزنطية وتهديد القسطنطينية نفسها سنة ١٠٨١ ماثلة فى أذهان البيزنطيين[٣] . هذه هى المخاوف التى أثارتها حملة بوهيموند فى نفوس المعاصرين داخل الإمبراطورية البيزنطية ، وهى مخاوف أثبتت الأحداث بعد قليل عدم صحتها ، لأن بوهيموند

(1 Setton : op. cit, p. 155.
( ) Runciman : op. cit. I. p 155
(3) Cam Med. Hist. vol. 5, p. 282.

نفسه كان يدرك تماماً عدم مناسبة الوقت للقيام بمحاولة توسعية جديدة على حساب الدولة البيزنطية فى البلقان ، وأن أية محاولة من هذا النوع تحت ستار الحرب الصليبية ستقابل بالاستهجان فى جميع أنحاء العالم المسيحى وستسىء إلى النورمان إساءة بالغة . وربما كان أقرب إلى الصواب القول بأن بوهيموند رأى فى الحروب الصليبية فى الشرق فرصة تمكنه من تحقيق ما فشل رسل باليل فيه ، وهو إقامة إمارة للنورمان فى آسيا على حساب السلاجقة والبيزنطيين جميعاً ؛ ولتكن هذه الإمارة الجديدة فى أنطاكية[1] !

وهكذا سار بوهيموند على رأس جموعه قاصداً القسطنطينية ، وفى أثناء سيرهم فى البلقان نجح بوهيموند فى كبح جماحهم ، فمنعهم من الاعتداء على الأهالى وأموالهم ، بل على العكس كثيراً ما أظهر البيزنطيون وأهل البلقان عداءهم للنورمان ، فى الوقت الذى قابل بوهيموند تلك الإساءات بشىء من ضبط النفس والتسامح حتى لا يثير شكوك الإمبراطورية[2] . وبهذه السياسة الحكيمة نجح بوهيموند فى كسب ثقة الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، الذى أمر بإمداد القوات النورمانية بكل ما احتاجت إليه من ميرة طوال طريقها إلى القسطنطينية[3] .

وعندما اقترب النورمان من القسطنطينية فى أبريل سنة ١٠٩٧ طلب بوهيموند مقابلة الامبراطور ألكسيوس ليصالحه ويعبر له عن إخلاصه ونواياه الطيبة ، فوافق الإمبراطور على شرط أن يدخل بوهيموند القسطنطينية بمفرده ويترك جيشه خارجها . والواقع إن بوهيموند بالذات كان أخطر الزعماء الصليبيين فى نظر الإمبراطور البيزنطى ، ليس بسبب التجارب المريرة السابقة التى ذاقتها الإمبراطورية البيزنطية من النورمان ومطامعهم فحسب ؛ وإنما أيضاً

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 21.
(2) Chalandon : Premiere Croisade, p.p. 133–136.
(3) Gesta Francorum, p. p. 20-21.

بسبب كفاية قوات بوهيموند وحسن إعدادها وتنظيمها وقوة تسليحها ، مما جعل الحملة النورمانية تبدو قوة رهيبة داخل أراضى الدولة البيزنطية[١] .

على أن تطور الأمور سرعان ما أظهر أن شيئاً من هذه المخاوف لم يتحقق ، إذ أطاع بوهيموند رغبة الإمبراطور وتقدم إلى القسطنطينية بمفرده تاركا قيادة الجيش النورمانى لابن أخته تنكرد . والواقع إن بوهيموند أظهر حكمة بالغة فى ذلك الدور ، إذ كان يدرك قوة الإمبراطورية البيزنطية ، وأن الصليبيين دون مساعدتها لن يستطيعوا تحقيق هدف واحد من أهدافهم فى الشرق ، فضلا عن أن النزاع بين الصليبيين والبيزنطيين لن يعود إلا بالخسارة على الطرفين ، فى حين من الممكن أن يحقق التحالف بين الطرفين نتائج مفيدة للمسيحيين أجمعين . هذا كله بالإضافة إلى ما كان يرمى إليه بوهيموند من كسب مساعدة الإمبراطور البيزنطى ليتمكن عن طريق هذه المساعدة من تحقيق أطماعه فى الشرق ، وهى المطامع التى تتلخص فى فرض نوع من الزعامة على بقية زعماء الصليبيين من ناحية ، وفى إنشاء مملكة لبوهيموند فى الشرق تغنيه عن المنازعات التى دبت فى إيطاليا وصقلية بين أفراد البيت النورمانى عقب وفاة أبيه روبرت جويسكارد ، من ناحية أخرى[٢] .

وكان أن تمت المقابلة بين بوهيموند والإمبراطور ألكسيوس كومنين فى جو مشبع بالود والتفاهم . وسرعان ما أقسم بوهيموند يمين الولاء للامبراطور وأعلن تبعيته له ، فغمره — هو الآخر — بالأموال والهدايا الثمينة . ولما كانت هذه التبعية تحمل بين طياتها مبدأ الحد من أطماع بوهيموند ونشاطه فى الشرق ، لأنه سيفتح ما يفتحه من بلاد باسم الإمبراطور البيزنطى ، فإن بوهيموند رأى أن يحتاط لنفسه ومستقبله ، فطلب من ألكسيوس منحه إقطاعاً كبيراً فى

(1) Runciman : op. cit, I, p. 157.

(2) Chalandon : Premiere Croisade, p. 132.

إقليم أنطاكية . وهنا لبى الإمبراطور طلب بوهيموند ، فوعده بمنطقة واسعة حول أنطاكية طولها مسيرة خمسة عشر يوماً وعرضها مسيرة ثمانية أيام[١]. وبذلك تكون هذه الاتفاقية قد حددت مولد إمارة أنطاكية النورمانية ، وهي الإمارة التى صار لها شأن كبير فيما بعد فى تاريخ الصليبيين بالشام .

أما ما طلبه بوهيموند من الإمبراطور بخصوص تعيينه قائداً عاماً للقوات الإمبراطورية فى آسيا ، فإن ألكسيوس كومنين لم يمكنه أن يحقق ذلك الطلب بحكم تشككه فى الصليبيين عامة والنورمان خاصة . ولذلك أجاب على بوهيموند بأن الوقت لم يحن بعد للبت فى ذلك الموضوع وأنه من الممكن أن يصل بوهيموند إلى تحقيق رغبته هذه عن طريق إثبات ولائه وحسن نيته[٢].

وبفضل سياسة بوهيموند وحسن تصرفه وبعد نظره ، سارت الأمور بين السلطات البيزنطية من ناحية والنورمان من ناحية أخرى على خير ما يرام ، فانتقلت حملة النورمان إلى الشاطىء الآسيوى فى ٢٦ أبريل لتحتل مكانها إلى جانب حملة جودفرى بوايون . هذا مع ملاحظة أن بقية زعماء الحملة النورمانية — وبخاصة ريتشارد دى سالرنو وتنكرد — تجنبوا قسم يمين الولاء للامبراطور البيزنطى ، وعبروا البسفور على رأس الجيش النورمانى إلى آسيا الصغرى دون أن يرتبطوا بأى رباط مع الإمبراطور[٣] .

ريموند دى تولوز وألكسيوس كومنين :

أما الجموع الصليبية الوافدة من إقليم بروفانس ، فقد وصلت إلى الأراضى

(I) Gesta Francorum, p. 31.
(2) Brehier : op. cit; p. 312.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 282.

البيزنطية فى الوقت نفسه تقريبا الذى شهد وصول حملة النورمان . وكانت هذه الحملة البروفنسالية تحت زعامة ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس . ولما كانت البابوية تطمع دائما فى الاحتفاظ بسيطرتها على الحركة الصليبية ، فقد أوفد البابا مع ريموند الرابع الاسقف أدهمار — أسقف بوى — ليكون مندوبا يمثل البابوية فى زعامة الصليبيين بالشرق[١] . وقد بارحت تلك الحملة الغرب فى اكتوبر سنة ١٠٩٦ فاجتازت شمال إيطاليا إلى كرواتيا فدلماشيا وألبانيا ومقدونيا ثم القسطنطينية ، دون أن تصادف عقبات كثيرة فى الطريق فيما يختص بناحية التموين . وكل ما هنالك هو أن الأهالى فى الإمبراطورية البيزنطية أظهروا أحيانا شعور العداء تجاه الصليبيين ، لاسيما وأن قوات ريموند نفسها كانت غير منظمة وجنحت للنهب والعدوان مما جعل البيزنطيين لايترددون فى ردعهم[٢] .

وعندما اقتربت الحملة من القسطنطينية دعا الإمبراطور ألكسيوس كومنين زعيمها ريموند لمقابلته بمفرده فى العاصمة ، فتمت المقابلة فى أواخر ابريل سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ طلب الإمبراطور من ريموند أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل من سبقه من زعماء الجموع الصليبية . وهنا وجد ريموند نفسه فى مركز لايحسد عليه . ذلك أنه كان يطمع فى الحصول على زعامة الصليبيين جميعا فى الشرق بحكم صلته بالبابوية ومرافقه المندوب البابوى لحملته ، وهو شرف لم تحظ به بقية الحملات الصليبية السابقه . ولكن هذه الزعامة التى اعتمدت على تأييد البابوية لا يمكن أن تتفق ويمين الولاء للامبراطور البيزنطى ، راعى الكنيسة الأرثوذكسية . هذا إلى أن ريموند كان يرى فى بوهيموند النورمانى غريمه ومنافسه الأول . فإذا كان هذا المنافس قد نجح فعلا فى اكتساب صداقة

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 51.
(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 24-25.

الإمبراطور البيزنطى وتأييده ، فإن معنى قبول ريموند أن يقسم يمين الولاء للامبراطور هو أنه سيضطر فى المستقبل إلى قبول العمل تحت زعامة غريمه بوهيموند ، وهو مالا يمكن أن يقبله[1] . لذلك كله رفض ريموند بشدة تلبية رغبة الامبراطور ، وقالها فى صراحة أنه لم يحمل الصليب ليخضع لسيد غير السيد المسيح ، ولم يغادر بلاده ليحارب من أجل سيد غير السيد المسيح[2] . ثم إن ريموند استنكر أن يدخل فى تبعية الامبراطور ، فى حين يظل الأخير قابعا فى القسطنطينية لا يريد أن يرافق الصليبيين فى حرب المسلمين . لذلك أعلن ريموند أنه مستعد لإعلان تبعيته للامبراطور البيزنطى إذا خرج الامبراطور على رأس الصليبيين بنفسه وتولى قيادتهم فى الحرب الصليبية[3] .

وسرعان ما تأزم الموقف بين ريموند من جهة والامبراطور ألكسيوس من جهة أخرى ، مما أنذر بحدوث صدام مسلح بين الطرفين . وهنا تدخل جودفرى بوايون وقال لريموند أنه من الحماقة أن يفكر فى شن الحرب على المسيحيين فى القسطنطينية ، فى الوقت الذى يرابط السلاجقة المسلمون على بعد عدة كيلو مترات قليلة من نيقية[4] . أما بوهيموند النورمانى الذى كان قد سوى أموره مع الامبراطور ، فقد أعلن فى صراحة وقوفه إلى جانب ألكسيوس كومنين فى حالة وقوع صدام مسلح بين الطرفين . وأخيرا اضطر ريموند تحت تأثير الضغط الواقع عليه إلى الوصول إلى اتفاق مع الامبراطور البيزنطى . حقيقة إن ريموند أبى بتاتا أن يقسم يمين الولاء والتبعية للامبراطور ، ولكنه وافق على أن يقسم على احترام حياة الامبراطور وشرفه ، وألا يقوم هو ورجاله بعمل يسىء إلى الامبراطور[5] .

(1) Runciman : op. cit; I, p. 163.
(2) Raymond d'Aigles (Hist. Occid. III), p. 238.
(3) Cam Med. Hist, vol. 5, p. 283.
(4) Raymond d'Aigles p, 238.
(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 283.

ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين الامبراطور البيزنطى وريموند بفضل جهود أدهمار المندوب البابوى[١]. هذا إلى أن ريموند أتيحت له فرصة عقد اجتماع منفرد مع ألكسيوس كومنين، وفى ذلك الاجتماع صرح الامبراطور بتخوفه من بوهيموند والنورمان، وأنه لا يمكن أن يقلد بوهيموند زعامة القوات الامبراطورية فى آسيا. وعندما سمع ريموند تلك التصريحات من فم الامبراطور طاب قلبا وهدأ نفسا، وبدأ يدرك أنه من الممكن أن يجد فى الامبراطور البيزنطى حليفا قويا ضد بوهيموند وأطماعه. ومنذ تلك اللحظة تبدلت سياسة ريموند تجاه الامبراطورية البيزنطية تبدلا تاما[٢].

الحملة الفرنسية والكسيوس كومنين :

وأخيرا وصلت مجموعة رابعة من الصليبيين لتلتقى مع بقية الجموع الصليبية على شاطىء البسفور. وقد تألفت هذه الحملة من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير نورمنديا — وهو ابن وليم الفاتح — ، وصهره إتين (ستفن) أمير بلوا وشارتر[٣]. وبعد أن مرت الحملة بإيطاليا حيث باركها البابا أوربان الثانى، استقلت السفن من برنديزى إلى البلقان فى أوائل ابريل سنة ١٠٩٧، فأرست فى دورازو ومنها اخترقت البلقان إلى القسطنطينية. ويبدو أن ألكسيوس كومنين لم يواجه من تلك الحملة متاعب وصعوبات مثلما لاقى من الحملات السابقة[٤]. ولم يمانع زعيما هذه الحملة — كونت نورمنديا وكونت بلوا — مطلقا فى أن يقسما يمين الولاء والتبعية

(1) Selton : op. cit., I, p. p. 287-288.

(2) Runciman, op. cit; I, p. 164.

(3) Michaud : Hist des Croisades, I, p. 178.

(4) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), P. p, 331-332.

للامبراطور البيزنطى ، ولذا حرص الامبراطور على أن يغدق عليهما وعلى رجالهما الإمدادات والمؤن والإنعامات فضلا عن الأموال والخيول المطهمة(١) . وبعد أن قضى هؤلاء الصليبيون أسبوعين فى القسطنطينية ، عبروا البسفور إلى آسيا الصغرى وأسرعوا فى اللحاق ببقية الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا فعلا فى حصار نيقية(٢) .

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 188-189.

(2) Brehier : op. cit; p. cit; p. 312.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة الروم

الاستيلاء على نيقية وتسليمها للبيزنطيين :

أقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى — باستثناء ريموند وتنكرد — يمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين ، وتعهدوا له برد كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التي يستطيعون استردادها من السلاجقة ، من نيقية حتى أنطاكية . وفى مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطي بمساعدة الصليبيين فى مهمتهم بكل قواه ، وأن يسهم هو الآخر بدوره فى الحرب الصليبية ، وأن يمدهم بفرق من الجيش البيزنطى فى حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا[1] . ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن اتفاقية شاملة بهذا المعنى تم إبرامها فى منتصف مايو سنة ١٠٩٧ بين الامبراطور ألكسيوس كومنين والأمير بوهيموند، الذى كان يحاول الظهور دائما فى صورة الحليف الأول للامبراطور البيزنطى[2] .

وأخيرا تجمعت القوات الصليبية كلها على الشاطىء الآسيوى قرب أزمير، حيث حضر بطرس الناسك لمقابلة الأمراء ومعه حطام حملة العامة . وهناك تم الاتفاق على أن يبدأ الصليبيون بالهجوم على مدينة نيقية ، المركز الرئيسى لقلج أرسلان الأول ومقر حكمه . ومن الواضح أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى فى جوف آسيا الصغرى تاركين خلفهم نيقية بأيدى السلاجقة ، مما يهددهم ويهدد خطوط مواصلاتهم مع الامبراطورية البيزنطية لخطر جسيم . لذلك صدرت

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 27.

(2) Chalandon : Alexis Comnene p. 188.

الأوامر إلى الصليبيين فى أواخر ابرايل سنة ١٠٩٧ بالزحف على نيقية لاستخلاصها من السلاجقة . وقد أمد الامبراطور البيزنطى الصليبيين بآلات الحصار والطعام والمؤن ، ولكن لم تشترك سوى فرقة صغيرة من القوات البيزنطية فى حصار نيقية ، وهى المدينة القوية التحصين(١) .

وفى ذلك الوقت كان قلج أرسلان متغيبا عن نيقية ، حيث دخل فى نزاع فى كابادوكيا مع بنى دانشمند حول مدينة ملطية . ويبدو أن قلج أرسلان لم يهتم كثيرا بأنباء الغزو الصليبي ، إذ ظن أن الأمر لا يعدو وصول بعض جموع أخرى من العامة غير المدربين ، من عينة أتباع بطرس الناسك الذين قضى عليهم السلاجقة فى سهولة تامة(٢) هذا إلى أن عيون الإمبراطور البيزنطى وجواسيسه أعطوا قلج أرسلان صورة غير حقيقية عن الخلافات المستحكمة بين الامبراطور من جهة والأمراء الصليبيين من جهة أخرى ، مما جعل السلطان السلجوقى يطمئن إلى أن الصليبيين لن يصلوا بأى حال إلى نيقية ، بدليل أنه ترك زوجته وأولاده وأمواله داخل أسوار المدينة ولم يحاول نقلهم منها(٣) .

ولكن قلج أرسلان لم يلبث أن أدرك جدية الأمر ، وأن جيوش الصليبيين تلك المرة غير جيوش بطرس الناسك فى المرة السابقة ، فأرسل قوة على عجل للدفاع عن نيقية وإنقاذها . على أن تلك القوة لم تصل نيقية إلا بعد فوات الأوان ، لأن الصليبيين كانوا قد أدركوا نيقية فى ٦ مايو سنة ١٠٩٧ وحاصروها وأخذوا يهاجمونها بعد أسبوع(٦) . ثم كان أن حضر السلطان قلج أرسلان نفسه فى حوالى ٢١ مايو وبدأ بمهاجمة الصليبيين فور وصوله ، ولكنه أدرك بعد معركة قصيرة أنه من الخير له أن ينسحب لأن قوة الصليبيين أعظم مما كان يتوقع . وإذا

(1) Cam. Med Hist, vol. 5. p. 285
(2) Setton : op. cit; I, p. p. 288-289.
(2) Runciman ; op. cit; I, p. 176-177
(4) Groussel : Hist. des Croisades I p. 29.

كانت خسارة السلاجقة قد جاءت كبيرة فى تلك المعركة ، فإن خسارة الصليبيين كانت فادحة أيضاً ، ومع ذلك فإن انتصارهم أحيى روحهم المعنوية وبث فيهم قوة جديدة[١] .

وفى تلك الأثناء لم يتقاعس الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بالمؤن والزاد ، كما أرسل أسطولا صغيراً من السفن إلى البحيرة التى تقع عليها مدينة نيقية لتسهيل تزويد الصليبيين بالمؤن والإمدادات[٢] . وعندما يئست حامية نيقية من وصول إمدادات إليها من قلج أرسلان بدأت تفكر فى الاستسلام. ولكن أهل نيقية من الأتراك خشوا عنف الصليبيين وانتقامهم ، فأخذوا يتصلون سرا برجال الامبراطور البيزنطى لعله يكون أكثر رحمة بهم من الصليبيين . هذا فى الوقت الذى كان ألكسيوس كومنين متخوفاً من نوايا ريموند وتنكرد — بعد أن رفضا أن يقسما له يمين الولاء والتبعية — وخشى أن يعارض هذان الأميران فى تسليم نيقية عقب سقوطها للامبراطورية أو يتعرض الصليبيون للمدينة بالسلب والتدمير[٣] . لذلك تدخل الإمبراطور البيزنطى بسرعة ، وفاوض حامية نيقية على أساس تأمين أرواح أهل المدينة من الأتراك . ولم يلبث أن فوجىء الصليبيون بارتفاع الأعلام البيزنطية فوق نيقية دون أن يعلموا شيئاً عن المحادثات السرية التى دارت بين حامية المدينة من ناحية والامبراطور البيزنطى من ناحية أخرى . وبذلك عادت نيقية إلى أحضان الدولة البيزنطية فى ٢٦ يونية سنة ١٠٩٧ ، أى بعد ستة عشر عاما من احتلال السلاجقة لها[٤] .

---

(1) Albert d'Aix, p p. 320-321.

(2) Gesta Francorum, p. 37.

(3) Chalandon : Alexis Comnene. p. 190

(4) Brehier : op. cit, p. 312.

ولم يستطع الصليبيون إخفاء استيائهم من مسلك الإمبراطور البيزنطى تجاة أسرى نيقيـــة ، إذ ضايقهم تسامح الامبراطور مع الأسرى واستعداده لإطلاق سراح زوجة قلج أرسلان وأولاده دون فدية. وكان الامبراطور ألـكسيوس — من معاملاته العديدة مع المسلمين — يدرك أهمية العفو عند المقدرة ، ويقدر قيمة التسامح مع خصمه المغلوب ، ولـكن الصليبيين الغربيين لم يفهموا ذلك المنطق واعتبروا مسلك الإمبراطور خيانة لهم وللقضية الصليبية [١] .

وقـــد أسرع الإمبراطور ألـكسيوس كومنين إلى دعوة زعماء الحملة الصليبية — غداة الاستيلاء على نيقية — للاجتماع به قبل أن يأذن لهم بالتوغل فى آسيا الصغرى . وفى ذلك الاجتماع جـدد الزعماء الصليبيون يمين الولاء للامبراطور. وكان بوهيموند أسبق الأمراء الصليبيين إلى تلبية دعوة الامبراطور والاستجابة له ، فى حين امتنع تنـكرد وريموند عن الارتباط بيمين الولاء للامبراطور [٢] . ويبدو أن جميع زعماء الصليبيين — باستثناء تنـكرد وريموند — أدركوا أهمية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم فى مشروعهم الخطير [٣] . حقيقة إن الامبراطور ألـكسيوس لم يرافق الصليبيين بنفسه أثناء زحفهم على قونية ، ولـكنه أمدهم بفرق من الجيش البيزنطى لمؤازرتهم وإرشادهم ، فضلا عن تقديم الإمدادات والمؤن لهم. وفيما عدا ذلك يبدو أن الصليبيين والبيزنطيين تقاسموا مهمة محاربة الأتراك فى الأناضول ، فبينما انصرف الصليبيون إلى محاربة السلاجقة فى فريجيا واختاروا الزحف على ضورليوم وقونية ، إذا بالإمبراطور ألـكسيوس كومنين يوجه جهوده نحو طرد الأتراك من الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى أى من أقاليم مسيا Mysie وأيونيا وليديا [٤] .

---

(1) Runciman, op. cit, I. p. p. 180—182.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 193.

(3) Chalandon : Premiere Croisade. p. 167.

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 31.

وخلاصة القول أنه مهما يقال فى استياء الصليبيين من مسلك الامبراطور البيزنطى — سواء عند الاستيلاء على نيقية أو عند توزيع الأسلاب والغنائم أو فيما يختص بمعاملة أسرى المسلمين — فإن سقوط نيقية نفخ فى الصليبيين روحا وعزيمة شجعتهم على المضى قدما فى طريقهم ، بعد أن أدركوا خرافة الفكرة القائلة بأن السلاجقة لا يهزمون[١] . ثم إن الغرب الأوربى قابل أنباء سقوط نيقية بالفرح الكبير ، فتشجع من كان محجماً عن المشاركة فى الحركة الصليبية ، وأخذت الإمدادات تترى تباعا على الصليبيين وهم فى طريقهم إلى الشام . أما المدن الإيطالية التى ظلت حتى ذلك الوقت تقف موقفا حذرا من الحركة الصليبية ، فلم تلبث أن تشجعت ونظرت إلى الأمر نظرة جدية جعلتها تسهم إسهاما فعليا فى تلك الحرب[١] .

موقعة ضوريليوم والاستيلاء على قونية :

ثم كان أن غادر الصليبيون نيقية واستأنفوا سيرهم عبر فريجيا فى أواخر يونيه سنة ١٠٩٧ ، وهم يفيضون حماسة وقوة . ولم يلبث الصليبيون أن انقسموا إلى شعبتين ، وذلك لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف من ناحية ، والقضاء على نفوذ سلاجقة الروم فى أكبر مساحة ممكنة من ناحية أخرى ؛ فسارت إحدى الشعبتين فى الاتجاه الشمالى الشرقى والأخرى فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ، على أن يلتقيا فى ضوريليوم . وقد ضمت الشعبة الأولى النورمان جميعاً ، أى نورمان إيطاليا بزعامة بوهيموند وتنكرد ، ونورمان فى فرنسا بزعامة روبرت ؛ فى حين كان على

---

(١) ويقال إن الإمبراطور ألكسيوس كومنين حرص على ألا تتعرض نيقية لعدوان الصليبيين ونهبهم إياها فلم يسمح لهم بدخول المدينة إلا على هيئة جماعات صغيرة ولمدة محددة

«Cam, Med· Hist. vol 5, pp. 285»

(2) Runciman : op. cit; I, pp. 182-183. & Setton : op. cit; I p. 291.

رأس الشعبة الثانية المندوب البابوى أدهمار ومعه من الأمراء جودفرى بوايون وريموند .

ولم يكد الفريق النورمانى من الصليبيين يصل إلى مرتفعات ضورليوم حتى وجد نفسه فى مأزق خطير(١) . ذلك أن سقوط نيقية جعل البيتين الكبيرين من الأتراك فى آسيا الصغرى ـ وهما البيت السلجوقى وبنو دانشمند ـ يعقدان هدنة فيما بينهما لمواجهة ذلك الخطر المشترك الجديد ، فاتحد السلطان قلج أرسلان مع الأمير غازى بن دانشمند لسد الطريق فى وجه الصليبيين . وهكذا اجتمعت جميع قوى الأتراك فى آسيا الصغرى لمهاجمة الصليبيين فى سهول ضورليوم (٣٠ يونية)، فوجد بوهيموند نفسه فى خطر محدق جعله يطلب النجدة على عجل من بقية الجيوش الصليبية التى تعمل فى الأناضول(٢) . على أن وصول جودفرى بوايون ثم بقية القوات الصليبية تباعاً ، غير مصير المعركة المقبلة وقلبها رأساً على عقب ، إذا دارت الدائرة فى أول يوليو سنة ١٠٩٧ على الأتراك وانتصر الصليبيون وغنموا كميات ضخمة من المؤن والغنائم . ولا تخفى علينا أهمية موقعة ضورليوم ، إذا جاءت بمثابة إعلان آخر للعالم بظهور قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هى قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم الحربى على القوة التى طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية ، وهى قوة السلاجقة(٣) .

وبعد أن استراح الصليبيون يومين عند ضورليوم ، واصلوا زحفهم فى ٤ يوليو فى الاتجاه الجنوبى الشرقى عبر فريجيا . ويبدو أن الصليبيين صادفوا كثيراً من المتاعب فى تلك المرحلة بسبب صعوبة الأرض وقلة الزاد وندرة الماء وارتفاع درجة حرارة الصيف ، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم ، ولم يجدوا ما يحمل متاعهم

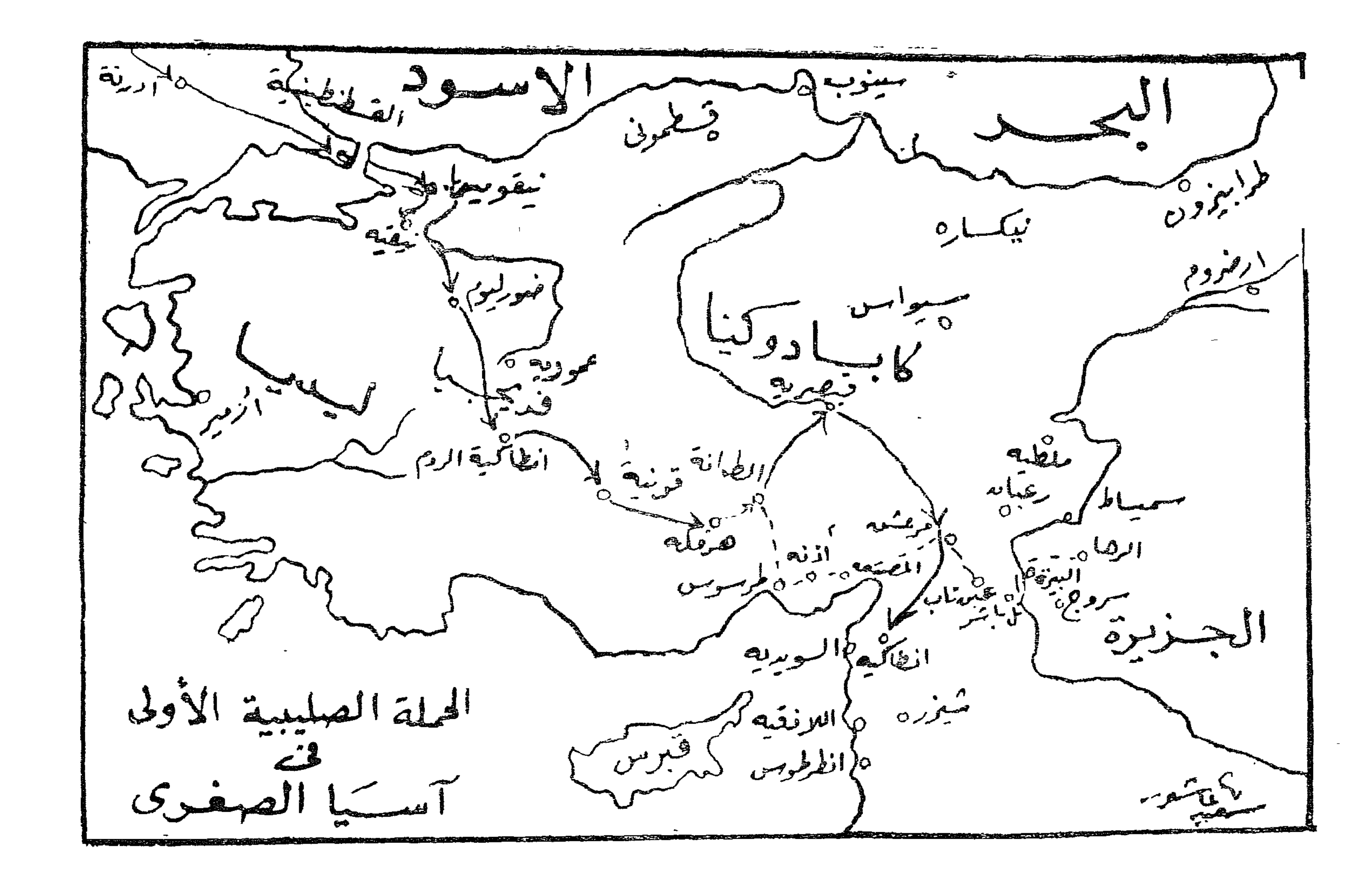
(1) Albert d'Aix, p. p. 328-329.
(2) Guillaume de Tyr I p. p. 129-130.
(3) Grousset : op. cit I 35.

وأثقالهم[١]. ومع ذلك استمر الصليبيون يقاسون الأمرين فى زحفهم حتى وصلوا أخيراً — حوالى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ — إلى سهول قونية الغنية بكلئها وشجرها.

ولم ير الصليبيون ما يدل على أن السلاجقة اعتزموا الدفاع عن قونية، وإنما ظهر أن الخطة التى وضعها قلج أرسلان عقب الكارثة التى حلت بجيوشه فى ضورليوم، استهدفت الانسحاب إلى الداخل وإخلاء المدن أمام الصليبيين. وكان أن دخل الصليبيون قونية ليجدوها خالية الوفاض من الناس والزاد؛ اللهم إلا من بعض الأرمن الذين قدموا النصح للصليبيين بأخذ كميات كافية من الماء قبل أن يقبلوا على اجتياز الصحراء المقفرة الواقعة بين قونية وهرقلة[٢].

وقد حاول السلاجقة القيام بمحاولة أخيرة لصد الصليبيين عند هرقلة، ولكن محاولتهم باءت بالفشل[٣]. وبعد أن استراح الصليبيون بضعة أيام قليلة فى هرقلة انقسموا مرة أخرى إلى شعبتين، فانشق تنكرد ومعه بلدوين — شقيق جودفرى بوايون — واتجهوا فى حوالى منتصف سبتمبر سنة ١٠٩٧ صوب قيليقية فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى، فى حين اتخذ بقية الصليبيين - وعلى رأسهم المندوب البابوى وجودفرى نفسه وبوهيموند وريموند - طريقاً شمالياً شرقياً صوب قيصرية التى استولوا عليها فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٠٩٧[٤] ومن قيصرية اتجه الصليبيون صوب الجنوب الشرقى، فاستولوا فى أوائل أكتوبر على بلاكنتيا — وهى قلعة أرمينية فى جبال طوروس ذات موقع هام — كان بنو دانشمند يحاصرونها عندما أنقذها الصليبيون. وقد طالب القائد البيزنطي المرافق للصليبيين

(1) Gesta Francorum, p. 55.
(2) Gesta Francorum; p. p. 55-57
(3) Setton : op. ; vol I; p. 295.
(4) Gesta : Francorum, p. 6I.



الحملة الصليبية الأولى
في
آسيا الصغرى
البحر الاسود
ادرنة
القسطنطينية
سينوب
قسطمونى
طرابيزون
نيقوميديا
نيقيه
نيكسار
ارضروم
ضورليوم
سيواس
كابادوكيا
ليديا
ازمير
عموريه
فيلوميليوم
قيصرية
انطاكية الرحم
قونية
الطرانة
هرقلة
اذنه
المصيصه
طرسوس
مرعشه
ملطيه
رعبانه
سميساط
الرها
البيرة
سروج
عينتاب
تل باشر
الجزيرة
انطاكيه
السويديه
شيزر
اللاذقيه
انطرطوس
قبرس

تسليمه تلك القلعة باسم الامبراطـور ، فوافق الصليبيون على ذلك ، مما يثبت وفاءهم بتعهداتهم للامبراطور حتى تلك المرحلة (١) .

وبعد أن مر الصليبيون ببعض القرى والضياع الأرمينية حيث رحب بهم الأرمن وأظهروا لهم الود والصداقه ، اخترقوا مجموعة من سلاسل طوروس العالية للوصول إلى مرعش . وكانت مرعش مدينة أرمينية معظم سكانها من الأرمن ، فرحبوا بالصليبيين عند وصولهم إليها فى ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، واعتبروهم منقذين لهم وحماة للمسيحية فى تلك الجهات . وهناك أيضاً حافظ الصليبيون على كلمتهم وسلموا مرعش للسلطات البيزنطية (٢) . ومن مرعش اتجه الصليبيون نحو الشام ، فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصى شرقى أنطاكية فى ٢٠ أكتوبر ، وبذلك بدأ الغز والصليبى للشام (٣) .

وقبل أن نتتبع الغزو الصليبى للشام ، يصح أن نلقى نظرة سريعة على جهود الامبراطور ألكسيوس كومنين فى استرداد أيونيا وفريجيا ، وجهود تنكرد وبلدوين البولونى فى قيليقية وإقليم الرها .

حملة ألكسيوس كومنين فى ايونيا وفريجيا :

لا شك فى أن سقوط نيقيه عاصمة قلج أرسلان ، ثم هزيمة قلج أرسلان نفسه فى موقعة ضورليوم بعد ذلك ، كان بمثابة طعنة قاتله لهيبة تلك الأسرة السلجوقية ومكانتها فى الأناضول . وكما أن سقوط نيقية فى أيدى السلاجقة سنة ١٠٨١ أدى إلى استيلائهم فى سهولة على جميع الأجزاء الغربية من الأناضول ،

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades. I; p. 38.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. p 287.
(3) Michaud : op cit; p. p. 237-239.

فكذلك جاء استيلاء البيزنطيين على هذه المدينة سنة ١٠٩٧ بداية لاسترداد الامبراطورية البيزنطية لذلك الجزء الغربي من الأناضول برمته [١] .

وعندما أوغل الصليبيون فى قلب دولة قلج أرسلان دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وجد صغار الأمراء الأتراك على شاطىء بحر إيجة ـ مثل أمير أزمير وأمير إفسوس ـ أنفسهم مقطوعين عن الدولة السلجوقية ، فلم يستطيعوا المقاومة طويلا [٢] . ولاشك فى أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين هو الذى أفاد من تلك الأوضاع ، فلم يلبث غداة الاستيلاء على نيقية أن أرسل إلى أيونيا جيشا يقوده صهره حنا دوقاس وأسطولا تحت قيادة كازباكس Kaspax . [٣] كذلك صحب جيشه السابق مجموعة من أسرى السلاجقة فى نيقية ، وبصفة خاصة زوجة السلطان قلج أرسلان نفسه . ولم تلبث هذه الخطة أن أفلحت وأحرزت نجاحا كبيراً ، إذ استسلم فوراً أمير أزمير ثم تبعه أمير إفسوس [٤] .

وفى ربيع سنة ١٠٩٨ بدأ حنا دوقاس يعمل لاسترداد إقليم ليديا وغرب فريجيا من الأتراك . وبعد أن نجح القائد البيزنطى فى استرداد تلك الجهات حتى أضاليا ، اتجه صوب الشمال الشرقى حيث أنزل هزيمة بالأتراك عند بلوادين Bulwadin . وفى تلك الأثناء كان الامبراطور البيزنطي قد احتل بثنيا التى أخلاها الأتراك عقب موقعة ضورليوم . وهكذا تم للبيزنطيين استرداد الجزء الغربى من الأناضول (يونية ١٠٩٨) ، ولم يبق أمام الامبراطور ألكسيوس كومنين سوى الاتجاه نحو قيليقية والشام للحاق بالصليبيين الغربيين أمام أنطاكية [٥] .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I; p.41.
(2) Chalandon : Alexis Comnene. p. 195.
(3) Runciman : op. cit; 1. p. 194.
(4) Chalandon : Alexis Comnene. p. p. 196-198.
(5) Brebier : op. cit. p. p. 312-313.

وهنا نلاحظ أن نجاح الدولة البيزنطية فى استرداد الأناضول إنما يعتبر نتيجة مباشرة من نتائج الحملة الصليبية الأولى ، وهى نتيجة لها من الأهمية التاريخية مالا يقل عن غزو فلسطين نفسها على أيدى الصليبيين . وتبدو هذه الأهمية بوضوح عند المقارنة بين ما كانت عليه خريطة الشرق الأدنى سنة ١٠٩٥ ، وبين ما صارت إليه سنة ١٠٩٨ . ففى سنة ١٠٩٥ كانت الحدود التركية البيزنطية تمر بمدينة نيقية ونيقوميديا ، أى على مسافة قصيرة من بحر مرمرة والبسفور ، فى حين آل حكم أزمير وإفسوس إلى أمراء من الأتراك . أما فى سنة ١٠٩٨ فكان قد تم طرد الأتراك من بثنيا وأيونيا وليديا وفريجيا ، ومن ثم عادت إلى هذه الأقاليم الحياة البيزنطية والحضارة البيزنطية لتعيش فى ظلها من جديد مدة ثلاثة قرون ونصف . ويكفى للدلالة على الأهمية التاريخية لهذا التطور أن نشير إلى أنه عندما سقطت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فى أيدى رجال الحملة الصليبية الرابعة ، لم تجد الحضارة البيزنطية والتراث البيزنطى مأوى تأوى إليه وتعيش فيه سوى تلك الأقاليم الآسيوية التى تم استردادها نتيجة لجهود الحملة الصليبية الأولى .

وهكذا كانت الحملة الصليبية الأولى خير أداة استطاعت أن تثأر بها الدولة البيزنطية لنفسها مما حل بها على يد السلاجقة منذ موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١[1].

(1) Grousset : Hist des Croisades I p· p. 42-43.

الفصل الرابع

تأسيس إمارة الرها الصليبية

نجاح تنكرد وبلدوين البولونى فى استرداد قيليقية :

رأينا كيف اختار بلدوين البولونى — أخو جودفرى بوايون — ، ومعه تنكرد ابن أخت بوهيموند النورمانى - أن ينفصلا فى ١٤ سبتمبر سنة ١٠٩٧ عن بقية الجموع الصليبية لغزو قيليقية وانتزاعها من الأتراك السلاجقة(١) .

والواقع أن هذين الأميرين اشتهرا بأنهما أكثر أمراء الحملة الصليبية الأولى حباً للمخاطرة والمجازفة ، حتى أن الحرب الصليبية كانت فى نظرهما لا تعدو مجرد مغامرة سياسية وحربية لغزو الشرق . وقد رأى هذان الزعيمان أنه من الخطأ اتخاذ الطريق الطويل حول كابادوكيا مارين بقيصرية ومرعش ؛ لأن هذه الدورة الطويلة ليس لها إلا مبرر واحد هو الرغبة فى تنفيذ الاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين وتحطيم قوة الأتراك تماما فى الأناضول ، وتمكين الإمبراطورية البيزنطية من بسط سيطرتها على الأقاليم التى عرفت فيما بعد باسم «أرمينية الصغرى» التى كانت تسكنها عناصر مسيحية .

على أن تنكرد كان لا يزال حتى ذلك الوقت ممتنعاً عن الاعتراف بالاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين، ومن ثم كان حراً فى تصرفاته(٢) . ويبدو أن بلدوين البولونى شارك تنكرد فى كثير من آرائه ووجهة نظره ، ومن ثم تجنب الإثنان طريق كابادوكيا واتجها مباشرة نحو سهول قيليقية الخصبة التى كانت دائماً موضع

(1) Chalandon : Premiere croisades, p. 172.

(2) Setton : op. cit I. P, 296.

نزاع بين زعماء الأرمن فى طوروس من ناحية وأمراء السلاجقة من ناحية أخرى، بصرف النظر عن حقوق الدولة البيزنطية نفسها فى تلك المنطقة[١] .

وكان إقليم قيلقية ، الذى طالما دمرته الحروب بين البيزنطيين والمسلمين ، قد عمرته هجرة أرمينية ضخمة فى القرن الحادى عشر ، عندما اضطرت جموع غفيرة من الأرمن — أمام غزو السلاجقة — إلى هجرة بلادهم حول بحيرة فان فى أواخر القرن الحادى عشر والاتجاه جنوباً صوب قيليقية . ولم يلبث أن صار ذلك الإقليم فيما بين سنتى ١٠٧٧ ، ١٠٨٣ جزء من ممتلكات فيلاريتوس — المغامر الأرمنى الذى سبق الكلام عنه — والذى استطاع أن يؤسس أول دولة أرمينية فى تلك المنطقة[٢] . وبسقوط دولة فيلاريتوس استطاع الأتراك السلاجقة أن يخضعوا الجزء الأعظم من سهول قيليقية، وبخاصة مدينتى المصيصة وطرسوس. ومع ذلك فقد تمكن بعض زعماء الأرمن الاحتفاظ باستقلالهم محتمين بجبال طوروس ، ومن هؤلاء روبان Roupen الذى كان من رجال كاكج الثانى آخر ملوك الأرمن ، وانتهى به الأمر إلى أن استقر حوالى سنة ١٠٨٠ داخل جبال طوروس إلى الشمال الشرقى من سيس . وبعد روبان خلفه ابنه قسطنطين الأول (١٠٩٢ — ١١٠٠) الذى استطاع أثناء قيامه بمطاردة الأتراك أن يوسع منطقة نفوذه فى جميع أنحاء قيليقية. وثمة زعيم آخر من زعماء الأرمن الذين لاذوا بجبال طوروس فى تلك الفترة هو أوشين (ت ١١١٠) مؤسس بيت هيثوم الشهير فى تاريخ أرمينية الصغرى ؛ وكان هذا الزعيم الأخير يسيطر على مدينة أذنه[٣] .

وعلى هذه الصورة وجد تنكرد وبلدوين البولونى قيليقية عند وصولهما إليها فى أواخر سنة ١٠٩٧ ، وبصحبتهما بعض الأعوان والمرشدين الأرمن الذين سهلوا

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 43 .
(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 43.

لهما مهمة الزحف[١] . وربما كانت كثرة الأرمن المسيحيين فى قيليقيه من العوامل الرئيسية التى سهلت مهمة تنكرد وبلدوين البولونى ، لأن معظم سكان المدن والقلاع فى ذلك الإقليم — كما لاحظ المؤرخ الصليبى وليم الصورى — كانوا من الأرمن ، حتى ولو كانت تلك المدن والقلاع خاضعة للأتراك وبها حاميات تركية[٢] .

لذلك كان أول مافعله تنكرد عندما شرع فى حصار مدينة طرسوس هو الاتصال بأهلها الأرمن (٢١ سبتمبر سنة ١٠٩٧) . ويبدو أن وصول جموع أخرى من الصليبيين بزعامة بلدوين البولونى قد أفزع حامية المدينة التركية ، فانتهزت فرصة الليل وفرت منها ، وعندئذ أسرع سكان المدينة ـ من الأرمن والبيزنطيين ـ إلى دعوة الصليبيين إلى دخول مدينتهم . وللمرة الأولى تردد تنكرد فى تسليم طرسوس لمندبى الامبراطور البيزنطى ـ أسوة بمافعل الصليبيون حتى ذلك الوقت فى كافة المدن التى استولوا عليها ـ لأن تنكرد كان يطمع فى فتح قيليقية لحسابه الخاص ، لا سيما وأنه لم يقيد نفسه بالاتفاقية التى عقدها الصليبيون مع الدولة البيزنطية[٣] .

والواقع أنه بوصول الصليبيين إلى قيليقية ، بدأت تظهر فى وضوح أطماع الأمراء فى تأسيس إمارات خاصة لهم فى الشرق . من ذلك أن بلدوين البولونى عز عليه أن ينفرد تنكرد بمدينة طرسوس وأراد أن ينازعه ملكية هذه المدينة ، عندما نصحه أحد الأرمن المرافقين له بأن يترك طرسوس لتنكرد ويتجه هو نحو إقامة إمارة لنفسه فى مدينة الرها. على أن تنكرد كان أسبق إلى التنازل والتسامح

---

(1) Raoul de Caen : (Hist. Occid, Tome III) p. 634 & Albert d'Aix : Hist, Occid, IV. p. 683.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 140.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I. p. 46.

فترك طرسوس واتجه صوب أذنه [١] . وكان هناك نحو ثلثمائة رجل من أتباع تنكرد قد تخلفوا عند طرسوس ، فرفض بلدوين أن يسمح لهم بدخول المدينة أو أن يمدهم بالزاد ، وأجبرهم على المبيت فى ضيعة قريبة مكشوفة حيث دهمهم الأتراك أثناء الليل وقتلوهم عن آخرهم [٢] . وقد أثارت هذه الكارثة حنق الصليبيين جميعا على بلدوين البولونى وجماعته بوصفهم المسئولين عما حل بتلك المجموعة من الصليبيين من قتل على يد الأتراك.

على أنه مما دعم نفوذ بلدوين فى تلك الفترة وصول أسطول قوى إلى شاطيء قيليقية ، يحمل مجموعة كبيرة من الصليبيين ، معظمهم من الأراضى المنخفضة بزعامة ونمار البولونى Winemar of Bologne – وهو قرصان محترف – قدم لبلدوين البولوني ثلثمائة جنديا لمساعدته ، ثم أبحر بعد ذلك ليساعد تنكرد فى الاستيلاء على الاسكندرونة [٣] أما تنكرد فكان فى تلك الأثناء قد انصرف من طرسوس إلى أذنه ، ومنها إلى المصيصة التى كانت فى قبضة الأتراك رغم أن غالبية سكانها من الإرمن (أوائل أكتوبر ١٠٩٧) [٤]. وعند المصيصة ظهر التنافس مرة أخرى بين تنكرد من جهة وبلدوين البولونى من جهة أخرى ، إذ لم يلبث أن ظهر الأخير أمام المصيصة لينافس تنكرد فى الاستيلاء عليها [٥] . ولكن تنكرد كان قد استولى على المصيصة فعلا بمساعدة أهلها من الأرمن ، فأغلق أبوابها فى وجه بلدوين الذى اضطر إلى المرابطة بقواته خارجها . وكان أن حدث صدام بين القوتين ، ولكنه انتهى بالصلح السريع [٦] .

وهنا نؤكد مرة أخرى أن النزاع بين تنكرد وبلدوين البولونى إنما كان

(1) Cam. Hist. vol 5. p. 288.
(2) Albert d'Aix, Hist. Occid, IV, p. p. 346-347.
(3) Riant : Les Scandinaves en Terre Sainte, p. 134.
(4) Cam : Med. Hist. vol. 5, p. 288.
(5) Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p. p. 172-173
(6) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 22.

يحمل بين طيـــاته معنى خفيا ، وهو بداية محاولات أمراء الصليبيين لإنشاء إمارات لهم فى الشرق [١] . ذلك أن المفروض ـ حسب الاتفاقية المعقودة بين الامبراطور ألـكسيوس وزعماء الصليبيين — أن تسلم قيليقية للامبراطورية، وبناء على ذلك لم يحتفظ الصليبيون فى المدن الأرمينيـة الرئيسية الثلاث فى قليقية ـ وهى طرسوس وأذنه والمصيصة ـ سوى بحاميات قليلة العدد والأهمية . وحوالى سنة ١١٠٠ أرسل الأمبراطور ألـكسيوس كومنين حملة تسلمت المدن الثلاث السابقة . وإذا كان تنـكرد قد إستولى على هذه المدن مرة أخرى سنة ١١٠١ ، فإن البيزنطيين عادوا فاحتلوها سنة ١١٠٤ [٢] وهكذا استمر الحال، حتى أدى النزاع بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحيـة ، وبينهم وبين البيزنطيين من ناحية أخرى ، إلى تمـكين الأرمن من إقامة دولة قومية خاصة بهم فى الطرف الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى ، وهى مملـكة أرمينية الصغرى .

بلدوين البولونى وأمراء الأرمن فى طوروس والجزيرة :

لم يحاول بلدوين البولونى أن ينفذ فى قيليقية مشروعه الخاص بإنشاء إمارة صليبية أرمينية يتولى حكمها ؛ وإنما ظل محتفظاً لنفسه بسرية المشروع حتى منتصف أكتوبر سنة ١٠٩٧ عندما التقى بأخيه جودفرى بوايون وبقية الجيش الصليبى الـكبير عند مرعش . ولم يلبث بلدوين أن انشق بعد يومين عن بقية الصليبيين تحت ستار حماية ميسرة الصليبيين الزاحفين على أنطاكية، ليبحث لنفسه عن إمارة جديدة صالحة فى البلاد الأرمينية [٣] .

والملحوظ أنه إذا كانت هجرة الأرمن فى القرن الحـادى عشر قد غيرت

(1) Setton : op. cit; vol. I, p 296.
(2) Chalandon : Alexis Comnene. p. p. 221-223.
(3) Albert d'Aix : Hist. Occid. III. p XXVII.

وجه قيليقية ، إلا أن أثر تلك الهجرة كان أقل وضوحاً فى الأجزاء الشرقية الممتدة حتى الجزيرة وشمال الفرات ، أى فى الجهات المحيطة بملطية وسميساط ومرعش وعين تاب وتل باشر والرها. على أنه لا ينبغى أن يفوتنا أن هذه المنطقة كانت قبل قليل جزءاً من الإمارة الإرمينية التى أقامها فيلاريتوس والتى سبق أن أشرنا إليها ، حتى إذا ما سقط فيلاريتوس ، حل محله فى تلك البلاد بعض زعماء محليين من أتباعه [1] وفى ذلك الميدان صمم بلدوين على أن يعمل ، لا سيما وأن أمراء الأرمن المحليين فرحوا بمجىء الصليبيين واعتبروا أن العناية الإلهية قد أرسلتهم لإنقاذهم مما يلاقونه من ضغط المسلمين المحيطين بهم . وإذا كان هناك ثمة احتمال بأن اتجاه بلدوين إلى تلك المنطقة الأرمينية لم يكن اعتباطاً ، وإنما جاء بناء على رغبة حكام الإمارات الأرمينية فيها واتصال بعضهم ببلدوين أثناء وجوده فى قيليقية ، فإن هذا الاحتمال يقويه أن الأرمن كانوا دائماً تواقين إلى الحصول على مساعدة الغرب والبابوية ، بدليل ما هو معروف من إرسالهم أحد الأساقفة الأرمن إلى البابا جريجورى السابع — قبل ذلك بعشرين سنة — لطلب مساعدته ، عندما بلغهم أن ذلك البابا يفكر فى إرسال حملة لمساعدة المسيحيين فى الشرق [2].

ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الأرمن ، فى تلك المنطقة الممتدة من شمالى الشام إلى شمال الجزيرة ، لندرك الأساس الذى قامت عليه أولى الإمارات الصليبية فى منطقة الشرق الأدنى .

أما ملطية فقد انتقلت السلطة فيها إلى أحد أولئك المغامرين الأرمن من رجال فيلاريتوس ، واسمه جبريل . وقد حاول جبريل هذا أن يحتفظ بحسن العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية ، فاعتنق المذهب الأرثوذكسى ليجمع بين

(1) Grousset: L'Empire du Levant; p.p. 182—183.
(2) Runciman : op. cit. I. p.p. 202—203.

جنسه الأرمنى ومذهبه الشرقى البيزنطى[1] . على أن السلاجقة لم يلبثوا أن أحاطوا بأراضيه من جميع النواحى ، مما دفع جبريل إلى الإسراع بالدخول فى تبعية السلطان السلجوقى والخليفة العباسى . ولهذا الغرض أرسل جبريل زوجته إلى بغداد لإعلان تلك التبعية ، وعادت الزوجة وهى تحمل لزوجها تأكيداً بضمان بقائه فى إمارته[2] . ثم إن جبريل لم يتردد فى مقاومة الأتراك عندما هددوا إمارته . ومن ذلك أنه حدث سنة ١٠٩٦ أن تعرضت ملطية لحصار قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، وعندئذ أبى جبريل فى إصرار تسليم مدينته . وإذا كان السريان فى ملطية قد أظهروا دائماً عداءاً للحكم البيزنطى الأرمنى ، حتى أن حنا سعيد زعيم السريان فى ملطية اتصل فعلا بالسلاجقة ، إلا أن جبريل أحبط تلك المحاولة وأعدم حنا فى أوائل يولية سنة ١٠٩٦[3] . وهكذا حتى تعرض السلاجقة لضغط الصليبيين ، ونزلت الكوارث تترى على قلج أرسلان فى نيقية وضوروليوم وغيرها ، فخف ضغط السلاجقة مؤقتاً عن ملطية ليهددها الخطر التركى من ناحية أخرى ، هى ناحية التركمان من بنى دانشمند فى سيواس . ذلك أن صاحب سيواس — الملك غازى كمشتكين — لم يلبث أن انتهز فرصة ماحل بالسلاجقة من مصائب ليحاول أن ينفرد هو بملطية . وقد استمر الملك غازى يهدد ملطية ثلاث سنوات متتالية ، مما جعل حاكم ملطية يتجه نحو الصليبيين طالباً المساعدة[4] .

أما مرعش فقد رأينا كيف سلمها الصليبيون لمندوبى الإمبراطور البيزنطى بعد أن خلصوها من الأتراك فى أكتوبر سنة ١٠٩٧ . على أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أدرك أن المدينة أرمينية قلباً وقالباً ، ومن ثم رأى أن

---

(1) Guillaume de Tyr (Hist. Occid) Tome, lp. 437.
(2) Michel Le Syrien, III, II, p. 179.
(3) Grousset: Hist. des Crisades I, p. 50.
(4) Michel Le Syrien, p. 167.

يعهد بحكمها إلى أحد الزعماء الأرمن واسمه ثاتول Thatoul —الذى ظل يحكم مرعش حتى انتزعها منه الصليبيون سنة ١١٠٤[١] .

وفى شرقى مرعش ظهر مغامر أرمنى آخر — هو كوغ باسيل — الذى بسط سيادته على قلعتى كيسون (كيسوم) ورعبان، قرب بهسنى. وكوغ باسيل هذا أخو باكراد الذى رافق بلدوين البولونى بعد نيقية[٢] ، والذى وجه نظره نحو تلك المنطقة الأرمينية . ويبدو أن هذين الأخوين كانا يتمتعان بنفوذ واسع ومكانة خاصة فى تلك المنطقة[٣] .

أما الرها فكان يحكمها زعيم أرمنى آخر هو ثوروس Thoros ابن هيثوم ؛ الذى كان أيضاً من رجال فيلاريتوس . وكانت الرها بعد وفاة فيلاريتوس قد خضعت للسلاجقة فترة عصيبة من تاريخها عندما منحها السلطان ملكشاه للأمير بوزان سنة ١٠٨٧ . على أن النزاع الذى استحكم فى تلك الفترة بين أمراء السلاجقة مكن ثوروس من الوصول إلى حكم الرها سنة ١٠٩٥ ، وإن كان قد تجنب الدخول فى صراع مباشر مع السلاجقة أنفسهم ، ولو بشراء مساعدة بعض قبائلهم بالمال[٤] . وفى الوقت نفسه اعتمد ثوروس على سند شرعى فى حكم الرها هو الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطى[٥] . ومع كل ذلك فإن الرها ظلت مهددة باستمرار من جانب السلاجقة نظراً لإحاطتهم بها ، مما جعل ثوروس ينظر بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى الشرق الأدنى .

هذا من ناحية الأرمن ، أما من ناحية الصليبيين فيلاحظ أنهم أيضاً كانوا

---

(1) Chalandon : Les Comnenes, II, p. 105.

(٢) يذكر ابن العبرى أن كوغ باسيل معناها «اللص باسيل لأنه سرق عدة قلاع من الثغور فتملكها الارمن إلى الآن» .
(ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩) .

(3) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 23.

(4) Guibert de Nogent, III, p. 156.

(5) Matthieu d'Edesse (Doc. Arm), I, p. 35.

فى حاجة ماسة إلى مساعدة الأرمن فى تلك المنطقة . وهكذا وقف المسيحيون الأرمن على مشارف الشام ليفتحوا أبواب الوطن العربى فى الشرق الأدنى أمام الصليبيين ، لاسيما وأن معظم سكان الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة كانوا فعلا من الأرمن المسيحيين ، رغم تفوق الأتراك الحربى والسياسى فى تلك الجهات [١] . وكانت هذه الظاهرة أشد ماتكون وضوحا فى منطقة تل باشر — على الطريق بين الرها وأنطاكية — وفى منطقة الراوندان على الطريق بين مرعش وأنطاكية . وإلى هذه المنطقة بالذات اختار باكراد — الرفيق الأرمنى لبلدوين البولونى — أن يوجهه عند ماترك الأخير مرعش [٢] .

بلدوين البولونى والرها :

استطاع الأمير بلدوين أن يحرز تقدما كبيراً ، وأن يستولى على كثير من المواقع والمدن والقلاع فى شمال الجزيرة ، وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرمنى الذى كانت له السيادة فى تلك الجهات ، والذى نظر إلى تقدم الصليبيين بعين الرضا للخلاص من حكم الأتراك المسلمين [٣] . وهكذا لم يصادف بلدوين البولونى صعوبة فى الاستيلاء على تل باشر والراوندان ، بفضل مساعدة الأرمن وثورتهم ضد الحاميات التركية من ناحية وضعف تلك الحاميات من ناحية أخرى . وقد أراد بلدوين أن يكافىء رفيقه الأرمنى باكراد ، فمنحه حكم الراوندان ، ولكنه عاد وتشكك فى ولاء باكراد له فاعتقله [٤]

وفى تلك الأثناء كان ثوروس حاكم الرها قد سمع بنجاح الصليبيين فى

(1) Guillaume de Tyr : I. p. 153.
(2) Steveuson : op. cit. p. 23.
(3) Ibid
(4) Michaud : op. cit, I, p. 228.

الاستيلاء على تل باشر من السلاجقة ، فأرسل إلى بلدوين يدعوه للحضور إلى الرها لمساعدته (فبراير ١٠٩٨) . وكان ثوروس رجلا مسناً ، ليس له ولد يرثه فى أمارته ، فخشى أن تضيع الرها من يد المسيحيين ويستولى عليها الأتراك المسلمون[١] . وزاد من مخاوف ثوروس أن كربغا (كربوقا) صاحب الموصل كان يعد عندئذ جيشاً كبيراً لإنقاذ إنطاكية من الخطر الصليبي ، مما جعل ثوروس يتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش — وهو فى طريقه إلى الشام — الرها وغيرها من الإمارات الأرمنية[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الاستغاثة صادفت هوى فى نفس بلدوين البولونى ، لما فيها من تحقيق لأطماعه السياسية ، فأسرع إلى الرها فى فبراير سنة ١٠٩٨ على رأس قوه صغيرة من ثمانين فارساً ؛ واستطاعت تلك القوة أن تفلت من الوقوع فى قبضة حامية سميساط التركية . وكانت فرحة أهل الرها وحاكمها بتلك النجدة عظيمة ، فاستقبلوها استقبالا حافلا[٣] كما استقبلها رجال الدين الأرمن بغبطة بالغة ، مما يشير إلى أنه لم تكن هناك فجوة واسعة بين الكنيستين الأرمينية واللاتينية ، مثلما كان بين الكنيسة الأرمينية من ناحية والأرثوذكسية اليونانية من ناحية أخرى[٣] .

والواقع إن سميساط — بمن فيها من أتراك — كانت العدو اللدود لإمارة الرها الأرمينية . ولذلك طلب ثوروس حاكم الرها من بلدوين أن يبدأ بمهاجمة تلك المدينة ، فاستجاب بلدوين لذلك الطلب وأخذ يهاجم سميساط فى النصف

(1) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar.), I. p. 35.

(2) Runciman: op. cit, I. p. p. 203-204.

(3) Matthieu d'Edesse, I. 36.

(4) Guillaume de Try. I. p. 156.

وجدير بالذكر أن ابن الأثير عندما أشار إلى امتلاك الصليبيين الرها قال «إنهم ملكوا مدينة الرها بمكاتبة من أهلها لان أكثرهم أرمن ، وليس بها من المسلمين إلا القليل » .

(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

الثانى من فبراير سنة ١٠٩٨ . وقد ساعد بلدوين فى تلك العملية جيش من الأرمن، وتمكن بفضل هذه المساعدة من الاستيلاء على الضياع المكشوفة التابعة لسميساط . وبينما المحاربون المسيحيون مشغولين بنهب تلك الضياع، إذا بقوة من الأتراك تباغتهم وتقتل نحو ألف من الأرمن[1] .

ويبدو أنه من الصعب تحديد موقف بلدوين البولونى من ثوروس أمير الرها فى تلك المرحلة ، وإن كان من الراجح أن فرار جنود الرها من معركة سميساط جعل بلدوين يفكر فى ضرورة تحويل إمارة الرها الأرمينية إلى إمارة لاتينية — أرمينية . أما ثوروس فكانت فكرته الأولى عند ما استنجد ببلدوين هى أن يجعل منه قائد الجيش وأن يجعل من الصليبيين جنداً مرتزقة يعملون تحت إمرته ، ويدافعون عنه وعن بلده مقابل ثمن يتفق عليه. ولكن بلدوين كان لا يمكن أن يرضى بذلك الوضع الذى يتعارض مع أطماعه وآماله . ويقال إن البحث فى هذا الموضوع بالذات كان قد تم أثناء وجود بلدوين فى تل باشر قبل حضوره إلى الرها، وأن بلدوين اشترط عندئذ أن يتبناه ثوروس ويتخذه إبناً ووريثاً وشريكا له فى حكم الرها . ولم تكن هذه الشروط قاسية بالنسبة لثوروس لعدم وجود أبناء له يرثونه فى حكم الرها من ناحية ؛ ولتقدم سنه من ناحية أخرى[2] . ولما كان ثوروس أشد ما يكون حاجة إلى مساعدة بلدوين ،فقد انتهى الموقف بأن تبنى ثوروس بلدوين ونادى به وريثاً له فى حكم الرها ، وتمت مراسيم التبنى وفقاً للتقاليد المعمول بها فى الكنيسة الأرمينية فى القرن الحادى عشر[3] .

وهكذا صار هناك نوع من الوصاية الصليبية اللاتينية على إمارة الرها الأرمينية ؛ وبحكم هذه الوصاية أصبح العنصر اللاتينى هو الوريث الطبيعى

---

(1) Grousset : op. cit, I, p. 55.
(2) Runcimen : op. cit, I, p. 204.
(3) Guibert de Nogent : Hist. Occid, IV. p. 165.

للعنصر الأرمنى فى حكم الرها. على أنه يبدو أن الأرمن كانوا منقسمين على أنفسهم داخل الرها ، بل لقد نقم بعضهم على ثوروس بسبب اعتناقه المذهب الأرثوذكسى واعترافه بنوع من التبعية للامبراطور البيزنطى. هذا فضلا عن عجز ثوروس عن حماية محاصيل الأهالى ومتاجرهم من عدوان السلاجقة ، وتعسفه فى جمع الضرائب والأموال من الأهالى الخاضعين(١) . ولم تلبث أن أتيحت الفرصة لأهل الرها للتعبير عن استيائهم بوصول بلدوين إليهم ، فقامت ثورة عارمة فى الرها فى مارس سنة ١٠٩٨ ، وهى الثورة التى انتهت بقتل ثوروس وانتقال مقاليد الأمور فى الرها إلى يد بلدوين البولونى .

ومع أن أقوال المؤرخين المعاصرين تشهد كلها على أن تلك الثورة كانت داخلية ، حركها وأشعلها فريق من أهل المدينة الأرمن(٢) ، إلا أننا لا يمكن أن نبرأ بلدوين تماما من تهمة المشاركة — ولو بنصيب محدود — فى تحريض الثوار ، ومن تهمة التفريط فى حياة ثوروس ودمه ، وعدم القيام بواجبه كاملا فى حمايته . ولا أدل على صحة هذا الاتهام من سياسة بلدوين فى الرها ، إذ حرص دائما على أن يكتسب مكانة شعبية فى نفوس الأهالى ، فضلا عن أنه لم يحاول أن يسرع لإنقاذ ثوروس من يد الثوار ، بل على العكس نصحه بالتسليم(٣) وبالإضافة إلى كل ذلك فقد أشارت بعض المراجع إلى اتصـــال المتآمرين على حياة ثوروس ببلدوين سراً فى ليلة من ذات الليالى ، وأنهم عرضوا عليه تفاصيل مؤامرتهم ، ووعدوه بتسليمه زمام الحكم فى المدينة عقب التخلص من ثوروس(٤) .

ومهمـا يكن من أمر ، فقد أدت ثورة مارس سنة ١٠٩٨ إلى أن أصبح

---

(1) Michaud : op. cit, I, 233.
(2) Albert d'Aix, p. p. 354-355
& Guilaume de Try; I. p. 206.
(3) Runciman : op. cit, I, p. 206.
(4) Matthieu d'Edesse, I, p. p. 37-38.

بلدوين البولونى سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها . وهكذا استطاع بلدوين أن يحقق آماله وأن يصل إلى أهدافه ، بل إنه كان أول أمير بين زعماء الحملة الصليبية الأولى استطاع أن يمكن لنفسه فى الشرق ويحقق أطماعه السياسية بتأسيس إمارة لنفسه ينفرد بحكمها . حقيقة إن الرها لم تكن فى الأراضى المقدسة ذاتها ، ولكن أهميتها فى تاريخ المسيحية الأول معروفة[1] . هذا فضلا عن أن موقعها فى شمال الجزيرة جعل تلك الإمارة الصليبية الجديدة على جانب كبير من الأهمية فى حماية ممتلكات الصليبيين بالشام ضد أى هجوم يأتى من الشرق .

ومن الواضح أن بلدوين لم يكن حريصا على الوفاء بتعهداته للامبراطور البيزنطى ، فتناسى أنه وريث ثوروس الذى ربطته بالإمبراطورية البيزنطية علاقة تبعية واضحة[2] . ثم إن الظروف التى أصبح فيها بلدوين البولونى سيد الرها ساعدته على اتخاذ هذا الموقف من الامبراطورية البيزنطية ، لأنه تولى مقاليد الأمور فى الرها نتيجة لثورة شعبية وبتفويض من أهل المدينة ، مما جعله يتحلل من أى قيد يربطه بالعرش البيزنطي ، فى الوقت الذى كان بلدوين متحررا فعلا من التزامات الاتفاقية التى عقدها زعماء الصليبيين فى القسطنطينية ، مع الامبراطور ألكسيوس كومنين . وهكذا يبدو أنه إذا كانت حكومة ثوروس اتصفت بمسحة بيزنطية أرمينية ، فإن حكومة بلدوين صارت ذات صبغة لاتينية أرمينية . وتبدو أهمية ذلك كله فى أن اتفاقية القسطنطينية بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطى تم خرقها فعلا فى الرها ، قبل أن يستولى الصليبيون على

(١) كانت مدينة الرها من أول البلدان التى قامت بها جالية مسيحية كبيرة فى الشرق الأدنى ، كما ترجمت فيها أجزاء من العهد الجديد إلى اللغة السريانية فى القرن الثانى للميلاد انظر :

(Burkit : Early Eastern Christianity).

(2) Runcimau : op. cit, I, p. 206.

أنطاكية ويدخلوا فى نزاع حول ملكيتها مع الامبراطورية البيزنطية[1] . أما الامبراطور ألكسيوس كومنين فلم يكن عندئذ فى مركز يسمح له بتأكيد حقوقه فى الرها ، لبعدها عن مركز قوة الامبراطور ، ولذلك فضل ألكسيوس أن يتغاضى مؤقتا عما جرى فى الرها من أحداث وعن استقلال بلدوين بها حتى تمكنه الظروف فى المستقبل من تأكيد حقوق الامبراطورية فى تلك المنطقة بصورة عملية[2] .

وسرعان ما أحس بلدوين بضرورة القيام ببعض الأعمال التى تعلى من شأنه فى نظر رعاياه الجدد من الأرمن وتضفى على حكمه فى الرها قسطا من الشرعية والأهمية . لذلك أخذ بلدوين يجدد جهوده للاستيلاء على سميساط ، وهى المدينة التى كان وقوعها على الضفة المقابلة للفرات ، مهدداً للرها . وكان أن وفر أمير سميساط التركى على بلدوين عناء الحرب ؛ إذ أدرك ذلك الأمير صعوبة الدفاع عن إمارته بعد أن تبدلت الأوضاع فى الرها ، فعرض على بلدوين شراء سميساط مقابل عشرة آلاف دينار من الذهب . ولم يجد بلدوين صعوبة فى الحصول على هذا المبلغ إذ كان فى خزانة أمير الرها الراحل - ثوروس - مبالغ طائلة ، دفع منها بلدوين الثمن المطلوب واستولى على سميساط . وقد وجد بلدوين فى قلعة سميساط عدداً كبيراً من الأسرى والرهائن الأرمن — معظمهم من أبناء الرها — فردهم إلى أهلهم وذويهم ، مما أكسبه شعبية كبيرة بين أهل الرها[3] .

على أن أهل الرها لم يقنعوا بالاستيلاء على سميساط وإنما طمعوا فى إخضاع مركز آخر قريب فى الجنوب الشرقى ، هو حصن سروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب . وكان صاحب تلك القلعة عندئذ هو نور الدولة بلك بن بهرام ابن

(1) Grousset: op. cit, I, p. p. 60-61.
(2) Setton: op. cit, vol. I, p. 304.
(3) Guillaume de Try, I, p. 159.

أرتق ، أى أنه انتمى إلى الأراتقة وهم بيت من التركمان ظلوا يسيطرون على بيت المقدس ، حتى إذا ما تعرضوا لضغط الفاطميين نزحوا إلى الشمال الشرقى ، حيث أسسوا عـدة إمارات فى ديار بكر وشمال الجزيرة[١] . ويبدو أن بلك لم يدرك طبيعة الإمارة الصليبية الجديدة التى قامت فى الرها ، وظن أن بلدوين لا يعدو أن يكون مغامراً من نوع رسل باليل ، فأرسل إليه يطلب منه المعونة ضـد رعاياه من العرب الذين رفضوا دفع ما عليهم من أموال . وكان أن زحف بلدوين على سروج ومعه آلات الحصار ، فخاف أهلها وأرسلوا رسلهم إليه يعلنون رغبتهم فى تسليم المدينة واستعدادهم لدفع الجزية . وهـكذا استولى بلدوين على سروج ، فعزل بلك وضمها إلى أمـلاكه[٢] . ولا شك فى أن الاستيلاء على سروج جاء متمماً لفتح الرها ومؤمناً لهذه الإمارة الجديدة[٣] .

وقد أكمل بلدوين سيطرته على تلك المنطقة بالاستيلاء على البيرة سنة ١٠٩٩ ، وهى قائمة على نهر الفرات ذات موقع حربى هام ، على الطريق بين الرها وعينتاب (عين تاب)[٤] . على أنه لم يلبث أن تخلى عن البيرة لأحد زعماء الأرمن المحليين ، كما سنرى فيما بعد .

أما عن سياسة بلدوين فى حـكم الرهـا فقد قامت على أساس الربط بين العناصر المختلفة التى صارت تتألف منها الإمارة ، وبخاصة الصليبيين الغربيين من

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ ، ٢٠٢ .

(2) Albert d'Aix (Hist. Occid IV) p. p. 356-357 & 445-446.

(٣) أما رواية ابن الأثير عن استيلاء بلدوين على سروج ، فيقول فيها إن النزاع لم يكن بين بلدوين وبلك بن بهرام ، وإنما بين بلدوين وسقمان (سكمان) بن أرتق نفسه ، وهو الذى كان فى وقت ما صاحب بيت المقدس . ويذكر ابن الأثير أن سقمان هذا حاول غزو الرهـا بجيش كبير من التركمان ، ولـكنه هزم واستولى الفرنج على سروج ، وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم » .

(ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

(4) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 402.

ناحية والأرمن من ناحية أخرى . وقد ضرب بلدوين نفسه مثلا لهذا الترابط بزواجه من الأميرة أردا Arda ، وهى ابنة أحد زعماء الأرمن (١) . على أنه إذا كانت سياسة بلدوين قد استهدفت الربط بين العنصرين ، إلا أنه من الواضح أن بلدوين نفسه كان حريصاً فى الوقت ذاته على أن يظل العنصر الأرمنى خاضعاً للعنصر اللاتينى الغربى . لذلك جذب بلدوين إلى الرها عدداً كبيراً من الصليبيين الغربيين وأغدق عليهم المنح والأموال . ولكن هؤلاء عاشوا بعيدين عن الاختلاط بالأرمن ، مما أساء كثيراً إلى شعورهم (٢) . ذلك أن الصليبيين الغربيين لم يلبثوا أن أصبحوا بمثابة أرستقراطية عسكرية فى الرها ، تحكم شعباً من الأرمن يشتغل أفراده بالتجارة والزراعة . حقيقة إن هذه الأرستقراطية لم تضطهد الأرمن مذهبياً — مثلما كان يفعل البيزنطيون — فظل التسامح الدينى يسود العلاقات بين اللاتين والأرمن، ولكن سرعان ما استولى الوافدون الجدد من الصليبيين على الضياع الزراعية التابعة الرها خارج أسوارها، واضطر من عليها من الفلاحين الأرمن إلى العمل فى ظل قيود النظم الاقطاعية المعروفة فى الغرب الأوربى ، فضلا عن أن الضرائب التى ظل يدفعها أهل الرها لم تخف عما كانت عليه أيام ثوروس (٣) .

لذلك لاعجب إذا استاء الأرمن من حكم الصليبيين ، وأخذوا يدبرون مؤامرة للتخلص من ذلك الحكم ، فاتصلوا بالأراتقة سراً للحصول على المساعدة. ولكن هذه المؤامرة أحبطت وعوقب زعماؤها عقابا قاسياً فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٠٩٨ (٤) .

(1) Guillaume de Tyr. p. 402.
(2) Michaud : op. cit, I. p. 235.
(3) Runciman : op. cit, I. p. 211.
(4) Albert d'Aix, p. 443. & Guiliaume de Tyr p. 285.

الفصل الخامس
الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة فارس

الصليبيون أمام أنطاكية :

وفى الوقت الذى كان بلدوين البولونى يعمل فى محيط الأرمن بالجزيرة ، زحف بقية الجيش الصليبى الكبير على شمال الشام قاصدا أنطاكية ، وهى العاصمة البيزنطية القديمة لذلك الإقليم . وقد أحدث وصول الصليبيين إلى مشارف الشام هلعا كبيرا فى قلوب الأهالى ، لأن كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون أنهم أمام خطر جديد من نوع غير عادى. وعبر عن ذلك ابن القلانسى بقوله إن الصليبيين وصلوا «فى عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها . »[1] وكان الصليبيون قد غادروا مرعش فى أكتوبر سنة ١٠٩٧ بعد أن تزودوا بالطعام والماء ثم استولوا على حصن بغراس وقلعة أرتاح فى الطريق . ولم تلبث أن وصلت طلائع الجيش الصليبى بقيادة بوهيموند مدينة أنطاكية فى ٢١ أكتوبر[2] .

أما عن مدينة أنطاكية هذه فقد ذكرنا أن آخر حكامها من قبل الامبراطورية البيزنطية كان فيلاريتوس الأرمنى ، حتى انتزعها منه زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش فى فبراير سنة ١٠٨٥ . وعندما تغلب تتش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا وقتله سنة ١٠٨٦ صارت أنطاكية من أملاك تتش ، حتى اختار أخوه السلطان ملكشاه أن يأخذها منه ويعطيها لأحد رجاله

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣١ (مطبوع) .

من التركمان ، وهو ياغي سيان سنة ١٠٨٧ (١) . وكان ياغى سيان هذا على درجة من الكفاية مكنته من اكتساب رضاء تتش بعد وفاة ملكشاه ، حتى إذا ما توفى تتش ظل ياغى سيان محتفظاً بأنطاكية ، دون أن يستطيع ملك حلب — رضوان بن تتش — انتزاعها منه . وهكذا قدر لذلك الأمير التركمانى — ياغى سيان — أن يظل محتفظاً بأنطاكية ليتولى الدفاع عنها ضد جحافل الصليبيين (٢) .

ولم يكن الشقاق بين ياغي سيان أمير أنطاكية وسيده رضوان بن تتش ملك حلب هو العامل الوحيد الذى سهل مهمة الصليبيين فى شمال الشام ؛ وإنما حدث فى السنة نفسها التى أخذت الجيوش الصليبية تتدفق من غرب أوربا إلى الشرق (١٠٩٦—١٠٩٧) أن قامت حرب أهلية بين ابنى تتش — رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق — بسبب رغبة الأول فى انتزاع دمشق من أخيه (٣) . وكان أن زحف رضوان — يصحبه ياغى سيان — على دمشق لطرد دقاق منها ، ولكنه فشل فى ذلك وارتد « عائداً إلى حلب خائباً فى الأمر الذى طلب (٣) » ولم يلبث أن ترك ياغى سيان جانب رضوان وانضم إلى أخيه وغريمه دقاق ، وأغراه على أن يقوم بمهاجمة رضوان فى حلب . ولكن دقاق فشل هو الآخر فى هجومه على حلب ، على الرغم من مساعدة ياغى سيان له (٤) .

---

(١) ذكرته بعض المراجع باسم ياغى بسان ؛ وقال الدكتور زكى محمد حسن : إن هذا النطق للاسم هو الاصح (زامباور : معجم الانساب ص ٢٢١)

ومع اعترافنا بصحة هذا الرأى ؛ إلا أننا آثرنا استخدام الصيغة الشائعة للاسم فى غالبية المصادر المعاصرة .

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ١١١ — ١١٢

(٣) « وقد كان الملك فخر الملوك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب مائلا إلى دمشق ومحباً لها ومؤثراً للعود إليها ، ولا يختار عليها سواها ، لمعرفته بمحاسنها وترعرعه فيها » . (ابن القلانسى : ١٣١ — ١٣٢) .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٢

هذه هى بعض الأحداث التى كانت تجرى على مسرح الشام ساعة وصول الصليبيين اليهافى أكتوبر سنة١٠٩٧، [١] ومنها يتبين أن ياغى سيان بخيانته لسيده ملك حلب حرم من الحصول على مساعدة أقرب القوى الإسلامية إليه عندما دهمه الخطر الصليبي فى أنطاكية . ويقول ابن العديم أن استبداد ياغى سيان وتعسفه آثار استياء المسيحيين فى شمال الشام وبخاصة فى أرتاح ، مما جعلهم يفرحون لظهور الصليبيين ويطلبون العون منهم[٢].

أما مدينة أنطاكية نفسها فكانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً ، بحيث لا يمكن مقارنتها فى مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية[٣] .ذلك أن الجبال العالية أحاطت بها من جهتى الجنوب والشرق ، فى حين كان يحدها من جهة الغرب مجرى نهرى العاصى ، ومن الشمال مستنقعات وأحراش ، فضلا عن قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها[٤] . وعندما وصل بوهيموند ومعه رجاله من النورمان إلى أنطاكية اتخذوا مواقعهم فى الجهة الشمالية للمدينة ، أى عند باب بولس . ثم جاء بعد ذلك روبرت أمير فلاندرز، وروبرت أمير نورمنديا ، وهيو أمير فرمندوا ، وستفن (إتين) أمير بلوا ، فاتخذوا جميعهم مواقعهم بين باب بولس وباب الكلب . أما ريموند والمندوب البابوى أدهمار ومعهم فرسان بروفانس ، فاستقروا أيضاً على مقربة من باب الكلب ، إلى الجهة الغربية منه. وأخيراً عسكر جودفرى بوايون فى الجهة الشمالية الغربية ، أى فى مواجهة باب الجنينة [٥].

---

(١) أبوا الفدا : المختصر فى أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(2) Stevenson ; The Crusaders, p. 25.

(٣) « وفعل أهل أرتاح مثل ذلك ، واستدعوا المدد من الفرنج . وهذا كله لقبح سيرة ياغى سيان وظلمه فى بلاده » .

(ابن العديم : زبدة الحلب ٢ ص ١٣١ — مطبوع) .

(4) Grousset : Hist, des Croisades I, p. 72.

(٥) ذكر ياقوت الحموى عن أنطاكية « ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم —

وكانت غالبية أهل أنطاكية فى ذلك الوقت من السريان والأرمن . وعندما علم ياغى سيان صاحب أنطاكية باقتراب الصليبيين «خاف من النصارى الذين بها» ولذلك أخرجهم بحجة حفر خندق يحمى المدينة ؛ ولما أرادوا دخول أنطاكية ، عند العصر منعهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين فى حصارهم ، فى حين تحفظ هو على أهلهم « وكف أيدى المتطرقة إليهم »[1] .

هذه هى الرواية العربية عن موقف أهل أنطاكية المسيحيين . أما الرواية اللاتينية فتختلف تماماً لأنها تقول إن «الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة ، فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة »[2] . ومن هاتين الروايتين المتناقضتين يبدو لنا أن أهل أنطاكية ، من السريان والأرمن تنازعهم تياران متعارضان ، فقرروا الانتظار حتى يروا من المنتصر وعندئذ ينضمون إلى جانبه . هذا إلى أنه من المرجح أن يكون ياغى سيان قد اتخذ إجراءات تعسفية ضد المسيحيين فى أنطاكية عند ما علم باقتراب الصليبيين ، فزج بالبطرق فى السجن ، وطرد كثيراً من أعيان المسيحيين ، واستولى رجاله على كتدرائية القديس بطرس واتخذها اسطبلا لخيوله[3] .

ومهما يكن من أمر فإن حصار الصليبيين لأنطاكية ، استمر سبعة أشهر — من ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٧ حتى ٣ يونيه ١٠٩٨[4] — وكان من الممكن ألا

— من الثغور الشامية . وهى من أعيان البلاد وأمهاتها . . . وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل ، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ... وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتتم الدائرة ... »

(معجم البلدان ص ٢٦٧ — طبعة بيروت) .

(1) Guillaume de Tyr I, p. p. 174-175.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(3) Gesta Francorum, p. 69.

(4) Runciman : op. cit, I, p. 214.

تطول مدة الحصار على هـذا النحو لو أن الصليبيين باغتوا المدينة بالهجوم فور وصولهم ولم يضيعوا وقتاً طويلا فى الانتظار والتفـكير ، لاسيما وأن جميع الشواهد تشير إلى حالة الفزع والارتباك التى استولت على الأتراك فى أنطاكية عند ما علموا بوصول الصليبيين . وزاد من موقف الصليبيين قوة أنهم أمنوا طريق الاتصال فيما بينهم وشاطىء البحر ، وذلك عند ماوصل إلى ميناء السويدية — عند مصب نهر العاصى — فى حوالى ١٧ نوفمبر سنة ١٠٩٨ أسطول جنوى يحمل إمدادات هامة للصليبيين[١] .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بينما كانت الجيوش الصليبية تخترق الأناضول فى طريقها إلى الشام ، دأبت الأساطيل الإيطالية والفلمنـكية والسكندناوية على مساعدة الصليبيين[٢] . من ذلك أن المغامر ونمار البولونى استطاع أن يستولى فى أغسطس سنة ١٠٩٧ على ميناء اللاذقية من الأتراك . وبعد ذلك بعدة شهور — أى فى ربيع سنة ١٠٩٨ — زار اللاذقية أسطول إنجليزى بقيادة إدجار اثلنج وروبرت جودفنسن[٣] .

أما ياغى سيان ، فقد حاول فى تلك الأثنـاء الحصول على مساعدة جيرانه المسلمين . وكان من الطبيعى ألا يطمع فى مساعدة رضوان ملك حلب بعد أن تخلى عنه فى العـام السابق ، فأرسل ابنه شمس الدولة إلى دقاق ملك دمشق ، كما أرسل إلى جناح الدولة أمـير حمص وكربغا أتابك الموصل ، فضلا عن سلطان سلاجقة فارس والخليفة العبـاسى ، « وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث على الخوف إلى الجهاد . وقصـد تحسين أنطاكية وإخراج

---

(١) حدد ابن الأثير مدة الحصار بتسعة أشهر (الـكامل ـ حوادث ٤٩١ هـ) .

(2) Raymond d'Agiles. (Hist, Occid. III), p. 242 & Carfo (Hist. Occid, V), p. 50.

(3) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. 133.

النصارى منها»[١] . وفى الوقت نفسه أعد ياغى سيان عدته لحصار طويل، فشحن القلاع بالجند والمقاتلين، واختزن داخل أسوار المدينة المؤن الكافية[٢] .

وعندما طال حصار أنطاكية ، أخذ الصليبيون يوجهون جزءاً كبيرا من نشاطهم نحو القرى والضياع القريبة — وبخاصة فى حوض نهر العاصى — لنهبها والحصول على الميرة والغذاء . ويبدو أن ياغى سيان أحس بابتعاد تلك القوة من الصليبيين ، فخرج فجأة من المدينة وقام بهجوم مباغت على بقية الصليبيين، وكاد ينجح فى تفرقة شملهم لولا مهارة ريموند التى أنقذت الموقف ، وعندئذ عاد ياغى سيان ورجاله إلى داخل المدينة[٣] . وفى ذلك الوقت تجمعت قرب شيزر نجدة إسلامية لإنقاذ أنطاكية ، على رأسها دقاق السلجوقى ملك دمشق وبصحبته طغتكين أتابك ، وأمير حمص العربى جناح بن ملاعب . وعندما علم هؤلاء الأمراء المسلمون أن جزءا من الجيش الصليبى بقيادة بوهيموند النورمانى وروبرت أمير فلاندرز — يزحف على امتداد نهر العاصى ، قرروا الخروج لملاقاتهم ، فدارت معركة بين الطرفين عند البارة فى نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧[٤] . ويفهم مما ذكره ابن العديم أن المسلمين تفوقوا على الصليبيين فى ذلك الاشتباك، وأنهم « قتلوا منهم جماعة »[٥] .

ويبدو أن تلك المعركة نبهت الصليبيين إلى عدم المغامرة بالابتعاد عن مراكزهم جنوبا ، فاكتفوا بالإغارة شرقا حتى معرة مصرين حيث « قتلوا من وجدوا وكسروا منبرها »[٦] على أن هذه الانتصارات المحلية لم تحقق للصليبيين ما كانوا

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

(2) Runciman : op. cit. 1, p. 215.

(3) Idem, p. 202.

(4) Stevenson : op. cit. p. 96.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٢ (مطبوع) .

(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ١٣٢ .

يرجونه من زاد وطعام، فعادوا إلى أنطاكية «منتصرين ولكن الأيدى خاوية»، على قول أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين[١]. وهكذا أخذ شبح المجاعة يهدد الصليبيين أمام أنطاكية، ولم تكفهم المعونة المتقطعة التى كانت تأتيهم من قبرس والغرب حينا، وتنقطع أحيانا. وتحت تأثير الجوع والإنهاك نشبت الفوضى وسوء النظام بين الجند[٢]. وفى تلك الظروف الحرجة والأوضاع الصعبة، أخذ بعض الصليبيين يهربون من المعركة ويتسللون خفية. ولم تقتصر هذه الظاهرة على الجند المغمورين، بل إن بطرس الناسك نفسه ووليم النجار أمير ميلون Melun اختفيا فجأة، فجد تنكرد فى أثرهما حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيموند الذى وبخهما علنا لهروبهما، وأخذ عليهما تعهداً بعدم ترك الجيش الصليبى حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس[٣].

بوهيموند ومشكلة أنطاكية:

وفى وسط تلك المخاطر والأوضاع الصعبة التى أحاطت بالصليبيين أمام أنطاكية، أخذ بوهيموند يبدو فى صورة الرجل القوى الذى تركزت فيه آمال الصليبيين. ولكن بوهيموند لم يعمل فى ذلك الدور لوجه الله والصليبيين فحسب، ولم يبذل ما بذله من جهود حرصا على ولائه للامبراطور البيزنطى، وليسلمه إلى

(1) Raymond d'Aigl(e)s, (Hist. Occid, III), p. 245.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 188.

والمعروف أن بطرق بيت المقدس السابق — وهو سيمون — كان مقيما عندئذ بقبرس فدأب على إرسال المؤن والمأكولات والنبيذ من الجزيرة إلى الصليبيين أمام أنطاكية؛ لأنه رأى فى انتصار الصليبيين الغربيين — رغم اختلاف المذاهب — انتصاراً للمسيحية، ونيلا من المسلمين. انظر:

(Runciman: op. cit, I, p. p. 222–223)

(3) Gesta Francorum, p. p. 77–79.

ماشاء الله ثمار جهده وجهود الصليبيين. وإذا كان بوهيموند قد حافظ حتى ذلك الوقت على تعهده الذى قطعة على نفسه فى القسطنطينية للامبراطور ألكسيوس كومنين، وسلم للامبراطور كل ما استولى عليه من بلاد فى آسيا الصغرى؛ فإن هذه السياسة كانت لا يمكن أن تستمر. وهكذا أخذت سياسة بوهيموند تجاه ألكسيوس والإمبراطورية البيزنطية تتغير أثناء حصار أنطاكية، وهو التغيير الذى ترتب عليه حدوث تحول خطير فى تاريخ الحروب الصليبية. ذلك أن بوهيموند أدرك أن الإمبراطور البيزنطى لن يوافق مختاراً على منحه أنطاكية، فلا مانع إذا من أن يحصل عليها رغم إرادة الإمبراطور[١].

وقد نفذ بوهيموند خطته فى براعة فائقة، فاختار أصعب أوقات الحصار وأشدها حرجاً — فى أوائل يناير سنة ١٠٩٨ — ليعلن أنه أزمع الانسحاب والعودة إلى إيطاليا، وأنه لا يستطيع الاستمرار فى تلك العملية الحربية الطويلة التى لم يكن مستعداً لها، ولا يمكنه أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله، وهم يتساقطون كل يوم صرعى من الجوع أمام أسوار أنطاكية[٢]. ومن الواضح أن هذا التهديد الخطير كان يعنى تعريض الصليبيين جميعاً لكارثة محققة، لأن بوهيموند ورجاله صاروا بمثابة العمود الفقرى للقوات الصليبية المحاصرة لأنطاكية. لذلك أسرع جميع الزعماء الصليبيين — فيما عدا ريموند — وتوسلوا إلى بوهيموند حتى لا يتركهم أمام أنطاكية، ووعدوه بتسليمه أنطاكية فور الإستيلاء عليها. وكان ذلك هو كل ما استهدفه بوهيموند من وراء مناورته، فلم يبق له بعد ذلك سوى إظهار مقدرته وكفايته فى الاستيلاء على أنطاكية[٣].

(١) أشار ابن القلانسى إلى نقص الصليبيين للعهد الذى قطعوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطى، ولكنه أخطأ فقال: إنهم امتنعوا عن تسليمه نيقية.

(ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥).

(2) Grousset: Hist. des Croisades I, p. 79.

(3) Chalandon: Alexis Comnène, p. 201 & Première Croisade, P. 193.

ثم إن بوهيموند أدرك جيداً أن وجود قوات بيزنطية بقيادة تاتكيوس Tatikios أمام أنطاكية بحجة مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على المدينة، سيفسد عليه خطته ، لأن القائد البيزنطى سيطالب عند سقوط أنطاكية بتنفيذ العهد الذى قطعه الزعماء الصليبيون على أنفسهم للامبراطور البيزنطى[١] . لذلك أخذ بوهيموند يستفز القائد البيزنطى . وعندما ذهب تاتكيوس يشكو ويطلب المساندة من بقية الزعماء الصليبيين ؛ كان بوهيموند قد أحكم خطته ، فاتهمه أولئك الزعماء بأنه يتآمر مع الأتراك سراً ضد الصليبيين وأنه يخون القضية الصليبية فى الخفاء . وعندئذ لم يسع تاتكيوس سوى أن يفكر فى النجاة بنفسه ، فانسحب فوراً عن طريق ميناء السويدية إلى جزيرة قبرص[٢] . والواقع إن اتهام تاتكيوس كان يعنى اتهام الامبراطورية البيزنطية كلها ، فتحول شعور الصليبيين نحوها إلى عداء، وأخذوا فى أزمتهم أمام أنطاكية يلقون باللوم على الإمبراطور البيزنطى ودولته، ويقولون أنه لو كان الإمبراطور ساعدهم بإخلاص لما وصلوا إلى الحالة السيئة التى أمسوا فيها ، ولوجدوا على الأقل ما يسد رمقهم من زاد وميرة . وهكذا دفع هذا الشعور كافة الأمراء الصليبيين إلى التنكر لوعودهم للامبراطور البيزنطى ، على أساس أن البيزنطيين أنفسهم هم الذى بدءوا بنقض اتفاقية القسطنطينية ، فتخلوا عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بما يحتاجون إليه من معونة ، فضلا عن أن مندوب الامبراطور لم يثابر مع الصليبيين أمام أنطاكية ، وإنما تركهم ولاذ بالفرار[٣] . و بذلك نجح بوهيموند فى إحكام خطتة ولم يبق فى طريقه مايحول دون تسلمه أنطاكية فور سقوطها فى أيدى الصليبيين .

---

(1) Brehier : op. cit. p. 312

(2) Setton : op. cit. I. p. p. 313 – 314.

(8) Runciman : op. cit. I. p. p. 224.

مشروع التحالف بين الصليبيين والفاطميين :

على أن الشيء الذى يسترعى العجب حقاً ، هو أن المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل أن الفاطميين فى مصر فكروا فى مشروع للتحالف مع تلك القوة الجديدة التى ظهرت فى بلاد الشام ، ضد خصومهم من أهل السنة ، أعنى الخلافة العباسية فى بغداد والأتراك السلاجقة فى الشام (١) .

وكان صاحب السلطة الفعلية فى مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى الذى ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمى المستعلى (١٠٩٤ـ ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من حكم الخليفة الآمر ، أى حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم إدراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية من أنه عند مارأى الصليبيين يهاجمون الأتراك السلاجقة — أعداء الدوله الفاطمية الألداء ـ فكر فى أن يقيم تحالفاً بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين (٢) . وربما استند الأفضل فى تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية أيام صحوتها فى القرن العاشر لم تتعد أملاكها فى بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا فى نهاية القرن الحادى عشر ليفعلوا فى بلاد الشام مثلما فعل نقفور فوقاس وحنا الشمشقيق فى نهاية القرن العاشر (٣).

ولم يشأ الأفضل أن يضيع الوقت ، وإنما انتهز فرصة الفوضى التى أصابت العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر ، نتيجة لوصول

---

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. 196.

(2) Stevenson : op. cit; I, p. 26.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 83

الصليبيين ، وأرسل جيشاً تمكن من فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٨ « وملكه وتسلم محراب داود من سكمان»[١] . وفى تلك الأثناء كانت سفارة فاطمية من قبل الأفضل قد وصلت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية (يناير — فبراير ١٠٩٨) . وهناك فى المراجع مايشير إلى أن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين منذ وجودهم فى القسطنطينية ، بأن يحاولوا محالفة الفاطميين فى مصر . ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين لتلك النصيحة فى ذلك الوقت ، إلا أن بعض المراجع الصليبية أشارت إلى أنهم أرسلوا من نيقية سفارة إلى مصر[٢] . وإذا كان هذا الرأى ليس له مايؤيده فى بقية المراجع الصليبية ، إلا أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الإمبراطور البيزنطى مما جعلهم يرحبون بالسفارة التى أرسلها إليهم الأفضل فى أوائل سنة ١٠٩٨ أمام أنطاكية[٣] . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الإسلامى على نفسه فى ذلك الحين بين سنة وشيعة ، وترك وعرب ، وماسببه هـذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعا ، الأمر الذى مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع . وتصور لنا المراجع اللاتينية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدى الصليبيين[٤] .

ومهما يكن من أمر فقد صح حساب الأفضل فى أول الأمر ، لأن الأتراك كانوا مشتغلين بالغزو الصليبى وإقامة جبهة فى الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا من إرسال نجدة لاقربائهم فى بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفى الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التى اتخذها الفاطميون ، لأن تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب إرتباكا للأتراك السلاجقة فى

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(2) Runciman : op. cit; I, p. p. 230.

(3) Riant : Inventaire des lettres des Croisades, I, p 162.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. p. 191—192.

أشد الأوقات حرجا[١] . هذا فضلا عن أن السفارة التى أرسلها الفاطميون إلى الصليبيين عند أنطاكية ، أكسبت أولئك الاخيرين وضعا سياسيا معترفا به فى ركن هام من أركان العالم الإسلامى . ويذكر ابن الأثير كيف أخذ الصليبيون ينهضون بدورهم فى مهارة بالغة عندئذ ، فلم يكتفوا ببث شعور الطمأنينة فى نفوس الفاطميين ، وإعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم فى بلاد الشام ، وإنما حاولوا أيضا أن يسدلوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق ؛ فأرسلوا إلى دقاق يطمئنوه على مصيره، ويؤكدون له أنهم لا يطمعون إلا فى استرداد الأماكن والبلدان التى كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى ؛ أى الرها وأنطاكية واللاذقية[٢] . وبعد هذه الخطوة حاول الصليبيون أيضاً استمالة رضوان ملك حلب ، حتى إذا مافرغوا من أمره هو الآخر استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهام إمارة بعد أخرى ومدينة تلو مدينة من الإمارات والمدن الإسلامية بالشام .

تدخل رضوان ملك حلب ، موقعة العمق :

ويبدو أن تلك الخطة الصليبية قد نجحت إلى حد كبير ، إذ هدأ دقاق فى دمشق ، وظل حينا بعد هزيمته فى البارة لا يحاول التدخل لدفع خطر الصليبيين عن أنطاكية . أما أخوه رضوان ملك حلب ، فعلى الرغم من علاقته السيئة مع ياغى سيان ، إلا أنه كان لا يستطيع أن يستمر طويلا فى موقفه السلبى تجاه انطاكية. ذلك أن ياغى سيان كان قبل كل شىء تابعاً وفصلا لرضوان ، فى الوقت الذى

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 84 – 85.

(٢) «وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب دمشق بأننا لا نأخذ ولا نقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم ولا نطلب سواها، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا أصحاب أنطاكية» .
(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ).

كانت أنطاكية جزءاً من نصيب رضوان فى الدولة السلجوقية[١]

وكان ياغى سيان قد أرسل ابنه ليستحث القوى الإسلامية القريبة ويطلب منها العمل لإنقاذ أنطاكية ، فاتجه الابن إلى حلب لاسترضاء رضوان مرة أخرى والإعتذار له عما فات . وأخيراً وجد رضوان أنه لا بد أن يتناسى الماضى ، وصمم على أن يسرع إلى إنقاذ أنطاكية ، وصاحبه فى حملته سكمان (سقمان) ابن أرتق من ديار بكر ، وأمير حماه ، فضلا عن قوات أخرى من حمص ومن الأراتقة فى إقليم الجزيرة[٢] . وقد اجتمعت هذه القوات الإسلامية كلها فى حارم وهى قلعة تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً من أنطاكية ، إلى الشرق منها . أما الخطة التى وضعها المسلمون فخلاصتها أن تهاجم تلك الجيوش أنطاكية فجاه فى الوقت الذى تخرج جيوش ياغى سيان من المدينه لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل ، وبذلك يقع الصليبيون بين نارين[٣] .

على أن المسيحيين فى حلب وحارم — وبخاصة السريان والأرمن — علموا بتلك الخطة . فأرسلوا سراً إلى الصليبيين أمام أنطاكية فى أوائل فبراير سنة ١٠٩٨ يخبرونهم بكل تلك التفاصيل حتى لا يؤخذون على غره[٤] وكان أن وضع بوهيموند خطة سريعة لمواجهة الموقف فترك المشاه يحرسون معسكر الصليبيين ويتابعون حصار أنطاكية فى حين خرج هو على رأس حوالى سبعمائة فارس لصد المسلمين (٨ فبراير ١٠٩٨) واختار الصليبيون موقعاً حصيناً بين بحيرة العمق من ناحية ومجرى نهر العاصى من ناحية أخرى[٥] . وفى اليوم التالى دارت الموقعة

---

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 86

(4) Guillaume de Tyr, I. p. 194.

(5) Chalandon : Premiere Croisade p. p 195.

وانتهت فى سرعة باندحار المسلمين الذين ارتدوا نحو حصن حارم ، وفى أعقابهم الصليبيون . وعند ما رأت حامية حارم حرج الموقف لاذت هى الأخرى بالفرار بعد أن أشعلت النار فى الحصن ، وبذلك استولى الصليبيون على حارم بمساعدة أهلها من السريان والأرمن (١) . وكان استيلاء الصليبيين على حارم نصراً كبيراً نظراً لأهميتها فى حماية أنطاكية من ناحية حلب (٢) .

وفى تلك الأثناء وجدت حامية أنطاكية بقيادة ياغى سيان أن الوقت مناسب للقيام بهجوم مفاجىء فى غيبة الفرسان الصليبيين ، فخرج ياغى سيان فعلا وقام بهجومه ، ولكن مشاة الصليبيين تصدوا له وقاوموه. واستمر الصراع حاداً بين الطرفين لحين عودة الفرسان ظافرين يحملون رءوس ضحاياهم فى معركة العمق ؛ فقذفوا بها داخل أسوار المدينة ليعلم ياغى سيان بما حل بحلفائه (١) .

سقوط أنطاكية

وعند ما رأى ياغى سيان أن الهزيمة حلت بالحلبيين مثلما حلت بالدماشقة من قبل، أرسل نداء جديداً إلى بركياروق سلطان سلاجقة فارس وتابعه كربوغا (كربوقا) أتابك الموصل . وسرعان ما انتشرت إشاعة بين الصليبيين تفيد بأن جيشاً كبيراً من الترك بقيادة كربوغا فى طريقه إليهم ؛ مما جعل الصليبيين يفكرون فى طريقة عاجلة للاستيلاء على أنطاكية بعد أن ثبت أن طول مدة الحصار ليس فى صالحهم (٤) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ ؛

Guillaume de Tyr, I, p. 196.

(2) Stevenson : op. cit, p. 27.

(3) Cesta Francorum, p. p. 80—86.

(4) Michaud : op. cit, I, p. p. 264—267.

والواقع إن كربوغا كان قد أعد عدته فعلا لنجدة أنطاكية ، ولكنه توقف في الطريق لمحاولة الاستيلاء على الرها من بلدوين ، وبذلك أضاع الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر مايو في حصار الرها دون جدوى ، مما أعطى الصليبيين أمام أنطاكية فرصة طيبة من الوقت(١) . وكان أن شيد الصليبيون قلعة على تل قريب من أنطاكية كانت بها مقابر للمسلمين ، فاستغلوا ما عليه من أحجار في بناء تلك القلعة التي مكنتهم من إحكام الحصار على المدينة (٢) . وعندما تم بناء القلعة في ١٩ مارس ، اكتمل حصار أنطاكية وأصبح من الصعب تسرب المؤن والإمدادات إليها أو خروج أهلها منها لرعي ماشيتهم في المراعي القريبة (٣) . وصادف عندئذ وصول أسطول انجليزي من عدة سفن إلى ميناء السويدية في ٤ مارس سنة ١٠٩٨ يحمل كثيراً مما افتقر إليه الصليبيون من زاد وسلاح وآلات للحصار ، كما وصل إلى نفس الميناء قبل ذلك — أي في أواخر نوفمبر من العام السابق — أسطول جنوي من ثلاث عشرة سفينة — مما يشير إلى ازدياد أهمية العامل البحري تدريجياً في خدمة الصليبيين ومساعدتهم (١) .

وفي تلك الأثناء لم تتوقف الاشتباكات بين الأتراك وحامية أنطاكية من جهة والصليبيين من جهة أخرى . ويبدو أن كفة الصليبيين كانت هي الراجحة في تلك الاشتباكات ، حتى اطمأنوا أخيراً إلى أن حصارهم لأنطاكية أصبح تاماً ، بعد أن أمنوا اتصالهم بالبحر عن طريق ميناء السويدية من جهة وبإمارة الرها التي غدا يحكمها واحد منهم ، هو بلدوين البولوني من جهة أخرى .

ويشهد المؤرخون المسلمون بأن ياغي سيان لم يهمل الدفاع عن المدينة ،

---

(1) Runciman. op. cit.; I, p. 231.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 291.
(3) Runciman : op. cit; I, p. p. 228. &Cam. Med. Hist; vol 5, p. 292.
(4) Guillaume de Tyr, I. p. 108.

وأنه أظهر من الشجاعة « وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره »[١] . على أن الخيانة لم تلبث أن لعبت دورها فى سقوط أنطاكية . ذلك أنه وجد فى المدينة رجل اسمه نيروز — ويعرف بالزراد — كان ياغى سيان قد صادره « وأخذماله وغلته ، فحمله الحنق على أن كاتب بيمند (بوهيموند)[٢] ».
ويبدو أن نيروز هذا كان قد اعتنق الإسلام ونال ثقة ياغى سيان ، حتى عهد إليه بحراسة أبراج المدينة فى الجهة الجنوبية . ولم يلبث ذلك الأرمنى المسيحى الأصل ، أن غلبت عليه روح الخيانة فاتصل بأبناء جلدته من الأرمن ، وأمكنه عن طريق وساطة بعضهم مراسلة بوهيموند سراً[٣] ، فقال له «أنا فى البرج الفلانى ، وأنا أسلم إليك أنطاكيه إن أمنتنى وأعطيتنى كذا وكذا » . وكان أن وافقه بوهيموند وبذل له « مالاً وإقطاعاً »[٤] . على أن بوهيموند احتفظ لنفسه بسر المؤامرة ، ورفض أن يذيعه على الأمراء « وكتم أمره عن باقى الفرنج » ؛ كما أخذ يجسم لأمراء الصليبيين خطورة موقف الصليبيين ويطلب منهم الموافقة على تحقيق حلمه الكبير ، وهو إعطاؤه أنطاكية والسماح له بإنشاء إمارة لنفسه فيها ثمناً لجهوده فى إنقاذهم من ذلك الموقف الخطير[٥] . ولم يلبث أن وافق الأمراء على طلبات بوهيموند تحت تأثير الظروف السيئة التى باتفيها الصليبيون ، فضلا عن الخوف من الإشاعات التى انتشرت بين صفوف الصليبيين والتى أكدت أن كربوغا أتابك الموصل ترك حصار الرها وأخذ يزحف فى طريقه إلى أنطاكية لتخليصها من الصليبيين (نهاية مايو) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٣ — ١٣٤ (مطبوع) .
ويؤكد المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن نيروز الزراد هذا أرمنى الأصل .
Guillaume de Tyr, I, p. 212.
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٤ (مطبوع) .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١هـ .
(5) Gesta Francorum, p. 100.

ويبدو أن وصول تلك الأخبار إلى الصليبيين فت فى عضدهم ، حتى بدأ كثيرون منهم يتسربون طالبين العودة إلى بلادهم [١] . ومن هؤلاء إتين دى بلوا الذى اتجه إلى اسكندرونة فى ٢ يونيه على رأس عدد كبير من رجاله الفرنسيين بعد أن ملوا طول الحصار فى تلك الظروف الصعبة ، وعملوا حساباً للخطر الجديد الذى أوشك أن يحل بهم على يد كربوغا . ولو كان إتين دى بلوا انتظر عدة ساعات لغير رأيه فى الانسحاب ، إذ حدث مساء اليوم نفسه الذى انسحب فيه أن زحف الصليبيون على البرج الذى كان به الخائن نيروز الزراد . ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا أنطاكية فى صباح اليوم التالى بعد أن فتحت أمامهم أبوابها ، فهرع إليهم أهل المدينة من السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم فى التعرف على خفاياها وفى قتل من فيها من المسلمين [٢] . وقد حاول ياغى سيان نفسه الفرار مع جملة من فر من الأتراك ؛ ولكنه سقط عن فرسه « فقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج » [٣] . وكان أن تطرف الصليبيون فى قتل من وجدوه بأنطاكية من المسلمين « فقتل وأسر وسبى من الرجال والنسوان والأطفال مالا يدركه حصر » [٤]

هذا إلى أن خبر سقوط أنطاكية أثار موجة من الذعر فى البلدان الإسلامية القريبة « فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن » [٥] . ولا شك فى أن سقوط أنطاكية كان له دوى هائل فى العالم المسيحى لا يفوقه إلا أثر سقوط بيت المقدس نفسها فى أيدى الصليبيين . فأنطاكية مدينة قديمة لها تاريخها الحافل

---

(1) Runciman : op cit. I, p. p. 232 – 233.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ &

Guillaume de Tyr I, p. 231.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ (مطبوع)

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٥ (مطبوع) .

وأهميتها الكبرى فى نظر المسيحيين . ويكفى أنها كانت ثالث مدن العالم فى عصر الإمبراطورية الرومانية ؛ فضلا عن أنها المدينة التى أطلق فيها على أتباع المسيح لأول مرة اسم المسيحيين ، والتى أسس فيها القديس بطرس أول أسقفية له .
وقد ظلت أنطاكية تتمتع بشهرة واسعة حتى استولى عليها المسلمون فى القرن السابع ، وعندئذ غدت ملتقى الحضارتين اليونانية والعربية ، والمركز الرئيسى للتبادل التجارى بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية[١] .

تدخل سلاجقة فارس ، حملة كربوغا

رأينا كيف أضاع كربوغا عدة أسابيع فى حصار الرها ، مما أعطى الصليبيين فرصة ثمينة مكنتهم من الاستيلاء على أنطاكية. وقد دفع ذلك المؤرخ وليم الصورى إلى القول بأن دفاع بلدوين أمير الرها ومقاومته هى التى أنقذت الصليبيين أمام أنطاكية[٢]، ولم يلبث أن وجد الصليبيون أنفسهم غداة استيلائهم على أنطاكية أمام مهام عاجلة خطيرة ، فأسرعوا إلى إعداد عدتهم للدفاع عن المدينة ضد هجوم كربوغا المنتظر ، وفى الوقت نفسه كان عليهم أن ينظفوا المدينة على عجل من أثر المذبحة الرهيبة التى أحدثوها فى أهلها من المسلمين ، فعجلوا بدفن جثث القتلى ومواراتها فى التراب حتى لا تكون سبباً فى انتشار الوباء[٤] وبينما الجند يقومون بتلك الأعمال ؛ عكف أدهمار — ومعه رجال الدين — على إعداد كتدرائية

---

(١) « ودعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولا » .
(سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦).

(2) Runciman : op. cit; I, p. p. 213.

(3) Guillaume de Tyr. I, p. p. 216—217.

(٤) تقدرت المراجع الصليبية عدد المسلمين الذين ذبحهم الصليبيون فى أنطاكية بعشرة آلاف .

(Michaud : op. cit, I, p. 292.)

القديس بطرس وغيرها من الكنائس التى سبق أن استولى عليها السلاجقة ، لتعود إلى وظيفتها الأولى بوصفها دور عبادة للمسيحيين ، كذلك أخرج البطرق الأرثوذكسى حنا الرابع من سجنه الذى وضعه فيه ياغي سيان . وأعيد إلى كرسى البطرقية فى أنطاكية — رغم أنه يمثل الكنيسة الشرقية — وذلك حتى ترد تعليمات من البابوية فى ذلك الشأن[1] :

ولم يكد الصليبيون ينهضون بتلك الأعباء العاجلة عقب استيلائهم على أنطاكية ، حتى دهمهم الخطر المنتظر من جانب كربوغا . وكان كربوغا بعد مغادرته إقليم الفرات قد توقف قليلا عند مرج دابق حيث اجتمع مع دقاق بن تتش ملك دمشق وطغتكين أتابك وأرسلان تاش صاحب سنجار وسكمان بن أرتق «وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم »[2] أما رضوان ملك حلب فظل معاديا لأخيه دقاق فى تلك الأوقات الحرجة التى شهدت تقرير مصير الشام الإسلامية . ولكى يرد كربوغا على موقف رضوان هذا ورفضه الانضمام إلى الحلف الإسلامى لإنقاذ أنطاكية ، ضم إلية الأمير العربى جناح الدولة حسين صاحب حمص ، وهو من قبيلة بنى ملاعب وكان قد تزوج أم رضوان أى أرملة تتش[3] .

وهكذا اجتمع الجيش السلجوقى الكبير فى مرج دابق ، ومنها أخذ يزحف على أنطاكية عن طريق نهر العاصى . وكان الصليبيون قد تركوا حامية صغيرة عند جسر الحديد — إلى الشمال الشرقى من أنطاكية — فقتل المسلمون رجالها عن آخرهم فى ٤ يونيه سنة ١٠٩٨[4] ؛ ثم لم تلبث أن ظهرت طلائع الجيش

(1) Runciman, op. cit. I. p. 237.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٣) ذكر ابن العديم أن رسل الملك رضوان كثر ترددهم فى تلك الأثناء على كربوغا ، الأمر الذى أخاف دقاق وأثار الظنون فى نفسه .

(زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ — مطبوع) .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ح ٢ ص ١٣٦ (مطبوع) .

السلجوقى أمام سور أنطاكية . وقد حاول السلاجقة اقتحام أنطاكية عن طريق قلعتها التى كانت لا تزال « باقيــة فى أيدى المسلمين » وساعدهم فى ذلك شمس الدولة بن ياغى سيان ، ولـكن كربوغا فشل فى تحقيق تلك الخطة[١] ، وعندئذ لجأ إلى تجويع الصليبيين داخل المدينة بإحكام الحصار عليها . ولتحقيق ذلك اختار كربوغا أن يعسكر فى السهل الممتد جنوبى أنطاكية عند باب البحر[٢] ؛ كما ولى على قلعة أنطاكية أحمد بن مروان . وهكذا ظل الصليبيون محصــورين داخل أسوار أنطاكية،قرابة ثلاثة أسابيــع (٨ــ٢٨ يونية) ، فساءت حالتهم وبدأ بعض أعيانهم فى الفرار ، فى حين أخذت السفن الراسية بالسـويدية تقلع عائدة وعليها من استطاعت حمله من الفارين[٣] .

ولعله من الواضح كيف انقلب الوضع وصار الصـليبيون محاصرين داخل أنطاكية والمسلمون خارجها يطوقونها ويعملون على تجويع من بداخلها ؛ وذلك بعد أن كان الصـليبيون يحاصرون أنطاكية ويعمـلون على قطع الزاد عن ياغى سيان وحاميته من السلاجقة[٤] . وتشير المراجع إلى أن الصليبيين داخل أنطاكية تعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء والمؤن « فعـدم القوت عندهم حتى أكلوا الميتة » ، وبلغ ثمن رغيف الخبز الصغير ديناراً والبيضة الواحدة دينارين.ولم تـكن هــذه الأسعار فى متناول غالبية الصليبيين ، فاضطر بعضهم إلى العيش على أوراق الأشجار ، فضلا عن «الميتات والدواب»[٥] . وفى وسط تلك الأزمة أخذ كثير

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ ــ ١٣٧؛ ابن الأثير : الـكامل، سنة ٤٩١ هـ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .
(3) Cam. Med. Hist; vol. 5, p. 292.
(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦ .
(٥) ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ . أما ابن الأثير فيقول عن الصليبيين داخل أنطاكية عندئذ « ليس لهم ما يأكلونه ، وتقوت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر » .
(ابن الأثير : الـكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ).

من الفرسان يعبرون عن ندمهم على ترك بلادهم ، والحضور إلى الشرق ، بل لقد جاهر بعضهم بأن إتين دى بلوا كان على حق عندما انسحب أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية وقفل راجعاً إلى بلاده[١] .

ولم يبق أمل للصليبيين فى أنطاكية للخلاص من تلك المحنة التى ألمت بهم سوى حضور الإمبراطوار البيزنطى ألكسيوس كومنين ليطعن كربوغا وجيوشه من الخلف . لذلك استنجد الصليبيون بالإمبراطور الذى استجاب لندائهم وخرج على رأس جيشه قاصداً أنطاكية مخترقاً آسيا الصغرى[٢] . ولكن لم يلبث أن التقى بالإمبراطور فى آسيا الصغرى إتين دى بلوا وبعض زملائه ، فأخبروه أن السلاجقة استردوا أنطاكيه وأبادوا الصليبيين فعلا، وإنهم عندئذ فى طريقهم إلى آسيا الصغرى لضرب الإمبراطور وجيوشه قبل إن يصل إلى أنطاكية[٣] . وكان أن اهتز الامبراطور لتلك الأخبار ورأى أن يعدل خطته سريعاً ، لأن سلامة جيوشه وبلاده أهم بكثير من سلامة أنطاكية والصليبيين ، ولذلك قفل راجعاً ولم تفلح الجهود التى بذلت لحمله على المضى فى طريقه إلى أنطاكية[٤] . ولا شك فى أن عودة ألكسيوس كومنين جاءت ضربة خطيرة للصليبيين المحصورين داخل أنطاكية ، كما كان لتلك العودة أثرها فى تشجيع كربوغا . وسرعان ما بدأ اليأس ينتاب كثيراً من الصليبيين ، نخارت قواهم وتسللوا من المواقع الأمامية ليحتموا بمنازل المدينة ودورها ، مما دفع الأمير بوهيموند إلى إشعال النار فى المدينة فى ١٢ يونية ليحرق منازلها ويجبر الصليبيين القابعين داخلها على الخروج إلى المتاريس الأمامية للدفاع عن أسوار المدينة[٥] .

---

(1) Runciman op. cit, I, p. 238.
(2) Guillaume de Tyr p. p. 250 – 354 & Gesta Francorum, p. p. 141 – 147.
(3) Michaud : op. cit, I, p p. 300 – 302.
(4) Gesta Francorum, p. p. 147 – 148.
(5) Guillaume de Tyr I, p. 255.

ويروى ابن القلانسى وابن العبرى أن الصليبيين داخل أنطاكية بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون فى الاستسلام ، ولكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من أنطاكية ، وقال لهم « لا تخرجون إلا بالسيف »[1]. وعندما مرض ريموند — القائد الأعلى للقوات الصليبية — حل محله بوهيموند فى حوالى ٢٠ يونية ، وعندئذ أخذ بوهيموند بحماسته المعروفة يرفع من الروح المعنوية للصليبيين ويعدهم لخوض معركة فاصلة مع المسلمين[2].

وليس معنى سوء حال الصليبيين داخل أنطاكية أن المسلمين تمتعوا بجبهة متماسكة ؛ بل على عكس ظل المسلمون فى ذلك الدور الحاسم يعانون خللا واضحاً فى صفوفهم مما عاد عليهم بالخسارة. ذلك أن رضوان ملك حلب رفض — كما سبق أن ذكرنا — المشاركة فى الحلف الإسلامى للعمل على استرداد أنطاكيه من الصليبيين ؛ هذا على الرغم من أن تأمين مستقبله ومستقبل إمارته كان يحتم عليه أن يتخذ موقفاً أكثر اتزاناً وحكمة ؛ بعد أن صارت حلب واقعة بين الرها فى الشرق وأنطاكية فى الغرب ، وكلاهما سقط فى قبضة الصليبيين[3]. ولعل عدم وجود رضوان مع المسلمين أمام أنطاكية ، وعدائه لأخيه دقاق ملك دمشق الذى رافق كربوغا ، كان من العوامل التى خلقت جواً من القلق والاستياء فى صفوف المسلمين. ولما أحس كربوغا بحاجته إلى مساعدة رضوان ، بدأ يسعى للاتصال به ، وعندئذ « توهم دقاق من ذلك ! »[4]. وفى الوقت نفسه أحس دقاق برغبته فى العودة إلى دمشق لمراقبة توسع الفاطميين فى فلسطين ، وهو التوسع الذى سبب له قلقاً بالغاً[5]. ومن جهة أخرى فإن جناح الدولة حسين — أمير

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦ .

(2) Michaud · op. cit; I, p. 304.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 98.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع).

(5) Runciman : op. cit; I, p. 246

حمص العربى الذى أسهم مع كربوغا فى حصار أنطاكية — ظل يشعر بقلق دائم بسبب الخوف من انتقام يوسف بن أبق أمير الرحبة ومنبج الذى كان على اتفاق مع رضوان . بل لقد بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على أنفسهم، فظهر الشقاق بين أتراك كوبوغا من ناحية والعرب بزعامة وثاب بن محمود من ناحية أخرى « وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها . وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته »[١] . أما المؤرخ أبو الفداء، فيعلل روح التباغض والفرقة التى سادت زعماء المسلمين أمام أنطاكية بأن « كربوغا أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء المذكورين، وتكبر عليهم ؛ فخبثت نياتهم على كوبوغا »[٢] .

وفى الوقت الذى كان معسكر المسلمين يعانى ذلك التصدع والشقاق ، أخذ بوهيموند ينفخ فى الصليبيين روحاً جديدة . وكان أن أرسل بوهيموند سفارة من رجلين — أحدهما بطرس الناسك — إلى كربوغا يوم ٢٧ يونية لإقناعه بترك الحصار ، ولكن كربوغا - رغم ما كان يعانيه من تفكك فى معسكره - أصر على استسلام الصليبيين دون قيد أو شرط[٣] . وبذلك لم يعد أمام بوهيموند سوى الحرب، فأمر رجاله بالخروج من أنطاكية فى ٢٨ يونية سنة ١٠٩٨ للدخول فى معركة فاصلة ضد المسلمين . وكان من الممكن للمسلمين القضاء على الصليبيين عند خروجهم من أنطاكية جماعات صغيرة ، إذ « خرجوا فى اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك . فقال المسلمون لكربوغا ينبغى أن نقف على الباب فنقتل كل من خرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » . وبذلك أضاع

(١) ابن العديم . زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٦ (مطبوع).

(٢) ابو الفدا : المختصر، حوادث سنة ٤٩١ هـ.

(3) Chalandon : Premiere Croisade, p. 220.

كربوغا الفرصة ، إذ تكامل الصليبيون وأنزلوا الهزيمة بالمسلمين « لما عاملهم كربوقا أولا من الاستهانة لهم والإعراض عنهم »[١] .

وهكذا حلت الهزيمة بجيش كربوغا ، فانفض عنه كثير من الأمراء ، وكان التركمان أول من « عاث فى المعسكر فانهزم »[٢] ؛ فى حين ظل سكمان بن أرتق وجناح الدولة « آخر من انهزم » من الأمراء ، وعند فرارهما من الميدان لجأ كربوغا هو الآخر إلى الفرار ، وبذلك عمت الكارثة[٣] . ثم إن التعليمات التى صدرت إلى الصليبيين جعلتهم لا يلتفتون إلى الأسلاب والغنائم ، وإنما واصلوا مطاردة فلول المسلمين ، واشترك معهم فى تلك المطاردة أهل المنطقة من السريان والأرمن ، فظلوا يتعقبون الجند المنهزمين ويعملون فيهم قتلا ، حتى جسر الحديد وحارم شرقاً[٤] ، « ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلات ما لا يحصى ، ومن انقطع من المعسكر نهبه الأرمن[٥] » .

وبذلك لم يحقق الصليبيون انتصارا على سلاجقة الروم وحدهم ، وإنما أيضاً على سلاجقة الشام وفارس ، فعاد كربوغا إلى الموصل تحوطه خيبة الأمل ، وعاد دقاق إلى دمشق يجر أذيال الفشل . أما أحمد بن مروان قائد قلعة أنطاكية فقد أدرك عبث المقاومة ولكنه رفض تسليم القلعة لريموند وأصر على تسليمها لبوهيموند نفسه[٦] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ
وقد ذكر ابن العديم أن بعض الأمراء أشاروا على كربوغا بأن لا يمكن الصليبيين من الخروج « ويقتلوا أولا فأولا فلم يعرج المسلمون على شىء من ذلك لأنهم أيقنوا بالظفر بالفرنج وخرجوا بأجمعهم فى خلق عظيم » . ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٧) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٣٧) .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ

(4) Gesta Francorum, p. 159.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ص١٣٧ (مطبوع) .

(٦) يروى ابن العديم أن الصليبيين أمنوا أحمد بن مروان وأنزلوه فى دار بأنطاكية =

التنافس بين بوهيموند النورماني وريموند الصنجيلي حول أنطاكية :

تأكد استيلاء الصليبيين على أنطاكية وقلعتها بعد أن حلت الهزيمة بالجيش السلجوقي، واتضح عجز بركيارق سلطان سلاجقة فارس ودقاق ملك دمشق عن وقف الغزو الصليبي. وإذا كان بركياروق (بركيارق) قد هزم أدبيا في شخص تابعه كربوغا ، فإن دقاق هزم شخصياً أمام أنطاكية . وبانتصار الصليبيين على سلاجقة فارس والشام أصبح الطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام الصليبيين ، لأن أنطاكية بالذات تعتبر « مفتاح بلاد الشام » على قول بعض المؤرخين(١) . وكان يجب على الصليبيين — برا بقسمهم الصليبي — ألا يضيعوا وقتاً طويلا وأن يبدءوا بالزحف مباشرة على بيت المقدس ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك وأضاعوا ستة أشهر ، وهم واقفون حيث هم في إقليم أنطاكية يبحثون في مشاكلهم الداخلية(٢) .

والواقع أن الصليبيين وجدوا أنفسهم أمام مشاكل ضخمة عقب انقضاء موجة الفرح الأولى التي عمتهم بعد الانتصار على خطر كربوغا وضمان الاستيلاء على أنطاكية. حقيقة إنهم استولوا على قلعة المدينة واستحكاماتها وأسوارها سليمة، ولكن حماية تلك الأسوار الطويلة والحصون العديدة تتطلب عدداً كبيراً من الرجال المحاربين ، في الوقت الذي تناقص عدد الصليبيين ، فضلا عن أنه كان مطلوباً منهم أن يحشدوا كل مالديهم من قوى للاستيلاء على بيت المقدس . ثم إن الصليبيين لم يجدوا في أنطاكية شيئاً من مخازن الميرة والمؤن التي ظلوا يحلمون

= «وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم إلى أعمال حلب، فخرج الارمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ولم يسلم منهم إلا القليل ».

(ابن العديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨) .

Chalandon : Premiere Croisade, p. 181.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 108.

بها طويلا . وبالإضافة إلى ذلك فقد وجد الصليبيون بداخل أنطاكية عدداً كبيراً من المسيحيين الشرقيين ، وهؤلاء — وبخاصة السريان — لم يطمئن الصليبيون إلى شعورهم وإخلاصهم[1] . وأخيراً فإن المشكلة الكبرى التي استنفدت كثيراً من الوقت والجهد كانت تحديد مصير أنطاكية نفسها . فلمن تنتقل ملكية هذه المدينة الهامة ؟ وهل تكون من نصيب الصليبيين أو البيزنطيين؟ وإذا احتفظ بها الصليبيون فمن من إمرائهم أولى بها ؟[2] .

والواقع إن حقوق الامبراطورية البيزنطية فى إقليم أنطاكية ، كانت واضحة لاشبهة فيها ، ليس فقط لأن الدولة البيزنطية ظلت تمتلك إقليم أنطاكية حتى الغزو السلجوقى سنة ١٠٨٥ ، بل أيضاً وفقا للاتفاقية المعقودة بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين فى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، وهى الاتفاقية التى كان بوهيموند نفسه أول من أقرها[3] . ولكن يبدو أن بوهيموند عندما تعهد سنة ١٠٩٧ برد أملاك الامبراطورية البيزنطية ومدنها كان يأمل فى أن يعينه ألكسيوس كومنين نائبا عنه فى حكم بلاد الشام التى كانت قديما جزءا من الإمبراطورية ، فلما خاب أمل بوهيموند وأحس أنه تحمل العبء الأكبر فى الاستيلاء على أنطاكية ، قرر فى نفسه أن يتحلل من تعهده السابق للامبراطورية وأن يتخذ سياسة معادية للدولة البيزنطية ومصالحها[4] .

وكان أن طلب بوهيموند فى أواخر شهر يونيو سنة ١٠٩٨ من بقية زعماء الصليبيين تسليمه ما بأيديهم من أبواب المدينة وأبراجها وتحصيناتها، فقبلوا جميعاً

(1) Runciman : op. cit, I, p. 236.
(2) Cam. Med. Hist. vol 5. p. p. 294–295.
(3) Chalandon : Alexis Comnene, p p 203–205,
(4) Vasiliev : op cit; I, p. p. 408–409, &
Ostrogorsky : op. cit, p. 323. &
Cam. Med. Hist , vol. 5, p. 294.

باستثناء ريموند الصنجيلي الذي أخذ ينازع بوهيموند أنطاكية[١] . وقد أكد بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين أنه عقب أن حلت الهزيمة بكربوغا ، أطلق الصليبيون على بوهيموند لقب « أمير أنطاكية » اعترافا منهم بأن الفضل الأول في الاستيلاء على المدينة من المسلمين إنما يرجع إليه[٢] .

ولكن ريموند الصنجيلي لم يكن أقل من بوهيموند النورماني في الاستئثار بأنطاكية ، ولذلك رفض أن يتخلى عن المواقع التي احتلها رجاله في المدينة. وهكذا صارت أنطاكية ، قسمة بين بوهيموند وريموند ، فاحتل الأول الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة، في حين احتل ريموند القطاع الجنوبي الغربي من المدينة[٣] .

على أن الانقسام الداخلي بين بوهيموند وريموند كان لا يخفي الوجه القانوني لمشكلة أنطاكية ، أي أحقية الدولة البيزنطية في تملك المدينة وفقا لاتفاقية القسطنطينية سنة ١٠٩٧ . وإذا كان بعض زعماء الصليبيين قد نكثوا بعهدهم وطمعوا في الاستيلاء على أنطاكية ،فإن الامبراطور البيزنطي نفسه لم يكن أقل تنكراً لعهده ؛ لأنه لم ينفذ من جانبه شروط الاتفاقية السابقة ولم يحضر على رأس جيوشه لمساعدة الصليبيين الغربيين ، وبخاصة في المحنة التي تعرضوا لها عندما دهمتهم جيوش كربوغا أمام أنطاكية[٤] . لذلك عقد الصليبيون مجلسا في مستهل شهر يوليو سنة ١٠٩٨ ، حضره جميع زعمائهم ، وقرر المجلس إيفاد رسولين إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين لدعوته باسم الصليبيين للحضور لتسلم أنطاكية

(1) Raymond d'Agiles, p. 262.

وريموند هذا هو ريموند الرابع كونت تولوز وقد نسب إلى مقاطعة Saint — Gilles بفرنسا، فحرف العرب هذه النسبة الى الصنجيلي .

(2) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 109.

(3) Guillaume de Tyr p. 274.

(4) Cam.Med. Hist. vol. 5, p. 294.

وفقاللاتفاقية المعقودة بين الطرفين . وقدهلك أحد هذين الرسولين فى الطريق ، فى حين وصل الآخر إلى القسطنطينية فى أواخر يوليه [١]. على أنه يلاحظ أن رسالة الصليبيين إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين كانت تحوى ركنين أساسيين متكاملين : فهى تعرض على الامبراطور استلام أنطاكية ، ولكنها تشترط عليه الحضور شخصيا على رأس حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس [٢] .

ولو اغتنم الإمبراطور ألكسيوس كومنين تلك الفرصة الذهبية وقصد أنطاكية فورا على رأس جيشه لاستطاع أن يقضى على أطماع بوهيموند وريموند جميعا . ولا يخفى علينا أن الصليبيين عندئذ كانوا قد بلغوا درجة شديدة من الوهن والضعف بعد ما لاقوه من مشاق أثناء زحفهم فى آسيا الصغرى ، وما بذلوه من جهد وتضحيات أمام أنطاكيه ، مما جعلهم فى حاجة ماسة إلى إمدادات من الإمبراطور البيزنطي تعينهم على مواصلة الزحف على بيت المقدس [٣] . كذلك لا يخفى علينا أن موافقة بقية زعماء الصليبيين على تسليم أنطاكية للامبراطور البيزنطى بالشرط السابق لم يكن الدافع اليها حرصهم على الوفاء بالالتزامات التى قطعوها على أنفسهم فى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، بقدر ما كان الأمل فى الحصول من الامبراطور البيزنطي على المساعدة المحتاجين إليها مقابل إعطائه المدينة [٤] .

والواقع إنه من الصعب تفسير موقف ألكسيوس كومنين السلبي من ذلك

---

(1) Cesta Francorum. p. I61.

ويلاحظ أن رواية ألبرت اختلفت عن الرواية السابقة ، إذ قال : إن الرسولين اللذين أوفدهما الصليبيون الى الامبراطور كلفا باخطاره أنه حنث بوعوده للصليبيين ، وبناء على ذلك فانهم صاروا فى حل من تعهداتهم له.

(Albert d'Aix, p. 434).

(2) Guillaume de Tyr, p. 277.

(3) Brebier : op. cit; p. 314

(4) Chalandon : Alexis Comnene; p. p. 204—205.

العرض السخي الذى يمكنه من استرداد شمال بلاد الشام، فضلا عن تمكينه من الإشراف على فتح بيت المقدس؛ لاسيما وأن تجربته حتى ذلك الوقت مع الصليبيين كانت ناجحة وأتاحت له فرصة طيبة لاسترداد جزء كبير من أراضي الامبراطورية المفقودة فى الأناضول . ويبدو أنه اطمئن إلى تعهدات الصليبيين وقسمهم ، وظن أنهم سيستمرون فى سياستهم التى أتبعوها فى آسيا الصغرى؛ فيفتحون البلاد ليسلمونها للامبراطورية لقمة سائغة، وأعتقد أنه بعد أن يفرغ الصليبيون من فتح بلاد الشام وفلسطين ، ستكون هذه البلاد — بحكم موقعها الجغرافى وروابطها التاريخية بالامبراطورية البيزنطية — تابعة للقسطنطينية ، أو على الأقل سيكون حكامها من الصليبيين التابعين للامبراطور المعترفين له بالولاء . ولذلك اختار الامبراطور أن يصمت مؤقتا ولا يرد على رسالة الصليبيين [(١)].

وأخيراً أفاق الإمبراطور ألكسيوس كومنين بعد فوات الفرصة . ذلك أن الصليبيين قرروا فى أبريل سنة ١٠٩٩ الزحف على بيت المقدس بعد أن ظلوا فى أنطاكية أكثر من تسعة أشهر . وفى الوقت الذى اتخذ الصليبيون قرارهم بالزحف على بيت المقدس ، تلقوا رد الإمبراطور البيزنطى على رسالتهم [(٢)]. وفى تلك الرسالة أعلن الإمبراطور الموافقة على مشاركة الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس إذا سلموه أنطاكية ، ولكنه طلب منهم انتظاره حتى شهر يوليو [(٣)]. ومن الواضح أن رد الإمبراطور البيزنطى جاء متأخراً ، أى بعد أن مرت أشهر طويلة استطاع خلالها بوهيموند أن يثبت مركزه فى أنطاكية، بحيث أصبح من الصعب على الإمبراطور البيزنطى زحزحته من ذلك المركز . هذا إلى أنه فى الوقت

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 112.
(2) Setton : op. cit; I, p. 329.
(3) Raymond d'Agiles, p. 286. & Guillaume de Tyr, p. 307

الذى أخذ الإمبراطور ألكسيوس كومنين يعد الفرنجة بالحضور لمساعدتهم على انتزاع فلسطين من الفاطميين ، إذا به يعقد اتفاقاً سرياً مع الفاطميين فى مصر ضد الصليبيين . وشاء سوء حظه أن تقع رسالة بهذ المعنى موجهة من الإمبراطور إلى الوزير الأفضل فى أيدى الصليبيين عقب موقعة عسقلان مباشرة (١) .

ومن الواضح أن الصليبيين الغربيين كانوا يتصرفون فى حكمه بالغة تجاه الإمبراطورية البيزنطية. ولاأدل على محاولة الفرنجة إثبات حسن نواياهم تجاه القسطنطينية من معاملتهم لبطرق أنطاكية حنا الرابع الأرثوذكسى ، الذى عذبه الأتراك كثيراً وسجنوه طوال حصار الصليبيين للمدينة ، حتى إذا ماسقطت أنطاكية فى أيديهم احتفى به الصليبيون حفاوة بالغة ، وأقاموا حفلا كبيرا ثبتوه فيه رئيساً لكنيسة أنطاكية (٢) . كذلك لم يتعرض الصليبيون لأتباع المذهب الأرثوذكسى فى البلاد التى استولوا عليها ، وإنما تركوا حرية العقيدة لجميع المسيحيين، بما فى ذلك السريان والأرمن ، وسمحوا لهم باصلاح كنائسهم وزخرفتها بالفسيفساء والايقونات والصور وغيرها . أما رجال الدين الأرثوذكس أنفسم ، فقد تركهم الصليبيون فى مناصبهم ولم يتعرضوا لهم ، وكل ماهنالك هو أنهم عينوا بعض رجال الدين من الكاثوليك فى الأسقفيات الشاغرة (٣) .

على أن هذه السياسة الوديعة تجاه الامبراطورية البيزنطية وكنيستها لم تلبث أن تبدلت عندما تكاسل الأمبراطور ألكسيوس كومنين فى الحضور إلى الشام لمساندة الصليبيين ؛ ثم عندما اكتشف الصليبيون اتصالاته مع الفاطميين فى مصر. من ذلك أن بوهيموند عندما ثبت مركزه فى أنطاكية لجأ إلى خلع حنا الرابع بطرك أنطاكية الأرثوذكسى وأحل محله بطرقا كاثوليكياً (٤) .

(1) Chalandon : Alexis Comnene p. 207.
(2) Albert d'Aix : p. 433.
(3) Guillaume de Tyr, p. 274.
(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 114.

ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين بوجه عام رأوا أن ينتظروا الامبراطور ألكسيوس كومنين ؛ حتى إذا ماحل يوم ٣ يولية ١٠٩٨ ولم يحضر ، عقد زعماؤهم مجلساً لتحديد موعد الزحف على بيت المقدس، واختير أول شهر نوفمبر لذلك، حتى تكون حرارة الصيف قد خفت حدتها وأصبح الجو ملائماً لحركة الجيوش الصليبية [1] .

احتلال البارة ومعرة النعمان :

تعرض الصليبيون للخمول خلال المدة الطويلة التى قضوها فى شمال الشام ، ففترت الحماسة الصليبية فى نفوسهم ، وظهر شعور عام بالاستكانة بينهم ؛ وبدأ كل واحد من أمرائهم يعتقد أن دوره فى الحرب الصليبية ينتهى بتأسيس إمارة مناسبة لنفسه فى الشرق ، مما هدد الحملة الصليبية الأولى بالتفتت فى شمال الشام . وقد حرص بوهيموند فى تلك المرحلة على أن يبدو دائماً فى صورة أمير أنطاكية وحاكمها الأوحد ، فمنح الجنوية فى ١٤ يولية براءة خولتهم الحق فى سوق خاص بهم وكنيسة ، فضلا عن ثلاثين بيتا من بيوت أنطاكية . وبذلك ضمن مناصرة الجنوية له واعتماده عليهم وعلى مساعدتهم للإحتفاظ بمواصلاته مع صقلية وإيطاليا [2] .

وربما كان الرجل الوحيد الذى ظل يوحد بين صفوف الصليبيين فى ذلك الوقت دون أن تكون له مطامع الأمراء الشخصية هو المندوب البابوى أدهمار ، الذى حرص على أن يؤلف بين قلوب أمراء الصليبيين ويوجههم نحو عمل يتفق وطبيعة المهمة الصليبية التى أتوا من أجلها إلى الشرق . على أن تعدد المعارك فى

---

(1) Runciman : op. cit. I, p 250.
(2) Heyd : op. cit; Tome I, p. 134.

ساحة أنطاكية وكثرة القتلى والجيف، نتج عنه انتشار وباء في معسكر الصليبيين ذهب ضحيته بضعة آلاف من الصليبيين من بينهم أدهمار نفسه (أول أغسطس سنة ١٠٩٨). وقد دفع ذلك الوضع الصليبيين إلى القيام بغزوات وجولات قريبة خارج أنطاكية — ليبتعدوا عن منطقة الوباء [١].

ومن تلك الغزوات الصغيرة التي قام بها الصليبيون عندئذ، خروج فارس من أتباع ريموند الصنجيلي — إسمه ريموند بليه Raymond Pilet — على رأس قوة صغيرة في منتصف يوليه سنة ١٠٩٨ مخترقا طريق معرة مصرين بقصد احتلال معرة النعمان وتل منس (تلمنس)، وهي الجهات الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية، أي داخل نطاق ممتلكات رضوان ملك حلب السلجوقي. ويفهم من رواية ابن العديم أن الفارس ريموند كان على صلة بالسريان والأرمن في تلك النواحي قبل أن يقوم بحملته، وأنهم شاركوه في الزحف، مما سهل له مهمته [٢]. ولكن رضوان أسرع بإرسال «قطعة من عسكر حلب إليهم»، فالتقى الحلبيون بالصليبيين بين تل منس ومعرة النعمان، وعندئذ لم يقو الصليبيون على مقاومة الجيش الحلبي من جهة، وحرارة الجو مع قلة الماء من جهة أخرى، «فانهزم الفرنج وبقي الرجالة منهم، فقتل منهم زائدا عن ألف رجل، وحملت رؤوسهم إلى معرة النعمان»، في حين ارتد ريموند إلى تل منس.

أما جودفري بوايون فقد خشي على نفسه من الوباء الذي انتشر في أنطاكية، فقصد أخاه بلدوين في الرها، الذي أعطاه تل باشر والراوندان

---

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 295. &
Michaud : op. cit: I, p, 333.

(٢) «وزحفوا مع أهل تلمنس وجميع نصارى بلد المعرة على المعرة وقاتلوها».
ابن العديم: زبدة الحلب ج٢ ص١٣٨ (مطبوع)
Gesta Francorum, P. P. 162–165.

(أوائل أغسطس ١٠٩٨) [١] . هذا فى حين اتجه بوهيموند إلى قيليقيـة حيث دعم الحاميات الصليبية التى تركها تنكرد فى طرسوس وأذنه والمصيصة أو مرسين فى الخريف السابق ، وتأكد من ولائها له ، مما يشير إلى أنه كان ينوى إدخال إقليم قيليقية فى حيز الإمارة التى ينوى إقامتها لنفسه فى أنطاكية [٢] .

وفى سبتمبر سنة ١٠٩٨ عاد جودفرى بوايون إلى أنطاكية حيث نظم مع ريموند الصنجيلى حملة اكتسبت طابعاً غريباً ، لأن الصليبيين قاموا فيها بالدفاع عن عمر والى عزاز ضد رضوان ملك حلب [٣] . وكان حصن عزازهذا يقع على بعد أربعين كيلوا متراً تقريبا شمالى حلب ، على الطريق الرئيسى بين أنطاكية من ناحية والرها وتل باشر من ناحية أخرى . وعندما عصى عمر والى عزاز سيده رضوان ، أرسل الأخير جيشاً لمحاصرته ، وعندئذ لم يسع عمر سوى طلب النجدة من جود فرى [٤] ! وأكثر من هذا أن عمر أرسل إبنه محمود ليظل رهينة عند جودفرى ضماناً لإخلاصه وإثبات عدم نيته فى التغرير بالصليبيين [٥] . ولم يكن فى وسع جود فرى أن يشن حربا على حلب دون الاستعداد الكافى، فحصل على مساعدات قوية من بوهيموند ومن أخيـه بلدوين فى الرها ، وعندئذ رفع رضوان الحصار عن عزاز وسحب قواته إلى حلب . على أن جودفرى بوايون لم يقتنع بذلك وإنما رأى أمامه فرصة لتحقيق بعض الأطماع الصليبيـة فى شمال الشام، ولذلك استمر فى طريقه إلى عزاز ، حيث خرج عمروالى الحصن لاستقباله ، وترجل أمامه من فوق فرسه ، وأعلن تبعيته له (منتصف سبتمبر ١٠٩٨) [٦] .

---

(1) Selt n : op. cit; I, p. 325.

(2) Runciman : op. cit; I, p. 254 & Stevenson : The Crusaders, p 29

(3) Settou : op cit, I, p. 325.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ص١٤١ (مطبوع).

(5) Michand : op cit; I, p. 339.

(6) Albert d'Aix, p. 439 & Guillaume de Tyr p. 283.

ولم يغفر رضوان صاحب حلب لعمر نعلته هذه ، فما زال به حتى أخذ عزاز منه وقتله فى حلب [١] .

وفى نهاية سبتمبر قام ريموند الصنجيلى بحملة على البارة ، وهى مدينة تابعة لملكة حلب تقع شرقى نهر العاصى بين جسر الشغر (الشغور) ومعرة النعمان [٢] . ويبدو أن رضوان لم يقم بأية محاولة للدفاع عن البلدة فاستولى عليها ريموند فى حوالى ٢٥ سبتمبر «وعاقب الرجال والنساء واستصفى أموالهم وسبى بعضاً وقتل بعضاً » ؛ فضلا عن أنه حول جامعها الكبير إلى كنيسة [٣] .

على أن تلك الغزوات المحلية التى قام بها الصليبيون فى ذلك الدور لم تكن فى حقيقة أمرها إلا وسيلة لقضاء الوقت حتى يحين موعد الزحف على بيت المقدس. ولم تلبث أن تهيأت الظروف لذلك الزحف بانقضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة ، فعقد الصليبيون مجلساً فى ٥ نوفمبر سنة ١٠٩٨ بكنيسة القديس بطرس بأنطاكية، وأجمع الزعماء جميعاً على استئناف الزحف نحو بيت المقدس ، ما عدا بلدوين الذى كان مشغولا بتنظيم إمارته فى الرها [٤] .

ومن الواضح أن هذا القرار لم يلبث أن أثار أمام الصليبيين من جديد مشكلة أنطاكية ووضعها القانونى ، لاسيما وأن بوهيموند — يسانده معظم الأمراء — ظل متمسكا بحقه فى السيطرة على المدينة ، فى حين نازعه ريموند ذلك الحق . حقيقة إن الصليبيين حاولوا التهرب مرة أخرى من تلك المشكلة وتأجيلها من جديد بأن أرسلوا إلى البابا فى ١١ سبتمبر يخبروه بوفاة مندوبه أدهمار ويطلبون منه الحضور شخصياً لزيارة كنيسة القديس بطرس فى أنطاكية ، بوصف البابا

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ص١٤١ .

(2) Chalandon : Premiere Croisade p. p. 248_249.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ص١٤١

Gesta Francorum p. p. 167–169.

(4) Michaud : op. cit: I, p. p. 346–347.

وريث القديس بطرس فى كرسية . ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا واثقين من أن البابا لن يستطيع تلبية دعوتهم، ومن ثم لن تحل مشكلة أنطاكية على يد البابا، مما يتطلب التفكير فى وضع حل لها على يد زعماء الصليبيين أنفسهم [١] .

وعندما أدرك بوهيموند أنه لن ينال أنطاكية برضاء الإمبراطور البيزنطى، صمم على أن يمتلكها رغم إرادة الإمبراطور ، فتحولت سياسته من مهادنة الإمبراطورية واحترام حقوقها إلى معاداتها وسلب حقوقها ، وعندئذ انقلبت سياسة ريموند هو الآخر فأصبح من المنادين بالتمسك بحقوق الإمبراطورية البيزنطية واحترام الاتفاقية التى عقدها الصليبيون مع الإمبراطور البيزنطى سنة ١٠٩٧ [٢] . وهكذا انقلب الموقف رأساً على عقب ، فصار بوهيموند — وهو أول من عقد اتفاقاً مع الإمبراطور البيزنطى تعهد له فيه بالولاء — ينادى بالخروج عن ذلك الاتفاق ، فى حين أمسى ريموند — وهو الأمير الوحيد من أمراء الحملة الذى لم يتقيد بالاتفاقية السابقة ولم يقسم يمين الولاء للامبراطور — هو المدافع عن حقوق الإمبراطورية والمنادى باحترام الاتفاقية التى عقدها الصليبيون مع ألكسيوس كومنين . وبذلك أدت مشكلة أنطاكية إلى تعقيد الموقف بين الصليبيين والبيزنطيين ، فضلا عن تعقيد الموقف بين زعماء الحملة الأولى بعضهم وبعض [٣] .

وكان أن طال الجدل والنقاش بين زعماء الحملة الصليبية الأولى حول مصير أنطاكية ، وعندئذ استاء الجند وبقية الفرسان ، وأعلنوا أن الوقت قد حان ليبروا بقسمهم الصليبى ويستردوا بيت المقدس ، فأنذروا الزعماء بأنهم إذا استمروا فى منازعاتهم الخاصة حول المسألة الأنطاكية ، فإن الصليبيين جميعاً سيتركونهم

(1) Runciman : op. cit; I, p. 256.

(2) Brehier : op. cit; p. 314.

(3) Grousset : His. des Croisades, I, p. 120.

فى أنطاكية ويتجهون رأسا إلى بيت المقدس؛ ولكنهم لن يفعلوا ذلك إلا بعد أن يدمروا أســــوار أنطاكية ويتركونها للزعيمين المتنازعين — ريموند وبوهيموند — مكشوفة عارية أمام المسلمين والبيزنطيين جميعا [١].

ولاشك فى أن هذا التهديد أثار مخاوف بوهيموندوريموندجميعا،فضلا عن بقية الأمراء الذين خشوا على مصيرهم ومستقبل الحملة ،ومن ثم بدأت المساعى الجدية للوصول إلى حل لتلك الأزمة . ويبدوأن بوهموند وريموند خشيا عندئذ أن ينفذ الصليبيون تهديدهم،فتوصلا إلى اتفاق سريع فى نهاية نوفمبر لشغل الصليبيين وتوجيههم وجهة تتفق ورغبتهم فى مهاجمة المسلمين .أما هذه الوجهة فكانت معرة النعمان ،التى سبق أن هاجمها الصليبيون فى شهر يوليو وباء هجومهم بالفشل [٢].

وعندما هاجم الصليبيون معرة النعمان استغاث أهلها بالملك رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص « فلم ينجدهم أحد »[٣] . ولم يكن للاهالى من القوة والإمكانيات ما يمكنهم من المقاومة طويلا ، فاضطروا إلى التسليم للصليبيين فى ١١ ديسمبر [٤] ، وعندئذ لم يحترم الصليبيون الأمان الذى أعطوه لأهل معرة النعمان ، وإنما « غدروا بهم ورفعوا الصلبان فوق البلد ، وقطعوا على أهل البلد القطائع ، ولم يفوا بشىء مما قرروه ؛ ونهبوا ماوجدوه ، وطالبوا الناس بما لاطاقة لهم به » [٥] . وتضيف المراجع الصليبية إلى ذلك أن الصليبيين

(1) Gesta Francorum, p. 171.

(2) Stevenson : op. cit, p. 30.

(٣) ابن الاثير : الكامل ، سنة ٤٩١هـ .

ابن العديم : زبدة الحلب ح٢ص١٤١ — ١٤٢ .

(4) Albert d' Aix. p. 268 & Gesta Francorum. p. 175.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٣٦ ، وقد قدر ابن العديم عدد قتلى المسلمين فى معركة معرة النعمان بأكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبى ؛ فى حين قدرهم ابن الاثير بما يزيد عن مائة ألف

أحرقوا المعرة أولا عن آخر [١] .

على أنه على الرغم من اشتراك بوهيموند وريموند سوي في الاستيلاء على معرة النعمان ، إلا أن الحزازات استمرت قائمة بين الرجلين بسبب مشكلة أنطاكية . ويبدو أن ريموند نفسه أدرك أن هذه المشكلة طالت أكثر مما ينبغي وأنه لا بد من وضع حد سريع لها ، ولذلك دعا الأمراء إلى الاجتماع به في أوائل يناير سنة ١٠٩٩ ، وعرض عليهم مبالغ ضخمة من المال ليكتسبهم إلى جانبه ويعلنوه زعيما أوحدا للصليبيين جميعا ؛ ولكن عرضه قوبل بفتور من جانب الأمراء [٢] . وأخيرا رأى ريموند أن الموقف لم يعد يحتمل التأجيل بعد ما عم الاستياء جميع صفوف الصليبيين ، فخرج ريموند من معرة النعمان فى ١٣ يناير سنة ١٠٩٩ على رأس جيوشه معلنا الزحف على بيت المقدس ، وتبعه بقية الصليبيين ، ماعدا بوهيموند الذى اختار البقاء بأنطاكية [٣] . وهكذا حلت المشكلة بين ريموند وبوهيموند بأن أصبح ريموند الزعيم الذى لا ينافسه أمير آخر فى قيادة الحملة الصليبية ، فى حين قنع بوهيموند بتحقيق حلمه فى امتلاك أنطاكية [٤] .

وأخيرا تحركت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس ، بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهرا فى شمال الشام (أكتوبر ١٠٩٧ — ديسمبر ١٠٩٨) (٥) .

(1) Chalandon : Premiere Croisade p. p. 249.
(2) Gesta Francorum. p 279.
(3) Michaud : op. cit. I. p. p. 345 – 347.
(4) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 295.
(5) Setton : op. cit. I. p. 327.

الباب الرابع

سقوط بيت المقدس

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم
ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب
من قبلكم ومن الذين أشركوا
أذى كثيراً ، وإن تصبروا
وتتقوا فإن ذلك من عزم
الأمور » .

[آل عمران : ١٨٦]

الفصل الاول

الطريق إلى بيت المقدس

الصليبيون والامارات العربية فى أواسط بلاد الشام :

اتجه ريموند على رأس الصليبيين من معرة النعمان إلى كفر طاب، وهى قلعة على بعد عشرين كيلومتراً إلى الجنوب ، حيث مكثوا هناك حتى ١٦ يناير ١٠٩٩، وفى تلك الفترة لحق بهم روبرت النورمانى وتنكرد . و بوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة بدأت الاتصالات بينهم وبين البيوت العربية الصغيرة التى انتهزت فرصة انحلال قوى السلاجقة لتؤكد استقلالها ببعض المدن مثل حمص وطرابلس وشيزر[١] . وجدير بالذكر أن أولئك الأمراء العرب كان مسلكهم تجاه الصليبيين مختلفا تماما عن مسلك الأتراك الذين لم يعرفوا سوى السيف ، فى حين أدرك الأمراء العرب فى الشام خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قربهم تحميهم من ذلك الخطر ، فآثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض[٢] .

من ذلك أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ ـ صاحب شيزر (١٠٩٨ — ١١٥٤) — أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير فى كفر طاب ، وتعهد له بألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وميرة ، فضلا عن أنه أرسل إليهم فى ١٧ يناير سنة ١٠٩٩ دليلين ليرشدا الصليبيين فى عبورهم إقليم العاصى . وقد تم

(1) Setton : op. cit , 1, P. P. 164 - 165,

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٦٥ ، ٨١ وما بعدها .

فعلا تنفيذ تلك الاتفاقية ، مما يدل على اتجاه الأمراء العرب فى ذلك الدور نحو مسالمة الصليبيين ، رغم ما تعرض له المسلمون من اعتداءات على أيديهم(١) .

ثم كان أن اختار بعض الصليبيين ـ وعلى رأسهم ريمو ند الصنجيلي ـ أن يتجهوا إلى الشمال الغربى ليستولوا على جبلة ، وهى مدينة ساحلية تقع جنوبى اللاذقية ، وكانت تابعة لصاحب طرابلس ابن عمار(٢) . وقد رأى هذا الفريق من الصليبيين أنه من الممكن الحصول على ما يحتاجون إليه من تموين وإمدادات — من قبرص والدولة البيزنطية فضلا عن الغرب الأوربى — إذا هم سلكوا طريق الساحل ، وذلك بفضل مساعدة الأساطيل الغربية التى اتخذت السويدية واللاذقية قواعد لها(٣) . ومعنى هذه الخطة أن يسلك الصليبيون إلى بيت المقدس طريق الساحل — وهو طريق طويل متعرج — فيستولون فى طريقهم على جبلة وانطرطوس وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا .

ولكن تنكرد خالف ذلك الرأى بعد أن أدرك النقص الكبير فى عدد الصليبيين بحيث لم يعد الجيش الصليبي يضم سوى ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة المسلحين (٤) . ومن الواضح أن اتخاذ الطريق الساحلى إلى بيت المقدس كان يستلزم حصار جميع الموانى السابقة مما يستنفد تضحيات كثيرة ووقتا طويلا ، بحيث يصل الصليبيون فى نهاية المطاف إلى بيت المقدس وقد تضاءل عددهم

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 295 & Gesta Francorum, p. 181 & Raymond d'Agiles, p. p. 272-273.

ولم يذكر ابن الأثير هذه التفصيلات التى وردت فى المراجع الغربية ، وإنما اكتفى بعبارة «وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها» .

(الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

(٢) كان يحكم طرابلس وقت الغزو الصليبى لبلاد الشام جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار الذى توفى سنة ١٠٩٩ ، فخلفه أخوه أبو على فخر الملك ابن عمار .

(انظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٦٠) .

(3) Heyd : op, cit, I, p. 134.

(4) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 253.

وأنهكهم التعب ، وأعطوا خصمهم وقتا كافيا للاستعداد للاقائهم ، مما يجعـ
مهمتهم فى الاستيلاء على بيت المقدس — وهى هدفهم الأساسى — من الصعو
بمكان . أما إذا سلك الصليبيون الطريق الداخلى المباشر إلى بيت المقدس فإ
سيتجنبون كثيرا من المشاكل السابقة ، حتى إذا ما استولوا على المدينة المقدس
سهل عليهم بعد ذلك انتزاع بقية المدن الساحلية ـ مثل طرابلس وصور وعكـ
واحدة بعد أخرى (١).

وقد أدرك بقية الصليبيين أتزان رأى تنكرد ، فقرروا اتخاذ أقصر الطر
الداخلية إلى بيت المقدس ، مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطىء البحر
استدعت ظروف التموين ذلك. وفعلا استأنف الصليبيون زحفهم وفقاً لتل
الخطة ، فمروا بمصياف فى ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ، وعندئذ خرج اليهم أمير
العربى ، وعقد معهم اتفاقية . ثم اتجهوا نحو بعرين ومنها إلى سهل البقاع ، حـ
فرح الصليبيون بما صادفوه من خيرات وفيرة . وقد احتمى أهالى تلك المنـ
من العرب المسلمين بحصن الأكراد وسط ذلك السهل، ومعهم ما استطاعوا
من ثروة ومال ، فاتجه إليهم الصليبيون وحاصروهم حصاراً محكماً حتى سقط الحـ
فى أيديهم فى ٢٩ يناير سنة ١٠٩٩ . وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدو
أمير حمص ، الذين وفدوا محملين بالهدايا ليخطبوا ود الفرنجة حتى لا يتعرضو
لبلادهم بسوء .

(1) Raymond d'Aigles p. 273
(2) Stevenson op. cit; I, p. 31.
(3) Gesta Francorum, p. p. 183-185.

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين «ساروا إلى حمص وحصروها فصالحهم صاحـ
جناح الدولة». (الكامل، سنة ٤٩١ هـ).

الحملة الصليبية الأولى وبنو عمار :

وبعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عرقة ، وهى مدينة صغيرة تقع شمالى طرابلس وتتبعها[1]. وكانت إمارة طرابلس عندئذ خاضعه لبنى عمار — كما سبق أن أشرنا — فأسرع صاحبها أبو على فخر الملك بارسال الرسل إلى ريموند لعقد اتفاقية تعهد فيها الأمير العربى بدفع الأموال للصليبيين ، كما أسرع برفع أعلامهم على سور مدينته وغيرها من المواضع التابعة له إشارة إلى ولائه للصليبيين[2]. أما ريموند الصنجيلى فقد أرسل من جانبه رسلا إلى طرابلس للاتفاق مع أميرها فخر الملك ؛ وعندئذ استرعى نظر رسل الصليبيين ثروة طرابلس وغناها ، وطمعوا فى زيادة الجزية ، وأشاروا على ريموند أن يهاجم عرقة التابعة لإمارة طرابلس ، كنوع من الضغط على أميرها فخر الملك حتى يزيد من قيمة الجزية التى تعهد بدفعها للصليبيين . وسرعان ما صادفت هذه الفكرة قبولا حسناً ، لاسيما وأن عرقه نفسها تتمتع بأهمية كبيرة لوقوعها وسط إقليم غنى بمياهه وثروته الطبيعية[3] .

وفى الوقت الذى اتجه جزؤ من الجيش الصليبى لحصار عرقه ، اتجه فريق آخر نحو انطرطوس ، واستولوا عليها فى حوالى ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ . وكانت انطرطوس هذه ميناء صغير على شاطىء البحر ، تابع لبنى عمار ، وأدى استيلاء الصليبيين على ذلك الميناء إلى سهولة تموينهم بواسطة الأساطيل الإيطالية والبيزنطية[4]. هذا فضلا عن أن الاستيلاء على انطرطوس ساعد الصليبيين بعد قليل فى الاستيلاء على مرقية ، إلى الشمال منها .

(I) Michaud : op. cit, I. p. 349.

(2) Raymond d'Agiles, p. 275.

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p p. 132-133.

(4) Raymond d'Agiles, p 2.6.

على أن الصليبيين لم يقنعوا بذلك ، وإنما حدث فى الوقت الذى أخذ ريموند ورجاله يحاصرون عرقه ، أن اتجه جودفرى بوايون وروبرت دى فلاندرز لحصار جبلة ، وهى التى كان مفروضا هى الأخرى أن تكون تابعة لأمير طرابلس ، ولكن القاضى أبو محمود عبيد الله بن منصور استطاع أن يستقل بها عن نفوذ بنى عمار . وقد استمر حصار جبله من ٢ إلى ١١ مارس ، وانتهى بعقد اتفاق بين أبى محمود قاضى جبلة والصليبيين ، تعهد فيه الأول بدفع جزية من المال والخيل . وبعد ذلك اتجه جودفرى وروبرت إلى عرقه تلبية لنداء ريموند الذى طلب مساعدتهما[١] .

وعلى الرغم من أن الصليبيين جمعوا قواتهم أمام عرقه فى ١٤ مارس ، وعلى الرغم من سهولة تموين الصليبيين عن طريق البحر ، ووفرة ماحصلوا عليه من خيرات فى إقليم طرابلس ، إلا أن حصار عرقه طال دون نتيجة[٢] . وفى تلك الأثناء دأبت بعض جموع من الصليبيين على الإغارة على الضياع والقرى القريبة من طرابلس ، ثم تعود إلى عرقه محملة بالأسلاب . ولم يلبث أن اعترض جودفرى بوايون على الاستمرار فى حصار عرقه ، بعد أن « حصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب ، فلم يقدروا عليها »[٣] . وقد نادى جودفرى بأن الوقت الذى أضاعه الصليبيون فى تلك العملية الحربية لايعادل بأى حال من الأحوال الفائدة المرجوة من وراء الاستيلاء على تلك المدينة الصغيرة . لذلك أصر جودفرى على أن يترك الصليبيون حصار عرقة فى الحال ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس[٤] . ومن الثابت أن ريموند أخذ فى تلك المرحلة يندم على استعانته بجودفرى

---

(1) Gesta ; Francorum, p. 187, & Albert d'Aix ; p. 453.
(2) Stevenson ; op. cit; I, p. 31;
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ .
(4) Raymond d'Agiles, p. 278 & Albert d'Aix, p. p. 454-455.

وروبرت واستحضارهما من جبلة لمعاونته . فحتى ذلك الوقت - ومنذ أن زحف الصليبيون من أنطاكية - كان ريموند هو زعيم الصليبيين الزاحفين على بيت المقدس ، حتى أن تنكرد نفسه اعترف له بتلك الزعامة مقابل مبلغ كبير من المال. أما وقد حضر جودفرى ، فإن نفوذه أخذ يطغى على نفوذ ريموند ، وانضم تنكرد وروبرت إلى جانب جودفرى ، مما أضر ضرراً بليغا بمركز ريموند الصنجيلى ومكانته[1] .

وزاد الموقف توترا بين ريموند وجودفرى وصول بعثة من قبل الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين — فى حوالى ١٠ أبريل سنة ١٠٩٩ — تحمل رسالة منه إلى زعماء الصليبيين وهم رابضون أمام عرقه . وقد استهل الامبراطور رسالته بتذكير الصليبيين بالاتفاقية بينهم وبينه سنة ١٠٩٧ ، ثم عبر عن استيائه لأن بوهيموند نكث بعهده للامبراطور بعد أن كان أول من أقر الاتفاق معه ، فاستأثر بأنطاكية وأصر على أن يجعل من نفسه سيداً عليها . وأخيرا عرض الامبراطور على الصليبيين أن ينتظروه حتى أواخر يونيه ليحضر إليهم بنفسه ، ويشترك معهم فى الزحف على بيت المقدس ، ويتحمل عنهم كل أعباء الحرب ونفقاتها[2] .

ومن الواضح أن هذا العرض من جانب الامبراطور البيزنطى بدا طيبا لأول وهلة ، لأنه سيؤدى إلى إنشاء جبهة مسيحية قوية فى الشرق الأدنى ، لا يستطيع المسلمون التغلب عليها أو مقاومتها. هذا فضلا عن أن حضور الامبراطور بنفسه سيهيىء للصليبيين قيادة عليا قوية ، وهو الأمر الذى باتوا يفتقرون إليه منذ وفاة أدهمار — المندوب البابوى — فى أنطاكية . لذلك رحب ريموند الصنجيلى بفكرة انتظار الامبراطور ، وربما رأى فى ذلك الحل فرصة طيبة

(1) Runciman : op. cit, I, p. 271-272.
(2) Guillaume de Tyr, p. 307.

للاستعانة بالأمبراطور فى توطيد زعامته على الصليبيين من ناحية[١] ، فضلا عن استخدام قوى الصليبيين أثناء فتره الانتظار فى الاستيلاء عل عرقه ليتخذها — بالإضافة إلى أنطرطوس — نواة للامارة التى أخذ يحلم بتأسيسها لنفسه فى طرابلس [٢] ، من ناحية أخرى .

على أن غالبية الأمراء الصليبيين — وعلى رأسهم جودفرى بوايون — عارضوا فكرة انتظار الأمبراطور البيزنطى ، ونادوا بالزحف فورا على بيت المقدس . وكانت حجتهم فى ذلك قوية وهى أن العرض البيزنطى جاء متأخرا بعد فوات الأوان ، فضلا عن أن الأمبراطور ألكسيوس كثيراماوعدوأخلف، وطالما خدع الصليبيين بمساعدته ومناهم بالأمانى المعسولة دون أن يحقق وعوده . وكان آخر مايذكره الصليبيون للامبراطور البيزنطى أنه وعدهم بالحضور لمساعدتهم فى أنطاكية فانتظروه وأضاعوا الأشهر الطويلة ، ولكنه لم يحضر [٣]. هذا كله بالإضافة إلى أن الصليبيين أخذوا يحسون فى ذلك الوقت بما كان هناك من اتصالات بين الامبراطور البيزنطى والفاطميين . ذلك أن الفاطميين دهشوا عندما وجدوا الصليبيين يتقدمون جنوبا صوب فلسطين ، فأرسلوا إلى الامبراطور ألكسيوس يسألونه عما إذا كانت تلك الحركة تعمل لحسابه، ولكنه أنكر علاقته بها [٤] .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفرى بوايون -يسانده روبرت دى فلاندرز- إستطاعا إجبار ريموند الصنجيلى على احترام رأى جموع الصليبيين فى الزحف دون إبطاء على بيت المقدس ، مما أكسب جودفرى محبة الصليبيين وتقديرهم[٥]

(1) Chalandon ; Alexis Comnene, p. 214-215.
(2) Grousset : Hist : des Croisades, I; p 138.
(3) Michaud ; op cit; p. p. 361.
(4) Runciman : op. cit; I, p. 272.
(5) Albert d'Aix, P.P. 455 & Raymond d'Agiles P. 289.

وكان أن اضطر ريموند إلى رفع الحصار عن عرقه فى ١٣ مايو سنة ١٠٩٩ ، وبذلك فشلت تجربته فى استخدام الصليبيين فى تأسيس دولة لنفسه على شاطىء الشام ، مثلما فعل بوهيموند فى أنطاكية[١] .

ولاشك فى أن إخفاق الصليبيين فى الاستيلاء على عرقه بعد ذلك الحصار الطويل ، وماظهر فى صفوفهم من خلافات وتيارات متعارضة أثناء الحصار ، كل ذلك أدى إلى تقوية مركز أمير طرابلس ابن عمار ، الذى لم يلبث أن سحب عروضه السابقة على الصليبيين قبل أن يرفع هؤلاء حصارهم عن عرقة . ولكن قيام الصليبيين بالهجوم على طرابلس ، وإنزالهم الهزيمة بالمسلمين فى أواخر شهر مارس وأوائل أبريل ، كل ذلك جعل ابن عمار يعود إلى رشده ويركن إلى مسالمة الصليبيين ، فتعهد بالاستمرار فى دفع الجزية ، كما دفع غرامة حربية باهظه[٢] لهم . وقد اكتفى الصليبيون بذلك، فغادروا إقليم طرابلس فى ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ ، وتولى إرشادهم بعض الادلاء من طرابلس نفسها حتى وصلوا مساء ١٩ مايو أمام بيروت[٣] .

الفاطميون وبيت المقدس :

يعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التى نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، فيقول « ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر ، وماأدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال !! »[٤] . ثم يسترسل أبو المحاسن فى وصف سوء حال

(1) Stevenson : op. cit, P.32.

(2) Raymond d'Agiles P 285 & Guillaume de Tyr P. P. 308-309.

(3) Albert d'Aix, P. P. 458 & Gesta Francorum P. 193.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٧

الصليبيين عندما زحفوا على الشام ، وكيف أن المسلمين فى العراق والشام حاولوا صدهم ، « كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج ![1] » .

والحقيقة هى أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها — كما سبق أن أشرنا — وانتهزوا فرصة ما حل بالسلاجقة فى شمال الشام ليستردوا فلسطين وبيت المقدس ؛ ظناً منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصليبيين جميعاً . ولا أقل لإثبات صحة هذا الرأى من إلقاء نظرة عامة سريعة على التطورات التى مرت بها فلسطين قبيل وصول الصليبيين مباشرة إلى بيت المقدس .[2]

ذلك أننا رأينا كيف استطاع الأتابك أتسز بن أبق أن يستولى على بيت المقدس باسم السلطان ألب أرسلان من الفاطميين سنة ١٠٧١ ، ومن ثم ظل أتسز هذا يحكم فلسطين منذ تلك السنة حتى سنة ١٠٧٩ ، عندما آلت فلسطين إلى تتش الذى عين أحد رجاله التركمان — وهو أرتق بن أكسب مؤسس بيت الأراتقة — حاكما على بيت المقدس . وعندما وفاة أرتق هذا سنة ١٠٩١ حل محله ابنه سكمان تحت سيادة تتش ثم تحت سيادة ابنه دقاق بن تتش ملك دمشق[3] .

على أن الفاطميين لم يستطيعوا أن يسكتوا مطلقاً عن ضياع بيت المقدس من أيديهم ؛ وكذلك رحبوا بتقدم الصليبيين فى منطقة الشرق الأدنى على حساب الأتراك ؛ ووجدوا فى ذلك فرصة طيبة لاسترداد حقوقهم الضائعة فى فلسطين . بل إن المؤرخ ابن الأثير لم يتردد فى اتهام الفاطميين بأنهم هم الذين دعوا الفرنجة

---

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) للوقوف على حقيقة موقف الدولة الفاطمية من الحركة الصليبية ، انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية (بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ١٦ ، ١٩٦٩) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

إلى بلاد الشام ليساعدونهم ضد الأتراك السلاجقة [١] . وبعبارة أخرى فإن الفاطميين لم يروا فى الإنتصارات التى أحرزها الصليبيون فى ضوريليوم وأنطاكية كارثة عامة حلت بالمسلمين ، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هي تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين الذين سادوه قرابة نصف قرن من الزمان ، استثاروا فيها كراهية العرب المسلمين جميعاً ، الشيعة والسنة سواء .

وهكذا أحس الفاطميون بالسعادة والغبطة فى تلك اللحظة التى وجدوا نفوذ الأتراك قد انهار ، دون أن يستطيع رضوان ملك حلب أو دقاق ملك دمشق أو حتى السلطان بركياروق نفسه أن يمنع تقدمهم أو يقف فى طريقهم . وربما اعتقد الفاطميون أن ساعة الإنتقام من الأتراك قدأزفت ، الإنتقام للعنصر العربى بوجه عام ، والشيعة بوجه خاص [٢] . ولم يكد يحل الصليبيون بإقليم أنطاكية ، حتى أسرع الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه — حاكم مصر الفعلى عندئذ (١٠٩٥ ١١٢١) - إلى بذل كل جهد ممكن لعقد تحالف بين الفاطميين والصليبيين ضد العدو المشترك للطرفين ، وهم الأتراك السلاجقة ؛ ووصلت رسل الأفضل فعلا إلى الصليبيين أمام أنطاكية أثناء حصارهم لها فى أوائل سنة ١٠٩٨ . أما العرض الذى تقدم به الأفضل للصليبيين فكان واضحاً بسيطاً ، خلاصته أن يتعاون الطرفان فى القضاء على السلاجقة ، ثم تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما بحيث يكون القسم الشمالى (سوريا) للصليبيين ، والقسم الجنوبى (فلسطين) للفاطميين [٣] . وليس أدل من هذا العرض على جهل الفاطميين بحقيقة الحركة الصليبية وعدم إدراكهم أن الصليبيين لم يتركوا بلادهم فى غرب أوربا ويتحملوا ما تحملوه فى الشرق إلا لاستخلاص

(١) «وقيل : إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الاقسيس (أتسز) إلى مصر وحصرها، خافوا فأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين ! »
(ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٠ هـ) .

(2) Grousset : Hist, des Croisades I, P. P. 144-145.

(3) Setton ; op. cit; I, P. 316.

الأراضى المقدسة فى فلسطين . ففلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص هما الهدف الأول الرئيسى للصليبيين . هذا وإن كان الصليبيون قد أظهروا مهارة سياسية ملحوظة حتى ذلك الوقت تجاه الفاطميين ، فاختاروا أن يتركوهم على عماهم ولم يفصحوا لهم عن نواياهم تجاه فلسطين، بل أرسل الصليبيون سفارة إلى القاهرة — ردا على سفارة الأفضل — تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك[١].

على أن الوزير الأفضل لم يشأ أن ينتظر وصول الصليبيين إلى فلسطين، وإنما اختار أن يعمل فوراً . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور « بالسيف» فى ربيع سنة ١٠٩٧ من الأراتقة ، ولـكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس عندئذ وترك ذلك للوقت المناسب[٢]. ولم يلبث أن حان ذلك الوقت المناسب فى صيف سنة ١٠٩٨ والصليبيون مازالوا متعثرين فى منطقة أنطاكية : فخرج الأفضل على رأس جيوشه ، واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سكمان (سقمان) الأرتقى وأخيه إيلغارى فى ٢٦ أغسطس سنة ١٠٩٨[٣]. وقد «أحسن الأفضل إلى سقمان وإيلغازى ومن معهما وأجزل لهما العطاء » ، كما سمح لهما الأفضل بالخروج من بيت المقدس ، فاتجه الأخوان نحو دمشق ومنها إلى الجزيرة حيث استطاعا أن يؤسسا إمارة لبنى أرتق هناك[٤] أما فلسطين فقد غدت جزءاً من الدولة الفاطمية ، ولم تـكد تحل سنة ١٠٩٨ إلا وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت إلى نهر الـكلب شمالا ومجرى الأردن شرقاً[٥].

---

(1) Michaud ; op. cit, I, P 362.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(٣) ابن الأثير : الـكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) « فساروا إلى دمشق ثم عبر الفرات، وأقام سقمان ببلد الرها وسار إيلغازى إلى العراق » (ابن الأثير : الـكامل ؛ سنة ٤٩٢ هـ) .

انظر كذلك ابن ميسر ، حوادث سنة ٤٩١ ، ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ — ١٣٨

(5) Setton ; op. cit; vol; I; P. 316.

ولكن إذا كان الفاطميون قد ظنوا أنهم استفادوا من حالة الفوضى التى أمسى فيها العالم الإسلامى نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ، فإن الحقيقة المرة لم تلبث أن صدمتهم . فالصليبيون والفاطميون تحالفوا ضد العدو المشترك وهم الأتراك ، ولكن باستيلاء الصليبيين على أنطاكية والفاطميين على بيت القدس ، غدا الحليفان وجهاً لوجه ، ولا مناص من حدوث صدام بينهما . وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسى للصليبيين أرسل إليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس ، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين ؛ كما تحمل لهم عرضاً من الخليفة الفاطمى خلاصته أن يسهل لهم مهمة الحج على شكل مجموعات من مائتى أو ثلثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين[1] . ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلا ، ولكن بمعونة الله . وكان معنى ذلك بداية الحرب بين الصليبيين والفاطميين من أجل بيت المقدس[2] .

سقوط بيت المقدس :

بسط الفاطميون سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب ؛ ولكنهم — فيما يبدو — لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم فى تلك الجهات والدفاع عنها ؛ وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراكز الساحلية التى ظل الأسطول الفاطمى قادراً على إمدادها بالرجال والزاد من ناحية أخرى[3] . وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا طرابلس فى طريقهم إلى بيت المقدس . وهنا نجد معظم تلك الموانى

---

(1) Michaud ; op. cit, I, P. P. 362-363.
(2) Guillaume de Tyr, I, P, P, 305-306.
(3) Runciman, op. cit, I. P. 275.

الساحلية تحاول أن تحذو حذو طرابلس نفسها ، فتحصل على مسالمة الصليبيين بأحسن الشروط الممكنة . من ذلك أن أهل بيروت عندما أحسوا باقتراب الصليبيين منهم ، عرضوا عليهم إمدادهم بالتموين فضلا عن تقديم مبلغ كبير من المال ، كل ذلك مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للعرب(١). وأكثر من هذا فقد تعهد أهل بيروت بالدخول فى طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعية لهم ، إذا هم نجحوا فى احتلال بيت المقدس(٢). وهذا بعكس ما حدث عندما مر الصليبيون بصيدا (٢٠ مايو سنة ١٠٩٩) اذ اعتدت حامية صيدا على بعض الجند الصليبيين ، مما جعل هؤلاء يتلفون المزارع المجاورة ويعتدون على الضياع القريبة(٣) .

وبعد ذلك مر الصليبيون بصرفند وصور حيث انضم إليهم (٢٣ مايو سنة ١٠٩٩) بعض الفرسان القادمين من الرها وأنطاكية لمساعدتهم . وقد التزم الصليبيون طريق الساحل بعد صور ، فمروا بعكا التى قام حاكمها بتموين الصليبيين ، كما تعهد بالدخول فى طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس(٤) . وهكذا مضى الصليبيون فى تقدمهم فمروا بقيسارية فى ٢٦ مايو ، ثم بأرسوف بعد ذلك بقليل(٥). ولم يحاول الصليبيون بعد ذلك الاتجاه إلى يافا ، وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلى ويشقوا سبيلهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة . ومع ذلك فإن الصليبيين كانوا حريصين دائما على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر ، فاحتلوا

---

(1) Setton ; op. cit. P. 341.

(2) Albert d'Aix : P. 458.

(3) Guillaume de Tyr. p 311.

(٤) تختلف رواية ابن الأثير عن ذلك ، إذ قال إن الصليبيين « حصروا عكا فلم يقدروا عليها » (الكامل ، سنة ٤٩٢ ﻫ) . والرواية الأولى هى التى أجمعت عليها المراجع الصليبية .

(5) Albert d'Aix p. 460.

الرملة التى هجرها أهلها وتركوا فيها حامية صغيرة(١) . وعلى مقربة من الرملة كانت اللد وبها كنيسة القديس جرجس (جورج) التى أقامها البيزنطيون . فلما علم أهل تلك الناحية باقتراب الصليبيين أحرقوا الكنيسة ، ولكن الصليبيين رمموها ، وأقاموا أسقفا كاثوليكيا على إقليم اللد والرملة ، اتخذ كرسيه فى كنيسة القديس جرجس(٢) .

وأهم ما حدث فى تلك الفترة التى قضاها الصليبيون فى الرملة (أوائل يونية سنة ١٠٩٩) ، أنهم عقدوا مجلسا للحرب ، ناقشوا فيه عدة مسائل ، أهمها الرأى القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين فى مصر ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا فى القاهرة ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة فى بيت المقدس ، فعليهم أن يؤمنوا أنفسهم بالاستيلاء على الدلتا(٣) وسنرى فيما بعد أن هذه الفكرة ظلت مسيطرة على عقول زعماء الحركة الصليبية طوال عصر الحروب الصليبية ، حتى وضعت موضع التنفيذ أكثر من مرة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ولكن من الواضح أن الظروف التى أحاطت بالصليبيين فعلا فى نهاية القرن الحادى عشر لم تسمح مطلقا بتلك المغامرة ، لأن مملكة بيت المقدس لم تكن قد قامت بعد ، ولأن أقدام الصليبيين لم تكن قد ثبتت فى فلسطين مثلما صار عليه الوضع فى القرن الثالث عشر(٤) .

وكان أن تقرر الزحف على بيت المقدس مباشرة ، فترك الصليبيون الرملة فى ٦ يونية سنة ١٠٩٩ . وفى الطريق التقوا ببعض المسيحيين الوافدين من

---

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 33 .

ويقول أبو المحاسن : إن الصليبيين أخذوا الرملة « وقت إدراك الغلة » أى وقت الحصاد .

(النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠) .

(2) Gesta Francorum; p. 193 & Guillaume de Tyr, p. 313.

(3) Raymond d'Agiles, p. 299

(4) Albert d'Aix, p. 292.

بيت لحم ، وهؤلاء استحثوا جودفرى بوايون على الإسراع إلى بيت المقدس ، لأن الفاطميين يتوعدون المسيحيين ويتأهبون للثأر منهم ، فضلا عن أنهم استحضروا عمالا من مصر لتقوية الاستحكامات فى بيت المقدس (١) . لذلك أرسل جودفرى فرقة من الفرسان بقيادة تنكرد إلى بيت لحم ، حيث استقبلهم المسيحيون على اختلاف مذاهبهم استقبالا حافلا ، مهللين بأن ساعة الخلاص قد حانت ، وأنهم جميعا أتباع المسيح ورعاياه، لافرق بين كاثوليك وأرثوذكس وسريان (٢) . وبعد ذلك غادر تنكرد بيت لحم لملاقاة بقية الجيش الصليبى ، بحيث لم يحل يوم ٧ يونيه، إلا وكان الصليبيون جميعا أمام أسوار بيت المقدس. وهنا أفاض المؤرخون الصليبيون فى وصف مشاعر الصليبيين وأحاسيسهم عندما وجدوا أنفسهم أمام تلك المدينة المقدسة ، وما أثارته رؤياها فى نفوسهم من ذكريات حبيبة إلى قلوبهم (٣) .

وفى تلك الأثناء كان افتخار الدولة — حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل (٤) — قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين، فسمم الآبار، وقطع موارد الماء وأخفى المواشى (٥) ، وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين، فضلا عن اهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمدا فى الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان (٦) .

ولم يكد الصليبيون يشرعون فى حصار بيت المقدس فى ٧ يونية سنة ١٠٩٩ ،

---

(1) Ibid.

(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), pp. 354-355.

(3) Guillaume de Tyr, p. 318.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ؟ أبو المحاسن: النجوم ج ٥ ، ص ١٤٨ .

(5) Gesta Francorum, p. 199, & Raymond d'Agiles p p. 293-294.

(6) Foucher de Chartres (Hist. Occid) III, p. 359.

حتى أخذوا يهاجمون المدينة معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم (١).
وفى حوالى منتصف يونية وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوية التى استطاعت الاستيلاء على المدينة فى سهولة بعد أن هجرها أهلها من المسلمين عندما علموا باقتراب الصليبيين من أرسوف (٢). ومن الثابت أن تلك السفن الجنوية أحضرت للصليبيين كثيراً مما كانوا يحتاجون إلية من عدد الحصار ومواد التموين (٣)، الأمر الذى جعلهم أمام بيت المقدس يحرصون على تأمين الطريق بينهم وبين يافا ليتمكنوا من الحصول على المساعدات التى تجلبها لهم الأساطيل الغربية (٤). ولاشك فى أن تلك المعونة البحرية كان لها أثرها الفعال فى تدعيم مركز الصليبيين، وفى إمدادهم بما احتاجوا إليه، مما مكنهم من مواصلة الحصار والهجوم، فى الوقت الذى كانت الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت المقدس ومقطوعة من العالم الخارجى تماما (٥).

وكان أن طال حصار الصليبيين لبيت المقدس واشتدت حرارة الصيف، مما أثار أعصابهم وجدد المنازعات فيما بينهم حول مصير بيت المقدس وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم. ولم تلبث أن انتشرت إشاعة قوية بين الصليبيين مؤداها أن جيشا فاطميا كبيرا قد خرج من مصر فى طريقه إلى بيت المقدس لتخليصها، مما جعل الصليبيين يفكرون فى القيام بمحاولة قوية للاستيلاء على المدينة (٦). وقد عمل الصليبيون برجين يطلان على سور المدينة، أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود، فأحرق المسلمون البرج الأول وقتلوا من فيه. أما البرج الثانى فقد زحف به الصليبيون حتى ألصقوه بالسور « وحكموا به البلد وكشفوا من

(1) Gesta Francorum p. 195.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٢ هـ.

(3) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. p. 134-135, & Cam, Med, Hist, vol. 5. p, 268.

(4) Gesta Francorum, p. 199.

(5) Chalandon : Premiere Croisade. p. p. 269-271.

(6) Runciman : op. cit; I. p. p. 283-284.

كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ؛ فانهزم المسلمون . . » [١]

وقد حدث ذلك الهجوم الشامل الذى قام به الصليبيون على بيت المقدس ليلة ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ ، ثم اشتد الهجوم واتخذ طابعاً عنيفاً صباح اليوم التالى ، أى الجمعة ١٥ يوليو ، وهو اليوم الذى استطاعوا فيه اقتحام المدينة بعد حصار دام « نيفا وأربعين يوما » [٢] . ولم يسع الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى الفرار عندئذ للاحتماء بالمسجد الأقصى والدفاع عنه ، فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة « حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين ! ! » [٣]

وفى الحال أخذ جودفرى بوايون يقسم العمل على الأمراء ، فأرسل بعضهم لفتح باب العمود حتى يدخل منه بقية الصليبيين إلى داخل المدينة ، فى حين قام البعض الآخر — مثل تنكرد — باحتلال قبة الصخرة . والمعروف أن قبة الصخرة كانت غنية بما فيها من تحف ثمينة سال لها لعاب الصليبيين فنهبوها عن آخرها [٤] .

على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لم يتم فى سهولة ودون مقاومة ، إذ صادف الصليبيون مقاومة شديدة فى القطاع الجنوبى . أما افتخار الدولة — حاكم المدينة الفاطمى — فقد احتمى مع طائفة من الجند بمحراب داود حيث « اعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام » ، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(3) Gesta Francorum, p. p. 203-205.

(٤) « أخذوا (الصليبيون) من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلا من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء ... »

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

أن « بذل لهم الفرنج الأمان »[١] . وفعلا أطلق الصليبيون سراحهم وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان ، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين[٢] .

ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفها الصليبيون فى بيت المقدس ، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب . ذلك أن الصليبيين لم يتركوا مسلما فى الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه ، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل . ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتمى به من المسلمين وعددهم أكثر من سبعين ألفـــا « منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف » ومهما يكن فى هذا الرقم الذى ذكره المؤرخون من مبالغة ، فإن جميع الدلائل تشير إلى وحشية الصليبيين وعظم الجرم الذى اقترفوه فى بيت المقدس[٣] .

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة ، فذكر وليم الصورى أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد « مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم »[٤] . كذلك

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) المرجع السابق & Gesta Francorum, p. 205.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) لم يذكر هذا الرقم من ضحايا المسلمين المؤرخون المسلمون - مثل ابن الأثير - فحسب ، بل ذكره أيضاً المؤرخون المسيحيون الشرقيون مثل ابن العبرى الملطى الذى ذكر بالنص الواحد « ولبث الفرنج فى البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ! » (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧).

كذلك ذكر متى الرهاوى أن عدد من قتلهم الصليبيون من المسلمين زاد على خمسة وستين ألفا .
(Doc. Arm, I, p, 45)

5) Guillaume de Tyr, I, p. 354.

ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التى أحدثها الصليبيون ؛ لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا فى صعوبة بالغة ، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه[1] . ولم يكن اليهود أحسن حالا من المسلمين ، إذ « جمعوا اليهود فى الكنيسة وأحرقوها عليهم»[٢] .

ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين المحدثين إلى الاعتراف بأن مذبحة يوليو سنة ١٠٩٩ كانت لطخة عار فى تاريخ الحملة الصليبية الأولى[٣]. وإذا كان المسلمون قد تطرفوا أحياناً ـ فيما بعد ـ فى معاملة الصليبيين ، فإن هذا التطرف لم يكن إلا رد فعل لمذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩، وهى المذبحة التى ظلت تثير الأسى فى قلوب المسلمين حتى طرد الصليبيين نهائياً من الشام[٤] .

أما الدولة الفاطمية ، فقد تلقت تلك الأخبار فى برود ، وظلت تغط فى سباتها العميق . وكذلك بغداد حيث اتجه قاضى دمشق زين الدين أبو سعد الهروى ليخبر الخليفة العباسى بالكارثة التى حلت بالمسلمين فى الشام . وهناك فى بغداد اجتمع « المستنفرون » من دمشق ؛ « وحضروا فى الديوان (الخليفى) وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا ، وقام القاضى فى الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين[٥] » . كل ذلك والخلافة العباسية لم تحرك ساكنا . وكذلك السلطان

(1) Raymond d'Agiles, p. 300.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ .

Michaud : op. cit, I, p. p. 4 4 425.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 161 &
Runciman : op. cit. I p. 278.

(4) Runciman : op cit, I, p. 287.

(٥) ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

بر كياروق « ووقع التقاعد »[١] .

والواقع أنه إذا كان ثمة خطر سيهدد الصليبيين فيما بعد ، فإن السحب التى انذرت بذلك الخطر لم تتجمع إلا بعد أن نجح الصليبيون فى تثبيت أقدامهم فى بلاد الشام .

---

(١) وقد قال أبو المظفر الأبيوردى شعراً فى عدم اكتراث الخلافة العباسية، واعتماد المسلمين عندئذ على البكاء والنحيب :

وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بنى الإسلام إن وراءكم	وقائع تلحق الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم	ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى أمتى لايشرعون إلى العدى	رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى	ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى	ويغضى على ذل كماة الأعاجم

الفصل الثانى

تنظيم الفتح

بيت المقدس غداة استيلاء الصليبيين عليها :

أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى فى تحقيق أهدافها الروحية والحربية مشكلة أساسية ، هى تحديد وضع البلاد التى فتحها الصليبيون ، وطريقة تنظيمها ، وكيفية بناء دولة غربية على أرض شرقية ، تتألف من تلك العناصر المشتتة المتباينة التى جرفها تيار الدعوة الصليبية من غرب أوربا ليلتقى بها جميعا فى صعيد واحد (1). حقيقة إن الحملة الصليبية جاءت وليدة المصادفات التاريخية ، كما أن نجاحها أيضاً تم نتيجة المصادفات التاريخية ، إذ نبتت الدعوة الصليبية فى الوقت الذى ضعفت الدولة البيزنطية وانحلت قوى الأتراك السلاجقة . ولكن كان لزاما على الصليبيين الأوائل بعد ما حققوه من نجاح فى الشام أن يتبعوا سياسة متكاملة بعيدة الهدف ، لخلق دولة ثابتة فى بيت المقدس من تلك العناصر المتباينة التى تألفت منها الحملة الصليبية الأولى . وإذا كان من الصعب أن يتم هذا العمل بسهولة أو دفعة واحدة أو على يد فرد واحد ؛ فإن التاريخ يشهد على أن الفضل الأول فى وضع أساس ذلك البناء يرجع بدون شك إلى بلدوين الأول (١١٠٠ — ١١١٨) . أما الفترة الواقعة بين سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٩ وقيام بلدوين الأول فى حكمها سنة ١١٠٠ ، فكانت فترة انتقال ، أو على الأصح فترة توفيق بين الميول الانفصالية للأمراء ورجال الدين من جهة والأوضاع

---

(1) Richard . Le Royaume Latin de Jerusalem p. p. 28-29..

التى تتطلبها قيام ملكية مدعمة النفوذ والسلطان من جهة أخرى . وفى فترة الانتقال هذه ، قام جودفرى بوايون بالوصاية على بيت المقدس[(١)] .

وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التى واجهت الصليبيين بعد أن انتهوا من ذبح جميع من فى بيت المقدس من المسلمين ، هى عدم وجود زعيم أورئيس أو قائد لهم يعترفون جميعاً بزعامته ، ويعهدون إليه بتنظيم جهودهم فضلا عن تنظيم البلاد التى فتحوها[(٢)] . وهنا أحس الصليبيون بعظم الخسارة التى أصابتهم بوفاة أدهمار المندوب البابوى ، وهو الذى كان حتى وفاته يقوم بدور الزعيم الروحي للصليبيين ، فضلا عن أنه كان يؤلف بين أمراء الصليبيين تحت زعامته . ولكن وفاة أدهمار فى أنطاكية فى أول أغسطس سنة ـ ١٠٩٨ ـ كما مر بنا ـ أدت إلى افتقار الحملة الصليبية الأولى إلى زعامة روحية ، كما أصبحت تلك الحملة من ـ الناحية السياسية ـ لاتعدو مجرد حلف بين الأمراء يتصف بالفوضى وسوء النظام لعدم وجود رأس تتزعم الحلف وتنسق بين جهود أعضائه وآرائهم[(٣)] . ولم تلبث أن ظهرت الاتجاهات الشخصية قوية عند الأمراء ، فأخذ بعضهم يتخلى عن موكب الحملة ويتوقف فى الطريق لتحقيق كسب خاص ، مثلما فعل بلدوين البولونى فى الرها وبوهيموند فى أنطاكية ، وما أراد أن يفعله جودفرى بوايون فى جبلة ، وريموند فى عرقه[(٢)] .

وأخيراً لم يبق مع الحملة عند سقوط بيت المقدس سوى جودفرى بوايون ، لأن ريموند منعه من التوقف فى جبلة ، وريموند لأن جودفرى بدوره منعه من التوقف فى عرقه وطرابلس ؛ فضلا عن تنكرد وروبرت دى فلاندرز وروبرت

(1) Grousset : Hist. des Croisades. I, pp. 164-165.
(2) Runciman : op. cit, I, p. 289.
(3) Runciman : op. cit, I, p. 289.
(4) Chalandon : Premiere Croisade, p. 278-279.

النورمانى . وهؤلاء الأمراء هم الذين دخلوا كنيسة القيامة فى بيت المقدس مساء يوم ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وأيديهم ملطخة بدماء ضحاياهم من أهل المدينة الأبرياء ليبتهلوا إلى الله ويطلبون حسن ثواب الدنيا والآخرة[١] .

جودفرى والوصاية على بيت المقدس :

ثم كان أن اجتمع زعماء الحملة الصليبية فى ١٧ يولية لتنظيم فتحهم الجديد. وهنا بدأت المشكلة الأولى وهي هل يكون زعيم الدولة الجديدة من العلمانيين أو الكنسيين ؟ ومن الواضح أن الكنيسة الغربية كان لها سند واضح فى المطالبة بالإشراف على بيت المقدس، لأن البابا أوربان الثانى هو صاحب الفضل فى الدعوة للحرب الصليبية[٢]. ولو كان الزعيم الروحى للحملة الصليبية الأولى — وهو المندوب أدهمار — حياً ، لأمكن أن يتولى الزعامة العليا فى تلك الدولة الجديدة ، بحكم مكانته وشخصيته واتزانه من جهة ؛ وما قام به من دور بارع فى توجيه الأمراء المشتركين فى الحملة وحفظ التوازن بينهم من جهة أخرى[٣] . وشاءت الظروف أن يكون كرسى بيت المقدس خالياً عند سقوطها فى أيدى الصليبيين، لأن بطرق المدينة الأرثوذكسى — سيمون (سمعان أو شمعون) — مات فى قبرس قبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وبذلك أصبحت يد الصليبيين مطلقة فى تعيين أحد رجال الدين الكاثوليك بطرقاً على بيت المقدس[٤] .

---

(1) Guillaume de Try, I, p. 357.

(2) Michaud op. cit, I, 428 429,

وقد توفى البابا أوربان الثانى فى ٢٩ يوليه سنة ١٠٩٩ ، أى بعد سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيون بأسبوعين ، وذلك قبل أن يسمع الخبر الذى طالما تمناه منذ دعا للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ .

(3) Setton: op. cit, I, p, 338.

(4) Albert d'Aix (Hist. Occid, VI); pp 489.

على أنه من الواضح أن فكرة قيام حكومة دينية فى بيت المقدس تخضع لإشراف الكنيسة وهيمنة رجال الدين وتوجيههم ، كانت فكرة خاطئة ، ولا يمكن تنفيذها ، وإذا نفذت كان لا يمكن لها البقاء . ذلك أن قيام دولة لاتينية من المسيحيين الغربيين فى بقعة بمثابة القلب من العالم الإسلامى ، أمر يحتاج إلى قيادة حربية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد أعدائها المحيطين بها . ولذلك سرعان ما استبعد الصليبيون من حسابهم هذه الفكرة ، لا سيما وأنه لم يكن صحبتهم الزعيم الدينى الرشيد الذى يصلح لتلك الزعامة[1] .

وكان أن اتجهت الآراء نحو اختيار أحد الأمراء العلمانيين لينظم أمور الفتح الجديد . وهنا بدأت مشكلة أخرى ، هى أى الأمراء يفضل الآخرين ليكون زعيما لدولة بيت المقدس الصليبية ؟ إن تعجل روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز العودة إلى غرب أوربا ، جعل الأمر محصوراً بين اثنين ، هما ريموند وجودفرى[2] . وليس هناك من شك فى أن ريموند كان أوفر ثروة وأكثر قوة من منافسه ، هذا فضلا عن قوة شخصيته ومرونته السياسية وبعد نظره الذى جعله يؤثر التحالف مع الدولة البيزنطية[3] . على أن قوة هذا الأمير من ناحية وعدم حب الأمراء والفرسان له من ناحية أخرى ، جعلت الأمراء يتخوفون من اختياره . هذا إلى أن سياسته تجاه الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، وإفراطه فى التودد إليه والتحالف معه أثارت استياء كثير من الصليبيين ؛ حتى فرسانه ورجال جيشه . ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الصليبيين يؤكدون أن تاج بيت المقدس عرض عليه ، ولكنه رفضه[4] . وهكذا لم يبق هناك سوى جودفرى

(1) Groussel : Hist. des Croisades I; pp. 166-167.
(2) Archer : The Crusades, p. 93.
(3) Runciman : op. cit. I. p. 291.
(4) Raymond d'Agiles, p. 301 & Albert d'Aix, p. 485.

دى بوايون الذى رفض هو الآخر هذا الشرف فى أول الأمر ؛ ولكن بقية الزعماء أجبروه على قبول حكم بيت المقدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩[١] .

ولم تكن مهمة جودفرى بوايون بالمهمة السهلة الهينة ، إذ كان عليه أن يعانى الكثير بسبب عدم إخلاص ريموند بوجه خاص . هذا إلى أن جودفرى لم تكن له من المؤهلات الموروثة أو المكتسبة ما يجعله يمتاز عن غيره من الأمراء الصليبيين ، بل على العكس لقد اختاره الأمراء ورجال الدين لما لمسوه فى أخلاقه من لين وسهولة تمكنهم من تحقيق مآربهم دون أن يخشوا خطرا من جانبه .

ومهما يكن من أمر ، فالملاحظ أن جودفرى لم يحمل لقب ملك بيت المقدس . وقد جرت الأساطير بأن التاج عرض عليه ولكنه « رفض أن يرتدى تاجا من الذهب فى المكان الذى ارتدى المسيح تاجا من الشوك »[٢] لذلك أكتفى جودفرى باتخاذ لقب متواضع هو « حامى بيت المقدس Advocatus Sancti Sepulchri[٣] » ومن الواضح أن اختيار جودفرى هذا اللقب جاء اعترافا منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة ، وأن لها صفتها الدينية التى تجعل للكنيسة نوعا من الإشراف عليها . وهكذا أدى تواضع جودفرى إلى تأخير قيام ملكية قوية منظمة تستطيع بيت المقدس فى ظلها أن تعيش وسط الأخطار الجسيمة المحيطة بها[٤] .

---

(1) Iorga: Hist. des Croisades, p. 67.
(2) Michaud: op. cit, I, p 436.
(3) Runciman op. cit, I pp. 292–293.
(4) Grousset: op. cit, I, p. 171.

اختيار أرنولف مالكورنه بطرقا على بيت المقدس:

وكان أن أخذ رجال الدين فى بيت المقدس يزدادون قوة أمام ذلك الحاكم الطيب، بعد ما لمسوه فيه من لين العريكة . وعندما اجتمع رجال الكنيسة فى أول أغسطس سنة ١٠٩٩ لاختيار بطرق لبيت المقدس ، وقع اختيارهم على أرنولف مالكورن(١) . وقد احتج أبناء بروفانس من الصليبيين على ذلك الاختيار ، وحاولوا تجريح أرنولف، والقول بأن انتخابه غير قانونى لعدم صلاحيته ولسوء سلوكه أثناء زحف الصليبيين على بيت المقدس ؛ ولكن كل هذه الطعون لم تجد ، لاسيما وأن عدم اختيار ريموند حاكما أضعف من مكانة رجاله أبناء إقليم بروفانس(٢) .

على أن البطرق الجديد كان من جانبه معتدلا ، فاختار ألا يقحم نفسه فى مشاكل مع جودفرى ، وإنما قصر نشاطه على المسائل الكنسية . وقد وجه كل اهتمامه إلى إضفاء صبغة لاتينية على كرسى بيت المقدس ، فزود كنيسة القيامة بأجراس لإعلان مواعيد الصلاة — وهو أمر كان المسلمون قد حرموه على المسيحيين فى بيت المقدس — ؛ واستبعد القساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة ، مما أثار استياء أهل بيت المقدس من المسيحيين المحليين(٣) . وكان بعض القساوسة الأرثوذكس عند خروجهم من بيت المقدس أيام افتخار الدولة الفاطمى قد أخفوا صليب الصلبوت — أو الصليب الأعظم — الذى يقال إن المسيح عليه السلام قد صلب عليه ، ولكن أرنولف أجبرهم عند عودتهم على

---

(1) Richard: Le Royaume Latin, p. 93.

(2) Raymond d'Agiles, p. 302.

(3) Runciman, op. cit, I. p. 294.

إظهاره[١] . ولم يعد أمام الأرثوذكس فى بيت المقدس سوى قبول ذلك الوضع الجديد بعد أن تفرق زعماؤهم الدينيون، وأصبح من المستحيل عليهم تعيين بطرق لهم يستطيع الصمود أمام البطرق الكاثوليكى الجديد[٢] .

(1) Raymond d'Agiles. p. 302.
(2) Michaud : op. cit. I, p. 438.

الفصل الثالث

إتمام غزو فلسطين

احتلال نابلس :

بعد أن استقرت الأمور للصليبيين فى بيت المقدس على النحو الذى وضحناه ، صارت الخطوة التالية أمامهم هى الاستيلاء على بقية مدن فلسطين ، حيث لم يمتلكوا منها حتى ذلك الوقت سوى بيت المقدس وبيت لحم واللد والرملة ويافا[1] . ويبدو أن الصليبيين لم يصادفوا صعوبات كبيرة فى تلك المهمة ، لأن سقوط بيت المقدس أحدث موجة من الرعب فى نفوس أهالى المدن والقرى المجاورة ، فضلا عن خلو تلك المدن من وسائل الدفاع . وكان أن أسرع أهالى نابلس إلى الاستسلام ، وأرسلوا وفداً إلى الصليبيين يدعونهم لتسلم المدينة ، فتسلم تنكرد نابلس فى غير صعوبة فى أواخر يوليو سنة ١٠٩٩[2] .

ولم يكد تنكرد يفرغ من تلك المهمة ، حتى تلقى رسالة عاجلة من جودفرى بوايون فى ٤ أغسطس ـ الذى كان فى بيت المقدس ـ يطلب منه التوجه مباشرة صوب شاطىء البحر للتأكد من صحة الأخبار القائلة بأن حملة فاطمية وصلت من مصر إلى أرض فلسطين . لذلك أسرع تنكرد ومعه فرسانه إلى قيسارية ، ومنها اتجهوا جنوبا على امتداد الشاطىء حتى الرملة للبحث عن الحملة الفاطمية ، حتى عثروا على عدد كبير من الكشافين الفاطميين فيما بين يافا والرمله ، فقبضوا عليهم وعرفوا منهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً على رأسه الوزير الأفضل فى طريقه

(1) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 197.
(2) Gesta Francorum p. 209 & Guibert de Nogent; p. 304.

فعلا إلى عسقلان لاسترداد بيت المقدس . وفى الحال أرسل تنكرد رسالة عاجلة إلى جودفرى بوايون يطلب منه الحضور بسرعة ومعه كافة مقاتلى الصليبيين[١] .

موقعة عسقلان ١٢ أغسطس ١٠٩٩ :

والواقع أن الوزير الأفضل لم يكف عن الاستعداد لمقاتلة الصليبيين منذ أن سمع بزحفهم على بيت المقدس، فجمع رجاله وخرج من مصر ليحول دون استيلائهم عليها ، ولكنه وصل عسقلان فى ٤ أغسطس « وقد فات الأمر » ، أى بعد أن استولى عليها الصليبيون بعشرين يوما[٢] . وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد فى وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام ، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة . ولم يسع الأفضل عند وصوله عسقلان سوى أن يرسل « رسولا إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه »[٣] .

ولكن يبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديراً فى ميدان الحرب بقدر ماهو معروف عنه من مهارة سياسية وإدارية ؛ إذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله إلى عسقلان أضاع وقتاً ثميناً « ينتظر الأسطول فى البحر والعرب »[٤] . وفى الوقت الذى كان الأفضل منتظراً فى عسقلان اكتشف الصليبيون أمره فبادروا

---

(1) Gesta Francorum p. 209.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٣ . (Rec. Hist, Orient III)

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٥٢٠ (Rec Hist Orient III) & وابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

وجدير بالذكر أن أبا المحاسن يقول : إن الأفضل جد فى السير حتى وصل إلى القدس ثانى يوم فتحه « فقصده الفرنج وقاتلوه فلم يثبت لهم ودخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه عدد كبير » على أنه لا يوجد فى بقية المراجع ما يؤيد رواية أبى المحاسن من أن الأفضل قصد بيت المقدس أولا ثم ارتد عنها إلى عسقلان (أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩) .

بالهجوم لأنه خير وسائل الدفاع[١]. ولم يلبث أن أسرع جودفرى بوايون فى الانضمام إلى تنكرد ، فخرج من بيت المقدس يوم ٩ أغسطس ومعه البطرق أرنولف وروبرت دى فلاندرز ، وقصدوا الرملة حيث تأكدوا من وصول الفاطميين إلى عسقلان . وبعد قليل لحق ببقية القوى الصليبية روبرت النورمندى وريموند الصنجيلى ومعهما رجالهما[٢].

ولم يكد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة فى ١٠ أغسطس حتى أخذوا يزحفون جنوباً فى اتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير[٣]. وفى المعركة التى دارت بين الطرفين فى ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين وتشتت شملهم بعد قليل ، حتى أن بعضهم لم يجد مفراً سوى البحر ، فألقوا بأنفسهم فى اليم حيث غرقوا ؛ فى حين احتمى البعض الآخر « بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه » . أما الوزير الأفضل فقد هرب إلى عسقلان ومعه بعض رجاله ومنها ركبوا سفينة فى البحر فارين إلى مصر . وهكذا « تمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر »[٤].

ومن الواضح أن النصر المعنوى والأدبى الذى حققه الصليبيون فى عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التى غنموها[٥] فكما أن الهزيمة التى حلت بكربوغا على أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٨ أخرجت السلاجقة من معركة الشام، فكذلك أدى

(1) Stevenson : op cit, I, p 35

(2) Gesta Francorum, p 11? & Guillaume de Tyr. p 380

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٤ .

Gesta Francorum pp 217-219 & Albert d'Aix p p 497

(5) Cam Med Hist vol 5 p 297

انتصار الصليبيين فى موقعة عسقلان إلى القضاء على هيبة الفاطميين بفلسطين، فلم يجرؤوا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين، وقبعوا فى مصر يشاهدون مدن فلسطين وهى تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى الغزاة. وبعبارة أخرى فقد أصبحت يد الصليبيين طليقة فى فلسطين منذ انتصارهم فى عسقلان، مثلما صارت يدهم طليقة فى شمال الشام عقب انتصارهم على كربوغا[1].

وكان أن بدأ جردفرى بوايون بحصار عسقلان نفسها، فوجد أهل عسقلان أنفسهم أمام الأمر الواقع، وأرادوا الإستسلام فوراً دون مقاومة، لولا أنهم خشوا أن يحل بهم ما حل بأهل بيت المقدس فى الحرم الشريف من قتل وذبح. وكان أهل عسقلان قد لمسوا ما فعله ريموند الصنجيلى (Saint - Gilles) مع افتخار الدولة — القائد الفاطمي الذى احتمى مع فريق من رجاله فى محراب داود ساعة سقوط بيت المقدس —، إذ أمنهم ريموند حتى خرجوا سالمين إلى عسقلان[2]. لذلك وثق أهل عسقلان فى ريموند دون غيره من زعماء الصليبيين، وأرسلوا إليه يطلبون منه تسلم بلدهم بشرط أن يؤمنهم على أرواحهم وحرياتهم[3]. وعندما قبل ريموند الصنجيلى الدعوة، خشى جودفرى أن يلجأ ريموند إلى إنشاء إمارة لنفسه على شاطىء فلسطين فى مواجهة بيت المقدس، مما يحرم دولة بيت المقدس الناشئة من شواطئها الطبيعية على البحر، وبالتالى يقطع الصلة بينها وبين الغرب. لذلك طلب جودفرى من ريموند أن يتخلى عن عسقلان لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس، فاستاء ريموند الصنجيلى وفضل أن تبقى عسقلان فى أيدى المسلمين عن أن يستولى عليها جودفرى. وهكذا انسحب ريموند، وحرص بقية الأمراء على الانسحاب معه، بعد أن أوعز إلى أهل عسقلان

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 175.

(2) Setton : op. cit; I, p. p. 337.

(3) Runciman : op. cit; I, p. 297.

بالثبات والمقاومة . أما جودفرى فقد وجد نفسه وحيداً أمام عسقلان التى اشتد أهلها فى المقاومة ، فاضطر إلى أن ينسحب بدوره من أمامها[١] .

وفى تلك الأثناء انصرف ريموند الصنجيلى نحو أرسوف محاولا الاستيلاء عليها عن طريق تأمين أهلها ، ولكن جودفرى ظل واقفاً له بالمرصاد، فلحق به وأصر على أن أرسوف هى الأخرى تتبع بيت المقدس ؛ وللمرة الثانية انسحب ريموند الصنجيلى نحو الشمال بعد أن حرض أهل أرسوف على المقاومة وعدم الاستسلام لجودفرى[٢] . ومن هذا يتضح كيف أدى انقسام الصليبيين على أنفسهم، والمنافسة بين زعمائهم، إلى عدم تمكينهم عندئذ من الاستيلاء على موانى فلسطين، بل إن بلداً مثل عسقلان كان من الممكن أن يستولى عليه الصليبيون فى سهولة سنة ١٠٩٩ لم يستطيعوا امتلاكه بعد ذلك إلا سنة ١١٥٣ !! . وطوال تلك السنوات ظلت عسقلان قاعدة للقوات المصرية ، تخرج منها الحملات للاغارة على بلاد الصليبيين القريبة . وربما كان المسئول عن كل ذلك هو تقاعس الصليبيين عن إقامة ملكية صليبية مهيبة الجانب فى بيت المقدس ، يطيعها الجميع ويأتمرون بأمرها[٣] .

ولم يلبث جودفرى أن ارتاح من منافسة بقية الأمراء المناوئين بعد أن أبحر كثير من الصليبيين عائدين إلى الغرب ، معتقدين أنهم أوفوا بقسمهم الصليبى وأن مهمتهم انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس[٤] . وعلى رأس هؤلاء كان روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز ، ومعهما جميع أتباعهما . أما الموانى الهامة فى أواسط بلاد الشام — وهى عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس —

---

(1) Raoul de Caen (Hist. Occid, III). p. 703.

ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين لم يتخلوا عندئذ عن عسقلان إلا بعد أن « بذل لهم أهلها قطيعة اثنى عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار ثم عادوا إلى القدس والله أعلم » .

(2) Albert d'Aix, p. 498.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 180.

(4) Stevenson : op. cit, p. 36.

فقد بقيت فى أيدى المسلمين ، إذ سيطر الفاطميون أو أتباعهم على الموانى الأربعة الأولى، فى حين كانت طرابلس فى قبضة بنى عمار . ومع ذلك فإنه يبدو أن موقعة عسقلان كان لها رد فعل قوى ، بحيث لم تتردد السلطات الإسلامية الحاكمة فى تلك الموانى فى تقديم كافة التسهيلات للصليبيين ليحصلوا على ما يلزمهم من مواد تموينية ، وذلك قبل أن يستولى الصليبيون على جبلة واللاذقية[١] .

أما عن ريموند الصنجيلى ، فبعد أن وصل إلى اللاذقية ، اختار أن يبقى فى شمال الشام ليعمل — بمساعدة حلفائه البيزنطيين — على الحد من قوة بوهيموند أمير أنطاكيه . ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يخفى علينا أن عودة كثير من الصليبيين إلى الغرب الأوربى فى تلك المرحلة — أى عقب سقوط بيت المقدس مباشرة — ترك الدولة الجديدة التى ولدت فى الشرق فى حاجة ماسة إلى الرجال والمقاتلين ، فى الوقت الذى أحاط بها أعداؤها من كل جانب[٢] .

تنكرد واحتلال إقليم الجليل :

وأخيراً لم يبق إلى جانب جودفرى بوايون سوى تنكرد؛ ذلك الأمير النورمانى الذى لم يتعجل العودة إلى إيطاليا وظل يعمل فى فلسطين تحت رآسة جودفرى . وكان أن عهد جودفرى إلى تنكرد بفتح إقليم الجليل واحتلاله ، على أن يعطيه إياه ويصبح أميراً عليه تابعاً لجودفرى[٣] .

وكان إقليم الجليل قبيل وصول الصليبيين إلى فلسطين موضع نزاع وتنافس بين دقاق صاحب دمشق والفاطميين ، ولكن دقاق لم يتمكن من احتلال ذلك

(1) Albert d'Aix, p. 499–500.

(2) Iorga: Hist. des Croisades, p. 67.

(3) Raoul de Caen, p 703 Guillaume de Tyr, I, p. 384.

البحر المتوسط
بعرين
صفد
مخاضة الأحزان
عكا
حيفا
بحيرة طبرية
قرون حطين
صفورية
طبرية
اللوبيا
الصنبرة
الناصرة
عتليت
اليرموك
تل طوباه
نهر الأردن
بيسان
قيسارية
إقليم الجليل

الإقليم عقب هزيمة الفاطميين فى عسقلان ، مما سهل مهمة تنكرد[1] . وهكذا استطاع الصليبيون فتح إقليم الجليل بسرعة ، على الرغم من قلة المقاتلين وحاجة تنكرد إلى الرجال ، فاحتلوا مدينة طبرية فى سهولة بعد أن هرب منها أهلها المسلمون وظلت فيها أقلية من السريان ، ثم حصن تنكرد مدينة طبرية تحصيناً قويا حتى يتخذها مركزاً لإمارته الجديدة[2] . وفى الجنوب الشرقى من الجليل احتل تنكرد بيسان ، وهى مدينة حصينة ذات موقع هام يمكن الإشراف منها على الضفة الشرقية لنهر الأردن . وطوال تلك الأثناء لم يكف تنكرد عن القيام بإغارات عدوانية على البلدان الإسلامية المجاورة ؛ فتارة يعتدى على الجهات التابعة لسلاجقة دمشق ؛ وأخرى يعتدى على المدن والقرى التابعة للدولة الفاطمية[3] .

على أن تناقص الصليبيين يوماً بعد يوم جعل موقف جودفرى وتنكرد فى غاية الخطورة ، إذ لم يبق لديهما سوى بضعة مئات من الجند ؛ فى حين أخذ الباقون يبحرون بالجملة عائدين الى بلادهم فى غرب أوربا . وهكذا عاشت دولة بيت المقدس الصليبية فى تلك المرحلة على ذكرى انتصارات الصليبيين فى أنطاكية وبيت المقدس وعسقلان ، فلم تستطع أن تجعل احتلالها لفلسطين فعلياً ، واكتفى الصليبيون بوضع حاميات فى المدن الرئيسية مثل بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرة . أما الأراضى والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن ، فقد ظلت فى أيدى أصحابها العرب . ويمكن تشبيه المراكز الصليبية فى الشام عندئذ بالجزر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المسلوبة من الدخلاء الغاصبين[4] .

(1) Runciman : op. cit, I, p. 304.
(2) Albert d'Aix, p. p. 217_218.
(3) Guillaume de Tyr, I. p. 384.
(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 181.

الاتفاقيات التجارية بين الصليبيين وموانى فلسطين العربية :

لم يكن للدولة التى أقامها الصليبيون فى بيت المقدس سوى منفذ واحد على البحر ، هو ميناء يافا . ولما كانت هذه الدولة محاطة بأعداء من الداخل ، فقد صار لزاما على جودفرى بوايون أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجي عن طريق البحر ، ولذلك أخذ يفكر فى الاستيلاء على أرسوف ـ شمالى يافا ـ وهى التى لم يستول عليها الصليبيون فى أغسطس سنة ١٠٩٩ نتيجة للنزاع بين جودفرى وريموند الصنجيلى[1] . على أن إمكانيات جودفرى كانت قد ضعفت كثيراً ، وتناقص رجاله بشكل ملحوظ ، فى الوقت الذى افتقر إلى أسطول يحكم الحصار على أرسوف من ناحية البحر . ولذلك فشلت الحملة الصغيرة التى أرسلها جودفرى فى ديسمبر سنة ١٠٩٩ للاستيلاء على أرسوف وعادت تجر أذيال الفشل مما يشهد على مدى ضعف الصليبيين فى بيت المقدس عندئذ[2] .

أما جودفرى فاكتفى بأن ترك فى الرملة ـ على مقربة من أرسوف ـ بضعة مئات من رجاله لتهديد أرسوف بين حين وآخر ، وشن غارات عدوانية على ضواحيها . وكان أن استطاعت هذه القوة الصليبية أن تظفر فى فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالى أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمى فى مزارعهم القريبة ، فانتقم الصليبيون من أسرى المسلمين انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[3] . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية ، فإن أهلها أرسلوا سفارة عاجلة إلى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، وعندئذ اكتفى الأفضل بأن بعث إليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندى . وقد تشجع أهل أرسوف

(1) Stevenson : op. cit, p 39.

(2) Albert d'Aix, p. p. 507—511.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 182

عند وصول تلك النجدة إليهم عن طريق البحر وشرعوا فى القيام بهجوم مضاد ضد الصليبيين ، ولكنهم وقعوا فى كمين نصبه الصليبيون فى مارس سنة ١١٠٠ ، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، وأنه لا مفر من الدخول فى تبعية الصليبيين ، حتى يتمكنوا من فلاحة أراضيهم القريبة . وهكذا انتهى الأمر بأن ذهبت سفارة من أهل أرسوف إلى جودفرى بوايون فى أواخر مارس سنة ١١٠٠ تحمل إليه مفاتيح أبواب المدينة وقلاعها ، وتعرض عليه الدخول فى تبعيته ودفع جزية مالية رمزاً لهذه التبعية(١) .

وفى تلك الأثناء ، دأب الصليبيون منذ يناير سنة ١١٠٠ على العمل فى تحصين يافا وتقوية استحكاماتها . وساعد جودفرى فى هذه المهمة الأسطول البيزى(٢) . ولم تلبث يافا بعد تحصينها أن صارت لها السيطرة على شاطىء فلسطين بأكمله ، كما فاقت فى قوتها مينائى عسقلان وعكا التابعين للدولة الفاطمية (٣) . وبعبارة أخرى فإن يافا أصبحت مركزاً لنشاط تجارى وحربى كبير بعد أن صارت الميناء الرئيسى لدولة بيت المقدس الصليبية ، فقصدتها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم المسيحى ، وبخاصة من جنوا والبندقية وبيزا ، لإحضار الحجاج من ناحية وإمداد بيت المقدس بما احتاجت إليه من إمدادات من ناحية أخرى (٤) .

على أن تحصين يافا على ذلك الوجه سبب متاعب خطيرة للممتلكات التابعة للدولة الفاطمية بجنوب فلسطين ، إذ اتخذ الصليبيون يافا مركزا لشن إغارات مستمرة على تلك الممتلكات . وهكذا بدأ اليأس يدب فى قلوب أهل المدن الإسلامية

(I) Albert d'Aix p. p. 513–514.

(2) Heyd : op. cit. I, p. 135.

(٣) أشار ابن الأثير إلى جهود جودفرى فى تحصين يافا فقال : إنه «عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكرى (تنكرد)» . الكامل : حوادث ٤٩٤ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I. p. 183. &
Heyd : op. cit, I, p. 136.

فى فلسطين بعد أن تأكدوا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فلم تمض مدة طويلة حتى أعلن حكام عسقلان وقيسارية وعكا تبعيتهم لدولة الفرنجة ، ودفعوا جزية مشتركة شهرية قدرها خمسة آلاف دينار رمزاً لتلك التبعية، فضلاً عما تعهد المسلمون بتقديمه من مواشى وغلال وزيوت وغيرها من الفروض العينية[١]. كذلك سارع كثير من مشايخ العرب وزعمائهم فى الجهات الداخلية إلى عقد مثل تلك الاتفاقيات الودية مع حكومة بيت المقدس الصليبية، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم. وهنا نلاحظ أن جميع تلك الاتفاقيات التى عقدها المسلمون فى فلسطين مع جودفرى حاكم بيت المقدس سنة ١١٠٠ — سواء تلك التى أبرمتها المدن الساحلية أو شيوخ القبائل الداخلية — كان لها جانبها التجارى ، فضلا عن الجانب السياسى ، مما جعل البضائع المختلفة — من توابل وغلال وبيض وطيور ومنسوجات ومواشى — تتدفق على بيت المقدس ويافا ؛ وبذلك توافر لدولة الصليبيين فى بيت المقدس قسط وافر من الاستقرار والثبات[٢].

على أنه يلاحظ أن هذه الاتفاقيات السياسية والتجارية التى عقدت بين العرب والصليبيين فى فلسطين ، والتى حققت قسطاً من السلام المؤقت بين الطرفين ؛ لم تمتد لتشمل شئون البحر والملاحة . من ذلك ماذكره بعض المؤرخين من أن الصليبيين حرموا على عرب فلسطين أى تبادل تجارى عن طريق البحر مع بقية العالم الإسلامى . واستطاع الصليبيون أن ينفذوا خطتهم هذه عن طريق بعض الاتفاقيات التى عقدوها مع الجمهوريات الإيطالية صاحبة التفوق البحرى فى البحر المتوسط عندئذ[٣]. وقد ترتب على ذلك عدم إمكان حصول موانى فلسطين العربية على ما يلزمها من إمدادات ومؤن من دمياط والاسكندرية ؛ مما أدى

(1) Aldert d'A:x, p. 515.
(2) Albert d'Aix, p. 516.
(3) He;d: op. cit. I, p. p. 134 – 136.

إلى إضعافها ثم سقوطها فى نهاية الأمر دون عناء فى أيدى الصليبيين. وفى الوقت نفسه أفاد الصليبيون والتجار الإيطاليون من تلك السياسة لأنهم ضمنوا تركيز النشاط التجارى فى بلاد الشام فى أيديهم[١]. وكانت السفن الغربية التى تتولى حراسة شواطىء فلسطين تتصيد كافة المراكب الإسلامية الوافدة من الاسكندرية ودمياط وتونس، لتصادرها وتقتل بحارتها. ومع ذلك فإن تلك الاعتداءات البحرية على السفن الإسلامية لم تعكر صفو السلام الذى تم بين المسلمين والصليبيين سنة ١١٠٠، فأخذ عرب عسقلان يذهبون فى أمان إلى مناطق الفرنجة للمتاجرة، فى حين كان المسيحيون يقصدون عسقلان لقضاء مطالبهم دون خوف[٢].

سيطرة الفرنجة على إقليم السواد :

وهكذا غدا جودفرى بوايون على درجة من القوة وثبات المركز مكنته — بمساعدة تنكرد — من بسط سيطرته على إقليم السواد (سواد طبرية)، شرقى بحيرة طبرية، وهو الإقليم الذى كان تابعا لدقاق ملك دمشق. ذلك أن تنكرد استطاع فى مايو سنة ١١٠٠ أن يخرج على رأس مائتين من فرسان الصليبيين وألف من مشاتهم ليقوم باغارات مدمرة فى إقليم السواد، استمرت ثمانية أيام وأنزلت كثيراً من الأضرار — فى الأرواح والأموال — بأهل الإقليم من العرب[٣]. وعندما طلب أمير السواد — وهو الذى أطاق عليه الصليبيون اسم المزارع السمين — النجدة من سيده دقاق ملك دمشق، أمده الأخير بنحو خمسمائة فارس، فاستطاعت هذه القوة الصغيرة من الدماشقة أن تهاجم مؤخرة

---

(1) Runciman : op cit; I p. 310.

(2) Albert d'Aix, p. 516.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I. p. 186.

قوات تنكرد وجودفرى وأن تطلق سراح من لديهم من أسرى المسلمين. غير أن الدماشقة لم يستطيعوا مواصلة هجومهم فانسحبوا عائدين من حيث أتوا، فى حين عرج تنكرد على مدينة طبرية ليستريح فيها بضعة أيام قبل أن يقوم بهجومه التالى الذى لم يكتف فيه بتخريب إقليم السواد، وإنما أوغل حتى اقترب من دمشق نفسها[١].

وكان أن أرسل تنكرد سفارة من ستة فرسان إلى دمشق، تحمل إنذاراً إلى دقاق باعتناق المسيحية أو ترك دمشق فوراً، فاستاء دقاق من تلك الجرأة ورد عليه بأن أنذر الرسل بالقتل إن لم يعتنقوا الإسلام؛ فقبل أحدهم ذلك وأعدم الخمسة الباقون. وعندما علم جودفرى وتنكرد بذلك، خرجا على رأس جميع قواتهما، واستمر الصليبيون يعيثون فسادا فى الجهات والضياع والمزارع المحيطة بدمشق قرابة أسبوعين. وعندئذ أدرك أمير السواد أن دقاق عاجز عن حمايته، فاعترف بالتبعية لتنكرد ووافق على دفع جزية له[٢].

وعند عودة جودفرى بوايون إلى بيت المقدس عن طريق الساحل مارا بعكا وقيسارية، أسرع أمير قيسارية — بوصفه تابعا لجودفرى — إلى إقامة وليمة حافلة له. وهكذا أصبحت دولة بيت المقدس الصليبية بمثابة ملكية فرنجية إقطاعية، يحوطها عدد من الإمارات الإسلامية التابعة لها[٣].

---

(1) Runciman : op. cit, I, p. 310—311.
(2) Albert d'Aix, p. p. 518—519.
(3) Grousset : op. cit, p. 187.

الفصل الرابع

بطرقية بيت المقدس

دايمبرت البيزى والحروب الصليبية :

كان من المتوقع عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أن تقوم بها حكومة دينية يرأسها أحد رجال الكنيسة ، حيث أن البابوية هى التى دعت للحرب الصليبية وحددت للصليبيين الهدف الذى وصلوا إليه فعلا . ولكن ظهر أنه من الصعب تحقيق هذه الفكرة بعدوفاةالمندوب البابوى أدهمار ، إذ لم توجد بين صفوف الصليبيين بالشام شخصية كنسية لها من المكانة والنفوذ مايساعد على تحقيق ذلك الحلم . ومع ذلك فإن تلك الفكرة لم تمت تماما ، لاسيما وأن جودفرى بوايون لم يتخذ لقب ملك وإنما اكتفى بلقب « حامى بيت المقدس» ، وبذلك استبعدت على الأقل فكرة قيام ملكية علمانية فى بيت المقدس . وكان ذلك هو الموقف فى فلسطين عندما وصل إلى الشام دايمبرت رئيس أساقفة بيزا (١).

والمعروف أن البيازنة قاموا بدور ملحوظ فى الحروب الصليبية منذ بدايتها ، فشاركوا مشاركة فعالة فى حرب المسلمين بأسبانيا طوال القرن الحادى عشر (٢). ثم كان أن وقف دايمبرت رئيس أساقفة بيزا إلى جانب البابا أوربان الثانى فى مشروعه الصليبى الكبير لاسترداد الأراضى المقدسة بالشرق. وسرعان ما أثبت دايمبرت كفاية سياسية ومهارة نادرة جعلته يحتل مكانة ظاهرة فى

---

(1) Michaud : op. cit, II, p. 9

(2) Heyd : op. cit, I, p. p, 121 – 122.

الأحداث التى أخذت تجرى عند نهاية القرن الحادى عشر . ذلك أنه قام بدور المندوب البابوى فى الحرب الصليبية التى شنها الفونس السادس ملك قشتالة على المسلمين فى أسبانيا . ويبدو أنه نجح فى القيام بذلك الدور ، الأمر الذى جعل البابا أوربان الثانى يعينه مندوباً بابويا فى الأراضى المقدسة بدلا من أدهمار الذى توفى فى أنطاكية ، وذلك على الرغم مما أحاط بدايمبرت من شائعات عن عدم استقامته وانحراف مسلكه[١] . ولم يلبث أن خرج دايمبرت على رأس أسطول بيزى من مائة وعشرين سفينة فى صيف سنة ١٠٩٩ متجها نحو الشام . ومن الواضح أن جمهورية بيزا كانت تقف بأجمعها خلف دايمبرت ، إذ رأى البيازنة فى المهمة الجديدة التى أسندت إليه فرصة طيبة للحصول على قسط من الامتيازات ، ولا سيما إذا استطاع دايمبرت أن يسبق الصليبيين إلى فتح بيت المقدس . ولكنه لم يكد يصل على رأس سفنه إلى اللاذقية حتى كان كل شىء قد انتهي باستيلاء الصليبيين فعلا على بيت المقدس فى ١٥ يوليو [٢] .

ومع ذلك فإن بوهيموند النورمانى أمير أنطاكية أسرع إلى الترحيب بالبيازنة ، وأراد أن يستغل تلك القوة الكبيرة فى بسط نفوذه على الأطراف الشمالية لبلاد الشام ؛ لاسيما وأن بوهيموند كان مفتقراً إلى قوة بحرية تمكنه من تقويض النفوذ البيزنطى من الجهات الساحلية[٣] ، حيث استطاع بعض حلفاء الدولة البيزنطية مثل الأمير الإنجليزى إدجار ايثلنج Edgar Aetheling وريموند الصنجيلى السيطرة على اللاذقية . لذلك عقد بوهيموند اتفاقاً مع دايمبرت للاستيلاء على اللاذقية ذات الموقع البحرى الهام . وتعتبر هذه الاتفاقية الخاتمة الأولى من سلسلة الاتفاقيات

---

(1) Runciman I, p. 299.

(2) Grousset : op. cit, I, p. 191

(3) Albert d'Aix, p. p. 500_501.

التى عقدتها بيزا مع الصليبيين فى الشرق لتحقيق مكاسب واحتكارات تجارية [١].

وفى ذلك الوقت وصل ريموند الصنجيلى وروبرت دى فلاندرز وروبرت النورمانى إلى جبلة ، فاستاءوا استياء بالغاً لهجوم بوهيموند ودايمبرت على اللاذقية ، لأن ريموند بالذات كره أية زيادة لنفوذ بوهيموند ، فضلا عما يسببه الهجوم على اللاذقية من تعكير صفو العلاقات بين الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية ؛ فى الوقت الذى كان الصليبيون دائماً أبداً فى حاجة إلى معونة البيزنطيين [٢] ولم يكن من الحكمة مطلقاً أن يبدأ المندوب البابوى دايمبرت أعماله فى الشرق بالعدوان على الإمبراطورية البيزنطية ، مما يزيد شقة الخلاف بين الشرق والغرب المسيحيين ، وبين الدولة البيزنطية والصليبيين فى الشام ، ثم بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية .

وإزاء ذلك الاستياء الذى أبداه ريموند وزميلاه ، اضطر بوهيموند ودايمبرت إلى رفع الحصار عن اللاذقية ، فدخلها ريموند وأعوانه ، حيث رحب به الأهالى ورفعوا علمه إلى جانب علم الأمبراطور البيزنطى [٣] . وبعد ذلك أبحر روبرت دى فلاندرز وروبرت النورمانى عائدين إلى الغرب عن طريق القسطنطينية ، فى حين بقى ريموند الصنجيلى فى اللاذقية [٤] .

---

(1) Heyd : op. cit. I. p. 135.

(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 218.

(3) Runciman : op. cit, I. p. 301.

(4) Guibert de Nogent, p. 232.

دايمبرت وبوهيموند فى بيت المقدس

على أنه يلاحظ أن بوهيموند الأنطاكى لم يحقق حتى ذلك الوقت قسمه الصليبى الخاص بزيارة بيت المقدس ، لذلك لم يكد يصل إلى أنطاكية عائداً من حصار اللاذقية حتى اصطحب دايمبرت واتجه الإثنان نحو بيت المقدس . ولا يستبعد أن يكون بوهيموند — بعد أن لمس المساعدة التى قدمها له البيازنة ضد البيزنطيين عند اللاذقية — قد وعد دايمبرت بمساندته فى المناداة به بطرقا على بيت المقدس. ومن يدرى ، فقد تكون البطرقية هى الخطوة الأولى للوصول بدايمبرت إلى حكم بيت المقدس نفسها وإقامة حكومة ثيوقراطية فيها ، ولاسيما وأن جودفرى لم يعتمد فى حكمه على حق وراثى شرعى ، فضلا عن ضعفة واعتلال صحته . ولما كان بلدوين أمير الرها قد شغل هو الآخر بإمارته عن الحج إلى بيت المقدس ، فقد دعاه بوهيموند لمصاحبته ، هو ودايمبرت ، فوعد باللحاق بهما [1]

وكان أن خرج بوهيموند ودايمبرت من اللاذقية، فاتبعوا الطريق الساحلى حتى يكونا على مقربة من الأسطول البيزى الذى سار بحذائهما . وبعد أن مرا بجبلة التى كانت تابعة لأمير طرابلس ، أدركا بانياس ، حيث التقى بوهيموند ودايمبرت ببلدوين ، ثم استأنف الأصحاب الثلاثة سيرهم جنوبا، ومعهم عدد كبير من أتباعهم الرجال والنساء ، حتى قدر موكبهم ببضعة آلاف [2] . وقد مروا بأنطرطوس ، وصادفوا فى طريقهم كثيراً من المتاعب بسبب اشتداد البرد فى جبال لبنان من جهة ، وبسبب الشعور العدائى الذى قوبلوا به والذى حرمهم من الحصول على مايلزمهم من تموين من جهة أخرى. وهكذا حتى وصلوا

---

(1) Setton : op. cit I, p, 377.
(2) Fulcher of Chartres, p. . 322 – 326.

إلى طرابلس فقدم لهم ابن عمار صاحب المدينة ما كانوا فى حاجة إليه من ميرة وغذاء[١] . على أنه لا يوجد فى المراجع مايثبت أن حكام بيروت وصور وعكا التابعين للخلافة الفاطمية — فعلوا مثلما فعل صاحب طرابلس ، فتعرض موكب الصليبيين مرة أخرى للعناء بسبب صعوبة الحصول على التموين ، واستمر الأمر على ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس فى ٢١ ديسمبر سنة ١٠٩٩[١] .

وقد سر جودفرى عندما رأى ذلك العدد الضخم من الصليبيين يصلون إلى بيت المقدس ، لأنه كان فعلا فى حاجة ماسة إلى الرجال ، وصار يأمل فى إقناع بعض أولئك الصليبيين بالبقاء فى بيت المقدس بعد الحج . ويبدو أنه نجح إلى حد كبير فى ذلك ، إذ اختار بعض الصليبيين أن يظلوا فى خدمة جودفرى عقب عودة بوهيموند وبلدوين إلى الشمال[٢] .

على أن وصول بوهيموند وبلدوين ودايمبرت إلى بيت المقدس أمر له أهمية وخطورة فى تاريخ الحركة الصليبية ، لأن هذا الحدث يشير إلى نهاية الفترة القلقة التى أعقبت وصول الصليبيين إلى الشام ، وهى الفترة التى تطلبت وضع الفتوح الصليبية فى أطار معين ثابت . هذا إلى أن وصول أولئك الزعماء الثلاثة سويا أثار الشعور بوجود نوع من الترابط أو التفاهم بينهم ، فضلا عن أن ظهور دايمبرت والبيازنة على مسرح بيت المقدس جاء إعلانا لسيادة الغربيين على البحر ودليلا على أن الصلة بين الفرنجة فى الشام وبين العالم اللاتينى الغربى لن تنقطع[٤] .

---

(1) Archer : The Crusades, p. p. 98—99.
(2) Fulcher of Chartres, I, p. p. 326 – 332.
(3) Runciman : op, cit, I,p. 303,
(4) Grousset : Hist, des Croisades, I, p 193.

دايمبرت بطريرك بيت المقدس :

وكانت المشكلة الأولى التى صار على زعماء الصليبيين حلها هى تحديد العلاقة بين جودفرى حامى بيت المقدس من ناحية ، وأميرى أنطاكية والرها من ناحية أخرى . فهل من حق حاكم بيت المقدس أن يباشر نوعا من الأولوية والرآسة على أميرى أنطاكية والرها ؟ إن جودفرى بوايون لم يتمتع بلقب ملك ، وإنما اكتفى — كما سبق أن ذكرنا — بلقب متواضع هو حامى بيت المقدس؛ وهذا اللقب فيما يبدو كان لا يمكن أن يخوله حق الزعامة على بقية الأمراء الصليبيين بالشام؛ مما جعل العلاقة بين الجانبين تتميز بنوع من الغموض والميوعة حتى قيام مملكة بيت المقدس الصليبية فيما بعد[1] .

على أنه يلاحظ من جهة أخرى أن مجىء دايمبرت إلى بيت المقدس عاق — ولو إلى حين — التطور نحو قيام ملكية صليبية فيها . حقيقة إن هذا التطور كان طبيعياً وأمراً ضرورياً فى دولة اعتمدت فى بقائها على الحرب وعاشت فى خوف دائم بسبب شعورها بأنها غريبة وسط مجتمع معاد يحيط بها . ولكن كان لابد لكى يتم هذا التطور من أن يكون بطرق بيت المقدس ضعيفاً ، حتى لا يقف فى طريق السلطة العلمانية ونموها. وهنا تبدو أهمية وصول دايمبرت فى ذلك الوقت بالذات ، لأنه أعلن فى بيت المقدس أن انتخاب أرنولف مالكورن بطرقاً عمل باطل وغير قانونى ، مما أدى إلى عزله، وشغور كرسى بطرقية بيت المقدس. ومن الواضح أن دايمبرت لا بد وأنه رسم تلك الخطة مع بوهيموند أثناء الطريق من أنطاكية إلى بيت المقدس، فاتفقا على الضغط على جودفرى الذى كان محتاجا إلى معونة البيازنة البحرية من ناحية وإلى مساعدة بعض الفرسان الذين يمكن أن يمده بهم بوهيموند من ناحية أخرى[2] .

---

(1) Richard ; Le Royaume Latin de Jerusalem, p. p. 92 – 93.
(2) Setton : op. cit. I, p. p. 377.

وهكذا أتيحت الفرصة لدايمبرت ، فاعتمد على رجاله البيازنة فضلا عن بوهيموند، حتى تم انتخابه بطرقاً على بيت المقدس في أواخر ديسمبر سنة ١٠٩٩ (١) . ولم يلبث أن ركع جودفرى وبوهيموند أمام البطرق الجديد — مثلما يركع الأفصال الإقطاعيون أمام سيدهم — طالبين منه تقليدهم حكم بيت المقدس وأنطاكية على التوالى (٢) . ومعنى ذلك أن بطرق بيت المقدس أصبح السيد الأعلى فى البلاد المقدسة ، وممثل المسيح فيها ، وذلك بوصفه بطرقاً على تلك المدينة من ناحية ، ومندوباً بابوياً اختاره البابا — وهو خليفة القديس بطرس — لينوب عنه فى الأرض المقدسة من ناحية أخرى . وبذلك صار على بقية الأمراء العلمانيين أن يدينوا له بالطاعة والاحترام وأن يتسلموا منه تقاليدهم الخاصة بقيامهم فى حكم إماراتهم .

ثم إن بطرق بيت المقدس الجديد — وهو الرجل القوى الذى ساندته أساطيل بيزا وجيوش بوهيموند — لم يجد أمامه فى بيت المقدس أميراً علمانياً قوياً يحد من نفوذه ويوقفه عند حده ؛ لأن جودفرى نفسه كان معروفاً بضعفه وطيبته وحرصه على استرضاء الكنيسة ورجالها ، وربما ظن أن هذا هو الطريق الوحيد لإكساب حكمه صبغة شرعية ثابتة (٣) . وخلاصة القول، فإن اختيار دايمبرت بطرقاً على بيت المقدس جاء مظهراً لقيام حكومة ثيوقراطية جديدة فى المدينة المقدسة (٤) .

وبعد أن تمت تلك الخطوة التى غيرت وجه الدولة الصليبية الجديدة فى بيت المقدس ، عاد بلدوين وبوهيموند إلى أمارتيهما فى الشمال فى أول يناير سنة ١١٠٠ . وقد حاول دقاق ملك دمشق أن يظفر بالأميرين عند بعلبك ، ولكنهما أفلتا من قبضته وعادا سالمين (٥) . وربما لم يكن لهذه المحاولة فى حد ذاتها أهمية سوى أنها

(1) Gesta Francorum. (Hist. Occid. III), p. 519.

(2) Albert d'Aix, p. p 511-512 & Guillaume de Tyr, p. 387.

(3) Michaud : op. cit, II, p p 9—10.

(4) Grousset : op. cit. I, p. 195.

(5) Guillaume de Tyr p. p. 387—388

نبهت الصليبيين إلى أن بقاء دمشق وعكا وغيرهما من المدن الواقعة فى وسط بلاد الشام بأيدى المسلمين ، كان يشكل خطراً جسيما على الصليبيين ، ويفصل بين الإمارات الصليبية فى شمال الشام ، وبيت المقدس فى الجنوب . أما بوهيموند فقد كسب كثيراً من وراء الدور الذى قام به فى مساعدة دايمبرت ، لأنه ضمن تأييد بطرق بيت المقدس له فى حالة تعرضه لهجوم من جانب الإمبراطور البيزنطى . وعلى أساس هذا التأييد ، اتخذ بوهيموند لنفسه لقب « أمير » أنطاكية ، كما اتخذ ابن أخته تنكرد لقب « أمير » الجليل ، إشارة منه إلا أنه لا يتبع جودفرى ، وإنما دايمبرت[1] .

ولم يلبث أن استحكم النزاع فى بيت المقدس بين جودفرى ودايمبرت فى فبراير سنة ١١٠٠ ، وذلك عندما أصر الأخير على أن يأخذ جزءاً من يافا وجزءاً من بيت المقدس[2] . وقد وافق جودفرى على ذلك ، بل لقد وافق على أن يستولى البطرق على حكم المدينتين بعد وفاته أو بعد أن يستولى جودفرى على مدينتين بدلهما من المسلمين . ولكن دايمبرت كان لا يستطيع الانتظار وأخذ يتعجل القضاء على كل أثر لنفوذ السلطة العلمانية فى بيت المقدس[3] .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفرى بوايون لم يلبث أن مرض بالحمى ، ثم مات بعد بضعة أشهر ، مما أثار مشكلة اختيار من يحل محله فى المطالبة بحقوقه وسلطاته فى بيت المقدس[4] .

---

(1) Runciman : op. cit, I, p. 306.

(2) Michaud : op. cit; II, p. 10.

(3) Guillaume de Tyr, p. p. 388 - 390.

(٤) أجمعت المراجع الغربية والصليبية على أن جودفرى توفى بالحمى ، وهذا يخالف الرواية التى ذكرها ابن الأثير وهى أنه مات مقتولا بسهم أصابه أثناء حصار عكا (الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

تنكرد وفتح حيفا :

أما عن المسلمين فى المدن الساحلية ، فقد قاموا فى تلك الأثنـاء بإغارات من أرسوف وعسقلان على المراكز الصليبية القريبة . ولم تقو الحامية التى تركها الصليبيون فى الرملة على الصمود أمام تلك التهديدات ، فأسرعت إلى طلب المعونة من جودفرى . وقد أسرع جودفرى بوايون — بمساعدة البيازنة — إلى تحصين يافا فى أوائل سنة ١١٠٠ . ويبدو أن تلك التحصينات التى قام بها الصليبيون ، بالإضافة إلى ما رآه المسلمون من مجيء بوهيموند ودايمبرت إلى بيت المقدس على رأس قوة كبيرة ، هى التى جعلت أمراء أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا يسارعون إلى طلب الصلح مقابل أموال معينة تعهدوا بدفعها (١) .

ولم يلبث أن وصل إلى يافا فى يونيه سنة ١١٠٠ أسطول بندقى من مائتى سفينة . ومن الواضح أن هذه الحملة البندقية الضخمة إنما أتت إلى الشرق للمشاركة فى الحرب الصليبية من ناحية ولتحقيق ما يمكن تحقيقه من مكاسب للبندقيـة فى الشرق من ناحية أخرى ، وذلك أسوة بما فعلته بقية الجمهوريات الإيطالية التجارية فى عصر الحروب الصليبية (٢) . وقد عرض البنادقة خدماتهم على دولة بيت المقدس الصليبية للمساهمة فى حرب المسلمين ، بشرط أن يكون لهم الثلث فى كل مدينة يساعدون فى الاستيلاء عليها ، ليتخذوا من ذلك الثلث حياً تجاريا لهم يباشرون منه نشاطهم التجارى . فإذا نجحوا فى الاستيلاء على طرابلس كانت المدينة بأكملها لهم ، مع تعهدهم بدفع ضريبة سنوية رمزاً للتبعية لدولة بيت المقدس . وفى مقابل كل ذلك وضع البنادقة أنفسهم وخدماتهم تحت تصرف الصليبيين حتى ١٥ أغسطس (٣)

---

(1) Stevenson : op. cit, p. 40

(2) Runciman : op. cit, I, p. 312-313.

(3) Heyd; op. cit, I, 136.

وكان أن بدأ البنادقة يحاصرون عكا من ناحية البحر ، فى الوقت الذى أخذ مرض الموت يزداد وطأة على جودفرى بوايون ، فقام دايمبرت بطرق بيت المقدس وتنكرد بالمساهمة فى حصار عكا من ناحية البر [١] . ولم تلبث أن جاءت الأخبار بوفاة جودفرى فى ١٨ يولية سنة ١١٠٠ وعندئذ اقترح دايمبرت وتنكرد على البنادقة ترك عكا وتوجيه الجهود ضد حيفا ، حيث أن هذه الأخيرة أقرب إلى بيت المقدس وأكثر نفعاً للصليبيين . وكانت حيفا تابعة عندئذ للدولة الفاطمية ، وللفاطميين فيها حامية صغيرة ، ولكن معظم سكانها من اليهود الذين كرهوا المسيحيين كراهية شديدة ، ومن ثم أبدوا مقاومة عنيفة [٢] .

وعندما انتشرت الشائعات بأن حيفا أوشكت على السقوط فى أيدى الصليبيين ، علم تنكرد بأن جودفرى بوايون أوصى قبل وفاته بأن تكون هذه المدينة من نصيب أمير آخر إسمه جالدمار ؛ وعندئذ هدد تنكرد بالإنسحاب وأعان أنه ان يعمل لحساب غيره ، لاسيما وأن حيفا كانت الثغر الطبيعى لإمارته فى الجليل [٣] . ولكن البطرق دايمبرت استرضى تنكرد بسرعة ووعده بحيفا ، فضاعف تنكرد جهوده حتى سقطت حيفا فى أيدى الصليبيين فى أغسطس سنة ١١٠٠ . وبذلك اكتملت إمارة الجليل بعد أن حصلت على ثغر لها على البحر ، وإن كان تنكرد نفسه لم يهنأ طويلا بذلك النصر ، إذ لم تلبث الظروف أن اضطرته إلى نقل نشاطه إلى مسرح آخر [٤] .

(1) Translatio Sancti Nicolai Venetiam (Hist. Occid. Tome V), P. p. 272–275.

(2) Albert d'Aix; p. 521.

(3) Setton : op. cit; I, p. 380.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 290.

الباب الخامس

تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين
أعمالا . الذين ضل سعيهم فى
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم
يحسنون صنعا ﴾

[الكهف : ١٠٣ — ١٠٤]

الفصل الاول

النزاع بين بلدوين و بطرق بيت المقدس

البطرق دايمبرت يفرض نفسه على دولة بيت المقدس :

كان حكم جودفرى بوايون فى بيت المقدس بمثابة حل وسط بين النظامين الملكى والثيوقراطى ، وفيه ترضية — ولو جزئية — لمطامع الأمراء ومطامع رجال الكنيسة ؛ ولذلك أثار موت ذلك الرجل مشكلة كبرى حول الوضع المقبل لدولة بيت المقدس الصليبية وكيف يكون نظام الحكم فيها[1] . ويقول المؤرخ وليم الصورى إن جودفرى بوايون أوصى قبل وفاته بأن يخلفه البطرق دايمبرت فى حكم بيت المقدس ، وذلك فى حالة عدم وجود ورثة مباشرين لجودفرى نفسه[2] . ومن الواضح أن تنفيذ هذه الوصية كان يعنى تحويل حكومة بيت المقدس إلى حكومة ثيوقراطية فعلا ، أى حكومة دينية ترتبط بالكنيسة ، وهو ماسعى إليه دايمبرت منذ أمد بعيد .

على أن قيام حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس واستبعاد كل فكرة تستهدف نظاما ملكيا وراثيا ، كان أمراً صعب التحقيق . ذلك أن المدة القصيرة التى تولى فيها جودفرى بوايون حكم بيت المقدس كانت كافية لتجعل فرسانه

---

(1) Stevenson: op. cit. p. 42.

(2) Guillaume de Tyr p. 403.

وهناك رأى آخر فى المراجع يؤكد أن جودفرى بوايون أوصى فعلا لأخيه بلدوين أمير الرها بان يرثه فى حكم بيت المقدس . أنظر :

Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 304 &

Stevenson : op. cit; p. 42.

يؤمنون بضرورة قيام ملكية وراثيةفى بيت المقدس. هذافضلا عن أنأرنولف مالكورن — البطرق السابق لبيت المقدس الذى خلفه دايمبرت — كان له انصاره من رجال الدين ، وهؤلاء شايعوا فكرة قيام ملكية علمانية وراثية فى بيت المقدس ، لالشىء سوى التشفى فى دايمبرت والوقوف فى وجه أطماعه وآماله(١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن وجه الأهمية فى ذلك الموقف هو أن المؤمنين بنظام الملكية الوراثية اتجهوا جميعا بأفكارهم وقلوبهم نحو بيت بوايون ، وأرادوا أن تكون الملكية المنشودة محصورة فى ذلك البيت بالذات . وكان أن أحاطوا نواياهم بالسرية التامة المطلقة ، فأوفدوا من قبلهم أسقف الرملة ومعه اثنان من الفرسان لمقابلة بلدوين أمير الرها لمطالبته بالحضور على وجه السرعة لاستخلاص حقوقه وتولى السلطة، بوصفه الوريث الشرعى لدولة الفرنجة فى بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفرى(٢) .

وهنا فكر دايمبرت فى وسيلة يضيع بها على بلدوين فرصة الاستئثار بحكم بيت المقدس ، فلم يجد بداً من الاستفادة بأحد كبار الأمراء الصليبيين ممن يعتبرون أنداداً لبلدوين نفسه . وفعلا اتصل دايمبرت بصديقه بوهيموند أمير أنطاكية ، بوصفه القوة الوحيدة التى تستطيع أن تقف فى وجه بلدوين وتحول دون وصوله إلى حكم بيت المقدس . هذا فضلا عن أن دايمبرت كان له أنصار بين أمراء بيت المقدس أنفسهم ، من بينهم تنكرد ابن أخت بوهيموند(٣) . وقد عرف عن تنكرد هذا الحماسة وسرعة البت ، زيادة على أنه صار من أقوى أمراء دولة بيت المقدس بعد تأسيسه إمارة الجليل . وكان أن اتفق تنكرد مع دايمبرت على عرض حكم

(1) Albert d'Aix : p. 5"6.

(2) Michaud : op. cit; II, p. 19.

(3) Stevenson : op. cit; p. 42.

بيت المقدس على بوهيموند بوصفه القوة الكبرى التى يمكنها الوقوف فى وجه بلدوين من ناحية ثم مساعدة دايمبرت من ناحية أخرى [١]. ويتضح من الرسالة التى بعث بها دايمبرت وتنكرد إلى بوهيموند أن الغرض منها كان استثارة الأخير، وأنه لو قدر لخطة دايمبرت النجاح لأدت إلى إثارة حرب أهلية بين الصليبيين فى بلاد الشام، أعنى بين بلدوين أمير الرها من جانب وبوهيموند أمير أنطاكية من جانب آخر، مما يؤدى بالصليبيين جميعاً فى الشرق إلى كارثة كبرى. وفى وسط تلك الأزمة إزداد وضوح الرأى الذى نادى به عقلاء الصليبيين، وهو ضرورة قيام ملكية قوية فى بيت المقدس توحد بين صفوف الصليبيين من جهة وتحول دون فتك المسلمين أو البيزنطيين بهم من جهة أخرى [٢].

ومهما يكن من أمر فإن حسن حظ الصليبيين شاء ألا تصل الرسالة التى بعث بها دايمبرت إلى بوهيموند، إذ وقع حامل الرسالة قرب اللاذقية فى أيدى رجال ريموند الصنجيلى، المنافس اللدود لبوهيموند [٣]. ولعلنا نذكر كيف أصر بوهيموند على حرمان ريموند من أى حق فى أنطاكية عقب سقوطها، مما أثار شعور المرارة والكراهية فى قلب الأخير. حقيقة أن بوهيموند علم بالأحداث الجارية فى بيت المقدس عن طريق آخر، ولكن ذلك كان فى الوقت الذى حلت به كارثة كبرى جعلته عاجزاً حتى عن مجرد الحركة. ذلك أنه حدث فى شهر يوليو سنة ١١٠٠ — أى فى الوقت الذى توفى جودفرى بوايون — أن كان بوهيموند فى طريقه إلى ملطية ليقدم النجدة لأميرها الأرمنى ضد الأتراك من أتباع الملك

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 406.

(2) Richard : Le Royaume Latin p. p 62 – 63.

(3) Albert d'Aix, p. 521

ويلاحظ أن ريموند نفسه لم يكن موجوداً عندئذ فى بلاد الشام، وإنما كان متغيباً فى زيارة القسطنطينية، بناء على دعوة من الإمبراطور البيزنطى.

(Runciman : op. cit, I, p. 318–319.)

غازى كمشتكين بن الدانشمند صاحب سيواس ، فوقع بوهيموند أسيراً فى قبضة كمشتكين ، ولم تفلح الجهود التى بذلها الصليبيون لإنقاذه [١]. وهكذا قدر لبوهيموند أن يظل أسيراً ثلاث سنوات فى قلعة نيكسار قرب شاطىء البحر الأسود [٢] ؛ مما ترك الطريق ممهداً أمام بلدوين ليصل إلى عرش بيت المقدس . والمعروف عن بلدوين أنه كان رجلا ذكياً طموحاً لاتفوته فرصة الدعوة التى وصلته من أنصاره فى بيت المقدس ، فصمم منذ اللحظة الأولى على أن يضع خدماته وجهوده ويسخر شخصيته الفذة فى خدمة دولة الصليبيين الناشئة فى فلسطين ، مما جعله من أعظم الشخصيات الصليبية التى شهـــدها بيت المقدس فى عصر الحروب الصليبية [٣]

والواقع أن بلدوين امتلك من الشجاعة والقوة والإخلاص، ما كفل له النجاح والتغلب على خصومة [٤] . وتبدو لنا أخلاقه فى وضوح من تصرفه عندما سمع بما حل ببوهيمند على يد الملك غازى كمشتكين بن الدانشمند أمير سيواس التركمانى. ذلك أن بوهيمند عندما وقع فى الأسر أرسل رسالة سرية إلى بلدوين أمير الرها مستنجداً به، ومع الرسالة خصلة من شعره الذهبى لتكون دليلا على صدق الرسول. ولم يكد بلدوين يتأكد من صحة الخبر حتى أسرع على رأس عدد كبير من فرسانه فى اتجاه ملطية لإدراك كمشتكين وفك أسر بوهيموند [٥] ولكنه لم يكد يصل إلى ملطية حتى كان التركمان قد أسرعوا بالإنصراف عنها متجهين إلى سيواس، ومنها إلى نيكسار قرب البحر الأسود . وكل ما استطاع بلدوين أن يفعله هو تخليص ملطية من التركمان ، وعندئذ أعلن أمير ملطية الأرمنى ولاءه وتبعيته لبلدوين، الذى ترك

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, p. 589)
ويلاحظ أن ابن العديم ذكر أن بوهيموند وقع أسيراً فى معركة دارت بأرض مرعش .

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, P. 304,

(4) Setton : op. cit. P. 381

(5) Runciman : op cit. I. P 321.

بضعة مئات من فرسانه لحماية ملطية ، ثم عاد إلى إمارته فى الرها دون أن يستطيع أن يجازف بنفسه ويتبع التركمان فى عقر دارهم لإنقاذ بوهيموند[١] .

على أن بلدوين لم يكد يستقر فى إمارته بالرها بعد عودته من الشمال حتى تلقى فى أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر سنة ١١٠٠ الرسالة التى بعث بها أنصاره فى بيت المقدس يخبرونه فيها بما كان من موت أخيه جودفرى، ويطلبون منه الحضور على وجه السرعة لتسلم مقاليد الأمور فى المدينة المقدسة. وهنا أظهر بلدوين أسفه لموت أخيه أكثر من فرحه للاستيلاء على إرثه[٢] . ولم يشأ بلدوين أن يضيع الفرصة التى أتاه القدر بها للفوز بحكم بيت المقدس ، فغادر الرها نحو المدينة المقدسة فى ٢ أكتوبر سنة ١١٠٠ بعد أن عهد بشئون الرها إلى قريبه بلدوين دى بورج ، وترك له قوة كبيرة من الفرسان والمشاه للدفاع عن الإمارة إذا هددها خطر[٣] .

وهكذا ساعدت الظروف بلدوين على اتمام رحلته الموفقة الى بيت المقدس ، إذ لو كان بوهيموند حراً طليقا ووصلته رسالة دايمبرت ، لسبب له كثيراً من المضايقات . ولكن الأمر لم يقف عند حد أسر بوهيموند ووقوع الرسالة فى يد رجال خصمه ريموند فحسب ، بل إن أهل أنطاكية من الصليبيين، حملوا لبلدوين جميلا كبيراً لمروءته ومحاولته فك أسر أميرهم[٤] لذلك لا عجب اذا استقبلت أنطاكية بلدوين — وهو فى طريقه الى بيت المقدس — استقبالا حماسياً طيباً ؛ فقضى بها ثلاثة أيام ثم غادرها فى ١٥ أكتوبر متبعا طريق الساحل، فمر باللاذقية حيث التقى بالمندوب البابوى موريس دى بورتو Maurice de Porto الذى

(1) Albert d'Aix, P. p. 525–526.

(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III). P. 373.

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5 P. 301

(4) Grousset : Hist. des Croisades' I. P 208.

كان قد وصل إلى الشام منذ قريب . ويبدو أن بلدوين واجه بعد أن غادر اللاذقية بعض الأخطار من جانب سلاجقة دمشق الذين حاولوا قطع الطريق عليه ؛ ولكنه مر بسلام حتى وصل إلى مدينة طرابلس فى ٢١ أكتوبر بعد أن بلغ رجاله درجة خطيرة من الإعياء(١) . وفى طرابلس أكرمه أميرها العربى أبو على بن عمار ، وأمده ورجاله بما كانوا فى حاجة ماسة إلية من ميرة وغذاء ، وتعهد بأن يحيطه علماً بتحركات عدوهما المشترك ، وهو دقاق ملك دمشق السلجوقى(٢) . وليس هذا مجال الخوض فى العلاقات بين القوى الإسلامية ببلاد الشام فى ذلك الوقت ، ولكن تكفى الإشارة إلى أن العداء الشديد استحكم عندئذ بين سلاجقة دمشق من ناحية وبنى عمار فى طرابلس من ناحية أخرى ، الأمر الذى دفع العرب فى طرابلس إلى السعي لمحالفة القوى الصليبية المجاورة للوقوف فى وجه سلاجقة دمشق(٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن بلدوين استطاع أن ينجو من شباك دقاق ملك دمشق بفضل مساعدة ابن عمار . وكان دقاق قد خرج وبصحبته جناح الدولة أمير حمص العربى ، لاصطياد بلدوين عند مصب نهر الكلب فى مكان ضيق بين الجبال والبحر(٤) . ولكن المعركة انتهت بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين، الذى غنم قدراً لا بأس به من الغنائم والأسلحة والخيول(٦) . وهكذا استأنف بلدوين طريقه إلى بيت المقدس ، بعد أن آثرت هزيمة الدماشقة فى أمراء الموانى الفاطمية

(1) Guillaume de Tyr, I, P. 407 &
Albert d'Aix, P. 528.

(2) Estoire d'Eracles I, P 407 &
Gesta Francorum P 520

(3) Foucher de Chartres p p 374—376

(4) Guillaume de Tyr p 407

(٥) يفهم من الإشارة الموجزة التى أوردها ابن الأثير عن تلك الموقعة أن دقاق هو الذى انتصر « على الفرنج » ؛ وهذا غير صحيح .
(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

على الساحل — مثل بيروت وصيدا وصوروعكا — فقدموا لبلدوين ما أحتاج إليه من زاد وميرة [١].

قيام مملكة بيت المقدس الصليبية

وأخيرا نجح بلدوين فى الوصول إلى حيفا ، وهى أول مدخل للصليبيين فى فلسطين . وقد سبق أن أوضحنا أن حيفا كانت تابعة لتنكرد ـ حليف دايمبرت ـ ولكن تنكرد كان لحسن الحظ متغيباً عندئذ فى بيت المقدس لمساعدة حليفه فى السيطرة على المدينة المقدسة . ولم يستطع أتباع تنكرد فى حيفا أن يمنعوا الزاد والتموين عن بلدوين أو معارضته — بوصفه على الأقل أميراً صليبياً ، فضلا عن أنه أخو سيدهم السابق جودفرى — فحصل بلدوين على مالزمه من زاد ، ثم اتجه إلى يافا ، أكبر ثغر للصليبيين عندئذ فى فلسطين [٢] . ومن يافا اتجه بلدوين إلى بيت المقدس ، حتى إذا ما اقترب منها فى حوالى ١٠ نوفمبر سنة ١١٠٠ خرج المسيحيون من أهل المدينة — على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم — لاستقباله استقبالا رائعاً ، بوصفه أخو جودفرى ووريثه ؛ بل لقد نادوا جميعاً به — داخل المدينة المقدسة ذاتها — ملكا وسيدا عليهم [٣] .

وهكذا لم يقدر للحكومة الثيوقراطية التى أراد البطرق دايمبرت إقامتها فى بيت المقدس أن تعيش أكثر من خمسة شهور ، إذ لم يستطع دايمبرت الوقوف أمام الرأى العام المسيحي ، واضطر إلى الانسحاب إلى كنيسة جبل صهيون (٤) وكانت ساعة الثأر قد حانت بالنسبة لأرنولف مالكورن ـ بطرق بيت المقدس

(1) Albert d'Aix. p. p, 528–530
(2) Foucher de Chartres, P. 377
(3) Guillaume de Tyr. P 410
(4) Idem p 411.

السابق الذى عزله دايمبرت — فجمع حوله رجال الدين لتقديم كل مساعدة ممكنة لبلدوين . على أن بلدوين كان من الحرص بحيث لم يشأ أن يتعجل عزل دايمبرت من كرسى بيت المقدس ، وذلك خوفا من إحداث فتنة داخلية فى تلك الفترة الحساسة من تاريخ المملكة الوليدة ، وإنما اختار أن يقوم عندئذ بما أسماه المؤرخون نُزهة حربية فى المناطق القريبة ، أى حول عسقلان والخليل وبيت لحم[1] . ذلك أنه خرج فى ١٥ نوفمبر على رأس مائة وخمسين فارساً وخمسمائة من المشاة ، فأدب العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحجاج إلى بيت المقدس ، كما أغار على بعض المراكز قرب البحر الميت . وأخيراً عاد إلى بيت المقدس فى ٢١ ديسمبر سنة ١١٠٠[2]

وعند عودة بلدوين إلى بيت المقدس تم الصلح والاتفاق بينه وبين دايمبرت . وهنا نلاحظ أن دايمبرت كان رجلا له مكانته وأهميته بالنسبة للصليبيين فى الشام ؛ فقد رأينا أنه قبل مجيئه إلى الشرق كان رئيس أساقفة بيزا ، أى الزعيم الروحى لتلك المدينة الإيطالية صاحبة الدور الهام فى قصة الحروب الصليبية . ولم يكن فى استطاعة الصليبيين فى الشام أن يستغنوا مطلقا عن مساعدة الأسطول البيزى ، تلك القوة البحرية الضاربة التى كان فى وسعها الوقوف فى وجه السفن الفاطمية ومنعها من التردد على بيروت وصور وعكا وعسقلان وغيرها من الموانى التى ظلت بأيدى المسلمين فى الشام حتى ذلك الوقت[3] . هذه الاعتبارات وغيرها لم تغب مطلقا عن فكر بلدوين ، وهو الرجل الحصيف البعيد النظر ، فآثر منذ اللحظة الأولى أن يقف موقفاً معتدلا بعيداً عن التطرف من دايمبرت ، مما جعل

(1) Albert d'Aix p. p. p. 533 – 536.

(2) Stevenson ; op. cit. p. p. 43 – 44.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 216.

الأخير يجنح تلقائياً نحو الاستسلام ويوافق على مبدأ تتويج بلدوين ملكاً على بيت المقدس .

وكان أن تم ذلك التتويج فى يوم عيد الميلاد فى ديسمبر سنة ١١٠٠ فى كنيسة العذراء ببيت لحم ، فوضع دايمبرت التاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية[١] . وبتتويج بلدوين تبددت جميع آمال دايمبرت ، وزالت نهائياً فكرة قيام حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس[٢] .

أما عن تنكرد ، فكانت وفاة جودفرى ، وما أعقب تلك الوفاة من أحداث ، بمثابة كارثة حلت به . ذلك أن تنكرد الذى جعله جودفرى أميراً على الجليل والذى استولى على حيفا بعد ذلك ، أصبح بدون شك الرجل الثانى فى دولة بيت المقدس . على أن ظهور بلدوين على مسرح الحوادث بعد وفاة أخيه جودفرى جاء فى حد ذاته طالعاً سيئاً بالنسبة لتنكرد ، بسبب الخلاف بين تنكرد و بلدوين ، وهو خلاف قديم يرجع إلى أيام التنافس بينهما حول الاستيلاء على قيليقية والمصيصة سنة ١٠٩٧ . ثم كان أن راهن تنكرد على الحصان الخاسر ، فحاول أن يشد أزر دايمبرت وأن يحول دون وصول بلدوين إلى بيت المقدس بمختلف الطرق ، ولكنه فشل فى كل ذلك ، وانتهى الأمر بتنصيب بلدوين ملكاً على بيت المقدس[٣] . وهكذا صار من الصعب على تنكرد أن يصبح تابعاً لبلدوين ، وأن يعلن ولاءه له بعد ما أظهره نحوه من ألوان العداء والخصومة الشديدة ؛ بل إنه رفض الحضور لمقابلة الملك الجديد عندما استدعاه أكثر من مرة لمقابلته فى يناير سنة ١١٠١[٤] .

---

(1) Stevensen : op. cit, p. 44.
(2) Richard : Le Royaume Latin. P 63.
(3) Setton : op. cit. I, P. 381
(4) Runciman : op. cit; I. P 325

وفى وسط تلك الأزمة المستحكمة بين بلدوين وتنكرد ، تلقى الأخير رسالة فى مارس سنة ١١٠١ من الصليبيين فى أنطاكية، يطلبون منه الحضور إليهم للقيام بالوصاية على إمارتهم أثناء أسر خاله بوهيموند . وكانت هذه الدعوة حلاً ناجحاً للموقف ، إذ رحب تنكرد بتلك الفرصة التى ستخلصه من موقفه الحرج مع بلدوين ، وفى الوقت نفسه ستمكنه من بسط سيادته على شمال الشام . ولم يلبث أن تم الصلح بين تنكرد وبلدوين ، فتنازل تنكرد لملك بيت المقدس عن الجليل وطبرية وحيفا ، بشرط واحد هو أن يسترد تلك المناطق مرة أخرى إذا عاد قبل انقضاء ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . وهكذا غادر تنكرد فلسطين فى مارس سنة ١١٠١ ليباشر نشاطاً من نوع آخر فى شمال الشام[١] .

---

(1) Albert d'Aix; p. p. 537-538.

الفصل الثانى

بلدوين الأول والفاطميون

متاعب الصليبيين فى الشام :

أجمع المؤرخون على أن جودفرى بوايون كانت تنقصه صفات السياسى الناجح ، فدفعه العناد إلى الوقوع أحياناً فى خصومات عنيفة مع زملائه من أمراء الصليبيين ، وفى الوقت نفسه جعلته تقواه يرضخ للكنيسة أكثر مما ينبغى، مما عرض دولة بيت المقدس الصليبية لخطر التصدع .

وعلى العكس منه كان أخوه بلدوين الأول الذى امتلك من الحصافة وبعد النظر والحكمة ، فضلا عن الشجاعة ، ماجعل منه حاكما ناجحاً[1] . لذلك جاءت وفاة جودفرى وتتويج بلدوين ملكا على بيت المقدس بمثابة عملية إنقاذ للصليبيين ولدولتهم الوليدة . ومع ذلك فقد كان الطريق أمام بلدوين الأول طويلا وشاقا ، ولم تكن المهمة التى أمامه — وهى الخاصة بتدعيم أسس البناء الذى أقامه الصليبيون بالشام — بالأمر الهين ، بسبب الأزمات العديدة التى واجهت الصليبيين فى بداية القرن الثانى عشر[2] .

والواقع إن الأزمة الشديدة التى عاناها الصليبيون عندئذ فى بلاد الشام لم تكن بسبب قلة الطعام وندرة الزاد، وإنما كانت فى حقيقة أمرها أزمة فى المقاتلين والرجال . ذلك أن الصليبيين لم يؤسسوا ما أسسوه من إمارات إلا بعد

(1) Cam. Med Hist. vol 5, p. 304,

(2) Runciman: op. cit; II, p. 3.

أن ضحوا بعدد كبير من رجالهم حتى أصيبوا بنقص خطير فى الفرسان ، فى الوقت الذى كان بقاؤهم يتوقف على القتال والحرب [1] . ولعل خير دليل على افتقار الصليبيين فى ذلك الدور الأول من تاريخهم بالشام إلى الرجال ، أنه حدث عندما أسر بوهيموند أمير أنطاكية ، أن أتباعه لم يجدوا بينهم فارساً يستطيع النهوض بعبء الدفاع عن الإمارة ، فاستنجدوا بابن أخته تنكرد الذى كان عليه أن يختار بين الجليل وأنطاكية . ولم يكد تنكرد ينتقل إلى أنطاكية حتى أصيب الصليبيون فى الجليل بخيبة أمل كبيرة وأحسوا أنهم حرموا من جهود رجل ، والرجال قليل [2] .

حقيقة إن الأساطيل الغربية الوافدة من إيطاليا وبروفانس وغيرها، أخذت تجلب باستمرار حجاجاً من الغرب ، ولكن هذه الأساطيل كثيراً ما تعرضت لإغارات البحرية الإسلامية بشمال إفريقية ، فإذا وصل الحجاج سالمين إلى يافا ، فإنهم كانوا لا يسلمون فى كثير من الحالات من إغارات البدو فيما بين يافا وبيت المقدس ، بحيث لا يصل منهم فى النهاية إلى المستعمرات الصليبية إلا قلة قليلة [3] . فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع مساحة الأراضى التى سيطر عليها الصليبيون بالشام ، أدركنا فى النهاية، خطورة الوضع الذى أضحت فيه الإمارات الصليبية، لأن عدد المدافعين كان لا يتناسب إطلاقا واتساع الممتلكات الصليبية [4] . هذا فى الوقت الذى كانت تلك الإمارات أشبه شيء بجزر منعزلة وسط محيط إسلامي مترامى الأطراف، مما يجعلنا نقرر أن احتفاظ الصليبيين بكيانهم فى تلك الظروف لم يكن مرده إلى قوتهم ، بل إلى ضعف القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وتفككها

(1) Stevenson op. cit; p. 39.n. 1,
(2) Setton ; op. cit; I, P. 382.
(3) Grousset : Hist : des Croisades, I; p. 218—219.
(4) Grousset : L'Empire du Levant, P. P. 198—199.

وانقسامها على أنفسها[1] . ولو أقام المسلمون فى الشرق الأدنى — أو على الأقل فى العراق والشام ومصر — جبهة متحدة ، لاستطاعوا فى غير عناء كبير القضاء على تلك الجماعات الصليبية المتناثرة فى بلاد الشام وتطهير الوطن العربى منها قبل أن يستفحل خطرها .

وفى مثل تلك الظروف كان من المتعذر على بلدوين الأول ملك بيت المقدس أن يتبع طريقة الحرب المنظمة مع القوى الإسلامية المجاورة له ، كما كان من المستحيل أن يقيم حاميات قوية على أطراف دولته فى فلسطين ؛ وإنما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يتبع أسلوب الحرب السريعة الخاطفة ، وأن يجعل من جيشه وحدة متحركة تنتقل بسرعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب حسب الحاجة ، مكتفيا بإقامة نوع من المخافر الصغيرة على الحدود لمراقبة تحركات القوى الإسلامية المجاورة[2] .

ومهما يكن من أمر ، فإن الإنتصارات السريعة الخاطفة التى حققها الصليبيون فى الشام على أيام جودفرى ، وانتصار بلدوين على دقاق ملك دمشق عند نهر الكلب ؛ حققت للصليبيين قسطا من المهابة فى نظر القوى الإسلامية المجاورة[3]. ولم يكد يتم تتويج بلدوين الأول ملكا على بيت المقدس حتى قام بمهاجمة قبيلة عربية كبيرة كانت تعبر الأردن فى ربيع سنة ١١٠١ ، فقتل معظم رجالها، وسيق النساء والأطفال أسرى مع الغنائم الوفيرة . وكان من جملة الأسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة وهى على وشك الوضع ، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادمتها وجملين وقدر من الزاد . ولم تلبث أن وضعت فى الطريق

(1) Runciman. op. cit. II. P. 4—5
(2) Guillaume de Tyr, I, P. P. 414-415.
(3) Runciman : op. cit, II, p. 71.

وعادت إلى زوجها الذى سعى إلى بلدوين ليشكره ويرجو أن يرد له الجميل فى يوم من الأيام [١]. ويهمنا من هذه القصة الآن أن إغارة بلدوين على تلك القبيلة العربية وما فعله بأفرادها من قتل وأسر، جاءت لتزيد من خطره فى نظر جيرانه المسلمين. ولم تلبث الموانى الساحلية فى فلسطين — وهى عسقلان وقيسارية وعكا وصور — أن أرسلت مندوبين عنها فى مارس سنة ١١٠١ إلى الملك بلدوين الأول، تحمل إليه الهدايا والجزية، وتطلب منه المهادنة لتتمكن من مباشرة نشاطها الاقتصادى والمتاجرة مع الفرنجة. وبذلك لم يبق سوى دقاق ملك دمشق السلجوقى الذى أوفد سفارة إلى بلدوين لشراء الأسرى الذين أسرهم بلدوين فى موقعة نهر الكلب، وتم فعلا تسليم هؤلاء الأسرى لدقاق مقابل مبلغ كبير من المال [٢].

استيلاء بلدوين الأول على أرسوف وقيسارية :

وضع بلدوين الأول عند تتويجه ملكا على بيت المقدس خطة استهدفت ضم جميع شواطىء فلسطين المواجهة لمملكته ؛ وذلك لتأمين طريق الحجاج من ناحية ولتنشيط التجارة مع الغرب من ناحية أخرى، مما يوفر للمملكة الصليبية كثيرا من أسباب القوة [٣]. وإذا كان تنفيذ تلك الخطة قد تطلب معاونة القوى البحرية الإيطالية، فإن حسن حظ بلدوين أمده بأسطول جنوى وصل إلى حيفا عند منتصف مارس سنة ١١٠١، ومنها أبحر إلى يافا فى منتصف

---

(1) Guillaume de Tyr. p 415.

(٢) ابن القلانسى : ص ١٣٦ — ١٣٧ .

Albert d'Aix, p. p. 541 – 542.

(3) Runciman : op. cit, II. p. 7.

الشهر التالى[١] . وكان أن افترص بلدوين تلك الفرصة المواتيـة فذهب إلى يافا لمقابلة الجنوية ، واصطحبهم معه إلى بيت المقـدس ، حيث احتفلوا جميعا بإحياء عيد الفصح ، ثم بدأت المفاوضات حول الثمن الذى يرتضيه الجنوية لقاء مساعدتهم بلدوين على تحقيق غرضه . ولم يلبث أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقـدم الجنوية معونتهم البحرية مقابل حصولهم على ثلث الغنائم من المنقولات . فضـلا عن شارع من شوارع السوق فى كل مدينة يستولون عليها ليتخذونه مركزا يباشرون منه نشاطهم التجارى[٢] .

وقد اختار بلدوين أن يبدأ بمهاجمة أرسـوف ، ذلك الميناء الذى ظل تابعا للدولة الفاطمية ، والذى لم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليه من قبـل بسبب افتقارهم إلى المساعدة البحرية . ولم تستطع أرسوف الصمود تلك المرة ، فاستسلمت فى أواخر أبريل سنة ١١٠١[٣] . وبعد أن ترك بلدوين حامية فى أرسوف اتجه براً وبحذائه الأسطول الجنوى فى البحر قاصـدا قيسارية . وكانت قيسارية أيضا — من الناحية الاسمية على الأقل — تابعـة للدولة الفاطمية ، ولـكنها لم تستطع المقاومة طويلا فاستولى عليها الصليبيون « بالسيف » فى ١٧ مايو سـنة ١١٠١[٤] . وتشير المراجع الغربية إلى أن الصليبيين أحدثوا مذبحة وحشية فى قيسارية فقتلوا كثـيرا من أهلها الأبرياء ، وأعقب ذلك توزيع الغنائم وفقا للاتفاقية المعقودة مع الجنوية[٥] . وعندما احتمى بعض أهالى قيسارية بجامـع المدينة لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرقوا

(1) Cafaro ; Liberatio Civit. Orientis (Hist Occid V). p. p 60 - 61.

(2) Guillaume de Tyr, p 419.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ & Cafaro, p. 62

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٧

(5) Foucher de Chartres, 389 - 390.

بين الرجال والنساء والأطفال ، حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين[١] .

الحملة الفاطمية على الشام سنة ١١٠١ ؛ موقعة الرملة الأولى

على أن استكانة الفاطميين ، والجمود الذى انتابهم عقب سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين لم يستمرا طويلا . وإنما اختار الوزير الأفضل أن يرسل حملة كبيرة إلى فلسطين فى ربيع سنة ١١٠١ ، بقيادة المملوك سعد الدولة القواسى الذى كان حاكم بيروت من قبل[٢] . وقد تجمعت هذه الحملة فى عسقلان ، التى صارت بمثابة مركز انطلاق جميع الحملات التى خرجت من مصر ضد الصليبيين فى تلك المرحلة . على أن الحمله المصرية أضاعت كثيرا من الوقت فى عسقلان ، فقضى الجيش الفاطمى عدة أشهر بلا عمل ، ربما فى انتظار إمدادات جديدة تأتيه من مصر ؛ مما أتاح فرصة كافية لبلدوين استعد فيها وجمع قواته ووضع خطته[٣] وأخيرا تحركت الجيوش الفاطمية فى أوائل سبتمبر بعد أن وصلتها الإمدادات المطلوبة ، فاتجهت إلى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس.

وكانت الأخبار قد وصلت بلدوين بأن المسلمين لم يقصدوا مجرد إغارة محلية، وإنما استهدفوا الوصول إلى بيت المقدس ذاتها ، فأسرع إلى عقد مجلس حربى فى يافا فى أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ ، وتقرر فى ذلك المجلس أن يبدأ الصليبيون بمراجعة المسلمين فوراً[٤] . ومن المرجح أن يكون بلدوين قد أدرك خطر المهمة التى عليه أن يواجهها ، إذ كانت قوته محدودة لم تتجاوز مائتين وستين فارسا وتسعمائة من

---

(1) Albert d'Aix, P. P. 453—454.

(٢) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(3) Stevenson ; op. cit; p. p. 44—45.

(4) Runciman : op. cit. II, p. 74

المشاة ، وهى قوة صغيرة بلا شك ، إذا قيست بأعداد الجيش الفاطمي الغفيرة من العرب والسودان[1] . ولكن بلدوين أخذ يشجع رجاله وذكرهم بأنهم إذا ماتوا فإنما سيلحقون بالشهداء والقديسين ، وإذا انتصروا فسيكونون قد أدوا خدمة للمسيح وكنيسته ليس بعدها خدمة[2].

وهكذا تقدم الصليبيون يحملون صليب الصلبوت وعلى رأسهم بلدوين ورجال الدين ، حتى التقى الخصمان فى صباح ٧ سبتمبر فى السهل الواقع إلى الجنوب الغربى من مدينة الرملة . ولم يلبث أن تصدع الجيش الفاطمى الكبير فى تلك الموقعة ، وانتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفوفهم وإحكام خطتهم . وقد قتل من المسلمين عدد كبير ، فى حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الحملة سعد الدولة القواسى — صريعا فى المعركة[3]. واستمر الصليبيون يطاردون المسلمين حتى أسوار عسقلان ، فى حين عاد بلدوين لتوزيع الغنائم — وما أكثرها — ؛ إذ ترك المسلمون خلفهم كل ما معهم من سلاح ومؤن وعدد وآلات (٧ سبتمبر سنة ١١٠١) « فملك الفرنج جميع ما للمسلمين »

ولم يكد بلدوين الأول يفرغ من تحقيق ذلك النصر الكبير ، حتى وصلته الأخبار بأن حملة صليبية خرجت من غرب أوربا فى طريقها إلى الأراضى المقدسة ، ولكن الأتراك السلاجقة قضوا عليها . وقد وصلت فلول تلك الحملة وبعض

(1) Albert d'Aix, p. 549.

(2) Foucher de Chartres. p. 392.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(4) Albert d'Aix, P. 553 & Guillaume de Tyr. P. 426.

وابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

ويلاحظ أن رواية أبى المحاسن عن هذه الموقعة غير صحيحة ، إذ يقول إن المسلمين ثبتوا « وحملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية ، ويقال إنهم هزموا من الفرنج ثلثمائة ألف ، ولم يقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم سعد الدولة القواسى المذكور ونفر يسير » .

(النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٢) .

(5) Runciman. op. cit; I. p. 76.

أمرائها إلى أنطاكية ، ومنها إلى بيت المقدس للحج . وبعد أن احتفل أولئك الصليبيون بإحياء عيد الفصح (سنة ١١٠٢) شرع معظمهم فى العودة إلى غرب أوربا ، فى الوقت الذى كان الفاطميون يستعدون لإنفاذ حملتهم الثانية إلى فلسطين[١] .

الحملة الفاطمية الثانية سنة ١١٠٢ ؛ موقعة الرملة الثانية

والواقع أن الوزير الأفضل لم يستطع صبرا على الهزيمة التى لحقت بجيوشه على أيدى الصليبيين ، فأسرع إلى إعداد حملة أخرى كبيرة من العرب والسودان ، واجتمعت هذه الحملة التى بلغت عشرين ألف رجلا فى عسقلان فى منتصف مايو سنة ١١٠٠ ، تحت قيادة شرف المعالى ابن الوزير الأفضل[٢] .وقد اتبعت هذه الحملة الطريق نفسه الذى اتبعته الحملة السابقة ، فاتجه الجيش الفاطمى من عسقلان إلى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك اتجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس.

وكان الملك بلدوين الأول قد اتخذ اهبته ، فحشد فى يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر بانتصاره السابق واستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس (١٧ مايو) فى قلة من الفرسان تبلغ مائتى فارس ، قاصدا الرمله[٣] . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله فى غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشرذمة من فرسان الصليبيين ليست إلا مقدمة لجيش صليبي كبير آت فى أعقاب الملك ، فاختاروا أن يباغتوا الملك ورجاله فورا قبل أن يلحق به بقية جيشه . ولم يكن في استطاعة بالدوين وفرسانه الثبات أمام الجموع الإسلامية «فانهزم الفرنج وقتل

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 428.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ

(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 231.

منهم مقتله عظيمة »[١] ، وفر بعضهم إلى يافا ، فى حين لجـأت البقية الباقية — ومن ضمنهم الملك بلدوين نفسه — إلى الرملة (١٧ مايو سنة ١١٠٢)[٢] .

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين ، كان فى استطاعة المسلمين أن يستولوا عليها ويدخلوها فى غير عناء ليقبضوا على غريمهم ملك بيت المقدس، ولكن غروب الشمس وحلول الظلام جعلهم يؤجلون ذلك إلى الصباح التالى[٣]. وبينما بلدوين يقضى ليلته فى الرملة لا يغمض له جفن فى انتظار مصيره فى الصباح التالى ، إذا بفكرة الهروب فى منتصف الليل تراود نفسه . ويقال إن الذى أوحى إليه بهذه الفكرة وساعده فى تنفيذها هو شيخ العرب الذى كان بلدوين فى العام السابق قد أكرم زوجته الشابة وأطلق سراحها من الأسر ، فحفظ له الشيخ ذلك الجميل وأتى ليساعد بلدوين فى محنته[٤] . ومهما يكن من أمر فالمهم هو أن بلدوين «تنكر وخرج منها إلى يافا» ، وكان فراره ليلا، وبذلك استطاع أن يفلت من مطاردة الفاطميين الذين لاحقوه عندما سمعوا خبر فراره[٥]. أما الرملة فسقطت فى يد الفاطميين فى ١٩ مايو سنة ١١٠٢ ، فقتلوا معظم من فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا صحبة بلدوين[٦] . ويؤكد ابن الأثير أن المسلمين قتلوا داخل الرملة « أربع مائة صبرا وأرسل ثلثماية إلى مصر»[٧] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(2) Albert d'Aix, P. 593.

ويذكر ابن الأثير فى موضع آخر أن بلدوين كان فى سبعمائة فارس ، ولم يكن فى ماتى فارس كما ذكر المؤرخون الغربيون . كما يذكر أنه عندما حلت الهزيمة بالصليبيين اختفى بردويل فى « أجمة قصب » فأحرقها المسلمون ولحقت النار بعض جسده ففر إلى الرملة .

(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ) .

(3) Setton : op. cit, vol. I, p. 365

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 414-415.

(٥) ابن الأثير الكامل ، سنة ٤٩٥ هـ .

(6) Foucher de Chartres, p. 402.

(٧) ابن الأثير الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

ولم تلبث الجيوش الفاطمية أن حاصرت يافا فى الوقت الذى كانت مطاردة بلدوين تجرى على قدم وساق . وعندما سمع بلدوين — وهو فى طريقه إلى يافا — خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، اتجه نحو أرسوف شمالى يافا (١٩ مايو سنة ١١٠٢)[١] . وكانت فرحة الصليبيين فى أرسوف بالغة عندما رأوا أمامهم بلدوين على قيد الحياة ، بعد أن انتشرت الشائعات بخبر مقتله . وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، فى حين استطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحقت به كثير من الإمدادات الصليبية[٢] . وشاءت الصدف أن تصل إلى ميناء يافا فى أواخر شهر مايو مائتى سفينة ، تحمل عددا كبيراً من الجند والحجاج الإنجليز . وشقت هذه السفن طريقها إلى الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمى ، وبذلك حصل بلدوين فى يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة[٣] . وفى ٢٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ، وما هى إلا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون بفضل تنظيمهم فى إنزال الهزيمة بالجموع الفاطمية التى ولت الأدبار نحو عسقلان[٤] .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالى ، أسرع بإرسال حملتين ، إحداهما برية تحت قيادة المملوك تاج العجم ، وتألفت من

(1) Albert d'Aix, p. 595.
(2) Michaud : op. cit, II. p. 30
(3) Runciman : op, cit, II, p. 79-80.
ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أمراء الجيش الفاطمى عقب النصر الذى أحرزوه على الصليبيين فى الرملة ، فرأى فريق منهم الاتجاه إلى يافا « فبينما هم فى هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير فى البحر قاصدين زيارة البيت المقدس ، فبرز بهم بغدوين (بلدوين) للغزو ...» (الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ) .
(4) Foucher de Chartres P. P. 404-405 &
Guillaume de Tyr. P. 435.

أربعة آلاف فارس ؛ والأخرى بحرية برآسة القاضى ابن قادوس(١) . ولكن الشيء الذى كان ينقص الفاطميين عندئذ لم يكن كثرة الرجال وإنما إحكام الخطط الحربية ؛ إذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس وقال له «ما يمكننى أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل . ولم يحضر عنده ولا أعانه . فأرسل القادوسى إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما واستدعى تاج العجم فلم يأته ، ولا أرسل رجلا»(٢) .

وفى تلك الأثناء أرسل بلدوين الأول رسالة عاجلة إلى تنكرد الوصى على أنطاكية ، وإلى بلدوين دى بورج أمير الرها الجديد ، يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة(٣) . ولم تلبث هذه النجدة التى بلغت خمسمائة من الفرسان وألف من المشاه أن وصلت يافا فى سبتمبر سنة ١١٠٢ ، وعلى رأسها أميرا أنطاكية والرها(٤) وكان من الممكن أن يصبح لتلك التجمعات الصليبية شأن كبير لو أن الفاطميين ثبتوا فى القتال فى معركة فاصلة ضد الصليبيين ؛ ولكن الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا آثرت الانسحاب — وفى أعقابها الصليبيون — حتى عسقلان . وفى وسط تلك الأزمة طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ، ولكن دقاق « اعتذر عن ذلك ولم يحضر »(٥) .

على أن اجتماع تنكرد وبلدوين دى بورج مع الملك بلدوين الأول أثار عدة مشاكل حساسة ، محورها تحديد العلاقة بالضبط بين إمارتى أنطاكية والرها من ناحية ومملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية أخرى . على أنه يبدو أن أهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ

(٢) المرجع السابق

(3) Steveuson : op. cit; I, p. 46.

(4) Albert d'Aix, p. p. 597 & Raoul de Gaen, p. 707 & Rec. Hist. Or, p. 494)

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر سنة ٤٩٦ هـ .
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

مسألة أثيرت فى تلك المناسبة ، كانت رغبة الملك بلدوين فى التخلص من دايمبرت بطرق بيت المقدس الذى توج بلدوين مكرها والذى أحاطت الشبهات تصرفاته وسلوكه . وقد أرسل البابا باسكال الثانى مندوبا إلى بيت المقدس للتحقيق فى ذلك الموضوع ، وعندئذ أوضح بلدوين للمندوب البابوى سوء تصرفات دايمبرت وتآمره ضد الملك وجشعه. وجاءت هذه الاتهامات مقرونة بالأدلة الدامغة، مما جعل المندوب البابوى يصدر حكمه باعفاء دايمبرت من منصبه ، فغادر دايمبرت بيت المقدس إلى أنطاكية ، حيث عهد إليه تنكرد برعاية كنيسة القديس جورج (جرجس) فى المدينة سنة ١١٠٢[١].

على أن تنكرد انتهز فرصة حضوره إلى مملكة بيت المقدس فى العام نفسه لنجدة الملك بلدوين من جديد ، وأحضر معه دايمبرت ليطالب باعادته إلى بطرقية بيت المقدس ، كشرط أساسى لاعترافه بالولاء لملك بيت المقدس. وقد عارض بلدوين ذلك الطلب ، حتى انتهى الأمر بعقد مجمع دينى فى بيت المقدس أقر عدم صلاحية دايمبرت لشغل تلك الوظيفة الدينية[٢] . ولم يلبث أن عاد دايمبرت إلى إيطاليا سنة ١١٠٤ حيث حاول أن يحصل على تأييد البابوية لإعادته إلى كرسى بيت المقدس ، ولكنه توفى فى يونية سنة ١١٠٧[٣].

أما تنكرد وبلدوين دى بورج فقد استاءا لعدم تلبية رغبتهما الخاصة باعادة دايمبرت إلى كرسيه البطرقى ، وانسحبا إلى إمارتيهما فى الشمال (حوالى ١٠ أكتوبر سنة ١١٠٢) ، دون أن يعترفا بالتبعية للملك بلدوين .

---

(1) Runciman, op. cit, II, p 81-82.
(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 94.
(3) Albert d'Aix, P. P. 598-600.

بلدوين الأول وفتح عكا

من الملاحظ فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية أنها ظلت دائما تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالبحر ربطا قويا ، وإلى تأمين اتصالها بالشاطىء تأمينا ثابتا ؛ لأن البحر بالنسبة لها كان بمثابة الرئة التى تتنفس بها تلك المملكة والشريان الذى ربطها بقلب العالم الغربى وتتزود عن طريقه بما تحتاج إليه من إمدادات بشرية ومادية . لذلك لم تقنع مملكة بيت المقدس بالموانى المحدودة التى استولت عليها من المسلمين حتى ذلك الوقت ، وهى يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا ؛ وظلت تطمع فى الاستيلاء على بقية موانى فلسطين العربية مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها كانت تابعة للفاطميين[1] . حقيقية إن سيطرة الفاطميين على هذه الموانى صارت شكلية ، ولكن من يدرى ، فربما أصبحت سيطرتهم فعلية فى المستقبل القريب ، وعندئذ يمكن أن يستغلها المسلمون فى طعن مملكة بيت المقدس الصليبية فى الصميم عن طريق قطع الشريان الذى يربطها بالغرب الأوربى . ومثال ذلك ماحدث فى شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت على شاطىء الشام بضعة سفن تحمل حجاجا عائدين إلى الغرب الأوربى ، فأسرت السلطات الفاطمية فى صيدا وعكا وعسقلان من بها من حجاج ، وبيع معظمهم فى أسواق الرقيق بالقاهرة[2] .

وكان أن شرع الملك بلدوين الأول فى ربيع سنة ١١٠٣ يحاصر عكا لأول مرة « وضيق عليها وكاد يأخذها » . ولكن عكا — كما هو معروف عنها فى جميع عصور التاريخ — من أحصن موانى الشام . ولم تلبث أن وصلتها

---

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 239.
(2) Albert d'Aix, P. P. 600-601.

« النجدات من سائر السواحل » ، وجاءت إليهـــا السفن الفاطمية من صور وصيدا ، وعندئذ أدرك الملك بلدوين أن الاستيلاء على عكا لن يتم فى سهولة ، فرفع الحصار عنها وعاد من حيث أتى[١] . ومن الواضح أن عجز بلدوين الأول أمام عكا فى تلك المرة إنما يرجع إلى عـــدم وجود قوة بحرية تسنده وتشد أزر قواته البرية . وقد ظهرت الحاجة إلى القوة البحرية مرة أخرى عنـد ما أرسل الوزير الأفضل حملته البرية — التى سبقت الإشارة إليها — ضـد يافا فى أغسطس سنة ١١٠٣ . ولـكن الخلاف بين القائدين الفاطميين أدى إلى فشل الحملة كما أوضحنا . ثم لم يلبث أن أدى وصـول الملك بلدوين الأول إليها فى أكتوبر سنة ١١٠٣ إلى رفع الحصار البحرى عنها [٢].

وأخيراً أتيحت الفرصة لبلدوين الأول فى أوائل مارس سنة ١١٠٤ ، عندما وصلت إلى اللاذقية عمارة جنوية تألفت من عـدد كبير من السفن ، مما ضمن للصليبيين سيادة فعلية على شواطىء الشام [٣] . وكان ذلك الأسطول الجنوى قد وصل إلى اللاذقية يحمل كثيراً من « التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك » فاستعان به ريموند الصنجيلى فى القيام بهجوم فاشل على طرابلس « فلم يروا فيها مطمعاً » ؛ وعندئذ انتقل الصليبيون إلى جبيل وحاصروها وقاتلوها حتى طلب أهلها الأمان وسلموا . ولم يف الصليبيون بالأمان والعهد فاعتدوا على أهل جبيل « وأخـذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب[٤] » . ولم يكد الأسطول الجنوى يفرغ من مهمته فى جبيل حتى استعان به الملك بلدوين الأول

(١) ابن الأثير : الـكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ &

Foucherde Charttes, p. 406.

(٢) ابن الأثير : الـكامل؛ حوادث سنة ٤٩٦هـ. &

Albert d'Aix, P. P. 603-604.

(3) Heyd : op cit, I, p. 139.

(٤) ابن الأثير : الـكامل؛ حوادث سنة ٤٩٧هـ. &

Runciman. II. p. 60.

فى مهاجمة عكا فى أواخر مايو سنة ١١٠٤ . وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمى زهر الدولة الجيوشى[(١)] ، الذى « قاتل حتى عجز » ولـكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذى فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتى البر والبحر ، فاضطر إلى التسليم « وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً[(٢)] . » وتذكر المراجع الصليبية أن الجنوية نقضوا العهد الذى أعطاه بلدوين لأهل المدينة ، فاعتدوا على أرواح السكان وممتلكاتهم مما أثار غضب الملك بلدوين ونقمته[(٣)] .

ومهما يكن من أمر ، فإن سقوط عكا جعل للصليبيين السيادة على شواطىء فلسطين ، بعد أن حرم الأسطول الفاطمى من أهم قواعده بالشام . أما الجنوية فكان بلدوين قد وعدهم بإعطائهم ثلث عكا ليكون حيا تجاريا لهم ، وفعلا نفذ وعده كما منحهم ثلث قيساريه وأرسوف أيضاً[(٤)] . أما عن المسلمين فإن خسارتهم فى عكا كانت فادحة ، ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانى الشام التى أخذت تتساقط واحد بعد آخر فى أيدى الصليبيين . من ذلك مايقوله أبو المحاسن عن الخليفة الآمر الفاطمى أنه كان « يتناهى فى العظمة ويتقاعد عن الجهاد ... وكان فيه تهاون فى أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه ... ولم ينهض لقتال الفرنج البتة وإن كان أرسل مع الأسطول عسكراً فهو كلا شىء ..!! »[(٥)] .

---

(١) أسمه بنا ، ويعرف بزهر الدولة الجيوشى نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل.

(٢) هذه رواية ابن الأثير (الكامل، سنة ٤٩٧ هـ). وتذكر بقية الروايات أن الجيوشى طلب الأمان وأنه أجيب إلى طلبه. ولـكن يلاحظ أن رواية المؤرخ أبى المحاسن تختلف عن الرواية السابقة التى أجمع عليها المؤرخون الغربيون؛ إذ يذكر أبو المحاسن أن الجيوشى «طلب الأمان له وللمسلمين فلم يعطوه لما علموا من أهل مصر أنهم لم ينجدوه». (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٨).

(3) Albert d'Aix: p. 606-607.

(4) Guillaume de Tyr: I, p. 445.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٨ .

الحملة الفاطمية سنة ١١٠٥ ، موقعة الرملة الثالثة :

وفى تلك الأثناء لم يتخل الوزير الأفضل عن فكرة إرسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة فى هذا الصدد فى صيف ١١٠٥ ، فجمع فى عسقلان جيشاً كبيراً بلغ خمسة آلاف جندى من المصريين والسودان فضلا عن الفرسان العرب ، ووضع ذلك الجيش تحت إمرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين [١] . وفى الوقت نفسه استعد الأسطول الفاطمى لمساندة الجيش من ناحية البحر . ولم يتردد الوزير الأفضل فى طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين ، على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة ؛ فعرض على طغتكين — الذى آلت إليه السلطة فى دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة تتش فى صيف سنة ١١٠٤ — أن يساعده فى قتال العدو المشترك . وفعلا استجاب طغتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل إليهم أحد رجاله – وإسمه « اصبهبد صباوا » – ومعه ألف وثلثمائة فارس ؛ وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون فى مصر والشام ضد الصليبيين [٢] .

وعندما علم بلدوين الأول بتلك الأحداث ترك يافا ، وخرج على رأس جيشه إلى الرملة حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا من ناحية وبيت المقدس من ناحية أخرى . وسرعان ما اجتمع حول بلدوين أفصاله من أمراء الصليبيين ومعهم جيوشهم ، فضلا عن أرتاش (بكتاش) ابن تاج الدولة تتش الكبير المطالب بملك دمشق [٣] والذى رافق بلدوين لمساعدته ، ومعه مائة من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) توفى دقاق ملك دمشق فى يونيه سنة ١١٠٤ ، فآلت السلطة الفعلية إلى الأتابك طغتكين الذى اختار ألا يكشف عن مطامعه ، فأعلن قيام تتش الصغير ابن دقاق ، مع أن تتش =

رجاله . ولم يكد إبرمار بطرق بيت المقدس يأتى ومعه صليب الصلبوت وعدد من الرجال فى ٢٧ أغسطس ، حتى دارت المعركة المنتظرة مع المسلمين . وقد انتهت تلك المعركة بتمزيق القوات الفاطمية شر ممزق ، وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين ، وقتل كثير من أمراء الجيش ، من جملتهم جمال الملك أمير عسقلان . هذا مع ملاحظة أن خسائر الصليبيين أيضاً كانت عظيمة فى تلك الموقعة ، فقتل منهم كثيرون على رأسهم قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا. وقد عبر ابن الأثير تعبيراً دقيقاً عن نتيجة تلك الموقعة بقوله أنه « لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى ، فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم[1] ». أما الأسطول الفاطمى فقد قفل راجعاً إلى صور وصيدا وطرابلس ، ولكنه تعرض بعد ذلك أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على الموانى الصليبية ، فأسرها الصليبيون[2] .

والواقع إن حملة الفاطمين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون ضد الصليبيين فى تلك الفترة ، هذا وإن ظل الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ولكن فى نطاق محدود . وكان مركز الهجمات الفاطمية دائماً مدينة عسقلان ، ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ، كما أغارت سنة ١١٠٧

= كان فى العام الاول من عمره . وبعد قليل خلع طغتكين الطفل تتش وأحل محله عمه أرتاش أو بكتاش ، وهو أخو دقاق، ولم يتجاوز عمره الثانية عشرة . على أن أرتاش خشى خطر طغتكين ففر من دمشق إلى حوران ومنها لجأ إلى بلدوين الاول ملك بيت المقدس طالباً حمايته . وبعد أن اشترك أرتاش فى مساعدة بلدوين فى موقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥ ، تخلى بلدوين عن مساعدته فانسحب أرتاش إلى الرحبة على الفرات . انظر :

(ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ — ١٤٩ هـ. &

Runciman: op. cit, II, p. 89.

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ) &.

Gesta Francorum, p. 541.

(2) Foucher de Chartres p. 414

على الخليل ؛ بل إن الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ إلى أسوار بيت المقدس ذاتها[1] .

أمراء الجليل وحرب المسلمين :

وبينما الملك بلدوين الأول يواصل نشاطه وجهوده فى المنطقة الساحلية ، ظل فصله هيو فالكنبرج — خليفة تنكرد فى حكم طبرية — يعمل على توسيع إمارته فى الجليل على حساب المسلمين ، وذلك بالتوسع فى الشمال الغربى تجاه صور وفى الشمال الشرقى فى إقليم السواد . وكان هدفه الأول جهة البحر الاستيلاء على صور من الفاطميين . ولتحقيق هذا الغرض شيد حصن تبنين فى مواجهة ساحل صور ، وهو الحصن الذى صار له شأن كبير فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية[1] . أما فى الجهة الشرقية من بحيرة طبرية ، فقد دأب هيو على القيام بإغارات فى إقليم السواد — سواد طبرية — التابع لدمشق ، فشيد هناك حصن عال على بعض المرتفعات الواقعة إلى الجنوب الغربى من البحيرة .

وقد تم بناء هذين الحصنين ـ تبنين وعال ـ فى خريف سنة ١١٠٥ ، الأمر الذى أزعج طغتكين صاحب دمشق ، لأنه رأى فى ذلك تهديداً خطيراً لبلاده[3] . وكان أن انقضت جيوش دمشق على هيو حاكم الجليل فى نهاية سنة ١١٠٥ أثناء عودته محملا بالغنائم من إحدى إغاراته على المسلمين ، فأصيب هيو بجرح خطير مات بسببه ، وتشتت رجاله[4] . ولم يصعب بعد ذلك على طغتكين الاستيلاء على حصن عال « بما فيه من آلات وغيرها » ، فى حين عين بلدوين فارساً فرنسياً

---

(1) Runciman op. cit, II. p.p 90-91.

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٥١ ، &

Guillaume de Try, p. 459.

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٤٩ ؛ وقد أطلق ابن القلانسى على حصن عال اسم « علعال »

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٤٩٩ هـ (P. 530)

اسمه جرفيه Gervais (جرفاش) ليكون أميراً على الجليل[1] .

وسرعان ما استغل المسلمون فى عسقلان وصور وصيدا وبيروت فرصة انشغال بلدوين الأول بأمور الجليل بإغارة على طريق يافا — بيت المقدس. وكان أن خرج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية فى تلك المدن فى ١٩ اكتوبر سنة ١١٠٦ إلى سهل نهر العوجة — بين أرسوف ويافا — وقتلوا قرابة خمسمائة من حجاج الصليبيين كانوا مجتمعين هناك . وبعد ذلك أوغل المسلمون حتى الرملة وقتلوا قوة استطلاعية من بعض الفرسان أرسلهم حاكم يافا الصليبى[2] . وقد استمرت تلك القوة الإسلامية تواصل نشاطها ضد الصليبيين فيما بين يافا وبيت المقدس ، حتى إذا ما أحس المسلمون بأن الملك بلدوين فى طريقه إليهم ، انسحبوا إلى مدنهم الساحلية وتحصنوا فيها . وقد أراد بلدوين أن ينتقم من المسلمين بمهاجمة عسقلان ، ولكنه عدل عن ذلك مؤقتاً لعدم وجود سفن كافية تسانده من ناحية البحر[3] .

وهكذا وجدت مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها بين نارين ، أمام هجمات الدماشقة من ناحية الشمال وهجمات الفاطميين من ناحية الجنوب . ففى الوقت الذى أخذ طغتكين أتابك دمشق يهاجم إقليم طبرية ، أخذ صاحب صور يشن هجمات عنيفة ضد حصن تبنين[4] . ولم يلبث طغتكين أن نصب كميناً للصليبيين فى أوائل مايو سنة ١١٠٨ فى الجبال القريبة من طبرية ؛ ففقد الصليبيون كثيراً من الضحايا فى ذلك الكمين ، ووقع جرفيه (جرفاش) أمير الجليل — « وهو من مقدمى الإفرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة » — أسيراً فى أيدى

---

(1) Albert d'Aix, p. 635 & ابن القلانسى ص ١٤٩ هـ
(2) Grousset : Hist. des Croisades. I, pp. 247-248.
(3) Albert d'Aix, pp. 635 - 638.
(4) Setton : op. cit. vol I. P. 386

المسلمين ، فحملوه إلى دمشق مقيدا بالسلاسل [١]. وقد أبدى طغتكين استعداداً لإطلاق سراح جرفيه مقابل ثمن باهظ، هو جلاء الصليبيين عن طبرية وعكا وحيفا. ولكن الملك بلدوين الأول رد عليه بأنه غير مستعد للتنازل عن هذه المدن الثلاث حتى ولو كان الأسرى المطلوب إطلاق سراحهم هم جميع أهل بيته وجميع زعماء الفرنجة . وكان أن أمر طغتكين بقتل جرفيه [٢] .

على أن طغتكين لم يلبث أن وجد نفسه فى نزاع مع عدد من جيرانه المسلمين، ففكر فى عقد هدنة مع بلدوين الأول، فى الوقت الذى كان الأخير لا يرجو أكثر من مسالمة الدماشقة ، ليتفرغ للخطر المستمر الذى هدد يافا والرملة من جانب الفاطميين . لذلك أرسل طغتكين سفارة من خمسة رجال إلى بلدوين ليعقد هذه الهدنة ، فاستقبلهم بلدوين استقبالا حسنا . وقد تحدث كل من أبى المحاسن وابن الأثير عن هذه الهدنة فذكرا أنها كانت لبضع سنوات ، وأن الطرفين اتفقا فيها على اقتسام السواد وجبل عوف ، بحيث يكون ثلث دخلها للفرنجة والثلث الثانى لسلاجقة دمشق والثلث الأخير للفلاحين العرب [٣] . ويصف ابن الأثير مدى أهمية هذه الهدنة للمسلمين ، إذ لولاها « لكان الفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة الآتى ذكرها أمرا عظيما ... » [٤]

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان (P 536) & ابن القلانسى ؛ ص ١٦١ &
Albert d'Aix, p. 657.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ — ١٦٢ &
Guibert de Nogent P 259

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ . ؟
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٠ . &

(4) Stevenson : op. cit. p 50.

استيلاء الصليبيين على بيروت وصيدا :

وطوال تلك الأثناء لم يتخل بلدوين مطلقاً عن فكرة الاستيلاء على بقية المدن الساحلية التى مازالت بأيدى الفاطميين ، وهى عسقلان فى الجنوب وصور وصيدا وبيروت فى الشمال . وقد أدرك بلدوين أن عسقلان وصور على جانب كبير من المناعة والقوة ، وأنه ليس من السهل الاستيلاء عليها دون استعدادات كبيرة. لذلك اختار أن يبدأ بمهاجمة صيدا فى ربيع سنة ١١٠٦ مستغلا فرصة وجود عدد كبير من الحجاج الانجليز والفلمنكيين والدانيين عندئذ فى بيت المقدس ليساعدوه فى ذلك الأمر. وعندما علم حاكم صيدا بذلك أسرع بإرسال مبلغ كبير من المال إلى بلدوين لشراء مسالمته، فقبل بلدوين الثمن وكف يده عن صيدا مدة عامين [١].

ثم كان أن وصل إلى شواطىء فلسطين فى أغسطس سنة ١١٠٨ عدد كبير من السفن الوافدة من بيزا وجنوا والبندقية وأمالفى، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة فى الاستيلاء على صيدا من الفاطميين، وشرع فعلا فى حصارها براً وبحراً . وقد بدأ الصليبيون عملياتهم الحربية الأولى ضد صيدا بنجاح ، ولكن لم يلبث ان تغير مجرى الأمور عندما وصلت إلى مياه صيدا عمارة بحرية فاطمية كبيرة استطاعت أن تنزل الهزيمة بالسفن الإيطالية [٢]. وكان ذلك فى الوقت الذى طلب حاكم صيدا من طغتكين إمداده بقوة برية تساعده على دفع الصليبيين مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فلبى طغتكين النداء وأرسل له نجدة كبيرة ، قدرها المؤرخون بخمسة عشر ألف مقاتل . وهنا أدرك بلدوين أن العملية فاشلة ، فآثر الانسحاب ومعه قواته إلى عكا . ولم يكد ينسحب بلدوين حتى امتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذى تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفا من أن تكون هناك مؤامرة دبرها

(1) Albert d'Aix; p.p. 632 — 634.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 253

طغتكين للاستيلاء على صيدا . وعندما هدد سلاجقة دمشق باستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، رضخ صاحبها ودفع مبلغا يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه(١)

وفى صيف سنة ١١٠٩ اتجه بلدوين لمساعدة برتراند - ابن ريموند الصنجيلى — فى جهوده للاستيلاء على طرابلس ، فسقطت هذه المدينة فى ١٣ يوليو فى أيدى برتراند مما أدى إلى مولد إمارة طرابلس الصليبية ، كما سيلى فيما بعد . ونكتفى الآن بالإشارة إلى أن برتراند بن ريموند أراد أن يعترف بالجميل لبلدوين الأول ، فساعده فى العام التالى فى الاستيلاء على بيروت(٢) . وقد استمر حصار بيروت عدة أشهر — من فبراير حتى مايو سنة ١١١ — وعبثا حاول الفاطميون خلال تلك المدة إرسال نجدات إلى بيروت عن طريق البحر . وعندما يئس صاحب بيروت من وصول مساعدات إليه ، فر فى سفينته ليلا إلى قبرس ، فاضطر أهل بيروت إلى التسليم لبلدوين بعد أن حصلوا على وعد منه بالأمان(٣) . ومع ذلك فإن الجنوية والبيازنة أحدثوا مذبحة رهيبة فى أهل بيروت المسلمين ، ولم يستطع الملك بلدوين استعادة الأمن والسلام إلا فى صعوبة بالغة(٤) .

ولم يلبث أن وصل عكا فى صيف سنة ١١١٠ أسطول من الحجاج النرويجيين تحت زعامة سيجورد Sigurd ملك النرويج ، فرحب بلدوين الأول بالملك النرويجى ورجاله أجمل ترحيب ؛ ثم رأى — كعادته — أن يستغل تلك القوة فى تحقيق مكاسب جديدة لمملكة بيت المقدس ، وليتجه الصليبيون تلك المرة ضد صيدا التى فشلوا من قبل فى الاستيلاء عليها . وعندما أخذ النرويجيون يحاصرون صيدا بحراً فى الوقت الذى كان بلدوين الأول يحاصرها براً (أكتوبر

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٦٣ & Albert d'Aix ; p. 654-655.

(2) Michaud : op. cit. I, p. 40-44.

(3) Foucher de Chartres p. 5 1 & Albert d'Aix, P. 671.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ — ١٦٨ .

١١١٠) ، شاء حسن حظ الصليبيين أن يأتى إلى الشام أسطول بندقى كبير تحت زعامة دوج البندقية نفسه ، فاشترك مع الأسطول النرويجى فى حصار صيدا ومهاجمتها من ناحية البحر[1] . وهكذا أدرك قاضى صيدا وشيوخها أنه لا أمل فى النجاة إلا بالتسليم ،فطلبوا الأمان (٤ ديسمبر ١١١٠) وعندئذ أمنهم بلدوين وسمح للقاضى ومعه عدد كبير من الأهالى بالخروج إلىدمشق « وأقام بالبلدخلق كثير تحت الأمان »[2] . وبعد ذلك عاد النرويجيون إلى بلادهم ، فى حين أنعم بلدوين على البنادقة بامتيازات كبيرة فى عكا[3] .

أطماع بلدوين الأول فى عسقلان وصور :

أما مدينة عسقلان — وهىالقاعدة الحربيةالرئيسية للفاطميين فىفلسطين— فقد أوشكت هى الأخرى أن تدخل تحت حماية الفرنجة . ذلك أن حاكم عسقلان — شمس الخلافة — أرسل إلى بلدوين الأول « مالا وعروضا » طالبا منه عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين[4] وقد انزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات مفتاح فلسطين ، فأرسل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين، ولكنه أعطى تعليمات سرية لقائد الحملة لكى يعزل شمس الخلافة ويحل محله فى حكم المدينة[5] . على أن شمس الخلافة أوجس خيفة من تلك الحملة . فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعادت أدراجها إلى القاهرة . ويروى ابن الأثير أن

(1) Heyd . op. cit, I, p 142.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٤ هـ &

Guillaume de Tyr, p. 478.

(3) Heyd : op. cit; I, p. 142.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٥) ابن القلانسى ؛ ص ١٧٢ & Albert d'Aix p p 679_680

شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب « فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً »[1] ؛ الأمر الذى أساء إلى شعور أهل عسقلان، فثاروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره ، كما قتلوا عدداً كبيراً ممن بالمدينة من الفرنج في يوليو سنة ١١١١ ؛ وفى الحال أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها[2] .

وعند ما سمع بلدوين بخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع إلى عسقلان ، ولكن بعد أن كان كل شيء قد انتهى ، فلم يسعه سوى العودة « وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة فى حلق الصليبيين »[3] .

أما مدينة صور فكانت — مثل عسقلان — من المدن التى استعصت على بلدوين الأول، لأنها اعتمدت دائماً على الخلافة الفاطمية وتلقت منها الإمدادات . ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بحرج موقفهم أمام الإغارات الصليبية المتكررة من ناحية ، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم فى كثير من الحالات من ناحية أخرى، ولذلك اتجهوا نحو طغتكين أتابك دمشق طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة اسلامية قريبة منهم . وفعلا أرسل أهل صور إلى طغتكين يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم « وإلا سلمنا البلد إلى الفرنج » فأجابهم طغتكين إلى ما طلبوا ، وعين عليهم والياً اسمه مسعود ، وفرق عليهم المؤن والأموال « فطابت نفوس أهل البلد »[4] . وفى الوقت نفسه تم الاتفاق على أن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . &

Albert d'Aix, p. 481.

(3) Runciman: op. cit, II, p. 95,

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

يرسل أهل صور مالديهم من ثروات وأموال يخشون عليها إلى دمشق ، حيث تحفظ أمانة لأصحابها . وعندما علم بلدوين — الذى استاء لهـذه الاتفاقية — بموعد خروج القافلة التى تحمل ثروة الصليبيين إلى دمشق ، أطبقت قواته عليها، وغنم الصليبيون تلك الثروة الطائلة[١] .

ويبدو أن الحصار الذى فرضه بلدوين على صور فى نوفمبر سنة ١١١١ لم يكن تاما لعدم وجود أسطول صيابي قوى يحبس المدينة من ناحية البحر ، مثلما كان الحال فى حصار بيروت وصيدا . حقيقة إن بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هـذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . وبعد أن حدثت عده اشباكات محلية لم يوفق فيها الصليبيون ، لجأ بلدوين الأول إلى بناء ثلاثة أبراج من الخشب قرب صور لمهاجمة المدينة منها ، ووضع فى كل برج ألف رجل. ويروى ابن الأثير أن شيخاً من أهل طرابلس أحرق تلك الأبراج ، بعد أن رماها بحطب « سقاه بالنقط والزفت والكتان والكبريت »[٢] .

أما طغتكين فقد استجاب لنداء أهل صور الذين أرسلوا إليه يعرضون تسليمه مفاتيح أبواب المدينة مقابل حمايتهم ، فذهب إليهم حيث تسلم البلد ، وقال لهم « أنا ما فعلت إلا لله تعالى لا لرغبة فى حصن ومال ، وحتى دهمكم عدو جئتكم بنفسى ورجالى»[٣] . ثم رحل عنهم وأرسل فرقة قوية من جيشه إلى صور ، مما جعل بلدوين يقنط تلك المرة أيضاً من حصار صور ، فانصرف عنها

---

(1) Albert d'Aix, p. 690.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٥٠٦هـ — ٥٠٨هـ .

وأخذ يباشر نشاطه فى منطقة طبرية ضد أتابك دمشق[1] . كذلك لجأ بلدوين الأول إلى تهديد القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة ، فكان يهاجمها فى وادى موسى جنوبى البحر الميت وينهب ما تحمله من ثروات وبضائع[2] .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر . (p 467)

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٨ — ٢١٨ &
Albert d'Aix p. 693.

الفصل الثالث

بلدوين الأول والأتراك

هجوم الأتراك على الصليبيين سنة ١١١١، بلدوين الأول وشيزر:

سنعالج الأحداث الصليبية المرتبطة بأنطاكية وعلاقتها بالأتراك فى باب آخر مستقل؛ ولكننا مضطرون هنا إلى التعرض لبعض هذه الأحداث فى إيجاز، لإيضاح الدور الذى قام به الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيها.

ذلك أنه بينما كان بلدوين الأول مشغولا بموضوع خروج شمس الخلافة فى عسقلان عن طاعة الخلافة الفاطمية فى القاهرة واتجاهه نحو محالفة الصليبيين، إذا برسالة تصله من بلدوين دى بورج أمير الرها تفيده بأن الأتراك غزوا إمارته. وكان بعض أهالى حلب قد شكوا إلى الخليفة العباسى وسلطان سلاجقة فارس من سياسة حاكمهم رضوان إزاء الصليبيين واستكانته لتنكرد حاكم إنطاكية، وطلبوا الجد فى جهاد الصليبيين[1]، وفى الوقت نفسه وصلت إلى بغداد سفارة من الامبراطور البيزنطي لاستثارة الخليفة والسلطان ضد الصليبيين (تنكرد) «والإيقاع بهم والاجتماع عن طردهم، وترك التراخى فى أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد فى الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم»[2]. ويبدو أن هذه

---

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن رضوان هذا بأنه «كان بخيلا شحيحا قبيح السيرة، ليس فى قلبه رأفة ولا شفقة على المسلمين. وكانت الفرنج تغاور وتسبي وتأخذ من باب حلب ولا يخرج اليهم».

(النجوم الزاهره، ج ٥ ص ٢٠٥).

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣.

التيارات استثارت المسلمين فى بغداد ضد الخليفة العباسى المستظهر والسلطان محمد السلجوقى لمماطلتهما فى الجهاد ، فهبت الثورة ، وصاح الناس فى السلطان «أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام، حتى أرسل إليك فى جهادهم ! »[١] .

وإزاء تلك الثورة العنيفة ، أرسل الخليفة إلى حميه السلطان محمد السلجوقى فى أصفهان يستحثه على القيام بعمل ما ضد الصليبيين ، فلجأ السطان بدوره إلى تكليف مودود أتابك الموصل بجهاد الصليبيين فى إبريل سنه ١١١١[٢]. وعندما استعان مودود بجيرانه من الترك والأكراد — مثل أمراء ميافارقين ومراغة وأربل وهمدان وغيرهم — أحس بلدوين دى بورج أمير الرها بتلك التجمعات الإسلامية على حدود إمارته ، فشرع فى تحصين الرها ، وخزن الميرة والطعام فيها ، مما جعل مودود ينصرف عن حصار الرها إلى ثانى مدن تلك الإمارة الصليبية، وهى مدينة تل باشر غربى الفرات (٢٨ يوليو) .

على أن أمير تل باشر الصليبى نجح هو الآخر فى مقاومة الحصار[٣] ، فى الوقت الذى طلب أمير شيزر بالشام النجدة ضد تنكرد صاحب أنطاكية ؛ كما أن رضوان ملك حلب تظاهر بالاستقامة فطلب مساعدة المسلمين ضد تنكرد . لذلك فكر مودود فى مهاجمة إمارة أنطاكية الصليبية بمساعدة حلب ، وعندئذ كشف رضوان النقاب عن وجهه ، وظهر أنه يخشى خطر سلاجقة فارس أكثر من خشيته خطر الصليبيين ، فأغلق أبواب مدينته فى وجه مودود ، ورفض أن يتعاون معه ضد الصليبيين . وهكذا لم يبق أمام مودود سوى طغتكين أتابك

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ ،
Albert d'Aix, p. 681.

دمشق ، الذى كان يأمل فى غزو طرابلس بمساعدة مودود ،فالتقى به قرب معرة النعمان ،واتفقا على الاشتراك فى حرب الصليبيين[١] . ولكن طغتكين لم يلبث هو الآخر أن تخوف من ذلك الجيش السلجوقى الكبير الذى كان تحت إمرة مودود. ومن يدرى فربما انتهز سلاجقة فارس تلك الفرصة التى أتاحتها لهم الحروب الصليبية لانتزاع دمشق منه ! ويرى ابن الأثير أن طغتكين عند ما اجتمع بالأمير مودود « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه،نخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع فى مهادنة الفرنج سراً ! »[٢] . وهكذا لم تلبث أن باءت جهود السلاجقة بالفشل ، بعد أن أخذ كل أمير منهم يتشكك فى الآخر ، وبقى مودود فى نهر العاصى مع طغتكين ، حليفة غير الوفى[٣] .

أما الصليبيون فسرعان ما أظهروا تماسكا قويا ، وتناسوا ما بين بعضهم وبعض من خلافات ؛ فانسحب تنكرد من أمام شيزر — التى كان يهاجمها — وعاد إلى فامية مسرعا ، ومن هناك أرسل إلى الملك بلدوين الأول طالباً مساعدته ضد المسلمين[٤] . ولم تلبث أن تجمعت قوات بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها قرب فامية ـ فى الجزء الأوسط من حوض نهر العاصى ـ ومن ذلك الموقع بالذات كان يمكنهم الإشراف على شمال الشام ،فضلا عن شاطىء لبنان وفلسطين.

ويبدو أن مودود خشى الالتحام مباشرة مع تلك الحشود الصليبية التى بلغت نحواً من ستة عشر ألفاً ، فدخل على رأس جيوشه مدينة شيزر ومعه طغتكين فى ١٥ سبتمبر سنة ١١١١ ،وذلك للاحتماء بها،ونصب جنودهما خيامهم فوق أسطح

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .
ابن الأثير : الكامل ،حوادث سنة ٥٠٥هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥هـ .

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 266

(4) Runciman : op. cit; I. P. 122.

المنازل [١] . وكان أن تحركت القوات الصليبية هى الأخرى ـ وعلى رأسها ملك بيت المقدس وأمراء طرابلس وأنطاكية والرها ـ إلى شيزر ، حيث عسكرت فى مواجهة المدينة . ولم تلبث أن ساءت الأوضاع فى معسكر المسلمين ، إذ أصر طغتكين على أن يستجيب له بقية أمراء المسلمين فى الزحف جنوبا لمهاجمة طرابلس ، وهو أمر لم يقره عليه باقى زعماء القوى الاسلامية المتحالفة . أما برسق أمير همذان فقد مرض ورغب فى العودة ، فى حين توفى فجأة سكمان صاحب ميافارقين فانسحبت قواته ومعها جثمانه راجعة من حيث أتت . وكذلك احتار أحمد بك الثانى صاحب مراغة العودة إلى إمارته لبعض المشاغل الداخليه [٢] . وهكذا رأى مودود حلفاءه وقد انفضوا عنه ، مما جعله لا يقوى بمفرده على منازلة الجيش الصليبي الكبير الذى ظل متماسكا مستعداً للمعركه . لذلك لم يتعد الأمر بعض المناوشات التى قام بها فرسان السلاجقة لمنع الصليبيين من الوصول إلى مياه النهر للشرب ، ثم عاد مودود إلى الموصل وطغتكين إلى دمشق [٣] .

وإذ كانت تلك الحملة السلجوقية لم تحقق شيئاً للجانب الاسلامى ، بل على العكس أظهرت تفكك المسلمين عندئذ وعدم وحدتهم ، فإنها حققت الكثير بالنسبة للصليبيين . ذلك أنها جمعت صفوف القوى الصليبية فى شمال الشام وجنوبها ، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعا من الزعامة والأولوية على بقية أمراء الصليبيين [٤] . وكفى أن تنكرد — الخصم العتيد لبلدوين الأول — اعترف بتلك الزعامة ، وحاكاه فى ذلك بلدوين دى بورج ، فصار بلدوين الأول يتصرف

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٧٧ .

(2) Runciman : op. cit. I. p. 123.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

ابن القلانسى : ص ١٧٧ — ١٧٨ .

Albert d'Aix, P. 684.

(4) Setton : op. cit; I, p. 400.

فى حملة سنة ١١١١ بوصفه القائد الأعلى لقوات الصليبيين ،والزعيم الأوحد الذى دان له بالطاعة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا — حتى سنة ١١٦٨ — صار الصليبيون فى بلاد الشام يؤلفون جبهة متماسكة ،على الرغم من قيام تلك الجبهة على أسس إقطاعية .وبعبارة أخرى فإن النظم والتقاليد الملكية التى وضع أساسها الملك بلدوين الأول نجحت فى أن تحقق للصليبيين ببلاد الشام قدراً من الاستقرار السياسى استمر نحوا من خمسة وثمانين سنة(١) .

هجوم الأتراك سنة ١١١٣ : موقعة الصنبرة

على أنه إذا كانت حملة سنة ١١١١ التى قام بها السلاجقة ضد الصليبيين قد باءت بالفشل وانتهت إلى لاشىء ، فإن هذه النتيجة لا ينبغى أن تقلل من قيمة جهود مودود أتابك الموصل ، وهو رجل عرف بالتقوى والورع وتمسكه بفكرة الجهاد الدينى (٢) . والواقع إن فشل تلك الحملة إنما يرجع أولا إلى عدم إخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق ،وتخوفهما من قوة مودود . لذلك عاد مودود إلى الموصل حزينا كاسف البال ،واكتفى مؤقتاً بمراقبة حدود الجزيرة ومسالك الشام ، تحقيقا لرغبة الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى .

ثم كان أن تغيرت الأوضاع فى بلاد الشام سنة ١١١٣ ، وكان ذلك عندما دخل طغتكين فى صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور — كما سبق أن رأينا — مما أثار الحزازات بينهما مرة أخرى . وعندئذ اتجه طغتكين نحو مودود أتابك الموصل « فأرسل إليه يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 268.

(٢) وصف أبو المحاسن مودود بأنه « كان من خيار الملوك ديناً وشجاعة وخيراً ». (النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٠٧) .

إليه . » (١) والواقع إن مودود — لم يكن فى حاجة إلى تحريض لمواصلة الجهاد، فعبر الفرات عند منتصف مايو سنة ١١١٣ ، وتبعه بعض أمراء السلاجقة فى إقليم الجزيرة . وبعد أن تجمعت الجيوش السلجوقية عند سلمية — إلى الجنوب الشرقى من حماه — اتجهت مباشرة صوب بحيرة طبرية . ولم يلبث مودود وطغتكين أن حاصرا مدينة طبرية المنيعة ، وعندما استعصت عليهما ، أخذ السلاجقة يدمرون وينهبون الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور (٢) . على أن طغتكين ومودود سمعا باقتراب الصليبيين ، فاحتميا بسرعة فى شبه الجزيرة التى يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك جنوبى بحيرة طبرية ، وهى الجهة التى تعرف بالأقحوانه (٣)

وكان الملك بلدوين فى عكا عندما بلغه نبأ الحملة السلجوقية على إقليم طبرية، فأرسل فى الحال يطلب المساعدة من أمراء أنطاكية وطرابلس . وفى ذلك الوقت كان روجر الصقلى Roger de Sicile قد خلف عمه تنكرد — الذى توفى سنة ١١١٢ — فى حكم أنطاكية ؛ فى حين خلف بونز Pons أباه برتراند فى حكم طرابلس ، فقرر الأميران الإسراع لنجدة الملك بلدوين . غير أن بلدوين الذى طلب المساعدة لم يشأ أن ينتظر وصولهما ، فتعجل فى مهاجمة السلاجقة دون أن يعتبر بما سبق أن حل به عند الرملة سنة ١١٠٢ . ولم يكد الملك بلدوين الأول يصل إلى جسر الصنبرة — إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية — فى ٢٠ يونيو سنة ١١١٣ ، حتى فكر مودود وطغتكين فى نصب كمين له (٤) . وكان أن وقع بلدوين الأول فى الكمين ، ولم ينج ومعه البطرق أرنولمالكورن — إلا بمشقة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

Albert d'Aix, p. 694.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٥٤٦ — ٥٤٧ .

ابن القلانسى : ص ١٨٥ هـ

بالغة ، فى حين وقع جميع المشاة ، ومعهم متاع الملك نفسه فى أيدى السلاجقة . هذا عدا من غرق من الصليبيين فى نهر الأردن أو فى بحيرة طبرية[1] ؛ حتى قدرت خسائر الصليبيين فى تلك الموقعة بألف ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان (٨ يونيه ١١١٣)[2] .

ولم يلبث أن وصل روجر أمير أنطاكية وبونز Pons أمير طرابلس ومعهما رجالهما ، وبذلك « قويت نفوس الفرنج » وأخذت تتجمع القوى الصليبية مرة أخرى لمواجهة السلاجقة . وقد أحس الصليبيون بالتفوق العددى لخصومهم ، ولذلك تحاشوا الاشتباك معهم فى موقعة فاصلة ، واكتفوا بالاحتماء ببعض المرتفعات الواقعة غربى بحيرة طبرية ، « فالتجأوا إلى جبل فى المنزل » وظلوا قابعين فى مكمنهم ستاً وعشرين يوما « والمسلمون بإزائهم يرمونهم بالنشاب ، ومنعوا الميرة عنهم ، لعلهم يخرجون إلى قتالهم ؛ فلم يخرج منهم أحد »[3] .

ومن الواضح أن هذه الخطة الجامدة التى لجأ إليها الصليبيون أتاحت الفرصة للسلاجقة ، فخربوا المراكز الصليبية فى إقليم الجليل حتى وصلوا إلى بيسان ونابلس « ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة »[4] .

ثم كان أن ازداد موقف الصليبيين حرجا فى ذلك الوقت عند ماقامت حامية عسقلان بهجوم على بيت المقدس نفسها ، مستغلة فرصة جمود الملك بلدوين

---

(١) يذكر ابن الاثير أن الملك بلدوين نفسه وقع أسيراً فى تلك المعارك ، ولكن المسلمين لم يعرفوه فأخذوا سلاحه وأطلقوا سراحه (الكامل ، سنة ٥٠٧ هـ)

(2) Guillaume de Tyr, I p. 485. &
Foucher de Chartres. p. 426.

وقد قدر صاحب مرآة الزمان عدد قتلى الصليبيين فى موقعة الصنبرة « بألفى فارس من الشجعان والأبطال » (p. 547)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٨٦ ،
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ

الأول والجيش الصليبي قرب طبرية[١] . وهكذا تقدم الجيش الفاطمى من عسقلان يدمر وينهب ويقتفى أثر الصليبيين حتى وصل إلى أسوار بيت المقدس ولكن حامية بيت المقدس ومن بقى فيها من الفرسان ظلت متيقظة تماما ، فى الوقت الذى كان الجيش الفاطمى الذى خرج من عسقلان صغير العدد لا يستطيع القيام بعمل حربى ضخم ضد المدينة ، مما جعل المسلمين يشرعون فى العودة إلى عسقلان فى الليلة نفسها التى بلغوا بيت المقدس [٢] . ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوى الإسلامية ، لأمكن أن تقوم الدولة الفاطمية بعمل حربى كبير يهدد الصليبيين تهديداً خطيراً ويجعلهم بين نارين[٣] .

ولم يلبث أن وصل إلى عكا فى شهر أغسطس عدد من الحجاج الغربيين ، قدرتهم المراجع بستة عشر ألفا[٤] مما بدل الموقف فجأة لصالح الصليبيين ، لاسيما وأن مودود وطغتكين لم يحاولا إطلاقا الاستفادة من النصر الذى أحرزاه على بلدوين الأول عند الصنبرة . وكان أن انصرف مودود وطغتكين إلى دمشق ، وهناك أذن مودود لرجال جيشه «فى العودة والاستراحة ثم الاجتماع فى الربيع لمعاودة الغزاة» [٥] . أما مودود نفسه فقد بقى — ومعه بعض خواصه — فى دمشق فى ضيافة طغتكين ، وذلك لحين استئناف الحرب ضد الصليبيين (أوائل سبتمبر ١١١٣) [٦] .

(1) Stevenson : op. cit; p 63.
(2) Foucher de Chartres P. P. 426-427
(3) Grousset : Hist. des Croisades. I. P 274.
(4) Albert d'Aix, P 696 &
Guillaume de Tyr, P. 487.
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ.
(6) Setton : op. cit. P. 402

مقتل مودود ، التحالف بين أتابك دمشق والصليبيين :

ولم تمض بضعة أسابيع حتى قتل مودود فى الجامع الأموى بدمشق بيد أحد الباطنية ، وذلك عند ذهابه لتأدية صلاة الجمعة[١] . وقد اتهم المؤرخون — مثل ابن الأثير وابن القلانسى — طغتكين بالتآمر على ضيفه وتحريض ذلك الباطنى على قتله[٢]. والواقع أننا لا نستبعد أن يكون وجود مودود فى دمشق قد أثار مخاوف طغتكين الذى خشى أن يكون الغرض من حركة الجهاد هو رغبة سلطان السلاجقة فى بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين . وربما كان فى تعجل طغتكين فى قطع رقبة القاتل فى الحال وإحراق جثته دليلا على رغبته فى طمس معالم الجريمة والتخلص من أداتها، فضلا عن إظهار استنكاره لتلك الجريمة[٣]. ولم ينفرد المؤرخون المسلمون وحدهم بتوجيه ذلك الاتهام إلى طغتكين، بل شاركهم فى هذا الرأى أيضاً بعض المؤرخين الصليبيين[٤] .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين هم الذين استفادوا من تلك الجريمة ، فى الوقت الذى أحس طغتكين باتهام الرأى العام الإسلامى له ، فلم يجد حليفا يطمئن إليه سوى الصليبيين . وهكذا ثبت أن أمراء الشام فى ذلك الوقت لم يقدروا المصلحة العليا للعالم الإسلامى ، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة فى سبيل الصالح العام ، مما دفعهم إلى محالفة الصليبيين للاحتفاظ بإماراتهم، خوفا من أن تلتهمها سلطنة السلاجقة فى فارس واحدة بعد أخرى[٥] .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٩ .

(٢) «فقيل إن الباطنية بالشام خافوه وقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله» . (ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

(4) Guillaume de Tyr, p. 487. &

(5) Albert d'Aix; p. 700.

(5) Grousset : Hist des Croisades, I; P 276–277

حملة السلاجقة سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت المتلكات الصليبية في شمال الشام والعراق لزلزال عنيف في نوفمبر سنة ١١١٤، دمر بلادهم من أنطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها[١]، فرأى السلطان محمد السلجوقي أن يستغل تلك الظروف وما نجم عنهما من تصدع أسوار المدن والقلاع الصليبية لإرسال حملة جديدة إلى بلاد الشام بزعامة برسق؛ لمحاربة الصليبيين فضلا عن الانتقام من طغتكين أتابك دمشق والقضاء على إيلغازى أمير ماردين[٢]. ولم تكد تلك الحملة تعبر الفرات في مايو سنة ١١١٥، حتى أجمع الأمراء — سواء من المسلمين أو المسيحيين — على مقاومتها. فمن الجانب الإسلامي قاوم تلك الحملة إيلغازى بن أرتق أمير ماردين، ولؤلؤ الخادم الوصى على حلب، وطغتكين أتابك دمشق ؛ في حين قاومها من الجانب المسيحي، روجر أمير أنطاكية وبونز أمير طرابلس . ومعنى ذلك أنه لم يبق على ولائه من أمراء الشام المسلمين لسلطان السلاجقة سوى بني منقذ في شيزر وابن قراجه صاحب حمص . ومع ذلك فإن برسق لم يبال بذلك العداء الذى صادفه من أمراء الشام على اختلاف أديانهم ومللهم، فمضى في طريقه يهاجم الأمراء المسلمين والمسيحيين جميعاً[٣] .

وهكذا استولى برسق على حماه التي كانت تابعة لطغتكين « وبها ثقله » كما هاجم قلعة فامية (أفامية) التى كانت تابعة لإمارة أنطاكية الصليبية[٤] ، الأمر الذى أدى إلى التقارب بين الأمراء المسلمين والمسيحيين بالشام وجعلهم

(1) Archer: op cit P 151

(٢) خرج مع برسق « الامير جيوش بك والامير كنتغدى وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم (السلطان) بالبداءة بقتل إيلغازى وطغتكين، فإذا فرغوا منهم قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم وحصروا بلادهم » . (ابن الأثير الكامل ، سنة ٥٠٩ هـ).

(3) Runciman: op. cit, I, p. 131

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

يتفقون على مقاومة العدو المشترك . من ذلك ما يرويه ابن الأثير من أن طغتكين وقائد حلب شمس الخواص أسرعا إلى طلب معونة أمير أنطاكيـة الصليبي ضد برسق [١] ، فى حين ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصورى أن أمير أنطاكية هو الذى بدأ بطلب محالفة طغتكين ضد الخطر المشترك . وسواء صحت هذه الرواية أم تلك فالمهم هو أن حملة برسق أدت إلى نوع من التقارب بين الأمراء المسلمين والصليبيين بالشام ، مما أدى إلى عقد اتفاقية بين أتابك دمشق والوصى على حلب من جهة وبين ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية « وغيرهما من شياطين الفرنج » من جهة أخرى ، واستهدف ذلك الحلف الإسلامى الصليبي الجديد مقاومة سلاجقة فارس ومنعهم من غزو بلاد الشام [٢] .

وكان أن احتشدت فعلا قوات دمشق وقوات حلب جنبا إلى جنب مع قوات بيت المقدس وأنطاكية عند أفامية لمواجهه برسق ، الأمر الذى جعل برسق يدرك صعوبة موقفه وأنه من المجازفة الاشتباك مع ذلك العدد الضخم المتحالف من الأعداء ، فآثر الانسحاب إلى الجزيرة . ولم يكد برسق ينصرف عائداً إلى الجزيرة حتى اعتقد ملك بيت المقدس وأمير طرابلس أن الخطر زال ، فانصرفا بجيوشهما . ولـكن برسق لم يلبث أن عاد بعد قليل وعندئذ واجهه الصليبيون وأنزلوا به الهزيمة عند دانيث فى ١٤ سبتمبر ، وقضوا على معظم جيشه « وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهـــة » . أما برسق نفسه فلم يستطع الفرار إلا فى صعوبة ، ويقـال إنه مات بعد عدة أشهر « وقد ندم على الهزيمة » ؛ وعنـدئذ لم يفـكر السلطان محمد السلجوقى فى المغامرة بحملة أخرى ضد الصليبيين فى بلاد الشام [٢] .

---

(١) المرجع السابق

(2) Settou : opcit I PP 404

(٢) ابن الأثير : الـكامل حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

وقد وصف ابن الأثير برسق بأنه كان « خيراً ديناً » .

وفى الوقت الذى كان بلدوين الأول مشغولا بحملة برسق على شمال الشام ، عادت حامية عسقلان إلى مهاجمة يافا برا وبحراً ، ولكن حامية يافا الصليبية صمدت أمام ذلك التهديد . وعندما علم الفاطميون بعودة الملك بلدوين من شمال الشام ، أسرعوا بالانسحاب إلى عسقلان دون أن يحققوا غرضهم (سبتمبر ١١١٥)[1] .

(1) Guillaume de Tyr, I P. P. 494-495.

الفصل الخامس

سياسة بلدوين الأول

وصوله إلى البحر الأحمر وغزو مصر :

وبعد أن اطمأن الملك بلدوين الأول من ناحية سلاجقة فارس وانفصام العروة التى كانت تربطهم بامارات الشام الإسلامية ، بدأ يفكر فى عدة مشاريع توسعية قام بها فى جرأة بالغة . ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهي المنطقة المعروفة باسم وادى عربة . ومن الواضح أنه مع ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية ، فانه يمكن الصليبيين أيضا من عزل مصر عن بقية العالم الإسلامى فى الشرق وقطع الطريق البرى بينها وبين الشام والعراق والحجاز [١] .

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادى عربة جنوبى البحر الميت ، ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادى عربة بأجمعه [٢] . وفى العام التالى (سنة ١١١٦) خرج بلدوين فى حملة أخرى ، ومضى حتى أيلة على ساحل خليج العقبة حيث فر الأهالى من وجهه خوفا . وقد بنى بلدوين فى أيلة أيضاً قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام [٣] ، كما شيد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون

---

(1) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 213.

(2) Runciman : op. cit; I. p. p. 97-98.

(3) Setten : op. cit, I, p. 406.

الواقعه قبالة أيلة فى خليج العقبه . وبذلك تمكن الصليبيون من الإشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة التى أخذت تحرك فى قلوبهم ذكريات ومشاعر دينية عزيزة عليهم . هذا وإن كان رهبان دير القديسة كاترينة فى شبه جزيرة سيناء قد رفضوا أن يستضيفوه بديرهم خشية انتقام الفاطميين فى القاهرة ، مما جعل بلدوين ينصرف عائداً إلى بيت المقدس (١).

وبعد أن أبل بلدوين الأول من المرض الذى أصابه أثناء عودته من أيلة إلى بيت المقدس ، قام بمحاولة أخرى للاستيلاء على مدينة صور التى لم يبق للفاطميين غيرها — فضلا عن عسقلان — من موانى الشام . ويبدو أن صور كانت مركز متاعب كثيرة للصليبيين فى الشام ، حيث خرجت منها فى تلك الفترة عدة إغارات لمهاجمة الممتلكات الصليبية القريبة ، فضلا عن أنها كانت مركزا بحريا تأوى إليه السفن الفاطمية التى تهدد الأساطيل الصليبية (٢). ولكن حاجة بلدوين إلى أسطول قوى لم تمكنه من الاستيلاء على صور ، وعندئذ شيد قلعة منيعة جنوبى صور — هى اسكندورنة — لإحكام الحصار على صور ، وكان ذلك سنة ١١١٦ (٣) .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس الصليبية وصلت سنة ١١١٦ على يد ملكها بلدوين الأول إلى حدودها التاريخية المعروفة ، وذلك باستثناء عسقلان وصور ؛ ولم يبق بعد ذلك أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين فى عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم (٤) وربما استهدف بلدوين من مهاجمة الفاطميين أن يضطرهم إلى الاستعانة بحاميتى صور وعسقلان ، فيستولى على هاتين

(1) Albert d'Aix, p. 703.
(2) Stevenson : op. cit. I p. p. 65-66.
(3) Guillaume de Tyr p. p. 507
(4) Grousset ; Hist. des Croisades I; p. 283.

المدينتين فى غير عناء [١] . على أن بلدوين الأول لم يحاول أن يحشد جميع قوى الصليبيين فى الشام لغزو الدولة الفاطمية ، وإنما خرج على رأس مائتين من الفرسان تقريبا وأربعمائه من المشاة فقط ، مما يثبت أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربى واسع النطاق [٢] .

وكان أن استطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لتهديد من جانب البدو ، الذين خشوا خطر الصليبيين فسهلوا لهم الحصول على مالزمهم من زاد وماء [٣] . ولم يلبث أن وصل الصليبيون فى ٢١ مارس سنة ١١١٨ إلى الفرما واستولوا عليها ، وهى أول المراكز الأمامية فى الأراضى المصرية [٤] . وكانت دهشة الصليبيين عظيمة عندما دخلوا الفرما فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها من المصريين وتركوا فيها متاعهم ، مماهيأ للغزاة قدراً كبيراً من الغنائم . وبعد أن أحرق بلدوين جامع الفرما ومساجدها [٥] ، اتجه غربا نحو مصب النيل . ويروى ابن الأثير أن بلدوين الأول وصل إلى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ؛ كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين إلى أنه وصل إلى مصب نهر النيل فعلا [٦] .

على أن بلدوين الأول كان لايستطيع أن يمضى أكثر من ذلك لصغر قوته

---

(1) Archer : The Crusades. p. 140.

(٢) ويلاحظ أن هذا الرأى يتعارض مع ماذكره ابن الأثير من أن بلدوين فى تلك الغزوة إنما كان «قاصدا ملك مصر والتغلب عليها وقوى طمعه فى الديار المصرية» . (الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٢ هـ) .

(3) Albert d'Aix. p. 705.

(4) Michaud : op. cit; I, p. 52.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ ؟

Guillaume de Tyr. p. 508.

أولا ثم لمرضه ثانيا ، وهو المرض الذى لم يلبث أن توفى بسببه قرب العريش فى ٢ أبريل سنة ١١١٨ (١) .

تعمير بيت المقدس بالسريان والأرثوذكس :

ومن الأعمال الداخلية التى قام بها الملك بلدوين الأول قبل أن يقوم بحملته على مصر ، تعمير بيت المقدس بجموع المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس والسريان . وكان الباعث لبلدوين على هذا التفكير التجربة القاسية التى مر بها أثناء هجوم السلاجقة على إقليم الجليل سنة ١١١٣ ، إذا انتهز المزارعون وأهل الإقليم من المسلمين تلك الفرصة وخرجوا عن طاعة الصليبيين فى الوقت الذى هدد الفاطميون بيت المقدس وهى شبه خاوية لتغيب بلدوين ورجاله عنها . وكان من الطبيعى أن يبدأ بلدوين بتعمير بيت المقدس أولا وهى كبرى مدن المملكة ، فضلا عما لها من مكانة فى قلوب الصليبيين جميعاً (٢) .

والواقع أن بيت المقدس وغيرها من مدن الشام كانت زاخرة بأعداد كبيرة من المسيحيين المحليين ، وذلك عند وصول الصليبيين إلى الشرق . ولكن ما فعله أولئك المسيحيون الشرقيون من الترحيب بالصليبيين ومساعدتهم — وبخاصة فى أنطاكيه والرها — جعل المسلمين لا يطمأنون إليهم ويطردونهم من بقية المدن

---

(١) ذكر ابن الأثير أن سبب وفاة بلدوين أنه سبح فى النيل عند تنيس « فانتقض جرح كان به » (حوادث سنة ٥١٢ هـ) فى حين ذكر غيره من المؤرخين أن وفاته كانت بسبب أكلة سمك من بحيرة المنزلة . وذكر أبو المحاسن أنه عند وفاة بلدوين شق أصحابه بطنه وصبروه (حنطوه) ورموا أحشاءه هناك فعرف ذلك المكان حتى اليوم بسبخة بردويل أو البردويل (قرب بور سعيد الحالية) واعتاد الناس أن يرجموها إلى أيام أبى المحاسن (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧١) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 284.

التى كانت لاتزال تحت سيطرة المسلمين ، وبخاصة بيت المقدس[١] . ولم يلبث أن استولى الصليبيون على بيت المقدس وكثير من أقاليم الشام ، فعمدوا بدورهم إلى طرد المسلمين منها . وهكذا أمست بيت المقدس تشكو فراغا ضخما ونقصا كبيراً فى السكان بعد أن فقدت معظم أبنائها المحليين من المسلمين والمسيحيين سواء[٢] . هذا فى الوقت الذى كان الصليبيون أنفسهم قلة ، وتعجل كثير من الحجاج الوافدين من الغرب فى العودة إلى أوطانهم بعد زيارة الأماكن المقدسه . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصليبيين الذين استقروا فى الشام اشتغلت غالبيتهم بشئون الحرب والحكم ، وأنهم كانوا موزعين على عدد كبير من المدن والمعاقل لحراستها ، أدركنا مدى حاجة مملكة بيت المقدس بوجه خاص إلى سكان نشطين تطمئن إليهم للنهوض بأعباء النشاط العمرانى من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها[٣] .

ولما كان من المستحيل أن يفكر بلدوين فى الاعتماد على المسلمين فى هذه المهام ، فإنه لم يبق أمامه سوى المسيحيين المحليين ، وبخاصة المشتتين منهم شرق نهر الأردن وفى حوران ، وكانت بلاد الشام بوجه خاص تضم طوائف عديدة من المسيحيين المحليين مثل الموارنة فى طرابلس والسريان والأرمن فى أنطاكيه والأرمن والنساطرة فى الرها . وعندئذ فتح الملك بلدوين الأول أبواب مملكته أمام هذه الطوائف جميعها واتصل بهم سراً وأغراهم على الهجرة إلى المدينة المقدسة حتى اكتظت بيت المقدس بأعداد من الأرثوذكس والأرمن .[٤]

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس قامت على أساس الترابط الشديد بين سكانها من المسيحيين الغربيين الكاثوليك من جهة والمسيحيين

---

(1) Guillaume de Tyr, P 500

(2) Runciman : op cit II. P. 100.

(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. p 311-312.

(4) Richard : Le Royaume Latin. p. 124.

الشرقيين من جهه أخرى . وقد استطاع الملك بلدوين الأول أن يوفق بين الجميع رغم اختلاف مذاهبهم، ليعملوا جميعاً فى إنعاش الأرض المقدسه وحمايتها. ولتحقيق هذا الترابط شجع بلدوين الأول التزاوج بين المسيحيين الغربيين والشرقيين، وضرب هو نفسه مثلا لذلك بزواجه من شرقية . وإذا كان قليل من الأمراء الغربيين قد أقبلوا على الزواج من المسيحيات الشرقيات فان جمهرة الفرسان الصليبيين وصغار جندهم لم يجدوا غضاضة فى ذلك ، الأمر الذى أدى إلى ظهور جيل مولد فى بلاد الشام قدر له أن يحمل عبء الدفاع عن الصليبيين فيما بعد عند ما تناقص عدد الوافدين من الغرب[١] .

سياسة بلدوين الأول الدينية :

على الرغم من أن شخصية بلدوين الأول ليس لها الطابع الدينى القوى الذى اعتادت الأساطير المعاصرة أن تلصقه بأخيه جودفرى [٢] ، إلا أنه من الثابت أن بلدوين الأول كان حريصاً على أن يجعل سيطرته على الكنيسة حقيقة واقعة[٣] . وقد دفع ذلك الملك بلدوين إلى العمل على محاربة فكرة إقامة حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس، وهى الفكرة التى رأينا مدى حرص دايمبرت على تنفيذها. وإذا

---

(1) Runciman : op. cit, I. p. 100.

وقد ذكر Thompson أن ثمة زيجات تمت بالشام فى عصر الحروب الصليبية بين الصليبيين والعرب، وأطلق على أبناء هذه الزيجات اسم (pullani) أى الأفراخ. كذلك أشار إلى أن الأرثوذكس كانوا أحط طبقة فى المجتمع الصليبى ببلاد الشام ، وقد خشى الصليبيون دائماً تآمرهم مع الدولة البيزنطيه أو المسلمين ، ولو أنه لم يكن غنى للصليبيين عنهم ، بسبب معرفتهم باللغات .

(Thompson : Economic & Sociol Hist of the Middle Ages; vol. I, p. 398).

(2) Cam, Med. Hist, vol. 5. p, 304.

(3) Runciman : op, cit, I. p. 100.

كان دايمبرت قد تنازل عن آرائه فى إقامة حكومة دينية حتى هدأ الموقف بينه وبين بلدوين ، وقام دايمبرت بتتويج بلدوين ملكا فى كنيسة بيت لحم سنة ١١٠٠ ، إلا أن النزاع لم يلبث أن تجدد بين الطرفين فى مارس سنة ١١٠١. ويقف المؤرخ وليم الصورى فى ذلك النزاع إلى جانب دايمبرت ، ويؤكد حسن نيته،وأن أرنولف مالكورن — بطرق بيت المقدس السابق — هو المسئول عن إفساد العلاقات بين الملك بلدوين ودايمبرت[1] أما المؤرخ ألبرت الآكسى — وهو المدافع دائما عن بلدوين الأول ومبدأ الملكية — فيقول إن الملك بلدوين كان لا يمكن أن يغفر لدايمبرت محاولاته للحيلولة دون وصوله إلى حكم بيت المقدس وحرمانه من أن يرث أخاه جودفرى ويخلفه فى الحكم ، فضلا عن مؤامرة دايمبرت لإعطاء ملك بيت المقدس إلى بيت بوهيموند الأنطاكى[2].

ولعل استياء كل طرف من الآخر وعدم صفاء نياتهما،هو الذى جعل النزاع يطول بين الرجلين ، حتى انتهى الأمر — كما سبق أن أشرنا — بعزل دايمبرت نهائيا سنة ١١٠٢ ، واختيار إبرمار بطرقا جديداً لبيت المقدس . وقد أيد الملك بلدوين هذا الاختيار لما لمسه فى البطرق الجديد من ورع وتقوى ورغبة تامة فى الابتعاد عن الأشتغال بالمسائل السياسية ؛ وهذا كل ما كان يبتغيه بلدوين فى الشخص الذى يتولى بطرقية بيت المقدس[3] .

ولكن ابرمار لم يستمر طويلا فى منصبه،إذ وصل النزاع حول شغل كرسى بطرقية بيت المقدس إلى البابوية ، فأرسل البابا باسكال الثانى مندوبا اسمه جبلين للتحقيق فى الموضوع ، وانتهى الأمر باختيار جبلين نفسه بطرقا على بيت المقدس سنة ١١٠٨(٤) . وكان هذا البطرق الجديد متقدما فى السن،فلم يلبث أن توفى

---

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 438 – 439

(2) Albret d'Aix p. p. 538

(3) Idem; p. 622.

(4) Guillaume de Tyr. P. 457.

فى أبريل سنة ١١١٢ ، فاختير بعده أرنولف مالكورن بطرقا من جديد على بيت المقدس بعد أن ظل اثنى عشرة سنة يترقب تلك الفرصة التى أعادت إليه كرسيه المسلوب[١] .

وهكذا يبدو أن بلدوين الأول اتبع سياسة دينية اتصفت بالمهارة ، ومكنته من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى فى حكومة بيت المقدس ، وتجنيب تلك المملكة الناشئة صراعا بين السلطتين الدينية والعلمانية . هذا إلى أن إخلاص أرنولف مالكورن للملك بلدوين الأول ، لم يمكن الملك من احكام اشرافه على كنيسة بيت المقدس فحسب ، بل ضمن أيضا لتلك المملكة الناشئة نظاما وراثيا فى بيت بلدوين ، مما أتاح لها فرصة الاستقرار والثبات ، وجنبها النزاع والقلاقل[٢] .

وإذا كانت بطرقية بيت المقدس قد غدت — بفضل سياسة الملك بلدوين الأول — الحليف المخلص الوفى للملكية ، فإن الملك بلدوين لم يتقاعس من جانبه عن مؤازرة تلك البطرقية وتوسيع اختصاصها الدينى ، وزيادة نفوذها على حساب أنطاكية . وكان ذلك عند ما نشب نزاع بين بطرقية بيت المقدس وبطرقية أنطاكية حول أسقفية بيروت ، وذلك بعد ما استولى بلدوين على هذه المدينة الأخيرة من الفاطميين سنة ١١١٠ . ذلك أن تنظيم الكنيسه البيزنطية كان يقضى بأن يتبع أستف بيروت رئيس أساقفة صور ، وهذا الأخير يتبع بطرق أنطاكية. ولكن ذلك الوضع صار غير ذى موضوع سنة ١١١٠ عند ما كانت بيروت فى أيدى الصليبيين فى حين ظلت صور نفسها فى قبضة المسلمين . لذلك طالبت بطرقية بيت المقدس بأن تكون أسقفية بيروت تابعه لها ، فى حين تمسك بطرق أنطاكية بتبعية تلك الأسقفية له[٣] .

---

(1) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 248.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. 97.

(3) Richard : Le Royaume Latin p. 97.

وعندما اشتد الخلاف ، عرض الملك بلدوين الأمر على البابوية فأفتى البابا باسكال الثانى سنة ١١١١ بأن الفتح الإسلامى غير الأوضاع القديمة التى كان معمولا بها فى الدولة البيزنطية ، وبناء على ذلك فإن البابوية ترى أن تكون الكنائس فى جميع البلاد التى يفتحها بلدوين الأول تابعة لبطرق بيت المقدس (١). ويبدو أن ما حققه الملك بلدوين الأول لنفسه من سيادة على أمراء أنطاكية ، والرها وطرابلس جعله يتمسك بأن تكون بطرقية بيت المقدس من جانبها لها الأولوية على بطرقية أنطاكية . وهكذا انتهى الأمر عند منتصف القرن الثانى عشر بأن ظلت أسقفيات إمارة طرابلس تابعة لبطرق أنطاكية ، ماعدا بيروت وصور وصيدا وعكا وبانياس فقد أصبحت تابعة لبطرقية بيت المقدس (٢).

زواج بلدوين الأول :

وثمة ناحية شخصية خاصة بالملك بلدوين الأول ولكنها ارتبطت بالكنيسة ، هى أنه طلق ، زوجته الملكة أردا Arda ، وتزوج من أدلياد الصقلية Adelaide de Sicile (٣). أما عن أردا فهى ابنة زعيم أرمنى تزوجها بلدوين أيام أن كان أميرا على الرها ليضمن ولاء الأرمن ، وهم كثيرون فى إقليم الرها . ومن الواضح أن هذا الزواج السياسى كان يحقق كثيراً من النفع لبلدوين وهو أمير للرها ؛ ولكنه لم يلبث أن أحس — بعد أن أصبح ملكا على بيت المقدس — أنه ليس فى حاجة إلى ولاء الأرمن ، وبالتالى فإنه لم يعد حريصا على تلك الزيجة السياسية ، لاسيما وأن أردا فقيرة لم تستطع أن تشبع حاجة الملك الجديد إلى المال ، فضلا عن أنه لم يعش له منه أولاد يربطونه بها (٤). وكان أن سعى الملك بلدوين سنة

---

(1) Guillaume de Tyr. p. 502.

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 312.

(3) Set on : op. cit; I, p. 102.

(4) Runciman. : op. cit; I. P. 102.

١١١٠ لدى كنيسة بيت لحم لإتمام الطلاق من زوجته بعد أن أتهمها بالزنا . ولكى يغرى تلك الكنيسة على تأدية هذه الخدمة له أضفى عليها وعلى أسقفها كثيراً من النعم والامتيازات . كذلك استخدم الملك نفوذه لدى بطرق بيت المقدس من ناحية ولدى البابوية من ناحية أخرى لرفع كنيسة بيت لحم إلى أسقفية[1] أما أردا فقد طلبت من زوجها السماح لها بزيارة ولديها فى القسطنطينيه ، وهناك لم تعبأ ببلدوين أو بيت المقدس وإنما حاولت أن تشبع نفسها بمباهج العاصمة البيزنطية .

ولم يلبث الملك بلدوين أن أخذ يبحث لنفسه عن صفقة أخرى رابحة ، وعثر على ضالته فى أدلياد أرملة روجر الأول صاحب صقلية الذى توفى سنة ١١٠١ وقد استهدف بلدوين الأول من وراء تلك الزيجة تحقيق مكاسب عدة ، سياسية ومالية ، منها ضمان صداقة النورمان فى إيطاليا وصقلية ، وبخاصة الملك روجر الثانى ابن الأميرة أدلياد ، ومنها أيضاً كسب الثروة الطائلة التى كانت تملكها تلك الأميرة والتى كانت كفيلة بإنعاش خزانة مملكة بيت المقدس[2] . وبعد أن حصلت أدلياد على موافقة إبنها روجر الثانى على تلك الزيجة ، اشترطت على بلدوين الأول أنه فى حالة إذا ما رزقت منه بمولود ذكر ، فإن هذا المولود يرث أباه فى عرش روجر الثانى . وكان أن وافق بلدوين الأول على هذا الشرط ، وأبحرت العروس من صقلية إلى عكا فى بداية أغسطس سنة ١١١٣ فى أسطول كبير يحمل ثروة طائلة ، من الذهب والفضة والتحف وغيرها[3] .

على أن خصوم بلدوين لم يلبثوا أن أثاروا موضوع طلاق أردا وقالوا إن هذا الطلاق لم يكن قانونيا ، وأنه تم بالتواطىء مع صنائع بلدوين من رجال

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 473 — 474.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. P. 184
(3) Albert d'Aix, P. 597.

الكنيسة وأولهم أرنولف مالكورن ، ومن ثم أصبح بلدوين متهما بالزواج من امرأتين ،وهى تهمة لها خطورتها فى المسيحية[1] . ولم تفلح جهود بلدوين الأول أو جهود ربيبه أرنولف مالكورن أسقف بيت المقدس فى دفع هذه التهمة عنه، إذا أصر البابا باسكال الثانى ومندوبه الذى أرسله إلى بيت المقدس للتحقيق فى الموضوع على أن طلاق إردا من بلدوين الأول باطل ، وبناء على ذلك يجب أن يطلق الملك زوجته الصقلية الجديدة . وصادف أن مرض بلدوين الأول مرضا خطيرا فى أوائل سنة ١١١٧ ، فاستمر طريح الفراش فى عكا بضعه أسابيع بين الحياة والموت ، مما جعله يخشى أن يموت مغصوبا عليه من الله والكنيسه بسبب زواجه من امرأتين فى وقت واحد . وهكذا انتهى الأمر بطلاق أدليادنعادت كسيفة البال إلى صقلية فى إبريل سنة ١١١٨[2] .

ولا شك فى أن طلاق أدلياد جاء لطمة قوية لإبنها روجر الثانى وجميع الأمراء النورمان فى إيطاليا وصقليه . وإذا كان بلدوين الأول قد أراد بتلك الزيجة كسب النورمان فى إيطاليا وصقليه وضمان مورد ثابت من الرجال والمال ليغذى مملكة بيت المقدس ، فإن النتيجة جاءت عكسيه بالنسبة للعلاقات بين مملكة بيت المقدس من ناحية ومملكة النورمان فى إيطاليا وصقلية من ناحية أخرى .

وفيات الأعيان :

ولم تلبث سنه ١١١٨ أن شهدت وفاة مجموعة من أعيان المسلمين والمسيحيين فى الشرق والغرب ، ممن لهم علاقة مباشرة أوغير مباشرة بالحركة الصليبية .ففى

---

(1) Runciman : op cit, II, p. 104.

(2) Guillaume de Tyr. P. 509.

٢١ يناير سنه ١١١٨ توفى البابا باسكال الثانى فى روما ، وفى ٢ إبريل توفى بلدوين الأول ملك بين المقدس ، وفى ٥ إبريل توفى السلطان محمد السلجوقى فى فارس ؛ وفى ١٦ إبريل سنه ١١١٨ توفيت فى صقلية أدلياد زوجة بلدوين الأول والملكة السابقه على بيت المقدس ؛ وبعد ذلك ببضعة أيام توفى أرنولف بطرق بيت المقدس ، وفى ٦ أغسطس توفى الخليفة المستظهر العباسى فى بغداد ، وفى منتصف أغسطس توفى ألكسيوس كومنين امبراطور الدولة البيزنطية بعد مرض طويل (١) .

بلدوين الأول فى نظر التاريخ :

وبعد ، فان أهميه بلدوين الأول فى التاريخ ترجع إلى أنه لم يكن مثل أخيه جودفرى محاربا صليبياً فحسب ، بل كان أيضاً سياسياً ومنظما ومؤسساً لمملكة لها أهميتها فى تاريخ العصر الذى عاش فيه . فبلدوين الأول هو الذى استطاع بمهارته أن يحقق لمملكة بيت المقدس مكانة مرموقة وسط المحيط الاسلامى فى الشرق الأدنى ، وإليه يرجع الفضل فى وضع دعائم تلك السياسة الناجحة التى سار عليها خلفاؤه ملوك بيت المقدس من بعده ، والتى حققت نوعا من التوازن بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية فى الشرق الأدنى (٢) .

هذا إلى أن سياسة بلدوين الأول التوسعية أكسبته أهمية خاصة فى تاريخ الصليبيين بالشام ؛ إذ تسلم دولة بيت المقدس الصليبية محدودة المساحة ، تكاد لاتتعدى المدينة المقدسة ذاتها وضواحيها القريبة ، فما هى إلا سنوات قليلة حتى حولها إلى مملكة قوية تشمل كل فلسطين تقريباً ، وتتمتع بشاطئ طويل على

---

(1) Runciman : op, cit, II, p. p. 105–106.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 304

البحر المتوسط مما حقق لتلك المملكة الصليبية اتصالا آمنا مستمراً مع العالم الأوربى الغربى (١) . ثم كان أن توج بلدوين الأول أعماله قبل وفاته بأشهر معدودة بالسيطرة على وادى عربة والضفة الشرقية للأردن ، والاستيلاء على أيلة على خليج العقبة ، بل لقد أوغل فى الأراضى المصرية نفسها شرقى الدلتا ... كل ذلك ليقطع الصلة بين المسلمين فى أفريقية وآسيا ، أو بين الدولة الفاطمية من جهة والدولة العباسية من جهة أخرى ؛ وهي الصلة التى كانت تهدد بوقوع الصليبيين فى الشام بين شقى الرحى . ولاشك فى أن سيطرة الصليبيين على ميناء أيلة كان من شأنها أن تمكنهم من قطع طريق القوافل بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى ، فضلا عن تهديد الحجاج المسلمين وهم فى طريقهم إلى الحرمين (٢) . وكما أن إمارة الرها الصليبية صارت تقف حاجزا بين الامارتين الإسلاميتين الكبيرتين فى شمال الشام والعراق — وهما حلب والموصل — فكذلك أراد بلدوين الأول أن يجعل من أيلة ووادى عربة حاجزا صليبيا بين القاهرة ودمشق . ولم تلبث تلك الخطة التى وضع أساسها بلدوين الأول أن نجحت فى تمزيق أوصال العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى ، وتمكين الصليبيون فى الفترة الواقعة بين سنين ١١١٦ ، ١١٨٩ من التحكم فى المسالك المؤدية إلى الحجاز (٣) .

أما عن سياسته الداخلية فإن بلدوين الأول كان لايقل مهارة فى توجيهها عنه فى توجيه السياسة الخارجية ، مثلما يتضح ذلك فى إشرافه على الكنيسة ورجالها ، وفى منع رجال الدين من إقامة حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 314-315.

(2) Setton : op. cit; I, p. 406.

(3) Grousset Hist. des Croisades, I, p. p. 315-316.

وقيام إمارة طرابلس

الباب السادس

« لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة
فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله
عليم حكيم » .
[التوبة : ١١٠]

الفصل الاول

ريموند الصنجيلي والصليبيون

ريموند والدولة البيزنطية :

رأينا ما أصاب ريموند الصنجيلي Raymond of St. Gilles من خيبة أمل واضحة فى الحملة الصليبية الأولى ، إذ ظل يمنى نفسه حينا بعد آخر بأنطاكية ، أو على الأقل باقتسامها مع بوهيموند ، حتى انتهى الأمر باستئثار بوهيموند بها وحده[١] . فلما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه إمارة فى شمال الشام على حساب سلاجقة حلب — حول البارة ومعرة النعمان — انبرى له بوهيموند مرة أخرى ونافسه فى الاستيلاء على معرة النعمان ، مما اضطر ريموند إلى التخلى عنها فى يناير سنة ١٠٩٩[٢] . وكان أن فكر ريموند فى تأسيس إمارة على شاطىء الشام ، فهاجم أنطرطوس وعرقة إلى الشمال الشرقى من طرابلس ، ولكنه نجح فى احتلال الأولى فى فبراير سنة ١٠٩٩ وفشل فى الاستيلاء على عرقة مايو سنة ١٠٩٩[٣] . وعندما رشح اسمه حاكما لدولة بيت المقدس الصليبية ، أدى حسد زملائه الأمراء له وتخوفهم منه إلى ضياع تلك الفرصة من يده . وعندئذ اتجه ريموند إلى مهاجمة الثغور الفاطمية فى فلسطين — مثل عسقلان وأرسوف — ولكن عداء جودفرى بوايون له لم يمكنه من تحقيق غرضه (أغسطس ١٠٩٩) .

---

(1) Runciman : op. cit, I, p. p. 249_251.

(٢) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ . &

Gesta Francorum, p. 172-178.

(3) Raymond d'Agiles, p. p. 279-288.

وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة سوى تملق الدولة البيزنطية وخدمة سياستها وتحقيق أغراضها ومطامعها فى بلاد الشام ، والمناداة بحقوقها فى أنطاكية وغيرها من أقاليم الشام[١] .

وقد أخذت سياسة ريموند هذه تظهر فى وضوح عندما استولى على اللاذقية فى صيف سنة ١٠٩٨ ، إذ سلمها للبيزنطيين بعد قليل ، مما قوى الرابطة بينه وبين الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ، وجعل الأخير يثق إلى حد بعيد فى إخلاص ريموند له[٢] .

ولم يلبث هذا التحالف بين ريموند والامبراطور البيزنطى أن اتخذ وجهة خاصة ضد بوهيموند صاحب أنطاكية الذى كان وجوده فى ذلك الجزء من شمال الشام بالذات مهدداً لأطماع الامبراطور البيزنطى من ناحية وريموند من ناحيه أخرى[٣] . ومن أمثلة هذا التعارض بين الطرفين ماحدث فى صيف سنة ١٠٩٩ ، إذ بينما تقدم ريموند إلى جانب جودفرى صوب بيت المقدس للاستيلاء عليها من المسلمين ، اختار بوهيمند — كما سبق أن أشرنا — أن يبقى حيث هو فى أنطاكية لينتهز فرصة تغيب منافسه ويحاول الاستيلاء على اللاذقية من البيزنطيين بمساعدة الأسطول البيزى تحت زعامة دايمبرت[٤] . ولولا رجوع ريموند لسقطت اللاذقية فى يد بوهيموند لأن الأخير لم يلبث أن انسحب — وكذلك الأسطول البيزى عند اقتراب ريموند — حتى لا يقع صدام بين القوات الصليبية بالشام ، وبذلك استرد ريموند اللاذقية[٥] . وكان أن توسط دايمبرت فى الصلح بين ريموند

(1) Vasiliev op. cit; II, p. 409.
(2) Albert d'Aix, P. p. 500—501.
(3) Ostrogorsky : op. cit. p 323.
(4) Stevenscn . op cit: p. 39.
(5) Albert d'Aix, p. p. 502-504

وبوهيموند ، فاجتمع الأميران قرب اللاذقية ، وسويا ما بينهما من خلاف. ولكن هذه التسوية ، كانت فى الظاهر فقط ، إذ ظل بوهيموند قائما فى أنطاكية على كره من الامبراطور البيزنطى ، فى حين ظل ريموند يحمل فى قلبه حقدا دفينا على بوهيموند ، واكتفى مؤقتا بأن سيطر على اللاذقية وانطرطوس باسم الامبراطور البيزنطى [١].

وإذا كان ريموند قد يئس من القضاء على قوة بوهيموند فى أنطاكية، فإنه سرعان ما فكر فى استغلال تحالفه مع البيزنطيين لإقامة إمارة جديدة لنفسه فى شمال الشام تنافس إمارة أنطاكية . وهكذا استمرت روح التنافس والكراهية تسود العلاقات بين ريموند وبوهيموند . من ذلك أن بوهيموند مر فى يناير سنة ١١٠٠ باللاذقية أثناء عودته من زيارة بيت المقدس ، وطلب من ريموند أن يمده بالزاد ، فأعتذر الأخير بحجة نقص المؤن لديه [٢]. هذا بالإضافة إلى الدور الذى قام به ريموند لمنع بوهيموند من الاستيلاء على عرش بيت المقدس عقب وفاة جودفرى بوايون، إذ سبق أن رأينا كيف استطاعت قوات ريموند فى اللاذقية أن تمنع الرسالة التى أرسلها دايمبرات إلى بوهيموند مستدعيا إياه ليتولى الحكم فى المدينة المقدسة (مايو — أغسطس ١١٠٠) [٣].

وأخيراً رحل ريموند إلى القسطنطينية فى صيف سنة ١١٠٠ للاتفاق مع الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين على القيام بعمل حاسم ضد بوهيموند، فى أنطاكية [٤]. ولم يكد ريموند يصل إلى القسطنطينية حتى جاءت الأخبار بوقوع بوهيموند أسيراً فى قبضة التركمان من بنى دانشمند فى كابادوكيا . ولكن

(1) Foucher de Chartres, I p 3(8

(2) Grousset : Hist. d-s (roisaoes, 1, p. 321.

(٣) انظر ما سبق ص ٢٨١

(4) Chalandon : Alexis Comnene p p. 222-223.

هذا الحديث لم يكن له أثر فى سياسة ريموند والامبراطور ألكسيوس كومنين تجاه أنطاكية ، لأن تنكرد الذى تولى الوصاية على أنطاكية عند أسر خاله ، لم يقل خطرا عن بوهيموند، فاتبع سياسة العداء نفسها تجـــاه الامبراطورية البيزنطية ، وبدأ بالاستيلاء على بعض المدن البيزنطية فى قيليقية مثل طرسوس وأذنه والمصيصة[1] . ولم يكد تنكرد يفرغ من ذلك حتى اتجه إلى اللاذقية ، ولكنها قاومته مقاومة شديدة استمرت سنة ونصف حتى استولى عليها فى النصف الثانى من سنة ١١٠٢[2] .

وفى الوقت الذى أخذ ريموند وألكسيوس كومنين يعدان العدة لإرسال حملة ضد تنكرد وإنقاذ اللاذقية، إذا بحملة صليبية جديدة تصل إلى القسطنطينية وتستأثر بتفكير الامبراطور وحليفه. وكان أن عين الامبراطور البيزنطى حليفه ريموند للاشراف على هــذه الحملة وتوجيهها إلى الأراضى المقدسة . ويبدو أن ريموند سر لتلك المهمة ، إذ رأى فى الحملة الصليبية الجديدة أداة صالحة يمكن أن يستخدمها فى تحقيق بعض أطماعه فى الشام[3] .

ريموند والحملة الصليبية سنة ١١٠١ :

لم يكد الغرب الأوربى يعلم بالتوفيق الذى أصابته الحملة الصليبية الأولى فى بلاد الشام ؛ وبنجاح رجال تلك الحملة فى استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين ، حتى تحمس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا فى الحملة الأولى للذهـــاب إلى الشام ليفوزوا بنصيب من الأسلاب قبل ضياع الفرصة ؛ فضلا عما كانوا يرجونه

(1) Raoul de Caen; p. 706-707.
(2) Idem, p. 708.
(3) Grousset : His. des Croisades, I, p. 322.

من المشاركة فى الحركة الصليبية وثوابها . ولا يخفى علينا أن الصليبيين فى الشام كانوا عندئذ فى حاجة ماسة إلى تلك المعونة البشرية ، لتعويض النقص فى الرجال من جهة ، ولاستئناف سياسة التوسع من جهة ثانية ، ثم لحراسة ماحققوه من مكاسب ضد أية محاولة انتقامية من جانب المسلمين من جهة ثالثة [١] .

وقد تألفت أول مجموعة من أولئك الصليبيين من اللمبارديين الذين تحركوا فى نهاية سبتمبر سنة ١١٠٠ نحو القسطنطينية عن طريق الدانوب تحت قيادة أنسلم رئيس أساقفة ميلان وألبرت وجيوبرت وهيومن الأمراء [٢] . ويبدو أن هذه المجموعة من الصليبيين كانت شبيهة بحملة العامة فى الحملة الصليبية الأولى ، إذ لم تضم — مع كثرة رجالها — سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين، فى حين تألفت الغالبية العظمى من أفرادها من العامة والنساء والأطفال . هذا إلى أنهم أتوا من أعمال السلب والنهب ماجعل الامبراطور ألكسيوس كومنين يطلب منهم عند وصولهم إلى القسطنطينية فى مارس سنة ١١٠١ أن يعبرو إلى آسيا الصغرى [٣] . وقد عارض اللمبارديون تلك الأوامر الامبراطورية فى أول الأمر بحجة الرغبة فى انتظار بقية إخوانهم الوافدين من الغرب، ولكنهم اضطروا أخيرا إلى الاستجابة لنصيحة الأمير ريموند الصنجيلي ، فعبروا البسفور فى أبريل سنة ١١٠١ لينتظروا إخوانهم على الشاطئ الآسيوى [٤] .

ولم تلبث أن وصلت جموع صليبية أخرى من الفرنسيين والألمان ، فعبروا أيضاً البسفور وعسكروا عند نيقية على مقربة من اللمبارديين، حتى اجتمع الصليبيون جميعا فبلغت عدتهم نحو مائتى ألف ، ومن ثم بدأوا زحفهم تحت قيادة ريموند

---

(1) Setton: op. cit, I. pp. 347-348.
(2) Runciman: op. cit. II, pp. 18-19.
(3) Chalandon: Alexis Comneue p.p, 224-225.
(4) Albert d'Aix, p.p 560-562

الصنجيلى . وكان الاتجاه الغالب فى أول الأمر هو أن يسلك الصليبيون أقصر الطرق للوصول إلى إخوانهم فى الشام ، وهو طريق ضوريليوم وقونية ، وأيد هذا الرأى الامبراطور ألكسيوس والأمير ريموند نفسه(١). ولكن جموع اللمبارديين أصروا على عدم اتباع ذلك الطريق وأصروا بأن تتجه الحملة ضد بنى دانشمند فى كابادوكيا للانتقام لبوهيموند وفك سراحه من الأسر (٢) . ومن الواضح أن هذا الاتجاه كان خاطئاً لأن الملك غازى كمشتكين بن دانشمند كان قد نقل بوهيموند بعيداً فى قلعة نيكسار على حدود بلاده ، أى فى المنطقة الجبلية الواقعة على حافة البحر الأسود ، الأمر الذى تطلب من الصليبيين المغامرة للوصول إلى تلك الأطراف النائية(٣) ولكن اللمبارديين ردوا على ذلك الاعتراض بأنه إن لم يمكن الوصول إلى بوهيموند فيكفى الانتقام له بتدمير أماسية وسيواس ، وهما المدينتان الرئيسيتان لبنى دانشمند . وهكذا أدى جهل اللمبارديين بطبيعة البلاد وعدم رغبتهم فى الاستماع للنصح إلى الأنحراف بحملة سنة ١١٠١ عن طريقها الطبيعى ، مما عرضها لكوارث بالغة(٤) .

وكان أن أذعن البيزنطيون والأمير ريموند الصنجيلى وبقية الصليبيين لرأى اللمبارديين ، فوصلت الحملة إلى أنقرة فى أواخر يونيه سنة ١١٠١ واستولت عليها فى سهولة ، ومن هنالك اتجه الصليبيون فى الاتجاه الشمالى الشرقى إلى كنغرى ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على هذه المدينة ، فاتجهوا شمالا للاستيلاء على قسطمونى على ساحل البحر الأسود . وهنالك أخذ التعب يحل بالصليبيين لصعوبة

---

(1) Runciman : op. cit; II p. 21.

(٢) ذكر ابن الأثير أن هدف تلك الحملة الصليبية كان تخليص بوهيموند من الأسر فقال : «... وصل من البحر سبعة قامصة من الفرنج وأرادوا تخليص بيمند..» (الكامل ؛ حوادث سنه ٤٩٣ هـ).

(3) Setton : op. cit. I, P 354

(4) Grousset : Hist des Croisades, I, P 324-325

البلاد وجدبها وطول الطريق وقلة المؤن ، بعد أن دأب قلج أرسلان على الانسحاب من أمامهم ، مدمراً كل ما يمكن أن يستفيدمنه الصليبيون ، وبخاصة مواد التموين(١) .

وفى ذلك الوقت أخذت تتجمع قوى الأتراك المشتتة لمواجهه الخطر الصليبى الجديد ، فأسرع قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ورضوان ملك حلب السلجوقى لنجدة الملك غازى كمشتكين ، واستعد الجميع للمعركة الحاسمة بين أماسية وسيواس(٢). وعندما وقعت الواقعة فى أوائل أغسطس سنة ١١٠١ كان اللمبارديون — وهم السبب فى تلك الكارثة — أول من ولى الأدبار ، وعبثاً حاول الأمير ريموند الصنجيلى وبقية الأمراء الفرنسيين والألمان حثهم على الثبات والمقاومة . وهكذا اضطر ريموند ومعه القوات البيزنطية التى رافقت الصليبيين إلى الانسحاب ، ولم يلبث ريموند أن فر شمالا نحو البحر الأسود — قرب سينوب — ومن هناك ركب سفينة إلى القسطنطينية(٣) .

وكان فرار ريموند بمثابة إعلان نهاية تلك الحملة ، إذ لم يلبث بقية الأمراء الصليبيين أن لاذوا بالفرار واستطاع معظمهم الوصول سالمين إن ميناء سينوب البيزنطي ، ولكن بعد أن تركوا فى أيدى الأتراك أتباعهم ونساءهم وأطفالهم ومتاعهم ... ، وبذلك استولى السلاجقة على صفقة رابحة من الأسرى والغنائم . وبعد ذلك أخذ الأتراك فى مطاردة فلول الصليبيين ، فقتلوا منهم عدداً ضخماً قدره المؤرخون الصليبيون أنفسهم بما يتراوح بين مائة وستين ألفاً ، وخمسين

(1) Rnnciman: op cit; II P 22

(٢) ذكر ابن الاثير أن المسلمين نصبوا كمينا للصليبيين ، حتى إذا ما وصلوا إلى ذلك الموضع بين أماسية وسيواس «خرج الكمين عليهم»
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ)

(3) Albert d'Aix PP 569-570 &
Foucher de Chartres, P. 377

ألفاً[١] فى حين ذكر ابن الأثير أنه « لم يفلت أحد من الفرنج وكانوا ثلاثمائة ألف غير ثلاثة آلاف هربوا ليلا وأفلتوا مجروحين[٢] » .

وهكذا محت تلك الكارثة التى حلت بالصليبيين على أيدى السلاجقة الأثر الرنان الذى تركه انتصار الصليبيين على السلاجقة فى ضوريليوم سنة ١٠٩٧ . وزادمن وقعها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة ، إذ لم يلبث أن وصل إلى القسطنطينية فى منتصف يونية سنة ١١٠١ وليم الثانى كونت نفرز Nevers (٨٩ ١ — ١١٠٧) على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاه الفرنسيين[٣] . وقد أظهر أولئك الصليبيون الجدد رغبة فى اللحاق بإخوانهم اللمبارديين ، فأدركوا أنقرة فى غير صعوبة ، ومن هناك لم يستطيعوا اقتفاء أثر اللمباريين ، فاتجهوا نحو قونية التى وجدوها محصنة تحصيناً قوياً ففشلوا فى الاستيلاء عليها[٤] . وفى ذلك الوقت كان السلاجقة قد فرغوا من إبادة حملة اللمبارديين السابقة ، فتقدم قلج أرسلان والملك غازى بن دانشمند نحو أولئك الصليبيين الجدد ، واستطاعوا أن يبيدوهم إبادة شبه تامة قرب مدينة هرقلة فى أواخر أغسطس سنة ١١٠١ . ولم يتمكن كونت نفرز من الفرار من مدينة أرمناك البيزنطية إلا فى صعوبة بالغة ، ومنها أخذه بعض البيزنطيين إلى أنطاكية[٥] .

وفى الوقت الذى كانت تلك الجموع الفرنسية تسعى إلى حتفها فى آسيا الصغرى ، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الحملة المشئومة فى أوائل يونيه سنة ١١٠١ إلى القسطنطينية ، وقد تألفت من ستين ألف صليبى بزعامة وليم التاسع دوق اكوتين — وهو شاعر التروبادور الشهير — وولف الرابع دوق بافاريا . وعندما عبر

(1) Albert d'Aix, p.p. 571-572.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ

Setton : op. cit I P 358.

(4) Runciman ; op cit II P. 26

(5) Albert d'Aix. PP 575-578.

هؤلاء الصليبيون البسفور على سفن بيزنطية ، تعرضوا أثناء عبورهم الأناضول الكثير من المتاعب بسبب صعوبة البلاد ونقص الماء والزاد [١] . وقد اتبع الأتراك مع تلك المجموعة من الصليبيين الخطة نفسها التى اتبعوها مع من سبقهم من الصليبيين ، فتركوا المدن مفتوحة أمامهم بعد إخلائها تماماً ، مع إحراق أو إتلاف كل ما يمكن أن يفيد منه الصليبيون من مؤن وخلافه ، حتى إذا وصل الصليبيون فى طريقهم إلى أقصى ما يمكن أن يصلوا إليه من جوع وظمأ وإنهاك ، هاجموهم وقضوا عليهم فى سهولة [٢] . وهكذا وصل الصليبيون إلى قونية ليجدوا المدينة خاوية الوفاض ، فواصلوا زحفهم فى الوقت الذى اجتمع قلج أرسلان سلطان قونيه والأمير غازى بن دانشمند وقراجا أمير حران ، وتربصوا جميعا للصليبيين على مقربة من هرقلة . وعندما انقض الأتراك على الصليبيين فى أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ أبادوا الجيش الصليبي أولا عن آخر ، ولم يتمكن من النجاة بصعوبة إلا قلة قليلة ، منهم وليم التاسع دوق اكوتين وولف الرابع دوق بافاريا ، فاتجها إلى طرسوس ، ومنها إلى أنطاكية [٣] .

وهكذا لقيت حملة سنة ١١٠١ بأقسامها الثلاثة مصيرها المشئوم الذى جرتها إليـه جموع اللمبارديين . ولو كان اللمبارديون استمعوا للنصح فى أول الأمر ولم يتجهوا إلى شمال شرق الأناضول ، لأمكن لهذه الحملة أن تبدأ بداية طيبة ، وأن تتفادى الكوارث التى حلت بها . ولاشك فى أن هذه الحملة كانت لها نتائج خطيرة ، أهمها تقوية الروح المعنوية عند الأتراك بعد أن تمكنوا من إنزال تلك الهزائم المتتالية بالصليبيين ، مما محا أثر الهزيمة التى حلت منذ سنوات بالسلاجقة فى ضورليوم [٤] . وبذلك انسد طريق آسيا الصغرى مرة أخرى فى

(1) Matthieu d'Edesse (Hist Arm I) p 59
(2) Setton : op cit; I pp 361-362
(3) Foucher de Chartres p 399 & Guibert de Nogent p 243
(4) Runciman : op cit I, p 29

وجه الصليبيين؛ بعد أن كانت الحملة الأولى قد نجحت في اقتحامه وفتحه، واستمر هذا الطريق مغلقا طوال عدة سنوات مقبلة ، أى حتى أيام فردريك بربروسا فى أواخر القرن الثانى عشر . أما بالنسبة للموقف فى بلاد الشام ، فإن الكارثة التى حلت بحملة سنة ١١٠١ حرمت الصليبيين فى الشام من آلاف عديدة من الرجال كانت الإمارات الصليبية الناشئة — ومملكة بيت المقدس بوجه خاص — أحوج ما تكون إليهم للدفاع عن كيانها ، بعد أن تناقص عدد الصليبيين بالشام بصورة ملحوظة[١]. وأما بالنسبة للمدن التجارية الإيطالية ، فإن انسداد الطريق البرى مرة أخرى إلى الشام جعل اعتماد الصليبيين فى الشرق على الطريق البحرى الذى سيطرت عليه الأساطيل الإيطالية ، مما ضاعف من مكاسب البندقية وجنوا وبيزا وغيرها من قوى الغرب البحرية[٢] .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 332-333
(2) Runciman. op. cit; I. p. 30.

الفصل الثانى

ريموند وتأسيس إمارة فى الشام

تنازل ريموند عن مطالبه فى أنطاكية واللاذقية :

اتجه بعض أمراء حملة سنة ١١٠١ الصليبية — بعد الكارثة التى حلت بهم — إلى أنطاكية ، فى حين استطاع معظم الناجين الفرار إلى القسطنطينية ، حيث أعدلهم الامبراطور ألكسيوس كومنين فى أوائل سنة ١١٠٢ سفنا حملتهم إلى الأراضى المقدسة [١]. وكان أن صحب ريموند الصنجيلى الفريق الأخير إلى الشام ، فوصلوا فى غير صعوبة إلى السويدية ، وهو الميناء الطبيعي لأنطاكية ، ولكن ريموند لم يكد ينزل إلى البر فى يناير ١١٠٢ حتى قبض عليه أحد الفرسان ، متهما إياه بخيانة الصليبيين فى الأناضول ، مما عرضهم للكارثة التى حلت بهم ، وانتهى الأمر بتسليم ريموند لغريمه تنكرد الذى اعتقله فى قلعة أنطاكية [٢]. ولم يلبث تنكرد أن وجه إلى ريموند تهمة خيانة الصليبيين الغربيين والتواطؤ مع الدولة البيزنيطة ضدهم وضد مصالحهم بالشام . ولكن تنكرد وافق — تحت ضغط الأمراء الصليبيين — على إطلاق سراح ريموند ، بشرط أن يتعهد بالتنازل عن جميع ادعاءاته ومطالبه ، ليس فى أنطاكية فحسب ، بل فى اللاذقية أيضا . وعندما وافق ريموند على ذلك وأقسم على التخلى عن جميع المطالب السابقة ، أطلق تنكرد سراحه [٣].

---

(1) Chalandon : Alexis Comnene, P. 231

(2) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar, I); P. 27

(2) Albert d'Aix, P. P. 582-583.

ولا شك فى أن هذه الاتفاقية جاءت فاتحة خير بالنسبة للصليبيين بالشام ، لأنها وضعت حدا للتنافس بين النورمان بزعامة بوهيموند ثم تنكرد من ناحية،وبين أبناء بروفانس بزعامة ريموند الصنجيلى من ناحية أخرى ، وضمنت لإمارة أنطاكية اعترافا جديداً بوجودها مماثبت أركانها.هذا فضلا عن أن ريموند أخذ منذ ذلك الوقت يعمل لحسابه الخاص على ساحل الشام، بعد أن كان معظم نشاطه السابق مكرسا لخدمة الإمبراطورية البيزنطية وتنفيذ سياستها ، فاتجه نحو تأسيس إمارة لنفسه على حساب المسلمين بدلا من العمل على تقويض أركان إمارة أنطاكية الصليبية[1]. ويبدو أن ريموند أدرك أخيراً أن سياسته فى محالفة الإمبراطور البيزنطى لم تأت له بثمرة سوى الخسارة الفادحة ، إذ اعتبر الصليبيون هذه السياسة خيانة لهم ؛ فى حين اكتشف الامبراطور البيزنطى فى نهاية الأمر أن حليفه ريموند أضعف من أن يقدم له معونة فعلية تخدم مطامع الامبراطورية ضد الصليبيين بالشام[2] .

استيلاء ريموند على أنطرطوس :

وعندما اتجهت بقايا حملة سنة ١١٠١ من أنطاكية إلى بيت المقدس للحج ، فكر ريموند الصنجيلى فى الاستفادة من تلك البقايا فى الاستيلاء على أنطرطوس (طرطوس)،وهى المدينة التى كانت وقت مجىء الحملة الصليبية الأولى تابعة لبنى عمار — أمراء طرابلس — حتى استولى عليها ريموند سنة ١٠٩٩ ثم سنة ١١٠٠. ولكن بنى عمار عادوا فاستردوها أثناء غياب ريموند مع الحملة اللمباردية فى آسيا الصغرى، مما جعل ريموند يحرص على الاستيلاء عليها من جديد . وفعلا بدأ حصار

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 334-335

(2) Runciman : op. cit; II, p. 56.

انطرطوس بمساعدة من معه من زعماء حملة ١١٠١ الفاشلة[1] . وصادف فى ذلك الوقت وصول أسطول جنوى إلى الشام،فاستعان به ريموند فى حصار المدينة من ناحية البحر حتى سقطت المدينة فى يده فى فبراير سنة ١١٠٢[2]. ولم يكد ريموند يستولى على انطرطوس حتى اتخذها قاعدة لأعماله ومشروعاته المقبلة على ساحل الشام ، وأول هذه المشروعات فتح مدينة طرابلس ذاتها[3] .

وكان صاحب طرابلس عندئذ هو القاضى فخر الملك أبو على بن عمار(١٠٩٩- ١١٠٨) الذى سبق أن رأينا سياسته المرنة تجاه الحملة الصليبية الأولى ، وكيف أنه لم يعاد الصليبيين ، حتى عندما هاجموا عرقة التابعة له ، أو طرابلس ذاتها . كذلك أشرنا إلى أن القاضى فخر الملك هذا حالف بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وحذره من الكمين الذى نصبه سلاجقة دمشق . والواقع إن فخر الملك لم يأت بجديد فى سياسته هذه ، إذ حرص أسلافه دائماً على الاحتفاظ باستقلالهم وسط النزاع بين الفاطميين من ناحية وسلاجقة الشام من ناحية أخرى. وكذلك حرص هو على أن يمسك العصا من الوسط بين الفاطميين والدماشقة من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى[4] .

على أن الموقف تبدل عندما استولى ريموند على أنطرطوس وأخذ يصر فى عناد على الاستيلاء على طرابلس ، فعندئذ أصبح لزاما على فخر الملك أن يقبل مضطراً مبدأ الحرب دفاعا عن كيانه ، وأن يلقى بنفسه — مكرها أيضاً — بين أحضان القوى الاسلامية القريبة لمواجهة ذلك الخطر[5]. وكان أن أرسل فخر الملك أبو على بن عمار مستنجداً بملك دمشق دقاق من ناحية ، وبأمير حمص

---

(1) Albert d'Aix: p. 583.
(2) Heyd : op cit, I, p. 139.
(3) Archer : op. cit P. 156
(4) Grousset : Hist : des Croisades, I; p. 337.
(٥) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

— جناح الدولة — من ناحية أخرى . وفى ذلك الوقت كان أعوان ريموند من الصليبيين قد اتجهوا نحو بيت المقدس ، ولم يبق معه سوى جيش صغير من ثلثمائة رجل ، استغلهم فى مهاجمة الجهات القريبة ، بل لقد بلغت به الجرأة حد مهاجمة طرابلس نفسها بذلك الجيش الصغير[١] . وكان من الممكن للمسلمين إذا تعاونوا أن يقضوا على ريموند وهو فى تلك القوة الصغيرة ، إذ يذكر ابن الأثير أن فخر الملك أرسل إلى دقاق وإلى صاحب حمص يقول لهما «من الصواب أن نعاجل صنجيل إذ هو فى هذه العدة القريبة»[٢] .

وكان أن أرسل جناح الدولة صاحب حمص قوة إلى طرابلس ، كما أرسل دقاق ألفى فارس ، واجتمعت تلك الجيوش مع جيش ابن عمار عند أسوار طرابلس حيث بدأت المعركة ضد ريموند . وهنا يروى ابن الأثير كيف ثبت ريموند ، فخصص مائة من رجاله لقتال أهل طرابلس ، ومائة لقتال الدماشقة ، وخمسين لقتال عسكر حمص ، واحتفظ لحراسته بالخمسين الباقين . وبفضل تلك الخطة استطاع ريموند أن ينزل الهزيمة بالمسلمين الذين قتل منهم سبعة آلاف فى حين ارتد الباقون داخل أسوار طرابلس[٣] .

ومهما يكن فى هذا القول من مبالغة واضحة ، فالذى يهمنا هو أن ريموند لم يشأ أن يضيع ثمرة انتصاره ، وإنما شرع فى حصار طرابلس فوراً ، وأقبل لمساعدته المسيحيون من الجهات القريبة مثل الجبل والسواد . ولكن يبدو أن ريموند سرعان ما أدرك صعوبة المهمة التى تنتظره وأن طرابلس ليست بالسهولة التى يظنها ، فقنع بما عرضه علية صاحب طرابلس من جزية من المال

---

(1) Raoul de Caen. P. 707

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

والخيل ، وانسحب بعد ذلك إلى أنطرطوس (مارس — ابريل ١١٠٢)[١]

ريموند وإمارة حمص :

وبعد أن عقد ريموند الهدنة السابقة مع ابن عمار ، خرج فى ربيع سنة ١١٠٢ لغزو سهل البقاع حيث كانت ممتلكات أمير حمص تمتد غربا حتى جبل عكار. وقد بدأ ريموند أولا بمهاجمة حصن الطوبان — إلى الشمال الشرقى من حصن الأكراد — وذلك لأن ابن العريض مقدم حصن الطوبان أسر فارسا من « أكابر فرسانه » ورفض إطلاق سراحه مقابل مبلغ كبير من المال [٢]. وفى السنة نفسها — ١١٠٢ — هاجم ريموند حصن الأكراد أيضاً ، وهو حصن يمتاز بموقعه الحربى الفريد حيث أنه شرف على كل الإقليم بين أنطرطوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى [٣] . وكان ريموند قد سبق أن استولى على حصن الأكراد فى يناير سنة ١٠٩٩ ، ولكن أمير حمص عاد فاسترده . وعندما سمع جناح الدولة صاحب حمص أن ريموند عاد إلى تهديد حصن الأكراد سنة ١١٠٢ ، أخذ يستعد ويجمع قواته للدفاع عنه ، عندما دهمه ثلاثة من الباطنية فى جامع حمص الكبير أثناء تأديته الصلاة ، وقتلوه بغتة فى مايو سنة ١١٠٢ [٤] .

---

(١) المرجع السابق & Raoul de Caen, P 707.

ويذكر ابن الأثير أن ريموند عندما انصرف من منطقة طرابلس إلى أنطرطوس فتح هذه المدينة الأخيرة . والحقيقة إن فتح أنطرطوس سبق زمنياً الموقعة بين ريموند من ناحية وقوات طرابلس وحمص ودمشق من ناحية أخرى .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٥ هـ.

(3) Stevenson op. cit; p. 54.

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (Rec. Hist. Or P.P. 525-526)

وابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ

ويروى صاحب مرآة الزمان أن أولئك الباطنية كانوا من العجم وأنهم اقتربوا =

ولاشك فى أن هذه الجريمة التى خلصت ريموند من ألد خصومه تعطينا فكرة واضحة عن مدى انحلال المحيط الإسلامى فى بلاد الشام عندئذ، مما مكن الصليبيين من تحقيق أطماعهم وسهل عليهم الحصول على مكاسب كبيرة، ما كانوا ليحصلوا عليها بتلك السهولة لولا ذلك الانحلال فى صفوف خصومهم [١] والتاريخ لا يتهم فى جريمة مقتل جناح الدولة سوى رضوان ملك حلب، الذى ربطته به رابطة وثيقة. ذلك أن جناح الدولة كان متزوجا من أم رضوان، ولكن النزاع دب بين الرجلين سنة ١١٠٠، مما جعل رضوان يستأجر ثلاثة من الباطنية الفرس لتنفيذ جريمته الوحشية فى زوج أمه [٢].

ولم يكد ريموند يسمع بمقتل جناح الدولة صاحب حمص، حتى أسرع بمغادرة حصن الأكراد واتجه صوب حمص ذاتها، للاستفادة من حالة الاضطراب والقلق التى غدت فيها المدينة بعد مقتل صاحبها. وفعلا وصل ريموند إلى حمص «ونازلها وحصر أهلها وملك أعمالها [٣]» فأرادت الخاتون - أرملة جناح الدولة - أن تستدعى ابنها رضوان صاحب حلب للدفاع عن حمص؛ ولكن رجال جناح الدولة عارضوا ذلك الاتجاه، وفضلوا أن يستنجدوا بدقاق ملك دمشق. وعندما أحس ريموند باقتراب دقاق، أدرك أن قوته أصغر من أن تستطيع الوقوف بين نارين، فقنع بما فرضه على حمص من جزية مالية وانصرف عنها.

= من جناح الدولة وهم فى زى الزهاد وأخذوا يدعون له ويستحثونه ثم ضربوه بسكاكينهم فخر قتيلا.

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن صاحب حمص حسين بن ملاعب جناح الدولة بأنه «كان أميرا مجاهدا شجاعا يباشر الحروب بنفسه» النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٨.

(٢) ذكر أبو المحاسن أن سبب قتل حسين بن ملاعب جناح الدولة «أنه كان عند رضوان بن تتش ملك حلب منجم باطنى، فندب لقتل جناح الدولة هذا أولئك النفر، ثم قتل المنجم بعد ذلك بأربعة عشر يوما». (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٩)

أما ابن الاثير فقد قال فى صراحة: «وقيل إن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله» (الكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ)

(٣) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٥ هـ

وهكذ وضع دقاق يده على حمص ، وأناب عنه فى حكمها أتابكه طغتكين (أيتكين)[1] .

أما عن ريموند الصنجيلى فقد عاد أدراجه لينوم بعماية حربية أخرى ناجحة . ذلك أنه انتهز فرصة وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية فى شتاء سنة ١١٠٣ واستغل تلك القوة البحرية فى مهاجمة طرابلس. وعندما فشل الصليبيون فى الاستيلاء على طرابلس «لم يروا فيها مطمعاً»، اتجهوا جنوباً لمهاجمة جبيل[2] ، وهى قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس وبيروت ، وكانت هى الأخرى تابعة لبنى عمار[3] . ولم تستطع جبيل الصمود فى وجه الحصار البحرى الذى فرضه الجنوية ، والهجوم البرى من جانب ريموند ، فاضطرت إلى الاستسلام فى أواخر سنة ١١٠٤[4] . ويرى ابن الأثير أن الصليبيين لم يفوا بالأمان الذى منحوه لأهالى جبيل ، فأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب[5]. أما الجنوية فقد كافأهم ريموند بإعطائهم ثلث جبيل، مما مهد فيما بعد لأن تصبح جبيل ذاتها مستعمرة جنوية لها أهميتها تحت إشراف أسرة أمبرياتشى Embriaci[6] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist, Or. P 591)

(2) Heyd; op cit I, P 139

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ ،

(4) Albert d'Aix P. 606.

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(6) Heyd: op. cit. I, PP 139-141; 150 & 158

وكان الاسطول الجنوى الذى ساعد ريموند فى الاستيلاء على جبيل بقيادة أمير البحر هيوامبرياتشى .

خاتمة ريموند الصنجيلي :

وبالاستيلاء على انطرطوس فى الشمال وجبيل فى الجنوب تم وضع الإطار الخارجى لإمارة طرابلس الصليبية ، ولم يبق سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة ، وهى مدينة طرابلس ذاتها . ولكن هذه المدينة كانت محصنة تحصيناً طبيعياً يجعل من الصعب على ريموند انتزاعها ، إذ أنها قائمة على شبه جزيرة داخلة فى البحر ، مما مكن صاحبها ابن عمار من الحصول على ما يحتاج إليه من مؤن عن طريق البحر فى حالة حصار مدينته براً . لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة أسماها المسلمون قلعة صنجيل نسبة إلى ريموند (Saint-Gilles) فى مواجهة طرابلس مباشرة ، أى على الجبال المقابلة لها ، وذلك لإحكام الرقابة عليها وقطعها عن العالم الداخلى . وأعانه فى بناء هذه القلعة الامبراطور البيزنطى الذى أرسل له الميرة والأخشاب والمعدات اللازمة لبنائها من جزيرة قبرس[١] . وهكذا أصبح موقف ابن عمار فى طرابلس خطيراً ولم يعد أمامه طريق للاتصال بالعالم الخارجى سوى طريق البحر ، فى حين تكاتف المسيحيون المحليون — من الموارنة وغيرهم — مع ريموند لإحكام الحصار المفروض على طرابلس[٢] .

وتروى المراجع العربية أن بنى عمار حاولوا هدم قلعة صنجيل (أغسطس — سبتمبر ١١٠٤) وإشعال النار فيها ، ولكنهم لم يحققوا غرضهم[٣] . وكل ما هنالك هو أن ريموند أصيب بجروح نتيجة لسقوط بعض أجزاء القلعة المشتعلة

(١) ابن الاثير : الكامل ، سنة ٤٩٩ هـ &

(٢) المرجعان السابقان . Guillaume de Tyr, I. p. 441.

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ

عليه . ويشير صاحب مرآة الزمان إلى أن ريموند توفى بعد أن عقد هدنة مع ابن عمار تقضى بأن يكون للأول « ظاهر طرابلس دون أن يقطع الميرة والمسافرين عنها » ولكن هذا الرأى الأخير لا يوجد ما يدعمه فى المراجع الصليبية ، فضلا عن بقية المراجع العربية [١] .

ومهما يكن من أمر ، فإن ريموند لم يلبث أن توفى فى قلعة صنجيل فى نهاية فبراير سنة ١١٠٥ متأثرا بجروحه ، قبل أن يحقق أمنيته فى الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام مثل أنطاكية أو بيت المقدس، يتخذها مركزاً لإمارة جديدة لنفسه . وإذا كانت مدينة طرابلس ذاتها لم تسقط فى يد ريموند ، إلا أنه صاحب الفضل فى تأسيس إمارة طرابلس ووضع إطارها العام وتسهيل مهمة الاستيلاء عليها أمام خلفائه .

وقد شاءت الظروف أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى بالشام تسقط فى أيدى الصليبيين وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية فى بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين فى أواخر القرن الثالث عشر. فالرها التى سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٨ عادت إلى المسلمين سنة ١١٤٤ ، وبيت المقدس التى استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٩ استردها المسلمون سنة ١١٨٧ ، وأنطاكية التى غزاها الصليبيون سنة ١٠٩٨ استعادها المسلمون ١٢٦٨ . أما طرابلس التى لم تقع فى أيدى الصليبيين إلا سنة ١١٠٩ ، فقد ظلت باقية فى قبضتهم حتى سنة ١٢٨٩ [٢] .

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (P 528)

(3) Grousset : Hist des Croisades I. PP. 344-345.

الفصل الثالث

أعمال وليم جوردان

وليم جوردان وحصار طرابلس :

ترك ريموند الصنجيلي ابنه الأكبر برتراند يحكم أملاكه في الغرب الأوربي (تولوز) ؛ في حين اختار أفضال ريموند وفرسانه في الشام ابن خالته وليم جوردان ليتابع سياسته في الشرق . وكان أن استأنف وليم سياسة ريموند بجميع أركانها، فاحتفظ بالعلاقات الطيبة مع البيزنطيين من جهة ، واستمر في إحكام الحصار البرى حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيل من جهة أخرى[١]. ودليل ذلك كله مايرويه ابن الأثير من أن الإمبراطور البيزنطي « أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس، فحملوها في البحر (من قبرس) »[٢]. وقد دارت عندئذ معركة بحرية بين السفن البيزنطية وسفن بني عمار ، أسرت فيها سفينة بيزنطية واقتادها المسلمون إلى ميناء طرابلس[٣]

على أن ابن عمار وجد نفسه في حاجة إلى معونة خارجية عاجلة لمقاومة حصار وليم جوردان ، وبخاصة بعد أن ساءت أحوال طرابلس وارتفعت أسعار الطعام فيها ارتفاعاً فاحشاً ، وهجرها الفقراء وافتقر الأغنياء وفشلت جهود فخر الملك بن عمار في تخفيف حدة الأزمة[٤] . ولما كان ابن عمار لايستطيع طلب هذه المعونة

(1) Runciman : op. cit, II. p. 62.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ — ١٦٣ .

من طغتكين أتابك دمشق وحمص بسبب ماوقع بين الطرفين من خلاف وعداء، أو من الفاطميين الذين يرغبون فى انتزاع طرابلس لأنفسهم من بنى عمار ، فإنه لم يبق سوى الأمير الأسبق لبيت المقدس وهو سكمان بن أرتق التركمانى الذى أصبح عندئذ صاحب حصن كيفا فى ديار بكر . وكان أن تحرك سكمان فعلا لنجدة طرابلس ولكنه لم يلبث أن توفى فى الطريق ، وبذلك انقطع آخر أمل تعلق به بنو عمار للحصول على معونة خارجيـــــة تمكنهم من إنقاذ طرابلس (سنة ١١٠٥) [١] .

وهكذا ضاقت دائرة الحصار حول طرابلس ، فاضطر أهلها إلى بيع ما لديهم «من الحلى والأوانى الغريبة » لشراء ما يلزمهم من قوت ، فى حين آثر بعضهم الفرار إلى صفوف الفرنجة [٢] . ومع ذلك فقد استمرت المدينة تقاوم الحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل قوة عزيمة ابن عمار من ناحية ، وافتقار الصليبيين إلى أسطول بحرى يحكم الحصار على طرابلس من ناحية البحر من ناحية أخرى [٣] . ويبدو أن ثراء طرابلس وكثرة ما فيها من ذهب وفضة ، ثم استعداد أهلها فى محنتهم لدفع الأثمان الباهظة مقابل القليل من الغذاء ، ساعد كل ذلك على تهريب المؤن إليها من جزيرة قبرص البيزنطية ، بل من إمارة أنطاكية الصليبية « وجزاير البنادقة » [٤]

وإزاء إصرار الصليبيين على حصار طرابلس ، اضطر فخر الملك ابن عمار إلى السفر فى ربيع سنة ١١٠٨ إلى بغداد لطلب النجدة من زعيمي العالم الإسلامى فى المشرق ، وهما الخليفة المستظهر العباسى (١٠٩٤ — ١١١٨) والسلطان محمد السلجوقى (١١٠٤ — ١١١٧) [٥] . وقد أناب فخر الملك عنه فى حكم طرابلس

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ ، ٤٩٩ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ

(3) Setton ; op. cit; P. 396.

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥

ابن عمه ذو المناقب بن عمار ، ودفع مرتبات الجند لستة أشهر مقبلة ، ثم اتجه إلى بغداد حاملا معه الهدايا الفاخرة للعاهلين العباسي والسلجوقي (١) . وتلقى رواية ابن الأثير عن رحلة ابن عمار إلى بغداد ضوءاً ساطعاً على مدى تفكك المسلمين فى المشرق عندئذ ، وانحلال الخلافة العباسية ، فضلا عن السلطنة السلجوقية ، إذ لم يجد ابن عمار من الطرفين سوى الكلمات المعسولة والسؤال «عن حاله وما يعانيه فى مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر فى قتالهم » ؛ ولكنه لم يظفر بشيء من المعونة المنشودة ! (٢) .

وهكذا لم يسع ابن عمار سوى أن ينصرف عائداً إلى إمارته فى أغسطس سنة ١١٠٨ بخفى حنين ؛ ولكنه لم يكد يصل إلى الشام حتى سمع أن طرابلس نفسها قد طارت من يده أثناء غيابه . ذلك أن أهل طرابلس عندما ضاق بهم الحال أرسلوا إلى الوزير الأفضل الجمالى فى القاهرة يطلبون منه حماية الدولة الفاطمية لهم ؛ ويعرضون عليه تسلم المدينة للدفاع عنها ؛ فأرسل إليهم شرف الدولة ابن أبى الطيب والياً سنة ١١٠٨ «ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون إليه أهل البلاد فى الحصار . فلما سار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجده من آلاته وذخائره وغير ذلك وحمل الجميع إلى مصر فى البحر » . وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بنى عمار وآلت إلى الفاطميين (٣) . ولم يبق لابن عمار بعد ذلك سوى جبلة ، وهى قلعة صغيرة على الساحل بين اللاذقية والمرقب (٤) .

ولكن إذا كان الفاطميون قد حققوا أمنيتهم فى امتلاك طرابلس إلا أنهم

---

(1) Stevenson : op. cit, p. 56.

(٢) سبط ابن الجوزى P 535 &

ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ.

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان P 539

كانوا أضعف من أن يستطيعوا حمايتها . ويعبر أبو المحاسن عن ذلك بالتنديد بعدم اكتراث الفاطميين بالفرنج « من كل وجه وتقاعدهم عن المسير »[١] .

استيلاء وليم جوردان على عرقة :

ولم يلبث أن كثر الطامعون فى حطام إمارة بنى عمار ، فبينما فاز الفاطميون بمدينة طرابلس ذاتها ؛ إذا بطغتكين أتابك دمشق يسعى للاستيلاء على عرقه الواقعة شمالى طرابلس. والمعروف أن حصن عرقه كان « من الحصون المنيعة »[٢]، ويتمتع بموقع حربى هام لأنه بمثابة البـاب الشمالى لطرابلس ، ويؤدى استيلاء الدماشقة عليـه إلى قطـع الطريق على الصليبيين بين أنطرطوس (طرطوس) وطرابلس[٣] .

وكان فخر الملك أبو على ابن عمار فى أواخر أيام حكمه قد عهد بقلعة عرقة إلى أحد رجاله ، ولـكن هذا « الغلام » طمع فى الاستقلال بعرقه « وعصى على مولاه » ؛ وفى الوقت نفسه لم يستطع الصمود فى وجه وليم جوردان فعرض على طغتـكين أن يعطيه إياها ، وبعث إليه يقول « أرسل من يتسلم هذا الحصن منى ، قد عجزت عن حفظه ، ولأن يأخذه المسلمون خير لى دنيا وآخرة من أن يأخذه الفرنج » . لذلك أرسل طغتـكين على الفور ثلثمائة من رجاله إلى عرقه تحت رآسة رجل اسمه اسرائل[٤] .

وعندما خرج طغتـكين من دمشق فى مارس سنة ١١٠٨ للقيام بعدة هجمات

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة سنة ٥٠٢ ﻫ .
(٢) ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ ﻫ .
(3) Stovenson : op. cit, p 56.
(٤) ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ ﻫ .

على التلاع الصليبية القريبة ، ولزيارة حصن عرقة « والاطلاع عليه وتقويته بالعساكر والأقوات وآلات الحرب » ؛ تصدى له وليم جوردان،فلاذ الدماشقة بالفرار، وعلى رأسهم طغتكين نفسه ، وظل وليم يطاردهم حتى مشارف حمص ، ثم عادمتجهاً صوب شيزر . وقد حاول الأخوان مرشدوسلطان — أميراشيزر — الايقاع بوليم جوردان وأسره ، ولكنه انتصر عليهما[١] . وهكذا عاد وليم بعد ذلك النصر المزدوج ليستولى على عرقه التى سقطت بعد حصار ثلاثة أسابيع (ابريل سنة ١١٠٨) . ويروى بعض المؤرخين الصليبيين أن حامية عرقه عندما يئست من المقاومة فرت ليلا وتركت القلعة خالية ليحتلها الصليبيون فى الصباح التالى[٢] ؛ فى حين يؤكد ابن الأثير أن أهل عرقه طلبوا « الأمان ، فأمنهم (جوردان) على نفوسهم»[٣] .

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٥٠ . ويطلق أسامة وابن الاثير على وليم جوردان اسم « السردانى » .

(2) Albert d'Aix, p 663.

(٣) ابن الأثير :الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

الفصل الرابع

برترام وظهور إمارة طرابلس

التنافس بين وليم جوردان وبرترام :

وهكذا ظل وليم جوردان أكثر من ثلاث سنوات يواصل جهوده الصليبية على ساحل الشام، مؤملا أن يتوج تلك الجهود بالاستيلاء على طرابلس نفسها . ولكنه قبل أن يتمكن من تحقيق تلك الأمنية تعرض لمنافس خطير وصل إلى الشام لينتزع منه تلك الإمارة الصليبية الجديدة التي أوشكت أن تولد . ولم يكن هذا المنافس سوى برترام (برتراند) الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، وصاحب الحق الشرعي في تركة أبيه [1] .

وكان برترام قد أعد العدة لرحلته إلى الشرق، وعمل حساب ما قد يواجهه من مصاعب ، فخرج من بلاده ـ بروفانس ـ على رأس أربعة آلاف فارس يحملهم أسطول قوى من أربعين سفينة . ويبدو أن برترام أتى إلى الشام وقد وضع في برنامجه ضرورة الاستيلاء على مدينة طرابلس ، لأنه حرص في طريقه من الغرب على أن يمر بجنوا حيث أجرى مباحثات عن الشروط التي تقبل بها جنوا مساعدته في تحقيق أغراضه[2]. هذا في الوقت الذي كان وليم جوردان من ناحية أخرى

---

(١) خلف برترام أباه ريموند الصنجيلي في إمارة تولوز كما سبق أن ذكرنا . ولكن حق برترام في وراثة أبيه كان مزعزعا لأنه كان إبنا غير شرعي له . وكان لريموند ابن آخر شرعي صغير السن هو ألفونسو جوردان ، فاستدعاه أهل تولوز وأمروه عليهم ، وتم الاتفاق بين الأخوين سنة ١١٠٨ على أن يرث ألفونسو أباه في ممتلكاته الغربية ، في حين يرث برترام أباه في ممتلكاته بالشام . انظر :

(Runciman : op. cit, I, ps. 61, 64 – 65)

(2) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 352.

قد أدرك ضرورة الحصول على مساعدة إحدى القوى البحرية الإيطالية للاستيلاء على طرابلس ، فأرسل هو الآخر سفيراً إلى جنوا للغاية ذاتها . ولكن وجود برترام بنفسه فى جنوا جعله يكسب الجولة ، فتعهدت له جنوا بأن تساعده فى الحصول على تركة أبيه فى الشام من ناحية وفى الاستيلاء على طرابلس من الفاطميين من ناحية أخرى ، مقابل تعهد برترام بمنح الجنوية امتيازات تجارية واسعة فى طرابلس (١) . وهكذا أبحر برترام من جنوا إلى الشرق وبصحبته أسطول جنوى قوى مؤلف من ثمانين سفينة . وعندما مرت هذه الحملة بالدولة البيزنطية ، رحب الامبراطور ألكسيوس كومنين ببرترام ابن حليفه ريموند ، وأكرم وفادته فى القسطنطينية وقدم له كثيرا من الهدايا ، وفى مقابل كل ذلك أقسم برترام يمين الولاء للامبراطور ، مجدداً الحلف بين أمراء بروفانس والامبراطورية البيزنطية (٢) .

على أن الأسطول البروفنسالى — الجنوى لم يتجه نحو أنطرطوس مباشرة ، وإنما اختار برترام أن ينزل فى ميناء السويدية حيث قابل تنكرد أمير أنطاكية. وقد طلب برترام من تنكرد إعطائه نصيب أبيه ريموند فى أنطاكية ، فأجاب تنكرد بأنه مستعد لبحث هذا الموضوع بشرط أن يساعده برترام فى الحملة التى يوشك تنكرد القيام بها ضد مدينة المصيصة فى قيليقية ، لاستردادها من البيزنطيين (٣) . وعندئذ تذكر برترام عهده للامبراطور البيزنطى ، فرفض الموافقة على هذا الشرط ، الأمر الذى استثار غضب تنكرد ، فطلب منه الرحيل فوراً، وألا تطأ قدمه بعد ذلك أرض إمارة أنطاكية (٤) .

(1) Heyd : op. cit. I, 140.
(2) Albert d'Aix, p. 664.
(3) Runciman : op. cit; II, p. 66.
(4) Albert d'Aix, p.p. 665-666.

وهكذا أبحر أبحر برترام ومعه حلفاؤه الجنوية نحو أنطرطوس، التي كانت حتى ذلك الوقت أهم مركز في ممتلكات أسرة ريموند بالشام . وعندما طالب برترام قريبه وليم جوردان بتسليمه تركة أبيه من المدن والبلاد ، رد الأخير بأن هذه البلاد جميعاً من حقه وحده ، لأنه هو الذى ظل يدافع عنها ـ بعد وفاة ريموند ـ قرابة أربع سنوات، ولولاه لضاعت تلك البلاد بين المسلمين من ناحية والنورمان في أنطاكية من ناحية أخرى . هذا بالاضافة إلى أنه ـــ أى وليم ـــ ضاعف تلك التركة بالاستيلاء على عرقه وحصن عكار[1] . وبذلك تعقد الموقف بين وليم جوردان من ناحية وبرترام من ناحية أخرى ، مما جعل الأول يستنجد بتنكرد بعد أن تعهد بأن يصبح تابعاً له ، فوعده تنكرد بالحضور على رأس قواته إلى أنطرطوس للاشتراك مع وليم في طرد برترام[2] .

على أن برترام لم ينتظر وصول تنكرد ، وإنما ترك أنطرطوس واتجه على رأس قواته ـ وصحبته الأسطول الجنوى ـ إلى طرابلس ليحاصرها براً وبحراً . وفى الوقت نفسه أرسل برترام رسالة عاجلة إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس يخبره بتحالف وليم جوردان وتنكرد ضده لحرمانه من تركة أبيه ، ويطلب إليه الحضور على عجل لمساعدته ، مع تعهده بالولاء والتبعية لمملكة بيت المقدس[3] .

ولم يكن بلدوين الأول بالرجل الذى يترك تلك الفرصة تفلت من يده ، وهو الحريص على أن يجعل من مملكة بيت المقدس سلطة عليا تهيمن على جميع الإمارات الصليبية ببلاد الشام . لذلك أسرع بإيفاد رسولين إلى تنكرد ووليم جوردان لإحاطتهما علماً بأن برترام تحت رعاية الملك بلدوين نفسه وحمايته ،

---

(1) Foucher de Chartres, p. 419.

(2) Setton : op. cit. I, p. 397.

(3) Albert d'Aix, p 606.

ويحذرهما من القيام بأى عمل عدوانى ضده . ثم اختتم الملك رسالته إليهما بدعوتهما إلى الحضور لمقابلته أمام طرابلس للنظر فى رد تركة ريموند إلى ابنه برترام[١] .
ولم يلبث أن خرج بلدوين الأول على رأس خمسمائة من فرسانه قاصداً طرابلس حيث التقى به برترام ، وأقسم له يمين الولاء . أما وليم جوردان ، فذهب إلى تنكرد وأراد أن يستحثه على القتال ، ولكن الأخير هدأ من ثورته ، وصحبه إلى طرابلس حيث لحق بهما بعد قليل بلدوين دى بورج أمير الرها[٢] .

وهكذا التقى جميع زعماء الصليبيين بالشام وشمال العراق فى قلعة صنجيل أمام طرابلس ، حيث عرض النزاع بين برترام ووليم جوردان على بساط البحث. وفى ذلك الموقف أظهر الملك بلدوين الأول براعة وحكمة فى تسوية الخلافات بين صفوف الصليبيين ، فتم الصلح بين تنكرد وبلدوين دى بورج ، كما تم الصلح بين برترام ووليم جوردان[٣] . وقد قام الصلح الأخير على أساس تقسيم تركة الأمير ريموند بين المتنازعين ، فأخذ وليم جوردان عرقه وانطرطوس ، فى حين أخذ برترام قلعة صنجيل وجبيل ، علاوة على طرابلس عندما يتم فتحها. وتقرر أنه إذا مات أحدهما دون ولد فإن الآخر يرثه فى ممتلكاته .

استيلاء الصليبيين على طرابلس :

وكان النجاح فى الوصول إلى الاتفاقية السابقة إيذاناً بتوجيه جهود الصليبيين ضد طرابلس ، تلك المدينة التى ظلت تقاوم الحصار ست سنوات متواصلة. ولم يكن بوسع طرابلس فى تلك المرة أن تقاوم فرسان بيت المقدس وبروفانس وأنطاكية،

---

(1) Runciman : op. cit; II. P. 68.
(2) Grousset : op. cit, I, p.p. 355 – 356.
(3) Stevenson : op. cit. p. 57.
(4) Albert d'Aix, p. p. 668 & Guillaume de Tyr. p 466.

والرها مجتمعين ، فى الوقت الذى أخذ الأسطول الجنوى الكبير يحكم الحصار عليها من ناحية البحر [١] . ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت إجراءاً سريعا عندئذ لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ، ولكن الأسطول الذى أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظرا فى موانى الدلتا لحين صدور تعليمات بشأن الخلاف بين قادته ؛ فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت سيره . وفى تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس « وسقط فى أيديهم ، وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفاً تأخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة » [٢] . وأخيرا أبحرت العمارة الفاطمية نحو طرابلس بعد فوات الأوان ، ، ولم تكد تصل إلى مياه طرابلس نفسها « حتى وجدوا البلد قد أخذت ، فعادوا كلهم ! ! » [٣] .

وهنا يقف المؤرخ أبو المحاسن وقفة قصيرة ليلقى على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ويلومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين ، ثم يحدد مظاهر عدم الاكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور الأول تقاعدهم عن المسير تلك المدة الطويلة ؛ والثانى ضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة ، لدفع الفرنج من البحر عن البلد ؛ والثالث عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية . « هذا مع قوتهم (الفاطميون) فى العساكر والأموال والأسلحة [٤] ! » .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٣ هـ .
(٣) المرجع السابق ؛ ويذكر أبو المحاسن أن الأسطول الفاطمى حضر بعد تأخير «وصار كلما سار نحو البلدة رده الفرنج إلى نحو مصر» حتى تمكن من الوصول إلى طرابلس أخيراً فوجدها قد أخذت . (أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩) .
(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩ .

والواقع إن أهل طرابلس عندما وجدوا أنفسهم وحيدين أمام مجموعة من الأعـداء ، واضطروا إلى التفكير فى التسليم ، طلبوا أن يكون تسليمهم للملك بلدوين الأول والأمير برترام ، بشرط عدم الاعتداء على حياة من يرغب فى الخروج من المدينة وعلى ممتلكات من يرغب البقاء فيها[1] . وقـد قبل الملك بلدوين تلك الشروط ، وبذلك دخـل الصليبيون طرابلس فى ١٢ يوليه سنة ١١٠٩ فاحترموا الشروط السابقة ، وسمحوا للقائد الفاطمى — على قول ابن الأثير — بمغادرة المدينة ومعه فريق من رجاله ، وأمن الصليبيون طريقهم إلى دمشق[٢]. ولكن ذلك لم يمنع ابن الأثير من الإشارة إلى ما ارتكبه الصليبيون داخـل طرابلس من حوادث النهب[٣] . ولعل تفسير هذا التناقض فى مسلك الصليبيين إنما يبدو فى أن بالدوين ورجاله دخلوا المدينة من جانب ، فاحترموا شروط الصلح ولم يتعرضوا لأملاك المسلمين وأرواحهم . ولكن الجنوية دخلوا المدينة فى الوقت نفسه من جانب آخر فأتوا من أعمال السلب والعنف ما أشار إليه ابن الأثير[٤].

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 468.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) « إذ نهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها الأموال والامتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحصى ؛ فإن أهلها كانوا أكثر البلاد أموالا وتجارة » .

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ).

أما أبو المحاسن فيقول : « ... وهجموا على طرابلس فأخذوها ونهبوا وأسروا رجالها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالها وذخائرها ، وكان فيهـا ما لا يحصى ولا يحصر ، واقتسموها بينهم » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ١٨٠).

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 253.

الجنوية وامتيازاتهم التجارية :

ولم تكد طرابلس تسقط فى أيدى الصليبيين حتى طالب الجنوية بالثمن ، بعد المساعدة الكبيرة التى قدموها لهم . وقد سبق أن رأينا كيف أعطى ريموند الصنجيلى الجنوية ثلث جبيل مقابل مساعدتهم له ؛ وبذلك أصبحت هذه المدينة الصغيرة مستعمرة جنوية . وقد عين لحكم هذه المستعمرة أحد أمراء الأسطول الجنوى — هو هيو امبرياتشو — الذى لم يلبث أن حصل من جنوا على حق الحكم الوراثى فى جبيل ، مع تعهده بدفع المال اللازم لحكومة جنوا[١] .

وعندما مات هيو سنة ١١٣٥ تعاقبت سلالته فى حكم جبيل . وليست هناك أهمية خاصة لهؤلاء الحكام الجنوية الذين توارثوا تلك المدينة سوى أنهم أخذوا يبتعدون تدريجيا عن أصلهم الإيطالى ونزعتهم التجارية ، ويندمجون فى الوسط الفرنجى البروننسالى المحيط بهم ، حتى أصبحوا مجرد أفصال تابعين لأمراء طرابلس[٢] . وساعد على ذلك أن حكام جبيل من بيت امبرياتشو الجنوى ارتبطوا برباط نسب ومصاهرة مع البيوت الصليبية فى المدن المجاورة — مثل نابلس وطرابلس وأنطاكية — مما أدى إلى ذوبان تلك الأسرة الجنوية فى المحيط الصليبى الواسع الذى يحف بها . ولا أدل على نسيان حكام جبيل لأصولهم الجنوية وتنكرهم لمصالح جنوا ذاتها ، من أنهم منحوا سنة ١٢١٧ امتيازاً تجاريا للبنادقة فى جبيل[٣] .

---

(1) Albert d'Aix, p. 669 & Fulcher de Chartres, p. p. 420.
(2) Heyd : op. cit. I. p.p. 162—163.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 359—360.

توحيد إمارة طرابلس :

اتخذ برترام لقب أمير طرابلس ، وحرص على تأكيد تبعيته لملك بيت المقدس ، وفى الوقت نفسه تناسى وعوده العريضة للامبراطور البيزنطى[١] . على أن إمارة طرابلس ولدت ممزقة ، وأخذت تعانى من ذلك التمزيق مالم تعانيه إمارة أخرى من الإمارات الصليبية ببلاد مشام ؛ لأن معنى استيلاء برترام على مدينة طرابلس واستيلاء وليم جوردان على أنطرطوس وعرقه ، هو تقطيع أوصال الإقليم الواحد ، مع ماينتج عن ذلك من ضعف وحزازات . هذا إلى أن اختلاف اتجاهات الحاكمين وتوزيع ولائهما توزيعاً متضاداً زاد من حدة الفرقة والانقسام ؛ لأنه بينما اعترف برترام أمير طرابلس بالتبعية لملك بيت المقدس ، إذا بوليم جوردان صاحب انطرطوس وعرقه يقدم ولاءه لأمير أنطاكية . وجميع تلك الظواهر — وغيرها — كانت بدون شك لاتبشر بخير ، وأنذرت بالصدام بين الرجلين الذين اقتسما أملاك بيت ريموند الصنجيلى فى الشرق .

ولكن شاء حسن حظ إمارة طرابلس الصليبية أن ينتهى ذلك الوضع بمقتل وليم جوردان بيد أحد رجاله فى ظروف غامضة أشارت إليها المراجع الصليبية اشارة مقتضبة غير واضحه[٢] . وهكذا ضم برترام جميع الممتلكات البروفنسالية فى الشام تحت سيادته ، وأصبحت إمارة طرابلس إمارة كبيرة مترابطة لاتقل عن إمارة الرها أو أنطاكية فى أهميتها ، ويحكمها برترام بن ريموند الصنجيلى مؤسس الإمارة ، وهو الذى ربطته علاقات وثيقة بملك بيت المقدس

(1) Runciman : op. cit; I p. 69.
(2) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p 4[illegible]

أما تنكرد ـ الذى « قامر على الحصان الخاسر » ـ فلم يعد له نفوذ إطلاقا فى إمارة طرابلس الجديدة بعد مقتل حليفه[١] .

استيلاء الصليبيين على بانياس وجبلة وعصمة الأكراد :

وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين استيلاؤهم على ما تبقى من المعاقل الإسلامية على شاطىء الشام . من ذلك أن تنكرد احتل فى طريق عودته من حصار طرابلس مدينة بانياس التى لم تبد سوى مقاومة ضعيفة، مما جعل تنكرد لا يتعرض لأرواح أهاليها[٢] .

ومن بانياس زحف تنكرد على جبلة التى أوى إليها أمير طرابلس السابق فخر الملك عمار ، كما سبق أن أشرنا . ولم تستطع جبلة هى الأخرى أن تقاوم حصارا طويلا « وكان القوت فيها قليلا » فاضطر ابن عمار إلى تسليمها فى يوليو سنة ١١٠٩ . وقد سمح تنكرد لابن عمار بأن يخرج سالما إلى شيزر ومنها إلى دمشق ، حيث أشفق عليه طغتكين « وأقطعة الزبدانى وأعماله »[٣] . وهكذا أصبحت بانياس وجبلة أجزاء من إمارة أنطاكية الصليبية .

أما فى داخلية البلاد فيروى لنا ابن القلانسى أن الصليبيين من أتباع برترام زحفوا فى السنة السابقة نفسها (١١٠٩ — ١١١٠) على رفنية شرقى أنطرطوس .

---

(1) Runciman : op cit; I, p. 69.

(٢) ابن الإثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ . &
ابن القلانسى ، ص١٦٣ — ١٦٤
وقد أخطا ابن الأثير فقال : إن تنكرد استولى فى تلك السنة على جبيل من المسلمين؛ والحقيقة إنها جبلة أما جبيل فاستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ كما مر بنا ، وتم ذلك على يد ريموند الصنجيلى لا تنكرد .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

على أن طغتكين عندما سمع بذلك أسرع من دمشق للدفاع عن تلك القلعة ، واكتفى مؤقتاً بأن عسكر على رأس قواته قرب حمص لمراقبة الأمور ؛ «فلم يقدروا (الصليبيون) على منازلة رفنيه »[١] . وكان أن انتهى الموقف بعقد اتفاق ودى بين طغتكين والصليبيين، وافق بمقتضاه الطرف الأول على أن يستولى الصليبيون — برترام — على ثلث دخل البقاع ، فضلا عن حصنى المنيطرة وابن عكار[٢]. ولا شك فى أن استيلاء الصليبيين على هذين الحصنين الأخيرين أمر له أهميته، لأن المنيطرة تسيطر على الطريق بين جبيل وبعلبك ، فى حين أن سيطرتهم على حصن ابن عكار تمكنهم من الإشراف على الطريق بين عرقه وحمص . وفى مقابل ذلك كله تعهد برترام أمير طرابلس بعدم الاعتداء على مصيات وحصن الطوفان وحصن الأكراد ، وكان الأخير تابعاً لقراجا صاحب حمص .

على أن الصليبيين لم يحافظوا على كلمتهم مدة طويلة ، إذ لم يلبث تنكرد صاحب أنطاكية أن استولى على حصن الأكراد سنة ١١١٠ أثناء قيامه بغارة على شيزر[٣] . ومن الواضح أن حصن الأكراد بحكم موقعه كان يجب أن يتبع إمارة طرابلس لا أنطاكية ؛ ولذلك لم يلبث تنكرد أن تخلى عنه للأمير بونز Pons الذى خلف أباه برترام فى حكم طرابلس سنة ١١١٢ . ومنذ هذه السنة ظل حصن الأكراد تابعاً لإمارة طرابلس حتى أعطاه ريموند الثانى أمير طرابلس للفرسان الاسبتارية سنة ١١٤٢[٤] .

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 537)

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ ؟
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 537) .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ ؟
سبط بن الجوزى ، (p. 539) .

(4) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land P 36

سياسة بونز أمير طرابلس :

أما عن العلاقات بين الصليبيين بعضهم وبعض فى تلك الفـــــترة ، فأهم مايميزها التقارب الشديد بين الإمارات الصليبية الأربع فى الشرق الأدنى ، وهى الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، حتى أن تاريخها فى الفترة التى أعقب سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين جرى فى اتجاه واحد (١) . وقد ظهر ذلك التقارب عندئذ أشدما يكون وضوحاً بين أمراء طرابلس وأنطاكية حتى أن برترام أرسل ابنه وخليفته بونز إلى بلاط غريمه القديم تنكرد فى أنطاكية، ليتلقى هناك تعاليم الفروسية وآدابها . ويقال إن بونز تعلق فى تلك الفـترة بغرام سيسيل — زوجة تنـكرد الشابة — حتى إذا ما توفى تنكرد فى ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ ، تزوج بونز من أرملته سيسيل على الفور(٢) . ولاشك فى أن هذه الزيجة كان لهـا أثرها الخطير من الناحية السياسية ، إذ ربطت بين الأسرتين الحاكمتين فى طرابلس وأنطاكية .

وفى الوقت نفسه ، لم يتخل بونز عن علاقته الودية مع ملك بيت المقدس ، فرافقه سنة ١١١٥ لصد الأتابك برسق عندما هدد الأخير إمارة أنطاكية(٣).

هذا عن سياسة بونز أمير طرابلس تجاه القوى الصليبية المجاورة . أما عن سياسته تجـاه المسلمين ، فقد اتبع الخطة التى وضعها أسلافه بخصوص مهاجمـة ممتلـكات دمشق وحمص ، وذلك لمد حدود دولته فى الاتجـاه الشرقى . من ذلك مايرويه ابن الأثير من أن الصليبيين استولوا سنة ١١١٥ على رفنية، وهي

(1) Setton : op. cit; I p. 399.
(2) Guillaume de Tyr, I, p. 483 &
Albert d'Aix, P. 701.
(3) Albert d'Aix, p. 701.

من أملاك طغتكين صاحب دمشق « وبالغوا فى تحصينها » . ولكن ابن الأثير يضيف أن طغتكين لم يلبث أن حضر بنفسه واقتحم رفنية واستردها من من الصليبيين بعد أن « أخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً فقتل البعض وترك البعض ، وغنم المسلمون من دوابهم وكراعهم وذخايرهم ماامتلأت به أيديهم ، وعادوا إلى بلادهم سالمين » (١) .

أما الحصن الثانى للصليبيين فى إقليم البقاع فكان حصن بعرين الذى شيده بونز أمير طرابلس حوالى ذلك الوقت . وهناك إشارات فى المراجع الصليبية تفيد أن برسق استطاع أن يستولى على ذلك الحصن من الصليبيين سنة ١١١٥ . على أن الصليبيين لم يلبثوا أن استردوا رفنية وحصن بعرين ، فهاجم بونز رفنية واستطاع أن يستولى عليها بمساعدة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس فى نهاية مارس سنة ١١٢٦ وذلك بعد حصار بضعة أيام (٢) . أما قلعة بعرين فقد استولى عليها أيضاً بونز بعد ذلك بقليل ، بدليل ماتواتر فى المراجع من أن بعرين كانت سنة ١١٣٢ إحدى القلاع المنيعة التابعة لامارة طرابلس .

وخلاصة القول إن إمارة طرابلس ظلت فى نمو حتى بلغت أقصى اتساعها سنة ١١٣٢ عندما صارت تمتد من المرقب شمالا حتى نهر الكلب جنوبا ، ومن شاطىء البحر المتوسط غربا حتى بعرين ورفنية وحصن الاكراد وعكار شرقا . ومنذ ذلك الوقت وتاريخ إمارة طرابلس مرتبط إلى حد كبير بتاريخ إمارة أنطاكية من جهة وتاريخ مملكة بيت المقدس من جهة أخرى ، مما يجعلنا نعرض له أثناء كلا منا عن هاتين الوحدتين (٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (P. S. 555, 557)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. P. 652) &

Foucher de Chartres p. 480.

(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 367-368.

الباب السابع

إمارة أنطاكية والبيزنطيون

﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون .
وإنا لجميع حاذرون ﴾ .

[الشعراء : ٥٤ — ٥٦]

الفصل الأول

بوهيموند وتأسيس إمارة أنطاكية

مشكلتا أنطاكية واللاذقية سنة ١٠٩٩ :

رأينا كيف اتجه زعماء الحملة الصليبية الأولى جميعا صوب بيت المقدس فى يناير سنة ١٠٩٩ ، عدا بوهيموند الذى ظل باقيا فى أنطاكية، وبلدوين البولونى الذى استقر فى الرها . ومهما يقال فى أن هذين الأمرين إنما اختارا ألا يصحبا بقية الزعماء الصليبيين حرصاً على مصالحهما الخاصة ورغبة فى الاحتفاظ بالمكاسب التى حققاها ، وطمعا فى إنشاء إمارتين مستقلتين إحداهما فى أنطاكية والاخرى فى الرها ، فإنه ينبغى أن نعترف بأن بقاء هذين الأميرين فى شمال الشام والعراق جاء عظيم الفائدة بالنسبة للصليبيين ، لأنه حمى ظهورهم من خطر السلاجقة أثناء زحفهم على بيت المقدس . ونستطيع أن نتصور مدى الخطر الذى كان من الممكن أن يتعرض له الصليبيون لو أنهم استمروا يستولون على المدن والبلاد الإسلامية ليتركوها خلفهم دون حماية كافية ، ويتابعون سيرهم نحو بيت المقدس غير عابئين بالاحتفاظ بسلامة خطوط مواصلاتهم وتأمين ظهورهم . ولا شك فى أن النتيجة الوحيدة لهذه السياسة كانت ملاحقه السلاجقة للصليبيين واستردادهم ما استولى عليه الصليبيون من مدن ، ثم حصر الجموع الصليبية فى نهاية الأمر فى منطقة بيت المقدس والفتك بهم بعد أن يكون الأعياء قد استبد بهم بسبب مشقة الطريق(١) . وعندئذ لا يجد الصليبيون مخرجاً أو منفذاً ، فالطريق وراءهم

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 369-370.

قد قطع ، وصحراء سيناء أمامهم ، وبادية الشام عن يسارهم، والبحر عن يمينهم . ولكن بقاء بوهيموند فى شمال الشام وبلدوين فى شمال العراق جاء بمثابة إقامة حراسة صليبية قوية على الأبواب الشمالية لطريق بيت المقدس ، فاستطاع بقية الصليبيين بفضل هذه الحراسة أن يزحفوا فى اطمئنان نحو المدينة المقدسة ، وأن يتفرغوا لما عساه أن يبديه الفاطميون من مقاومة، دون أن يعملوا حسابا كبيراً لطعن السلاجقه لهم من الخلف .

على أنه إذا كان بوهميوند قد ارتاح لابتعاد ريموند الصنجيلى عن أنطاكية[1]، فليس معنى ذلك أن بوهميوند اطمأن تماما لملكية أنطاكية . ذلك أن مدينة أنطاكية كانت أغنى المدن الصليبية جميعا فى الشرق الأدنى ، بفضل ما امتازت به من موقع فريد جعلها واسطة التجارة بين حلب وإقليم الجزيرة من ناحية والغرب الأوربى من ناحية أخرى ؛ فضلا عما اشتهرت به من صناعات الأقمشة والسجاد والزجاج والخزف[2] . لذلك لاعجب إذا اشتد التنافس بين مختلف الأطراف المسيحية على امتلاك أنطاكية بالذات . وهنا نلاحظ أن مشكلة أنطاكية لم تكن مشكلة داخلية بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض ؛ وإنما كان لها وجه خارجي خطير يتعلق بحقوق الإمبراطورية البيزنطية فى تلك المدينة ،وهى حقوق لها سندها التاريخي والقانونى . ولم يستطع الإمبراطور ألكسيوس كومنين أو خلفاؤه المباشرون أن يتناسوا حقوقهم فى أنطاكية، مما يجعلنا نقرر أن إمارة أنطاكية الصليبية لم تقم رغم إرادة السلاجقة المسلمين وحدهم ، بل أيضاً رغم إرادة الإمبراطورية البيزنطية ذاتها[3] . ومع ذلك فقد استطاع النورمان — بما هو معروف عنهم من صلابة عود — ، وبفضل قوة ومهارة أميرهم بوهيموند ثم

(1) Albert d'Aix, p. 448.
(2) Runciman; op. cit, II, p. 9.
(3) Brehier: Vie et Mort de Byzance, P.P. 314-315.

تنكرد ، أن يواجهوا عداء السلاجقة والبيزنطيين جميعاً ، وأن يقيموا دعائم إمارتهم فى أنطاكية ويحتفظوا بها قائمة فى وجه العواصف المضادة التى واجهتهم من قبل أعدائهم[1] .

أما مشكلة اللاذقية ، فكانت هى الأخرى لاتقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية . ذلك أنه بعد أن قام أحد القراصنة — ويدعى ونمار البولونى — بالاستيلاء عليها من الأتراك فى صيف ١٠٩٧ ؛ لم يلبث أن انتزعها من ونمار بعض البحارة الإنجليز بزعامة إيدجار اثلنج . وهكذا أخذت أيادى المغامرين تتلاقف اللاذقية حتي استولى عليها ريموند الصنجيلى فى صيف سنة ١٠٩٨ ، فسلمها بدوره للبيزنطيين[2] .

على أن امتلاك البيزنطيين اللاذقية شكل خطراً كبيراً على إمارة أنطاكية ، إذ كان فى استطاعة البيزنطيين أن يشرفوا من تلك المدينة الهامة على وادى نهر العاصى بأكمله ، وبالتالى يهددون مطامع بوهيموند ويحولون بينه وبين التوسع[3] . لذلك لم يكد بقية الأمراء الصليبيين يستولون على بيت المقدس ، حتى شرع بوهيموند فى حصار اللاذقية فى صيف سنة ١٠٩٩ . وإذا كانت هذه العملية الحربية فى حاجة إلى أسطول قوى لكى تتم بنجاح ؛ فإن الظروف سرعان ما أمدت بوهيموند بالأسطول البيزى الذى وصل ـ وعلى رأسه رئيس الأساقفة دايمبرت — إلى أنطاكية ، فى الوقت المناسب[4] .

ولم يلبث أن تمكن بوهيموند من فرض حصار قوى على اللاذقية بمساعدة

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, pp. 370-371
(2) Albert d'Aix, p. 500 &
Raoul de Caen, p. 649.
(3) Grousset : Hist, des Croisades, I, p. 371.
(4) Heyd : op. cit. I, p. 135.

الأسطول البيزى، حتى أوشكت الحامية البيزنطية فى المدينة أن تستسلم، فى الوقت الذى اقترب ريموند الصنجيلى عائداً إليها بعد الاستيلاء على بيت المقدس (سبتمبر سنة ١٠٩٩) . وكان ذلك عند جبلة — أى على بعد ثلاثين كيلو مترا من اللاذقية — عندما سمع ريموند بهجوم بوهيموند على اللاذقية ، فاستشاط غضباً ، وأرسل إنذاراً عاجلا إلى أمير أنطاكية يطلب منه رفع الحصار فوراً عن المدينة والعودة من حيث أتى[1] . وإذا كان بوهيموند قد رفض ذلك الإنذار وأصر على مهاجمة اللاذقية ، فإنه كان ينتظر أن يسانده فى موقفه دايمبرت زعيم البيازنة ؛ ولكن دايمبرت تخلى عنه فى تلك اللحظة الحرجة، مما اضطر بوهيموند إلى رفع الحصار عن اللاذقية والعودة إلى أنطاكية . وهكذا دخل ريموند فى اليوم الثانى اللاذقية ليرفع رايته — إلى جانب الراية البيزنطية — على قلعتها؛ وتم الاتفاق بعد ذلك على تسوية المسألة بين بوهيموند وريموند فى مقابلة ودية[2] .

أما عن دايمبرت ، فإن تخليه عن بوهيموند أمام طرابلس لم يؤثر فى الصداقة بين الرجلين ، وقد تجلت هذه الصداقة فى موقف بوهيموند من أطماع دايمبرت للوصول إلى بطرقية بيت المقدس ، كما مر بنا .

فتوحات بوهيموند فيما وراء نهر العاصى :

وبعد أن قام بوهيموند بالحج وزيارة بيت المقدس ، أخذ يفكر فى توسيع إمارته بالاستيلاء على بعض المواقع الإسلامية القريبة . وكان أن بدأ بالهجوم على قلعة فامية فى حوض نهر العاصى . وكانت هذه المدينة تابعة للامير العربى سيف الدولة خلف بن ملاعب الذى كان فى عداء دائم مع جيرانه من أمراء

---

(1) Setton : op. cit; I, p. 374.

(2) Albert d'Aix, p. 504.

المسلمين ، وبخاصة بنى منقذ فى شيزر[١]. وربما ظن بوهيموند أن تلك المنازعات بين الأمراء المسلمين — بعضهم وبعض — من شأنها أن تمكنه من تحقيق أطماعه والاستيلاء على فامية فى سهوله ، ولكنه لم يكد يصل إلى تلك المدينة حتى وجد مهمته أصعب مما يظن ، فقفل راجعا بعد أن « أفسد زرعها » (يونية ١١٠٠)[٢].

ويروى ابن العديم أن بوهيموند قام فى تلك الفترة بالذات بمهاجمة سلاجقة حلب ، وأن رضوان السلجوقى صاحب حلب طرد النورمان من كلا ، وهو مكان شرقى العاصى فى منتصف الطريق بين أنطاكية وحلب . على أنه كان للصليبيين — أى النورمان من أتباع بوهيموند — عدة قلاع فى تلك المنطقة عدا كلا ، مثل زردنا وسرمين ، فخرجت الحاميات الصليبية من تلك المراكز وطاردت الأمير رضوان وأنزلت به الهزيمة فى ٥ يولية سنة ١١٠٠ ، وعندئذ ولى رضوان الأدبار « واستبيح عسكره وقتل خلق كثير وأسر قريب من خمس ماية نفس ومنهم بعض الأمراء »[٣] . وقد ترتب على هذا النجاح أن تمكن النورمان من احتلال برج الحاضر — قرب قنسرين — وكفر طاب شمالى شيزر ، فى منتصف الطريق بينها وبين معرة النعمان[٤].

ولم يسع رضوان ملك حلب — عقب تلك الهزائم التى حلت به — سوى أن يستنجد بالأمير العربى جناح الدولة صاحب حمص ؛ دون أن يقدر مدى ما تسببه استعانته بذلك الأمير العربى الصغير من مساس بمكانة السلاجقة وهيبتهم . وقد ذهب جناح الدولة إلى حلب فعلا لمساعدة رضوان ، ولكنه

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٥٢ ، ٥٥ .
(٢) ابن الأثير الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 588)
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, p. 588)

صادف من المهانة وعدم التقدير ما جعله يعود بسرعة إلى حمص،وهو راغب فى الانتقام من رضوان السلجوقى[١] .

أما بوهيموند فقد استمر يباشر نشاطه حول حلب،فعسكر فى أواخر يولية سنة ١١٠٠ على ضفاف نهر قويق ، ومن هناك أخذ يراقب الموقف . ويذكر، ابن العديم أن بوهيموند كان ينوى تحويل الكنبان القريبة من حلب — والتى كانت مدافن للمسلمين — إلى حصون تحيط بالمدينة ، وبذلك يضمن حصار حلب ومواصلة التضييق عليها حتى تسقط فى يده[٢] . ولا يخفى علينا أن قوة سلاجقة حلب كانت قد أخذت تنحل سريعاً فى ذلك الوقت . وكان من الممكن أن يستولى بوهيموند على تلك المدينة لو أنه واصل الهجوم عليها،ولكنه تركها وغير اتجاهه فجأة صوب ملطية ، وذلك عندما علم بهجوم كمشتكين الدانشمند عليها[٣] .

ومن هذا يبدو أن بوهيموند ظل يحارب فى أكثر من جبهة واحدة،وينازل أكثر من عدو فى وقت واحد . ففى الوقت الذى كان يحارب المسلمين — من عرب وسلاجقة — لم يتردد فى منازلة البيزنطيين — أعدائه القدامى — ليسترد منهم مدينة مرعش . وكانت هذه المدينة — فى جبال طوروس — قد استولى عليها الصليبيون فى الحملة الأولى سنة ١٠٩٧ — كما مر بنا — وسلموها للبيزنطيين، ولكن بوهيموند عاد وأصر على استردادها . ولم يستطع بوهيموند فى حملته التى قام بها ضد مرعش أن يحقق غرضه ، وكل ما استطاعه هو السيطرة على الأراضى المكشوفة المحيطة بها[٤] . وربما كانت هذه الحملة فى ذاتها لا تهمنا كثيراً إلا

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 277.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, 588 – 589)

(٣) المرجع السابق والصفحة ذاتها.

(4) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar. I,) p. 50.

من ناحية أن أهل ملطية الأرمن ما كادوا يعلمون بوجود بوهيموند على مقربة منهم عند مرعش حتى استنجدوا به ضد الأتراك المسلمين .

أسر بوهيموند :

رأينا أن مدينة ملطية — عند أطراف الفرات — كان يحكمها وقت وصول الصليبيين إلى الشرق أحد زعماء الأرمن ، واسمه جبريل. وقد أنقذ وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ جبريل هذا من هجوم قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم . ولكن ملطية سرعان ما وجدت نفسها أمام عدو آخر لا يقل خطورة، هو الملك غازى كمشتكين (نوشتكين) ابن الدانشمند — أمير سيواس[١] — الذى ظل ثلاث سنوات كاملة يهدد ملطية ويعيث فى أراضيها فساداً وتخريباً[٢]. وعندما عاد كمشتكين إلى مهاجمة ملطية فى صيف سنة ١١٠٠، استنجد جبريل ببوهيموند ، وتعهد له بتسليمه المدينة إذا هو نجح فى إنقاذها(٣) .

وكان بوهيموند يدرك تماماً أهمية الأرمن والدور الذى يمكن أن يقوموا به فى المسائل المتعلقة بالشرق الأدنى — وبخاصة الأزمة بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية — ولذلك حرص على حمايتهم والدفاع عنهم، واعتقد دائماً أن النورمان والأرمن لهم جميعاً عدوان مشتركان ؛ هم البيزنطيون والأتراك(٤). لذلك أسرع بوهيموند لنجدة ملطية ومعه خمسمائة فارس فقط ، وهو عدد صغير لم يكن يكفى للوقوف به فى وجه جموع الأتراك(٥) .

(١) كتبه ابن العديم نوشتكين الدانشمند وكتبه ابن الإثير كمشتكين بن الدانشمند.

(2) Michel Le Syrien (ed Chabol) III. p, 187.

(3) Matthieu d'Edesse, p 51

(4) Grousset : Hist' des Croisades, I. p. 378.

(٥) قدر ابن الاثير عدد رجال بوهيموند بخمسة آلاف، وهو عدد مبالغ فيه ، كما يبدو من تطور الاحداث التى أدت إلى أسره (الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ).

ولم يلبث أن وقع بوهيموند فى كمين نصبه الأتراك ، وانتهى الأمر بأسره وذبح رجاله فى أوائل أغسطس سنة ١١٠٠[١]. ولا شك فى أن وقوع بوهيموند فى الأسر جاء كارثة على الصليبيين، نظراً لنشاطه وبلائه فى حرب المسلمين، مما جعل أحد المؤرخين الأرمن — وهو متى الرهاوى — يقول إن إسم بوهيموند كان يثير الرعب فى قلوب المسلمين حتى خراسان![٢] . أما الملك غازى كمشتكين، فقد استغل ذلك النصر ليشدد قبضته على ملطية ، فاتجه فى اليوم التالى إلى أسوار المدينة ورءوس الفرنجة من اتباع بوهيموند معلقة على أسنة الرماح، والأسرى بجانبه مكبلين بالأغلال ليثير الرعب فى نفوس أهل ملطية ويضطرهم إلى التسليم.

ويقال إن بوهيموند أرسل عند أسره رسالة سرية إلى بلدوين البولونى حاكم الرها — الذى صار بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيما بعد — يستنجد به لفك أسره، فخرج بلدوين على رأس مائة وأربعين فارساً فقط قاصداً ملطية: وكان من الممكن أن يقع بلدوين فى المصير نفسه الذى وقع فيه بوهيموند، لولا أن الملك غازى كان قد غادر ملطية قبل وصوله ، واتجه شمالا إلى بلاده حيث سجن بوهيموند فى قلعة نيكسار قرب شاطىء البحر الأسود[٣].

أما بلدوين فقد استقبل فى ملطية استقبال المحرر ، وأعلن جبريل حاكم المدينة تبعيته له . وبعد أن ترك بلدوين خمسين فارسا من فرسانه فى ملطية للدفاع عنها ، انصرف عائداً إلى مركز إمارته بالرها . على أن تلك المعونة الصغيرة لم تكف لحماية ملطية من هجمات الملك غازى ، وهى تلك الهجمات التى لم تهدأ إلا باستيلائه عليها « وأسر صاحبها » سنة ١١٠١ أو سنة ١١٠٢ حسب اختلاف الروايات[٤] .

(1) Albert d'Aix p. p. 524 & Matthieu d'Edesse, p. 52.

(2) Matthieu d'Edesse, p. 52.

(3) Albert d'Aix, p 525.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

الفصل الثاني

وصاية تنكرد على أنطاكية

(١١٠٠ — ١١٠٣)

الموقف في أنطاكية بعد أسر بوهيموند :

ترك أسر بوهيموند فراغاً كبيراً في شمال الشام ، لا سيما وأن بلدوين البولوني أمير الرها لم يلبث هو الآخر أن استدعى إلى بيت المقدس ليرث أخاه جودفرى في الحكم .

وبالنسبة لأنطاكية بالذات ، قرر أمراؤها ورجال الدين فيها استدعاء تنكرد للقيام بالوصاية على الإمارة أثناء أسر خاله [1] . وقد جاء ذلك العرض على تنكرد في الوقت المناسب بعد أن ساء موقفه مع ملك بيت المقدس الجديد بلدوين الأول ، كما مر بنا . وهكذا ترك تنكرد إقطاعه في الجليل ، واتجه إلى أنطاكية ليباشر مهمته الجديدة (أواخر مارس ١١٠١)[2] .

ولم يلبث أن وجد نورمان أنطاكية في تنكرد زعيما يفيض قوة وحماسة ، ولا يقل عزيمة وبأسا عن سلفه بوهيموند . ثم إن تنكرد حرص على أن يكون أميناً في وصايته على أنطاكية ، فلم يتخذ لنفسه لقب « أمير أنطاكية » ؛ وإن لقبته الوثائق الصليبية المعاصرة بلقب « الأمير الكبير » أو لقب « خادم الله »

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 413 & Foucher de Chartres p 384.

(2) Setton : op. cit; I, p. 382.

لتمييزه عن سائر أمراء الإمارة . والواقع إنه لم يكن فى استطاعة تنكرد أن يتصرف غير ذلك ، نظراً لبقاء أهل إمارة أنطاكية على ولائهم لبوهيموند ، مما كان من المحتمل أن يعرضه لمقاومة شديدة إذا هو حاول أن يعتدى على حقوق بوهيموند فى حياته [١] .

أما عن سياسة تنكرد فقد سارت فى الطريق نفسه الذى رسمه بوهيموند ، فعمل على تنظيم الإدارة وتركيزها ، وصبغ كنيسة أنطاكية بالصبغة اللاتينية الكاثوليكية ؛ ثم توسيع حدود إمارة أنطاكية على حساب البيزنطيين والمسلمين جميعا . وكان أول ما فعله تنكرد لتحقيق ذلك البرنامج ، هو اكتساب ود القوى البحرية الإيطالية ، فعقد اتفاقاً مع الجنوية فى صيف سنة ١١٠١ منحهم بمقتضاه ثلث دخل ميناء السويدية ، وشارعاً فى أنطاكية يباشرون فيه نشاطهم التجارى . على أن المهم فى هذه الاتفاقية هو أن تنكرد وعد الجنوية بإعطائهم نصف دخل ميناء اللاذقية فى الوقت الذى كانت اللاذقية نفسها بأيدى البيزنطيين [٢] . ومن الواضح أن ذلك يعنى طلب مساعدة الأسطول الجنوى فى انتزاع اللاذقية من البيزنطيين . وهكذا يمكن تلخيص البرنامج الذى وضعه تنكرد لسياسته الخارجية خلال وصايته على أنطاكية فى شطرين : الشطر الأول الاستيلاء على اللاذقية وقيليقية من البيزنطيين ؛ والشطر الثانى الاستيلاء على الجزء الأوسط من وادى نهر العاصى من سلاجقة حلب وأتباعهم [٣] .

---

(1) Runciman : op. cit, II, ps. 9.32.
(2) Chalandon : Alexis Comnene. p. 232 &
Heyd : op cit, I. p. 135.
(3) Grousset : Hist des Croisades I. p. 383.

حروب تنكرد ضد البيزنطيين

وإذا كان تنكرد — مثل خاله بوهيموند — حريصاً على حماية إمارة أنطاكية من خطر البيزنطيين الذين لم يغفروا للنورمان استيلاءهم على تلك المدينة ، فإن حسن الحظ شاء أن تحول ظروف الامبراطورية البيزنطية عندئذ دون قيامها بأية محاولة ضد أنطاكية ، سواء هجومية أو حتى دفاعية . ذلك أن الكارثة التى حلت بالحملة الصليبية سنة ١١٠١ أضعفت مركز البيزنطيين فى آسيا الصغرى وقوت مركز الأتراك ، مما جعل من المتعذر على الإمبراطور البيزنطى أن يرسل حملة فى تلك الظروف عبر آسيا الصغرى إلى قيليقية وشمال الشام . وكان أن استغل تنكرد الفرصة ، فلم يكد يسمع بهزيمة الصليبيين فى آسيا الصغرى سنة ١١٠١ حتى فكر فى مهاجمة المدن البيزنطية فى قيليقية ، عملا بالحكمة القائلة بأن الهجوم خير وسائل الدفاع(١) .

ولا أدل على ضعف مركز الامبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى فى مستهل القرن الثانى عشر من أن تنكرد لم يكد يشرع فى غزو قيليقية فى أواخر سنة ١١٠١ حتى استطاع فى مدة قصيرة أن يستولى عل المصيصة وأذنة وطرسوس — وهى المدن الرئيسية الثلاث فى ذلك الاقليم — ، ثم انصرف بعد ذلك ليبدأ حصار اللاذقية (٢) .

على أن اللاذقية امتازت عندئذ بقوة تحصيناتها ، فضلا عن وجود فرقة من رجال ريموند الصنجيلى داخلها للدفاع عنها وبعض قطع من الأسطول البيزنطى فى مياهها ؛ مما تطلب حصاراً طويلا وجهداً عنيفاً من تنكرد ليستولى عليها .

(1) Runciman : op. cit, II, p. 33.

(2) Raoul de Caen, p. 706

ومع ذلك فإن تنكرد استغل وقته أثناء مدة الحصار استغلالا طيباً ، فقام فى تلك الأثناء بمحاولة فاشلة للاستيلاء على جبلة — إلى الجنوب من اللاذقية — ثم شاء حسن حظه أن ريموند الصنجيلى لم يكن موجوداً فى الشام حينئذ ليدافع عن اللاذقيةوعن حقوق الامبراطورية البيزنطية ـ كما سبق أن دافع عنها سنة ١٠٩٩ ـ وإنما كان ريموند مشغولا سنة ١١٠١ بمرافقة الحملة اللمباردية المشئومة فى شمال شرق الأناضول . ولم يكد ريموند ينتهي من أمر تلك الحملة ويعود إلى ميناء السويدية حتى قبض عليه تنكرد واعتقله فى قلعة أنطاكية كما مر بنا[١].

ومن الواضح أن حرص تنكرد على اعتقال ريموند إنما كان مصدره تخوفه من أن ينتهز ريموند فرصة أسر بوهيموند، ويجدد النغمة القديمةفيطالب بحقه فى أنطاكية فضلا عن تهديده لمشروع تنكرد الخاص بالاستيلاء على اللاذقية. لذلك لم يطلق تنكرد سراح خصمه سنة ١١٠٢ إلا بعد أن أقسم له على أن يتخلى عن مطالبه وادعاءاته فى شمال الشام . وهكذا انصرف ريموند من محبسه ليتجه نحو أنطرسوس (طرطوس) ومر أثناء طريقه باللاذقية فأمر رجاله بالانسحاب منها ومرافقته لتحقيق مشروعه الخاص بتأسيس إمارة لنفسه حول طرابلس[٢].

ولم تلبث الحامية البيزنطية أن وجدت نفسها وحيدة فى اللاذقية بعد أن انسحب أتباع ريموند من البروفنساليين ، فى الوقت الذى شدد تنكرد هجماته عليها بمساعدة حلفائه الجنوية من ناحية البحر ، مما أدى إلى سقوط اللاذقية فى يده فى أواخر سنة ١١٠٢ وأوائل سنة ١١٠٣ . وبذلك حصلت إمارة أنطاكية على واجهة بحرية عريضة ، فضلا عن ميناء بحرى رئيسى يربطها بالغرب[٣] .

(1) Albert d'Aix p. 582.
(2) Runciman : op cit. II, p. 34
(3) Raoul de Caen; p. p. 708 – 709.

ثم إن تلك الحرب ضد البيزنطيين جاءت مصحوبة بتغيير فى أوضاع بطرقية أنطاكية . ذلك أن الصليبيين عندما فتحوا أنطاكية احتفظوا بالبطرق الأرثوذكسى حنا الرابع ، الذى قاسى كثيراً أثناء فترة الحصار ، ومن ثم ازدادت مكانته فى نظر المسيحيين جميعاً ، واحترمه الصليبيون الكاثوليك رغم مذهبه الأرثوذكسى [١] . ولكن نظرة النورمان إلى حنا الرابع لم تلبث أن تبدلت أثناء عدائهم للبيزنطيين ، إذ أخذوا يعتبرون ذلك البطرق رسولا للبيزنطيين وعينا للامبراطور البيزنطي عليهم . لذلك عزل بوهيموند — قبل أسره مباشرة — بطرق أنطاكية الأرثوذكسى حنا الرابع ، وعين بدله أحد رجال الدين الكاثوليك ، هو برنارد دى فالنس أسقف ارتاح الذى شغل كرسى بطرقية أنطاكية من سنة ١١٠١ حتى سنة ١١٣٥ وقام خلال تلك المدة بدور كبير فعال فى النشاط الداخلى والخارجى لامارة أنطاكية . وقد استأنف تنكرد سياسة خاله إزاء الكنيسة، فحرص دائماً على استبدال رجال الدين الأرثوذكس بغيرهم من الكاثوليك ، مما أثار غضب الامبراطور البيزنطى والكنيسة الأرثوذكسية جميعاً [٢] .

ولا شك فى أن الانتصارات التى أحرزها تنكرد على البيزنطيين جعلت له كلمة مسموعة فى شئون فلسطين وبيت المقدس ، كما ظهر ذلك فى تدخله لدى بلدوين سنة ١١٠٢ عقب الكارثة التى حلت بالأخير عند الرملة لإعادة دايمبرت إلى كرسى بيت المقدس ، كما سبق أن ذكرنا [٣] .

انقسام المسلمين :

أما عن جانب المسلمين ، فإن خبر أسر بوهيموند أثار موجة الحماسة

(1) Albert d'Aix p. 433.

(2) Runciman : op. cit, II, p. p. 32—33.

(٣) انظر ما سبق ص ٢٩٦ .

المؤقتة بين صفوفهم ، ظهر صداها فى النكسة التى منى بهاالصليبيون . من ذلك مايخبرنا بهابن العديم من أن النورمانأسرعوا عقب تلك الكارثة إلى الانسحاب من إقليم حلب ، فى حين تشجع صاحب حلب رضوان السلجوقى وخرج من مدينته ليحتل مزارع الغلال المجاورة ، متخذاً معسكره قرب سرمين. أماأمير حمص العربى — جناح الدولة — فإنه عقب أسر تنكرد استرد من الصليبيين قلعةأسفونا ، غربى سرمين وشمالى معرة النعمان[1] .

على أن انشقاق المسلمين وانقسام صفوفهم وتصدع وحدتهم فى ذلك الوقت ، حالت دون قيامهم بعمل حاسم ضد الصليبيين . ذلك أن النزاع سرعان مادب بين رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص ، ليس فقط لأن الأول كان سلجوقيا تركيا والثانى كان عربيا ؛ وإنما أيضاً بسبب الخلاف المذهبى ، لأن رضوان على الرغم من أصله السلجوقى كان متشيعاً اسماعيلى المذهب ، فى حين كان جناح الدولة سنيا[2] . ولعل هذه النعرة المذهبية هى التى دفعت جناح الدولة إلى مهاجمة رضوان فى معسكره قرب سرمين ، وعندئذ لاذ رضوان بالفرار ، ووقع وزيره أبو الفضل ابن الموصول أسيراً . وهكذا أخذ المسلمون يهاجمون بعضهم بعضا بدلا من توحيد جهودهم ضد عدوهم المشترك .

ثم إن عطف رضوان على الباطنية وتشجيعه المتزايد لهم ، سرعان ما أوجد انقساما بين صفوف المسلمين فى حلب ، وهو الانقسام الذى أفاد منه الصليبيون وحدهم . ذلك أن رضوان ساعد دعاة الاسماعيلية فى نشر دعوتهم ، وعينهم فى المناصب الكبيرة فى إمارته ، « وحفظ جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزايدة ، وصارت لهم دار الدعوة بحلب فى أيامه ، وكاتبه الملوك فى أمرهم

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist, Or III, p 589)
(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 386.

فلم يلتفت ولم يرجع عنهم !!»[١] . وكان زعيم الباطنية عندئذ هو الحكيم المنجم الباطنى الذى قربه رضوان إليه ، ومن ثم عمل على إفساد العلاقة بين رضوان وجناح الدولة ، مما أثار استياء كثير من أهل حلب المخلصين .

وقد ذكرنا كيف أن رضوان ملك حلب لم يستطع أن يغفر لتابعه جناح الدولة صاحب حمص — الذى كان متزوجاً من أمه — ما حل به قرب سرمين، لذلك تظاهر رضوان بمصالحة جناح الدولة ودعاه إلى حلب حيث أكرم وفادته ، حتى إذا مادخل جناح الدولة جامع حلب لتأدية فريضة الجمعة ، انقض عليه ثلاثة أعجام من الباطنية — بإيحاء من زعيمهم الحكيم المنجم الباطنى — ليمزقونه إربا[٢] . ومن الواضح أن هذه الجريمة إنما تمت بتدبير رضوان ، الذى لم يكتف بتشجيع الباطنية ، وإنما قتل صاحب حمص بدلا من أن يؤازره ويشجعه على الصمود فى وجه الصليبيين[٣] .

جمود السلاجقة

ومن الظواهر التى تسترعى الانتباه فى تلك الفترة بالذات — أى فى أوائل القرن الثانى عشر — جمود سلاجقة فارس وأتابكتهم فى الموصل ، بحيث أنهم لم يتحركوا للحد مع توسع الفرنجة ، على الأقل فى شمال العراق والشام وشرق آسيا الصغرى ، ولم يحاولوا الاستفادة من الموقف السيىء الذى بات فيه الصليبيون عقب أسر بوهيموند أمير أنطاكية . ثم إنه حدث فى العام نفسه

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, p. 590) &
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (Rec. Hist. Or. p. 525) .
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III; p. 591) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ.

تقريبا الذى شهد أسر بوهيموند ، أن أصيبت حملة صليبية كبيرة — هى الحملة اللمباردية — بهزيمة ساحقة فى شمال شرق الأناضول (سنة ١١٠١). ومع كل ذلك لم يحاول سلاجقة فارس أن يهتبلوا الفرصة لتحويل التيار فى الشرق الأدنى ضد الصليبيين لطردهم من البلاد التى اغتصبوها . ثم كيف ارتضى سلاجقة فارس لأنفسهم أن تقوم القوى التركمانية الصغيرة — مثل الأراتقة — بمحاربة إمارة الرها ، دون أن يشاركوهم عبء الجهاد للقضاء على تلك القوة الصليبية الرابضة فى شمال العراق والتى تهدد سلامة الخلافة العباسية فى بغداد[١] ! ؟

لاشك فى أن موقف السلاجقة المتسم بالجمود فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر ، إنما مرده النزاع الداخلى بين زعمائهم وقادتهم[٢] . ذلك أن وصول الصليبيين الغربيين إلى الشرق الأدنى وانتصارهم على السلاجقة فى آسيا الصغرى والشام وشمال العراق ، كان له رد فعل عنيف داخل دولة السلاجقة ، إذ انحلت السلطة المركزية وضعفت سيطرة السلطان بركياروق على مختلف حكام الأقاليم التى تألفت منها دولته . ولم يلبث أن اشتد النزاع بين قادة السلاجقة وحكامهم مما أضعف من قوتهم وأضاع هيبة السلطان السلجوقى نفسه . من ذلك ما يرويه ابن الأثير عن القتال الذى نشب بين زعماء السلاجقة حول حكم الموصل عند وفاة حاكمها كربوغا (كربوقا) فى أواخر سنة ١١٠٢ ، والسلطان السلجوقى يسمع ويرى دون أن يتدخل[٣] .

وهكذا صار من المتعذر على سلطان سلاجقة فارس أن يقوم بحرب ضد

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 394.
(2) Setton : op cit I, p. p 167—169.
(٣) ابن الأثير . الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

الصليبيين فى شرق آسيا الصغرى أو فى الشام وشمال العراق ، وقادته فى شغل بالنزاع الداخلى ومقاتلة بعضهم بعضاً . وبعبارة أخرى فقد أفاد الصليبيون من انقسام دولة ملكشاه وتفتتها ، وما نشأ بين زعمائها وقادتها من خلافات شغلتهم جميعاً عن محاربة الدخلاء [١] .

(1) Archer : op. cit. p 144.

الفصل الثالث

عودة بوهيموند إلى حكم أنطاكية

إطلاق سراح بوهيموند :

استاء البيزنطيون من الحرب السافرة التى شنها ضدهم تنكرد الوصى على أنطاكية ، وهى الحرب التى أدت إلى استيلائه على مدن قيليقية واللاذقية . ولما كان من الصعب على الإمبراطور البيزنطى وجيوشه اختراق آسيا الصغرى لمعاقبة النورمان فى تلك الظروف التى أعقبت فشل الحملة الصليبية سنة ١١٠١ ، فإن الإمبراطور لم يجد وسيلة للانتقام سوى الحصول على شخص بوهيموند نفسه بأى ثمن . ولم تكن محاولة الإمبراطور البيزنطى عندئذ هى المحاولة الأولى مع الملك غازى كمشتكين لإطلاق سراح بوهيموند ؛ إذ أخذ بلدوين دى بورج أمير الرها يتخوف عندئذ من أطماع تنكرد وسياسته ، ولم يجد سبيلا لمنع الصدام مع النورمان فى أنطاكية سوى إطلاق سراح بوهيموند وإعادته إلى إمارته[1] . لذلك قام بلدوين دى بورج ـ بالاشتراك مع برنارد بطرق أنطاكية ـ بمحادثات مع الملك غازى لإطلاق سراح بوهيموند ، وعندئذ تقدم الإمبراطور البيزنطى فجأة بعرض سخى ، إذ عرض على الملك غازى مائتين وستين ألف دينار ثمناً لتسليمه بوهيموند ، وقام حاكم طرابيزون بالوساطة بين الطرفين[2] .

وعندما علم قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم بتلك المحادثات بين الإمبراطور

---

(1) Runciman: op. cit. II, p. 38.

(2) Albert d'Aix, P. 610.

البيزنطى والملك غازى حول تسليم بوهيموند ، تدخـل ليطلب من الملك غازى تسليمه نصف المبلغ السابق مقابل المساعدة التى قدمها للملك غازى سنــة ١١٠١ ضــد حملة اللمباردييين . ولـكن الملك غازى رفض طلب قلج أرسلان ، فأعلن الأخير الحـرب على الأول ، فى الوقت الذى كان بوهيموند لايزال أسـيراً فى نيكسار .

والواقع إن بوهيموند لم يكن فى عزلة تامة عن تلك المحادثات الدائرة بشأن شخصه وتحديد مصيره، فوصلت اليه الأخبار ـ فى محبسه ـ بعرض الإمبراطور البيزنطى من ناحية وطلب السلطان قلج أرسلان من ناحيـة أخرى ، ثم موقف الأمير التركمانى الملك غازى من الطرفين . ويقال إن بوهيمـوند ـــ وهو النـورمانى الوسيم ـــ كان على صلة ببعض النساء فى حريم الملك غازى، مما مكنه من متابعة الأخبار الخارجيـة من ناحية ، ثم من العثور على شفعاء عنـد الملك غازى من ناحية أخرى(٤) . وكان أن أرسل بوهيموند إلى الملك غازى يذكرة بأن كلا من الطرفين الذين يتساومان عليه ـ الإمبراطور البيزنطى وسلطان سلاجقة الروم ـ عدو مشترك لبوهيموند وللملك غازى نفسه ، وأن مصلحة الملك غازى تتطلب منه أن يطلق سراح بوهيموند دون أن يسلمه لأحد ، وفى هذه الحالة يتعهد بوهيموند بمحالفة الملك غازى ضد أعدائهما المشتركين . أما من ناحيـة المال فإن معنى إصرار قلج أرسلان على مقاسمـة الملك غازى المبلغ الذى سيدفعه الإمبراطـور البيزنطي، هو أن الملك غازى لن يتسلم سوى مائه وثلاثين ألف دينار ، فى الوقت الذى تعهد بوهيموند بدفع مائة ألف دينار عن طريق الصليبيين بالشام .

وفى تلك الأثناء أخذت جيوش الملك غازى تهاجم ملطية، وعندئذ استنجد

---

(1) Runciman : op cit; II, 301.

(2) Setton : op. cit; vol, I. p. 388.

(3) Albert d'Aix, p. p 610 – 612.

حاكمها جبريل بزوج ابنته بلدوين دى بورج أمير الرها . ولكن الأخير خشى أن يؤدى تدخله لمساعدة ملطية إلى تعثر المفاوضات الدائرة بشأن إطلاق سراح بوهيموند ، فأصم أذنيه عن نداء جبريل ، مما أدى إلى سقوط ملطية فى قبضة الملك غازى ومقتل جبريل نفسه . ولم يلبث الملك غازى أن قبل العرض الذى تقدم به بوهيموند لإطلاق سراحه، فاقتيد إلى ملطية حيث تبادل مع الملك غازى أيمان الإخلاص والتحالف ، وبعد ذلك تم إطلاق سراحه فى أوائل مايو سنة ١١٠٣ أما عن مقدم الفدية المتفق عليه ، فقد اشترك فى جمعة الصليبيون فى الرها وأنطاكية، فضلا عن الأرمن فى إقليم طوروس ، فى حين دفع المؤخر أتباع بوهيموند فى صقلية(٥) .

ومن الواضح أن إطلاق سراح بوهيموند فى ذلك الوقت جاء كارثة على المسلمين ، كما يعبر عن ذلك ابن الأثير، لأنه «عاد إلى أنطاكية فقويت نفوس أهلها به » . هذا إلى أن إطلاق سراح بوهيموند أوقع الملك غازى فى نزاع مع قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، الذى عز عليه أن يرفض غازى طلبه ويحرمه من مبلغ ضخم. وهكذا تفككت جبهة الأتراك فى آسيا الصغرى ، وهى الجبهة التى أمكنها سنة ١١٠١ أن تقضى على الحملة اللمباردية ، وأرسل قلج أرسلان إلى سلاجقة فارس وإلى الخليفة العباسى يستعديهما على الملك غازى التركمانى، مما زاد من تشقق الجبهة الإسلامية ، وتصدعها فى الشرق الأدنى .

أما بوهيموند فقد وصل أنطاكية فى مايو سنة ١١٠٣ ليستقبل استقبالا رائعاً فى إمارته بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات قام فيها ابن أخته تنكرد برعاية

(1) Michael Le Syrien, III, p. p. 185-189.
(2) Runciman : op. cit II, p. 39.
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .
(4) Albert d'Aix, p. p. 613 _ 614.

شئون الإمارة فى الداخل والخارج بمهارة فائقة . ولم يسع بوهيموند سوى أن يشكر تنكرد لإخلاصه وأمانته ، وإن كان يبدو وجود قدر من الخلافات الشخصية بين بوهيموند وتنكرد فى تلك الفترة، بسبب رغبة الأخير فى الاحتفاظ لنفسه بالفتوحات التى فتحها أثناء قيامه بالوصاية على إمارة أنطاكية[1] . ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الحزازات قدر لها ألا تنكشف ، فاضطر تنكرد إلى مسالمة خاله على طول الخط تحت تأثير الرأى العام ، فى حين اكتفى خاله باقطاعه إقطاعا صغيراً فى إمارة أنطاكية[2] .

حروب بوهيموند ضد البيزنطيين والمسلمين :

ولم يكد بوهيموند يعود إلى أنطاكية حتى افتتح صفحة جديدة فى سلسلة عدائه للدولة البيزنطية . ذلك أن الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين جدد طلبه الخاص بتنفيذ اتفاقية سنة ١٠٩٧ بينه وبين أمراء الحملة الصليبية الأولى ، وطالب بإعطائه أنطاكية وغيرها من البلدان البيزنطية التى انتزعها الصليبيون من السلاجقة[3] . ولكن بوهيموند رد على الامبراطور بالرفض ، محتجاً بأن مسلك الامبراطور أثناء صراع الحملة الصليبية الأولى ضد السلاجقة ، يجعل الصليبيين فى حل من عدم الالتزام بالاتفاقية السابقة. لذلك أرسل الإمبراطور حملة كبيرة سارت فى آسيا الصغرى بحذاء شاطىء البحر المتوسط لاحتلال طرسوس وأذنه والمصيصة ، وانتزاعها جميعاً من النورمان . ولكن تلك الحملة لم توفق فى مهمتها بسبب موقف أهالى تلك البلاد ـ وجلهم من الأرمن — مما

(1) Runciman op. cit. II. p. 39.

(2) Setton : op. cit. I. P. 388.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 233.

جعل قائد الجيش البيزنطى يتجه إلى مرعش التى كان حاكمها الأرمنى ثاتول Thatoul تابعاً للامبراطور البيزنطى [١] .

ولم يكد القائد البيزنطى يعود من مرعش إلى القسطنطينية حتى زحف بوهيموند أمير أنطاكية وجوسلين دى كورتناى — نائبا عن بلدوين دى بورج أمير الرها — على مرعش،فاستولى عليها جوسلين باسم أمير الرها سنة ١١٠٣، فى حين استولى بوهيموند على مدينة الأباستين شمالى مرعش [٢] .

وفى الوقت نفسه لم يهمل بوهيموند ـ بعد إطلاق سراحه ـ جانب جيرانه المسلمين، فشرع يحاربهم بشراسته المعروفة ، وبدأ بمهاجمة البلدان التابعة لسلاجقة حلب ، كما فرض الجزية على قنسرين [٣] . ويروى ابن العديم أن الصليبيين فى أنطاكية والرها اشتركوا فى مهاجمة المسلمية على نهر قويق شمالى حلب ، فمزقوا الأهالى إربا وفرضوا عليهم الأموال الباهظة . وبعد أن قضوا بضعة أيام فى إقليم حلب تم الاتفاق مع صاحبها رضوان السلجوقى على أن يدفع لهم « سبعة آلاف دينار وعشرة رءوس من الخيل،ويطلقون الأسرى ماخلا من أسروه على المسلمية من الأمراء » . ويبدو أن هذه الأموال التى حرص بوهيموند على فرضها على جيرانه المسلمين فى تلك الفترة بالذات إنما كان الغرض منها رد المبالغ التى اقترضها بلدوين دى بورج والبطرق برنارد من المسيحيين للحصول على الفداء اللازم لإطلاق سراح بوهيموند [٤] . يدل على ذلك ماذكره ابن الأثير من أن بوهيموند «لم يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وماجاورها يطالبهم بالإتاوة ... » [٥] .

---

(1) Chalandon ; Alexis Comnene, p. 234.

(2) Raoul de Caen. p· p 710-712·

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(4) Runciman : op, cit. II p.39·

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

كذلك يروى ابن العديم أن الصليبيين التابعين لإمارة الرها خرجوا بعد ذلك من تل باشر ، ودمروا الأجزاء الشمالية والشرقية من حلب ، وعاثوا فيها فسادا وتحريقا ، ثم اتجهوا إلى قلعة بسرفوث واستولوا عليها ، كما هاجموا قلعة كفر لاثا ، ولكن قبيلة بنى عليم تصدت لهم وردتهم عنها فعادوا أدراجهم إلى بسرفوث [١] . ولاشك فى أن استيلاء الصليبيين على قلعة بسرفوث أمر له أهميته لأن تلك القلعة تتحكم فى الطريق بين حلب وأنطاكية [٢] .

موقعة حران وأثرها فى أنطاكية :

وفى ذلك الوقت استغل أمير الرها انقسام السلاجقة على أنفسهم ، والنزاع بين بركياروق ومحمد ابنى ملكشاه — كما سيلى فيما بعد — وقام بحملته الشهيرة على حران فى ربيع سنة ١١٠٤ . ويهمنا فى هذا المقام أن بوهيموند أمير أنطاكية — ومعه تنكرد — لم يتركا بلدوين الثانى (دى بورج) أمير الرها وحيدا أمام حران ، نظراً لأهمية هذه المدينة ووقوعها على الطريق الموصل إلى بغداد قلب العالم الإسلامى فى المشرق . وكان معنى استيلاء الصليبيين على حران أنهم سيتمكنون من قطع الصلة بين المسلمين فى العراق وفارس وإخوانهم فى الشام ، فضلا عن أن سقوط حران سيعطي الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل نفسها وتأمين الرها والسيطرة على إقليم الجزيرة .

على أن تهديد الصليبيين لحران على تلك الصورة جعل اثنين من أمراء الأتراك — هما شمس الدولة جكرمش أتابك الموصل ، ومعين الدولة سكمان الأرتقى

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III p. 591)

(2) Grousset : *Hist. des Croisades* I, p. 401

(3) Runciman : op. cit. II, p 40.

صاحب ماردين فى ديار بكر (وهو الذى كان أمير سروج من قبل) ـ يتناسيا ما بينهما من حزازات قديمة ، ويتفقان على مقاومة ذلك الخطر . وهكذا التقى الأميران عند رأس العين على الخابور للزحف على الصليبيين . وكان مع سكمان سبعة آلاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد [١] .

ولم تلبث أن دارت المعركة فى مايو سنة ١١٠٤ بين الطرفين على ضفة نهر البليخ [٢] . وفى تلك الموقعة أظهر المسلمون «الانهزام فتبعهم الفرنج نحو فرسخين فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاءوا ، وامتلأت أيدى التركمان من الغنائم ووصلوا إلى الأموال العظيمة..» . وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين ، ووقع أمير الرها — بلدوين الثانى دى بورج — ومعه جوسلين حاكم تل باشر، أسيرين فى قبضة المسلمين [٣] . أما بوهيموند ومعه معظم جيشه فقد لاذوا بالفرار بعد أن بلغ بهم الاضطراب والذعر حداً جعل برنارد بطرق أنطاكية يقطع ذيل فرسه لئلا يجذبه منه أحد الأتراك ويفتك به [٤] .

وسنقتصر فى هذا الموضع على علاج أثر تلك الكارثة التى حلت بالصليبيين فى أحوال إمارة أنطاكية، على أن نؤجل الكلام عن أثرها فى إمارة الرها إلى الباب الآتى . ذلك أن موقعة حران أو البليخ أوقفت تقدم الصليبيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

Albert d'Aix p. 615.

ويلاحظ أن المراجع الصليبية قدرت عدد جيوش المسلمين بثلاثين ألف رجل، وهو رقم مبالغ فيه، ربما قصد به تبرير الهزيمة التى حلت بالجيوش الصليبية.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٧ هـ &

Raoul de Caen, p. 170,

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . &

Foucher de Chartres, p 409.

(4) Runciman : op. cit. p. 43.

وتوسعهم جهة الشرق على حساب المسلمين ، كما أتاحت لرضوان ملك حلب السلجوقى فرصة ليثأر لنفسه من نورمان أنطاكية. حقيقة إن رضوان لم يشترك فى موقعة حران مع أتابك الموصل وصاحب ماردين ، ولكن رضوان وقف على رأس جيشه قرب الفرات ليتابع سير المعركة . ولم يكد يعلم بانتصار الأتراك حتى أسرع بالاستفادة من الموقف ، فاسترد القلاع والمدن القريبة من حلب — مثل معرة مصرين وسرمين — وساعده فى ذلك أهالى تلك البلاد من المسلمين الذين انقضوا على حكامهم الصليبيين[1] . هذا فى الوقت الذى هب شمس الخواص أمير رفنية لمهاجمة القلاع الصليبية القريبة ، فاسترد صوران ، شرق شيزر. وهكذا لم تلبث الحاميات الصليبية الموجودة فى البارة ومعرة النعمان وكفر طاب والطمين أن انسحبت ولاذت بالفرار إلى أنطاكية ، وبذلك انكمشت حدود إمارة أنطاكية الصليبية إلى القويق وبحيرة العمق ، بعد أن كانت تلك الحدود قد قاربت مشارف حلب ذاتها[2] .

وزاد موقف النورمان سوءا استيلاء رضوان ملك حلب على أرتاح ، وهى القلعة ذات الموقع الهام بالنسبة لأنطاكية . ويؤكد ابن العديم وصاحب مرآة الزمان أن الأرمن فى أرتاح ثاروا ضد حكم النورمان ، وأنهم نادوا رضوان لاستلام القلعة ، وذلك « لخور الفرنج » و « لما شملهم جوار الفرنج »[3] . ثم إن بعض المؤرخين يرون أن أرتاح لم تكن المدينة الوحيدة التى سلمها أهلها من الأرمن للمسلمين ، وإنما كانت هنالك حالات أخرى مشابهة ، مما مكن المسلمين من استرداد عدة مدن وقلاع فى ذلك الإقليم دون أن يتحملوا جهداً أو عناء[4] .

---

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 592)

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 529) &
ابن العديم : زبدة الحلب (p. 593)

(4) Stevenson : op. cit. p. 78.

وخلاصة القول ، إن هزيمة البليخ التى حلت بالصليبيين سنة ١١٠٤ ، أضاعت كثيراً من المكاسب التى حققتها إمارتا أنطاكية والرها على حساب المسلمين بالشام .

ثم إن المسلمين لم يكونوا وحدهم الذين أفادوا من تلك الكارثة، بل سرعان ما استغل الامبراطور ألكسيوس كومنين الفرصة ليثأر من خصمه بوهيموند ويسترد منه بعض الممتلكات البيزنطية[١] .ذلك أن الرعايا البيزنطيين فى مدن قيليقية — مثل طرسوس وأذنه والمصيصة — ثاروا بدورهم ضد حكم النورمان وسلموا مدنهم للبيزنطيين[٢] . ويبدو أن الأرمن فى تلك الجهات شاركوا الرعايا البيزنطيين ثورتهم ، بدليل ما نلحظه من أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين عهد بعد ذلك بقيادة الجيوش البيزنطية فى قيليقية إلى قائد أرمنى . ولم يلبث أن أرسل الامبراطور أسطولا بيزنطيا إلى اللاذقية ، استطاع أن يفاجىء المدينة ويستولى على معظمها من النورمان[٣] . ولم يكد ذلك الأسطول يفرغ من الاستيلاء على اللاذقية حتى شرع ينتزع من النورمان عدة مراكز أخرى على الشاطىء — فيما بين اللاذقية وانطرطوس — فضلا عن قلعة المرقب[٤] . وهكذا وجد بوهيموند نفسه بين نارين ، وعليه أن يحارب فى جبهتين لينقذ إمارته ، فالمسلمون عن يمين يهاجمونه على جبهة نهر العاصى ، والبيزنطيون عن يسار يهددون شواطىء أنطاكية . وزاد من حرج موقف بوهيموند أنه لم يجد بين الصليبيين فى طرابلس أو بيت المقدس نصيراً يعطف عليه ويساعده فى محنته .

(1) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 314.

(2) Raoul de Caen p. 712.

(3) Stevenson : op. cit, p. p. 78 – 79.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, 1, p. 414.

نهاية بوهيموند

ولم يكن فى استطاعة بوهيموند أن يقف موقف المتفرج على إمارته التى أجهد نفسه فى إقامتها ، وهى تنهار لبنة بعد أخرى أمام غزوات البيزنطيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى[1] . والواقع أنه على الرغم من خطورة إغارات رضوان ملك حلب — الذى بلغت قواته جسر الحديد على نهر العاصى — ؛ إلا أن رضوان لم يكن بالرجل الذى يحرص على الاستفادة فائدة كاملة من الموقف ؛ فلم يلبث أن صرف نظره عن أنطاكية وشغل بأمر دمشق . وكان بوهيموند نفسه يدرك أن رضوان ليس بالخصم الخطير ، وأنه من الممكن أن يصفى موقفه معه فى سرعة فيما بعد ، وأن مصدر الخطر الحقيقى الذى هدد أنطاكية عندئذ إنما كان الإمبراطورية البيزنطية[٢] ؛ لذلك فكر بوهيموند فى القيام بعمل سريع حاسم للانتقام من القسطنطينية وإمبراطورها ، وقرر العودة إلى غرب أوربا ليثير الرأى العام ضدها ، علّه ينجح فى الدعوة لحملة صليبية جديدة يتخذها أداة يثأر بها لنفسه من القسطنطينية . وكان تنكرد عندئذ فى الزها ، يدير شئونها عقب أسر أميرها بلدوين دى بورج فاستدعاه بوهيموند ، وعهد إليه من جديد برعاية شئون إمارة أنطاكية أثناء غيابه فى إيطاليا وفرنسا .

وفى أواخر سنة ١١٠٤ أبحر بوهيموند إلى إيطاليا وبصحبته صديقه القديم البطرق دايمبرت ؛ ويقال إنه حمل معه كل ما استطاع حمله من أموال ومجوهرات وتحف ، فضلا عن بضعة نسخ من تاريخ الحملة الصليبية الأولى التى لايعرف مؤلفها (Gesta Francorum) ، والتى تعالج تاريخ تلك الحملة من وجهة نظر

---

(1) Vasiliev : op. cit. II, p. 410.

(2) Stevenson : op cit; p 78.

النورمان(١) . وتحتل رحلة بوهيموند إلى غرب أوربا فى ذلك الوقت مكانة هامة فى تاريخ الحروب الصليبية ، لأنه لم يقنع بجمع المحاربين من إيطاليا وصقلية وفرنسا لحرب المسلمين ؛ وإنما أخذ يقوم بدعاية واسعة فى تلك البلاد ضد الامبراطورية البيزنطية ، ليصورها للغربيين فى صورة حليفة الإسلام والعقبة الكؤود فى وجه الصليبيين ؛ وأن القضاء على الامبراطورية البيزنطية هو الضمان الوحيد لاستقرار الصليبيين بالشام .

وهكذا لم يكتف بوهيموند بمحاولة تجديد محاولات أبيه — روبرت جويسكارد — فى غزو الدولة البيزنطية (دورازو) فحسب، بل إنه بذر فى الغرب الأوربى البذور الأولى لفكرة توجيه جهود الصليبيين ضد القسطنطينية، والدولة البيزنطية ؛ مما يعتبر أساساً للحملة الصليبية الرابعة التى أسقطت القسطنطينية سنة ١٢٠٤(٣) . وقد ساعد على تثبيت دعاية بوهيموند ضد الدولة البيزنطية فى عقول الغربيين ، ما حدث من أن الإمبراطور البيزنطى لجأ فعلا عند تعرضه لهجوم بوهيموند سنة ١١٠٧ إلى طلب المعونة من السلاجقة ، فأمده قلج أرسلان — سلطان سلاجقة الروم — «بجمع كثير من عسكره» ؛ وذكر هذه الحقيقة ابن الأثير وبعض المؤرخين الصليبيين(٤) . ولم يلبث أن قدم بوهيموند للغرب الأوربى الدليل المادى على التحالف بين البيزنطيين والسلاجقة ،عندما أسر بعض أولئك السلاجقة فى القتال مع البيزنطيين .

ومهما يكن من أمر ، فإن بوهيموند زار البابا باسكال الثانى واستثاره ضد

---

(1) Raoul de Caen Hist. Occid. III. p. p. 712–713 & Guillaume de Tyr I, p. 450.

(2) Vasiljev : op. cit; II, p. p. 410-4II.

(3) Ostrogorsky : op cit, p. 324.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ . &

Albert d'Aix, p. 651.

الإمبراطورية البيزنطية[1]؛ثم انتقل إلى فرنسا حيث استقبله ملكها استقبالا طيبا وسمح له بجمع المحاربين ، وتمت عدة مصاهرات بين بوهيموند وأسرته من ناحية والأسرة الملكية فى فرنسا من ناحية أخرى ، مما قوى رابطة التحالف بين الطرفين[2]. وأخيرا عاد بوهيموند إلى أبوليا فى أواخر سنة ١١٠٦،ومعه جموع غفيرة من الصليبيين من مختلف الجنسيات الأوربية مثل الفرنسيين والإيطاليين والأسبان والإنجليز والألمان الذين شاركوا بوهيموند الرأى فى أن تكون الإمبراطورية البيزنطية وجهة حملتهم[3]. وقد اختار بوهيموند أن يهاجم مدينة دورازو،وهى أقوى قلعة بيزنطية عند مدخل الإدرياتيك وتعتبر مفتاح مقدونيا (اكتوبر ١١٠٧) .

على أن دورازو قاومت مقاومة باسلة فى الوقت الذى حضر الإمبراطور ألكسيوس بنفسه ليهاجم النورمان براً وبحراً،ولم يلبث أن ساء موقف بوهيموند ورجاله أمام دورازو وتعرضوا للجوع والهلاك بسبب افتقارهم إلى القوة البحرية من ناحية وانتشار الأمراض بين صفوفهم من ناحية أخرى . ولم يجد بوهيموند مخرجا من ذلك الموقف سوى الاستسلام لشروط الإمبراطور التى فرضها فى صلح دفول Devol سنة ١١٠٨ . وبمقتضى هذا الصلح تعهد بوهيموند بأن يصبح تابعا أمينا لألكسيوس وخلفائه ، وأن يعاونهم ضد جميع أعدائهم ، وأن يعيد للامبراطورية كل أراضيها القديمة[4] . ومعنى ذلك أن إمارة أنطاكية قبلت وفقاً لتلك الشروط أن تصبح قاصرة على أنطاكية وميناءها السويدية،ثم المنطقة الممتدة فى الشمال الشرقى حتى مرعش ، مضافاً إلى ذلك ما يستطيع بوهيموند الاستيلاء عليه من المسلمين . أما مدن قيليقية والمنطقة الساحلية المحيطة باللاذقية

---

(1) Vasiliev : op. cit, II, 410.

(2) Runciman : op cit. II. p. 49.

(3) Vasiliev : op. cit; II. p. p. 410-411.

(4) Chalandon : Alexis Comnene. p. 246

فتعود جميعها للامبراطورية البيزنطية ، وليس للصليبيين أى حق فيها . هذا كله بالإضافة إلى موافقة بوهيموند على عزل البطرق الكاثوليكى فى أنطاكية وتعيين بطرق أرثوذكسى محله . وأخيراً ، فقد تعهد بوهيموند بأن يحارب تنكرد ويعتبره عدوا ، إذا هو رفض أن يقبل شروط تلك الاتفاقية التى عقدها خاله مع البيزنطيين (١) .

ومن هذا تبدو أهمية اتفاقية دفول فى أنها كشفت النقاب عن موافقة الامبراطورية البيزنطية على مبـدأ قيام إمارة أنطاكية الصليبية ، وعلى بقاء أنطاكية نفسها فى يد بوهيموند والنورمان ، طالما أنهم يرتبطون برباط التبعية والولاء للامبراطور البيزنطى . هذا إلى ماتكشف عنه تلك الاتفاقية من حرص الامبراطور ألكسيوس كومنين عن مصالح الكنيسة الشرقية ورعاياه من المسيحيين الأرثوذكس ، بحيث يكون تعيين بطرق أرثوذكسى لأنطاكية ، بمثابة رد اعتبار للكنيسة الشرقية . على أن هـذه الاتفاقية ظلت من الناحية العملية حبراً على ورق طالما أن بوهيموند كان واثقا من أن تنكرد لن يقبل شروط الاتفاقية شكلا وموضوعاً (٢) .

أما بوهيموند نفسه فكان الموقف مشينا وسيئاً للغاية بالنسبة له ، بعد أن رأى آماله العريضة تتحطم فجأة وتنتهى إلى ما انتهت إليه سنة ١١٠٨ . وبعد ذلك الاستسلام الفاضح لم يستطع بوهيموند العودة إلى إمارته بالشام ، فذهب إلى إيطاليا حيث قضى حياته محتجباً عن الأنظار إلى أن مات فى مارس سنة ١١١١ (٣) .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 418.
(2) Runciman : op. cit. II p. 51.
(3) Vasiliev : op. cit. II. p. 411.

الفصل الرابع

الفترة الثانية لحكم تنكرد في أنطاكية

(١١٠٤ — ١١٠٢)

تنكرد وسلاجقة حلب :

عندما أقلع بوهيموند إلى الغرب سنة ١١٠٤ ، ترك تنكرد في موقف لايحسد عليه ، إذ كان عليه أن يدافع عن أنطاكية أمام عدوين لايرحمان : هما السلاجقة من الشرق والبيزنطيون من الغرب . هذا فضلا عن أن بوهيموند ترك الخزانة خاوية ، مما أوجد تنكرد أمام مشكلة الحصول على المال اللازم لتجنيد الرجال وإعداد التحصينات . ومن الواضح أن هذه المشكلة الأخيرة كانت تمثل العقبة الأساسية التي علي تنكرد أن يبدأ بعلاجها ؛ ولذلك استدعى كبار الأثرياء في أنطاكية — وكانوا خمسة من السريان والأرمن — وطلب منهم تقديم الأموال اللازمة لمواجهة الموقف . وبهذه الأموال استطاع تنكرد أن يستأجر الجنود اللازمين له ، فلم يحل ربيع سنة ١١٠٥ إلا وكان تنكرد على رأس جنده يحاصر أرتاح(١) .

وكان أن أسرع رضوان ملك حلب للدفاع عن ارتاح ، مصطحباً معه فرسانه من الأتراك فضلا عن المشاة العرب . وعندما التقى الطرفان عند تيزين — شرقي أرتاح — دارت معركة حادة انتهت بانتصار الصليبيين وهزيمة رضوان ورجاله ،

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 420.

الذين قتل منهم حوالى ثلاثة آلاف رجل « مابين فارس وراجل ، وهرب من بارتاح من المسلمين »[١] .

وهكذا استطاع تنكرد أن يمحو بسرعة أثر هزيمة البليخ ، وأن يسترد أرتاح من المسلمين ، وبذلك انقلب الموقف مرة أخرى فى جبهة العاصى، فأخذ الصليبيون يطاردون المسلمين ، ويستردون البلاد التى فقدوها فى العام السابق . ويروى ابن العديم أن الخراب الذى أصاب إقليم حلب عندئذ فاق ماحدث لإقليم كلا سنة ١١٠٠ ، إذ عسكر تنكرد عند تل أغدى — من أعمال ليلون عند جبل بركات — أى على الطريق الرئيسى بين أنطاكية وحلب ، وبذلك هدد حلب وماحولها تهديدا مباشرا[٢] . ويضيف ابن الأثير أن الصليبيين استردوا فى تلك الفترة سرمين ، وهو مركز هام فى إقليم الجزر[٣] .

ولم يلبث أن استولى تنكرد على فامية من الباطنية بعد أن اشتد الصراع داخلها وقتل حاكمها خلف بن ملاعب بيد جماعة من الباطنية[٤]. وعندئذ استنجد أهل الحصن من المسيحيين بتنكرد ، الذى حضر فى سرعة ولكنه لم يوفق أول الأمر فى الاستيلاء على المدينة ، فانصرف عنها بعد حصار بضعة أسابيع . وبعد أشهر حضر إلى أنطاكية مصبح بن ملاعب — ابن الأمير خلف الذى قتل — وطلب من تنكرد معاودة الكرة ضد فامية ؛ فاستجاب له تنكرد وسقطت فاميه فى سبتمبر سنة ١١٠٦ . كذلك استرد تنكرد كفر طاب شرقى فامية

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (p, 593 &

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ . &

Albert d'Aix, p. 620.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (III. p. 593) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٤) المرجع السابق . & Albert d'Aix. 641.

وقد ذكر ابن الأثير أن خلف بن ملاعب عندما استقر فى أفامية كان « مخيف السبيل =

= بين معرة النعمان وشيزر ـ مما مكنه من شن إغارات عنيفة وتهديد المدن والقلاع والضياع الإسلامية القريبة ، وبخاصة مدينة شيزر سنة ١١٠٨ (١) .

تنكرد والبيزنطيون :

ولم يكن تنكرد أقل رغبة فى الثأر من البيزنطيين ، حيث ظلت اللاذقية دائماً ميدان صدام بين البيزنطيين والنورمان فى جبهة الشام . ولم يستطع تنكرد أثناء اشتباكاته مع المسلمين فى حوض نهر العاصى أن يواجه البيزنطيين فى اللاذقية؛ ولكنه بعد أن حقق انتصاراته على المسلمين ـ واسترد ارتاح وفامية ـ بدأ يفكر فى طرد البيزنطيين من اللاذقية (٢) . ويبدو أنه لم يكن للبيزنطيين عندئذ حاميات قوية فى اللاذقية ، لأن الإمبراطور اضطر إلى استدعاء معظم جيوشه من اللاذقية وقيليقية فى صيف سنة ١١٠٧ عندما هدد بوهيموند الجبهة الغربية للامبراطورية (٣) . ومع ذلك فقد كان تنكرد فى حاجة إلى أسطول قوى يمكنه من محاصرة البيزنطيين وطردهم من اللاذقية ، ولذلك استعان بالبيازنة . واستطاع بهذه الطريقة أن يسترد اللاذقية فى منتصف سنة ١١٠٨ . وقد كافأ تنكرد البيازنة على ماقدموه له من معونة بإعطائهم شارعا فى أنطاكية وحياً فى اللاذقية ، فضلا عن أنه كفل لهم حرية التجارة والعمل فى جميع موانى إمارة انطاكية (٤).

= ويقطع الطريق واجتمع عنده كثير من المفسدين فكثرت أمواله » .

كذلك ذكر ابن الأثير أن أهل سرمين كانوا « غلاة فى التشيع » ؛ فلما ملك الصليبيون سرمين تفرق أهلها وذهب بعضهم إلى أفامية حيث دبروا مؤامرة مع أبى طاهر المعروف بابن الصائغ للفتك بابن ملاعب ، ونجحت المؤامرة . ويصف ابن الأثير أفامية بأنها « من أمنع الحصون » .

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٧٥ — ٧٦ .

(2) Chalandon ; Alexis Comnène, p 250.

(3) Runciman, op. cit.; I, p. p. 53-54.

(4) Heyd ; op. cit. I. p. 145-146.

وأخيراً توج تنكرد انتصاراته على البيزنطيين بالقيام بهجوم على قيليقية فى أواخر سنة ١١٠٨ وأوائل سنة ١١٠٩ . وفى ذلك الهجوم نجح تنكرد فى الاستيلاء على المصيصة بعد حصار قصير ، كما استطاع بعد بضعة أشهر أن يبسط سيطرته على أذنه وطرسوس فى حين ظلت الأجزاء الغربية من إقليم قيليقية خاضعة للامبراطورية[1] .

وهكذا استطاع تنكرد فى مدى أربع سنوات أن يسترد معظم ماخسرته إمارة أنطاكية عقب هزيمة البليخ ، وأن يحفظ تلك الإمارة من الضياع نهائيا بين المسلمين والبيزنطيين . ولا شك فى أنه أفاد فى تلك الفترة فائدة عظمى من الانقسام بين صفوف السلاجقة .

تنكرد والسلاجقة :

ظل الأتابكة فى شمال الشام وأرض الجزيرة مصدر جميع القلاقل التى شهدتها تلك البلاد عند مطلع القرن الثانى عشر . وإذا كان أولئك الأتابكة فى نظر الصليبيين حكاما مستقلين فإنهم فى حقيقة الأمر كانوا — من الناحية النظرية على الأقل — تابعين لسلاطين السلاجقة فى فارس(٢) .

ويطول بنا الأمر لو دخلنا فى تفاصيل المنازعات بين أتابكة الشام والجزيرة ، ولكن تكفى الإشارة إلى ماسبق أن ذكرناه من عقد صلح سنة ١١٠٤ بين بركيارق ومحمد ابنى ملكشاه ؛ وأن الموصل ـ بمقتضى ذلك الصلح ـ صارت من نصيب محمد . على أن جكرمش أتابك الموصل رفض أن يسلم محمد المدينة ،

---

(1) Guillaume de Tyr I, p. p. 635-636.

(2) Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades p. 24

واعتذر بأنه لن يسلمها إلا لبركيارق نفسه[١] . ولم تؤثر وفاة بركيارق فى يناير سنة ١١٠٥ فى موقف جكرمش ، إذ « جدد سور الموصل ورم جميع ما يحتاج إلى الإصلاح » ورفض دفع المال المقرر عليه لمحمد الذى غدا السلطان الوحيد لسلاجقة فارس . ويبدو أن جكرمش اعتمد إلى حد كبير على ولاء أهل الموصل له ومحبتهم « لحسن سيرته فيهم » ، الأمر الذى جعل السلطان محمد يزحف على الموصل « بالنقابين والدبابات » ، ويقاتل أهل الموصل قتالا شديداً ، ولكن دون أن يظفر بغرضه[٢] .

وأخيراً فكر السلطان محمد فى وسيلة لاسترجاع الموصل وديار بكر والجزيرة ، فمنح حكمها جميعاً لأحد رجاله — واسمه جاولى سقاووا — وعهد إليه سنة ١١٠٦ بمحاربة الصليبيين فى أطراف العراق والشام ، وتحت هذا الستار يستطيع أن يقضى على جكرمش . ولم يلبث الأخير أن حلت به الهزيمة ، فأسر على ضفاف دجلة ، ولكن أهل الموصل رفضوا أن يسلموا مدينتهم لجاولى وأقاموا زنكى الصغير ابن جكرمش — وسنه إحدى عشرة سنة — أتابكا عليهم[٣] .

ثم إن أهل الموصل لم يقنعوا بكل ذلك وإنما استنجدوا بقلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم فى قونيه ، فحضر إليهم ووضع يده على الموصل وتعهد بحمايتهم[٤] . أما جاولى فقد انسحب إلى سنجار حيث اتصل به إيلغازى بن أرتق ، كما اتصل به الملك رضوان صاحب حلب ، واتفق الطرفان على طرد

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ — ١٩٨ . وقد كتبه ابن العبرى « جكرميش » .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ .

قلج أرسلان من الموصل أولا ، ثم التوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية . وقد انتهت الحرب ضد قلج أرسلان بهزيمته وغرقه فى نهر الخابور ، مما مكن جاولى من الاستيلاء على الموصل سنة ١١٠٧[١] . على أن جاولى لم يكد ينجح فى تحقيق ذلك حتى أعلن استقلاله بالموصل ، مما جعل السلطان محمد يعهد سنة ١١٠٨ إلى أحد رجاله — وهو مودود ألتوينكى — بطرد جاولى من الموصل على أن يحل محله فى حكمها[٢]. وهكذا اضطر جاولى مرة أخرى إلى الفرار من الموصل سنة ١١٠٨ ، حيث التف حوله فى الجزيرة جميع أعداء سلطنة السلاجقة ، وعلى رأسهم قبيلة بنى مزيد العربية التى طردها السلطان محمد من الحلة سنة ١١٠٨ . كذلك لم يتردد جاولى فى محالفة القوى الصليبية المجاورة ليكون جبهة قوية ضد السلطنة السلجوقية ، مما جعله يطلق سراح بلدوين الثانى دى بورج أمير الرها ، ويعقد معه تحالفا ضد السلاجقة ، كما سيلى فيما بعد[٣] .

على أن تنكرد الذى كان يسيطر على أمور الرها منذ أربع سنوات رفض أن يسلم المدينة لبلدوين إلا إذا أقسم له يمين الولاء . وكان من المستحيل أن يفعل بلدوين دى بورج ذلك وهو تابع فعلا لملك بيت المقدس ، فانصرف غاضبا إلى تل باشر حيث انضم إليه جوسلين وأخذا يفكران فى الاستعانة بجاولى ضد تنكرد[٤] . وفى تلك الأثناء كان جاولى يسعى لإقامة إمارة له فى الجزيرة ، فلم يجد مفرا من الاعتداء على ممتلكات رضوان ملك حلب. وكان أن أخذ رضوان

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ .
&
Runciman op.cit; II, p. 110.

ويذكر أبو المحاسن أن قلج أرسلان « لما رأى الهزيمة عليه ألقى نفسه فى الخابور فغرق ، فأخرج وحمل تابوته إلى ميافارقين ودفن بها » .
(النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩١).

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٣) ابن الأثير الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ .

(4) Setton : op. cit; I. p. p. 393-394.

يبحث لنفسه بين صفوف الصليبيين عن حليف ، مثلما اعتمد جاولى على محالفة بلدوين الثانى أمير الرها ، فلم يجد رضوان حليفا سوى خصمه القديم تنكرد صاحب أنطاكية .

وهكذا انقسم المسلمون والصليبيون فى شمال الشام والعراق على أنفسهم ، فظهر حلفان الأول من جاولى وبلدوين دى بورج أمير الرها ، والثانى من رضوان وتنكرد حاكم أنطاكية . وقد انتهت المعركة التى دارت بين الطرفين فى نهاية سبتمبر سنة ١١٠٨ بهزيمة الفريق الأول وانتصار تنكرد ، ولكن بعد أن خسر الصليبيون جميعاً ألفى رجل [١] .

تنكرد وبقية الإمارات الصليبية بالشام :

وقد حاول تنكرد أن يستغل انتصاره السابق على بلدوين دى بورج ليضع يده على إمارة الرها الصليبية ، ولكنه فشل فى محاولته هذه بعد أن حصل بلدوين دى بورج على مساعدة جميع أمراء الأرمن فى الجهات الواقعة شرق آسيا الصغرى وأطراف الجزيرة . لذلك استجاب تنكرد لنصيحة بطرق أنطاكية ، فسحب نائبه ريتشارد دى سالرنو من الرها، ودخلها بلدوين دى بورج ظافرا حيث استقبل فى حماسة بالغة [٢] .

أما تنكرد فلم يجد أمامه — بعد أن فشلت خطته فى الرها — سوى إمارة طرابلس ليتدخل فى شئونها ، علّه ينجح فى السيطرة على تلك الإمارة . وقد سبق أن ذكرنا كيف حضر برترام بن ريموند الصنجيلى إلى الشام سنة ١١٠٨

---

(١) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(2) Matthieu d'Edesse p. 87.

(3) Foucher de Chartres, p. p. 477 481.

للمطالبة بحقه فى تركة أبيه واستلامها من وليم جوردان . كذلك أشرنا إلى أنه عند وصول برترام إلى ميناء السويدية أسرع تنكرد لملاقاته ، ثم عاد وطرده عندما رفض برترام أن يحالفه فى مشاريعه العدوانية ضد الدولة البيزنطية [١] . وكان أن ألقى وليم جوردان بنفسه بين أحضان تنكرد وأعلن تبعيته له ، فوجد تنكرد فى ذلك فرصة طيبة لتحقيق أطماعه فى الإمارة الجديدة عن طريق الوقوف إلى جانب وليم . ولكن برترام فوت على تنكرد هدفه عندما استنجد ببلدوين الأول ملك بيت المقدس الذى أعان وضع برترام تحت حمايته باسم كنيسة بيت المقدس ، كما حذر تنكرد من القيام بأى عمل عدوانى ضد برترام [٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن حضور بلدوين بنفسه ، وتقسيمه ساحل لبنان بين وليم جوردان وبرترام — كما سبق أن ذكرنا — ثم مساعدته برترام فى فتح طرابلس واتخاذها قاعدة للامارة الجديدة ؛ كل ذلك أنقذ إمارة طرابلس من الوقوع تحت سلطان تنكرد . ثم إن برترام لم يعترف وحده بالولاء لملك بيت المقدس ، بل اضطر تنكرد هو الآخر إلى الاعتراف بذلك الولاء ، وبزعامة مملكة بيت المقدس على كافة الإمارات الصليبية فى الشام وشمال العراق [٣] .

توسع تنكرد على حساب المسلمين :

وعندما قنط تنكرد من التوسع على حساب إمارة الرها من جهة وإمارة طرابلس من جهة أخرى ، لم يجد أمامه سوى جيرانه المسلمين ، فاستولى على بانياس فى يولية سنة ١١٠٩ ، وهي تقع بين أنطرطوس واللاذقية ، وبذلك

---

(1) Albert d'Aix, p.p. 665-666.

(2) Setton : op. cit; I, p. 367.

(3) Grousset Hist des Croisades, I, p. p. 445-447.

صارت بمثابة الحد الجنوبى لإمارة أنطاكية على شاطىء البحر . وإلى الشمال من بانياس استولى تنكرد أيضاً على جبلة التى كان فخر الملك بن عمار أمير طرابلس السابق قد أوى إليها . وفى الداخل — فى مواجهة جبلة — استولى تنكرد سنة ١١١١ على حصن بكسرائل (١) .

أما فى الجبهة الشرقية ، فبعد أن قام تنكرد بمصاحبة بلدوين الأول ملك بيت المقدس فى الدفاع عن إمارة الرها ضد مودود أتابك الموصل الذى هاجمها وأوشك أن يقضى عليها سنة ١١١٠ — كما سيلى بالتفصيل — ، عاد تنكرد ليحارب رضوان ملك حلب الذى تنكر لمساعدة تنكرد له من قبل ضد الرها وحليفه جاولى ، وهاجم تنكرد أثناء حربه الأخيرة ضد السلاجقة دفاعاً عن الرها (٢) . وكان أن هاجم تنكرد النقرة — قرب منبج — فاستولى عليها بعد أن فر أهلها إلى الجزيرة تاركين خلفهم كل ما يملكون من مال ومتاع . ومن هناك اتجه تنكرد لمحاصرة الأثارب إلى الجنوب الغربى من حلب ، على الطريق بينها وبين أنطاكية (٣) .

أما رضوان فقد احتمى بمدينته حلب ، واكتفى بأن عرض على تنكرد مبلغ عشرين ألف دينار ليتخلى عن حصار الأثارب ، ولكن تنكرد تمسك بثلاثين ألف دينار ، فضلا عن إطلاق سراح جميع من فى حلب من أسرى الصليبيين . ولما كان رضوان لا يريد دفع ذلك المبلغ الضخم ، فقد ترك الأثارب تسقط فى يد تنكرد فى نهاية سنة ١١١٠ . ويذكر ابن العديم ومتى الرهاوى أن تنكرد ترك حامية القلعة تخرج من غير سوء ، فى حين قال ابن الأثير

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec: Hist. Or. III' p. 597)

أنه قتل ألفين من رجالها وأسر الباقى [١] .

والواقع إن سقوط الأثارب التى لاتبعد عن حلب أكثر من ثلاثين كيلومتراً ، جاء بمثابة ضربة خطيرة لرضوان . ذلك أن تنكرد صار يستطيع من تلك القلعة مهاجمة حلب نفسها فى عنف ، فضلا عن حرمانها من الغلال والغذاء الذى تحصل عليه من السهول المحيطة بها . وبعبارة أخرى فإن تنكرد أصبح فى موقف يجعله يملى إرادته على رضوان الراغب فى الصلح ، فأصر فى تلك المرة على الشروط التى طلبها من قبل ، وأضاف إليها الاستيلاء على حصن زردنا ، فضلا عن إطلاق سراح جميع الأرمن المحبوسين فى حلب [٢] . وكان أن ارتضى رضوان كل هذه الشروط القاسية ، فتم الصلح بينه وبين تنكرد ، ولكن حلب نفسها غدت فى حالة سيئة من المهانة والضعف ، لا سيما بعد أن هجرها جزء كبير من أهلها وفروا إلى بغداد . كذلك ساءت أحوالها الاقتصادية بعد أن استولى الصليبيون على معظم مزارعها ودمروا الباقى وانصرف عنها التجار « وأقام الناس مايجدون شيئاً يقتاتون به ، فكثرت اللصوص من الضعفاء ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فأطلق العوام ألسنتهم بالسب له وتعييبه » [٣] .

ثم إن تنكرد الذى أصبح السيد المسيطر على الأطراف الشمالية من بلاد الشام لم يقتنع بفرض كلمته على ملك حلب وإذلاله ، وإنما أخذ يسعى لتحقيق مكاسب أخرى على حساب القوى الإسلامية الصغيرة المجاورة . ولم يلبث سلطان بن منقذ أمير شيزر وعلى الكردى أمير حماه أن تعهدا بدفع « قطيعة » طائلة ، ثمناً

(1) Matthieu d'Ecesse, I, p. 95 &
ابن الاثير ، سنة ٥٠٤ هـ ؟
ابن العديم : زبدة الحلب. 568 (p)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب. 599 (p) &
Albert d'Aix, p. 634
(Hist. Or. III. p. 600)

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب

لشراء مسالمة تنكرد ، فدفع الأول أربعة آلاف دينار ،ودفع الثانى عشرة آلاف دينار [١] .

نهاية تنكرد :

وبعد أن قام تنكرد ـ بالاشتراك مع بلدوين دى بورج أمير الرها وبلدوين الأول ملك بيت المقدس — بدور ملحـــــوظ فى محاربة سلاجقة فارس، الذين تجمعوا مرة أخرى سنة ١١١١ تحت قيادة مودود أتابك الموصل ، عاد تنكرد إلى أنطاكية حيث توفى فى ١٢ ديسمبر سنه ١١١٢ [٢] ، دون أن يترك وريثا من زوجته سيسيل، التى لم تلبث أن تزوجت بعد قليل من بونز بن برترام أمير طرابلس ؛ مما أدى إلى تهدئة الموقف بين إمارتى أنطاكية وطرابلس كما مر بنا [٣] .

ولا شك فى أن وفاة تنكرد جاءت خسارة عظيمة للصليبيين فى الشام بوجه عام وإمارة أنطاكية بوجه خاص ، الأمر الذى جعل المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى يرثيه فى حرارة بالغة [٤]. ذلك أنه يعتبر المؤسس الحقيقى لإمارة أنطاكية ،فاستطاع أن يحتفظ لتلك الإمارة بمكانتها خلال مدة أسر خاله بوهيموند (١١٠٠-١١٠٣)، ثم طوال غيبته فى الغرب (١١٠٤ — ١١١١) كما دافع عن كيان الامارة ومصالحها ضد البيزنطيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى [٥] . وأكثر من هذا أن تنكرد هو صاحب الفضل فى توسيع إمارة أنطاكية ،والاستيلاء على كثير من

(١) أسامة بن منقذ . كتاب الاعتبار ص ١٢٠ — ١٢١ .

(2) Foucher de Chartres, p. 425.

(٣) انظر ما سبق ص ٣٧٧ .

(4) Matthieu d'Edesse p. p. 281-282

(5) Setton : op. cit. I, P 401

المراكز الهامة من البيزنطيين والمسلمين ، سواء على شاطىء الشام أو فى داخليته . أو فى قيليقية . وساعد على تحقيق كل تلك المكاسب شجاعة تنكرد التى بلغت أحيانا حد التهور ، وصلابته فى كثير من المواقف ، وهى صفات ورثها عن أسلافه النورمان فى غرب أوربا وجنوبها [١] .

ولم يمض عام على وفاة تنكرد حتى لحق به حليفة رضوان ملك حلب السلجوقى (ديسمبر ١١١٣) ، الذى اعتمد على الصليبيين من ناحية وعلى الباطنية من ناحية أخرى فى مقاومة سلاجقة فارس وخلافة بغداد . وقد سبق أن ذكرنا أن رضوان أفرط فى الاعتماد على الباطنية حتى ازداد نفوذهم فى حلب « وبايعهم خلق كثير على مذهبهم طلبا لجاههم . وكان كل من أراد أن يحمى نفسه من قتل أوضيم التجأ اليهم . » [٢] . وقد ترك رضوان من بعده فى حكم حلب ابنه الشاب ألب أرسلان المعروف بالأخرس ، وهو الذى وصفه المؤرخ ابن العديم بأنه كان « مهورا قليل العقل » ، فبدأ حكمه بقتل أخويه ملكشاه ومباركشاه [٣] . ويبدو أن الباطنية وصلوا عندئذ إلى درجة من خطورة النفوذ جعلت السلطان محمد السلجوقى يرسل إلى ألب أرسلان يأمره بقتلهم ، فى الوقت الذى ضاق أهل حلب ذرعا بهم واستاءوا من حماية رضوان لهم ، فانقضوا عليهم عقب وفاة رضوان وقتلوا زعيمهم أبا طاهر الصايغ واسماعيل الداعى وغيرهم من زعماء الباطنية ، فى حين حبسوا كثيرين وفر الباقى « وتفرقوا فى البلاد » [٤] . ويقول ابن الأثير أن من استطاعوا النجاة من الباطنية فروا إلى الصليبيين واحتموا بهم [٥] . وقد حاول الباطنية الاستيلاء على قلعة شيزر ولكنهم فشلوا

---

(1) Grousset : Hist des Croisades, I: P 476-477

(٢) ابن العديم . زبدة الحلب (Hist Or. III, p. 603)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 604)

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

فى ذلك ، ولم ينجحوا سوى فى الاستيلاء على التليمة قرب بالس والفرات ، على الطريق بين حلب وبغداد . ومنذ تشريد الباطنية فى ذلك الوقت أخذوا ينزحون إلى جبال لبنان ويستقرون هناك [١] .

أما عن سياسة ألب أرسلان ملك حلب الجديد تجاه الصليبيين فلم تختلف عن سياسة أبيه ، إذ سارع بدفع الجزية إلى روجر الأنطاكى — خليفة تنكرد — للاستعانة به ضد بقية السلاجقة . ولم يلبث ألب أرسلان « أن رأى أن المملكة تحتاج إلى من يدبرها أحسن تدبير » ، فقصد طغتكين أتابك دمشق، وطلب منه الحضور لاستلام حلب وإدارة شئونها . وقد قبل طغتكين تلك الدعوة وذهب مع ألب أرسلان إلى حلب فى نهاية فبراير سنة ١١١٤ [٢] . على أن ألب أرسلان انهمك « فى المعاصى واغتصاب الحرم والقتل » ، فاستاء طغتكين من مسلكه « ورأى من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير فى حقه والإعراض عن مشورته ما أنكره » ؛ ولذلك عاد طغتكين إلى دمشق بعد قليل .

ولم يلبث أن دبر بدر الدين لؤلؤ اليايا مؤامرة لقتل ألب أرسلان أثناء نومه . وعندما نجحت المؤامرة أعلن أخوه الصغير سلطان شاه ملكا على حلب . غير أن سلطانشاه كان صغيرا فى السادسة من عمره ، فتولى لؤلؤ مع القائد شمس الخواص — أمير رفنية السابق — السيطرة على قلعة حلب وجيشها ، وإن كانت السلطة الفعلية فى الإمارة قد آلت إلى أعيان حلب . ولعل ضعف مركز حلب بين جيرانها فى ذلك الوقت ، هو الذى دفع لؤلؤ إلى اتباع سياسة رضوان فى محالفة الصليبيين بأنطاكية [٣] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ ؟
أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٤٦ — ١٥٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 604)

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, p. 505-506 &

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ .

الفصل الخامس

روجر الأنطاكى

اختيار روجر حاكما على أنطاكية :

ظل تنكرد يحكم أنطاكية بمقتضى العرف الاقطاعى الغربى حتى وفاة بوهيموند سنة ١١١١ . ومعنى ذلك أن تنكرد حتى تلك السنة كان نائبا عن بوهيموند فى حكم أنطاكية ، ولم يصبح أميرا على تلك الإمارة إلا بعد وفاة بوهيموند ، لأن الأخير ترك طفلا صغيرا فى الثانية من عمره — هو بوهيموند الثانى — الذى ظل فى إيطاليا بين أحضان أمه . وهكذا كان على تنكرد أن يفكر فيمن يخلفه فى حكم أنطاكية ، فاختار ابن عمه روجر دى سالرنو ، وأوصى له بالحكم وهو على فراش الموت ، ولكنه اشترط أن يتنازل روجر عن الحكم لبوهيموند الثانى إذا بلغ الأخير سن الرشد وأتى إلى الشرق للحصول على تركة أبيه(١) .

وعلى هذا الأساس أصبح روجر دى سالرنو ـ الذى عرف بالأنطاكى ـ أميراً على أنطاكية فى نهاية ديسمبر سنة ١١١٢ . وهنا نلاحظ أن روجر هذا كان متزوجا من سيسليا Cecilia أخت بلدوين دى بورج أمير الرها ، كما أن مارى أخت روجر صارت الزوجة الثانية لجوسلين دى كورتناى ، مما أوجد رباطاً قوياً بين إمارتى الرها وأنطاكية(٢) . وعندما أصبح بلدوين دى بورج ملكا

(1) Foucher de Chartres, P. 425 &
Guillaume de Tyr, p 483

(2) Runciman : op cit; II, p. 126.

على بيت المقدس سنة ١١١٨ ، حظيت إمارة أنطاكية — بفضل علاقة المصاهرة هذه — بتأييد مملكة بيت المقدس ومساعدتها [1] .

حملة السلاجقة سنة ١١١٣ :

وصف أسامة بن منقذ روجر دى سالرنو بأنه كان «شيطانا من الفرنج» [2] ، وذلك لقوته ودهائه ومثابرته على حرب المسلمين والاعتداء عليهم . ولم يكد روجر يتولى حكم إمارة أنطاكية حتى أتيحت له فرصة يظهر فيها شجاعته فى محاربة السلاجقة الذين قاموا بحملة على بيت المقدس .

ذلك أن مودود بن ألطنتاش [3] — أتابك الموصل — ظل متمسكا بفكرة الجهاد والحرب الدينية ضد المسلمين ، وهى المهمة التى عهد إليه بها محمد ، سلطان سلاجقة فارس . وكان مودود هو الممثل للسلطان السلجوقى فى إقليم الجزيرة والشام ، وذلك بوصفه حاكم الموصل . لذلك دعا جيرانه من أمراء المسلمين لمحاربة الصليبيين سنة ١١١٣ ، وانضم إليه بعض زعماء السلاجقة مثل تميرك صاحب سنجار ، وأياز بن إيلغازى أمير ماردين ، وطغتكين أتابك دمشق [4] . وكان طغتكين هو الذى وجه تلك الحملة ضد مملكة بيت المقدس الصليبية للانتقام من الإغارات التى دأب الصليبيون على القيام بها لمهاجمة دمشق وملحقاتها [5] .

وعند ما علم بلدوين دى بورج بنية المسلمين ، أسرع بتحذير بلدوين الأول

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p p. 482-483.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٨ .

(٣) ورد هذا الاسم فى المراجع العربية فى صور عديدة ، منها « ألتونطاش » و « التون تكش » .

(٤) ابن الأثير (الكامل) حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 484.

ملك بيت المقدس، فاستنجد الأخير بأتباعه فى الشام، وخف لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، فى حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته فى شمال العراق ، أى أنها كانت فى مهب العاصفة وفى حاجة إلى حماية خاصة . وبعد أن أنزل المسلمون هزيمة بالملك بلدوين الأول عند الصنبرة ، ارتد ملك بيت المقدس مدحورا إلى طبرية . ولم يلبث أن وصل روجر الأنطاكى وبونز لنجدته [١] . على أن زعماء السلاجقة لم يلبثوا أن تفرقوا – كما سبق أن ذكرنا – بعد أن أضاعوا بضعة أسابيع فى الانتظار غربى طبرية [٢] . فاتجه مودود صحبة طغتكين إلى دمشق فى أغسطس سنة ١١١٣ حيث قتل مودود بيد أحد الباطنية وبتحريض من طغتكين ، كما سبق أن أشرنا [٣] . وبذلك استراح الصليبيون من ذلك الرجل الذى آمن بفكرة الجهاد من ناحية ، واحتفظ بولائه لسلطان السلاجقة من ناحية أخرى ، مما جعله يسبب للصليبيين رعبا كثيرا [٤] .

أما عن خليفة مودود، وهو آقسنقر البرسقى، فقد صار لزاما عليه عقب أن عينه السلطان السلجوقى فى حكم الموصل أن يستأنف سياسة الجهاد ضد الصليبيين . وقد قام بهجوم سنة ١١١٤ على الرها – كما سيلى فى الباب الآتى – ولكنه لم يستطع حصارها أكثر من شهرين ، ثم ارتد عنها فاشلا ، بعد أن « صبر له الفرنج » [٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ. &
Guillaume de Tyr. P. 489.

(٢) ذكر ابن العبرى أن مودود « أذن للعساكر فى العود والاستراحة، ثم الاجتماع فى الربيع » تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .
Matthieu d'Edesse, d, p. 107-108.

(4) Runciman: op cit; II, P. 127

(٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ. &
Matthieu d'Edesse, p. p. 282-283.

حملة السلاجقة سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت أنطاكية فى أواخر نوفمبر سنة ١١١٤ لزلزال شديد دمر جزءاً كبيراً من مبانيها ، فضلا عما أحدثه بالمدن والقلاع التابعة لتلك الإمارة (١). وقد تخوف الصليبيون من أن يحاول المسلمون فى حلب ودمشق الاستفادة من تلك الكارثة فى مهاجمة أنطاكية ، ولكن شيئاً من تلك المخاوف لم يتحقق. والواقع إن الخطر الذى هدد أنطاكية والصليبيين جميعا فى بلاد الشام وأطراف العراق فى ذلك الوقت إنما انبعث من الموصل ، حيث تجمعت حملة جديدة ، لاستئناف الجهاد ضد الصليبيين .

وكان السلطان محمد السجوقى قد عزل آقسنقر البرسقى من أتابكية الموصل ، ومن زعامة الحرب الدينية ضد الصليبيين بعد فشله أمام الرها ، وأحل محله أحد مماليك الأتراك ، وهو المعروف باسم جيوش بك (٢) . وقد أرسل السلطان ابنه مسعود ليتدرب على شئون الحكم عند جيوش بك فى الموصل ، فى حين عهد السلطان بقيادة الحرب ضد الصليبيين فى فبراير سنة ١١١٥ إلى برسق بن برسق صاحب همذان وخوزستان ، وهو أحد القادة المعروفين بمهارتهم فى شئون الحرب. وتحت قيادة برسق هذا ، سار جيوش بك ومعه قوات الموصل ، وتميرك صاحب سنجار ومعه قوات الجزيرة (٣) .

ويبدو أن سلطنة السلاجقة فى أصفهان لم تستهدف من هذه الحملة محاربة

---

(١) أشار ابن الأثير إلى هذا الزلزال فقال : إنه كان شديداً بديار الجزيرة والشام ، وأنه خرب كثيراً من المدن مثل الرها وحران وسميساط وغيرها « وهلك خلق كثير تحت الهدم » . (الكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ).

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 465-496

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

الصليبيين فقط ، بل بسط هيمنة السلطنة السلجوقية على كافة الإمارات الإسلامية فى الشام وشمال الجزيرة ، حيث استطاع كثير من حكام المسلمين — مثل طغتكين فى دمشق ، وبدر الدين لؤلؤ فى حلب ، وإيلغازى والأراتقة فى ديار بكر — أن يستغلوا فرصة الفوضى التى عمت البلاد نتيجة للحرب بين المسلمين والصليبيين لقطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية فى أصفهان . بل إن بعض أولئك الأمراء — مثل إيلغازى الأرتقى — لم يترددوا فى محاربة قوات السلطان محمد ، مما جعل السلطان يعد هذه الحملة بقصد إخضاع أولئك الأمراء ، ثم محاربة أنطاكية والرها وغيرها من القوى الصليبية بعد ذلك [1] .

وسرعان ما أحس ذلك النفر من أمراء المسلمين بالخطر ، وكان أكثرهم إحساسا به هو إيلغازى فى ديار بكر ، فأرسل بسرعة إلى طغتكين أتابك دمشق يستنجد به ضد الخطر المشترك [2] . ولعله من الواضح مدى الحرج والخطر اللذين أحس بهما طغتكين عقب مقتل مودود ، لأن هذه الجريمة التى اتهمه الرأى العام الإسلامى بتدبيرها ، إنما راح ضحيتها زعيم حركة الجهاد فى العالم الإسلامى ، فضلا عما فيها من مساس بالسلطان محمد نفسه ، لأن مودود كان أحد رجاله المخلصين [3] . لذلك أخذ طغتكين يعمل حسابا كبيراً لانتقام السلطان محمد ، وأدرك أن محالفة الصليبيين فى ذلك الموقف خير له بكثير من مشاركه السلاجقة تحت ستار الجهاد [4] . وفعلا لم يكد

---

(١) « وأمرهم (السلطان) بالبداءة بقتل إيلغازى وطغتكين ، فاذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم ... » .

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ) .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، سنة ٥٠٨ .

(3) Grousset : His. des Croisades, I, p, 494.

(4) Foucher de Chartres p, 429. & Guillaume de Tyr, p, p. 493.

إيلغازى يذهب إلى طغتكين لطلب المساعدة ، حتى اتفق الطرفان على محالفة الصليبيين [١] .

أما بدر الدين لؤلؤ صاحب حلب فكان على ولائه فى أول الأمر لسلطنة السلاجقة ، ولكنه غير رأيه فى آخر لحظة . وهكذا لم يبق لسلطنة أصفهان غير دعامتين اعتمدت على ولائهما فى بلاد الشام، هما بنو منقذ فى شيزر الذين أفزعهم تهديد إمارة أنطاكية لفامية وكفر طاب [٢] ؛ ثم أمير حمص قيرخان بن قيراجا الذى كان يرغب فى الاستيلاء على حماة من طغتكين . وفعلا لم يكد إيلغازى يفرغ من مباحثاته مع طغتكين فى دمشق،حتى قبض عليه قيرخان عند الرستن — بين حمص وحماة — أثناء عودته ، وإن كان لم يلبث أن أفرج عنه بعد قليل عندما تأخر ظهور الجيش السلجوقى [٣] .

وكان أن تجمعت الحملة السلجوقية أخيراً فى الجزيرة،ومنها اتجهت صوب حلب، فخشى « المولى لأمرها» بدر الدين لؤلؤ الخادم غدر السلاجقة. وعندما استنجد بدر الدين لؤلؤ بطغتكين وإيلغازى، أسرعا لنجدته على رأس ألفين من الفرسان، ودخلا حلب لينتظروا جميعاً وصول قوات السلطان محمد. أما الصليبيون فلم يكونوا أقل تخوفاً واستعداداً لملاقاة الجيش السلجوقى ، فأسرع روجر الأنطاكى أمير أنطاكية بجمع جيوشه على نهر العاصى — عند جسر الحديد — للدفاع عن أنطاكية من جهة ،ومراقبة تطورات الموقف فى حلب من جهة أخرى. ثم حدث الاتصال بين الجانبين لمواجهة الخطر المشترك،فاجتمعت قوات الحلفاء جميعاً البالغة اثنى عشر ألفاً ، منهم ألفان من الصليبيين وعشرة آلاف من المسلمين ، وتم الاجتماع عند فامية [٤] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنتى ٥٠٨ ، ٥٠٩ هـ .
(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٥
(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٨ هـ .
(٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠ .

وكان برسق قائد الجيش السلجوقى قد وضع خطته على أساس اتخاذ حلب قاعدة لعملياته الحربية فى الشام،فلما وجد أن بدر الدين لؤلؤ الخادم تنكر للسلطان وانضم إلى الجبهة المعادية ؛ اضطر إلى أن يغير وجهته شطر بنى منقذ فى شيزر وقيرخان فى حمص ، وهما اللذان بقيا على ولائهما للسلطان محمد [1] .

وقد اختار برسق أن يبدأ بحماة التابعة لطغتكين أتابك دمشق ، فاستولى عليها بمساعدة حليفه قيرخان « ونهبها ثلاثة أيام » أتى فيها من أعمال السلب والتخريب ما جعل المسلمين فى الشام يتخوفون من جيوش السلطان محمد ويرغبون فى مقاومتها [2] . ثم اتجه برسق بعد ذلك إلى شيزر ، ومن هناك هاجمت قواته كفر طاب التابعة للصليبيين . على أنه يبدو أن وصول بلدوين الأول ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس على رأس قوات كبيرة ، جعل برسق يدرك أن السلامة فى الانسحاب،فتراجع فورا على رأس قواته إلى الجزيرة وتمت عملية الانسحاب بنجاح . وهكذا لم يلبث أن تفرق الحلفاء، فعاد الملك بلدوين الأول إلى بيت المقدس، وبونز إلى طرابلس ، وطغتكين إلى دمشق ، وشمس الخواص قائد جيش حلب إلى حلب ، وروجر إلى أنطاكية ، وإيلغازى إلى ماردين [3] .

على أن انسحاب برسق لم يكن فى حقيقة الأمر سوى خدعة بارعة ، لأنه لم يلبث أن عاد فجأة بجيوشه إلى كفر طاب وحاصرها ، حتى إذا ما استولى عليها فى أوائل سبتمبر سنة ١١١٥ ، دمرها وأسر من بقى على قيد الحياة من حاميتها الصليبية ، ثم أعطاها لحلفائه بنى منقذ أمراء شيزر . وبعد ذلك اتجه برسق إلى معرة النعمان ومنها أخذ يستعد للاستيلاء على زردنا ، وهي قلعة

---

(1) Stevenson : op cit; p. 98.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

(٣) المرجع السابق .

للصليبيين قرب حلب [١] . وفى الوقت نفسه أرسل برسق قوة كبيرة تحت قيادة جيوش بك صوب حلب . على أن هذه العملية الأخيرة لم يكن لها أثر سوى إضعاف قوة برسق من ناحية ، واستثارة روجر الأنطاكى من ناحية أخرى .

وفى الوقت الذى كانت قوات السلاجقة تعسكر غربى سرمين — عند دانيث — إذا بالصليبيين بقيادة روجر الأنطاكى وبلدوين دى بورج أمير الرها ينقضون عليهم فيقتلون منهم كثيرين ، فى حين فر الباقون ، وعلى رأسهم برسق نفسه (١٤ سبتمبر ١١١٥) ؛ وقد حصلوا على كثير من الغنائم «وأخذ الكفار من هذا ما يفوت الوصف وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب والأمتعة مالا يحصى » [٢] . وكان أن قسم أمراء الصليبيين على أنفسهم تلك الغنيمة الضخمة ، فسر أهل أنطاكية سرورا عظيما عندما عاد روجر ومعه تلك الثروة الطائلة فى ١٨ سبتمبر [٣] .

وهكذا جاء انتصار الصليبيين فى دانيث ليضع نهاية لجهود سلاطين سلاجقة فارس لاسترداد الشام . ولم يلبث أن توفى برسق بعد بضعة أشهر متأثراً بعار الهزيمة ، فى حين أعرض السلطان محمد السلجوقى عن بذل تضحية أخرى فى بلاد الشام [٤] . ثم إن هذه الهزيمة كان لها رد فعل قوى فى بلاد الشام ، سواء فى القوى المحالفة للسلطان السلجوقى أو المعادية له . ومن ذلك أن بنى منقذ شيزر أسرعوا إلى إخلاء كفر طاب فاحتلها النورمان أثناء عودتهم إلى أنطاكية بعد الموقعة [٥] . أما طغتكين أتابك دمشق — حليف الصليبيين — فقد تشجع وانتزع

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist Or. p. 609.)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III; p. p. 609–610)

(3) Guillaume de Tyr, p. 498.

(4) Runciman : op. cit; II. P. 133.

(٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤٤ .

رفنية من أمير حمص [١] . ثم إن بنى منقذ فى شيزز لم يكتفوا بتسليم كفر طاب لروجر الأنطاكى ، وإنما عقدوا معه صلحا لمسالمته كما حرصوا على عدم الاعتداء على القوافل الصليبية بين أنطاكية وبيت المقدس [٢] .

روجر الأنطاكى والمسلمون بعد موقعة دانيث

استطاع روجر الأنطاكى بعد الانتصار الكبير الذى حققه على السلاجقة فى موقعة دانيث أن يضفى على نفسه مكانة عظيمة فى المحيط الصليبى من ناحية ، وفى المحيط الإسلامى من ناحية أخرى ، فأخذت القوى الإسلامية المجاورة تعمل حسابا كبيرا لروجر — أوسير جال — كما أسماه المسلمون (Sir Roger) [٣] . حقيقة إن طغتكين ذهب إلى بغداد فى مارس سنة ١١١٦ ليظهر التوبة عن محالفة الصليبيين ، ويطلب العفو من السلطان محمد ، «فرضى عنه السلطان وخلع عليه» [٤] ولكن كل ذلك لا يحجب وجه الحقيقة الكبرى وهى أن القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى ظلت عندئذ مفككة لا تربطها رابطة ، مما مكن الصليبيين من إحراز نصر تلو آخر . ثم إن كل قوة من تلك القوى الإسلامية كانت تعانى خللا واضطرابا فى جهازها الداخلى ، مما أتاح فرصة طيبة للصليبيين للتدخل فى شئونها وابتلاع الممتلكات الإسلامية قطعة بعد أخرى [٥] .

من ذلك ماحدث فى حلب عندئذ من قيام بدر الدين لؤلؤ بقتل ألب

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 610) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 510.

(3) Setton : op. cit, I, P. 404.

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

(5) Stevenson : op. cit, p. p. 100-101

أرسلان « ابن أستاذه » لينفرد هو بحكم الإمارة (١١١٤ — ١١١٧) [1] .
وعندما أحسن بدر الدين لؤلؤ بضعفه ، وعدم قدرته على الوقوف بمفرده وسط العواصف الداخلية والخارجية المحيطة به ، طلب محالفة طغتكين أتابك دمشق . على أن هذه المحالفة لم تنجه من المصير السيء الذى انتظره ، إذ قتلة بعض أعوانه عند رجوعه من قلعة جعبر سنة ١١١٧ وهم يصيحون « الأرنب ! الأرنب » ! ليوهموه أنهم يتصيدون أرانب [2] .

ويهمنا من تلك الأحداث أن الفرصة أتيحت لروجر الأنطاكى عندما وجد حلب دون ملك يزود عنها ، فغزا أرض حلب « وأخذ ماقدر عليه من أعمال الشرقية » على قول ابن العديم . وعندما تولى ياروقتاش (ياروقتاش) — الأرمنى الأصل — الوصاية على حلب ، أسرع إلى استرضاء روجر الأنطاكى ، فعقد معه صلحا وتنازل له عن حصن القبة — أوقبة ملاعب — على الطريق بين حلب ودمشق — فضلا عن إعطاء روجر الحق فى فرض ضرائب على قوافل الحجاج بين حلب والحجاز [3] ،

ولم يكن جيران حلب المسلمين أقل طمعاً فى تلك الإمارة المتداعية ، فأسرع نجم الدين إيلغازى بن أرتق — أمير ماردين — إلى احتلال بالس على الفرات ، وكانت تابعة لحلب . وعندما تقدم طغتكين أتابك دمشق وآقسنقر البرسقى أمير الرحبة لاحتلال حلب سنة ١١١٧ — ١١١٨ ، استنجد ابن الملحى الوصى على حلب بروجر الأنطاكى الذى أدى ظهوره على المسرح إلى اختفاء الأميرين المسلمين [4] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٠٨ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III. p. 611)

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 559)

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٩ .

ولكن إذا كانت حلب قد غدت منذ سنة ١١١٨ تحت حماية الصليبيين من أهل أنطاكية ، بعد أن فضل الحلبيون هذه الحماية عن الوقوع تحت سيطرة « أحد من الشرق » على قول ابن العديم [١] ؛ فإن الأوضاع لم تلبث أن تغيرت عندما تغلب الشعور الدينى وسلم الحلبيون بلدهم للأمير الــتركانى نجم الدين إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر [٢] . وهكذا تجدد العداء بين حلب وأنطاكية ، فتقدم النورمان لحصار عزاز — شمالى حلب — ثم زحفوا على بزاع — إلى الشمال الشرقى من حلب — سنة ١١١٩ ، وبذلك بسط روجر الأنطاكى سيطرته على جميع الأجزاء المحيطة بحلب من ناحيتى الغرب والشمال . وجدير بالذكر أن الصليبيين عند استيلائهم على تلك الأجزاء الجديدة لم يدمروها ولم يخربوا مزارعها ، وإنما « زرعوا أعمال عزاز وقووا فلاحيهم وصار يدخل إلى حلب ما يتبلعون به من القوت » [٣] .

ويرجح أنه حوالى ذلك الوقت أيضاً — أى سنة ١١١٧ — ١١١٨ — استولى الصليبيون على حصن المرقب أيضاً إلى الجنوب الشرقى من بانياس ، وبذلك استطاعت إمارة أنطاكية — فى عهد أميرها روجر — أن تقوم بدورها كاملا فى تدعيم السياسة الصليبية بالشام [٤] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 612)

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 615) &
Matthieu d'Edesse, P. p. 297-298

(4) Runciman ; op. cit; II, p. 135.

الباب الثامن

إمارة الرها والمسيحيون الشرقيون

« وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون » .

[هود : ١٢١ — ١٢٢]

الفصل الأول

بلدوين دى بورج وإمارة الرها

أمراء الرها والأرمن :

رأينا فى الأبواب السابقة كيف نجح بلدوين الأول فى تأسيس أولى الإمارات الصليبية فى الرها ، وهى الإمارة التى أصبحت الدرع الواقى للصليبيين بالشام ضد الأخطار التى هددتهم من جانب سلاجقة فارس والعراق . ولم تلبث إمارة الرها أن نمت وامتدت على ضفتى الفرات من راوندان وعين تاب غربا إلى مشارف حران شرقا ؛ ومن بهسنى وكيسون شمالا إلى منبج جنوبا .

على أن إمارة الرها ظلت دائما تعانى من نقطتى ضعف واضحتين : أولاهما عدم وجود حدود طبيعية تحميها وتزود عنها وتكسبها وقاية ومناعة ؛ والثانية عدم تجانس سكانها ، إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين — السريان والأرمن — والصليبيين الغربيين ، فضلا عن المسلمين الذين تركزوا فى مدن بأكملها داخل تلك الإمارة — مثل سروج . وكان من الصعب على أمراء الرها فى تلك الظروف أن يحكموا إمارتهم حكما مركزياً يضمن لهم إشرافاً دقيقاً على مختلف أجزاء الإمارة ، ولذلك لجأوا إلى تحصين المدن والقلاع التابعة لهم ، وجمع الضرائب من المناطق المحيطة بتلك المدن[1] .

وإزاء النقص الأخير فى عدد الصليبيين وفرسانهم ، اضطر الأمير بلدوين الأول إلى الاعتماد فى إمارة الرها على الأرمن الذين بلغوا ثلاثة أرباع عدد سكان

(1) Runciman : op. cit. II, p. 10.

الإمارة . وعندما استدعي بلدوين الأول ليتولى حكم بيت المقدس عقب وفاة أخيه جودفرى سنة ١١٠٠ ؛ اختار ابن عمه بلدوين دى بورج ليخلفه فى إمارة الرها تحت لقب الأمير بلدوين الثانى . وهكذا قدر لبلدوين الثانى هذا أن يتم عمل سلفه فى الرها ، ثم يخلفه بعد سنين طوال ليتم عمله أيضاً فى بيت المقدس(١) .

على أن بلدوين دى بورج وجد نفسه فى مركز لا يحسد عليه حاكم ، بسبب قلة المحاربين وخطر الأعداء ونقص المال . وهنا لم يجد بلدوين دى بورج مفرا من اتباع سياسة سلفه بلدوين الأول فى الاعتماد على الأرمن ؛ ولكن دون أن يرهقهم أو يتعنت معهم . لذلك عمل على استرضائهم والتقرب إليهم ، وتحقيق نوع من التآلف بينهم وبين الصليبيين الغربيين . ومن الواضح أن هذه السياسة كان من شأنها أن تخفف من الأثر السيء الذى تركه بلدوين الأول فى النفوس ، عندما تخلص من سلفه ثوروس الأرمنى بطريقة تنم عن الغدر والخيانة . هذا فضلا عما فرضه بلدوين الأول عليهم من ضرائب باهظة أثقلت كاهل الطبقة البورجوازيه. حقيقة إنه قام بحماية الأرمن من خطر السلاجقة ، ولكنه تقاضى ثمنا باهظا مقابل تلك الحماية(٢) .

أما بلدوين الثانى دى بورج فلم يتبع سياسة تعسفية تجاه الأرمن ، وإنما حصل منهم على الأموال والمصاريف اللازمة للدفاع ضد الأتراك ، دون أن يلجأ إلى أساليب التعسف والإجحاف . هذا بالإضافة إلى حسن معاملته للكنيسة الأرمينية ورجالها ، مما جعل المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى يشيد بتلك المعاملة(٣) . كذلك يذكر المؤرخ ميخائيل السريانى أن بلدوين الثانى دى بورج قام بحماية مطران اليعاقبة فى

(1) Setton : op cit; I. sp. 381-407

(2) Grousset : Hist. des Croisades. p. 388.

(3) Matthieu d'Edesse P. p. 70-71.

الرها[١] . ولم تلبث هـذه السياسة أن قوت الرابطة بين المسيحيين الشرقيين والصليبيين الغربيين. ولتوثيق تلك الرابطة أيضا ، لجأ بلدوين الثانى دى بورج إلى الزواج من أرمينية — هى مورفيا ابنة جبريل حاكم ملطية — الذى كان تابعا لأمير الرها منذ أن قام بلدوين الأول بالدفاع عن مدينته ضد بنى دانشمند سنة ١١٠٠[٢].

ولم يلبث بلدوين الثانى أن وجد سندا كبيرا فى شخص ابن عمته جوسلين دى كورتناى الذى وصل إلى الرها بعد قليل. وقد بلغ من سرور بلدوين بجوسلين أن منحه حكم جميع أراضى إمارة الرها غربى الفرات — بما فيها حصن تل باشر لتكون مركزاً له — ، ودلوك عند مفرق الطرق بين مرعش وحلب والرها ، وعينتاب (عين تاب) إلى الجنوب الشرقى من دلوك ، وغيرها . وهكذا أصبح جوسلين دى كورتناى الرجل الثانى فى إمارة الرها بعد بلدوين دى بورج ، وشاركه فى السيطرة على تلك المنطقة ذات الموقع الهـــــام بين سلاجقة حلب وسلاجقة فارس[٣].

الحرب ضد الأراتقة :

وسرعان ما أدرك بلدوين الثانى دى بورج أنه لكى يقوى صلته بملطية ، لا بد وأن يتوسع على حساب الأتراك فى الموصل وديار بكر ، واختار أن يبدأ بالأراتقة فى ديار بكر . وكان بلدوين الأول قـــد استولى على مدينـة سروج — على بعد أربعين كيلو مترا إلى الجنوب الغربى من الرها — من حاكمها الأرتقى بلك بن بهرام أرتق[٤]. ولم تلبث أن أصحبت سروج المـــــدينة الثانية فى

(1) Michel Le Syrien. ed. C habot. III, P. 167.

(2) Guillaume de Tyr. P. P. 347-348.

(3) Setton : oP. cit I. P. 363.

(٤) ابن الاثير : الـكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ

إمارة الرها شرق الفرات، وأقطعها لفارس اسمه فوشيه دى شارتر. ولكن لم يكد بلدوين الثانى دى بورج يتولى حكم إمارة الرها، حتى لجأ سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا إلى مهاجمة سروج، فتصدى له بلدوين دى بورج وفوشيه دى شارتر (١). وفى القتال الذى دار بين الطرفين، حلت الهزيمة بالصليبيين، وقتل فوشيه فى المعركة (يناير سنة ١١٠١)، واستولى المسلمون على سروج فى حين لم يبق فى قبضة الصليبيين سوى قلعتها. أما بلدوين الثانى فقد انسحب عقب تلك الهزيمة إلى الرها — حيث كان لا يزال يتمتع بمحبة الأرمن وعطفهم — ثم اتجه بعد ذلك إلى أنطاكية لطلب المعونة من تنكرد (٢). وعندما عاد بلدوين الثانى من أنطاكية وجد الأراتقة لا يزالون يهاجمون قلعة سروج. فانقض عليهم، واستطاع — بفضل ما حصل عليه من أنطاكية — أن يمزق شملهم فى أوائل فبراير سنة ١١٠١، ثم دخل سروج نفسها وعاقب أهلها المسلمين لمساندتهم الأراتقة، وحمل منهم أسرى كثيرين (٣).

وقد شجع هذا الانتصار بلدوين الثانى على القيام باغارات على المدن والأقاليم الإسلامية المجاورة التابعة للأراتقة. ومن ذلك ما يرويه المؤرخ متى الرهاوى من أنه قام فى سبتمبر وأكتوبر سنة ١١٠٣ بإغارة على الأراتقة حول ماردين، فأسر منهم كثيرين وحمل قدراً كبيراً من الغنائم (٤). ويذكر ابن الأثير أن بلدوين الثانى قام فى نوفمبر سنة ١١٠٣ بإغارة على مختلف المدن والقلاع الإسلامية فى إقليم الجزيرة، مثل جعبر والرقة على الفرات — وكانتا تابعتين للعقيليين (بنى عقيل) — «فأغاروا واستاقوا المواشى وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين (٥)».

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades p. p. 363.
(2) Runciman : op, cit, II. p. 37.
(3) Matthieu d'Edesse (Doc Arm. I.) p. p. 53-54.
(4) Idem, P. 70
(٥) ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ

أحوال السلاجقة :

وقد يبدو غريبا أن يتمكن الصليبيون فى الرها من مواصلة اعتداءاتهم المتكررة على البلدان الإسلامية فى الجزيرة عندئذ ، دون أن يحاول سلاجقة فارس — ونوابهم أتابكة الموصل — التدخل لصد الصليبيين . بل إن أتابكة الموصل لم يحاولوا استغلال الفرصة الذهبية التى أتاحها لهم وقوع بوهيموند أمير أنطاكية فى أسر بنى دانشمد (١١٠٠ — ١١٠١) ؛ والفشل الذريع الذى منيت به حملة اللمبارديين الصليبية فى الأناضول ؛ وكان فى استطاعتهم أن يستغلوا كل هذه والظرف للانفراد بإمارة الرها وإنزال ضربة قاصمة بها .

ولكن نظرة عاجلة نلقيها على أتابكية الموصل فى تلك الفترة كفيلة بأن توضح لنا أن الموقف السلبي لتلك الأتابكية عندئذ إنما يرجع إلى اختلال أحوالها الداخلية اختلالا جعلها مسرحا لكثير من الفتن والثورات والمنازعات بين أمراء السلاجقة[١] . أما السلطان بركيارق فقد صار عاجزاً عن إخضاع بنى جلدته السلاجقة فى بلاد الروم وحلب ودمشق ، بل إنه عجز عن ردع نوابه فى الأقاليم .

من ذلك أن قوام الدولة كربوقا (كربوغا) أتابك الموصل أوصى وهو على فراش الموت سنة ١١٠٢ بأن يخلفه فى حكم الموصل أحد رجاله ، واسمه سنقرجه[٢] . ولكن موسى التركمانى — وهو أيضاً أحد رجال كربوغا — نازع سنقرجه حكم الموصل ، واستطاع موسى هذا أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل ، بوصفه نائباً عن السلطان بركيارق . ولم يكد موسى التركمانى يهنأ بذلك النصر حتى

= ويقول ابن الاثير أن السلطان ملكشاه كان قد سلم سنة ٤٧٩ هـ قلعتى جعبر والرقة لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب ، وهو من بنى عقيل .

(1) Grousset : Hist. des Croisades. I. p. P. 394_395.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

ظهر له منافس جديد فى شخص جكرمش الذى استولى على نصيبين والذى طمع فى الموصل أيضاً ، مما جعل موسى يستنجد بسقمان بن أرتق ، وأعطاه حصن كيفا وعشرة آلاف دينار لمساعدته . على أن ذلك لم يغن موسى التركمانى شيئا إذ لم يلبث أن قتل ، وبذلك أصبح جكرمش حاكم الموصل وما حولها(١) .

ولعل هذا المثل عما كان يحدث بالموصل فى تلك الفترة يعطينا صورة واضحة عن مدى انحلال السلطة المركزية فى سلطنة سلاجقة فارس ، مما أتاح للأتابكة أن يتوارثوا مدن الدولة وأقاليمها ويتقاتلوا فيما بينهم وبين بعض ، وهم فى شغل بكل ذلك عن الصليبيين فى الرها وغير الرها(٢) . أما سبب ذلك الاضطراب فى السلطنة السلجوقية فى أوائل القرن الثانى عشر ، فمرجعه — كما سبق أن أشرنا — الخلاف بين بركيارق وأخيه محمد حول تقسيم ملك أبيهما ملكشاه . وإذا كان ذلك الخلاف قد انتهى باتفاق الأخوين سنة ١١٠٤ على أن يأخذ بركيارق فارس وبغداد ويترك لأخيه محمد الأقاليم الغربية من الدولة — أعنى ديار بكر والجزيرة والموصل والشام(٣) — ؛ إلا أنه من الواضح أن سلطة كل منهما غدت اسمية إلى حد كبير أمام ازدياد نفوذ الأتابكة والحكام المحليين . ولم تغب هذه الحقيقة عن بال الصليبيين الذين رأوا « اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا » فأسرعوا إلى استغلال الفرصة ، بعد أن « تفرقت عندئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال(٤) » .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) ويعبر ابن الأثير تعبيراً بليغا عن أحوال السلطنة السلجوقية فى ذلك الوقت فيقول «صارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة ، والبلاد مخربة ، والقرى محرقة ، والسلطنة مطموعا فيها محكوما عليها . وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم ...»

(الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٧ هـ) .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ .

موقعة حران وأسر بلدوين الثانى :

وكانت إمارة الرها ـ بحكم تطرفها فى الشمال الشرقى ـ أكثر إحساساً من غيرها من الإمارات الصليبية فى الشرق الأدنى بأحوال سلاجقة فارس ، وأكثرها رغبة فى الاستفادة من تلك الأحوال. لذلك فكر بلدوين الثانى دى بورج أمير الرها فى الاستيلاء على حران — إلى الجنوب الشرقى من الرها — وهي التى لم تكن أحوالها الداخلية عندئذ أفضل بكثير مما كانت عليه الموصل[1] . ذلك أن أحد مماليك السلطان ملكشاه — واسمه قراجه — كان يحكم حران حكماً استبدادياً تعسفياً سنة ١١٠٣ ، عندما انتهز أحد رجاله — واسمه محمد الأصبهانى — فرصة تغيبه عن المدينة وانتزع الحكم بمساعدة الأهالى .

ولكن محمد هذا لم يلبث أن قتل ، قتله « غلام تركى يعرف بجاولى » وأعلن نفسه حاكماً على المدينة[٢] . وكان ذلك فى ربيع سنة ١١٠٤ عندما وصل بلدوين الثانى دى بورج إلى حران لحصارها ومعه تابعه جوسلين دى كورتناى صاحب تل باشر ، وبوهيموند أمير أنطاكية وابن اخته تنكرد ، فضلا عن عدد آخر كبير من الأمراء الصليبيين ورجال الدين[٣]. ويبدو أن الصليبيين أضاعوا وقتاً ثميناً أمام حران ، لأنهم لم يحاولوا اقتحامها واكتفوا بحصارها حتى يضطرها إلى الجوع والتسليم . وفى الوقت الذى أوشكت حران على التسليم ، وقع نزاع بين بلدوين دى بورج أمير الرها وبوهيموند أمير أنطاكية حول أيهما يرفع بيرقه أولا على المدينة عند سقوطها[٤] . وكان ذلك فى المساء عندما ظن الصليبيون أن

(1) Setton : op. cit, I, P. 389

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.

(3) Guillaume de Tyr. I. P. 444.

(4) Runciman : op. cit, p. 42.

المدينة ستسقط فى أيديهم فى صباح اليوم التالى . ولم يدر الصليبيون عندئذ أن جيشاً كبيراً من الأتراك فى طريقه لإنقاذ حران ، وأن هذا الجيش سيكون على مقربة منهم فى الصباح الموعود[١] .

ذلك أن هجوم بلدوين على حران ألف بين خصمين متعادين هما جكرمش أتابك الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا ، « فأرسل كل منهما لصاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لتلافى أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه ، وكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه »[٢] . ولم يلبث أن جمع هذان الأميران مايقرب من عشرة آلاف محارب من الترك والعرب والأكراد ؛ وبعد أن تم الاجتماع عند رأس العين — على الخابور — اتجه الزعيمان للقاء الصليبيين . وفى موقعة حران — أو البليخ — التى دارت بين الطرفين على ضفاف نهر البليخ فى ٧ مايو سنة ١١٠٤ ، أبيد جيش الرها إبادة شبه تامة ، وقتل من الصليبيين « عشرة آلاف ما بين راجل وفارس »[٣] . وقد حاول بلدوين الثانى دى بورج وجوسلين دى كورتناى الفرار ، ولكنهما وقعا أسيرين فى أيدى التركمان . وسرعان ما أوشك النزاع أن يدب بين التركمان من أتباع سقمان الأرتقى والأتراك السلاجقة من أتباع جكرمش حول الاستئثار بتلك الغنيمة الثمينة من الأسرى ، حتى انتهى الأمر بأن أخذ السلاجقة الأمير بلدوين . وبعد أن استولى جكرمش على حران ، اتجه لحصار الرها ومعه أسيره « القمص » ، بلدوين دى بورج[٤] .

ولا شك فى أن موقعة حران (البليخ) كانت لها نتائجها السيئة بالنسبة

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 445-446

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ.

(٣) سبط ابن الجوزى . Albert d'Aix. p. 615. & p. 527.

(4) Foucher de Chartres P. 409.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.

الصليبيين بوجه عام وإمارة الرها بوجه خاص . فمعنى انتصار الترك على قوات الرها وأنطاكية ، هو أن مركز الأولى غدا مزعزعاً فى حين أن الثانية فقدت الأمل فى قرب الاستيلاء على حلب . هذا إلى فشل خطة الصليبيين فى عزل المسلمين فى الأناضول والعراق والشام بعضهم عن بعض[١] .

وإذا كانت إمارة أنطاكية قد تعرضت لتشفى البيزنطيين بعد موقعة حران، فإن إمارة الرها تعرضت هى الأخرى لكثير من المتاعب الداخلية ، وبخاصة من جانب الأرمن الذين لم يلبثوا أن أظهروا ضجرهم من حكم الصليبيين: والواقع إن انتصار الأتراك وهزيمة الصليبيين على ضفاف البليخ ، كشفت عن حقيقة شعور الأرمن تجاه حكامهم الصليبيين الغربيين ومدى استيائهم من حكم الفرنجة . حقيقة إن الأرمن تضامنوا مع الصليبيين فى الرها ، وأظهروا ولاءهم لتنكرد عندما أسر أميرهم بلدوين دى بورج ، ولكن ذلك لاينسينا أن الأرمن هم الذين سلموا أرتاح لسلاجقة حلب ، تخلصاً من « جور الفرنج »[٢] . ويعلل متى الرهاوى موقف الأرمن هذا بتعسف الصليبيين الغربيين مع الكنيسة الأرمينية وإهمالها بل اضطهاد رجالها فى كثير من الأحيان ، مما دفع الأرمن إلى الاتصال سراً بالأتراك[٣] .

وهكذا يبدو أنه إذا كانت الرها وغيرها من المعاقل الصليبية قد استطاعت البقاء وسط المحيط الأرمنى شرقى آسيا الصغرى وفى أطراف العراق والشام ، فإن الفضل فى ذلك كله إنما يرجع إلى انقسام المسلمين على أنفسهم[٤] .

---

(1) Runciman : op. cit, II, p 44.

(٢) ابن العديم . زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. p. 593)

(3) Matthieu d'Edesse. Hist Arm. I; p. p. 80-81

(4) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 412-413.

وصاية تنكرد على الرها :

وعندما اتجه جكرمش لحصار الرها ، وجد أهل المدينة من المسيحيين أنفسهم فى مأزق خطير بعد أن قضى المسلمون على جيشهم ،وغدا أميرهم بلدوين أسيراً فى قبضة جكرمش الذى ألقى به فى سجن الموصل ، فى حين ظل جوسلين دى كورتناى أسيراً فى قبضة سقمان بن أرتق الذى حبسه فى قلعة حصن كيفا . ولكن بوهيموند وتنكرد اللذين هربا فى موقعة البليخ استطاعا الوصول إلى الرها سالمين (مايو سنة ١١٠٤) ليرفعا من الروح المعنوية للأهالى ، ويعدان المدينة للدفاع ضد الهجوم الاسلامى المنتظر[1] . وهنا أظهر الأرمن فى الرها ولاء شديداً لهذين الأميرين الصليبيين ، بل إنهم دعوا تنكرد للقيام بالوصاية على مدينتهم ورعاية شئون الامارة حتى يتم إطلاق سراح أميرهم بلدوين دى بورج[2]. وهكذا ترك بوهيموند ابن أخته تنكرد فى الرها ، وعاد هو فى سرعة ليرعى شئون إمارته أنطاكية التى تأثرت هى الأخرى تأثراً عميقاً بهزيمة الصليبيين فى البليخ[3] .

ولم يكد بوهيموند يرحل عن الرها حتى ظهر جكرمش أمام أسوارها . على أن تنكرد لم يجبن أمام آلاف السلاجقة الذين تأهبوا للهجوم على الرها ، وإنما استمر يبث فى الأهالى روح العزيمة ، واكتفى بأن أرسل رسالة سرية إلى خالة بوهيموند يطلب منه نجدة عاجلة لانقاذ المدينة . وفى الوقت الذى وصل بوهيموند إلى مشارف الرها لنجدتها ، كان السلاجقة قد تراجعوا بعد اشتباك قصير مع أهل الرها[4]. وهكذا انسحب جكرمش بعد أن حاصر الرها أسبوعين

(1) Setfon : op. cit. I, p. 389.

(2) Archer op. cit p. 616.

(3) Runciman : op. cit, II, p. 43.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٤٣ &

Albert d'Aix, P. p. 617 — 619.

(يونيه — يولية ١١٠٤) دون أن يتمكن من اقتطاف الثمرة الحقيقية لانتصاره في البليخ .

ويقال إن الصليبيين أسروا عندئذ أحد كبار الأمراء السلاجقة، فعرض جكرمش على بوهيموند استعداده لمبادلة ذلك الأمير ببلدوين الثانى ، أو دفع مبلغ ١٥ألف دينار مقابل إطلاق سراح ذلك الأمير السلجوقى . وعندما وصلت أخبار ذلك العرض إلى بيت المقدس ، أرسل الملك بلدوين الأول إلى بوهيموند يطلب منه مبادلة الأمير السلجوقى ببلدوين دى بورج فورا ، ولكن بوهيموند فضل المال لحاجته إليه ، وبذلك ظل بلدوين الثانى أمير الرها أسيرا [١] .

---

(1) Runciman : op cit; II. p. 45.

الفصل الأول

عودة بلدوين الثانى لحكم الرها

إطلاق سراح بلدوين :

وفى تلك الأثناء كانت دولة سلاجقة فارس لاتزال تعانى الكثير بسبب الانقسامات والحروب الداخلية . ومن ذلك ماسبق أن أشرنا إليه فى الباب السابق من نجاح جاولى فى القضاء على جكرمش وانتزاع الموصل منه ليستقل بها ، ثم ثورة أهل الموصل على جاولى سقاووا ومناداتهم بزنكى - ابن جكرمش - حاكما عليهم، مما أضطر جاولى إلى الانسحاب من المدينة سنة ١١٠٦[1] .

ولكن جاولى لم يلبث أن عاد إلى الموصل وتمكن من استردادها سنة ١١٠٧، وعندئذ حاكى سلفه جكرمش ،وعمل على أن يستقل بتلك الأتابكية متناسياً كل حق للسلطنة السلجوقية فيها . لذلك أسرع السلطان محمد السلجوقى إلى عزل جاولى فى العام التالى وأحل محله مودود فى حكم الموصل ، فاضطر جاولى إلى الخروج إلى قلعة جعبر على الفرات ومعه أسيره بلدوين الثانى ليبحث عن المال والحلفاء لمحاربة مودود[2] .

وفى ذلك الوقت كان جوساين دى كورتناى حاكم تل باشر قد حصل على حريته سنة ١١٠٧ بعد دفع مبلغ ضخم بلغ عشرين ألف دينار[3] . ولم يكد جوساين ينعم بحريته حتى أخذ يعمل على تحرير سيده بلدوين الثانى دى بورج

---

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ١٩٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(٣) المرجع السابق .

ـ الذى كان فى قبضة جاولى ـ من الأسر . والواقع إن بلدوين الثانى كان قد فقد الأمل فى إطلاق سراحه عندما انتقل من قبضه جكرمش إلى قبضة جاولى . ولكن جوسلين دى كورتناى استغل الظروف الجديدة التى غدا فيها جاولى ، وحاجته إلى المال من جهة ، وإلى محالفة الصليبيين ضد السلطنة السلجوقية من جهة أخرى ، وساومه على إطلاق سراح بلدوين دى بورج[١]. وكان أن تم الاتفاق على ذلك مقابل سبعين ألف دينار ، بشرط أن يتعهد بلدوين بإطلاق سراح جميع أسرى المسلمين فى الرها ، وبأن يقف إلى جانب جاولى فى مشاريعه المقبلة ضد السلطنه الساجوقيـة « وينصره متى أراد ذلك منـه بنفسه وعسكره وماله[٢] » .

وهكذا تم إطلاق سراح بلدوين دى بورج سنة ١١٠٨، بعد أن دفع له جوسلين دى كورتناى مقدم الفدية المتفق عليها وهى ثلاثون ألف دينار . ثم إن جاولى لم يكتف بإطلاق سراح بلدوين ، وإنما أحاطه ـ هو وجوسلين ـ بكثير من مظاهر التكريم « وخلع عليه » مما جعل العلاقة بين جاولى من ناحية وبلدوين وجوسلين من ناحية أخرى تتحول إلى محالفة شخصية[٣] .

النزاع بين بلدوين وتنكرد حول الرها:

وكان أول مافعله بلدوين دى بورج عقب إطلاق سراحه سنة ١١٠٨ هو أنه توجه إلى أنطاكية ليطلب من تنكرد رد إمارته فى الرها . ولكن تنكرد الذى ظل يحكم الرها أربع سنوات ، يجمع داخلها ويدافع عنها ويدبر أمورها ، عز عليه أن يتنازل عن ذلك السلطان ، فأمد بلدوين ببعض المال والخيل والسلاح، ولكنه

---

(1) Selton: op cit, I, p. p, 393.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(3) Michel Le Syrien, III, p. 196.

امتنع عن الاعتراف بحقه فى استرداد الرها، وأصدر تنكرد أوامره لنائبه ريتشارد دى سالرنو بألا يسلم الرها لبلدوين (١).

ولم يسع بلدوين دى بورج سوى أن يغادر أنطاكية غاضباً ، فاتجه إلى تل باشر حيث اجتمع بجوسلين دى كورتناى . ولكن تنكرد لم يلبث أن لحق بهما « ليحاربهما قبل أن يقوى أمرهما ويجمعا عسكراً ويلتحق بهما جاولى وينجدهما » . ويبدو مما ذكره ابن الأثير أن نزاعاً شب عندئذ بين الأمراء الصليبيين الثلاثة ، وإن كان هذا النزاع لم يطل ، فعكف ثلاثتهم على بحث المشكلة عن طريق التفاوض (٢) . وعندما فشلت تلك المباحثات فى إيجاد حل للموقف ، انصرف تنكرد إلى أنطاكية ، فى حين تطلع بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى إلى حليفهما جاولى لمساعدتهما . وقد بلغ من حرص بلدوين الثانى على استرضاء جاولى ، أن بعث إليه بمائة وستين رجلا من أسرى المسلمين، بعد أن حررهم وسلحهم «وكساهم» ليقوموا بدورهم فى مساعدة جاولى وبلدوين جميعاً (٣) .

ولم يلبث أن ظهر على مسرح الأحداث حليف آخر لبلدوين دى بورج ، ساعده على حل المشكلة واستخلاص إمارته من قبضة تنكرد . أما هذا الحليف الجديد فهو كوغ باسيل (٤) ـ أحد زعماء الأرمن ـ وكان قد نجح أيام الحملة الصليبية

---

(1) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar I); p. 86.
ويذكر ابن الأثير أن تنكرد طيب خاطر بلدوين دى بورج وأعطاه «ثلاثين ألف دينار وخيلا وسلاحا وثيابا وغير ذلك» (الكامل، حوادث سنة ٥٠٢ هـ).

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .
وقد ذكر ابن الاثير أن زعماء الصليبيين الثلاثة «كانوا يقتتلون، فاذا فرغوا من القتال اجتمعوا وأكل بعضهم مع بعض وتحادثوا».

(3) Runciman : op. cit; II. p. 112 &
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(٤) هكذا كتب اسمه جمهرة المؤرخين (انظر ابن العبرى، ص ١٩٩).
أما ابن الاثير فقد كتبه (كواسيل).

الأولى فى إقامة إمارة مستقلة لنفسه حول كيسوم (كيسون) ، فى الجزء الشرقى المواجه للفرات من مرتفعات طوروس. وسرعان ماغدت تلك الإمارة الأرمينية قلعة منيعة ، ومأوى لكثير من الأرمن ومحوراً لآمالهم (١). ذلك أن الأرمن أخذوا ينظرون إلى كوغ باسيل على أنه بطل قومى ، لاسيما بعد أن نجح سنة ١١٠٧ فى دفع هجوم الأتراك عن إمارته ، ثم إنزال الهزيمة مرة أخرى فى العام التالى — سنة ١١٠٨ — بسلاجقة الروم عندما حاولوا الاعتداء على تلك الإمارة . وهكذا بلغ هذا الزعيم الأرمنى أوج مجـده وقوته عندما قصده بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى طالبين منه مساعدتهما على استرداد الرها من تنكرد (٢).

ويؤكد المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى أن كوغ باسيل أحسن استقبال الأميرين الصليبيين ورحب بهما ترحيباً كبيراً ، لأنه وجد مصالحه تتفق ومصلحة بلدوين دى بورج بسبب تخوف الأرمن من سياسة تنكرد. ذلك أن تنكرد وضع سياسة استهدفت ضم قيليقية بأجمعها إلى الصليبيين وطبعها بالطابع اللاتينى الغربى، كما بدا ذلك من استيلائه على المصيصة . وبعبارة أخرى فإن سياسة تنكرد فى تلك المنطقة لم تكن موجهة ضد البيزنطيين فحسب، بل ضد الأرمن أيضاً. هذا فضلا عن أن تنكرد أناب عنه ابن عمه ريتشارد دى سالرنو فى الرها ، وهذا الأخير أساء معاملة الأرمن وعجز عن حمايتهم ، كما فشل فى صد جكرمش عندما غزا المنطقة المحيطة بالرها سنة ١١٠٥ . ولعل فشل النورمان فى اكتساب محبة الأرمن هو الذى جعل أهل الرها يحنون إلى حكم بلدوين دى بورج ، وهو الأمير الذى تقرب منهم وحافظ على شعورهم وتزوج أميرة أرمينية (٣) .

---

(1) Matthieu d'Edesse, I p. 77.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I. P 437.

(3) Matthieu d'Edesse. p. 79 & Albert d'Aix. p. 648.

لذلك كله لم يتردد كوغ باسيل فى إعطاء بلدوين دى بورج قوة كبيرة من المحاربين الأرمن تبلغ ألف فارس وألفى راجل [1]. وعندما خرج بلدوين على رأس تلك القوة لاسترداد إمارته دارت مناوشات بينه وبين خصمه، وعندئذ ـ وقبل أن يشتد القتال ـ تدخل بطرق أنطاكية لحسم النزاع بين الطرفين. وكان لذلك البطرق — وهو برنارد دى فالنس — مكانة كبيرة فى نفوس المسيحيين؛ حتى قال عنه ابن الأثير إنه « كالإمام للمسلمين لايخالف أمره » ، فحكم بأن يأخذ بلدوين الرها ويعود تنكرد إلى أنطاكية ، وتم ذلك فى ١٨ سبتمبر سنة ١١٠٨ [٢] .

ولم يكد بلدوين دى بورج يعود إلى إمارته ، حتى اتبع سياسة مشبعة بالتسامح والأخاء تجاه حليفه جاولى ، فاطلق سراح أسرى المسلمين ، سواء فى الرها أو حران أو غيرها من المدن المجاورة . بل إن رئيس سروج « كان مسلماً فارتد ، فسمعه أصحاب جاولى يقول فى الإسلام قولا شنيعاً فضربوه ، وجرى بينهم وبين الفرنج بسببه نزاع ، فذكر ذلك للقمص (بلدوين دى بورج) فقال : هذا لايصلح لنا ولا للمسلمين ، فقتلة ! » [٣]

الانشقاق فى صفوف المسلمين والمسيحيين :

على أن الحل الذى وضعه بطرق أنطاكية لم يمح ما فى النفوس من كراهية وحقد ، وإن كان قد وضع حداً للصراع المسلح بين تنكرد وبلدوين دى بورج. وزاد من اتساع الفجوة بين الرجلين أن كلا منهما وجد من يسانده بين صفوف

---

(1) Stevenson : The Crusaders p. 85.

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) المرجع السابق

المسلمين ؛ فبلدوين دى بورج له صديقه جاولى أتابك الموصل السابق ، الذى لم يفتأ منذ طرده من الموصل يعمل على إنشاء إمارة لنفسه فى الجزيرة رغم إرادة السلطان محمد السلجوقى ؛ مما أوقعه فى خلاف وعداء مع رضوان ملك حلب الذى بدأ يتأثر بأطماع جاولى التوسعية [١] . من ذلك أن جاولى هاجم فى سبتمبر سنة ١١٠٨ مدينة بالس على الفرات ، وهى لا تبعد أكثر من خمسين ميلا عن حلب ، واستولى عليها حيث قتل أعوان رضوان داخلها . وفى ذلك الموقف لم يجد رضوان بدا من محالفة عدوه القديم تنكرد ؛ وربما وجد الأخير فى ذلك التحالف فرصة للانتقام من بلدوين دى بورج الذى استطاع أن يسترد الرها على كره منه [٢].

وهكذا تألفت جبهتان متعارضتان : الأولى من بلدوين دى بورج وجاولى ، والثانية من تنكرد ورضوان . وفى المعركة التى دارت بين الفريقين قرب منبج - غربى الفرات على الطريق بين حلب والرها - انتصر فريق تنكرد ، وفر جوسلين دى كرتناى إلى تل باشر وبلدوين دى بورج إلى دلوك فى أكتوبر سنة ١١٠٨ [٣]. وقد تبع تنكرد غريمه بلدوين دى بورج لمحاصرته فى دلوك ، ولكن تخوفه من أن يهاجمه جاولى من الخلف ويقطع عليه خط الرجعة ، جعله يعدل عن خطته وينصرف إلى أنطاكية . وقد قدرت خسارة المسيحيين فى معركة منبج هذه بما يقرب من ألفين [٤] .

انقلاب سياسة بلدوين دى بورج ضد الارمن :

ولم يلبث ذلك الانقسام فى صفوف الصليبيين أن ظهر له رد فعل عنيف

---

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 393—394.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ.

(3) Albert d'Aix, P, 649.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Cr. Or III) p. 595

داخل الرها ذاتها . ذلك أن الأرمن فى الرها عندما سمعوا بالهزيمة التى لحقت بأميرهم بلدوين دى بورج وتابعه جوسلين دى كورتناى توجسوا شراً ، وتخوفوا من أن يعود إليهم حكم تنكرد وقريبه ريتشارد دى سالرنو ، وهو الحكم الذى ظل يذكره أهل الرها بالسوء والشر . لذلك عقد الأرمن اجتماعا كبيرا فى كنيسة القديس حنا بالرها ، ودعوا إلى ذلك الاجتماع رئيس الأساقفة الكاثوليكى . ويبدو أن الأرمن وجهوا بعض الإساءات والاتهامات إلى رئيس الأساقفة ، مما أنذر بحدوث صدام بين الأرمن والصليبيين داخل المدينة (١) .

على أن الأرمن الذى ظنوا أن بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى لا بد وأن يكونا قد هلكا وأسرا فى الصراع ضد تنكرد ، فوجئوا بالأميرين يدخلان الرها سالمين . ولم يلبث أن علم بلدوين دى بورج بما فعله الأرمن فى غيابه ، فأدرك خطورة ذلك الإتجاه على مستقبله ومستقبل إمارته . ومنذ ذلك الوقت انقلبت سياسته تجاه الأرمن رأسا على عقب ، وأخذ ينظر إليهم نظرة الريبة والشك ، ولم يتورع عن اضطهادهم وإذلالهم وسلبهم ممتلكاتهم والاعتداء على حرياتهم الدينية وغير الدينية . هذا فضلا عما وقعه على المذنبين منهم من عقوبات بلغت حد الحبس والطرد وسمل الأعين ، حتى أن الأسقف الأرمنى لم يسلم من سمل عينيه إلا بعد أن دفع مبلغاً باهظاً من المال (٢) .

وبعد أن كانت سياسة بلدوين فى حكم الرها تقوم على أساس الربط بين الصليبيين والأرمن ؛ إذا به يغير سياسته تغييراً تاماً ، فاستبعد الأرمن من حسابه كلية ، واعتمد فى حكومته اعتماداً واضحاً على رجاله من الصليبيين الغربيين وحدهم . ومن الواضح أن هذه السياسة زادت الموقف سوءاً ، لأن الأرمن فى الرها ضاقوا

(1) Matthieu d'Edesse p. 268.
(2) Idem; p p. 267—268.

بحكم الصليبيين ، ورأوا فيهم أعداء فاقوا الأتراك المسلمين فى تطرفهم[1] . ولذلك لم يكن عجبا أن يتصل الأرمن فى الرها بمودود أتابك الموصل ، عند قيام الأخير بحملته ضد الصليبيين سنة ١١١٢ ، عارضين عليه استعدادهم لتسليمه الرها .

وعندما علم بلدوين دى بورج بتآمر الأرمن مع مودود ضده ، جاء انتقامه شديداً فى تلك المرة ، إذ طرد من الرها جميع أبنائها الأرمن ، ولم يترك فيها — عدا الفرنجة — سوى السريان واليعاقبة وغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى[2] .

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 443.
(2) Michel Le Syrien. III, p. 196.

الفصل الثالث

مودود وإمارة الرها

حملة مودود أتابك الموصل على الرها سنة ١١١٠ :

سبق أن رأينا كيف أعلن جاولى أتابك الموصل استقلاله بتلك المدينة وقطع كل صله تعبر عن ولائه للسلطان محمد السلجوقى ، الأمر الذى جعل السلطان يعهد إلى مودود بن ألتونتكين بالقضاء على جاولى والقيام محله فى حكم الموصل[١] . وعندما نجح شرف الدولة مودود فى مهمته وأصبح أميرا على الموصل سنة ١١٠٩ ، عهد إليه السلطان محمد فى العام التالى باستئناف الجهاد ضد الصليبيين . وكان أن أعد مودود حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين ، واشترك معه فى تلك الحملة سكمان القطبى أمير خلاط وميافارقين ، ونجم الدين إيلغازى بن أرتق أمير ماردين فى ديار بكر ، ومع الأخير « خلق كثير من التركمان[٢] » .

وقد اتجهت تلك الحملة الكبيرة من الأتراك لحصار الرها (ابريل - مايو سنة ١١١٠) ، فأسرع بلدوين الثانى دى بورج إلى إرسال جوسلين دى كورتناى إلى فلسطين للاستنجاد بالملك بلدوين الأول . أما تنكرد الذى لم يعبأ بانقاذ الرها ، فإن بلدوين الثانى دى بورج اتهمه بتحريك تلك الحملة الإسلامية ضد الرها والتآمر مع المسلمين ضده[٣] . ولم يستطع بلدوين الأول ملك بيت المقدس الحضور على عجل لأنه كان يحاصر بيروت ، وأوشكت المدنية أن تسقط فى يده

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr, III, p. p. 595-596)

(3) Albert d'Aix, p. 670.

عندما بلغته استغاثة بلدوين دى بورج[١] . ولم يكد الملك بلدوين الأول يستولى على بيروت فى مايو سنة ١١١٠ ، حتى جمع قواته واتجه صوب الرها، وصحبته برترام أمير طرابلس على رأس فرسانه[٢] . وفى طريق بلدوين إلى الرها انضم إليه قرب سميساط بعض زعماء الأرمن ،وعلى رأسهم كوغ باسيل[٣] .

وعندما اقترب الملك بلدوين الأول من الرها ، رفع مودود الحصار عن المدينة واتجه صوب حران ، حيث انضم إليه طغتكين ومعه قوات دمشق[٤]. وقد رأى الملك بلدوين الأول أن يقوم الصليبيون بعمل جامع ضد تلك الحشود التركية الضخمة ، التى أخذت تهدد الصليبيين وتبعثر قواهم . ولذلك أرسل ملك بيت المقدس إلى أنطاكية يستدعى تنكرد وقواته للمشاركة فى حرب فاصلة ضد الأتراك[٥] . وقد تردد تنكرد أول الأمر فى تلبية نداء الملك ، ولكنه عاد وأدرك أن عدم تعاونه مع إخوانه الصليبيين فى حربهم الجامعة ضد الأتراك سيسىء إليه وإلى سمعته فى المحيط الصليبى ، فاتجــه على رأس ألف وخمسمائة فارس إلى الملك بلدوين ،الذى قام بدور الوسيط لتصفية الخلاف بينه وبين بلدوين دى بورج، وحشد جميع جهود الصليبيين للمعركة الفاصلة ضد المسلمين[٦] . وهكذا «اتفق الفرنج كلهم وأزالوا ما كانوا بينهم من الشحناء ... فتصافى طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد النفار ... »[٧].

ويبدو أن الخطة التى وضعها مودود عندما ترك حصار الرها واتجه إلى حران

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ١٨.

(2) Albert d'Aix, p. 672.

(3) Stevenson : op. cit; I. p 88.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩ — ١٧١ .

(5) Setton : op. cit. I. P. 399

(6) Stevenson ; op. cit, p. 88.

(٧) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. Or. III. p. 596)

استهدفت استدراج الصليبيين إلى أقصى مكان بعيد عن قاعدتهم فى الجزيرة ، ثم الإيقاع بهم ، كما حدث فى موقعة البليخ سنة ١١٠٤[١] . وكان فى استطاعة الصليبيين - بعد أن وحدوا صفوفهم - أن يلاحقوا المسلمين عند حران ، ولكن الملك بلدوين الأول فطن إلى خطة مودود وأراد أن يسرع بإنزال ضربته بالأتراك قبل أن يتمكنوا من تنفيذ خطتهم . وكان من المحتمل أن ينجح بلدوين فى ذلك لولا أن الأحقاد القديمة بين زعما الصليبيين عادت إلى الظهور ، فانسحب تنكرد ومعه قواته إلى سميساط على الفرات ؛ مما اضطر الملك بلدوين الأول إلى الرجوع إلى الرها[٢] . وفى ذلك الوقت جاءت الأخبار تترى على الملك بلدوين بخطورة هجمات الفاطميين على مملكة بيت المقدس ، فلم يعد أمام الملك متسعا من الوقت ليحاول أن يوفق بين أمراء الصليبيين مرة أخرى . وتم الاتفاق على تحديد الأماكن التى يحتشد فيها المسيحيون ليسهل الدفاع عنها — مثل الرها — على أن تخلى بقية المراكز على شاطىء الفرات من سكانها الأرمن واليعاقبة .

إجلاء الأرمن عن أرض الجزيرة واستيلاء المسلمين عليها :

وكان أن بدأ الصليبيون تنفيذ الخطة السابقة ، فزودوا الرها بالغذاء والسلاح والمواد اللازمة لمقاومة حصار طويل ، ووضعوا فيها حامية قوية تكفى للدفاع عنها[٣] . وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو تطهير ضياع الجزيرة من الأرمن ، وسحب ذلك الفريق من المسيحيين الشرقيين إلى الجهات الشمالية الغربية فى اتجاه سميساط ،

(١) ذكر ابن الاثير أن المسلمين « رحلوا عن الرها إلى حران ليطمع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم ٠٠٠ » (الكامل : حوادث سنة ٥٠٥ هـ) .

(2) Matthieu d'Edesse. p. 93.

(3) Guillaume de Tyr. p. 463.

أى عبر الفرات ، حيث يمكن أن يأوى أولئك الأرمن فى المناطق الجبلية المحيطة بكيسوم (كيسون)(١) .

وفى تلك الأثناء كان مودود ورجاله عند حران، يرقبون الموقف عن كثب، ويتحينون الفرصة المناسبة للعمل ، فأخذوا يجتاحون المزارع والضياع والقرى المسيحية ، حتى وصلوا إلى الفرات . وهناك علما أن جيوش الصليبيين قد عبرت الفرات ، فى حين بقيت بضعة آلاف من المهاجرين الأرمن ينتظرون دورهم فى عبور النهر ، بسبب قلة السفن اللازمة لنقلهم إلى الضفة الغربية(٢) . وكان أن هاجم الأتراك أولئك اللاجئين وأعملوا فيها السيف ، حتى قتلوا منهم عدة آلاف ، فى حين وقف الجيش الصليبى على الضفة الغربية للنهر لا يدرى ماذا يفعل . وبعد ذلك عاد مودود إلى حران ومعه عدد كبير من الأسرى وقدر هائل من الغنائم(٣) .

وهكذا ساء موقف الصليبيين عند أطراف الفرات إلى درجة كبيرة. حقيقة إن الصليبيين ظلوا يحتفظون بالرها وسروج ، وهما أكبر قلعتين فى تلك المنطقة شرق الفرات . ولكن هاتين القلعتين أصبحتا قائمتين وسط أرض خربة مقفرة ، ليس فيها زرع ولا ضرع ولا سكان . أما بلدوين دى بورج فقد عاد إلى الرها ينعى إمارته الخربة ، فى حين رجع بلدوين الأول إلى بيت المقدس ، وتنكرد إلى أنطاكية(٤) .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I; p. 454.
(2) Stevenson : op cit. P. P. 88
(3) Matthieu d'Edesse. p. p. 93-94.
(4) Albert d'Aix; p. 675.

استياء المسلمين والدعوة للجهاد :

على أن الوضع الذى أمسى فيه المسلمون فى أوائل القرن الثانى عشر، وشعورهم بسوء موقفهم فى الشام وأطراف العراق ، أثار بينهم موجة عامة من الاستياء ، فارتفعت الأصوات تستنكر ذلك الوضع وتنادى بالجهاد . هذا إلى أن سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعاقل فى أرض الجزيرة والشام ، قطع أوصال العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى ، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق والشام ومصر والحجاز ، وهو أمر لم يألفه المسلمون منذ حركة الفتوح العربية فى القرن السابع للميلاد . ويروى ابن الأثير أن بعض أهالى حلب قصدوا عندئذ بغداد للتعبير عن استيائهم وطلب المساعدة ضد الفرنجة ، وهناك « اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ، وقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا، ومنعوا من الصلاة، وكسروا المنبر ، فوعدهم السلطان إنفاذ العسكر للجهاد »(١). وفى يوم الجمعة التالى قصد جمهور الغاضبين جامع القصر بدار الخلافة فى بغداد حيث كرروا العملية نفسها ، فاقتحموا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر ؛ وعندئذ أدرك الخليفة المستظهر خطورة الموقف ، فأرسل إلى السلطان السلجوقى « يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه »(٢). وكان أن أخذ السلطان محمد السلجوقى يعد العدة لحملة ثانية ، على أن تكون تحت قيادة ابنه مسعود والأمير مودود أتابك الموصل .

يروى ابن القلانسى أنه فى ذلك الوقت بالذات ، بلغ العداء أشده بين البيزنطيين والصليبيين ، مما جعل الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .
(٢) المرجع السابق .

يرسل مبعوثا إلى السلطان محمد السلجوقى يحضه على محاربة الفرنجة وطردهم من البلاد [١] ؛ «وترك التراخى فى أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد فى الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم !» [٢] . وقد وصل المبعوث البيزنطى إلى بغداد قبل وصول وفد حلب ، الأمر الذى جعل المسلمين فى بغداد يصيحون فى السلطان « أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام ، حتى قد أرسل إليك فى جهادهم [٣] ! » .

حملة مودود الثانية على الرها سنة ١١١١

وقد أخذت الاستعدادات تجرى على قدم وساق فى دولة سلاجقة فارس فى ربيع سنة ١١١١ لإعداد حملة كبيرة لحرب الصليبيين . وكان أن اجتمع تحت قيادة مودود حاكم الموصل جميع حكام الأقاليم فى دولة السلاجقة : سكمان القطبى صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر ، والأميران أيلنكى وزنكى ابنا برسق ـ وكانا يحكمان همذان وخوزستان ـ والأمير أحمد بك (أحمديل) صاحب مراغة فى أذربيجان ... وغيرهم . وكذلك كوتب الأمير أبو الهيجاء صاحب أربل والأمير مودود ؛ فاجتمعوا ، ما عدا إيلغازى صاحب ماردين فإنه سير ولده أياز بدله [٤] .

وبعد أن اجتمع أولئك الأمراء على رأس قواتهم قرب سنجار اتجهوا لمهاجمة الرها ، وكانت الرها على استعداد منذ العام السابق لمواجهة مثل ذلك الهجوم ، وبها من الزاد والمؤن والسلاح ـ فضلا عن المحاربين ـ ما كان كفيلا بأن

---

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 252.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٣ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ؛ سنة ٥٠٤ هـ .

(٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

يمكنها من الصمود . وفعلا لم يلبث أن قنط المسلمون من الاستيلاء على الرها بعد أن «رأوا أمراً محكما قد قويت نفوس أهلها بالذخائر التى تركت عندهم وبكثرة المقاتلين عنهم » [١]. لذلك رأى مودود أن يعبر نهر الفرات لمهاجمة تل باشر ، وفى الطريق لم يحجم الأتراك عن تدمير كل ماصادفهم من ضياع الصليبيين ومزارعهم [٢].

وقد حاصر المسلمون تل باشر خمسة وأربعين يوما ، ولكن جوسلين دى كورتناى استطاع الصمود فى وجه المسلمين « فرحلوا عنها ولم يبلغوا غرضا ». ويذكر ابن العديم أن المسلمين كانوا على وشك الاستيلاء على تل باشر ، لولا أن جوسلين اتصل بأحمد بك الكردى أمير مراغة « فتطارح جوسلين الفرنجى صاحبها على أحمد بك الكردى ، وحمل إليه مالا ، وطلب منه رحيل العسكر عنه ، فأجابه إلى ذلك ! » . وفى ذلك الوقت كان رضوان صاحب حلب قد أرسل إلى مودود وإلى أحمد الكردى يخبرهم « بأنى قد تلفت ، وأريد الخروج من حلب ، فبادروا إلى الرحيل ! » . وعلى هذا الأساس نجح أحمد بك الكردى فى إقناع الأتراك بترك حصار تل باشر والاتجاه إلى حلب لنجدة رضوان [٣]. وعندما اطمأن جوسلين إلى ابتعاد المسلمين عن قلعته ، خرج على رأس مجموعة من فرسانه ، واستطاع أن يدهم مؤخرة جيش المسلمين ، ويقتل من الأتراك نحو ألف رجل ، ثم أسرع بالعودة إلى تل باشر محملا بالغنائم [٤].

ولم يكد الأتراك يقتربون من حلب لنجدة رضوان حتى فوجئوا بموقف غريب . ذلك أن رضوان طلب مساعدة الأتراك عندما كان هؤلاء بعيدين

---

(١) المرجع السابق .

(2) Stevenson : sp cit; p 91.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III. p. p. 599-600

(4) Albert d'Aix. p. 681.

عند تل باشر ؛ ولكن اقتراب الأتراك من حلب أثار مخاوف رضوان لكثرتهم وبدأ يحسب حسابا لخطرهم ، وأدرك أن تلك الجيوش التركية الكثيفة وذلك النفر من الأمراء ذوى المطامع يشكلون خطرا عليه وعلى سلطانه أكثر من خطر تنكرد نفسه[1]. وهكذا سرعان ماظهرت المفاجأة الكبرى ، وهى أن رضوان الذى كان يستنجد بالأتراك ضد تنكرد أغلق فى وجه المسلمين «أبواب البلد ولم يجتمع بهم »[٢] ، بل إنه لم يلبث أن تحالف بسرعة مع تنكرد للوقوف فى وجه ذلك الخطر المشترك[٣] . ويروى ابن العديم أن أهل حلب لم يرضوا عن مسلك ملكهم رضوان ، فغضبوا ونادوا بالجهاد ؛ وعندئذ أخذ رضوان بعض أعيانهم رهائن وحبسهم فى قلعة المدينة ، ورتب قوماً من الجند والباطنية لحراسة سور حلب ، ومنع الحلبيين من الصعود إليه ؛ وبذلك ظلت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة فى وجه الجيش الإسلامى المتحالف[٤] .

وإزاء ذلك الموقف الذى وقفه رضوان من الأمير مودود وحلفائه ، اتجه الجيش المشترك إلى حوض نهر العاصى لاسترداد الجهات التى استولى عليها تنكرد أخيراً فى إقليم معرة النعمان . وهناك عند معرة النعمان حضر طغتكين أتابك دمشق على رأس جيشه وانضم لحلف الأمراء ، وبذلك اكتملت رابطة الأتراك ولم يعد متخلفا سوى رضوان صاحب حلب الذى « لم يلتفت إلى أحدمنهم»[٥] . على أن طغتكين لم يلبث أن « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع فى مهادنة الفرنج سراً »[٦] . وهكذا صدق المؤرخ

---

(1) Setton : op. cit; I, p. 400.

(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٥ هـ.

(3) Albert d'Aix; p. p. 682.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. III, p. 600)

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ ، التاريخ الباهر ص١٧ — ١٨ .

ابن العديم حين قال إن أمراء المسلمين فى ذلك العصر كانوا يرجون استمرار بقاء الصليبيين ليضمن أولئك الأمراء استمرار بقائهم فى مناصبهم ! ! (١)

وقد عرض طغتكين على أمراء الأتراك أن يتوجهوا جميعاً للاستيلاء على طرابلس ، ولكن بقية الأمراء ـ عدا مودود ـ عارضوا ذلك الرأى، واعتقدوا أنه من المجازفة الابتعاد حتى طرابلس من أجل تحقيق مصلحة خاصة لأتابك دمشق (٢) . وعندئذ قرر طغتكين أن يقف موقفا سلبيا من الحملة الإسلامية ، فرفض أن يتعاون مع إخوانه المسلمين فى أى عمل يقومون به ضد الصليبيين إلا إذا أطاعوه واتجهوا صحبته إلى طرابلس ، مع ما فى ذلك العمل من خطورة بالغة . ولم يلبث الأمير برسق أن اشتد به المرض وأعلن الرغبة فى العودة ، فى حين كان الأمير سكمان القطبي قد توفى فجأة عند بالس وعاد جنده بجثمانه ، فى حين انسحب أحمد بك الكردى مسرعا ليطلب من السلطان أن يقطعه ما كان لسكمان القطبي من البلاد . وبذلك لم يبق إلى جانب الأمير مودود سوى إياز الأرتقى بن إيلغازى ، فضلا عن طغتكين صاحب دمشق (٣) .

وفى الوقت الذى انفرط عقد الجيش التركى ، أخذت القوى الصليبية تتجمع من جديد « بعد الاختلاف والتباين » لمواجهة الخطر الناجم من اتحاد كلمة أمراء المسلمين . وكان أن أقبل بلدوين دى بورج أمير الرها وجوسلين دى كورتناى صاحب تل باشر وتنكرد أمير أنطاكية لملاقاة بلدوين ملك بيت المقدس ومعه برترام أمير طرابلس ، وغير هؤلاء كثيرون من أمراء

---

(١) « وكان السبب فى ذلك أن المتقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه » (ابن العديم : زبدة الحلب 607 – 606 .p. p)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 601)

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٦ — ١٧٧ هـ . ؟
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

الصليبيين[1] . وأخيراً اجتمعت الجيوش الصليبية كلها قرب فامية — على الضفة الشرقية لنهر العاصى — فى حين كان طغتكين ومودود على الضفة الغربية للنهر عند شيزر، حيث اجتمع بهما سلطان بن منقذ صاحب شيزر « وهون عليهما أمر الفرنج وحرضهما على الجهاد » ، (١٥ سبتمبر ١١١١)[2]. وبعد عدة أيام وقف فيها الفريقان وجها لوجه ، عبر الأتراك نهر العاصى إلى الضفة التى عليها الصليبيون ودارت مناوشات بين الفريقين بلغت أحيانا درجة عنيفة ، ثم انسحب بعدها مودود إلى الموصل وعاد كل أمير إلى إمارته[3] .

وهكذا أثبتت تلك التجربة فشل حركة الجهاد الإسلامية طالما أن المسلمين كانوا مفتقرين إلى وحدة تنظم صفوفهم . ذلك أن أمراء المسلمين ظلوا منشقين على أنفسهم فى الوقت الذى ترابط الصليبيون جميعاً من أطراف العراق وشمال الشام إلى جنوب فلسطين ، تحت زعامة بلدوين الأول ملك بيت المقدس[4] .

(1) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 469.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

(3) Setton : op. cit; I, p. 400.

(4) Runciman : op. cit, II. p. 123.

الفصل الرابع

تدهور إمارة الرها

مؤامرة الأرمن فى الرها سنة ١١١٢

ومع أن الأمير مودود وجد نفسه وحيدا فى حركة الجهاد ضد الصليبيين ، إلا أنه قام فى صيف سنة ١١١٢ بمهاجمة الرها فجأة ، فترك قواته تحاصرها قرابة شهرين ، فى حين انصرف هو — عندما رأى قوة تحصين الرها وتعذر الاستيلاء عليها فى سهولة — إلى سروج ، بوصفها المركز الثانى للصليبيين شرقى الفرات[1]. على أن جوسلين دى كورتناى استطاع أن يلحق بمودود عند سروج وأنزل به الهزيمة ، وقتل عددا كبيرا من رجاله فى يونية سنة ١١١٣ . ويرجع ابن الأثير تلك الهزيمة إلى أن مودود لم يحتفظ بوحدة جيشه كاملة ، وإنما ترك جزءا يحاصر الرها وأتى بالجزء الباقى لمهاجمة سروج ، وبذلك « أهمل الفرنج ولم يحترز منهم ، فلم يشعر إلا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم » . ولم يسع مودود فى ذلك الموقف سوى التراجع نحو الرها ، فسبقه جوسلين إليها لمساعدة بلدوين دى بورج فى الدفاع عنها[2] .

وفى تلك المرحلة بالذات تآمر الأرمن فى الرها ضد بلدوين دى بورج واتصلوا بالأتراك طالبين مساعدتهم للتخلص من حكم الصليبيين[3]. وقد تم

(1) Stevenson : op. cit; p. 95.
(2) Matthieu d'Edesse. p. 100 &
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٦ هـ .
(3) Matthieu d'Edesse. p. 101.

الاتفاق فى تلك المؤامرة على أن يساعد الأرمن مودود فى الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقى من مدينة الرها ، مما يمكنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة فى سهولة . على أن وصول جوسلين دى كورتناى حال دون تنفيذ المؤامرة ، لأنه عندما علم بها أسرع إلى احتلال القلعة التى كان مفروضا أن يبدأ السلاجقة بالاستيلاء عليها ، وهاجم الأتراك الذين أخذوا يتسللون إليها حتى ردهم عن آخرهم ، و بذلك حال دون سقوط المدينة فى أيدى السلاجقة (١)

ومع أن تلك المؤامرة باءت بالفشل إلا أنها تكشف النقاب عن مدى انحلال الأوضاع الداخلية فى الرها بسبب الانقسام بين شطرى السكان المسيحيين : الأرمن والصليبيين الغربيين . وكان أن أدى كشف تلك المؤامرة إلى تطرف بلدوين دى بورج وجوسلين دى كورتناى فى معاملة الأرمن معاملة وحشية صارمة، فاستحلا دماء كثيرين من الأبرياء ،وأمرا بذبح وإحراق عدد غير قليل من أهل الرها الأرمن . ولم يلبث بلدوين دى بورج بعد ذلك بعدة أشهر أن طرد من الرها عدداً كبيراً من الأرمن بعد أن أدرك أن وجودهم داخل أسوار المدينة يعرض سلامته وسلامة المدينة للخطر (٢) .

ويبدو أن شعور الأرمن فى تلك الفترة بالذات صار معبئاً ضد الصليبيين بوجه عام ، ليس داخل الرها فحسب ، بل فى جميع الأقاليم التى انتشر فيها الأرمن شرقى آسيا الصغرى وشمال العراق . وليس أدل على شعور الكراهية المتبادل بين الصليبيين والأرمن فى تلك الفترة ، من حقد الصليبيين على كوغ باسيل (كواسيل) بسبب ازدياد نفوذ الأخير واتساع ملكه. وكان أن تحالف بلدوين الثانى دى بورج أمير الرها ، وتنكرد أمير أنطاكية ضد كوغ باسيل

---

(1) Michel Syrien p. p. 196.

(2) Matthieu d'Edesse, p. p. 102_105.

الأرمنى ، واستطاع تنكرد أن يستولى على رعبان ، واستعد فعلا لمحاصرة كيسوم ، عندما عقد الصلح بين الطرفين [١] .

جهود بلدوين دى بورج فى انقاذ مملكة بيت المقدس سنة ١١١٣ :

أما مودود حاكم الموصل فلم يهدأ ، وظلت فكرة الجهاد تتحكم فى مشاعره وأحاسيسه ؛ فأعد حملة جديدة سنة ١١١٣ لغزو بلاد الصليبيين ، واشترك معه تميرك صاحب سنجار ، والأمير إياز الأرتقى بن إيلغازى أمير ماردين ، وطغتكين أتابك دمشق . واستطاع الأخير — كما سبق أن أوضحنا — أن يوجه تلك الحملة ضد مملكة بيت المقدس [٢] .

وكان بلدوين دى بورج أمير الرها — بحكم قربه من الموصل — أول من أحس بحركة مودود وحلفائه ، فأسرع إلى تحذير الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس . وعندما أحس الملك بلدوين بخطورة الموقف استنجد بأفصاله الأقربين ، مثل روجر الأنطاكى وبونز أمير طرابلس . أما بلدوين دى بورج أمير الرها ، فكان من الواضح أنه يتعرض لخطر شبه دائم من جانب الأتراك ، لذلك لم يطلب إليه الملك بلدوين الحضور [٣] .

وقد سبق أن شرحنا ما حدث لتلك الحملة قرب بحيرة طبرية ، ثم ما كان من مقتل مودود فى دمشق فى سبتمبر سنة ١١١٣ ، مما أدى إلى فشلها [٤] .

---

(1) Runciman : op cit. II. P. 123.

(٢) انظر ما سبق ص ٣٢٠ — ٤٢٦ .

(3) Grousset : Hist des Croisades' I. p. 484

(٤) انظر ما سبق ص ٣٢٠ — ٣٢٣ .

سوء الأحوال الاقتصادية فى الرها، طرد جوسلين

والواقع إن اتجاه الحملة الإسلامية السابقـــة صوب إقليم الجليل جاء رحمة للرها التى تعرضت — بحكم تطرفها — لكثير من هجمات السلاجقة، والتى كانت لا تستطيع المقاومة والثبات أكثر مما قاومت وثبتت. ذلك أن الأتراك خربوا الأراضى المحيطة بها ودمروا ما فيها من أشجار وزرع، حتى صارت الرها بمثابة قلعة وسط صحراء واسعة مجدبة مليئة بالأعداء من كل جانب. أما الجزء الواقع غربى الفرات من إمارة الرها – أى إقليم تل باشر – فكان على العكس فى حالة نسبية من الهدوء، لأنه لم يتعرض لما تعرضت له الرها من إغارات أتابكة الموصل، فضلا عن أن نهر الفرات كان يحميها من هجماتهم المتكررة.

وتشير المراجع إلى أن جوسلين دى كورتناى أخـــذ يتصرف فى ذلك الوقت تجاه سيده بلدوين دى بورج تصرفات تدل على عدم اللياقة والإخلاص، مما أثار حنق بلدوين وشكوكه. ومع أنه لا توجد فى الواقع أدلة ثابتة على خيانة جوسلين لبلدوين الثانى، إلا أنه من المحتمل أن يكون سبب سوء التفاهم بين الطرفين هو حقد بلدوين دى بورج على جوسلين، لاسيما وأن بلدوين – وسط المتاعب الداخلية والخارجية التى ألمت به وبإمارته — أخذ يتشكك فى جميع من حوله؛ فلم يكتف بالشك فى الأرمن وإخلاصهم، وإنما شك أيضاً فى أقرب أعوانه إليه وهو جوسلين نفسه، بعد أن وجد أنه محبوب من الأرمن. ومهما يكن من أمر، فقد انتهى الموقف بأن قبض بلدوين دى بورج على جوسلين وحبسه؛ ثم أطلق سراحه بعد أن عزله عن حكم تل باشر[1].

ولم يجد جوسلين دى كورتناى أمامه سوى الملك بلدوين الأول ملك

(1) Runciman. : op cil; II. P 124.

بيت المقدس ؛ فذهب إليه طامعا فى عطفه وكرمه . وكان أن أقطع الملك بلدوين جوسلين إمارة طبرية والجليل ، حيث أظهر جوسلين نشاطاً واسعاً فى مهاجمة المسلمين . وبخاصة فى إقليم صور . وتدل الشواهد على أن جوسلين لم يحاول — وهو فى إمارته الجديدة — أن يسىء إلى بلدوين دى بورج أمير الرها ؛ مما جعل الأخير — عندما تولى عرش بيت المقدس عقب وفاة بلدوين الأول — لا يكتفى بإعادة جوسلين إلى تل باشر ، بل أعطاه إمارة الرها بأكملها سنة ١١١٩[١] .

مؤامرة الأرمن سنة ١١١٣ لتسليم الرها لمودود :

أما الأرمن فى الرها ، فظلوا يضمرون البغض وسوء النية لبلدوين دى بورج والصليبيين عموما ، وزاد من كراهيتهم وحقدهم تلك الإجراءات التعسفية التى اتخذها بلدوين الثانى ضد الأرمن سنة ١١١٢ . ولم يلبث استياء الأرمن أن دفعهم إلى التفكير فى تسليم الرها للسلاجقة سنة ١١١٣ ، أى فى الوقت الذى بدأ مودود حاكم الموصل يتأهب لحملته الجديدة ضد الصليبيين . وربما ظن الأرمن أن الظروف مواتية لتسليم الرها لمودود أثناء غياب بلدوين دى بورج فى تل باشر ، لأخذ قلعتها بعد طرد جوسلين دى كورتناى منها . ومع أنه لا يوجد دليل ثابت على أن الأرمن تواطأوا فعلا ضد الأتراك فى تلك المرة ، إذ ربما لا يعدو الأمر مجرد إشاعة أو دسيسة ، إلا أن تجربة العام السابق جعلت بلدوين دى بورج يسرع إلى اتخاذ إجراءات عنيفة لحماية الرها من جهة وللانتقام من الأرمن من جهة أخرى[٢] .

ولم يلبث أن عهد بلدوين دى بورج إلى أحد رجاله بعقاب الأرمن

---

(1) Stevenson : op. cit; p. 106.
(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 490.

وطردهم من الرها ، فانتشر الصليبيون فى المدينـة يذبحونهم بالجملة ، كما لجأوا فى ١٣ مايو سنة ١١١٣ إلى طرد من تبقى منهم على قيد الحياة خارج المدينة ويصف المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى حالة الأرمن فى ذلك الوقت ، وكيف أنهم مروا بأيام حالكة ليس لهـا مثيل فى تاريخهم ، فكان الأب لا يعرف أبناءه ، والأبناء يفرون من آبائهم ، والكل لا يعنيهم سوى النجاة بأرواحهم ، وقد غادروا الرها تاركين خلفهم كل ما امتلكوه من مال ومتاع . أما من بقى منهم داخل منزله وأغلق عليه بابه ، فإن الصليبيين اقتحموا عليه داره وأحرقوه حياً . وهكذا لم يتبق فى الرها من أبنائها الأرمن سوى ثمانين رجلا لاذوا بكنيسة القديس تيودور ، حتى تم القبض عليهم فحبسوا فى قلعة المدينة تحت الحراسة المشددة[1] . وقد اتجه معظم الأرمن المطرودين من الرها إلى المدن والبلاد الأرمينية الأخرى القريبة — وبخاصة سميساط — فى حين صارت الرها مدينة شبه خربة، فازداد ركودها وضعفها ،بعد أن فقدت عنصراً أساسياً من سكانها المعروفين بنشاطهم ودأبهم .

ولم يلبث أن أحس بلدوين دى بورج بأن طرد الأرمن من الرها عاد عليه وعلى إمارته بالخسارة ، وأن من بقى بالمدينة من المسيحيين الغربيين والسريان لا يكفون للاحتفاظ للرها بنضارتها وقوتها ، فسمح للأرمن فى فبراير سنة ١١١٤ بالعودة إلى الرها مرة أخرى [٢] .

استجار الأرمن بالسلاجقة :

وإذا كان الأرمن بعد عودتهم إلى الرها قد ركنوا إلى الهدوء التام ولم يحاولوا القيام بأى عمل يسىء إليهم ، إلا أنهم ظلوا مع ذلك — داخل الرها

(1) Matthieu d'Edesse p. p. 104–106.
(2) Grousset : Hist. des Croisades, I; P. 491.

وخارجها — لا يستطيعون أن يغفروا للصليبيين سوء معاملتهم واضطهادهم لكنيستهم .

وكان السلطان محمد السلجوقى قد عهد بحكم الموصل بعد مقتل مودود إلى حاكم جديد هو أقسنقر البرسقى ، مع تكليفه ـ مثل سلفه ـ بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين . وفى سنة ١١١٤ قام أقسنقر بحملة كبيرة ضد الرها ، وكان صحبته ابنه عماد الدين زنكى وتميرك صاحب سنجار وغيرهما . والمعروف أن آقسنقر كان رجلا ماهراً ، فبدأ بتدعيم نفوذه والاستيلاء على أعمال الموصل مثل جزيرة ابن عمر ، كما استولى على ماردين من صاحبها إيلغازى ، وبعد ذلك سير إيلغازى ابنه إياز مع أقسنقر لمهاجمة الرها . وقد ظل أقسنقر يحاصر الرها شهرين كاملين، قاومه طوالها الفرنجة « وصبروا له » على قول ابن الأثير(١) . ويبدو أن صمود الرها على ذلك الوجه جعل آقسنقر يرفع حصاره عنها ، ويوجه إغاراته ضد الضياع الصليبية المحيطة بها وبسروج وسميساط . وفى تلك المرحلة أرسل حاكم كيسوم ورعبان الأرمنى إلى آقسنقر يعرض عليه محالفته ضد الصليبيين .

وكان كوغ باسيل (كواسيل) الأرمنى ـ حاكم إمارة كيسوم ورعبان ـ قد توفى فى اكتوبر سنة ١١١٣ تاركا إمارته المستقلة لأرملته وابنهما بالتبنى ، دغا باسيل . وعندما أحس هذان الأخيران بأن تنكرد أمير أنطاكية يطمع فى إمارتهما ، طلبا حماية الأتابك آقسنقر البرسقى واعترفا بتبعيتهما له وسيادته على إمارتهما ؛ وقبل آقسنقر ذلك بعد فرض جزية معينة على تلك الإمارة الأرمينية ، رمزاً لتبعيتها(٢) . ويبدو أن بعض الأرمن الذين طردهم بلدوين الثانى من الرها

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٨هـ

(٢) ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٠٨ « فى هذه السنة توفى بعض كنود الفرنج ويعرف بكواسيل ، وهو صاحب مرعش وكيسوم ورعبان وغيرها ، =

سنة ١١١٣ نزحوا إلى كيسوم حيث حرضوا دغا باسيل على محالفة السلاجقة ضد الصليبيين[١].

بلدوين الثانى دى بورج والتوسع على حساب الأرمن :

على أن الصليبيين اعتبروا ما قام به أمراء كيسوم الأرمن من تحالف مع السلاجقة ، خيانة كبرى فى حق المسيحية ، فضلاً عما فى ذلك التحالف من تهديد صريح للإمارات الصليبية فى شمال العراق والشام . لذلك لم يلبث بلدوين دى بورج أمير الرها أن خرج لحصار رعبان سنة ١١١٥، وعندئذ استنجد دغا باسيل بأحد حكام الأرمن فى منطقة طوروس الجبلية . ولكن الأخير لم يهتم بأمر مساعدة دغا باسيل وانتهز فرصة مجيئه إليه وقبض عليه وسلمه لخصمه بلدوين دى بورج أمير الرها ؛ الذى لم يطلق سراح دغا باسيل إلا بعد أن أجبره على تسليم مدينتى كيسوم ورعبان سنة ١١١٦ ، فى حين لجأ دغا باسيل نفسه إلى بلاط القسطنطينية[٢] .

ثم إن بلدوين دى بورج لم يكتف بذلك، وإنما طمع فى ضم بقية الإمارات الأرمينية المستقلة فى أطراف العراق والشام. لذلك خرج بلدوين فى العام التالى ومعه تابعه صاحب سروج لمهاجمة إمارة أخرى للأرمن ، هى البيرة ، وكانت بيد زعيم أرمنى آخر هو أبو الغريب. والمعروف أن البيرة ذات موقع هام على مجرى الفرات فى الطريق بين الرها وعينتاب. وعلى الرغم من أنها دانت بالطاعة لبلدوين الأول سنة ١٠٩٩ ، إلا أنه تركها تتمتع بكيانها كإمارة أرمينية

= فاستولت زوجته على المملكة وتحصنت من الفرنج وأحسنت إلى الاجناد وراسلت آقسنقر البرسقى وهو على الرها واستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه » .

(1) Runciman: op. cit; II, p. 129.

(2) Matthieu d'Edesse, p. p. 116–117.

صغيرة[١] . وقد استطاعت البيرة أن تقاوم حصار بلدوين دى بورج نحو سنة، حتى سلمت له أخيراً سنة ١١١٧ ؛ وهنا يظهر المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى استياءه ، لأن أمير الرها وجه نشاطه ضد الأرمن المسيحيين بدلا من المسلمين ، واتهم ذلك الأمير بأنه لم يفرق بين السلاجقة المسلمين والأرمن المسيحيين[٢] . أما البيرة فقد ظلت بأيدى الصليبيين حتى سنة ١١٤٥

وأخيرا استولى بلدوين دى بورج على قلعة قورس شمالى حلب سنة ١١١٧، وبذلك يكون الأرمن فى أطراف العراق والشام قد لقوا على أيدى الصليبيين ما لم يلاقوه على أيدى المسلمين . ومهما يكن من أمر ، فإن بلدوين دى بورج لم يستمر بعد ذلك فى حكم الرها طويلا ليتابع سياسته ضد الأرمن، إذ توج ملكا على بيت المقدس فى ١٤ أبريل سنة ١١١٨ بعد وفاة الملك بلدوين الأول ، واتخذ لقب الملك بلدوين الثانى. ولم يجد ملك بيت المقدس بلدوين الثانى أكفأ وأشجع من جوسلين دى كورتناى ليحل محله فى حكم الرها ، وينهض بمهمة الدفاع عن الجبهة الشمالية الشرقية للصليبيين . وهكذا عادت الميـاه إلى مجاريها بين الرجلين ، واتجه جوسلين إلى الرها ليتولى مهام منصبه الجديد[٣] .

(1) Setton: op. cit. p. 405.
(2) Matthieu d'Edesse, p. 117.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 301.

الباب التاسع

الصليبيون في أوج مجدهم

« فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً
جزاء بما كانوا يعملون »

[التوبة : ٨٢] .

الفصل الأول

حياة الصليبيين ونظمهم فى الشام

البناء السياسى :

لم يقدر للصليبيين منذ دخولهم بلاد الشام سنة ١٠٩٧ حتى طردهم منها سنة ١٢٩١ أن يسيطروا على تلك البلاد بأجمعها ، وإنما احتلوا أجزاء متفرقة منها لا تربط بينها رابطة ، وتفصل بينها أراضى ومدن وبلاد إسلامية . ويمكن تشبيه دولة الصليبيين فى أقصى اتساعها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه فى الشمال من أنطاكية غربا إلى الرها شرقا ، وضلعه الأيمن من الرها إلى أيلة على البحر الأحمر ، وضلعة الجنوبى من أيله إلى غزة ، وضلعه الغربى من غزة إلى أنطاكية . هذا مع ملاحظة مع مافى هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ ، إذ امتلك الصليبيون أراضى ومدن عديدة خارج حدود تلك الرقعة ، وفى الوقت نفسه وجدت داخلها مدن كبرى ظلت محتفظة بوضعها الإسلامى دون أن يستطيع الصليبيون الاستيلاء عليها مطلقا ، مثل حلب وحماه ودمشق [١] .

وقد سبق أن رأينا كيف ظهرت النوايا والاطماع السياسية للأمراء المشتركين فى الحملة الصليبية الأولى ، وذلك قبل وصولهم إلى بلاد الشام ذاتها ، الأمر الذى جعل من المتعذر قيام وحدة سياسية تضم شمل الصليبيين فى الشرق الأدنى . وهكذا قامت إمارة الرها ، ثم إمارة أنطاكية ، ثم مملكة

---

(1) Thompson ; Economic and Social History of the Middle Ages, p. 396.

بيت المقدس ، وأخيراً إمارة طرابلس [١] . وعلى الرغم مما ادعاه كل واحد من أمراء تلك الوحدات الصليبية من استقلال وسيادة ، إلا أن مملكة بيت المقدس الصليبية تمتعت بأولوية ظاهرة ، وذلك بحكم أوضاعها الدينية والتاريخية . ويكفى أن المسيحيين جميعاً نظروا إليها على أنها مدينة المسيح وبها كنيسة القيامة ، مما جعلها مقصد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحى [٢] .

والواقع إن الفضل فى بناء مملكة بيت المقدس الصليبية التى قامت فى أواخر القرن الحادى عشر ، إنما يرجع إلى الملوك الستة الأوائل الذين تعاقبوا على عرش تلك المملكة ، والذين حملوا أسماء بلدوين وفولك وعمورى . وقد رأينا كيف أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ — ١١١٨) جمع من الصفات السياسة والحربية والخلقية والعقلية ، ماجعل منه حاكماً ناجحا ، استطاع أن يرسى الدعائم الأولى التى قامت عليها مملكة الصليبيين فى بيت المقدس . وقد شاء حسن حظ تلك المملكة أن يخلف بلدوين الأول مجموعة من الملوك عرفوا جميعاً بالمقدرة والكفاية والحرص على الصالح الصليبى العام بالشام ، وهم بلدوين الثانى ، وفولك الأنجوى ، وبلدوين الثالث ، وعمورى الأول ، وأخيراً بلدوين الرابع (١١٧٣ — ١١٨٥) [٣] . ومصدر نجاح هؤلاء الملوك جميعا هو مقدرتهم على استغلال الظروف ، واختيار الرجال ، والإفادة من المنافسات والحزازات بين الترك والعرب ، وبين السنة والشيعة ، وبين حكام حلب وحكام دمشق . هذا فضلا عما لجأ إليه بلدوين الثانى من محالفة الباطنية ، وتمكين تلك الفرقة الهدامة من إشاعة الفوضى فى المجتمع الإسلامى بالشام ، وقتل جماعة من أعلام المجاهدين [٤] .

---

(1) Longnon : Les Francais d'Outremer au Moyen Age p. p. 108—109.

(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 197—199.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. XIV.

(4) Setton : op. cit; I, p. p. 119—120.

نظم الحكم والإدارة .

وقد طبق الصليبيون بالشام كثيراً من النظم الإقطاعية التي خبروها وعاشوا في ظلها في الغرب الأوربي قبل حضورهم إلى الشرق .

ففي مملكة بيت المقدس كان الملك على رأس الهرم الإقطاعي وتتألف أملاكه الخاصة (الدومين) من ثلاث مدن رئيسية هي بيت المقدس وعكا ونابلس ، ثم أضيف إليها الداروم بعد ذلك [1] . وكان يلي الملك أربعة من كبار الأمراء — أشبه بالدوقات في الغرب — هم أمراء يافا والجليل وصيدا وشرق الأردن — ؛ ولكل واحد من هؤلاء الأمراء الأربعة الكبار موظفوه وإدارته ، أشبه بالملك نفسه ، ولكن على مقياس أصغر . وبعد ذلك جاءت مجموعة الأمراء الذين حكموا بقية مدن المملكة ، وعددهم حوالي اثني عشر أميراً أهمهم أمير قيسارية وأمير تبنين [2] وكان على كل فصل من أولئك الأمراء — الكبار والصغار — أن يعترف بالتبعية لسيده الإقطاعي ، ويقدم له الخدمة العسكرية والفرسان المحاربين ، وفقاً للقواعد والأصول الإقطاعية . هذا مع ملاحظة أن الخدمة العسكرية لم تكن محدودة في بلاد الشام بموسم معين أو أيام معدودة في السنة ، كما هو الحال في الغرب الأوربي ، وإنما تطلبت ظروف إقامة الصليبيين في الشام ، وما كان بينهم وبين المسلمين من حروب شبه مستمرة ، أن تكون الخدمة الحربية غير مشروطة إلا من ناحية عدد الفرسان الذين يقدمهم الفصل لسيده الإقطاعي في الحرب [3] .

وكان إقطاع كل أمير وحدة متماسكة من الأرض — مدينة وأعمالها أو حصن

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem, p. p. 71–72.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 302.
(٣) من ذلك أن أمراء يافا وصيدا والجليل كان على كل منهم أن يقدم للملك مائة فارس كاملي العدة في وقت الحرب ، في حين كان على أمير شرق الأردن تقديم ستين فارسا فقط .

أو عدة قرى متلاصقة مثلا — إلا فى حالة أراضى الكنيسة التى آلت إليها عن طريق الإحسان ، أو أراضى هيئات الفرسان — وبخاصة الاسبتارية والداوية — التى آلت إليهم عن طريق الفتح والغزو ، فكانت متناثرة فى مختلف أنحاء الشام.

أما الموارد المالية التى عاش عليها الملك والأمراء فكانت عديدة، منها ما يتحصل من السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الإسلامية ، ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للصليبيين والمحيطة بهم ؛ وأهمها الضرائب العديدة التى فرضت على الصادرات والواردات والمبيعات والمشتريات ، فضلا عن الحجاج والموانى والسفن [1] .

أما عن دستور مملكة بيت المقدس فأول ما نلاحظه عليه أنه لم يكن ثابتاً على حال واحد ، وإنما تعرض لكثير من التغيير والتبديل حسب الظروف . ويبدو مما كتبه المتأخرون أن ملك بيت المقدس — على الرغم مما تحقق له من سيادة على أمراء أنطاكية والرها وطرابلس — إلا أنه كان محدود السلطان فى مدينته أمام سطوة الدين ورجال الدين ، إذ لا ينبغى للملك أن يرفع رأسه فى مدينة المسيح . ولعل هذا هو السبب الذى جعل أمراء الحملة الصليبية الأولى — واحدا بعد آخر — يرفضون شرف تولى حكم مدينة بيت المقدس بعد أن فتحها الصليبيون سنة ١٠٩٩ ، حتى إذا ما قبل جودفرى ذلك المنصب بعد ضغط شديد ، اشترط عدم تتويجه ملكا ، اعتقادا منه بأنه لا يجوز أن يقوم ملك فى مدينة المسيح [2] .

وبينما كان أمراء أنطاكية وطرابلس يتوارثون منصب الإمارة وفقاً للقانون الإقطاعى المعروف فى الغرب ، إذا بالملكية فى بيت المقدس تظل

(1) Runciman : op. cit, II, p. 298
(2) Cam Med. Hist, vol. 5. p. 300

انتخابية من ناحية المبدأ ، وإن كان أمراء المملكة قد أخذوا بعد ذلك بالمبدأ الوراثى ، كما حدث عند تولية بلدوين الرابع ملكا سنة ١١٧٤ وهو فى الثالثة عشر من عمره بعد وفاة أبيه[1] . ومهما تعددت سلطات الملك ، فإنه كان مقيداً فى كثير من المسائل برأى أمرائه فضلا عن رأى المحكمة العليا ؛ فكان مثلا لا يستطيع أن يعزل أميراً من إقطاعه إلا بموافقة تلك المحكمة .

وكانت تلك المحكمة العليا فى أساسها هيئة قضائية ، ولكن لم يلبث أن اتسع اختصاصها فأصبحت بمثابة هيئة تشريعية لا بد من موافقتها على أى قانون أو تشريع جديد فى المملكة ، فضلا عن الفصل فيما ينشأ بين الأمراء بعضهم وبعض من خلافات ومنازعات ، أو ما يرتكبونه من مخالفات وجرائم[2] . وفوق هذا وذاك ، فقد كان لتلك المحكمة رأى مسموع فى توجيه السياسة العامة للمملكة ، لأن المحكمة العليا تألفت من أفصال الملك المباشرين — وهم كبار الأمراء — فضلا عن أنها ضمت ممثلين للكنيسة من كبار رجالها ، وممثلين للجاليات الأجنبية التى امتلكت أراضى ومدن فى المملكة — مثل البنادقة والجنوية والبيازنة — وممثلين لهيئات الفرسان ، مثل الإسبتارية والداويه . ومن الواضح أن ملك بيت المقدس كان لا يستطيع أن يتخذ قراراً سياسياً خطيراً دون الرجوع إلى رأى جميع الفئات السابقة[3] .

وبالإضافة إلى المحكمة العليا التى اختصت بالتشريع والسياسة العليا للمملكة ، والمنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم وبعض ، وجدت محاكم أخرى فى مملكة بيت المقدس تعددت اختصاصاتها وتنوع نشاطها . من هذه المحاكم مثلا تلك

(1) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 609
(2) Longnon : op. cit. p. 137.
(1) Runciman : op. cit; II. P. P. 300 - 301

التى أطلق عليها اسم المحاكم البورجوازية Cours des bourgeois ، وهى خاصة بالفرنجة من غير النبلاء ـ أى عامة الفرنجة من البورجوازيين ـ وتفصل فيما يجرى بينهم من معاملات مالية ومدنية فضلا عما صار لها من نفوذ فى القضايا الجنائية[1] . وقد قامت هذه المحاكم البورجوازية فى كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى ، وتولى رآستها فيكونت المدينة يساعده إثنا عشر محلفاً يختارهم الأمير الذى تتبعه المدينة . أما المدن الإيطالية أو التى كان للتجار الإيطاليين أحياء بها ، فقد ظهر بها نوع آخر من المحاكم ذات الطابع التجارى : النوع الأول هو محاكم المدن Cours de la fonde وقد قامت فى المدن ذات النشاط التجارى ، والنوع الثانى محاكم الموانى والسفن Cours de la chaine وقد قامت فى الموانى البحرية ، ويتولى رآستها جميعاً القناصل أو وكلاؤهم[2] .

هذا عن المحاكم ، أما الجهاز الإدارى فى المملكة فكان يشرف عليه مجموعة من كبار الموظفين ، أولهم القهرمان Seneschal وكان يشرف على الاحتفالات الكبرى وعلى الشئون المالية والخزانة ؛ ويأتى بعده كند اسطبل المملكة Constable وهو قائد الجيش تحت رآسة الملك العليا ، ويشرف على كل ما يتعلق بتنظيماته وإمداداته ، ويساعده المارشال . وبعد ذلك يأتى الياور Chamberlian ويشرف على القصر الملكى وعلى مالية الملك الخاصة . وهكذا تعدد الموظفون فى مملكة بيت المقدس بتعدد الاختصاصات واتساع النشاط الإدارى[3] .

ومع أنه لم يصلنا الكثير عن النظم التى كانت سائدة فى إمارة الرها ، إلا أنه بدراسة ما وصلنا من نظم إمارتى أنطاكية وطرابلس يمكننا القول بأن

(1) Grousset ; L'Empire du Levant, p 283.

(٢) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٨ — ٧٩ .

(3) Runciman : op. cit. II. p. p. 303-304.

الإمارات الصليبية شابهت مملكة بيت المقدس فى نظمها القضائية والإدارية مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة التى نتجت عن الظروف التى أحاطت بكل إمارة من ناحية والعناصر البشرية التى تألفت منها الإمارة من ناحية أخرى [١] . فإمارة الرها مثلا أدى تطرفها فى الشمال الشرقى ، وإحاطة الأرمن والأتراك بها ، وبعدها نسبياً عن التيار الصليبى العام فى بلاد الشام ، إلى وقف تطورها الدستورى وإلى اعتماد أمرائها على نسبة كبيرة من الموظفين الأرمن الذين تأثروا بالنظم البيزنطية [٢] . وفى إمارة أنطاكية أيضاً نجد روح النورمان ونزعتهم الاستبدادية ورغبة أمرائها فى كبت أية معارضة من جانب كبار النبلاء فى الإمارة ، كما نجد التأثيرات البيزنطية تبدو فى بعض النظم والتشريعات لاسيما تلك الخاصة بالضرائب [٣] .

وهكذا كان من المتعذر على الصليبيين أن يتجاهلوا فى نظمهم بالشام آثار البيئة والظروف التى أحاطت بهم .

الكنيسة والهيئات الدينية :

كان من الطبيعى أن يكون للكنيسة أهمية كبرى فى مجتمع ادعى أنه قام على أساس الدين ، وزعم أنه يسعى لتحقيق أهداف دينية . ومهما تكن الأسباب التى دفعت البابوية إلى الدعوة للحروب الصليبية ، فالمهم هو أن قيام البابوية فعلا بتلك الدعوة جعل لها هيمنة عليا على الحركة الصليبية من أولها لآخرها ، وعلى الصليبيين جميعاً بالشام ، الكبير منهم والصغير [٤] .

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.
(2) Longnon : op cit, p 137.
(3) Runciman : op. cit, II, 306—307.
(4) Grousset ; L'Empire du Levant, p. 295.

وإذا كان للملك بيت المقدس نفسه ثمة رئيس أو سيد ، فإن هذا الرئيس كان البابا فى روما . وقد سبق أن أوضحنا كيف كان من المتوقع أن تقوم حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس لولا وفاة أدهمار المنــدوى البابوى فى الحملة الصليبية الأولى ، ثم سوء سيرة دايمبرت . هذا إلى أن البابوية رأت من صالحها عدم قيـام حكومة دينية فى بيت المقدس ، لأن ظهور أحد رجال الدين الأقوياء فى مدينة المسيح معناه قيام بابوية جديدة فى الشرق ، وفى تلك الحالة يستطيع البابا الجديد فى بيت المقدس أن يطالب ـ بوصفه خليفة المسيح فى مدينته ـ بالسيادة على بابا روما ، الذى لن ينفعه عندئذ أنه خليفة القديس بطرس فى كنيسته . ولعل هذه المخاوف هى التى جعلت بابوات روما يؤيدون دايمبرت فى خلافه مع ملك بيت المقدس ، ولا يشجعون بأى حال قيام حكومة ثيوقراطية فى الأراضى المقدسة(١) .

ولعل أول ما يسترعي انتباهنا عن الـكنيسة فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية هى أنها فازت بنصيب الأسد ، إذ أنها ربحت كثيراً ولم تفقد سـوى القليل . فعند دخول الصليبيين إلى الشام طردوا رجال الدين الأرثوذكس ، واستحوذ أخوانهم الـكاثوليك على كل شىء ليظهروا جشعاً كبيراً فى امتلاك الأراضى والأموال ، عدا الهبات والهدايا التى انهالت عليهم (٢) . وهكذا تميزت الأديرة والـكنائس التى أقامها الصليبيون بالشام بوفرة ثروتها واتساع أملاكها التى لم تقتصر على بلاد الشام ، بل امتدت إلى القارة الأوربية نفسها . ويـكفى أن نعرف أن أحد تلك الأديرة — وهو دير جبل صهيون فى بيت المقدس — امتلك سنة ١١٧٨ حياً بأكمله فى مدينة القدس ذاتها مـع تمتعه بحق فتح بوابة فى أسوار المدينة . وكانت لذلك الدير أيضاً ممتلـكات وأراضى وبساتين وأسواق فى عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور وأنطاكية وقيليقية ؛ بل إن

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 379 – 383.
(2) Longnon : op. cit. p. 133.

بعض الخيرين من حجاج بيت المقدس وهبوا ذلك الدير بعد عودتهم إلى أوربا ضياعا وأملاكا فصارت له ممتلكات فى صقلية وإيطاليا فضلا عن فرنسا[1] .
وهذا مثل واحد من أمثلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها ، وإنما سقناه لنأخذ فكرة عامة عن مدى ثروة الكنيسة ومؤسساتها فى الشام على عصر الحرب الصليبية . ويبدو أن تلك الثروة الطائلة التى تمتعت بها المؤسسات الدينية، أثارت حقد البنلاء فى بلاد الشام ، لاسيا وأن ممتلكات الكنيسة معفاة من الضرائب، كما كان رجالها معفين من الخدمة العسكرية ، مما جعل النبلاء والفرسان يشعرون أن الكنيسة ورجالها يتضخمون على حسابهم ويجمعون الأموال والثروات ، فى الوقت الذى يتحملون هم المغارم وعبء الدفاع عن الكيان الصليبى بأجمعه فى بلاد الشام .

أما عن التنظيم الكنسى فى بلاد الشام ، فيلاحظ أن الوضع جرى منذ القرن الرابع للميلاد على أن يكون بتلك البلاد كرسيان بطرقيان كبيران، أحدهما فى بيت المقدس والآخر فى أنطاكية ؛ وقد استمر هذا الوضع سائداً فى العصر الصليبى . أما بطرق بيت المقدس فقد ضعف مركزه أمام الملك بعد الفشل الذى منى به دايمبرت . وعندما يخلو منصب بطرقية بيت المقدس ، كان رجال البطرقية ينتخبون اثنين للمنصب ، يختار الملك أحدهما . ويتبع بطرق بيت المقدس خمسة من رؤساء الأساقفة فى صور، وقيسارية، والناصرة، والكرك، وبصرى. ويتبع هؤلاء تسعة أساقفة[2] . أما بطرق أنطاكية ، فكانت تتبعه كنائس أنطاكية وطرابلس والرها ، بمعنى أنه كان يتبعة رؤساء أساقفة طرابلس وأنطرطوس وجبلة والبارة وطرسوس والمصيصة فضلا عن الرها[3] .

(1) Thompson : op. cit, p. 406.
(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 98.
(3) Runciman : op cit; II p. p. 311-312.

وقد شهدت بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية عديداً من الهيئات الدينية ، أهم ما يعنينا منها هيئات الفرسان ، وبخاصة الاسبتارية والداوية . وقد أشرنا فى موضع آخر إلى نشأة هاتين الهيئتين . ويهمنا فى هذا المقام أن نؤكد نموها السريع فى القرن الثانى عشر وازدياد أملاكهما عن طريق الهدايا والهبات والغزو والنهب، حتى صارتا على درجة خطيرة من القوة والثروة واتساع النفوذ(١). والواقع أن منظمتى الداوية والاسبتارية سدتا فراغاً ضخماً فى حياة الصليبيين بالشام . فمن الناحية الروحية ، كان هناك كثيرون من الأتقياء الذين عز عليهم أن تحرمهم حياة الزهد والعبادة فى ظل الكنيسة أو الدير من المشاركة فى محاربة المسلمين ، وهؤلاء وجدوا ضالتهم فى تلك المنظمات التى جمع أفرادها بين حياة المتعبد وحياة المحارب . ومن الناحية السياسية قام فرسان الاسبتارية والداوية بجهد ضخم فى حماية الكيان الصليبى بالشام والزود عنه ، وفى محاربة المسلمين وغزو بلادهم ودفع هجماتهم ، فى وقت قل عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة المرض والوفاة أو العودة إلى الغرب الأوربى(٢) . ويشهد تاريخ الحروب الصليبية بالشام على أن فرسان الداوية والاسبتارية كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال وأصلبهم عوداً وأكثرهم صبراً وشجاعة ، وأنه لولا ماقام به أولئك الفرسان من جهود حربية لانتهى أجل الكيان الصليبى بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة طويلة(٣) .

ومن الواضح أن نشاط هيئات الفرسان بالشام فى عصر الحروب الصليبية لم يقتصر على ماأسهموا به من جهد حربى ، وإنما قاموا أيضا بجهد كبير فى ميدان الخدمة الاجتماعية . من ذلك أن ملجأ الاسبتارية فى بيت المقدس كان يتسع

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 291_292.
(2) Cam. Med. Hist. vol.5, p. p. 305-306.
(2) Runciman : op. cit, II, p. 312.

لألف حاج ، فضلا عن المشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم [1] .
وكان الاسبتارية والداوية يوزعون صدقات يومية، على فقراء الصليبيين والمعوزين منهم ، وبلغت هذه الصدقات درجة من السخاء أثارت انتباه الزوار والأغراب.
وبالإضافة إلى كل ذلك قام أولئك الفرسان بحراسة طرق الحجاج من يافا وعكا إلى بيت المقدس ، وبذلوا فى ذلك جهدا استحق شكر المعاصرين . أما عن نشاطهم المالى والمصرفى فقد بدأ بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ، ولم يتخذ هذا النشاط شكلا استغلالياً إلا بعد ذلك فى أواخر العصر الصليبى، مما أثار ضدهم سخط الكثيرين [2] .

على أن هـذه المزايا الضخمة التى حققتها هيئات الفرسان للصليبيين قابلها مثالب كثيرة ترتبت على وجودهم . ذلك أن هذه الهيئات كانت مستقلة تماما فى بلاد الشام عن كل نفوذ سياسى، ولا تعترف بالتبعية إلا للبابا فى روما مباشرة، مما جعل منها دولة داخل الدولة . وكثيراً ما نجد إحدى الهيئتين تتخذ لنفسها سياسة خاصة معينة فى مشكلة من المشاكل ، أو تعقد صلحاً أو هدنة مع المسلمين دون أن ترتبط أو تتقيد بالسياسة العامة للدولة الصليبية . هذا إلى أنها - مثل الكنيسة - تمتعت بأمـــلاك واسعة ، فلم تمتلك ضياعا وأراضى وأسواقاً ومراعى ومواشى فحسب ، بل امتلكت أيضاً كثيراً من المدن والحصون والقلاع ، وتعهدت بالدفاع عنها ضد المسلمين . ولا شك فى أن هذه الممتلكات جاءت على حساب بقية الفئات الصليبية بالشام [3].

(1) King : The Knights Hospitallers, p. p. 64-67.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج١ ص ٢٨٢ — ٢٨٣

(2) Thompson . op. cit, p. 407.

الحياة الاقتصادية

امتازت حياة الصليبيين فى بلاد الشام بنشاط اقتصادى واسع ، وإن كان الصليبيون أنفسهم لم يسهموا فى ذلك النشاط إلا بقسط ضئيل [1]. والمعروف أن معظم الأجزاء التى احتلها الصليبيون من الشام وأقاموا فيها مدة طويلة ، فقير مجدب ، حتى أنهم اضطروا عندما انكمشت رقعة بلادهم فى المدن الساحلية إلى استيراد القمح من خارج بلاد الشام . ومع ذلك فإن سفوح الجبال والمروج هيأت لهم مراعي طيبة ، فضلا عن بساتين الفاكهة ومزارع الزيتون والخضروات التى أحاطت بالمدن . ومن الثابت أن الصليبيين شرعوا فى تصدير بعض تلك الحاصلات مثل الزيتون والموالح إلى الغرب . أما قصب السكر فقد عرف الصليبيون زراعته فى الشام ، كما تعلموا استخراج السكر منه، فأقاموا مصانع للسكر فى عكا وصور وغيرهما من موانى الشام، ومنها صدروا السكر بكميات كبيرة إلى الغرب الأوربى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر [2]. كذلك صدر الصليبيون بالشام الأقمشة والملابس الحريرية والتيلية والمخمل إلى الغرب . واهتم اليهود فى المدن الصليبية — وبخاصة فى صور وأنطاكية — بإنتاج الزجاج وتصديره إلى غرب أوربا ، وإن تعرضوا فى هذه الصناعة لمنافسة شديدة من الزجاج المصدر من مصر .

وكان للملوك الصليبيين وأمرائهم دخل كبير من الرسوم التى فرضوها على تجارة المرور ، أى التجارة المارة ببلادهم من الشرق الأقصى إلى الغرب الأوربى، عن طريق بغداد ودمشق فعكا وغيرها من الموانى الصليبية . هذا فضلا عما فرضوه على البضائع الواردة إلى بلادهم والمصدرة منها إلى الغرب . ومن الواضح أن الجزء الأكبر من ذلك النشاط التجارى تركز فى قبضة التجار الإيطاليين، وبخاصة

(1) Longnon : op. cit, p. 141.
(2) Heyd : op cit, II, p. p. 680-686.

البنادقــة والبيازنة والجنوية ، وهم الذين امتلكوا أحياء بأكملها فى كثير من المدن الصليبية بالشام ، وأنشأوا فيها فنادق خاصة بتجارهم ، زودوها بــكل مايجعل الواحد منهم يشعر أنه يعيش فى بلده الأصلى(١) .

وقد برزت عكا بالذات فى النشاط التجارى للصليبيين ببلاد الشام ، وهـو النشاط الذى بلغ ذروته فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر. فابن جبير قال عن عكا عندئذ إنها « قاعدة الإفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام » وشبهها بالقسطنطينية فى كونها مجتمع السفن « وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق »(٢) . ذلك أن عكا كانت الميناء لطبيعى لإقليم دمشق ، وإليها يتجه التجار الوافدون من اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية إلى الشام . وقد حكى ابن جبير أنه سافر من دمشق سنة ١١٨٤ « فى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عــكة » ؛ وأشار إلى أن مثل هذه القوافل كانت كثيرة ، كما أظهر دهشته لسهولة الإجراءات المتعلقة بالمكوس(٣) . هذه إلى أن الحجاج الوافدين من غرب أوربا إلى الشام كانوا يفضلون عادة النزول بعكا بالذات ، ومنها يتجهون إلى بيت المقدس وغيرها من المراكز الصليبية فى الداخل .

ومع ذلك فإن صغر ميناء عكا وعجزه فى كثير من الحالات عن استقبال عدد كثير من السفن الكبيرة ، جعلها تتعرض لمنافسة شديدة من جانب ميناء صور ، فضلا عن الموانى الأخرى فى شمال الشام ، مثل اللاذقية والسويدية(٤) . وهنا نلاحظ أن هذه الموانى الصليبية لم تستقبل التجار المسلمين فحسب ، بل

(1) Richard : p. cit, I, p. 217-227.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٦ (طبعة بيروت) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 319-320.

استقبلت أيضاً فى عصر الحرب الصليبية كثيراً من التجار المسلمين ، وبخاصة من المغاربة الذين أتوا عن طريق البحر، وقاموا برحلات داخل الشام حتى دمشق بقصد المتاجرة[١] . وكان للتجار المسلمين خانات ينزلون بها فى الموانى الصليبية .

وأخيراً ، فإننا نلاحظ على النشاط الاقتصادى فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية عدة ملاحظات نوجزها فيما يلى : —

أولا : أن السلع التجارية التى كانت محوراً للتجارة عندئذ معظمها يدخل تحت باب الكماليات، مثل الأقمشة الشرقية الفاخرة والحجارة الثمينة والزجاج المزخرف والعاج والعطور وغيرها .

ثانياً : أن النقود المتداولة فى بلاد الشام عندئذ تنوعت وتباينت تباينا شديداً ، لايقل عن تنوع العناصر والأجناس التى اجتمعت فى تلك البلاد . فبالإضافة إلى العملات الغربية التى أحضرها معهم التجار والحجاج الوافدون من غرب أوربا ، ظلت النقود العربية الإسلامية والنقود البيزنطية متداولة أيضاً فى بلاد الشام طوال العصر الصليبى[٢] .

ثالثا : أن ملوك بيت المقدس لم يستفيدوا كثيراً من ذلك النشاط الاقتصادى المحيط بهم فى بلاد الشام . حقيقة إنهم فرضوا كثيراً من الضرائب على الصادرات والواردات ، وعلى القوافل المارة بأراضيهم ، فضلا عن الاحتكارات التى حاكى فيها ملوك بيت المقدس النظم البيزنطية[٣] . ولكن أولئك الملوك دأبوا دائما

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ .

وقد أظهر ابن جبير دهشته من أن التبادل التجارى يتم بين المسلمين والصليبيين رغم ما بينهما من حروب ، وأن القوافل تنتقل بين أراضى الطرفين فى سهولة ، فقال: « ومن أعجب ما يحدث فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين » .

انظر رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ (طبعة بيروت) .

(2) Thompson : op. cit, p. p. 404—405.

(3) Longnon : op. cit, p. 140.

على توزيع تلك المـوارد على الـكنيسة وهيئات الفرسان ، فـكان ربع الضريبة الفلانية يخصص لمساعدة الاسبتارية ، وربع المـكس الفلانى يخصص للداوية ، ودخل ميناء كذا يخصص للـكنيسة الفلانية أو الدير الفـلانى .... مما حرم الملـكية نفسها من ثروة طائلة . هذا وإن ظل ملوك بيت المقدس أوفر ثروة وأحسن حالا بـكثير من بعض ملوك الغرب الأوربى فى ذلك الوقت(١) .

الحياة الاجتماعية :

لعل الخلل الاجتماعي وعدم وجود انسجام بين الطبقات المختلفة التى تألف منها المجتمع الصليبى فى الشام ، كان من العوامل الرئيسية التى أدت إلى ما لحق بالصليبيين من فشل فى نهاية الأمر . ذلك أن الصليبيين الغربيين الذين عاشوا فى بلاد الشام ، ظلوا دائما قلة قليلة ، بعد أن عادت نسبة كبيرة ممن شاركوا فى الحملة الصليبية الأولى إلى بلادهم بعد فتح بيت المقدس ، فى حين تألفت الغالبية العظمى من سكان دولة الصليبيين بالشام من المسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . وإذا كانت الأقلية الغربية قد استطاعت أن تحتفظ بنفوذها السياسى فى بلاد الشام ، وتجعل من نفسها أرستقراطية حاكمة ، فإنها لم تستطع مطلقاً أن تحتفظ بعاداتها و تقاليدها وأصولها الغربية سليمة نقية ، وإنما اضطرت بحـكم قلة عددها وسط محيط شرقى واسع أن تفقد كثيراً من صفاتها الأصلية وتـكتسب الـكثير من التعديلات الجديدة(٢) .

ونستطيع أن نحدد الطبقات التى تألف منها مجتمع دولة الصليبيين بالشام على عصر الحروب الصليبية بما يأتى —

---

(1) Thompson : op. cit, I, p. 406.

(2) Richara : op cit, p. 122.

(١) الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ، وهؤلاء كانوا قلة إذ لم يزد عددهم فى مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال ، ومثل ذلك العدد أيضاً فى إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس مجتمعين. وقد ظلت الطبقة التى كان مفروضاً أن تظل بمثابة العمود الفقرى للمجتمع الصليبى بالشام — تعانى نقصا كبيراً فى العدد بسبب كثرة الضحايا فى الحرب، وقلة الوارد من الغرب(١) . حقيقة إن جموع الحجاج لم ينقطع وصولهم إلى الشام منذ سقوط بيت المقدس ،ولكن قليل من هؤلاء اختاروا الإقامة فى الشام بعد الحج، وكانت الغالبية العظمى منهم تؤثر العودة إلى غرب أوربا . ثم إنه إذا كان الصليبيون قد أنجبوا كثيراً من الأطفال فى الشام ، فإنه لم يعش من تلك الذرية سوى نسبة ضئيلة بسبب العوامل الجوية والصحية التى لم يألفوها . وأخيراً فإنه يلاحظ إنه إذا كانت هذه الأرستقراطية الصليبية الحاكمة قد ظلت نقية فى مملكة بيت المقدس ، فإن الأمر فى أنطاكية والرها لم يظل كذلك ، إذ تزوج بعض نبلاء الصليبيين وفرسانهم من الارستقراطية المحلية ، وبخاصة من عنصر الأرمن(٢) .

(٢) طبقة عامة المحاربين من الصليبيين ؛ وهؤلاء عبارة عن عامة الصليبيين الذين لم ينتموا إلى الفرسان والنبلاء ، والذين شاركوا فى الحركة الصليبية. وكان هؤلاء العامة من الصليبيين الغربيين يؤلفون فرق المشاة فى الجيش الصليبى ، واضطروا بعد استقرارهم بالشام إلى التزاوج مع المسيحيين الشرقيين المحليين — وبخاصة الأرمن — ؛ مما أدى قرب منتصف القرن الثانى عشر إلى ظهور طبقة جديده هى :

---

(1) Longnon : op. cit, p. p. 153 – 155.

(٢) وخير مثل لذلك ماسبق أن أشرنا إليه من زواج أمراء الرها — بلدوين الأول وجوسلين — من أرمنيات .

(٣) طبقة الأفراخ pullani : وهؤلاء نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين المحليين ،من أرمن وسريان وغيرهم . ومن الواضح أنه مع مرور الوقت حلت هذه الطبقة الجديدة محل الطبقة السابقة ، وقامت بدورها فى خدمة المجتمع الصليبي بالشام [1].

(٤) طبقة المسيحيين المحليين من أرمن وموارنة وبيزنطيين وسريان ويعاقبة وأقباط وغيرهم . وقد احتقر الصليبيون الغربيون هؤلاء المسيحيين الشرقيين عموما ، وأحسوا نحوهم بالكراهيه نتيجة للخلافات المذهبية . ولعله من الواضح أن فئة البيزنطيين أو اليونانيين كانوا أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين ، بسبب التخوف دائما من تآمرهم مع الإمبراطورية البيزنطية ضد مصالح الصليبيين . ومع ذلك فإن الصليبيين لم يطردوهم أو يقضوا عليهم — كما فعلوا مع اليهود — وإنما استبقوهم لمهارتهم اليدوية وقيامهم بالخدمات والأعمال الحقيرة،التى أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها . أما الأرمن فقد كانوا أحسن حالا ، وشجعهم ملوك بيت المقدس على الهجرة إلى أراضى المملكة ومدنها لتعميرها بعد أن هجرتها نسبة كبيرة من سكانها المسلمين . كذلك نسمع عن تولى الأرمن بعض الوظائف الهامة فى الدويلات الصليبية بالشام ، فضلا عما كان هناك من تزاوج بينهم وبين الصليبيين الغربيين [2] .

(٥) التجار الإيطاليون ، وهؤلاء تركزوا فى المدن الصليبية وبخاصة الموانى الساحلية، مثل يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وصور وبيروت وطرابلس وجبيل واللاذقية والسويدية . وقد ظل هؤلاء التجار يكونون طبقة مستقلة قائمة بذاتها،

---

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 315 - 316.

(2) Thompson : op. cit, pp. 398 – 399.

يتكلمون الإيطالية ، ولا يختلطون بغيرهم إلا فى نطاق المعاملات المالية والتجارية. ويشبه التجار الإيطاليين فى وضعهم تجار مرسليا فى عكا ويافا وصور وجبيل، وتجار برشلونة فى صور [١] .

(٦) المسلمون : وهم أهل البلاد الأصليون ،وسكان المدن والبلاد التى احتلها الصليبيون . ومع أن بعض تلك المدن هجرها أهلها من المسلمين عقب الغزو الصليبى ، إلا أنه لا يخفى علينا أن نسبة كبيرة من المسلمين ظلت قائمة وسط المجتمع الصليبى وتؤثر فيه [٢] . ومن أهم الجاليات الإسلامية التى ظلت باقية رغم احتلال الصليبيين لبلادها ، الجالية التى سكنت المنطقة الممتدة من بانياس إلى عكا ، والجالية القائمة فى حوض نهر العاصى وسهل البقاع . يضاف إلى هؤلاء قبائل البدو الرحل الذين ظلوا يتنقلون خلف المرعى من مكان إلى آخر ، معهم قطعانهم من المواشى ، وينتهزون أية فرصة مناسبة للانقضاض على قوافل الصليبيين وممتلكاتهم [٣] .

(٧) الرقيق والأقنان : كان لا يمكن للصليبيين بالشام أن يستغنوا عن الرقيق والأقنان ، بعد أن اعتادوا فى الغرب وجود تلك الطبقة ليعمل أفرادها فى فلاحة الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة . وكانت الغالبية العظمى من الرقيق فى الشام — على عصر الحروب الصليبية — من الأقنان . وإذا كانت أوضاع العبيد والأقنان قد أخذت تتحسن فى القرن الثانى عشر فى الغرب الأوربى ، وأصبح فى استطاعة كثيرين منهم أن يتحرروا ويمارسوا حقوقهم المشروعة فى الحياة [٤] ، فإن الوضع لم يكن كذلك ببلاد الشام . ذلك أن العبيد والأقنان

(1) Runciman : op. cit, II. p. 294.
(2) Richard : Le Royaume Latin. p. p. 123-124.
(3) Thompson : op. cit, p. 398.
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ، ج ٢ ص ٨٨ .

قاسوا الكثير من العنت بسبب تعسف الصليبيين وجورهم فى بلاد الشام ، مما جعلهم يترحمون على أيام الحكم الإسلامى(١) . وتنص قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية على أن « العبيد والفلاحين والأسرى كالمواشى يخضعون لقانون البيع والشراء ، وأن للسيد أن يفعل ماشاء بعبيده ! »(٢) .

* * *

هذا عن البناء الاجتماعى لدولة الصليبيين بالشام ، ومنه يتضح أن ذلك البناء تألف من طبقات متباينة معظمها غير متآلف مع بعضه البعض ، مما عاد بأوخم العواقب على الصليبيين . وكانت اللغة السائدة بين الصليبيين بوجه عام فرنسية الأصل وإن اختلفت لهجاتها ، فاستخدم الصليبيون فى أنطاكية ومملكة بيت المقدس اللهجة الشمالية من اللغة الفرنسية (Langue d'oeil) ، واستخدم الصليبيون فى إمارة طرابلس اللهجة الجنوبية من الفرنسية (Langue d'oc) أما الأقليات الأخرى التى وجدت داخل المجتمع الصليبى ، فاستخدم كل منها لغته الخاصة . ويشهد عصر الحروب الصليبية بالذات على انسياب بعض الألفاظ العربية فى اللغات الاوربية ، وهى ألفاظ اضطر الصليبيون إلى استخدامها بحكم البيئة(٣) .

أما العادات والتقاليد ، فإن تناقص أعداد الصليبيين الأصليين فى بلاد الشام جعل من المتعذر عليهم الاحتفاظ طويلا بعاداتهم وتقاليدهم ، الغربية(٤) . ويروى لنا أسامة بن منقذ كثيراً من غرائب أخلاق الصليبيين وعاداتهم وتقاليدهم ، وفى الوقت نفسه يحكى لنا كثيراً من القصص الطريفة التى تشهد على مدى تأثر الصليبيين

(1) Thompson : op. cit, I, p, 398.
(2) Besant, Palmer : Jerusalem. p. 226.
(3) Longnon : op. cit; p. p. 155—156.
(4) Runciman : op. cit, II, p. 291.

بالبيئة الشرقية ومحاكاتهم العرب فى كثير من عاداتهم[١] .

ولم يختلف نظام الأسرة وأواضاعها عند الصليبيين فى الشام عما كان عليه الوضع السائد فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى . وكل ما هنالك هو أن طبيعة الحرب الطويلة، ووجود عدد كبير من شباب الغرب الأعزاب الذين طال بعدهم عن بلادهم ، أدى أحياناً إلى شىء من الانحلال الخلقى بين الصليبيين بالشام. وقد ذكر أسامة بن منقذ بضعة ملاحظات على الصليبيين فى هذا الشأن فقال : أنه « ليس عندهم شىء من النخوة والغيرة » ، وقال إن الرجل منهم يمشى هو وامرأته عندما يلقاه صديق له فيأخذ المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج منتحياً بعيداً ينتظر فراغهما من الحديث « فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى ! ! »[٢] .

كذلك يبدو أن الأوضاع التى عاش فيها الصليبيون فى الشام أدت إلى ظهور عدة أمراض خلقيـة ، حتى انحرف بعضهم نحو الشذوذ الجنسى[٣] ، الأمر الذى جعلهم يلجـأون إلى فكرة جلب نساء من غرب أوربا وجزائر البحر المتوسط للترفيه عن الجند المحاربين . من ذلك مايرويه عماد الدين الكاتب والمؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعـكا سنة ١١٨٩ أن «وصلت فى مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر (جزر البحر) وانتدبن للجرائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وقصدن بخروجهن

---

(١) انظر ما كتبه أسامة بن منقذ عن « طبائع الإفرنج وأخلاقهم » . (كتاب الاعتبار ص ١٣٢ – ١٤١) .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٦ .

تسبيل أنفسهن للاسقياء ، وأنهن لا يمتنعن عن العزبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان ، وزعمن أن هـــذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة . . » [1].

---

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ١٨٤ ؟
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٩ .

الفصل الثانى

بلدوين الثانى ملك بيت المقدس

مشكلة الوراثة فى مملكة بيت المقدس :

لم يترك بلدوين الأول ملك بيت المقدس ولداً يرثه فى الملك ، ولم يعمل حساباً للموت فيوصى فى حياته بتعيين شخص معين يتولى عرش المملكة من بعده ، ليتفادى ما حدث فى أنطاكية بعد وفاة تنكرد . لذلك اجتمع أمراء المملكة ومعهم البطرق أرنولف مالكورن فى اليوم التالى لبحث مشكلة ملء العرش (1) .

وفى المؤتمر الذى عقده الصليبيون لبحث مشكلة عرش بيت المقدس ، اتجه الرأى أولا نحو استدعاء الأخ الثالث لجودفرى بوايون وبلدوين بوايون، وهو الأمير ايستاش البولونى (2) . ولكن البعض اعترض على ذلك الرأى ، ونادى المعترضون بأن أحوال المملكة تتطلب عدم انتظار وصول ذلك الأمير من فرنسا، فضلا عن أن المصلحة العامة قضت بأن يكون خليفه بلدوين الأول من الأمراء الذين عاشوا فى الوسط الصليبى بالشرق وأحسوا بإحساسات الصليبيين وخبروا حرب المسلمين . وهنا انبرى جوسلين دى كورتناى ينادى بأن هذه الشروط كلها متوافرة فى الأمير بلدوين دى بورج أمير الرها ، فضلا عن أنه ابن عم الملك الراحل ، والوحيد الذى ما زال على قيد الحياة من كبار الأمراء الذين شاركوا فى توجيه الحملة الصليبية الأولى (3) .

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 513 – 516.

(2) Ibid.

(3) Runciman, op. cit., II, p. p. 143 – 144.

وكان من المستغرب حقاً أن يأتى ذلك الترشيح من جوسلين دى كورتناى بالذات ، وهو الذى طرده بلدوين دى بورج من تل باشر . ولعل جوسلين رأى فى ذلك فرصة طيبة لاسترضاء بلدوين دى بورج وإزالة ما فى نفسه من رواسب الماضى[١] . ثم إن جوسلين دى كورتناى ، صار عندئذ أبرز أمراء مملكة بيت المقدس بوصفه أمير الجليل وطبرية ، فوجد رأيه أذناً صاغية من بقية زعماء الصليبيين ، وبخاصة البطرق أرنولف . وشاءت الصدف العجيبة أن يكون بلدوين دى بورج فى تلك الأثناء فى طريقه إلى بيت المقدس للزيارة والحج ، فتم تتويجه ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية فى كنيسة القيامة يوم ١٤ أبريل سنة ١١١٨[٢] .

ولم يعش أرنولف مالكورن بطرق بيت المقدس طويلا بعد تتويج بلدوين الثانى ملكا ، فحل محله البطرق جرموند Germond . أما جوسلين دى كورتناى فقد كافأه بلدوين الثانى على موقفه ووفائه بإعطائه إمارة الرها ، على أن يكون تابعاً له فى حكم تلك الإمارة[٣] .

وكان أن أخذ بلدوين الثانى يعمل بسرعة فى تثبيت سلطانه ، لا داخل مملكة بيت المقدس فحسب ، بل فى مختلف الامارات الصليبية ببلاد الشام وشمال العراق . وقد أتت أول عقبة واجهت الملك الجديد من جانب بونز أمير طرابلس ، الذى رفض سنة ١١٢٢ أن يقدم الولاء ويعترف بالتبعية الإقطاعية لبلدوين الثانى ملك بيت المقدس . ولكن بلدوين الثانى اتخذ موقفاً حازماً سريعاً ، لاسيما وأن أراتقة حلب غزوا إمارة أنطاكية — التى كانت عندئذ تحت وصاية بلدوين الثانى — فى الوقت نفسه الذى أعلن بونز عصيانه[٤] . وبذلك تمكن بلدوين الثانى من

(1) Michaud: Hist des Croisades II, p p. 56—57.
(2) Guillaume de Tyr, I, p. 519.
(3) Stevenson: op. cit, p. 106.
(4) Foucher de Chartres, p. p. 515—516.

إخضاع أمير طرابلس فى سرعة ليتفرغ للأرناقة ويردهم عن إمارة أنطاكية ، كما سيلى .

ثم إن بلدوين الثانى حرص فى تلك الأثناء على إنعاش الأحوال الاقتصادية فى مملكته ، فأصدر قراراً سنة ١١٢٠ بإعطاء جميع الغربيين — من التجار والحجاج والزوار الحرية فى نقل البضائع من المملكة وإليها ، كما سمح لجميع المسيحيين الشرقيين — من السريان والأرثوذكس والأرمن — بدخول بيت المقدس والمتاجرة فيها[1] .

الفرسان الاسبتارية والداوية :

وفى عهد بلدوين الثانى بدأ نشاط هيئات الفرسان يسترعى الانتباه فى الحروب الصليبية ، بعد أن تكونت هيئة الفرسان الداوية ، فى حين تحولت الاسبتارية من هيئة للعناية بمرضى الصليبيين وعلاجهم إلى منظمة عسكرية .

والواقع إن الهدف الأساسى من قيام هيئات الفرسان — وبخاصة الاسبتارية والداوية — بالشام على عصر الحروب الصليبية ، إنما كان العناية بمرضى الصليبيين ورعايتهم . ولكن هذا الهدف لم يلبث أن تحور بعد قليل ، فاتخذت تلك الهيئات طابعاً حربياً ، وصار عليها أن تدافع عن ممتلكات الصليبيين بالشام ، وتحمى أماكنهم المقدسة وتحارب المسلمين ، حتى جاء وقت أصبح فيه الداوية والاسبتارية هم حماة الكيان الصليبى بالشام[2] . وساعد تلك الهيئات على ذلك ماجمعوه من ثروة طائلة ، وما استولوا عليه من ممتلكات عديدة ، حتى صارت لهم مدن وحصون ومعاقل بأكملها ، يمتلكونها ويزودون عنها .

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p. p. 534—535.

(2) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p.I.

وثمة رأى يقول إن جذور هيئة الاسبتارية ترجع إلى ما قبل قيام الحروب الصليبية ، عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفى سنة ١٠٧٠ جمعية خيرية فى بيمارستان قرب كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، للعناية بفقراء الحجاج ، ومن ثم أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى Hospitallers التى حرفت بالعربية إلى اسبتارية [1] . ولم يلبث أولئك الاسبتارية أن دخلوا تحت لواء النظام الديرى البندكتى المعروف فى غرب أوربا ، وصاروا يتبعون البابا فى روما تبعية مباشرة. وعند وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وحصارهم لها ، قام أولئك الاسبتارية — بحكم درايتهم بأحوال البلاد — بتقديم مساعدات قيمة للصليبيين [2] . ومنذ ذلك الوقت أخذت هيئة الاسبتارية تتبلور ويصبح لها كيان ثابت مستقل ونظام خاص بها . وقد تعاقب فى رآسة تلك الهيئة بعض الرؤساء المصلحين الذين عملوا دائما على إكساب منظمتهم أهمية خاصة فى النشاط الصليبى [3]. وساعد الاسبتارية على ذلك حصولهم على كثير من الأراضى والإعانات ، فضلا عن أن كثيرا من كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الاسبتارية على النهوض برسالتهم . وهكذا لم تحل سنة ١١٣٧ إلا وكان للاسبتارية دور فعال فى محاربة المسلمين [4] .

أما هيئة الداوية فقد نشأت من أول الأمر على أساس عسكرى حربى . ويرجع تأسيس تلك الهيئة إلى سنة ١١١٨ عندما وضع أساسها فارس فرنسى اسمه هيو دى باينز Hugue de Payens . وقد اختار ذلك الفارس جزءا من هيكل سليمان فى المسجد الأقصى ببيت المقدس ليكون مقراً لمنظمته الجديدة ،

(1) Delaville Le Roulx : Les Hospitaliers en Terre Sainte en Chypre, p. 29.

(2) Guillaume de Tyr p. p. 822-823.

(3) King: op. cit, p. p. 19-23.

(4) Runciman: op. cit, II, p. 157.

ومن ثم أطلق على أتباعه أسم فرسان المعبد Templars ، التى حرفت فى العربية إلى الداوية [١]. ولم تلبث هذه الهيئة الجديدة أن تبلورت هى الأخرى، واتخذت طابعها الخاص ، فذهب رئيسها هيو إلى فرنسا وانجلترا لحث الفرسان على الانضمام لهيئته ، حتى أصبحت هيئة الداوية تضم نخبة ممتازة من الفرسان والنبلاء الذين جمعوا فى الأراضى المقدسة بين الحياة الدينية والحياة العسكرية . وكان أول عمل تعهد الداوية بالقيام به هو حماية الطريق بين بيت المقدس وشاطىء البحر ، ثم لم يلبثوا أن أسهموا فى كل عمل حربى آخر قام به الصليبيون فى بلاد الشام[٢] .

ولا شك فى أن تأسيس هيئة الداوية من جهة ، وتحول الاسبتارية إلى هيئة عسكرية من جهة أخرى ، قد هيأ لمملكة بيت المقدس قوة حربية دائمة ساعدتها فى تحقيق كثير من أغراضها . وقد حظيت تلك الهيئات بعطف الملك بلدوين الثانى ومساعدته ، مع أنها ظلت مستقلة عن سلطانه وتتبع البابوية ، لا تدين لغيرها بالولاء [٣]. على أننا نلاحظ أنه إذا كانت تلك الهيئات قد استطاعت أن تقوم بدورها كاملا فى أول الأمر ، فإنها لم تلبث أن تحولت عن مبادئها وأغراضها عندما ازدادت امتيازاتها وكثرت ثروتها وأخذت تتدخل فيما لا يعنيها. هذا إلى أنها أصبحت كنيسة داخل الكنيسة ، ولم يحجم رؤساؤها عن الدخول فى منازعات مع بطرق القسطنطينية نفسه [٤] .

التحالف بين دمشق والقاهرة :

وكان أخطر مايهدد مملكة بيت المقدس الصليبية منذ قيامها ، هو نشأة

---

(1) Grousset: Hist. des Croisades, I, p. 542.
(2) Guillaume de Tyr, p. 520—521.
(3) King op. cit, p. p. 31_32.
(4) Grousset: Hist. des Croisades, I, p. p. 544—545.

تحالف بين القاهرة ودمشق ، مما يوقع تلك المملكة بين شقى الرحى ، لذلك حرص بلدوين الثانى على أن يسترضى طغتكين فى دمشق ، وأرسل إليه عقب توليه عرش بيت المقدس يطلب تجديد الهدنة بين الطرفين ؛ ولكن طغتكين طلب ثمناً باهظاً لم يوافق عليه بلدوين الثانى « وأظهر القوة » . وكان رد طغتكين على ذلك بمهاجمة الصليبيين فى الجليل وطبرية « فنهبها وما حولها » ، ثم اتجه إلى عسقلان (١) .

وفى ذلك الوقت كان الوزير الأفضل الفاطمى قد قام بمحاولة جديدة ضد الصليبيين ، فحشد جيوشه فى عسقلان وأرسل أسطوله إلى صور . وقد تمت تلك المحاولة التى قام بها الأفضل الفاطمى لضرب الصليبيين بعد اتفاق مع طغتكين الذى حضر بنفسه إلى عسقلان لقيادة القوات المشتركة ، وعندئذ أخبره المقدم على الجيش الفاطمى أن لديه تعليمات « بالوقوف عند رأى طغتكين والتصرف على ما يحكم به » . وهكذا تمت المعجزة ، فتحالف الدماشقة السنيون مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين ، مما أنذر بتهديد مملكة بيت المقدس تهديداً خطيراً (٢) .

ولم يسع الملك بلدوين الثانى فى ذلك الموقف الحرج سوى الاستنجاد بالصليبيين فى أنطاكية وطرابلس ، ثم رابط الملك نفسه شمالى عسقلان حيث تجمد الموقف بين الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ، عاد بعدها كل فريق من حيث أتى (٣) . واختار بلدوين الثانى ألا يترك تلك الأزمة تمر دون أن يثأر من طغتكين ، فأغار على أذرعات ، واستولى على بعض المواقع شمالى عال وشرقى طبرية ، مثل حصن الحبس المعروف بحصن جلدك (٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٢ هـ .

(2) Setton: op. cit, I, p p. 411—412.

(3) Foucher de Chartres, p p. 617—619. & Guillaume de Tyr, p. p. 518—519.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ .

وفى الوقت نفسه قام جوسلين دى كورتناى — الذى لم يكن قد سافر بعد إلى الرها — بالإغارة سنة ١١١٩ على قبائل العرب فى منطقة طبرية ، مثل بنى خالد وبنى ربيعة « فكبس طايفة طى ويعرفون ببنى خالد فأخذهم وأخذغنايمهم، وسألهم عن بقية قومهم وأخبروه أنهم بوادى السلالة » . وقد أسرع جوسلين على رأس خمسين فقط من فرسانه للحاق بذلك النفر من الأعراب فى وادى السلالة لنهب قطعانهم . ولكن جوسلين ضل الطريق « فسار على طريق آخر » ، وعندئذ أحاط بهم العرب وطعنوا خيولهم ، فقتل من الصليبيين سبعون عدا الأسرى . أما جوسلين فاتجه إلى طرابلس حيث جمع بعض القوات أغار بها على عسقلان ، ولكن المسلمين هزموه « فعاد مذلولا »[١] .

موقعة البلاط سنة ١١١٩ — مقتل روجر الأنطاكى :

رأينا كيف اختلت أحوال إمارة حلب بعد وفاة ملكها رضوان سنة ١١١٣ ، إذ حكم بعده ابنه ألب أرسلان مدة قصيرة ، حتى قتل فى سبتمبر سنة ١١١٤ ؛ وعندئذ تولى بدر الدين لؤلؤ البابا الوصاية على الإمارة (١١١٤ — ١١١٧) ؛ وبعده تولى يارقتاش ، ثم ابن الملحى . ولم تكد تحل سنة ١١١٨ حتى كانت حلب قد صارت تحت رحمة النورمان فى أنطاكية ، الأمر الذى جعل الحلبيين يتجهون نحو إيلغازى الأرتقى طالبين حمايتهم من روجر الأنطاكى .

ولم يلبث أن استولى روجر على بزاع سنة ١١١٩[٢] وبذلك صارت حلب محاصرة من نواح ثلاث ، وهو أمر لم يحتمله الحلبيون أو إيلغازى نفسه . لذلك حشد إيلغازى جيوشه من التركمان فى أبريل سنة ١١١٩ ، وانضم إليه

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٣ هـ

(٢) المرجع السابق .

بعض الأمراء — مثل أسامة بن المبارك بن شبل الكلابى ، والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وأرزن ، وغيرهم[١] . كذلك يرجح أن إيلغازى طلب المعونة من السلطان محمود السلجوقى — الذى خلف أباه محمد عند وفاته سنة ١١١٨ — ، ولكنه لم يلق رداً ؛ فى حين رضى طغتكين صاحب دمشق أن يذهب بنفسه لمساعدته ، كما أعلن أبو العساكر سلطان بن منقذ — أمير شيزر — استعداده لمهاجمة إمارة أنطاكية من الجنوب[٢] .

وقد اختار إيلغازى أن يتجه على رأس القوات المتحالفة إلى الفرات أولا ، فهاجم تل باشر والرها ، ثم عبر الفرات عند بالس واتجه إلى قنسرين لينقذ حلب التى لم تفتأ تستغيث به . وكانت قوة الجيش الإسلامى عندئذ تبلغ أربعين ألفاً ، ومع ذلك استخف روجر الأنطاكى بأمر المسلمين ، لولا أن حثه برنارد بطرق أنطاكية على طلب النجدة العاجلة من بلدوين الثانى ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس . وقد أرسل ملك بيت المقدس من طبرية يفيد روجر أنه سيحضر على وجه السرعة ومعه أمير طرابلس ، وفعلا خرج الملك بلدوين الثانى على رأس جيش بيت المقدس ومعه صليب الصلبوت قاصداً الشمال[٣] .

على أن روجر الأنطاكى لم ينتظر وصول الملك بلدوين الثانى إليه ، وإنما تعجل فى الخروج — ٢٠ يونية — لصد المسلمين ومعه قوة بلغت سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى جسر الحديد على نهر العاصى ، قرب أرتاح . وكان أن علم إيلغازى — عن طريق عيونه — بضعف قوة روجر ، فرأى أن يستغل الفرصة ويعاجله بالهجوم قبل وصول النجدات إليه . وفعلا تقدم إيلغازى من قنسرين صوب الجيوش الصليبية فى أواخر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠ .

(3) Gautier Le Changelier, II, p. p. 100 - 101.

يونيه ، حيث دارت موقعة البلاط فى سهل قريب من أرتاح فى ٢٨ يونيه ، وهى الموقعة التى انتهت بتدمير الجيش الصليبى أولا عن آخر « وأخذهم بالسيف من سائر نواحيهم » ، فى حين خر روجر الأنطاكى نفسه (سرجال) صريعاً فى المعركة [١] . وقد بلغ من كثرة قتلى الصليبيين أن أطلقوا على السهل الذى دارت فيه المعركة اسم « ساحة الدم » (Ager Sanguinis) .

وكان لذلك النصر رد فعل قوى عند المسلمين والصليبيين جميعاً . ولا عجب ، فالموقعة فى حقيقة أمرها قررت مصير حلب ، فإما أن تبقى فى قبضة المسلمين وأما أن يسلمها الصليبيون ، لذلك جاءت فرحة المسلمين بالنصر عظيمة ، فنظم شعراؤهم القصائد فى مدح إيلغازى ، وأرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسى الخلع « وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج » [٢] . والواقع أن إيلغازى كان يستطيع بعد ذلك النصر المبين أن يجنى ثماراً كثيرة لا سيما وأن الطريق إلى أنطاكية صار مفتوحاً أمامه . ولو أسرع إيلغازى إلى أنطاكية عندئذ « لما امتنعت عليه » على قول ابن العديم [٣] .

أما بالنسبة للصليبيين ، فإن الكارثة التى حلت بهم كانت فادحة . ويكفى أن إمارة أنطاكية ـ وهى الباب الشمالى للأملاك الصليبية ببلاد الشام ـ صارت فجأة بلا أمير ولا فرسان ولا جيش ، فى الوقت الذى أخذ المسيحيون المحليون ـ السريان والأرمن والأرثوذكس ـ يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين [٤]

(١) ابن العديم : زبدة الحلب & (p. p. 616 - 618)
Guillaume de Tyr, p. p. 525 - 526.

(٢) ابن الأثير : حوادث سنة ٥١٤ هـ .
ومما قاله الشعراء المعاصرون فى مدح إيلغازى فى تلك المناسبة قول العظيمى :

قل ما تشاء وقولك المقبول ... وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكى لفقد رجاله الإنجيل

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III. p. 219 - 220)

(4) Stevenson : op. cit, p 104.

ويرجع الفضل إلى بطرق أنطاكية عندئذ – وهو برنارد دى ڤالنس — فى رعاية شئون المدينة وحراسة تحصيناتها ، حتى حضر الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس[(١)] . وكان أن وجد الملك إمارة أنطاكية ، فى حال يرثى له ، بعد أن اجتاح الأتراك أراضيها ودمروا ضواحيها . ولم يكد الملك بلدوين الثانى يتسلم الوصاية على إمارة أنطاكية لحين وصول بوهيموند الثانى ابن بوهيموند الكبير مؤسس الإمارة من الغرب — حتى أخذ يعمل بسرعة لتنظيم الأمور وإعادة الثقة إلى الأهالى وإعداد العدة لصد المسلمين[(٢)] .

وكان إيلغازى الأرتقى قد ازداد قوة بعد أن انضم إليه طغتكين أتابك دمشق ، فاتجه الإثنان لمحاصرة الأثارب حتى سقطت فى أيديهما (أغسطس سنة ١١١٩) ؛ ثم اتجها بعد ذلك إلى زردنا التى استسلمت أيضاً بعد مقاومة عنيفة . وفى ١٤ أغسطس سنة ١١١٩ دارت المعركة عند دانيث بين المسلمين والملك بلدوين الثانى وانتهت المعركة بهزيمة إيلغازى وطغتكين ، وإن كان انتصار الصليبيين غير حاسم[(٣)] . وبعد ذلك عاد إيلغازى وطغتكين إلى حلب ومعهما عدد كبير من الأسرى ، وهناك أشاعا أنهما انتصرا على الأعداء ، كما انتقما بقتل من بقى من أسرى المعركة السابقة الذين كانوا بحلب[(٤)] .

وقبل أن يستأنف بلدوين الثانى حرب الأتراك ، استرد قلعة علاروز غربى البارة ، وكفر طاب وسرمين ومعرة مصرين من المسلمين ؛ وكان المسلمون قد

---

(1) Gautier Le Changelier, p. 115.

(٢) يذكر ابن العديم عن الإجراءات السريعة التى اتخذها الملك بلدوين الثانى عندئذ فى أنطاكية أنه « قبض على أموال القتلى ودورهم وأخذها ، وزوج نساء القتلى بمن بقى ، وأثبت الخيل ، وجمع وحشد واستولى على أنطاكية ... »

ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. 619 - 620)

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. p. 620 - 622) & Gautier, p. 123

(٤) المرجع السابق .

انتهزوا فرصة الكارثة التى حلت بروجر الأنطاكى واستولوا عليها[١] . وبعد ذلك عاد بسرعة إلى أنطاكية لينظم أمورها ثم قفل راجعاً إلى بيت المقدس[٢] .

على أن الأراتقة لم يخلدوا لهزيمتهم السابقة ، وإنما أخذ إيلغازى يجدد هجماته على الصليبيين منذ أواخر مايو سنة ١١٢٠ ، فاجتاح كل المنطقة بين تل باشر وكيسوم (كيسون) حيث قتل كثيراً من الأعداء وخرب ضياعهم وقراهم ، رغم المقاومة الشديدة التى أبداها جوسلين دى كورتناى[٣] . ثم غادر إيلغازى إقليم سميساط وتل باشر ليستولى على عزازمن إمارة الرها . وعنداقتراب إيلغازى من أنطاكية هرب كثير من أهلها ، وأرسلوا إلى الملك بلدوين الثانى يطلبون النجدة السريعة ، فخف الملك لنجدتهم ومعه صليب الصلبوت فى يونية سنة ١١٢٠ . وبعد أن انضم إليه جوسلين دى كورتناى ، خرج الملك على رأس القوات الصليبية إلى دانيث لملاقاة الأتراك[٤] .

وفى تلك المرة أيضاً حضر طغتكين من دمشق لمساعدة إيلغازى ، ولكن اشتباكاً بين الطرفين لم يحدث ، إذ انتقل بلدوين الثانى إلى الشمال لاسترداد الأجزاء التى استولى عليها إيلغازى فى العام السابق حول زردنا والأثارب ، فى حين تحرك إيلغازى وطغتكين صوب حلب[٥] . وكان أن انتهى الموقف بين بلدوين الثانى وإيلغازى بعقد هدنة اعترف فيها إيلغازى بحق إمارة أنطاكية فى الاحتفاظ بممتلكاتها شرقى نهر العاصى ، وهى من الجنوب إلى

---

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٩ — ١٢٠ .

ابن العديم (p 623)

(2) Setton : op. cti, I, p. 414.

(3) Matthieu d'Edesse, p. 127. &

ابن العديم (p. 623 - 624)

(4) Foucher de Chartres. p. 445 - 446.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب & (III, p p. 624 - 625)

Foucher de Chartres, p. 446.

الشمال كفرطاب ومعرة النعمان والبارة وغيرهـا [١] . وبذلك يكون بلدوين الثانى قد حقق نجاحاً كبيراً للصليبيين بدون حرب ، وبعد ذلك قفل راجعاً إلى بيت المقدس .

على أن العداء لم ينقطع بين الأراتقة والصليبيين رغم الهدنة السابقة، إذ دأب حاكم منبج الأرتقى على الإغارة على أراضى الرها، مما جعل جوسلين دى كورتناى يرد عليه بالإغارة على أراضى منبج وإقليم صفين على الضفة الغربية للفرات [٢] . بل إنه أوغل فى مايو سنة ١١٢١ حتى خرب بزاعه وهاجم الأثارب إلى الجنوب الشرق من حلب ، وأحدث مذبحة ضخمة فى أهلها من المسلمين ، وعندئذ عهد إيلغازى إلى ابنه سليمان حاكم حلب بعقد الصلح مع الصليبيين والتنازل لهم عن بعض المناطق القريبة من حلب [٣] .

وفى تلك الأثناء لم تنقطع الاشتباكات بين طغتكين أتابك دمشق وبلدوين الثانى ملك بيت المقدس فى صيف سنة ١١٢١ فى منطقة الجليل والجولان وجبل عجلون [٤] . أما الأمير إيلغازى فقد أحاطت به المتاعب عندما أعلن ابنه سليمان عصيانه وخروجه عن طاعة أبيه ، ثم عقد صلحا مع الصليبيين أعطاهم بمقتضاه زردنا والأثارب ، وهى الثمار التى حصل عليها إيلغازى من انتصاراته الأخيرة [٥] وقد أفزعت تلك الأخبار إيلغازى، فأراد أن يعاقب ابنه ويسترد زردنا والأثارب.

---

(١) المرجع السابق .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. 627)

(4) Guilaume de Tyr p. 535. & Foucher de Chartres, d. 446.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٥ هـ .

ابن العديم : زبدة الحلب (P. 629)

المشرق الأدنى في النصف الأول من القرن الثاني عشر

سلاجقة الروم
قونية
سيواس
إمارة الرها
الرها
مارديں
نصيبين
الموصل
كيفا
الرقة
حلب
ملك الزنكيين
العباسية
بغداد
أرمينيا الصغرى
المصيصة
أنطاكية
السويدية
اللاذقية
المرقب
حماه
حمص
قبرص
البحر المتوسط
طرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
قيسارية
يافا
الرملة
عسقلان
دمشق
الكرك
الشوبك
العريش
الفرما
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
الخلافة الفاطمية
١٠٩٨
١١٤٤
١١٠٩

وفعلا شرع فى مهاجمة زردنا ، مما تطلب عودة الملك بلدوين الثانى إلى شمال الشام فى صيف سنة ١١٢٢ .

على أنه لم يحدث صدام مسلح عندئذ بين إيلغازى و بلدوين الثانى ، فعاد الأخير إلى بيت المقدس فى سبتمبر سنة ١١٢٢ بعد أن خلص زردنا من الحصار دون إراقة دماء (١) . أما فى الجزيرة فقد ظلت كفة الصليبيين راجحة فى تلك الفترة، حتى وقع جوسلين دى كورتناى أمير الرها فى قبضة بلك غازى بن بهرام الأرتقى صاحب خرتبرت فى ١٣ سبتمبر سنة ١١٢٢ ، مما أساء فجأة إلى موقف الصليبيين (٢) . وإذا كان بلدوين الثانى قد قام بالوصاية على أنطاكية بعد مقتل أميرها منذ ثلاث سنوات ، فإن ملك بيت المقدس لم يجد بداً من القيام بالوصاية أيضاً على الرها عند أسر جوسلين سنة ١١٢٣ .

ولم تلبث إمارة الأراتقة أن تمزقت بعد ذلك عند وفاة عاهلها إيلغازى فى أوائل نوفمبر سنة ١١٢٢ ، فأخذ ابنه شمس الدولة سليمان ميافارقين — أى الجزء الشمالى من ديار بكر ، وأخذ ابنه الثانى تمرتاش ماردين والجزء الجنوبى

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 633)
ويلاحظ أنه على الرغم من تفوق إيلغازى فى حروبه ضد الصليبيين ، إلا أنه كان لا يصبر طويلا على حروبهم ، وإنما يتعجل فى الصلح والمودة . ويعلل ابن الأثير ذلك بأن جيوش إيلغازى كانت مؤلفة من التركمان المرتزقة الذين يبغون الغنيمة السريعة «فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق وشاه ، ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود ؛ فاذا طال مقامهم تفرقوا . ولم يكن له (ايلغازى) من الأموال مايفرقها فيهم » .
(الكامل ؛ حوادث ٥١٤) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (p 634) &
Matthieu d'Edesse, p. 131.
ويروى ابن الأثير أن المسلمين عندما أسروا جوسلين وضعوه فى جلد جمل «وخيط عليه» وطلب منه أن يسلم الرها فرفض وعرض الأموال الطائلة لفداء نفسه . ولكن المسلمين رفضوا اطلاق سراحه وحملوه الى قلعة خرتبرت ومعه ابن خالته وليم (كليام) « وجماعة من فرسانه المشهورين » . (الكامل ، حوادث سنة ٥١٥) .

من ديار بكر . أما بلك بن بهرام الأرتق — وهو ابن أخ إيلغازى — فقد احتفظ بمنقطة خرتبرت فى الشمال وأضاف عليها حران فى الجنوب ، فى حين آلت حلب إلى بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وهو ابن أخ آخر للامير إيلغازى [١] .

وقد حاول الملك بلدوين الثانى أن يستفيد من تفسكك دولة الأراتقة، فخف إلى شمال الشام حيث غزا إقليم بزاعه إلى الشمال الشرقى من حلب ، وهاجم بالس إلى الجنوب الشرقى من حلب على الفرات ، واستولى على البيرة شرقى حلب ، وبذلك أصبحت حلب شبه محاصرة تماماً بممتلكات الصليبيين وقواتهم [٢] . ولما وجد سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب أن الصليبيين « قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق ... ولم يكن له بالفرنج قوة وخافهم » فكر فى مهادنتهم ، وطلب الصلح من بلدوين الثانى فى أبريل سنة ١١٢٣ مقابل رد الأثارب — إلى الجنوب الغربى من حلب — إلى إمارة أنطاكية ، « واستمرت الموادعة على هذا واستقامت أحوال الأعمال من الجانبين » [٣] . وبذلك يكون بلدوين الثانى ملك بيت المقدس قد نجح فى أقل من أربع سنوات فى إعادة حدود إمارة أنطاكية إلى ما كانت عليه سنة ١١١٨ .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 632 - 634)

(2) Setton : op. cit, I, 418.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٩ ؟

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .

ويذكر ابن العديم عن ذلك الصلح : « فصالحوهم على سرمين والجزر وليلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج وما حول حلب للفرنج منه النصف حتى إنهم ناصفوهم فى رحا العربية . وعلى أن يهدم تل هراق بحيث لايبقى للفئتين فيه حكم ؛ وطلبوا الأثارب ، فأجاب ايلغازى الى ذلك ... »

ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p.627) &

وقوع بلدوين الثانى فى الأسر :

ثم كان أن قام بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بمحاولة لفك أسر جوسلين دى كورتناى الذى كان لا يزال حبيس بلك الأرتقى فى خرتبرت[١] . ولكن شاءت الظروف أن يقع الملك بلدوين الثانى نفسه أسيراً فى ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ أثناء قيامه بتلك العملية ، إذ انقض عليه بلك فجأة عند موضع اسمه أورش بالقرب من قنطرة سنجه ، وحمل الملك أسيراً إلى قلعة خرتبرت ليأتنس به جوسلين فى وحدته[٢] . ومن الواضح أن أسر الملك بلدوين الثانى جاء خسارة كبرى للصليبيين بالشام ، وإن كانت الأمور فى مملكته استمرت على وضعها الطبيعى بعد أن اختير إيستاش جرنيه Eustache Grenier ـ صاحب قيسارية وصيدا ـ للوصاية على مملكة بيت المقدس ، والبطرق برنارد دى فالنس للوصاية على أنطاكية[٣] . وعند وفاة إيستاش فى يونيه ١١٢٣ ، حل محله فى الوصاية وليم دى بور .

أما بلك فيكفيه فخراً عندئذ أنه كان يمسك فى قبضته ملك بيت المقدس وأمير الرها ، الأمر الذى جعله يشعر بالزهو والذى دفعه إلى التفكير فى توحيد ملك الأراتقة من جديد . وكان أن استولى بلك على حران ثم أسرع إلى مهاجمة حلب لانتزاعها من ابن عمه سليمان ، ونجح فى تحقيق ذلك فى ٢٦ يونيو سنة

---

(١) يذكر ابن الأثير أن الغرض من خروج الملك بلدوين لم يكن إطلاق سراح جوسلين من الأسر؛ وإنما الحد من نفوذ بلك بن بهرام الذى حاصر قلعة كركر قرب خرتبرت؛ فاسرع اليه بلدوين «خوفاً أن يقوى بملكها» .

(الكامل؛ حوادث سنة ٥١٧هـ)

(1) Matthieu d'Edesse, p. 133 &

ابن العديم زبدة الحلب (p. 635)

(2) Guillaume de Tyr, p. 538. &
Foucher de Chartres p. 450.

١١٢٣[١]. ومن ذلك المركز الجديد أخذ بلك يهاجم أنطاكية ، فاستولى على البارة غربى معرة النعمان ، ثم اتجه لحصار كفر طاب عندما سمع فى ٧ أغسطس أن بلدوين الثانى وجوسلين دى كورتناى قد استوليا على قلعة خرتبرت بمساعدة المسيحيين فى تل باشر[٢].

ذلك أن جوسلين بالذات كان محبوباً من الأرمن ، لا لزواجه من أميرة أرمينية فحسب ، وإنما لأنه أحسن إليهم وأكرم معاملتهم ولم يفعل بهم مثلما فعل سلفه بلدوين الثانى من اضطهاد وتنكيل . وكانت خرتبرت نفسها تقع فى منطقة أرمينية ، مما جعل الأرمن يدبرون مؤامرة للاستيلاء على القلعة وإطلاق سراحه[٣] . وفى الوقت الذى أخذت الخطة تسير بنجاح إذا بالأمير بلك يعود إلى خرتبرت فجأة ، ولكن بعد أن كان جوسلين قد استطاع الفرار ، وبذلك لم يبق سوى الملك بلدوين الثانى الذى وقع فى أسر غريمه من جديد (سبتمبر ١١٢٣)[٤] .

وكان المفروض أن يعمل جوسلين على جمع الجيوش لإطلاق سراح بلدوين، لا سيما وأن بقية الأسرى فى خرتبرت « حلفوه على أنه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلا وقت القربان ، إلى أن يجمع الجموع الفرنجية ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلصهم » . ولكن بلك احتاط للأمر ، فنقل الملك بلدوين وبقية الأسرى من خرتبرت إلى قلعة حران ليكونوا بعيداً عن منال الصليبيين[٥] .

(١) يذكر ابن الأثير أن سبب شروع بلك بن بهرام فى الاستيلاء على حلب هو استيلاؤه من صاحبها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ، لأنه سلم قلعة الأثارب إلى الفرنج « فعظم ذلك عليه ، وعلم عجزه عن حفظ بلاده فقوى طمعه فى ملكها » .
(الكامل ، حوادث سنة ٥١٧ هـ).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or, III, p. 636)

(3) Runciman : op. cit, II. p. 163 – 164.

(4) Foucher de Chartres, p. 457.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. p. 637)

أما جوسلين دى كورتناى ، فإن أسره ثم فراره ، جعله يتطرف فى الانتقام من المسلمين ، فخرج من تل باشر على رأس رجاله صوب حلب ، واستمر طوال الطريق ينهب ويدمر ويحرق ما يصادفه من قرى المسلمين وضياعهم ، حتى قبورهم لم تسلم من عبثه[1] . وهكذا استمر جوسلين دى كورتناى يحمل عبء محاربة المسلمين فى شمال الشام بوجه عام وإقليم حلب بوجه خاص ، طوال المدة التى قضاها بلدوين الثانى فى الأسر . وقد اضطر بلك إلى العودة إلى حلب فى أوائل سنة ١١٢٤ ، حيث عقد تحالفاً مع طغتكين أتابك دمشق .

ثم كان أن شغل بلك بعد ذلك بأمر منبج ، فقبض على صاحبها حسان البعلبكى وحصرها ، وعندئذ سار « الفرنج إليه ليرحلوه عنها لئلا يقوى بأخذها » ولكن بلك تغلب على الفرنج وطردهم . ثم عاد إلى منبج ليستأنف الحصار ، وعندئذ أصابه سهم طائش قتله فجأة فى ٦ مايو سنة ١١٢٤ ؛ فخلفه فى حكم حلب ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق . ويصف ابن الأثير الأمير تمرتاش هذا بأنه كان « رجلا يحب الدعة والرفاهية » ، فآثر أن يترك حلب ويقيم فى ماردين « لأنه رأى الشام كثير الحروب مع الفرنج[2] » .

الفاطميون ومملكة بيت المقدس :

اختار الفاطميون أن ينتهزوا فرصة أسر الملك بلدوين الثانى لمعاودة الهجوم على الصليبيين ، وذلك بتحريض من طغتكين وآقسنقر البرسقى . وكان أن حشد الفاطميون فى مايو سنة ١١٢٣ حملة كبيرة فى عسقلان اتجهت لحصار يافا ، فى

---

(١) روى ابن العديم أن جوسلين نبش الضريح الذى بمشهد الدكة فلم يجد فيه شيئاً فألقى فيه النار : زبدة الحلب (III, p. p. 638-639)

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

الوقت الذى خرج الأسطول الفاطمى لمهاجمته من ناحية البحر[1]. وكانت الحامية الصليبية فى يافا صغيرة ، فاشترك نساء الصليبيين مع رجالهم فى الدفاع . وفى الوقت الذى أوشكت يافا على التسليم ، إذا بنجدة صليبية تأتى لإنقاذها ، مما جعل القوات الفاطمية تنسحب إلى يبنا ، على الطريق بين يافا وعسقلان[2]. وفى المعركة التى دارت فى ٢٩ مايو سنة ١١٢٣ عند يبنا بين الفاطميين والصليبيين، هزم الفاطميون وولوا الأدبار ، واقتفى أثرهم الصليبيون يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل إلى أيديهم[3] .

وفى تلك الأثناء ساء موقف مدينة صور بسبب تعرضها لهجمات الصليبيين بين حين وآخر ، فى الوقت الذى كانت الدولة الفاطمية عاجزة عن إرسال قوة برية كبيرة تحميها من الأخطار . وقد سبق أن ذكرنا كيف اتجه أهالى صور نحو طغتكين أتابك دمشق ، الذى أرسل إليهم سنة ١١١٢ أحد رجاله — واسمه مسعود — « ومعه من يعتمد عليه من العسكر » وقدر كاف من المال والعتاد والميرة[4] . ولم يكن معنى ذلك خروج صور من قبضة الفاطميين، إذ ظل الدعاء للخليفة الفاطمى فى المساجد ، كما استمرت السكة تضرب باسمه فى صور ؛ وكل ما هنالك هو أن الوزير الأفضل قبل مساعدة طغتكين على ذلك الوجه لإنقاذها من السقوط فى يد الصليبيين[5] .

ولكن موافقة الوزير الأفضل الفاطمى على السماح لقوة من قبل طغتكين ـ وهو الأتابك السنى ـ باحتلال صور ، أثار غلاة الشيعة فى مصر ، مما أدى إلى

(1) Setton : op. cit, I, p. 421.
(2) Foucher de Chartres, p. p. 450-451.
(3) Stevenson : op cit; p. 114.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 599.
(٥) « وأجروا على الرسم فى إقامة الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر، ولم يغير لهم رسم». [ابن القلانسى: ص ١٨٢].

مقتل الأفضل فى أحد شوارع القاهرة فى ٢١ ديسمبر سنة ١١٢١ بيد بعض الباطنية . ويقال إن الباطنية كانوا « يكرهون الأفضل لأسباب منها تضييقه على إمامهم » ؛ وإن كان يغلب على الظن أن الخليفة الفاطمى الآمر كانت له يد فى مقتل الأفضل للتخلص من سطوته من ناحية ، وطمعا فى ثروته من ناحية أخرى[١] .

ويذكر ابن القلانسى أن أهل صور شكوا عندئذ إلى الخليفة الفاطمى من سوء سيرة مسعود « وما يعتمده مع الرعية من الأضرار لهم والمخالفة للسادة » . ولذلك أرسل الخليفة الآمر أسطولا إلى صور سنة ١١٢٢ لعزل الحاكم الدمشقى مسعود ، فقبض عليه وأحضر إلى القاهرة حيث « أكرم وانزل فى دار وأطلع له ما يحتاج إليه »[٢] . وقد انتقد المؤرخ أبو المحاسن الفاطميين فى ذلك التصرف، لأنه حرم صور من الرجل القوى الذى «فعل مافعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة » . أما الصليبيون فقد ارتاحوا لخروج مسعود وشددوا هجماتهم على صور ، فأرسل واليها إلى مصر يخبر الخليفة الفاطمى أنه لا قبل له بالدفاع عن صور لقلة النجدة والميرة ، فرد عليه الخليفة الآمر قائلا : « قد رددنا أمرها إلى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها» ؛ فكان هذا الرد اعترافا من الدولة الفاطمية بعجزها عن حماية صور وتنازلها عن تلك المهمة لطغتكين[٣] .

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الأوضاع أتاحت فرصة طيبة للصليبيين ليستغلوا الموقف السيىء الذى أمست فيه صور من ناحية ، والشقاق بين دمشق

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٥ هـ .
ويروى ابن الأثير أنه « لما توفى الأفضل نقل من أمواله ما لا يعلمه الا الله ، وبقى الخليفة فى داره نحو أربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلا ونهاراً ... »
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١١ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

والقاهرة من ناحية أخرى «فتحرك طمعهم فيها وحدثوا نفوسهم بتملكها وشرعوا فى الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لها». وفى الوقت الذى أخذ طغتكين يعزز حامية صور «ويرتب بها من الجند وغيرهم ما ظن أن فيه الكفاية»(١)، بدأ الصليبيون – بمساعدة الأسطول البندقى – يوجهون جهودهم ضد تلك المدينة بالذات.

البنادقة فى الشرق: سقوط صور:

وكان ذلك عقب موقعة البلاط التى قتل فيها روجر الأنطاكى سنة ١١١٩ عند ما أرسل الملك بلدوين الثانى إلى البندقية طالبا المعونة ضد المسلمين، أو على وجه التحديد ضد الفاطميين، الذين كانوا يسيطرون على شواطىء الشام. وقد أيد البابا طلب ملك بيت المقدس، وحث البندقية على المساهمة فى مساعدة الصليبيين، مما جعل دوج البندقية يعد حملة كبيرة من ثلثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جنديا للرحيل إلى الشام. هذا وإن كان الإعداد النهائى لتلك الحملة لم يتم إلا بعد مرور ثلاث سنوات، أى فى صيف سنة ١١٢٢(٢).

ولكن سوء حظ الصليبيين شاء أن تشتعل نار الحرب بين البندقية والإمبراطورية البيزنطية عندئذ، مما جعل البنادقة يوجهون حملتهم الصليبية ضد البيزنطيين، فهاجموا جزيرة كورفو وقضوا فى حصارها ستة أشهر، فى الوقت الذى أخذ الصليبيون فى الشام ينتظرون وصول النجدة الموعودة(٣). وأخيراً وقع الملك بلدوين الثانى فى الأسر – فى ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ – فأرسل الصليبيون

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

(2) Heyd : op. cit, I, p. 142-143.

(3) Brehier : op. cit, p. 322.

إشارة عاجلة إلى البنادقة يخبرونهم بالكارثة التى حلت بهم ، ويرجون سرعة المعونة . وعندئذ رفع البنادقة حصارهم عن كورفو سنة ١١٢٣ ، وأقامت عمارتهم إلى عكا لتقديم المساعدة إلى الصليبيين ، فى وقت كان هؤلاء أحوج ما يكونون إلى المساعدة بعد مقتل أمير أنطاكية ، وأسر أمير الرها ، وملك بيت المقدس . وكان أول ما فعله البنادقة وهم فى طريقهم إلى الشام إرسال جزء من أسطولهم إلى عسقلان حيث استطاعوا تدمير الأسطول الفاطمى هناك . وبعد ذلك أغار البنادقة على الشاطىء الجنوبى لفلسطين حتى العريش (مايو ١١٢٣) ، وفى طريق عودتهم إلى عكا أسروا أسطولا تجارياً إسلامياً من عشر سفن محملة بالبضائع [1] .

ولا شك فى أن تدمير الأسطول الفاطمى فى فلسطين أعطى الصليبيين حرية العمل ضد المعاقل والموانى الفاطمية القليلة التى ما زالت باقية للمسلمين على الشاطىء ، وأهمها صور وعسقلان . وهنا انقسم الصليبيون فى الرأى حول النقطة التى يبدأون بها : صور أم عسقلان ؛ إذ أيد أمراء الجليل مهاجمة صور ، فى حين رأى أمراء بيت المقدس البدء بعسقلان ؛ حتى انتصر الرأى الأول نظراً لأهمية صور الحربية والتجارية [2] . وقبل أن يبدأ البنادقة فى مهاجمة صور كان عليهم أن يعرفوا ثمن المساعدة التى يقدمونها للصليبيين ، فعقدوا اتفاقية مع وليم دى بورز Guilluame de Bures الوصى على مملكة بيت المقدس فى أوائل سنة ١١٢٤ ، وحققت لهم أكبر قدر من الامتيازات مقابل المساعدة الحربية التى سيقدمونها لمملكة بيت المقدس [3] من ذلك حق البنادقة فى الحصول على أحياء كاملة فى كافة مدن مملكة بيت المقدس — وبخاصة عكا — يقيمون فيها مؤسساتهم المختلفة اللازمة لإقامتهم ومباشرة نشاطهم التجارى ، كالفنادق والمخابز والطواحين والحمامات ... بحيث

---

(1) Foucher de Chartres, p. p 452-453.

(2) Guillaume de Tyr ps. 459-574.

(3) Michaud : op. cit, II, p. 63.

تكون جميع هذه المؤسسات والمرافق معفاة من الضرائب والمكوس تماماً(١) .
كذلك اشترط البنادقة حقهم فى استخدام موازينهم ومقاييسهم ومكاييلهم الخاصة، سواء فى المعاملة فيما بينهم وبين بعض أو فيما بينهم وبين بقية رعايا مملكة بيت المقدس . هذا مع إعفائهم من كافة الضرائب الجمركية وغير الجمركية بحيث يكون التجار البنادقة بعكا أحراراً تماماً فى كافة شئون الاستيراد والتصدير . فإذا تم فتح صور وعسقلان بمساعدتهم ، حصل البنادقة على ثلث كل مدينة منها ، مع تمتعهم فى ذلك الحي بكافة الامتيازات الاقتصادية السابقة(٢) .

هذا إلى أن البنادقة حرصوا على ألا يتعرضوا لمنافسة اقتصادية من جانب المدن والجمهوريات الأخرى فى غرب أوروبا . فاشترطوا ألا تقوم مملكة بيت المقدس بتخفيض الضرائب المفروضة على بقية الجاليات والهيئات إلا بعد موافقة البندقية نفسها . ومع أن بطرق بيت المقدس — جرموند — أقسم للبنادقة على أن ملك بيت المقدس سيوافق على جميع هذه الشروط عند إطلاق سراحه ، إلا أن بلدوين الثانى لم يوافق فيما بعد على الشرط الأخير الذى يجعل المملكة وتجارتها حكراً للبنادقة(٣) .

ولم يكد يتم عقد الاتفاقية السابقة بين البنادقة ومملكه بيت المقدس ، حتى تعاونت جميع القوى الصليبية ، على حصار صور فى منتصف فبراير سنة ١١٢٤ . وكان حكم صور — كما سبق أن أشرنا — قد انتقل أخيراً إلى طغتكين أتابك دمشق ، فأمد طغتكين المدينة « بعسكر وسير إليهم ميرة ومالا فرقه فيهم وطابت نفوس أهل البلد »(٤) . ولا ننسى بالإضافة إلى ذلك أن صور مدينة

---

(1) Ibid.

(2) Heyd : op. cit, I, p p. 143-144.

(3) Foucher de Chartres, p. 460.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ.

محصنة طبيعياً حتى وصفها ابن جبير فى عصر الحروب الصليبية بأنها « مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة » [١]. ولكن يبدو أن كل ذلك لم يكف لمقاومة الهجوم العنيف الذى شنه الصليبيون على المدينة من ناحيتى البر والبحر . وقد هبت القوى الإسلامية المجاورة للدفاع عن صور ، أو لمحاولة الضغط على الصليبيين لإجبارهم على التخلى عنها . ومن ذلك ما قامت به حامية عسقلان الفاطمية أثناء حصار صور — من محاولة الزحف على بيت المقدس ومهاجمتها أكثر من مرة فى تلك الفترة [٢] . كذلك خرج طغتكين أتابك دمشق على رأس جيوشه « إلى بانياس للذب عن صور » ، فعهد الصليبيون إلى بونز أمير طرابلس بالتصدى له .

ولكن جهود القوى الإسلامية المجاورة لم تفلح فى إنقاذ صور ، فى الوقت الذى توفى بلك الأرتقى صاحب حلب وديار بكر فى مايو سنة ١١٢٤ ، عندما كان يستعد للحضور على رأس جيش كبير لإنقاذ صور [٣] . وعندما أدرك طغتكين تعذر الاحتفاظ بصور « راسل الفرنج بالملاطفة والمداهنة والإرهاب والإرغاب، إلى أن تقررت الحال على تسليمها إليهم بحيث يؤمن كل من بها، ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية ، بما يقدرون عليه من أموالهم، ويريد من أراد الإقامة» [٤]. وهكذا اضطرت صور إلى التسليم فى أوائل يوليو سنة ١١٢٤ « بعد أن أشرف أهلها على الهلاك » ، واحترم الصليبيون شروط الأمان الذى منحوه لأهلها [٥].

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧٧ (طبعة بيروت).

(2) Guillaume de Tyr, p. p. 566,572.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or, III, p. 642)

(٤) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٧ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥١٨ .

ويصف أبو المحاسن عملية انسحاب المسلمين من صور فيقول: « جاء الأتابك بعسكره =

ومن الواضح أن سقوط صور فى أيدى الصليبيين جاء حدثاً له أهميته فى تاريخ الحروب الصليبية . ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن ضياع صور سبب «وهنا عظيما على المسلمين » . وفى الوقت نفسه أدى استيلاء الصليبيين على صور إلى تدعيم مركزهم لأنها « من أحسن البلاد وأمنعها[1] » ، مما أدى إلى تدعيم مركز الصليبيين بالشام وإمدادهم بقاعدة بحرية من الطراز الأول من ناحية الموقع ذى الأهمية الفائقة فى حالتى الهجوم والدفاع جميعاً[2] . لذلك اهتم الصليبيون بتحصين صور وأعدوها « مفزعاً لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم » ، على قول ابن جبير [3] .

أما البنادقة فلم يهتموا بالحصول على مراكز لهم فى المدن الداخلية ، عدا مدينة القدس ذاتها ؛ فى حين اهتموا بتركيز نشاطهم فى المدن الساحلية وبخاصة عكا ثم صور وصيدا وحيفا بعد ذلك [4] .

تحرير الملك بلدوين الثانى واستئناف الحرب ضد المسلمين :

أما الملك بلدوين الثانى فقد ظل أسيراً فى قبضة بلك الذى نقله من قلعة حران إلى قلعة حلب ، حتى إذا ما توفى بلك وآلت حلب إلى تمرتاش بن إيلغازى ، وافق الأخير — بفضل وساطة أمير شيزر العربى أبو العساكر سلطان ابن منقذ — على إطلاق سراح الملك بلدوين مقابل مائة ألف بيزانت — أى قرابة

= فوقف بازاء الفرنج ، وركبت الفرنج ووقفوا بازائه وصاروا صفين ، وخرج أهل البلد يمرون بين الصفين ، ولم يعرض لهم أحد » .

(النجوم الزاهرة ، ج٥ ص١٨٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p 618

(٣) رحلة ابن جبير ص٢٧٧ (طبعة بيروت)

(4) Heyd : Hist de Commerce. I, pp 148-151.

ثمانين ألف دينار — يدفع منها عشرين ألف دينار مقدماً[١] . هـذا علاوة عما تعهد به الملك بلدوين — بوصفه وصياً على إمارة أنطاكيـة — من إعادة عزاز والأثارب وزردنا والجزر وكفر طاب ، إلى إمارة حلب . كذلك تعهـد الملك الصليبي بمساعدة تمرتاش فى إخضاع دبيس بن صدقه ، وهو أمير عربى شيعى نزح إلى الجزيرة بعد أن طرده الخليفة المسترشد العباسى من حكم الحلة بالعراق[٢] .

وعلى أساس هذه الشروط تم الإفراج عن الملك بلدوين الثانى فى أواخر يونية سـنة ١١٢٤ ، أى فى الوقت الذى كان وليم دى بورز الوصى على مملكة بيت المقدس يغزو صور بمساعدة البنادقة . وكان من الطبيعى أن يتجه ملك بيت المقدس أولا صوب أنطاكية حيث أنكر عليه برنارد دى فالنس رد المدن والقلاع السابقة للمسلمين ، لأن ملك بيت المقـــدس بوصفه وصياً على إمارة أنطاكية كان ينبغى أن يرعى الأمانة وألا يفرط فى أملاك أنطاكية وأراضيها؛ أو أن يدفع جزءاً من أملاك غيره ثمناً لحريته[٣] . ولذلك أرسل الملك بلدوين الثانى رسالة إلى صاحب حلب — أورد نصها ابن العديم — يستعطفه فيها أن يتنازل عن الشرط الخاص بتسليم عزاز وغيرها من القلاع للمسلمين ، ويعلمه أن بطرق أنطاكية معترض على ذلك الشرط[٤] .

ولـكن المفاوضات طالت بين الطرفين دون الوصول إلى نتيجة ، فى الوقت الذى كان بلدوين الثانى يشـفق على مصير الرهائن التى قدمها لأمير حلب ضماناً

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢٠.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 643.)

(3) Matthieu d'Edesse p. p. 312_313 &
Michael Le Syrien, p. p. 212-225.

(٤) «البطرق الذى لا يمكن خلافه سألنى عما بذلت وما الذى استقر ، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها ، أبى وأمرنى بالدفع وقال . إن خطيئتك تلزمنى ، ولا أقدر على خلافه !»

ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. p. p. 644_645)

لتنفيذ شروط الاتفاقية السابقة . ومن هذه الرهائن ابنة الملك بلدوين نفسه وهى طفلة فى الخامسة من عمرها ، وجوسلين الثانى ابن جوسلين دى كورتناى أمير الرها ، ومعهما عشرة من زهرة شباب الصليبيين(١) . وأخيراً لم يجد الملك بلدوين الثانى بداً من الاصطدام بصاحب حلب ، فحالف خصمه الأمير العربى الشيعى دبيس بن صدقه . ويروى ابن الأثير أن دبيس بن صدقه أطمع الصليبيين فى الاستيلاء على حلب « وقال لهم إن أهلها شيعة وهم يميلون إلى لأجل المذهب ، فمتى رأونى سلموا البلد إلى »(٢) . وفى الوقت نفسه وجد الصليبيون فى دبيس خير قوة تمكنهم من الوقوف فى وجه صاحب حلب وإجباره على إطلاق سراح من لديه من رهائن ، فبذلوا له المال ووعدوه بإعطائه ملك حلب(٣) .

وهكذا لعب الصليبيون دورهم بمهارة فى تفرقة صفوف المسلمين ، وضرب العرب بالأتراك ، والشيعة بالسنة ، لإضعافهم جميعاً . وفى اكتوبر سنة ١١٢٤ اشترك بلدوين الثانى وجوسلين دى كورتناى مع دبيس بن صدقه فى مهاجمة حلب وأعمالها(٤) . وقد حرص بلدوين الثانى فى تلك الحرب على أن يؤلف جبهة إسلامية — تحت قيادته — ضد تمرتاش صاحب حلب التركى ، فاشترك معه بنو مزيد ، وسلطان شاه بن الملك رضوان السلجوقى الذى عزله الأراتقة من ملكه فى حلب(٥) .

---

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص١٠٣ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨ .

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب (p. 645)

(4) Setton : op. cit. I, p. p. 423 – 424.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب (III, p. 646)

ويروى ابن العديم أن الصليبيين أتوا فى تلك الغزوة مساوىء كثيرة «فنبشوا قبور موتى المسلمين وأخذوا توابيتهم الى الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، وعمدوا الى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله فربطوا فى أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين، وجعلوا يقولون: هذا نبيكم محمد وآخر يقول: هذا عليكم . وأخذوا مصحفا من المشاهد بظاهر حلب وقالوا يا مسلم أبصر كتابكم ...»

ولم يكن تمرتاش فى حلب عندئذ ، وإنما كان فى ماردين مترقبا وفاة أخيه سليمان حاكم ماردين ليرثه فى ملكه ، فى حين ترك حلب لنوابه وأعيان المدينة يقاومون الحصار . وعندما رأى أهل حلب عجز « صاحبهم تمرتاش » أرسلوا إلى آقسنقر البرسقى أتابك الموصل « يستنجدونه ويسئلونه المجىء إليهم ليسلموا البلد إليه » [١] . ويبدو أن آقسنقر — الذى عينه السلطان محمود أتابكا على الموصل وعهد إليه بجهاد الصليبيين — وجد فرصة طيبة فى تلك الاستغاثة لتحقيق رغبة السلطان الجديد فى استئناف حركة الجهاد ضد الصليبيين . لذلك أسرع آقسنقر البرسقى إلى تأليف حلف ، فانضم إليه فى الرحبة طغتكين أتابك دمشق ، وصمصام الدين خير خان بن قراجا صاحب حمص ، واتجهوا جميعاً صوب حلب ، فوصلوها فى أواخر يناير سنة ١١٢٥ [٢] .

وكان ظهور تلك القوة الجديدة أمام حلب كافياً لإحباط مشروع بلدوين الثانى الخاص بالاستيلاء على تلك المدينة ، فانفض عنه حلفاؤه ، وانسحب دبيس ابن صدقة شرقاً ، فى حين عاد الملك نفسه إلى بيت المقدس فى أوائل أبريل سنة ١١٢٥ بعد غيبة قاربت العامين [٣] . أما آقسنقر البرسقى ، فقد خرج إلية أهل حلب « ولقوه وفرحوا به » ، فأقام عندهم بعض الوقت لإصلاح أحوال المدينة ، ثم قفل راجعاً إلى الموصل بعد أن ترك فى حلب من يرعى شئونها . وبذلك جمع آقسنقر البرسقى بين ملكى الموصل وحلب ، مما جعله خطراً كبيراً على الصليبيين فى شمال العراق والشام [٤] .

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ — ٢١٢.

ابن العديم: زبدة الحلب (IIIp. 649)

(3) Guillaume de Tyr, I, p. 557.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٨هـ.

على أن الملك بلدوين الثانى كان لا يستطيع البقاء طويلا فى بيت المقدس، فى الوقت الذى كان مسئولا — بحكم وصايته على أنطاكية — عن حمايتها من ضغط القوى الإسلامية المحيطة بها من ناحيتى الشمال والشمال الشرقى. هذا فضلا عن أن ازدياد نفوذ آقسنقر البرسقى — الذى جمع بين السيطرة على حلب والموصل، وتمتع بتأييد السلطان محمود السلجوقى، واعترف له بالسيادة والزعامة كل من طغتكين أتابك دمشق وخيرخان بن قراجا — جعل منه خطراً كبيراً على الصليبيين فى شمال العراق والشام. وزاد من ذلك الخطر أن البرسقى واصل نشاطه فى بلاد الشام، فزار شيزر فى شهر مارس، حيث رحب به أميرها سلطان ابن منقذ وسلمه رهائن الصليبيين، وعلى رأسهم ابنة الملك بلدوين الثانى وجوسلين الصغير ولى عهد الرها[١]. وهكذا بدا البرسقى فى صورة زعيم القوى الإسلامية فى بلاد الشام مما مكنه من مهاجمة إمارة أنطاكية، فحاصر كفر طاب واستولى عليها فى أوائل مايو سنة ١١٢٥ قبل وصول بلدوين الثانى. وبعد ذلك شرع فى حصار زردنا[٢].

وعند ما استنجدت أنطاكية بالملك بلدوين الثانى، أسرع إليها، ومر فى طريقه بطرابلس حيث استصحب معه بونز أميرها ثم انضم إليهما جوسلين دى كورتناى أمير الرها. وفى تلك الأثناء كان البرسقى وطغتكين وخير خان وبقية حلفائهم قد تركوا حصار زردنا واتجهوا إلى حصار عزاز — شمالى حلب على الطريق بين أنطاكية والرها[٣] — وعند عزاز دارت المعركة بين الصليبيين بقيادة بلدوين الثانى والمسلمين بقيادة البرسقى (أواخر مايو وأوائل يونيه سنة ١١٢٥)؛ فانتصر الجانب الأول انتصاراً كاملا، وكسر البرسقى كسرة عظيمة واستشهد

---

(1) Runciman: op. cit; II, p. 173.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب (P. 651) &
Foucher de Chartres, p. 471.

(3) Guillaume de Tyr, p. 580.

جماعة من المسلمين من السوقة والعامة » [١] . وقد قدر المؤرخون الصليبيون عدد قتلى المسلمين بألفين ، وقدرهم ابن الأثير بأكثر من ألف [٢] . أما بقية الجيش الإسلامى فقد ولى الأدبار ، تاركين خلفهم عدداً كبيراً من الأسرى وقدرا هائلا من الغنائم . وبعد ذلك دارت بين الفريقين مفاوضات قصيرة انتهت بتسليم ابنة بلدوين الثانى الصغيرة وابن الأمير جوسلين دى كورتناى، وغيرهما من الرهائن التى كانت فى حوزة سلطان بن منقذ أمير شيزر [٣] . ثم عاد بلدوين الثانى إلى بيت المقدس بعد أن عقد صلحا مع البرسقى احتفظ فيه المسلمون بكفر طاب ، فى حين رجع البرسقى إلى الموصل بعد أن ترك حامية فى حلب [٤] .

على أن الملك بلدوين الثانى لم يهدأ عن حرب المسلمين ، واختار تلك المرة أن يهاجم طغتكين ، فقام بحملة على إمارة دمشق سنة ١١٢٦ . وقد استهدفت خطة بلدوين مهاجمة مدينة دمشق نفسها ، فاتجه إلى حوران ومنها إلى وادى النقرة فوادى مرج الصفر فوادى العجم ، حتى وصل فى منتصف يناير سنة ١١٢٦ إلى الأطراف الشمالية من إقليم شرخوب . وعند تل شقحب — إلى الجنوب الغربى من دمشق — دارت المعركة بين طغتكين وبلدوين الثانى فى ٢٥ يناير سنة ١١٢٦ ، وفيها هزم طغتكين وقتل عدد كبير من رجاله [٥] وعندما انصرف الصليبيون لمطاردة المسلمين ، انقض التركمان على المعسكر الصليبى وقد خلا من المدافعين عنه ، فنهبوا « خيامهم وأموالهم وجميع ما معهم » [٦] . أما بلدوين الثانى فقد طارد الدماشقة حتى عقبة شحورا ، ثم عاد إلى بيت المقدس

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III. p. p. 651)

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٩ هـ .

(٣) Guillaume de Tyr, p. 580.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب (p. 651)

(٥) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان (Rec. Hist. Or. p. 566)

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

وقد ذكر ابن الاثير أن هذه المعركة دارت عند قرية شقحبا .

حيث استنجد به أمير طرابلس لمعاونته فى حصار رفنية[١].

ذلك أنه حدث فى مارس سنة ١١٢٦ أن هاجم بونز أمير طرابلس قلعة رفنية التى كانت — مثل حمص — تابعة لأتابك دمشق ، وتتمتع بموقع هام بحكم إشرافها على أطراف وادى نهر العاصى فيما بين حماة وحمص . ولم يرض الصليبيون عن انتزاع المسلمين رفنية منهم سنة ١١١٥ ، بل شيد الأمير بونز صاحب طرابلس فوق مرتفع على مقربة منها قلعة بعرين ، لشن إغارات دائمة على رفنية [٢] . وعندما هدد بونز رفنية سنة ١١٢٦ وساعده بلدوين الثانى «وضيقوا عليها» ، لجأ حاكم رفنية —شمس الخواص — إلى الاستنجاد بطغتكين أتابك دمشق ، والبرسقى أتابك حلب والموصل. على أن رفنية لم تستطع المقاومة حتى تأتيها النجدة ، فاستسلمت بعد حصار ثمانية عشر يوما ، واستولى عليها أمير طرابلس ليشن منها غارات مستمرة على منطقة حمص . هذا إلى أن استيلاء الصليبيين على رفنية أمن الطريق بين بيت المقدس وأنطاكية ، كما أمن إمارة طرابلس ذاتها [٣].

وفى ذلك الوقت خرج البرسقي من الموصل إلى بلاد الشام عن طريق منبج فأرسل ابنه عز الدين مسعود إلى حمص لإبعاد الصليبيين عنها ، واتجه هو نفسه إلى إمارة أنطاكية حيث حاصر الأثارب واستولى على بعض أطرافها ، مما جعل الملك بلدوين الثانى يسرع إليه لصده [٤] . ويبدو أن موقف ملك بيت المقدس عندئذ كان حرجا إلى حد كبير ، لأنه فى الوقت الذى تعرضت إمارة أنطاكية

(1) Stevenson : op. cit. p. 118.

(2) Grousset : Hist des Croisades I p. 641.

(٣) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦ ؛

ابن العديم: زبدة الحلب (p. 652) &

Foucher de Chartres, p. 480.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب (Rec. Hist. Or III. p. p. 652–953)

لهجوم البرسقى ، قام أسطول فاطمي بمهاجمة موانى فلسطين الصليبية . على أن خطر البرسقى كان أوضح وأشد قربا ، ولذلك اتجه بلدوين لإبعاده أولا ، واشترك معه جوسلين دى كورتناى أمير الرها . ويروى ابن العديم أن الملك بلدوين الثانى بعث إلى البرسقى يعرض عليه الصلح ، ويقول له « ارحل عن هذا الموضع ونتفق على ما كنا عليه فى العام الخالى ونعيد رفنية عليك »[١] . فوجد البرسقى أن هذا العرض مرضى ، لاسيما وأنه كان يخشى أن يحل بالمسلمين مثلما حدث لهم عند عزاز ، فانسحب وعدل عن حصار الأثارب . ولم تلبث أن تجددت الهدنة بين الطرفين ، وعاد البرسقى من حيث أتى بعد أن قام ببعض غارات محلية فى مناطق سرمين ودانيث ، ووصل الموصل يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ حيث قتل فى اليوم نفسه بيد أحد الباطنية[٢]

أما الأسطول الفاطمى الذى خرج من الاسكندرية ودمياط فقد اتجه إلى العريش فغزة وعسقلان ، ثم أخذ يتسكع بعضاً من الوقت أمام موانى يافا وقيسارية وعكا وصور وصيدا وبيروت ، عله يجد فرصة لمباغتة الصليبيين . وأخيراً عادت السفن الفاطمية إلى مصر بعد اشتباك قصير مع الصليبيين فى مدينة بيروت[٣]

بوهيموند الثانى أمير أنطاكية

لم يهمل تنكرد أو روجر الأنطاكى أو الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس حق بوهيموند الصغير — أو الثانى — ابن بوهيموند الكبير فى إمارة أنطاكية؛ وكل ما هنالك هو أن بوهيموند الثانى كان صغيراً وقت وفاة أبيه ، فظل فى

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (p. 654) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٤ .

(3) Guillaume de Tyr, p. p, 587 — 588.

كنف أمه فى إيطاليا حتى بلغ الثامنة عشر من عمره ، وعندئذ خرج من أوترانتو على رأس أسطول من أربع وعشرين مركبا مليئا بالمقاتلين والخيل والزاد ، واتجه إلى الشام لمباشرة حقه الشرعى فى حكم أنطاكية ، فوصل ميناء السويدية فى أوائل أكتوبر سنة ١١٢٦[١] . وكان أن استقبله الملك بلدوين الثانى فى أنطاكية استقبالا حاراً ليسلمه إمارته ، ثم ليعرض عليه الزواج من ابنته الثانية إليس ؛ الأمر الذى تم فعلا فى سبتمبر سنة ١١٢٧ والذى ترتبت عليه تقوية الرابطة بين مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية فى عهدها الجديد[٢] .

وسرعان ما أثبت بوهيموند الثانى أنه لا يقل تحمساً للهدف الصليبى وبلاءاً فى محاربة المسلمين عن أبيه ، حتى لقد وصف أسامة بن منقذ مجيئه إلى الشرق بأنه « بلية عظيمة » على المسلمين[٣] . ولم يلبث أن استرد بوهيموند الثانى كفرطاب التى سبق أن انتزعها آقسنقر أتابك الموصل وحلب سنة ١١٢٥ من إمارة أنطاكية . كذلك قام بوهيموند الثانى بعدة هجمات سنة ١١٢٩ على المسلمين ، فاستولى منهم على حصن القدموس[٤] .

وفى ذلك الوقت ساءت أحوال حلب بعد مقتل البرسقى فى نوفمبر سنة ١١٢٦ . ويبدو أن حالة الفوضى التى غرقت فيها حلب فى تلك الفترة ، أغرت جميع جيرانها الأبعدين والأقربين — من المسلمين والصليبيين سواء — على اهتبال تلك الفرصة للاستيلاء على المدينة . من ذلك أن جوسلين دى كورتناى أمير الرها أسرع إلى حلب سنة ١١٢٧ ، فى الوقت الذى خف إليها أيضا بوهيموند

(1) Foucher de Chartres, p. p. 481 – 483.
(2) Foucher de Chartres, p. 485.

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٢١ .
ويطلق أسامة على بوهيموند الثانى اسم «ابن ميمون» وعلى أبيه بوهيموند الأول اسم « ميمون » .
(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٢٤ .

الثانى أمير أنطاكية ، مما أثار نوعاً من التنافس الشديد ، بل العداء المكشوف بين الأميرين الصليبيين بسبب رغبة كل منهما فى الانفراد بالقنيصة وحده[1] .

والواقع أنه ربما كانت هنـاك عوامل أخرى باطنية سببت النفـور بين الأميرين . ذلك أنه يبدو أن جوسلين دى كورتناى كان يأمل أن يفوز فى يوم ما بعرش مملكة بيت المقدس بحكم قرابتـه من بلدوين الثانى من ناحية ، وبحكم السوابق التى جعلت كلا من بلدوين الأول وبلدوين الثانى يرتقى من أمير للرها إلى ملك على بيت المقدس من ناحية أخرى . ولـكن زواج بوهيموند الثـانى من ابنة الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقـدس ، جعلت من بوهيموند منافساً خطيراً لجوسلين فى مطامعه فى عرش بيت المقدس ؛ وهذا هو بعض السر فى النفور بين الرجلين[2] . ومهما يكن من أمر ، فقد أسرع بلدوين الثانى إلى أنطاكية ونجح بمهارته فى تسوية النزاع بين بوهيموند الثانى وجوسلين قبل أن يتفاقم .

على أن الخطر الذى هدد بوهيموند الثـانى وأودى بحياته جاء من ناحية الشمال ، أى من ناحية بنى دانشمند التركمان . ذلك أن الأمير الأرمنى ثوروس الأول (١١٠٠ — ١١٢٩) استطاع أن يؤسس إمارة قوية فى قيليقية ، وانتزع من البيزنطيين سيس وعين زارب (عين زربة) . ولـكن وفاة ثوروس سنة ١١٢٩ ، ثم وفاة ابنه قنسطنطين مسموما بعد قليل ، جعل تلك الإمارة الأرمينية تعانى كثيرا من المطامع الخارجية والمتاعب الداخلية[3] . وقد جاء الخطر الـكبير الذى واجهته تلك الإمارة من جانب الأمير إيلغازى بن الدانشمند — صاحب ملطية — من ناحية الشمال، والأمير بوهيموند الثانى — صاحب أنطاكية — من ناحية الجنوب . ولم يلبث أن تقابل هذان الخصمان — الأتراك والنورمان —

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 651 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

(3) Iorga : L'Armenie Cilicienne, p p 92 — 93.

فى سهل عين زربة ، حيث دارت فى فبراير سنة ١١٣٠ معركة انتصر فيها الأتراك وقتل بوهيموند الثانى نفسه لعدم معرفة شخصيته . ويقال إن الأمـير إيلغازى عندما عرف رأس بوهيموند أرسلها إلى الخلفية العباسى فى بغداد ، ومعها هدايا كثيرة من الخيل والسلاح (فبراير سنة ١١٣٠)(١) .

ولا شك فى أن مقتل بوهيموند الثانى وهو فى شرخ شبابه ولم ، يمض على قيامة فى حكم أنطاكية سوى ثلاث سنوات وثلاثة شهور ، جاء كارثة كبيرة للصليبيين ، لأنه كان يبشر بأمل عظيم ومستقبل زاهر فى مجال النشاط الصليبى . وهـكذا عادت أنطاكية مرة أخرى تحت وصاية الملك بلدوين الثـانى . وكان بوهيموند الثانى قد أنجب من زوجته إليس — ابنة الملك بلدوين الثانى — طفلة صغيرة هى الأميرة كونستانس . وهذه الأميرة الصغيرة صارت الوريثة الشرعية لإمارة أنطاكية ، وذلك وفقاً للقـانون الإقطاعى الغربى . لذلك حزنت إليس فى قرارة نفسها ، وكان يهمها أن ترث الأمارة بعد زوجها لتذوق طعم السلطان(٢)

ولم تحجم إليس فى سبيل تحقيق أطماعها عن التآمر مع المسلمين ضـد المصالح الصليبية ، فأرسلت فرساً مطهما مع رسول يحمل رسالة سرية إلى زنـكى — أتابك حلب — تطلب مساعدته ، مقابل تعهدها بالتبعية له(٣) . وقد شاء حسن حظ الصليبيين ألا تصل هذه الرسالة وإنما وقعت فى يد الصليبيين وعلم بها الملك بلدوين الثانى الذى استشاط غضبا من حماقة ابنته ، واتجه فوراً صوب أنطاكية ليحقق بنفسه فى الأمر . وهنا تمادت إليس فى طيشها فأعلنت الثورة على أبيها ، وأغلقت فى وجهه أبواب أنطاكية(٤) . ولم يكن معقولا أن يوافق أعيان أنطاكية وأمراؤها

(1) Michel Le Syrien, p. 227.
(2) Setton : op. cit, I, p. 431.
(3) Runciman : op. cit; II, p. 183.
(4) Stevenson : op. cit, p. 129.

على تلك التصرفات من جانب إليس ، فثاروا ضدها وفتحوا للملك ومن معه — مثل جوسلين دى كورتناى وفولك الأنجوى — أبواب المدينة . وكان أن وضع بلدوين الثانى أنطاكية تحت وصايته إلى أن تكبر الأمير كونستانس، فى حين أقطع ابنته إليس اللاذقية وجبلة لتعيش فى تلك الجهات الساحلية بعيداً عن أنطاكية وعن الأتراك فى حلب(١) .

(1) Guillaume de Tyr. p. p. 599 — 601 &
ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. p. 660 — 661) .

الفصل الثالث
فولك الأنجوى ملك بيت المقدس

نهاية بلدوين الثانى :

كان على بلدوين الثانى أن يفكر فى مصير عرش مملكة بيت المقدس من بعده ، حيث أنه لم يرزق من زوجته الأرمينية مورفاسوى أربع بنات ، زوج إحداهن — إليس — للأمير بوهيموند الثانى صاحب أنطاكية سنة ١١٢٦ ، كما مر بنا . غير أن بلدوين الثانى لم يفكر إطلاقاً فى أن يجعل من بوهيموند الثانى وريثاً له فى مملكة بيت المقدس ، وإنما اختار أن يبعث سفارة من رجاله إلى فرنسا سنة ١١٢٨ لاختيار أحد الأمراء المعروفين بشجاعتهم ومقدرتهم ، فرشح لويس السادس ملك فرنسا لتلك المهمة فولك الخامس الأنجوى ، وهو من أقدر أمراء المملكة الفرنسية عندئذ . وكان أن حضر الأمير فولك إلى مملكة بيت المقدس فى ربيع سنة ١١٢٩ ، وبعد قليل تزوج من ميلزاند ابنة الملك بلدوين الثانى الكبرى ، ثم أقطع الملك زوج ابنته مدينتى صور وعكا . وهكذا أصبح فولك الأنجوى — بحكم زواجه من وريثة بلدوين الثانى — هو ملك بيت المقدس المقبل[1] .

ثم إن بلدوين الثانى أراد أن يمرن خليفته فولك على محاربة المسلمين ، فصحبه عقب زواجه من ابنته سنة ١١٢٩ فى حملة لمهاجمة دمشق ، التى كان حاكمها

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 594.

طغتكين قد توفى فى فبراير سنة ١١٢٨ تاركا المدينة فى حالة شديدة من الفوضى ، بسبب ازدياد نفوذ الباطنية الذين « قويت شوكتهم وتضاعفت مضرتهم[١] ».

وأخيراً توفى بلدوين الثانى فى ٢١ أغسطس سنة ١١٣١ بعد أن حكم ثلاثة عشر عاما ، تاركا خلفه فولك الأنجوى ليخلفه فى حكم بيت المقدس . وقد احتفل بتتويجه ملكا بكنيسة القيامة فى ١٤ سبتمبر سنة ١١٣١[٢] ،

أحوال الإمارات الصليبية عند قيام فولك فى الحكم :

ولم يكد الملك فولك يتولى حكم مملكة بيت المقدس ، حتى توفى جوسلين دى كورتناى أمير الرها ، تاركا فراغاً كبيراً فى المجال الصليبى فى شمال العراق والشام . وقد ظل جوسلين يحارب المسلمين — رغم تقدم سنه — حتى آخر لحظة ؛ ومن ذلك ما يرويه ابن العديم من أنه اشتبك سنة ١١٣١ — وهى السنة نفسها التى توفى فيها — فى حرب ضد الحلبيين شمالى مدينة حلب « وقتل من المسلمين جماعة »[٣] .

وكان جوسلين أثناء تلك العملية الحربية الأخيرة يفحص لغما بثه الصليبيون تحت جدار أحد الحصون فى تلك المنطقة ، فانهار الحائط عليه وأخرجه أصحابه بصعوبة وقد تهشمت عظامه ، فنقل إلى تل باشر فى حالة سيئة حيث باتت وفاته متوقعة بين لحظة وأخرى[٤] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق س ٢٢٠ — ٢٢١ ، ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٢٣ هـ .

(2) Guillaume de Tyr, p. p. 601 — 602.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 661)

(4) Michel Le Syrien p. 232.

وبينما جوسلين دى كورتناى يعانى آلام الموت البطىء ، جاءت الأخبار بأن مسعود الأول سلطان قونية (١١١٦ — ١١٥٥) أخذ يحاصر قلعة كيسوم فى الشمال الغربى من إمارة الرها ، جنوبى بهسنى . وكانت كيسوم هذه تتمتع بأهمية خاصة عند الصليبيين ، لا لموقعها الحربى الهام فحسب ، بل أيضاً بسبب أهميتها الدينية ، بعد أن انتقل إليها كرسى بطرق اليعاقبة بأنطاكية[١] . لذلك خرج جوسلين دى كورتناى — وهو على شفا الموت — لقتال الأتراك ، فحملوه إلى كيسوم. ولكنه وجد أن السلاجقة تركوا حصار القلعة وانصرفوا . ولم يلبث أن توفى جوسلين دى كورتناى بعد ذلك ، فى أواخر سنة ١١٣١[٢] .

وكان أن خلف جوسلين دى كورتناى — فى إمارة الرها — ابنه جوسلين الثانى ، الذى كان جبانا لا يمتلك شيئاً من عزيمة أبيه وحماسته وشجاعته . وسنرى أنه عند ما رأى الرها معرضة لتهديد المسلمين المستمر ، آثر أن يتركها ويقيم فى تل باشر لينعم بقسط من الهدوء ، مما ترتب عليه ضياع الرها من قبضة الصليبيين . وهكذا مرت إمارة الرها بفترة عصيبة دون رجل قوى يذود عنها فى الوقت الذى جمع عماد الدين زنكى بين حكم الموصل وحلب « فاشتد أزر المسلمين بتلك الأعمال وضعفت قوى الكافرين ، وعلموا أن البلاد قد جاها ما لم يكن فى حساب . وصار قصاراهم حفظ ما فى أيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا فى الملك الجميع »[٣] .

هذا عن الرها ، أما أنطاكية فكانت أحوالها لا تقل خطورة فى الوقت الذى اعتلى فولك عرش بيت المقدس . ذلك أن إمارة أنطاكية ظلت بلا رائد

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades II, p. 7.

(2) Guillaume de Tyr, p 610.

(٣) يشير ابن الأثير فى هذا النص إلى بداية انحلال الصليبيين من ناحية ومولد الوحدة الإسلامية على يد زنكى من ناحية أخرى (الكامل : حوادث سنة ٥٢٤ هـ).

عقب مقتل بوهيموند الثانى فى فبراير سنة ١١٣٠ لأن ابنته الوحيدة ووريثته — كونستانس — كانت طفلة صغيرة . ولم تنقطع أم هذه الطفلة ـ الأميرة إليس ـ عن تدبير المؤامرات للوصول إلى الحكم فى أنطاكية ، بعد أن توفى والدها بلدوين الثانى الذى أحبط مؤامرتها الأولى [١] . وفى تلك المرة لم تحاول إليس الإلتجاء إلى عماد الدين زنكى ، وإنما استطاعت أن تكتسب بمهارتها وكياستها وهداياها ثلاثة من أمراء الصليبيين ، هم وليم صاحب حصن صهيون على بعد عدة كيلو مترات من اللاذقية ، وجوسلين الثانى أمير الرها ، وبونز أمير طرابلس . وبمساعدة هؤلاء الثلاثة دبرت إليس مؤامرة سنة ١١٣٢ للعودة إلى أنطاكية والقبض على زمام الأمور فيها . على أن فرسان أنطاكية أحسوا بالمؤامرة ، وأدركوا أنه إذا نجحت إليس فى تحقيق أهدافها ، فإن ذلك يعنى القضاء المبرم على الإمارة ، فأرسلوا إلى فولك ملك بيت المقدس يستنجدون به [٢] .

وعندما أسرع الملك فولك لإحباط المؤامرة ، لم يسمح له بونز أمير طرابلس بالمرور فى أراضيه ، ولكن فولك نفذ إلى بيروت رغم ذلك ، واختار أن يرجىء انتقامه من بونز إلى وقت آخر [٣] . ومن بيروت ركب الملك فولك البحر إلى السويدية ومنها إلى أنطاكية ، حيث رحب به فرسانها ونادوا به وصياً على الأميرة الصغيرة كونستانس بدلا من سلفه بلدوين الثانى . ويبدو أن تلك التطورات لم تعجب بونز ، فتدخل بوصفه حامياً للأميرة إليس ، وساعده بعض الأمراء الصليبيين فى القلاع المجاورة ، حتى اتخذت الحركة شكل ثورة عامة ضد الملك فولك فى شمال الشام [٤] . ولكن يبدو أن أولئك الأمراء الثائرين لم يعرفوا فولك حق المعرفة ، وهو الفارس القوى الذى قضى عشرين سنة فى فرنسا ،

---

(1) Stevenson : op. cit, p. 131.
(2) Guillaume de Tyr, p. 611.
(3) Michaud : op cit, II, p. 85.
(4) Stevenson : op cit, p. 141

عرك فيها حياة الفروسية والإقطاع . لذلك لم يتردد فولك أمام تهـــديد بونز وحلفائه ، ونازلهم حتى اضطر بونز إلى الفرار ، تاركا عدداً من فرسانه أسرى في قبضة الملك فولك(١) . ومع ذلك فإن الملك فولك لم يمانع في العفو عن بونز ورفاقه بعد أن لقنهم درساً قاسياً في وجوب احترام سلطة الملك من ناحية، ومراعاة الآداب والأصول الإقطاعية من ناحية أخرى(٢) .

وبعد أن أقام فولك عدة أيام في أنطاكية نظم فيها أمورها بوصفه وصياً على الإمارة ، وعهد بشئونها الإدارية إلى رينو ماسوير Renaud Masoier ، عاد إلى بيت المقدس .

فولك والدفاع عن الإمارات الصليبية ضد المسلمين :

وقد رأى الأتراك التركمان أن يفيدوا من حوادث الشقاق السابقة بين الصليبيين ، فأتت جموع كبيرة منهم من أرض الجزيرة وعبروا الفرات ، وأغاروا على الأراضي الواقعة شرقي نهر العاصي من ممتلكات إدارة أنطاكية ، واتخذوا مناطق معرة النعمان وكفر طاب قواعد لأعمالهم الحربية في تلك الجهات(٣) على أن الصليبيين لم يلبثوا أن تناسوا خصوماتهم أمام ذلك الخطر (أبريل سنة ١١٣٣) وطردوا أولئك المغيرين ، وانتهزوا فرصة تلك المطاردة ليستولوا أيضاً على حصن قبة ابن ملاعب قرب حماة « وخربوا الموضع »(٤) .

---

(١) أشار كل من ابن الأثير وابن العديم إلى تلك الأحداث الصليبية. فقال ابن الأثير : « وفيها (سنة ٥٢٧ هـ) وقع الخلف في الشام بين الفرنج ، فقاتل بعضهم بعضاً ، فلم يجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة، وقتل بينهم جماعة » . أما ابن العديم فقال « وقع بين الفرنج في هذه السنة فتن، وقتل بعضهم بعضاً ، وقتل صاحب زردنا » . (زبدة الحلب p. 664)

(2) Guillaume de Tyr, p. p, 612 — 613.

(3) Setton : op. cit; I, p. 433

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, 664 – 665)

على أنه إذا كان التركمان قد اضطروا إلى الابتعاد عن إمارة أنطاكية ، فإنهم لم يلبثوا أن اتجهوا صوب إمارة طرابلس حيث اعتدوا على الأهالى واستولوا على كثير من ممتلكاتهم . وهنا خرج بونز أمير طرابلس للدفاع عن إمارته ، فاستدرجه التركمان حتى أوقعوا به الهزيمة وأحدثوا مذبحة كبيرة بين الصليبيين ، فى حين اضطر بونز نفسه إلى الالتجاء إلى قلعة بعرين - شرقى أنطرطوس - حيث حاصره التركمان (أكتوبر ١١٣٣) [1].

وفى تلك الأثناء كان الصليبيون فى أنطاكية قد استنجدوا بالملك فولك الذى زحف على الفور صوب الشمال ، فى الوقت الذى استطاع بونز الفرار من قلعة بعرين . ويذكر وليم الصورى أن التركمان سرعان ما جلوا عن بعرين عندما علموا باقتراب فولك ، فى حين ذكر ابن الأثير وابن القلانسى أن التركمان لم يتراجعوا عن بعرين إلا بعد معركة حامية بينهم وبين الصليبيين [2] .

وبعد أن أمن فولك إمارة طرابلس من خطر التركمان ، اتجه صوب أنطاكية . وفى ذلك الوقت قصد سيف الملك بن عمرون — صاحب حصن القدموس السابق [3] — أنطاكية لمحالفة الصليبيين ضد حلب . وقد رحب فولك على الفور بتلك المحالفة ، لا سيما وأن سوار حاكم حلب من قبل زنكى كان يستعد للاشتراك مع التركمان للقيام بغارة على أنطاكية سنة ١١٣٣ . وكان أن دارت معركة بين الطرفين عند قنسرين جنوبى حلب ، انتهت بانتصار فولك

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ ؟
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٢) « وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعرين ، فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوا بهم وقتل بينهم خلق كثير ، وأشرف الفرنج على الهزيمة . . . »
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٣) يذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٢٧ هـ أن الإسماعيلية فى الشام اشتروا فى تلك السنة قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون :

وهزيمة سوار والتركمان[١] ؛ وإن كانت بعض المراجع العربية لم تشر فى وضوح إلى تلك الهزيمة[٢] . وهكذا استطاع الصليبيون أن يحتفظوا بمكانتهم فى شمال الشام بفضل جهود الملك فولك ، على الرغم من الإغارات التى دأب سوار على شنها على الممتلكات الصليبية مثل الجزر وحصن زردنا ومعرة النعمان ومعرة مصرين سنة ١١٣٤ ، أى بعد عودة فولك إلى بيت المقدس[٣].

وفى تلك الأثناء لم يهمل الصليبيون مملكة بيت المقدس ذاتها ، التى كانت أمورها — أثناء غياب فولك فى الشمال — تسير سيراً طيباً بفضل توجيهات البطرق وليم دى مسين . من ذلك ما لجأ إليه الصليبيون من تأمين طريق الحجاج بين يافا وبيت المقدس ، وحمايتهم من إغارات المسلمين الذين كثيراً ما كانوا يخرجون من عسقلان لتهديدهم . ولذلك شيد الصليبيون فى أواخر سنة ١١٣٢ وأوائل سنة ١١٣٣ حصن بيت نوبا فى منتصف الطريق بين اللد وبيت المقدس[٤] . ثم أكمل الملك فولك تلك التحصينات بإقامة بيت جبرين (جبريل) سنة ١١٣٧ فى منتصف الطريق بين الخليل وعسقلان ، وعهد بحماية تلك القلعة إلى الفرسان الاسبتارية[٥].

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 616.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ — ٢٤١ &
ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٢٧ هـ .
وقد ذكر ابن القلانسى عن تلك الواقعة « فحمل الافرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة قتلوا فيها من المسلمين تقدير مائة فارس ، فيهم جماعة من القدمين المشهورين المذكورين » .
أما ابن الأثير فقد قال عن تلك الوقعة : « فاقتتلوا عند قنسرين فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة ، وانهزم المسلمون إلى حلب » .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 667)
ويذكر الأثير : (الكامل ، حوادث سنة ٥٢٧ هـ) « وفيها أغار الأمير سوار مقدم عسكر زنكى بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير ؛ فخرج إليه الفرنج جموع كثيرة فقاتلوه ، فظفر بهم وأكثر القتل فيهم » .

(4) Guillaume de Tyr, I, p 617.
(5) King : The Knights Hospitallers, p. 34.

متاعب الصليبيين الداخلية :

على أن الأمور لم تنتظم لفولك فى سهولة على طول الخط ، إذ واجهته أثناء حكمه متاعب كثيرة،ومشاكل داخلية هددت جهاز الصليبيين بالشام . ومن هذه المتاعب ماارتبط بالأطماع السياسية للامراء ، ومنها ماتعلق بالأمور الكنسية .

من ذلك الثورة التى قام بها هيو الثانى حاكم يافا ضد فولك ملك بيت المقدس سنة ١١٣٢ . وكان هيو الثانى هذا على علاقة بالملكة ميلزاند ابنة بلدوين الثانى وزوجة فولك — وهى العلاقة التى قواها أن هيو الثانى كان متزوجا من أرملة تكبره بكثير فى السن ، فى حين أن الملكة ميلزاند لم تبادل زوجها فولك الحب لأنه كان بدوره يكبرها بكثير فى السن . ولم تلبث أن انتشرت الشائعات بالعلاقة بين هيو الثانى أمير يافا وملكة بيت المقدس زوجة فولك ، مما أثار غيرة الأخير وحقد الأول . وعندما ساء موقف هيو الثانى اضطر إلى الفرار للاحتماء بالفاطميين فى عسقلان [١] .

وقد استغل الفاطميون تلك الخيانة — وما نتج عنها من فرقة فى صفوف الصليبيين — وأغاروا على إقليم يافا حتى وصلوا إلى مشارف أرسوف ؛ فى الوقت الذى أسرع أتابك دمشق من جانبه إلى تهديد الممتلكات الصليبية واحتلال بانياس . ولكن الجيوش الصليبية أسرعت من بيت المقدس واحتلت يافا لحمايتها من الفاطميين . أما هيو الثانى فقد حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات ،ولكنه قبل رحيله تعرض لاعتداء من أحد فرسان بيت المقدس فأصيب إصابة خطيرة، ومهما يكن من أمر ، فإن هيو الثانى لم يمت، وإنما أبحر إلى روجر الثانى ملك صقلية الذى منحه إمارة جارجانو ، حيث مات بعد قليل [٢] . وأما ميلزاند ملكة بيت المقدس

(1) Besant, Palmer: Jerusalem, p. p. 291—292.

(2) Guillaume de Tyr, p. p. 627—633.

فقد عضبت غضباً شديدا لما حل بعشيتها هيو الثانى ، وأخـذت تتحين الفرص للانتقام،فى حين لم يجد فولك بداً من استرضاء زوجته الشابة بإعطائها مزيداً من السلطان والنفوذ [١] . ولم يلبث أن ظهر نفوذالملكة واضحاً، ليس فقط فى شئون مملكة بيت المقدس ، بل أيضاً فى شئون أنطاكية .

ذلك أن المتاعب الداخلية التى واجهت الملك فولك فى تلك الفترة لم تنحصر داخل حدود مملكته فحسب ، بل عمت أيضاً بقية الإمارات الصليبية ، وبخاصة إمارة أنطاكية التى قام فولك بالوصاية عليها وعلى صاحبتها القاصر الأميرة كونستانس. ولم يلبث الملك فولك أن واجه فى أنطاكية المتاعب نفسها التى واجهها سلفه بلدوين الثانى ، وهى متاعب مصدرها أطماع البطرق رادلف من جهة والأميرة إليس من جهة أخرى [٢] . وكان البطرق رادلف طموحا ، استطاع بذكائه أن يمكن لنفسه فى قلوب الأمراء والعامة فى أنطاكية ، وحاول أن يستقل بشئون كنيسته متجاهلا سلطة البابوية وحقوقها ، فضلا عن أنه دأب على التدخل فى الشئون السياسية والحربية [٣] .

أما الأميرة إليس فلم تتنازل فى منفاها باللاذقية عن رغبتها فى السيطرة على شئون أنطاكية وانتزاع حقوق ابنتها كونستانس ، واستعانت فى تحقيق ذلك بأختها الملكة ميلزاند ، زوجة فولك الشابة المدللة [٤] . وكان تأثير ميلزاند على زوجها قد أخذ يزداد وطأة ووضوحا ، فرضخ الملك لزوجته ووافق على عودة إليس إلى أنطاكية والقيام بتوزيع المناصب على فرسان الإمارة ، مما جعل إليس — بالاشتراك مع البطرق رادلف — يمثلان السلطة الفعلية الحاكمة فى إمارة أنطاكية [٥] .

(1) Runciman: op. cit, II, p. 193.

(2) Setton: op. cit, I, p. 436.

(3) Guillaume de Tyr. I, p. p. 619–620.

(4) Stevenson: op. cit, p. 135.

(5) Guillaume de Tyr, p. 636.

وسرعان مادب التنافس بين إليس والبطرق رادلف فى الوقت الذى كان زنكى والمسلمون يرقبون بعين الرضى ضعف إمارة أنطاكية وانحلال أمورها، ثم إن رادلف لم يلبث أن وقع فى خلاف مع رجال كنيسته، مما ترك إليس مطلقة اليد فى شئون الإمارة. وقد أحست إليس بكره الصليبيين لها بعد أن انكشفت علاقتها بزنكى، فحاولت أن تعتمد على تأييد المسيحيين المحليين، وأرسلت فى نهاية سنة ١١٣٥ إلى الإمبراطور البيزنطى تعرض عليه زواج ابنتها كونستانس من ابن الإمبراطور[1]. وقد ارتاع أمراء أنطاكية ورجال كنيستها لذلك الاتجاه الذى سيجعل منهم تابعين للدولة البيزنطية وكنيستها الشرقية، فأرسلوا فوراً إلى الملك فولك طالبين منه اختيار عريس مناسب للأميرة كونستانس، ليرعى شئون الإمارة ويحفظها من الفوضى الداخلية والأخطار الخارجية، فوقع اختيار الملك على ريموند ابن الأمير وليم التاسع أمير بواتيه[2].

ومع إحاطة ذلك المشروع بالسرية التامة خوفاً من أن تفسده الأميرة إليس أو البطرق رادلف، فقد صادف العريس ريموند دى بواتيه صعوبات كبيرة فى طريقه، سواء فى صقلية أو فى أنطاكية، حتى تم تنفيذ الخطة سنة ١١٣٦ وأصبح ريموند أمير أنطاكية الجديد. وهكذا وجدت إليس نفسها وقد غلبت على أمرها فلم يسعها سوى الانسحاب إلى اللاذقية حيث قضت حياتها فى شبه عزلة إلى أن ماتت بعد قليل[3]. أما إمارة أنطاكية فقد وجدت ضالتها أخيراً فى شخص ريموند، ذلك الأمير القوى الذى أجمع المؤرخون المسلمون والصليبيون على وصفه بقوة الإرادة والعزيمة[4].

ولم يلبث أن صادف ريموند أمير أنطاكية الجديد منافسة حادة، بل عداء

(1) Runciman : op. cit; II, p. p. 198_199.

(2) Guillaume de Tyr, p. 618.

(3) Idem : p. p 636-637.

(4) Grousset : Hist, des Croisades, II, p. 40.

ظاهراً — من رادلف بطرق أنطاكية . وهنا نجح الأمير ريموند فى استمالة بعض رجال الدين فى أنطاكية إليه، فضلاعن بعض الأمراء؛ وشكوا جميعاً إلى البابوية سوء تصرفات رادلف مما اضطر الأخير إلى السفر إلى إيطاليا للدفاع عن نفسه (١) وعند عودة رادلف إلى أنطاكية ، وجد أن أعداءه — من رجال الدين وغير رجال الدين — فى تزايد مستمر . ولم يلبث أن أدى تفاقم الموقف فى أنطاكية بالبابا إلى إرسال مندوب للتحقيق ،فعقد ذلك المندوب مجمعاً فى كنيسة القديس بطرس بأنطاكية فى ٣٠ نوفمبر سنة ١١٣٩ ، حضره جمع كبير من زعماء رجال الدين فى مختلف الإمارات الصليبية ، وانتهى الأمر بعزل البطرق رادلف ثم وفاته مسموماً سنة ١١٤٢ . وبعد قليل أختير أيمرى دى ليموج بطرقاً على أنطاكية محل رادلف(٢) .

فولك والمشاكل الكنسية :

وبالإضافة إلى المشاكل الداخلية ذات الطابع السياسى التى واجهها الملك فولك أثناء حكمه ، صادفته أيضاً بعض مشاكل دينية ارتبطت بالكنيسة . وقد دارت أولى هذه المشاكل حول أسقفية صور . ذلك أن استيلاء الصليبيين على مدينة صور سنة ١١٢٤ أثار مشكلة حول تبعية كرسى صور، وهل يتبع هذا الكرسى بطرقية بيت المقدس أم أنطاكية ، فوفقاً للنظام الكنسى البيزنطى فى القرن الحادى عشر ، كانت صور مركزاً لرئيس أساقفة يتبعه أساقفة عكا وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وأنطرسوس. وكان هؤلاء جميعاً — وعلى رأسهم رئيس أساقفة صور — يتبعون بطرق أنطاكية لا بطرق بيت المقدس(٣) . ولكن

(1) Setton : op. cit, p. 437.
(2) Guillaume de Tyr. I, p. p. 678_686.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 24–25

استيلاء جيوش مملكة بيت المقدس على صور ، ووجود بطرق بيت المقدس على رأس تلك الجيوش التى انتزعت صور من المسلمين ، جعل بطرق بيت المقدس يطمع فى أن يجعل صور خاضعة لإشرافه، لا لإشراف بطرق أنطاكية . أما رؤساء أساقفة صور أنفسهم فقد رفضوا أن يربطوا أنفسهم بأحد الطرفين المتنازعين ، على أساس أن البابا وحده هو الذى يمتلك حق الفصل فى النزاع ؛ وبذلك ظل رؤساء أساقفة صور يتمتعون باستقلالهم دون أن يعترفوا بالتبعية لبطرق بيت المقدس أو لبطرق أنطاكية[١] .

ومن الواضح أن فولك وجد نفسه فى موقف حرج صعب إزاء تلك المشكلة، بوصفه ملك بيت المقدس من ناحية والوصى على إمارة أنطاكية من ناحية أخرى . وهكذا التزم فولك الحذر الشديد حتى لا يغضب أحد الجانبين ، حتى استطاع البابا أنوسنت الثانى أن يحل المشكلة حلا موفقاً ارتاح له الجميع[٢] .

ويرتبط بالجانب الكنسى فى سياسة فولك ذلك المجمع الكبير الذى عقد فى بيت المقدس فى أبريل سنة ١١٤٠ . ذلك أن المندوب البابوى الذى حكم بعزل رادلف بطرق أنطاكية ، اتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس حيث عقد مجمعاً كبيراً حضره زعماء الكنيسة الكاثوليكية فى مختلف الإمارات الصليبية. وترجع أهمية ذلك المجمع إلى أن جريجورى الثالث — رئيس الكنيسة الأرمنية — اشترك فيه ، مما أكسب المجمع أهمية سياسية خاصة . فكما أن ملكية بيت المقدس عملت على جمع شمل القوى الصليبية فى الشرق الأدنى تحت رايتها ؛ فكذلك عملت الكنيسة الكاثوليكية فى الشام على توحيد المسيحيين الشرقيين تحت زعامتها[٣] .

(1) Guillaume de Tyr. I, p. p. 623_624.
(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 26.
(3) Guillaume de Tyr. I, p. 687.

الفصل الرابع

القوى الاسلامية فى الشام والعراق

أحوال سلاجقة فارس :

استطاع محمد بن ملكشاه سلطان سلاجقة فارس (١١٠٥ — ١١١٨) أن ينقذ الدولة السلجوقية من الاستمرار فى طريق الانزلاق الذى تردت فيه منذ عهد بركيارق، وأن يقوم بنصيب وافر فى محاربة الصليبيين فى العراق والشام. حقيقة إن بعض المؤرخين العرب مثل ابن الأثير يأخذون عليه عدم خروجه بنفسه للجهاد، وأنه كان يكتفى بإرسال أتابكة الموصل وهمذان إلى الشام لقتال الصليبيين، ولكننا يجب أن نقدر الظروف التى أحاطت بالسلطان محمد السلجوقى، وأنه كان لا يستطيع أن يترك أملاكه فى فارس والعراق ليتنازعها أمراؤه، فضلا عن تربص العرب بالعراق ورغبتهم فى التحرر من سيطرة السلاجقة. ولا أدل على ذلك من ثورة بنى مزيد، وهى القبيلة العربية التى كانت تنتشر فى العراق غربى دجلة فى المنطقة من البصرة حتى هيت[٢]، إذ انتهز صدقه بن مزيد (١٠٨٦ — ١١٠٨) فرصة ضعف دولة السلاجقة للاستيلاء على المنطقة الواقعة حول الحلة، غربى الفرات. ولم يلبث صدقه أن «عظم شأنه وعلا قدره واتسع جاهه واتسع، واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم»، فاتخذ لنفسه لقب «سيف الدولة»، وأخذ يعمل لإنشاء دولة لنفسه فى العراق، مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية جميعا، مما جعل المؤرخ ابن الأثير يطلق عليه لقب «أمير العرب»[٢]. كذلك لم يتردد صدقة فى مساعدة محمد بن ملكشاه ضد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠١ هـ.

(٢) المرجع السابق.

أخيه السلطان بركيارق ، مما جعل محمد يكافئه باعطائه واسط ويسمح له باحتلال البصرة . ولكن لم يكد محمد بن ملكشاه يتولى السلطنة حتى تنكر لصدقة وخشى عاقبة أطماعه ، لاسيما عندما رفض صدقه إطاعة أوامر السلطان والمسير ضد الصليبيين للجهاد ، بل أنه رفض الاجتماع بالسلطان . هذا إلى أن بنى مزيد كانوا جميعا من الشعية ، وصفهم أبو المحاسن بأن « الجميع رافضة » مما أثار حنق السلاجقة — وهم سنيون — عليهم [1] . وكان أن انتهى الأمر بأن أرسل السلطان محمد شاه جيوشه ضد صدقة ، فأنزلت به الهزيمة ، وسقط صدقه قتيلا سنة ١١٠٨ ، وإن كان السلطان السلجوقى قد أكرم أرملة صدقة فأرسل لها أمانا « واعتذر إليها من قتل زوجها » وسمح لابنها دبيس بأن يحل محل أبيه صدقة فى إمارته [2].

أما فى الميدان الصليبى فقد فشل السلطان محمد السلجوقى فى حملاته وجهوده ضد الصليبيين . ومع ذلك فقد نجح فى نشر نفوذ السلطنة على الأمراء الأتراك فى منطقة الشرق الأدنى . وعند وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ خلفه ابنه محمود الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره ، فترك شئون الحكم فى أيدى وزرائه وعمه سنجار شرف الدين أنوشروان ، فى حين انغمس محمود نفسه فى اللهو . وفى ذلك العصر بالذات أخذ يبدو بوضوح ضعف السلطنة السلجوقية وتدهور أحوالها [3] ؛ وانعكس ذلك الضعف فى العلاقة بين المسلمين والقوى المسيحية فى الشرق الأدنى . ذلك أن سنجار وجه كل جهوده نحو الشرق والأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، ولم يعبأ بالشام وما كان يجرى فيه من أحداث بين المسلمين والصليبيين . وكذلك فعل الفرع السلجوقى فى الأناضول ، إذ شغلت سلطنة الروم بالمنازعات

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .
وقد اتهم البعض الأمير صدقة بأنه اتبع مذهب الباطنية ، ولكن ابن الأثير ينفى عنه هذه التهمة ويقول . « إنما كان مذهبه التشيع لا غير » .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 522-523.

بين أمرائها بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين بنى دانشمندحينا والبيزنطيين أحيانا ، وتركوا إخوانهم فى الشام يواجهون الصليبيين وحدهم [١] .

الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية :

أما الخلافة العباسية فكانت فى ذلك الوقت مجرد صورة شكلية ، دون أن يكون للخليفة العباسى أى ظل من السلطان والنفوذ . ولعل ضعف الخلافة العباسية فى ذلك الوقت هو الذى شجع دبيس بن صدقة على مهاجمة بغداد نفسها سنة ١١٢٠ . وكان دبيس — مثل أبيه صدقة — شيعيا ، فلم يحجم عن نهب المدينة وسلبها « وأتى بها من النهب والقتل والفساد ما لم يجر مثله » ، بل إنه نصب مخيمه فى مواجهة قصر الخليفة العباسى المسترشد بالله ، الذى لم يجد وسيلة لدفع ذلك الخطر سوى الاستنجاد بالسلطان محمود السلجوقى [٢] .

وهكذا ظل دبيس يهدد بغداد من مركزه — الحلة — حتى أمر السلطان محمود أحد رجاله — وهو آقسنقر البرسقى أتابك الموصل — بمحاربته ، ولكن الهزيمة حلت بأتابك الموصل على الضفة الشرقية للفرات سنة ١١٢٢ [٣] . وقد أدى انتصار دبيس على البرسقى إلى ازدياد نفوذه ، مما جعل الخليفة العباسى يستغيث بالسلاجقة من جديد . وأخيرا حلت الهزيمة بالأمير دبيس عند المباركة بين بغداد والكوفة — فى ربيع سنة ١١٢٣ ، فنقل دبيس نشاطه إلى البصرة ثم إلى قلعة جعبر فى شمال الشام حيث « التحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وطمعهم فى أخذها » [٤] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ

(٣) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٦ هـ .

(٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .

ولعل فى قصة دبيس بن صدقة ما يكفى لإيضاح الوضع المؤسف الذى انحدرت إليه القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى ، فى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يمكنون لأنفسهم فى بلاد الشام وشمال العراق . وكان المفروض فى الخلافة العباسية عندئذ أن تتزعم القوى الإسلامية لدفع خطر الصليبيين عن البلاد الإسلامية ، ولكن ظهر أنها كانت أضعف من أن تحمى نفسها من المسلمين أنفسهم . ولما أراد الخليفة العباسى المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) أن يكون له كيان سياسى مستقل عن السلطنة السلجوقية ، وطالب بإنشاء جيش للخلافة خاص بها ؛ عارضه السلطان محمود السلجوقى ورأى أن يوقف الخليفة عند حده ، فزحف على رأس جيش كبير إلى بغداد . وكان أن خرج الخليفة ومعه أفراد أسرته إلى الضفة الغربية لنهر دجلة ومن ورائه أهل بغداد يبكون « بكاء عظيما لم يشاهد مثله » . وقد استطاع عماد الدين زنكى — حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقى — أن ينزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط . ثم دخلت جماعة من عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها واعتدوا على الأهالى ؛ فى حين اضطر الخليفة إلى الخضوع فى نهاية الأمر « واعتذر السلطان مما جرى وعفا عن أهل بغداد جميعهم » (سنة ١١٢٧)[١] .

أما الخلافة الفاطمية — على الجبهة الغربية للصليبيين — فلم تكن أحسن حالا من الخلافة العباسية ؛ إذ جاء مقتل الوزير الأفضل فى ٥ ديسمبر سنة ١١٢١ بمثابة بداية النهاية فى تاريخ الخلافة الفاطمية . ولم تظهر بعد ذلك فى الدولة شخصية قوية تستطيع أن تقوم بما قام به بدر الجمالى أو الأفضل من رعاية سياسة الدولة وتدبير أمورها[٢] . وهكذا ضمن الصليبيون فى الشام قسطاً من الاستقرار فى أوائل القرن الثانى عشر أمام تدهور نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية فى الشرق

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٢٩ — ٣٠

(2) Wiet: L'Egypte Arabe. p. 268

من ناحية ، وانحلال الخلافة الفاطمية من ناحية أخرى [١] .

طائفة الاسماعيلية الباطنية :

وثمة طائفــة لعبت دوراً خطيراً فى تاريخ الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية وأثرت عن طريق مباشر أو غير مباشر فى مجرى وأحداث تلك الحروب، مما يجعلها تتطلب منا عناية خاصة فى هذه الدراسة . ونقصد بهذه الفرقة الإسماعيلية، الذين ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٥ ﻫ). وقد نجح أتبــاع إسماعيل هذا فى إقامة الدولة الفاطمية ، ومن ثم ظلت هذه الدولة تتزعم الدعوة الإسماعيلية التى اشتد ساعدها بصفة خاصة فى مصر وفارس والشام . على أنه حدث عند وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٨٧ أن تصدعت الدعوة الإسماعيلية، فانشق أتبــاعها فى فارس والشام وانتموا إلى نزار بن المستنصر ، ومن ثم أطلق على هذا الفريق اسم النزارية [٢] .

ومن أهم المبادىء التى أقام عليها الإسماعلية مذهبهم إيمــانهم بأن للعقيــدة ظاهراً وباطناً ، وأن الشخص الذى يدرك كنه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب. وقد أدى بهم هذا الرأى إلى تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا لــكل نوع من أنواع العبادة باطناً مما جعل الناس يطلقون عليها اسم « الباطنية » [٣] .

وكان أول دعاة الباطنية ، أحمد بن عبدالملك بن عطاش الذى قدمه الباطنية عليهم وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال . وبعد وفاته حل محله الحسن بن الصباح، الذى وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم . وسرعان ما اشتد ساعد الحسن بن الصباح فى فارس ، وساعده على ذلك تفــكك

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 530.
(2) Setton : op. cit, I. p. 101–102
(٣) عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ٧١ .

الدولة الإسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى . وقد لجأ الحسن الصباح فى نشر دعوته إلى سلاحين : الأول استمالة بعض الزعماء المحليين وأمراء القلاع فى بلاد فارس ، والثانى محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعة لتكون معاقل له ولأتباعه يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحماتها من السلاجقة . وكانت أهم هذه القلاع التى استولى عليها الحسن الصباح قلعة الموت فى طبرستان قرب قزوين ، وقلعة شاه ذر وقلعة خان ، وهما على جبل أصبهان قرب أصفهان عاصمة السلاجقة عندئذ[١] .

وترجع أهمية الحسن الصباح فى التاريخ إلى براعته الفائقة فى التنظيم ، إذ نظم جماعته تنظيما محكما أساسه مبدءان هما : السرية التامة والطاعة العمياء . ولما كان هدف الحسن تأسيس دولة كبيرة ثابتة ، فإنه قسم مراتب الدعوة النزارية إلى خمس :

١ — مرتبة شيخ الجبل ، وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من رؤساء الدعوة الذين جمعوا فى قبضتهم بين شئون الدين والدنيا ، — أى الدعوة والدولة جميعاً — فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم فى فارس والشام وغيرهما من البلاد[٢] .

٢ — مرتبة كبار الدعاة ، وكانوا ثلاثة كل منهم يعمل على نشر الدعوة الباطنة فى جزء من العالم الإسماعيلى ، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية النزارية فى ألموت .

٣ — مرتبة الدعاة ، وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم ، يتبعون دعاة

(1) Setton: op. cit, I, p. p. 108—109.

(٢) طه أحمد شرف : دولة النزارية ص ٨٠ .

الدعاة ويتلقون تعاليمهم فى قلعـة ألموت ، ثم ينشرون الدعوة ويعطون العهود للمستجيبين لها[1] .

٤ ـ مرتبة الرفاق ، وهم دعاة تحت التمرين لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة ، ويصل الواحد منهم بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعـد امتحانات واختبارات طويلة[2] .

٥ ـ مرتبة الفداوية أو الفدائيين : وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداء رئيسهم . وصاروا بمثابة الأداة الفعالة التى استخدمها الحسن الصباح وخلفاؤه فى قتل خصومهم . ومن الواضح أنه روعى فى اختيار أولئك الفداوية الشجاعة التى هى أقرب إلى التهور ، والقوة البدنية الفائقة التى تمكنهم من تأدية المهام الخطيرة الموكولة إليهم[3] .

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أن الفداوية كانوا أهم مرتب التنظيم الإسماعيلى . بوصفهم الأداة العاملة التى قامت فعلا بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة فى عصر الحروب الصليبية . لذلك اهتم الحسن الصباح بتدريب الفداوية تدريباً خاصاً طويلا يتناول الجانبين الروحى والمـادى ويبدأ منذ الطفولة ، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمة على حياة الزهـد والمخاطرة والرغبة فى التضحية[4] . وقد ذكر الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) أن شيخ الجبل أنشأ قرب قلعـة ألموت حديقة حرص على أن يجعل لهـا جميع صفات الجنة ، من أنهار فيها خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى ، وفواكه شهية من كل الثمرات ، وفتيات حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . . وغير

(1) Sykes: History of Persia vol. 2. p. p. 37—38.
(2) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. 2. p. 206.
(3) Ivanow: An Islamic Ode in Praise of Fidawis. p. p. 63-64
(4) Setton: op cit, I, p. 108.

ذلك من مختلف أنواع المغريات التى جاءت فى أوصاف الجنة . وبعد أن يتسامر شيخ الجبل بعض الوقت مع الفتية الفداوية الذين تم اختيارهم ، يعطيهم مشروباً مخدراً – لعله من نبات الحشيش – مما جعل اسم « الحشيشية » يلصق بتلك الطائفة من الإسماعيلية فى التاريخ(١) . فإذا ما فقدوا وعيهم حملوا إلى تلك الجنة ، حتى إذا أفاقوا حسبوا أنفسهم فى الجنة فعلا(٢) . على أنهم لا يتركون فى جنتهم طويلا ، إذ يخدرون مرة أخرى ليحملوا أثناء غيبوبتهم إلى دار شيخ الجبل حيث كان المجلس الأول . وعندما يفيقون يسألهم أين كانوا فيؤكدون له أنهم كانوا فى الجنة ، وعندئذ يعدهم شيخ الجبل بالخلود فى تلك الجنة إذا هم قتلوا فلانا وفلانا من الأشخاص الذين يحددهم لهم ، بذلك يثير فيهم الحماسة لتنفيذ تعاليمه . ويشعرون بالرغبة فى التضحية بكل شىء فى سبيل العودة إلى الجنة التى سبق أن رأوها وأحسوا بلذة الإقامة فيها(٣)

ومن الثابت أن نشاط الباطنية الهدام أخذ يمتد إلى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر . وينقسم الدور الذى قام به الإسماعيلية فى عصر الحروب الصليبية إلى قسمين : أولهما : مقاومة المذهب السنى والعمل على الفتك بزعمائه .
وثانيهما : مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم . ولم يفرق الإسماعيلية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين والمسيحيين ، وإنما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً وفى سبيل هذه المصلحة الخاصة لم يتحرج

---

(١) يؤكد بعض علماء اللغويات أن الفعل الإنجليزى to assissinate بمعنى يغتال أو يقتل ، والاسم منه assassin بمعنى قاتل ، إنما مشتقة من كلمة الحشاشين ، وهم تلك الفئة من الفداوية الذين اشتهروا بالقتل والاغتيال فى عصر الحروب الصليبية والذين أطلقت عليهم بعض المراجع العربية إسم الحشيشية لتناولهم الحشيش . وقد جاء فى قاموس اكسفورد أن أصل هذا اللفظ الأوربى هى كلمتا « حشاش وحشيشية » العربيتان . ويدلل هؤلاء العلماء على رأيهم بأن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه الحالى فى اللغات الاوربية إلا فى عصر الحروب الصليبية .

(2) Michaud : op. cit, II. p p. 72 – 73.

(3) Marco Polo : Travels, p p. 49-53.

زعماؤهم من محالفة الصليبيين حينا أو مهادنة السنيين أحياناً . وهكذا أدى اتساع نشاط الباطنية فى بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد قوى إلى عوامل التفكك التى تعرضت لها تلك البلاد فى عصر الحروب الصليبية[1] .

ذلك أنه حدث فى الوقت الذى كان المسلمون فى حالة دفاع ضد الصليبيين ، أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب الباطنية ، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية فى جبهتهم ، فى حين تماسك الصليبيون وحرص أمراؤهم على شد أزر بعضهم بعضاً . وحسبنا مافعله الباطنية فى حصن شيزر سنة ١١٠٩ ، « إذ ثار جماعة من الباطنية فيه على حين غفلة من أهله . . . فملكوه وأخرجوا من كان فيه » وانتزعوه من أصحابه بنى منقذ[2] .

وكان القتل هو السلاح الرهيب الذى استغله الباطنية فى تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم ، بحيث يضيق بنا المقام عن حصر ضحاياهم فى عصر الحروب الصليبية بالذات من الأمراء وغير الأمراء . ومن ضحايا الحسن الصباح كان الوزير السلجوقى نظام الملك الذى قتله الباطنية سنة ١٠٩٢ ، فخسرت دولة السلاجقة بمقتله شخصية من أعظم الشخصيات التى ارتبط بها تاريخ السلاجقة ، وأسف الناس عليه « لما كان عليه من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن »[3] .

وزاد من نفوذ الباطنية فى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر ، عطف رضوان ملك حلب عليهم وحمايته لهم . وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ

---

(1) Setton : op. cit; I. p. p. 109 - 110.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٧ ؟

ابن الاثير : الكامل ، سنة ٥٠٢ هـ

(٣) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

أول زعماء الباطنية بالشام ، وحصلا على مكانة كبيرة لدى رضوان ، فاستغل الباطنية تلك المكانة وأخذوا يباشرون أعمالهم الإجرامية ضد زعماء المسلمين والصليبيين جميعاً . وقد افتتح الباطنية نشاطهم فى بلاد الشام بقتل جناح الدولة أمير حمص سنة ١١٠٣ (١) ؛ ثم قتلوا خلف بن ملاعب صاحب فامية بعد ذلك بثلاث سنوات «قتله قوم من الباطنية نفذهم إليه المعروف بأبى طاهر الصائغ العجمى من حلب(٢)» .

ويبدو أن بعض زعماء المسلمين وأمرائهم بالشام وجدوا فى الحشيشية أداة طيبة للتخلص من منافسيهم وخصومهم . ومن ذلك ما حاوله رضوان ملك حلب سنة ١١١١ من تحريض الباطنية على قتل طغتكين أتابك دمشق(٣)؛ وما لجأ إليه طغتكين أتابك دمشق فضلا من استخدام بعض الباطنية فى قتل ضيفه مودود أتابك الموصل سنة ١١١٣ (٤) وعند ما أحس الباطنية أنهم مكروهون فى حلب وأن موقفهم صار حرجاً بعد وفاة رضوان ، حاولوا مرة أخرى الاستيلاء على شيزر ، ولكنهم فشلوا فى ذلك .

ولم يسكت سلاطين السلاجقة عن عبث الباطنية بمصالح البلاد وأرواح العباد ، ولكن يبدو أن جهودهم لم تكلل بالنجاح التام ، كما أنهم فشلوا فى الاستيلاء على قلعة الموت ، ومن تلك المحاولات ما قام به السلطان محمد السلجوقى ، «فإن لما علم أن مصالح العباد والبلاد بمحو آثارهم (الباطنية) وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم ، جعل قصدهم دأبه . وكان فى أيامه المقدم عليهم والقيم

---

(1) Lewis : The Sources for the Hist. of the Syrian Assassins, p. p.] 585 - 486.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Or. Hist. III p. p. 601 - 602)

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

بأمرهم الحسن بن الصباح الرازى صاحب قلعة ألموت ؛ فأمر السلطان بعض أمرائه بمهاجمته ، وما زالوا يحاصرونه ويهاجمونه حتى وفاة السلطان» . ولكن الحسن الصباح ظل رابضاً فى قلعة ألموت فى خراسان ، ومن ذلك المركز الحصين استمر يوجه تلك الشبكة الخطيرة حتى وفاته سنة ١١٢٤ . وطوال تلك السنوات استمر اسم الحسن الصباح يثير الرعب فى قلوب الناس فى الجهات المجاورة «لكثرة إغارته عليهم وقتله لهم وأسر رجالهم وسبى نسائهم» ، دون أن تستطيع الجيوش السلجوقية الوصول إلية أو القضاء عليه[1] .

ثم إن نشاط الباطنية فى الشرق الأدنى فى ذلك الدور لم يقتصر على بلاد فارس وإقليم حلب ، وإنما امتد أيضاً إلى القاهرة ودمشق ، ففى القاهرة نسمع من المراجع عن مقتل الوزير الأفضل بيد أحد الباطنية فى أحد طرق القاهرة سنة ١١٢١ . أما فى دمشق فقد ازداد نفوذهم وانتقل إليها مركز نشاطهم بعد أن توفى رضوان صاحب حلب سنة ١١٣٣ وتعرضوا لتنكيل ابنه الملك البارسلان الذى قتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ واسماعيل الداعى وأخى الحكيم المنجم وغيرهم ، مما جعل أتباعهم يتفرقون فى البلاد[2] . ولم يلبث أن وفد على الشام من فارس أحد زعماء الباطنية واسمه بهرام ، فنزل على حلب ثم انتقل إلى دمشق حيث حظى برعاية طغتكين «وأكرم لاتقاء شره وشر جماعته ، وحملت له الرعاية وتأكدت به العناية[3]» . وهكذا أخذ بهرام ينشر الدعوة الإسماعيلية ، حتى «استفحل أمره وعظم خطبه فى حلب والشام ، وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزى واللباس ، بحيث يطوف البلاد والمعاقل ولا يعرف أحد شخصه»[4] . على أن بهرام خشى أهل دمشق وهم من السنة ، فما زال يسعى

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٩ هـ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ .

(٤) المرجع السابق .

عند طغتكين حتى منحة بانياس سنة ١١٢٦ . وسرعان ماغدت بانياس « حصنا يأوى إليه ومعقلا يحتمى به ويعتمد عليه » [١] . ويعبر ابن الأثير عن استيلاء الباطنية على بانياس بأن ذلك جاء كارثة على البلاد « إذ عظم خطبه (بهرام) وحلت المحنة بظهوره ، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين ، لاسيما أهل السنة ، إلا أنهم لايقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفا من سلطانهم (طغتكين) أولا ومن شر الاسماعيلية ثانيا ، فلم يقدر يقدم أحد على هذه الحال وانتظروا بهم الدواير ... » [٢] . أما ابن القلانسى فيقول إن بهرام لم يكد يستولى على بانياس حتى « اجتمع إليه أوباشه من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام وغوغاء الطغام الذين استغواهم بمحاله وأباطيله ؛ واستمالهم بخدعه وأضاليله ، فعظمت المصيبة بهم وجلت المحنة بظهور أمرهم ، وضاقت صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين » [٣] .

وهكذا لم يستطع الناس الاعتراض على أعمال الباطنية ، نظراً لحماية طغتكين لهم من ناحية ولعنف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخرى ، إذ « شرعوا فى قتل من يعاندهم ، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال ، ويرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير ولا يغل حد شرهم متقدم ولا أمير ! » [٤] . وإذا كانت جهود السلطان محمد شاه السلجوقى فى فارس ضد الباطنية قد أسفرت عن محاصرة قلعتهم شاه ذر — المجاورة لأصفهان — وفتحها وقتل من فيها من الباطنية [٥] ، فإن هذه الضربة التى حلت بالباطنية فى فارس لم تؤثر فى نشاطهم بالشام ، حيث

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ .
(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، ابن القلانسى ؛ ص ٢١٥ .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١ هـ .

استمروا يدعمون نفوذهم ويوسعون سلطانهم ويضاعفون نشاطهم يوما بعد يوم [١]

ذلك أن بهرام أخذ يبعث من بانياس الدعاة والفداوية إلى مختلف أنحاء الشام لنشر الدعوة الاسماعيلية من ناحية ولتنفيذ ما رآه من اغتيالات سياسية من ناحية أخرى . وقد نجح بعض أولئك الأعوان بدورهم فى الاستيلاء على حصون جديدة فى جبال الشام ، مثل حصن القدموس [٢] . وأخيرا أفاق طغتكين إلى خطر الباطنية وأخذ يفكر فى التخلص منهم ، ولكنه توفى فى فبراير سنة ١١٢٨ قبل أن يتمكن من القيام بأى عمل ضدهم . وعند وفاة طغتكين خلفه ابنه تاج الملوك بورى فى حكم دمشق ، فاحتفظ بأبى على طاهر بن سعد المزدقانى (المزدغانى) وزيراً له . وقد أفرط المزدقانى فى العطف على الباطنية ، وقرب مندوبهم فى دمشق ــ واسمه أبو الوفاء ــ الذى وصفه ابن الأثير بأن سلطته فى دمشق فاقت سلطة تاج الملوك بورى نفسه « وأن حكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك » [٣] .

ثم كان أن قتل بهرام أحد مقدمى وادى التيم ــ واسمه برق بن جندل ــ دون سبب ، فأصر قومه على الأخذ بثأره . وفى الاشتباك الذى حدث بين الطرفين سنة ١١٢٨ ، حلت الهزيمة بالباطنية ، وقتل منهم كثيرون ، وقطع رأس بهرام ، وبذلك ضعف شأن الباطنية « وقلت عدتهم وانقصفت شوكتهم وانفلت شكتهم [٤] » ! وقد خلف بهرام فى بانياس رفيقه اسماعيل العجمى الذى حظى هو الآخر بعطف الوزير أبى علــى طاهر المزدقانى فى دمشق « فى المساعدة على

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥١، ٢١٥ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) ابن القلانسى ؛ ص ٢٢٣ .

مراده والمعاضدة على أغراضه »[1] . واستمر الأمر على ذلك حتى وجد ذلك الوزير الفرصة مناسبة لتدبير مؤامرة مع الصليبيين، فعرض عليهم تسليمهم دمشق مقابل إعطائه — هو والإسماعيلية — مدينة صور بدلها[2] . وكان أن أبرمت الاتفاقية ، وحدد أحد أيام الجمعة والمسلمون فى المساجد لفتح أبواب دمشق للصليبيين[3] .

على أن المؤامرة انكشفت قبل موعد تنفيذها ، فقتل بورى وزيره الخائن أبو على طاهر المزدقانى وأحرق جثته[4] ، وبذلك حانت الفرصة سنة ١١٢٩ للتخلص من الباطنية ، « ونادى (بورى) بقتل الباطنية فقتل منهم ستة ألف نفس ». وهكذا استمر أهل دمشق يذبحون فيهم ، فتعقبوهم « وتتبعوهم فى أماكنهم واستخرجوهم من مكانهم وأفنوهم جميعاً تقطيعا بالسيوف وذبحاً بالخناجر » . ولم تلبث أخبار ماحدث للباطنية فى دمشق أن وصلت إلى مسامع إخوانهم فى بانياس « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » ، واستنجد اسماعيل العجمى بالصليبيين وعرض عليهم تسليمهم بانياس ليحموه . وهكذا تسلل الباطنية من بانياس إلى البلدان المجاورة وهم « فى غاية من الذلة ونهاية من القلة » فى حين مات إسماعيل العجمى بعد قليل ودفن فى بانياس[5] .

ومع ذلك فقد استمر نشاط الحشيشية الهدام فى منطقة الشرق الأدنى بقية عصر الحروب الصليبية . من ذلك أنهم قتلوا فى همذان قاضى القضاة زين الإسلام أباسعد محمد بن نصر الهروى أثناء عودته من خراسان الى بغداد ، ولم

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ .
(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣هـ، ابن القلانسى ، ص ٢٢٣ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٤١ (مخطوط)
(٥) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (Rec. Hist Or. p. 567)

يجرؤ شخص على أن يتبعهم « للخوف منهم » [١] . وفى ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ قتلوا البرسقى أتابك الموصل [٢] . وفى سنة ١١٢٧ قتلوا المعين وزير السلطان سنجر ابن ملكشاه صاحب خراسان ، وكان ذلك الوزير قد فتك بجماعة منهم وحرض السلطان على « النكاية فيهم وتطهير الأرض منهم » [٣] . وفى سنة ١١٣٠ أرسل الباطنية من مركزهم فى الموت اثنين من الخراسانية لقتل تاج الملوك بورى أتابك دمشق والانتقام منه لما حل بإخوانهم فى دمشق وبانياس . وقد تحايل هذان القاتلان على تنفيذ غرضهما حتى نجحا فى الاعتداء على بورى ، ولكن إصابته لم تكن قاتلة فبرأ وفشلت خطة الباطنية [٤] . وفى سنة ١١٣٤ نفى السلاجقة الخليفة المسترشد العباسى إلى أذربيجان حيث قتل بواسطة جماعة من الباطنية . وفى سنة ١١٤٠ استطاع الباطنية أن يمتلكوا حصن مصيات (مصياف) « بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له » [٥] . وفى سنة ١١٥٢ قتل بعض الباطنية ريموند الثانى أمير طرابلس . ويطول بنا الأمر لو حاولنا تسجيل كافة اغتيالات الباطنية ولكن يكفى أن نختتم هذه القائمة بالإشارة إلى أنهم حاولوا أكثر من مرة قتل صلاح الدين الأيوبى نفسه — كما سيلى فيما بعد — ولكن الله سلم .

وهكذا ظلت الاسماعيلية مصدراً خطيراً للانحلال السياسى والاجتماعى فى بلاد الشام بالذات على عصر الحروب الصليبية [٦]

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 653)

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(6) Setton : op. cit; I, p. p. 109 - 110.

حلب والموصل :

اختار السلطان محمد السلجوقى سنة ١١١٨ آقسنقر البرسقى حاكم الموصل ليلى شحنكية بغداد ، أى ينوب عنه فى بغداد لدى الخليفةالعباسى المسترشد[١] ، ثم عاد السلطان محمود سنة ١١٢٤ فأقطع البرسقى من جديد الموصل وأعمالها مع تكليفه بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين[٢] . ولم يلبث البرسقى وهوبالموصل أن تلقى نداء من أعيان حلب لنجدتهم ضد الصليبيين ، فرحب حاكم الموصل بتلك الفرصة التى أتاحت له السيطرة على حلب ، لاسيما بعد أن وافق الحلبيون على تسليمه قلعة المدينة؛ فخف إليها ـ وصحبته طغتكين أتابك دمشق وصمصام الدين خير خان بن قراجا صاحب حمص ـ ووصلوا جميعا إلى حلب فى أواخر يناير سنة ١١٢٥[٣] .

وهكذا اجتمعت حلب والموصل فى قبضة حاكم مسلم واحد ـ هو البرسقى ـ مما يعتبر نواة لتوحيد المسلمين فى أطراف العراق والشام ، ثم تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة فيما بعد . ولا شك فى أن هذا الارتباط بين حلب والموصل كان أخطر مايخشاه الصليبيون، نظراً لما يمكن أن ينجم عنه من قطع الصلة بين إمارة الرها من ناحية وبقية الإمارات الصليبية بالشام من ناحية أخرى ، فضلا عما فى تكتيل القوى الإسلامية نفسها من معانى القوة التى لم يشعر بها الصليبيون حتى ذلك الوقت بسبب تفرق كلمة المسلمين وعدم وحدتهم[٤] .

---

(١) أطلق على نائب سلطان السلاجقة أو ممثله لدى الخليفة العباسى فى بغداد لقب شحنة ، وهو لقب فارسى . أما الوظيفة نفسها ، فقد أطلق عليها اسم «شحنكية بغداد» .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades I. p. 631 .

ثم إن هـذه الخطوط التى اتخذها البرسقى زاد من خطرها أنه كان يتمتع بعطف السلطان محمود السلجوقى «لأنه كان ناصحا له ملازما له فى حروبه كلها[١]».
وقد ظل البرسقى محتفظا بولائه للسلطان الذى عهد إليه بمهمة الجهاد ، وبناء على ذلك فإن البرسقى كان يمثل فى تصرفاته وجهوده السلطة السياسية الشرعية الكبرى فى الجبهة الشرقية من العالم الإسلامى ، ولا تستطيع قوة أخرى من القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة فى أطراف العراق أو بلاد الشام أن تقف فى وجه البرسقى أو أن تنافسه فى مكانته وزعامته . وعلى هذا الأساس أخذ البرسقى يتصرف تجاه القوى الإسلامية المجاورة وتجاه الصليبيين فى بلاد الشام وشمال العراق ، طوال سنتى ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، حتى كان مقتله فى يوم الجمعة ٢٦ نوفمبر سنة ١١٣ بأيدى الباطنية فى الموصل[٢] .

وقد خلف آقسنقر البرسقى فى حكم حلب والموصل ابنه عز الدين مسعود . على أن مسعود لم يلبث أن وقع فى خلاف مع طغتكين أتابك دمشق ، فدس له الأخير السم ، وبذلك توفى مسعود فى العام التالى بالرحبة[٣] . ولا شك فى أن هذه الأحداث أوقعت حلب بالذات فى حالة من الفوضى شديدة لاسيما وأن الحلبيين لم يرضوا عن قتلغ ، وهو الذى عينه السلطان محمود سنة ١١٢٧ على حلب بعد وفاة عز الدين مسعود بن البرسقى . لذلك استنجد أهل حلب ببدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وهو الذى سبق له أن حكم حلب سنة ١١٢٢ — ١١٢٣ ، قبل أن يطرده بلك[٤] .

ولا شك فى أن تلك التطورات كلها أضعفت من موقف المسلمين وقوت

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ١٠ (مخطوط) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢١ هـ .
(٤) النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٣٩ (مخطوط) .

موقف الصليبيين ، فتعرضت حلب بالذات لهجمات من جانب بوهيموند الثانى أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها[1] . بل إن الملك بلدوين الثانى ـ ملك بيت المقدس هدد دمشق نفسها سنة ١١٢٩ ، كما سبق أشرنا[2] . وهكذا حتى ظهر على المسرح عماد الدين زنكى ، فبدأت صفحة جديدة فى ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين فى الشرق الأدنى .

ظهور عماد الدين زنكى :

أما عماد الدين زنكى هذا ، فكان أبوه قسيم الدولة آقسنقر الحاجب ، قائداً من قادة جيش السلطان ملكشاه السلجوقى ، « ومن أعيان دولته وأكابر أمرائه وأخص أوليائه ، واعتمد عليه فى أموره كلها »[3] . وقد كافأ ملكشاه قائده بإعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢ ، ولكن آقسنقر لم يلبث أن قتل سنة ١٠٩٤ ؛ قتله تتش أخو ملكشاه ، فنشأ زنكى بعد أبيه نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان ، ودخل فى خدمة أتابكة الموصل : جاولى ثم البرسقى ، حتى وصل إلى حكم البصرة ، وعندئذ كلفه السلطان محمود السلجوقى بإخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦[4] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ . &

Guillaume Tyr p. 590.

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (568 – 567 .p) &
ابن القلانسى ؛ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١ (مطبوع) .

(٤) ولى المسترشد الخلافة العباسية سنة ١١١٨ ، وأراد أن يستغل المنازعات التى غرق فيها حكام السلاجقة عندئذ ليحرر الخلافة العباسية من سيطرتهم ، الامر الذى جعل السلطان محمود السلجوقى يعهد إلى زنكى بإخضاع حركة الخليفة سنة ١١٢٦ . ويقول ابن الاثير إن برنقش الزكوى شحنة بغداد هو الذى سار إلى السلطان ، واستثاره على الخليفة « وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق » . (التاريخ الباهر ، ص ٢٨ — ٢٩) .

وكان أن أظهر زنكى همة كبيرة وكفاية عالية فى تلك المهمة التى كلفه بها السلطان ؛ فأنزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط وزحف على بغداد ، وانتصر على الخليفة المسترشد الذى اضطر إلى الإذعان للسلطان فى يناير سنة ١١٢٧ [١] .

وهكذا لفت زنكى الأنظار إليه بشجاعته ومقدرته ، فولاه السلطان «شحنكية العراق» فى إبريل سنة ١١٢٧ ، وهو المنصب الذى جعل منه رقيبا على الخليفة[٢] .

وحوالى ذلك الوقت ـ أو بعده بقليل ـ توفى عز الدين مسعود بن البرسقى أتابك الموصل وحلب ، فذهب وفد من أعيان الموصل إلى بلاط السلطان السلجوقى فى فارس طالبين تعيين حاكم جديد على مدينتهم ، يستطيع الدفاع عنها ضد تهديد الصليبيين[٣] .

وكان أن وقع اختيار السلطان على زنكى «لما يعلمه من كفايته لما يليه» ، فعينه أتابكا على الموصل سنة ١١٢٧ . وبعد أن نظم زنكى أمور الموصل ، استولى على نصيبين من الأراتقة ، ثم اتجه إلى حران التى كانت دائما تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم ، بسبب تعرضها للهجمات المتكررة من الرها وسروج والبيرة ؛ فاستولى عليها وفرح أهلها بذلك لأنهم اعتقدوا أن مدينتهم صارت فى يد أمينة[٤] . ثم إن زنكى اختار ألا يبدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣٠ — ٣١ .

(٣) يروى ابن الاثير أن أهل الموصل عندما قابلوا الوزير شرف الدين بن خالد قالوا له : (قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها . وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ماعدا البلاد الباقية بيد المسلمين . وقد كان البرسقى مع شجاعته وتجربته وانقياد العسكر إليه مكف بعض عاديتهم وشرهم ، فمذ قتل ازداد طمعهم ، وهذا ولده صغير . ولابد للبلاد من رجل شجاع ذا رأى وتجربة يذب عنها ويحفظها ويحمى حوزتها ....) .
وقد أورد ابن واصل أيضاً نصاً مشابها (مفرج الكروب ج ١ ص ٣٢ — ٣٣) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٤ — ٣٦ .

إلا بعد أن يضع يده على حلب أولا وينظم أمور تلك البلاد . لذلك أسرع عقب استيلائه على نصيبين إلى عقد هدنة مع جوسلين أمير الرها [١].

وكانت حلب – كما سبق أن ذكرنا – قد وقعت فى حالة شديدة من الفوضى عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البرسقى ، فأصبحت ميداناً للنزاع بين سليمان بن عبد الجبار الأرتقى ، وإبراهيم بن رضوان السلجوقى ؛ فى الوقت الذى أراد كل من جوسلين الثانى أمير الرها وبوهيموند الثانى أمير أنطاكية أن يستفيد من تلك الأوضاع للاستيلاء على حلب [٢]. ولكن وصول زنكى إلى حلب فى ذلك الوقت – سنة ١١٢٨ – أفسد على جميع أولئك الطامعين أغراضهم ، لأن زنكى كان يحمل تقليداً من السلطان بحكم حلب ، وبهذه الصفة الشرعية استطاع أن يمكن لنفسه فى حلب بسهولة ، فدخلها فى ١٨ يونيه ١١٢٨ ، حيث استقبله أهل حلب استقبالا رائعاً « وأظهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ... ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد (زنكى) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه » [٣].

وهنا نلاحظ أن الظروف كلها كانت معدة عندئذ لأن يقوم زنكى بمشروعه الضخم الخاص بتوحيد القوى الإسلامية فى العراق والشام ؛ وذلك بعد وفاة طغتكين أتابك دمشق العتيد فى فبراير ١١٢٨ ؛ وهو الرجل الذى حظى بنفوذ قوى فاق نفوذ بقية الأمراء المسلمين ببلاد الشام . ولكى يتمكن زنكى من إتمام ذلك المشروع بدأ بخطوتين : الأولى الزواج من خاتون بنت الملك رضوان

---

(١) (فهادنه مدة يسيرة ، وكان غرضه أن يتفرغ لاصلاح البلد) .
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢١ هـ .

(2) Stevenson : op. cit, p. 119

(٣) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ص ٣٧ — ٣٨ .

ابن تتش ملك حلب السلجوقى[١] الأسبق ؛ وذلك ليثبت مركزه فى حلب ويرث عن طريق تلك الزيجة حقوق بيت رضوان فى شمال الشام. والثانية ذهابه سنة ١١٢٩ إلى بلاط السلطان محمود السلجوقى ، الذى منحه « التواقيع السلطانية بملك الغرب كله »[٢]. وبعد ذلك عاد زنكى إلى حلب « فى عسكره عازماً على الجهاد »[٣]؛ ومعه « منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما »[٤].

وكانت ممتلكات المسلمين فى بلاد الشام مقسمة عندئذ بين ثلاث قوى؛ الأولى محورها بورى بن طغتكين أتابك دمشق، وكان يسيطر على دمشق وحماه فى الشمال وحوران فى الجنوب. والثانية محورها صمصام الدين خيرخان (قيرخان) ابن قراجا أمير حمص. والثالثة محورها ساطان بن منقذ، وهو الأمير العربى الذى سيطر على شيزر. ولم يستطع خيرخان بن قراجا أو سلطان بن منقذ مقاومة الأتابك زنكى ، فأعلنا ولاءهما وخضوعهما له ، وبذلك لم يبق أمام زنكى سوى تاج الملوك بورى أتابك دمشق[٥].

والواقع إن بورى الذى تعرض لتهديد الصليبيين وغزوهم سنة ١١٢٩ ، كان يخشى خطراً دائماً من جانب بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، ولذلك رحب بما عرضه عليه زنكى من محالفته ضد الصليبيين . على أن زنكى لم يلبث أن تنكر لذلك الحلف مع بورى ، وانقض على حماه واستولى عليها فى سبتمبر سنة ١١٣٠ ليبيعها مقابل مبلغ كبير من المال للأمير خيرخان (قيرخان) صاحب حمص[٦]. ولم يكد خيرخان يدفع المبلغ المتفق عليه ويستولى على حماه فى ٢٠ سبتمبر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ص٤٠ (مطبوع) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 658)

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع) .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨ ؛
(ابن العديم : زبدة الحلب ، p. 650)

(٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .

حتى غدر بة زنكى ، فانقض عليه هو الآخر فجأة وحبسه بقلعة حلب ، ثم اتجه ليستولى على حمص ذاتها مثلما استولى على حماه[١]. ولكن زنكى ظل يحاصر حمص ويهاجمها أربعين يوماً « لم يظفر منها بطايل[٢] » ؛ فعاد إلى حلب فى أواخر سنة ١١٣٠ . ولا شك فى أن فشل زنكى أمام حمص جاء ضربة قوية عرقلت وحدة المسلمين فى شمال الشام بضعة سنوات .

على أنه يلاحظ أن زنكى لم يمض فى طريقه على الوجه السابق دون أن يصادف معارضة من الأمراء المسلمين المحليين . وقد ظهرت تلك العقبات من جانب الأراتقة الذين حكموا حلب فى وقت من الأوقات . ذلك أنه عز على الأراتقة أن يستأثر زنكى بحكم حلب وأن يزداد نفوذه فى شمال الشام والعراق بصورة تهدد مصالحهم ؛ فجمع حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين ، وابن عمه ركن الدولة داود بن معين الدين سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وغيرهما من أمراء الأراتقة فى ديار بكر ، قوة تبلغ عشرين ألف من التركمان ضد زنكى ؛ ولكن الهزيمة حلت بهم عند مدينة سرجى فيما بين ماردين ونصيبين . ولاشك فى أن هذا النصر ضمن لزنكى سيادته على شمال الشام وأطراف آسيا الصغرى[٣].

أما عن علاقة زنكى بإمارة أنطاكية الصليبية فى تلك الفترة فأهم ما فيها مؤامرة الأميرة إليس ، وطلبها مساعدة زنكى للوصول إلى حكم أنطاكية[٤] . وقد سبق أن رأينا كيف أسرع الملك بلدوين الثانى إلى أنطاكية وأحبط المؤامرة ، وبذلك حال دون استفادة زنكى من اضطراب أحوال الصليبيين فى أنطاكية

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٢ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 660)

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣٥ — ٣٦ .

(4) Stevenson : op. cit, p. 129.

في ذلك الوقت . هذا وإن كان زنكى قد استغل تلك الفرصة وهاجم بعض الحصون القريبة التابعة لإمارة أنطاكية ، مثل الأثارب وحارم ومعرة مصرين . ويقول المؤرخ ابن العديم إن زنكى لم يستطع الاستيلاء على حصن الأثارب إلا بعد خمس سنوات ، أى سنة ١١٣٥ ؛ فى حين ذكر ابن الأثير وابن واصل أن زنكى استولى على ذلك الحصن فعلا سنة ١١٣٠ « وجعله دكا وبقى إلى الآن خرابا » (١) .

انشقاق المسلمين :

على أن زنكى لم يستطع أن يمضى قدماً فى مشروعه الخاص بتوحيد قوى المسلمين بسبب الأحداث التى قامت فى فارس والعراق ، والتى أدى تدخل زنكى فيها إلى صرفه عن ميدان الشام .

ذلك أن وفاة السلطان محمود بن محمد السلجوقى سنة ١١٣١ أعقبها انقسام خطير فى دولة السلاجقة ، إذ تعرض ابنه البكر داود ـ الذى ورثه فى السلطنة ـ لثورة أعمامه : عمه الأول سلجوق بن محمد صاحب فارس ، وعمه الثانى مسعود ابن محمد ، وعمه الثالث طغرل بن محمد صاحب قزوين (٢) . ولم يلبث أن اشتد الصراع بين هؤلاء الأعمام الثلاثة ، وبخاصة سلجوق شاه ومسعود . وفى إحدى حلقات النزاع ، أيد الخليفة العباسى المسترشد سلجوق شاه ، فاستنجد مسعود بعماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى « سار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق » ؛

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Ps. 661, 670) & ؛
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ ؟
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٣ .
وقد نص ابن واصل على أنه أخذ رأيه عن ابن الاثير .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ، أوراق ١٣، ١٤، ١٥ (مخطوط) .

وبذلك دخل زنكى دائرة الصراع الدائر فى العراق وفارس ، مما صرفه مؤقتا عن الشام وفلسطين[١] .

وعندما زحف زنكى على بغداد لمنازلة الخليفة وسلجوق شاه ، حلت به الهزيمة عند تكريت سنة ١١٣٢[٢] . على أن زنكى لم يلبث أن عاد فى السنة نفسها لمهاجمة بغداد بعد أن حالفه « ملك العرب » دبيس بن صدقة ؛ ولكن الهزيمة حلت بزنكى من جديد « وقتل بينهم خلق كثير » فاضطر إلى الفرار نحو الموصل[٣] .

ويبدو أن تلك الهزائم التى حلت بزنكى شجعت الخليفة المسترشد،فزحف على الموصل فى صيف سنة ١١٣٣ للاستيلاء عليها فى ثلاثين ألفاً ؛ وعندئذاضطر زنكى إلى الرحيل عنها ، وترك فيها بعض عسكره مع نائبه نصير الدين جقر[٤] وفى الوقت الذى كانت جيوش الخليفة تحاصر الموصل ؛ لجأ أتابك دمشق اسماعيل ابن بورى إلى مهاجمة أملاك زنكى فى الشام، فحاصر حماة « وملك البلد قهراً » سنة ١١٣٣ . وهكذا أخذ البناء الذى أقامه زنكى يتداعى لبنة بعد أخرى على أيدى المسلمين أنفسهم سواء فى العراق أوالشام[٥].

ولا شك فى أن سوء موقف زنكى أتاح فرصة طيبة للصليبيين الذين شددوا هجماتهم على حلب ، مما أدى إلى الهزيمة التى حلت بالأميرسوار — نائب زنكى

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٢) كان حاكم تكريت عندئذ هـو نجم الدين أيوب الكردى والدصلاح الدين مؤسس الدولة الايوبيـة . ويقال إن نجم الدين أيوب حمى زنكى عندئذ وساعده على الفرار والعبور إلى الضفة الاخرى لنهر دجلة (وكان هذالفعل من نجم الدين أيوب سبباً للاتصال بعماد الدين ، حتى ملك بنو أيوب البلاد) . (أبو الفدا : المختصر ؛ سنة ٥٢٧ هـ) .

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٤٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٧ .

(5) Grousset: Hist. des Croisades, II, p. 55.

فى حلب — فى موقعة قنسرين (١١٣٢ - ١١٣٣)[١].

على أن مجرى الأمور أخذ يتحول فى صالح زنكى بعد قليل ؛ إذ فشل الخليفة العباسى فى الاستيلاء على الموصل بعد حصار ثلاثة أشهر، فارتد إلى بغداد بعد أن « ضاقت الأمور بالعسكر » بسبب قلة الميرة والقوت[٢] . هـذا فى الوقت الذى اضطربت أحوال أتابكية دمشق بعد وفاة بورى سنة ١١٣٣ وقيام ابنه شمس الملوك أبو الفتح اسماعيل فى الحكم . وقد بدأ إسماعيل بن بورى حكمه بداية طيبة، فاسترد بانياس من الصليبيين ، واسترد حصنى اللبؤة والرأس من أخيه شمس الدولة محمد صاحب بعلبك، كما هاجم بعلبك نفسها[٣] . ولكنه لم يلبث أن تعسف وتطرف مع رعاياه ، وأظهر « دناءة نفس » ![٤] ، فأمعن فى « ارتكاب القبائح والمنكرات ، وإيغاله فى اكتساب المآثم والمحظورات الدالة على فساد التصور والعقل، وصداء الحس ، وظهور الجهل ، وتبلد الفهم وحب الظلم ! »[٥] وهكذا أصبح كل أحد فى دمشق يخشى على حياته من تصرفات اسماعيل بن بورى؛ ولم يسلم من ذلك أهل اسماعيل أنفسهم ، إذ قتل أخاه سونج « أشنع قتلة بالجوع فى بيت ، وبالغ فى الأفعال القبيحة والظلم ، ولم يقف عند حد »[٦] . وكان أن دبرت المؤامرات ضد اسماعيل من جميع من حوله ، حتى بات يخشى على نفسه من أشد المقربين إليه ، فأرسل إلى زنكى يستعين به . ويعرض عليه استلام دمشق « ليمكنه من الانتقام من كل من يكره من المقدمين والأمراء والأعيان بإهلاكهم وأخذ أموالهم وإخراجهم من منازلهم » . ثم إن اسماعيل هدد زنكى بتسليم

---

(١) أنظر ماسبق .

(٢) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٥٧ .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٥ هـ .

(٦) المرجع السابق ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

دمشق للصليبيين وقال له «إن أهملت المجيء سلمت المدينة إلى الفرنج[1]» .

وقد وجد زنكى فى ذلك العرض فرصته التى طالما تمناها لتوحيد الشام الإسلامية ، فأسرع من الموصل لاستلام دمشق . على أنه فى الوقت الذى أخذ زنكى يشق طريقه إلى دمشق، تبدلت الأحوال فجأة ، إذ قتل إسماعيل بن بورى فى مؤامرة دبرتها أمه — صفوة الملك زمرد — (أول فبراير سنة ١١٣٥) ، وتولى حكم دمشق أخوه شهاب الدين محمود بن بورى الذى التف حوله أهل دمشق ضد مطامع زنكى والصليبيين جميعاً . ولما راسل زنكى أهل دمشق «لم يجيبوه إلى مطلوبه ، وردوا عليه رداً خشنا يتضمن أن الكلمة قد اتفقت على حفظ الدولة والذب عنها[2]» . وهكذا فشلت جميع الجهود التى بذلها زنكى أمام دمشق لضم المدينة ، وتزعم حركة المقاومة ضده أحد مماليك طغتكين واسمه معين الدين أنر ؛ فاضطر زنكى إلى عقد الصلح مع الدماشقة فى منتصف مارس سنة ١١٣٥ والعود إلى حلب ؛ لاسيما بعد أن أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسى يأمره «بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولى أمره والتدبير له » . وهكذا ظلت دمشق أمداً طويلا تمثل عقبة كؤودا فى سبيل إتمام الجبهة الإسلامية ببلاد الشام نتيجة لسياسة حكامها الخونة[3] .

على أن تحول مجرى الأمور فى العراق لم يلبث أن أدى إلى تعويض زنكى عما فاته فى دمشق. وذلك أن صحوة الخلافة العباسية على أيام المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) لم تدم طويلا ، ولا سيما بعد أن هدأت الأمور فى الدولة السلجوقية، ونجح

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٥٧ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. p. 668 – 669) &
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ ؛
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٨ ؛
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ.

السلطان مسعود بن محمد (١١٣٤ — ١١٥٢) فى التغلب على منافسيه والفوز بالسلطنة(١). وقد حاول الخليفة المسترشد بالله منازلة السلطان الجديد، ولكن الأمر انتهى بهزيمته ونفيه، ثم قتله بأيدى الباطنية فى نهاية أغسطس سنة ١١٣٥، حيث مثلوا بجثته تمثيلا شديدا(٢). ولم يجد خلفاء المسترشد، أعنى الخليفة الراشد (١١٣٥ — ١١٣٦) والخليفة المقتفى (١١٣٦ — ١١٦٠) بداً من الاستعانة بزنكى «على خلاف السلطان مسعود»، مما قوى نفوذه فى شئون الخلافة العباسية ببغداد(٣).

زنكى والصليبيون:

ولم يكد زنكى يطمئن إلى جبهة العراق، ويحصل على تأييد الخليفة المقتفى العباسى والسلطان مسعود السلجوقى، حتى انصرف إلى ميدان الشام من جديد(٤). وكان أن بدأ زنكى فى ربيع ١١٣٥ بتوجيه هجماته ضد المراكز الصليبية شرقى نهر العاصى، ونجح فى تلك السنة فى الاستيلاء على الأثارب وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفر طاب(٥). ثم إن زنكى حرص على

(١) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٥ ورقة ١٧ (مخطوط).
(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٥٠.
(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥٣٠ هـ.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص ٦٧ — ٧٩.
ويروى ابن واصل أنه عندما صلحت الأمور بين زنكى والخليفة المقتفى لأمر الله، أمر الاخير باقطاع عماد الدين زنكى بعض نواحى من أملاك الخليفة الخاصة، كما أمر بأن يزاد فى ألقابه «وهذه قاعدة لم يسمح لاحد من زعماء الاطراف أن يكون له نصيب فى خاص الخليفة».
(٥) ابن العديم: زبدة الحلب (III, 670 - 671)
وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن العديم هو الذى قال بأن عماد الدين زنكى استولى على الأثارب فى تلك السنة. فى حين قال ابن الاثير — وأخذ عنه ابن واصل — إن زنكى استولى على الاثارب قبل ذلك بخمس سنوات، أى سنة ١١٣٠.

إعادة أهالى تلك المدن من المسلمين إلى بلادهم ورد إليهم أملاكهم ودورهم . وبعد ذلك قام زنكى بإغارات متفرقة فى السنة نفسها على مناطق شيزر وحمص وقنسرين ، حتى عاد إلى الموصل فى خريف سنة ١١٣٥[١] .

وبينما زنكى فى الموصل مشغولا مرة أخرى بالخلافات بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية[٢] ، إذا بنائبه فى حلب ـ سيف الدين سوار ـ ينتهز فرصة الاضطراب الذى كانت تعانيه إمارة أنطاكية عندئذ ويغزو أراضيها فى أبريل سنة ١١٣٦ حتى وصل إلى اللاذقية[٣] . وتروى المراجع أن سوار أغار فى تلك الغزوة على مائة قرية صليبية ، وعاد ومعه « ما يزيد على سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبى وصبية ، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير ... »[٤] .

ولم يتعرض الصليبيون لهجمات الحلبيين وحدهم فى ذلك الدور ؛ بل قام الدماشقة أيضاً بحملة كبيرة على إمارة طرابلس سنة ١٢٣٧ . وكانت دمشق قد تعرضت لبعض الفتن والاضطرابات ، ظهرت خلالها شخصية أحد المماليك واسمه بزواش ، الذى لم يلبث أن توصل إلى منصب مقدم العسكر فى دمشق « وجعل إليه الحل والعقد »[٥] . ويبدو أن هذا الأمير أراد أن يمكن لنفسه ، ففكر فى القيام بحملة ضد الصليبيين تضفى عليه شيئاً من المهابة والأهمية ؛ وشجعه على ذلك النجاح الذى أصابه سوار عندما غزا إمارة أنطاكية فى العام السابق[6] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. 671)

(3) Stevenson : The Crusaders, p. 134.

ويصف هذا المؤرخ إغارة سوار على إمارة أنطاكية بأنها ليس لها نظير فى عنفها فى تاريخ تلك الامارة منذ قيامها .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

(٥) المرجع السابق .

(6) Stevenson : op. cit, p. p. 137.

بذلك غزا بزواش إمارة طرابلس « واجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة ومن التركمان أيضاً خلق كثير » . وعلى مقربة من قلعة صنجيل ، دارت المعركة بين الدماشقة وبونز أمير طرابلس ، فقتل الأخير في أواخر مارس سنة ١١٣٧، وأسر عدد كبير من أتباعه ، فضلا عن الغنائم الوفيرة التى حصل عليها المسلمون(١) . وهكذا ساء موقف الصليبيين فى أنطاكية وطرابلس فى الوقت الذى عاد زنكى سنة ١١٣٧ من العراق إلى الشام لاستئناف الجهاد(٢) .

على أن زنكى آمن دائماً بأن قيام وحدة الإمارات الإسلامية فى الشام يجب أن يسبق أية خطوة عملية ضد الصليبيين . لذلك بدأ زنكى فى يونية سنة ١١٣٧ بمحاولة جديدة ضد حمص ، التى كان يحكمها معين الدين أنر نائباً عن البوريين فى دمشق . وفى ١١ يوليه سنة ١١٣٧ علم زنكى أن الصليبيين أتوا لنجدة حمص ، فاضطر إلى أن يترك حصارها واتجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة بعرين (بارين)(٣) . وكانت الجيوش الصليبية التى تقدمت لصد زنكى عند بعرين بقيادة الملك فولك ملك بيت المقدس والأمير ريموند الثانى أمير طرابلس الجديد . ولم تلبث أن حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ، فقتل منهم أكثر من ألفين وأسر كثيرون ، من بينهم ريموند الثانى صاحب طرابلس، « وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسرهم ومحقهم قتلا وأسرا ، وحصل لهم من الغنائم الشىء الكثير » . أما الملك فولك فقد استطاع الفرار إلى قلعة بعرين حيث حاصره زنكى(٤) . على أن فولك استطاع أن يرسل طلباً للنجدة السريعة إلى بطرق

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

Guillaume de Tyr p. 640.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, p. 69.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (III. p. p. 672—673) &

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ — ٢٥٩ :

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

بيت المقدس وجوسلين الثانى أمير الرها وريموند دى بواتيه أمير أنطاكية[1] ويبدو أن زنكى عمل حسابا لتلك النجدة التى بدأت تشق طريقها صوب بعرين[2] فلم يمانع فى عقد صلح فى أغسطس سنة ١١٣٧ مع الصليبيين المحاصرين، ينص على أن يأخذ المسلمون خمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراح الملك وبقية الأسرى، كما يستولى المسلمون على بعرين فضلا عن المراكز التى سبق أن استولى عليها زنكى سنة ١١٣٥ شرقى نهر العاصى، وهى زردنا ومعرة النعمان وكفر طاب[3]

(1) Guillaume de Tyr. p. 644 - 645.

(٢) ذكر ابن واصل أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك فى بعرين أرسلوا طالبين النجدة من الامبراطور البيزنطى، والغرب الاوربى « فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكى إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت، وأن همة المسلمين مصروفة إلى فتح بيت المقدس، فحشدت النصرانية وجمعت وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية ».

(ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٧٣).

(٣) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣١ هـ،

Guillaume de Tyr, p. p. 650.651.

الفصل الخامس

الامبراطورية البيزنطية والصليبيون فى الشام

الكسيوس كومنين وإمارة أنطاكية

سبق أن تعرضنا للعداء بين البيزنطيين والصليبيين ، وهو ذلك العداء الذى بدأ يشتد منذ وصول الصليبيين إلى أطراف الشام والعراق ، ورفضهم التقيد بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطى بتسليمه كافة المدن والبلاد التى كانت فى وقت ما من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية ، قبل أن يستولى عليها المسلمون. وقد تركز جزء كبير من العداء بين الطرفين فى العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية[1] ، لأن مدينة أنطاكية بالذات كانت لها أهمية خاصة — دينية وحربية وسياسية — فى نظر الدولة البيزنطية ؛ فضلا عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية فى الشام تطرفا جهة الشمال ، مما جعل الحدود مباشرة بينها وبين البيزنطيين فى قيليقية . فإذا أضفنا إلى ذلك كله الموقف المتشدد الذى وقفه بوهيموند الأول وتنكرد فى أنطاكية من الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، أدركنا السر فى اتساع شقة الخلاف حتى تحول إلى عداء ظاهر مستحكم بين البيزنطيين من ناحية والنورمان فى أنطاكية من ناحية أخرى [2]

وقد اتخذ ذلك النزاع بين إمارة أنطاكية والبيزنطيين صوراً متعددة وميادين كثيرة سبق أن تعرضنا لها فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب ؛ ولا بأس من

(1) Vasiliev : op. cit, II, p. p. 408 . 409.

(2) Chalandon : AlexisComnene. p. 219.

أن نجملها هنا فى إشارة عابرة سريعة تساعد على ربط حلقات ذلك النزاع بعضها ببعض . فمن ذلك مثلا الخلاف الذى قام بين الطرفين حول اللاذقية ، تلك المدينة التى استولى عليها البيزنطيون سنة ١٠٩٩ ، والتى تتمتع بموقع هام يجعلها عظيمة المكانة بالنسبة لإمارة أنطاكية بالذات[١] . وإذا كان بوهيموند وحلفاؤه البيازنة لم يتمكنوا من الاستيلاء على اللاذقية عند ماهاجموها سنة ١٠٩٩ بسبب تدخل ريموند دى تولوز ، فإن النورمان فى أنطاكية لم يهدءوا بعد ذلك إلا عند ما استولوا على تلك المدينة سنة ١١٠٢ ، كما سبق أن شرحنا . وقد حاول الإمبراطور البيزنطى أن يرد على ذلك العدوان بإرسال حملة إلى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى لانتزاع طرسوس وأذنه والمصيصة من النورمان ، ولكن الحملة فشلت فى غرضها ؛ بل إن جوسلين دى كورتناى صاحب تل باشر استطاع سنة ١١٠٣ الاستيلاء على مرعش من البيزنطيين[٣] .

وهكذا لم يستطع ألكسيوس كومنين سوى أن يتحين الفرصة المناسبة للانتقام من الصليبيين . ولم تلبث أن أتيحت هذه الفرصة عند ماحلت بالصليبيين كارثة حران سنة ١١٠٤ ، فأرسل الإمبراطور أسطولا استطاع أن يسترد اللاذقية[٥] ويستولى على بعض مراكز قرب الشاطىء فيما بين اللاذقية وانطرطوس . هذا فضلا عما قام به الأرمن فى قيليقية من طرد الصليبيين النورمان من طرسوس وأذنه والمصيصة ، واستدعاء البيزنطيين ليحلوا محلهم[٤] . ولم يستطع بوهيموند إزاء ذلك التهديد من جانب البيزنطين والسلاجقة جميعاً سوى الرحيل إلى غرب أوربا فى أوائل سنة ١١٠٥ ، لاستحضار نجده تمكن إمارته من الصمود فى وجه الأخطار المحدقة بها . وهناك فى الغرب لم يكتف بوهيموند باستثارة

(1) Albert d'Aix, p p. 500. & Raoul de Caen; p. 649.
(2) Ostrogorsky op cit, p. 323.
(3) Brebier : Vie et Mort de Byzance, p. 315.
(4) Raoul de Caen p. p. 271 - 272.

الرأى العام ضد الإمبراطور البيزنطى ودولته ، وإظهارها فى صورة القوة المعادية للصليبيين ، الممالئة للمسلمين ، وإنما عبر بوهيموند عن شعوره العدائى ضد البيزنطيين عمليا ، فقام بحملته على الدولة البيزنطية سنة ١١٠٧ ، وهاجم مدينة دورازو ، مما يعتبر مقدمة لما حدث بعد ذلك بأقل من قرن من اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية نفسها (١) .

وإذا كان بوهيموند قد فشل أمام البيزنطيين ، واضطر إلى مصالحتهم كما سبق أن ذكرنا ، فإن تنكرد — خليفة بوهيموند فى أنطاكية — لم يرتبط بذلك الصلح ، وإنما واصل سياسته العدوانية ضد الدولة البيزنطية ، واستطاع أن يسترد اللاذقية من البيزنطيين سنة ١١٠٨ بمساعدة البيازنة (٢) . ويهمنا من هذه الأحداث أن الإمبراطور البيزنطى فى صراعة ضد النورمان الصليبيين ، لم يحجم عن الاستعانة بالأتراك السلاجقة ، فاستنجد بسلطان قونية قلج أرسلان عندما هدد بوهيموند دورازو سنة ١١٠٧ ، وأرسل السلطان السلجوقى فرقة كبيرة من فرسانه لمساعدته ، مما جعل الغرب الأوربى يميل إلى تصديق التهم الموجهة ضد الدولة البيزنطية ، ويعتقد أن هذه الدولة ترتكب فعلا خيانة كبرى فى حق المسيحية والقضية الصليبية (٣) .

والواقع إن الغرب الأوربى لم يكن مبالغا عندئذ فى سوء الظن بالإمبراطورية البيزنطية ، إذ تشهد المراجع المعاصرة على وجود ثمة اتصالات مريبة بين البيزنطين

---

(1) Setton : op. cit. I, p. p. 391–392.

(2) Stevenson : op. cit; p. 82.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ ، &

Albert d'Aix, p. 651.

ويقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٠٠ هـ : « فى هذه السنة كانت وحشة مستحكمة بين ملك الروم صاحب القسطنطينية وبين بيموند الفرنجى ... فارسل ملك الروم إلى الملك قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا وغيرهما من تلك البلاد فاستنجده ، فامر بجمع كثير من العسكر فقوى بهم ... » .

والمسلمين ، هدفها استثارة السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ضد الصليبيين بالشام . من ذلك ما يؤكده ابن الأثير مرة أخرى من مجىء سفارة من قبل الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين إلى السلطان محمد السلجوقى سنة ١١١١ تعرض عليه عقد تحالف بين الطرفين لمحاربة الصليبيين وطردهم من الشام .ولعل فى هذه الشواهد ما يثبت تآمر البيزنطيين فعلا ضد الصليبيين فى الشام بوجه عام والنورمان فى أنطاكية بوجه خاص،وأنهم كانوا يفضلون عودة الشام إلى أيدى السلاجقة المسلمين عن بقائها فى أيدى الصليبيين . ويبدو أن عداوة ألكسيوس كومنين للصليبيين عندئذ أنسته ما صادفته دولته من قبل على أيدى السلاجقة ، مما جعله يستغيث بالغرب الأوربى ضد السلاجقة المسلمين حتى سنة ١٠٩٥ (١)

الامبراطور حنا كومنين والأتراك

وفى عهد الامبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين (١١١٨ — ١١٤٣) ؛ دخلت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية من جهة وكل من الصليبيين والمسلمين من جهة أخرى دوراً جديداً . ذلك أن حنا كومنين — الذى تولى العرش بعد أبيه ألكسيوس كومنين مباشرة — كان محاربا قديراً ، قضى معظم سنوات حكمه على رأس جيوشه لتحقيق الأهداف التى وضعها لنفسه ، وهى إعادة الحدود الآسيوية للامبراطورية إلى ما كانت علية قبل الغزو السلجوقى ، وطرد سلاجقة الروم من آسيا الصغرى واسترداد قيلقية من الأرمن ؛ فضلا عن إجبار الصليبيين فى أنطاكية على الاعتراف بسيادة الأمبراطورية (٢) .

وكان أن بدأ الأمبراطور حنا كومنين بمحاربة الأتراك فى الأناضول

---

(1) Grousset : op. cit, I, p. 462.

(2) Ostrogorky : op. cit, p. 335.

للاستفادة من الشقاق الذى دب بين سلاجقة الروم وأمــراء بنى دانشمند فى سيواس ؛ وهو الشقاق الذى اتسعت فجوته عنــد ما استولى سلاجقة الروم على مدينة ملطية التابعة لبنى دانشمند . على أن هــذا الشقاق لم يمنع من اتحاد سلطان قونية السلجوقى مسعود مع الأمير التركمانى غازى بن دانشمند سنة ١١١٩ لمهاجمة حاكم طرابيزون البيزنطى [١] . وكان ذلك فى السنة نفسها ـ ١١١٩ ـ عندما بدأ الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين هجومه على سلاجقة الروم فى الأناضول. وبعد أن استرد منهم الإمبراطور بضعة مواقع ، اضطر إلى العودة إلى البلقان [٢]

وإلى جانب الخــلاف بين سلاجقة قونية وبنى دانشمند ، نشب خلاف داخلى بين أمراء السلاجقة داخل قونية حوالى سنة ١١٢٦ عند ماثار عرب على أخيه السلطان مسعود ، واضطر الأخير إلى الإلتجاء إلى بلاط القسطنطينية حتى تمكن بمساعدة البيزنطيين من استرداد عرشه ؛ وعنــدئذ لجأ عرب بدوره إلى الأرمن فى قيليقية ثم إلى الإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية [٣] وهــكذا أدى الشقاق الداخلى فى سلطنة سلاجقــة الروم إلى إضعاف تلك السلطنة ووقوف الإمبراطورية البيزنطية من أمرائها موقف الحــكم والمعين ، فى حين ظل الأتراك من بنى دانشمند فى كابادوكيا محتفظين بقوتهم ويمثلون خطراً على الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى [٤] .

لذلك اختار الإمبراطور حنا كومنين أن يوجه فى تلك المرة جهوده ضد أولئك التركمان ، فقاد حملة ضدهم على شاطىء البحر الأسود ، ونجح فى الاستيلاء على مدينة قسطمونى سنة ١١٣٠ — ١١٣٢ [٥] . ولم يلبث بعض الأمراء المحليين

(1) Mattnieu d'Edesse p. 3ɜ3.
(2) Vasiliev : op. cit, II, p. p. 415 _ 416.
(3) Michel Le Syrien, p p. 219-224.
(4) Grousset : op. cit, II. op. 84.
(5) Brehier : op, cit, p. 323.

أن اعترفوا بولائهم للامبرطور البيزنطى ، مثل ألب أرسلان أمـير كنغرى وطغرل أمير أماسيا . ثم إن هذه لم تـكن آخر حملات حنـا كومنين ضد بنى دانشمند ، إذ لم يلبث أن عاد إليهم مرة أخرى عندما استولوا على قسطمونى فاستردها منهم سنة ١١٣٤ ، كما استولى عـلى كنغرى [١] . وبذلك يـكون الإمبراطور حنا كومنين قد استردللامبراطورية البيزنطيةالشاطىء الجنوبىللبحر الأسود إلى ما بعد طرابيزون شرقا .

حنا كومنين والأرمن :

وكانت الخطوة التالية أمام حنا كومنين هى استرداد إقليم قيليقيةفىالجنوب الشرقى لآسيا الصغرى من الأرمن ، تمهيداً لاسترداد أنطاكية من الصليبيين . وقد حشد الإمبراطور لذلك الغرض حملة كبيرة ضمت صفوة جنوده وفرسانه ، وسار على رأسها مخترقا آسيا الصغرى حتى وصل إلى مرسـين سنة ١١٣٧ ، ثم استولى فى غير صعوبة على المدن الرئيسية الثلاث فى سهول قيليقية ، وهى طرسوس وأذنة والمصيصة . وبعد ذلك اتجه الإمبراطور نحو الشمال حيث استولى فى يوليه سنة ١١٣٧ على عين زربه بعد حصار عنيف ، ثم عـلى بعض الحصون الأخرى المجاورة مثل تل حمدون [٢] . أما الأمير الأرمنى ليون الأول (ابن لاوون) فقد استمر يقاوم البيزنطيين عدة أشهر حتى سقط أخيراً فى يد الإمبراطور البيزنطى سنة ١١٣٧ ، وأرسل وأسرته وأسرى إلى القسطنطينية [٣] . ولم يلبث أن استولى حنا كومنين بعد ذلك على الاسكندرونه وحصنها وعمر ميناءها ، وبذلك دخل أراضى إمارة أنطاكية [٤] .

---

(1) Grousset : Hist, des Croisades II, p. 85.

(2) Chalandon : Comnenes, II, p. p. 115-116.

(3) Iorga : L'Armenie Cilicienne p. p. 94.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

حنا كومنين وأنطاكية :

كانت دولة الأرمن التى قامت فى قيليقية فى الربع الأول من القرن الثانى عشر بمثابة حاجز بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية. ولكن اقتطاع هذا الحاجز على يد الإمبراطور حنا كومنين، جعل الحدود مباشرة بين البيزنطيين والنورمان فى أنطاكية ، وبالتالى فإن الخطوة التالية أمام الإمبراطور البيزنطى بعد استرداده قيليقية ووصوله إلى مشارف الشام ، صارت المطالبة من جديد بأنطاكية [١] .

والواقع إن الإمبراطور حنا كومنين كان قد حاول من قبل حل مشكلة أنطاكية حلا سلميا ، فأرسل فى السنة التالية لاعتلائه عرش الإمبراطورية (سنة ١١١٩) مبعوثا إلى روجر دى سالرنو أمير أنطاكية عندئذ ،يقترح عليه زواج ابنة روجر من أمير من أسرة كومنين ، على أمل أن يؤدى هذا الحل — ولو مع مضى الزمن — إلى عودة أنطاكية إلى حظيرة الإمبراطورية . ويبدو أن روجر كان لا يعارض هذا الرأى ، ولكن حدث قبل أن يبت فيه برأى حاسم أن خر قتيلا فى موقعة البلاط سنة ١١١٩ ، ومن ثم قام بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بالوصاية على إمارته ليقلب الموقف رأسا على عقب .

على أن فشل ذلك المشروع لم يمنع حنا كومنين من محاولة إعادة الكرة ، وذلك حوالى سنة ١١٣٦ عقب وفاة بوهيموند الثانى ومحاولة أرملته أليس السيطرة على أنطاكية [٢] . ذلك أن الأميرة أليس لم تكتف بطلب المساعدة من زنكى وإنما لجأت — كما سبق أن أشرنا — إلى الإمبراطور حنا كومنين فعرضت

---

(1) Setton : op. cit, I, p. 4?9.

(٢) انظر ما سبق ص ٥٣٢ .

عليه زواج ابنه وولى عهده مانويل كومنين من ابنتها كونستانس ، الورثية الشرعية لإمارة أنطاكية [١] . وقد عقدت اتفاقية سرية فعلا بخصوص ذلك الشأن بين أليس وبلاط القسطنطينية ، ولكن مجىء ريمون دى بواتيه وزواجه من الأميرة كونستانس سنة ١١٣٦ ، قطع الأمل نهائيا فى تنفيذها . وبذلك لم يبق أمام الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين سوى استخدام القوة لحل المسألة الأنطاكية ، فخرج على رأس جيوشه فى يوليو سنة ١١٣٧ قاصدا أنطاكية [٢].

ولم يكن لدى ريموند دى بواتيه — أمير أنطاكية عندئذ — من القوة ما يمكنه من الصمود فى وجه الجيوش البيزنطية الضخمة ، فأرسل يستنجد بفولك ملك بيت المقدس وبقية أمراء الصليبيين . ولكن شاء سوء حظ الصليبيين أن تتعرض إمارة طرابلس فى ذلك الوقت — كما سبق أن أشرنا — لهجوم زنكى ، مما جعل الملك فولك يتجه أولا لنجدة قلعة بعرين ، على أن يذهب إلى أنطاكية بعد ذلك . ولم يدر فولك عندئذ أنه سيبتلى بالهزيمة وحصار المسلمين له فى بعرين . وكان أن انقلب الوضع فاستنجد فولك بأمير أنطاكية ريموند دى بواتيه ليفك حصاره ، وعندئذ أسرع ريموند إلى بعرين دون أن يبالى بالبيزنطيين الذين صاروا على مشارف مدينة أنطاكية نفسها [٣] . وعندما عاد ريموند بواتيه إلى أنطاكية فى أواخر أغسطس سنة ١١٣٧ ، كان حنا كومنين قد بدأ فعلا حصار المدينة « وضيق على أهلها » ، ومـــع ذلك فقد استطاع ريموند دخول مدينته للدفاع عنها [٤] .

(1) Chalandon : Comneues, II. p. 122.

(2) Brebier : Vie et Mort de Byzance, p. 324.

(3) Guillaume de Tyr p. 646.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ

ابن القلانسى ، ص ٢٦٣ .

Guillaume de Tyr, p. 645.

وسرعان ما اكتشف حنا كومنين أن اقتحام أنطاكية والاستيلاء عليها بالقوة ليس بالمهمة السهلة . هذا فضلا عن أن الإمبراطور خشى تحطيم قوة الصليبيين فى الوقت الذى كان زنكى يعمل فى نشاط ضد الصليبيين والبيزنطين جميعا . لذلك لم تلبث أن تغلبت روح الاعتدال على حنا وريموند جميعا ، فدخل الطرفان فى مفاوضات انتهت بعقد اتفاقية وافق فيها مندوبو ريموند على الاعتراف بسيادة الإمبراطورية على انطاكية ، على أن يحكمها الصليبيون نيابة عن الإمبراطور (١) وكان أن قدم ريموند دى بواتيه ولاءه وأعان تبعيته للامبراطور البيزنطى ، وذلك بعد موافقة الملك فولك الذى رأى هو الآخر أنه من الأفضل كسب ود البيزنطيين ومعونتهم ضد المسلمين ، وبخاصة زنكى (٢) .

وبعد عقد الاتفاقية السابقة ، أقسم ريموند يمين الولاء للامبراطور ، الذى لم يتشدد بدوره فى ضرورة دخول أنطاكية واكتفى برفع العلم الإمبراطورى فوق قلعة المدينة (٣) .

ولم يلبث أن أدى تفاهم الصليبيين والبيزنطيين بصدد أنطاكية سنة ١١٣٧ إلى تحالف الفريقين ضد المسلمين ، فتم الاتفاق على تنفيذ مشروع حملة صليبية كبرى فى الربيع التالى ، يشترك فيها البيزنطيون والفرنجة ضد مسلمى الشام . وقد تحددت أهداف تلك الحملة فى تحطيم قوة زنكى فى حلب ، وإمارة بنى منقذ فى شيزر ، وانتزاع حمص من أتابكه دمشق ، ثم إقامة إمارة صليبية جديدة من الأجزاء السابقة تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام ، بما فيها حلب وشيزر وحماه وحمص . وكذلك تم الإتفاق على أن يعين ريموند دى بواتيه

---

(1) Vasiliev : op. cit, II, p. 416.

(2) Setton : op. cit, I, p. 439.

(3) Brebier : op. cit, p. 324.

أميراً على تلك الإمارة الجديدة ، ويترك إقليم أنطاكية للامبراطور البيزنطى[1]

حنا كومنين ومحاربة المسلمين :

وفى فبراير من العام التالى — سنة ١١٣٨ — نفذت تعليمات الإمبراطور ، فألقى القبض فى أنطاكية فجأة على جميع التجار والرعايا المسلمين الوافدين من حلب والمناطق المجاورة ، حتى لا تتسرب أخبار الاستعدادات الصليبية إلى زنكى[2] . ثم كان أن وصل الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين إلى أنطاكية فى أواخر مارس سنة ١١٣٨ ، حيث انضمت إليه القوات الصليبية التابعة لأنطاكية والرها ، ثم زحف الجميع على حلب فى ابريل سنة ١١٣٨ ؛ وفى الطريق استولى المسيحيون على حصن بزاعه (بزاعا) بين حلب ومنبج[3] .

ولا شك فى أن الوقت الذى أضاعه المسيحيون فى الاستيلاء على بزاعه سبب لهم خسارة كبيرة ، لأنه أفقد حركتهم عنصر المفاجأة والمباغتة ، وأتاح للمسلمين — وزنكى بوجه خاص — فرصة طيبة للاستعداد ؛ « فتحرز الناس وتحفظوا وكاتبوا أتابك زنكى بذلك[4] » . وكان زنكى عندئذ على رأس جيشه عند حمص يعمل لطرد الدماشقة منها ، وعند ما علم بحملة الصليبيين أرسل بعض قواته تحت قيادة الأمير سيف الدين سوار لتقوية حلب والدفاع عنها . وهكذا ضاعت على الامبراطور البيزنطى فرصة أخذ حلب على غرة ، فلم يتنبه إلى غلطته إلا بعد فوات الأوان . وأخيراً ادرك الامبراطور أن سياسة التباطىء أتاحت لحلب فرصة الحصول على إمدادات قوية من زنكى ، وأنه

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p 652

(2 Runciman : op. cit, II, p. 215.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب(Rec. Hist Or. III, p p 675-676)

لا فائدة بعد ذلك من حصارها ، فانصرف عنها بعد أن أقام عليها ثلاثة أيام ، واتجه إلى الأثارب التى هرب من بها من المسلمين بعد أن أشعلوا فيها النار ، فاستولى عليها المسيحيون فى ٢١ ابريل سنة ١١٣٨ (١)

وبعد أن حبس الإمبراطور أسرى بزاعة فى قلعة الأثارب ، اتجه على رأس الجيوش المسيحية صوب معرة النعمان ، ولكن دون أن يترك حامية كافية فى الأثارب ، مما مكن بعض أسرى المسلمين من الفرار إلى حلب حيث أخبروا الأمير سوار نائب زنكى بضعف الحامية المسيحية فى الأثارب . وهكذا استطاع سوار أن يغير بدوره على الأثارب ، ويطلق سراح بقية أسرى المسلمين « فسر أهل حلب بهذه النوبة سروراً عظيما »(٢) .

أما الجيوش المسيحية فقد واصلت زحفها ، فاستولت فى ٢٧ أبريل على كفر طاب التى كان زنكى قد أخذها من الصليبيين سنة ١١٣٥ ؛ ثم اتجه الامبراطور حنا كومنين بعد ذلك على رأس الجيوش المسيحية المتحالفة إلى شيزر ، المدينة الإسلامية الكبرى التى تسيطر على أواسط حوض نهر العاصى (٣) . وقد أخذ المسيحيون يهاجمون شيزر فى عنف منذ ٢٩ ابريل سنة ١١٣٨ . فاستنجد صاحبها — أبو العساكر سلطان على بن منقذ — بزنكى . وكان أن أتى زنكى مسرعا لنجدة شيزر ، فنصب معسكره على ضفة نهر العاصى بينها وبين حماة (٤) . ولم يشأ زنكى أن يغامر بشن هجوم عام على المسيحيين بسبب تفوقهم العددى . فاكتفى بالخروج كل يوم «هو وعسكره ويسيرون إلى شيزر ويقفون بحيث يراهم الروم . ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم » . وفى الوقت نفسه تبدو

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٨ .
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧٨ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

عبقرية زنكى فى تلك المرحلة فى أنه استغل مبادىء علم النفس الحربى أتم استغلال، فعمل على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين، وأخذ يرسل إلى الامبراطور البيزنطي يقول :

« إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال، فانزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقى، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم، وإن ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها ! » . وهنا يعترف النويرى أن زنكى « لم تكن له بهم قوة، وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه ! »[1] .

وفى تلك الأثناء أيضاً أرسل زنكى القاضى كمال الدين الشهرزورى إلى السلطان مسعود السلجوقى، فتقاعس السلطان فى أول الأمر، « وأظهر قلة اهتمام ». ولكن ثورة الأهالى فى بغداد ورغبتهم فى الجهاد، واستغاثتهم وقت الصلاة يوم الجمعة « وا إسلاماه ! وادين محمداه » ، أخافت السلطان فأمر بإعداد حملة سريعة، كما تعهد الأمير الأرتقى داود بإرسال حملة من الجزيرة من خمسين ألف من التركمان[2] .

وفى انتظار وصول تلك المساعدات، لجأ زنكى إلى العمل على تفرقة صفوف المسيحيين، وإثارة النفور بين البيزنطيين والصليبيين، فكان « يرسل إلى ملك الروم، يوهمه أن فرنج الشام خايفون منه فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعها، فاستشعر كل من صاحبه ! »[3] . وسرعان ما أفلحت سياسة

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٧٢ (مخطوط) ؛
ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٨١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣٢ هـ . ؛
ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١ ص ٧٩ — ٨٠ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب، ج ٥ ورقة ٧٢ ؛
ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

زنكي وآتت أكلها ، فلم يلبث أميرا الرها وأنطاكية أن غيرا سياستهما وأحجما على مشاركة الإمبراطور في مهاجمة شيزر . ووقفت قواتهما من الجيوش البيزنطية المحاربة موقف المتفرج[١] .

ويلاحظ أن ريموند بالذات أخذ يعمل حساباً لنجاح خطة الصليبيين وما يترتب على ذلك النجاح من إعطائه حلب وشيزر تنفيذاً للاتفاقية بين الصليبيين والإمبراطور البيزنطي ، مما يجعله في موقف متطرف على خط النار أمام المسلمين ، بعيداً عن أنطاكية وموقعها ؛ في حين كره جوسلين الثاني أن يرى ريموند قريباً منه في حلب[٢] . وهكذا أدى عدم توافر حسن النية بين الصليبيين بعضهم وبعض من جهة وبينهم وبين البيزنطيين من جهة أخرى إلى فشل الحملة المشتركة ، إذ قبل الإمبراطور حنا كومنين العروض التي عرضها عليه أبو العساكر سلطان صاحب شيزر ، والتي تضمنت دفع مبلغ كبير من المال وجزية سنوية رمزاً للتبعية للامبراطور البيزنطي ، فضلا عن الهدايا والخيول والمنسوجات الثمينة[٣] . ولم ينته شهر مايو سنة ١١٣٨ إلا وكانت الجيوش البيزنطية قد انسحبت تماماً من شيزر متجهة إلى أنطاكية عن طريق فامية[٤] .

تفكك الحلف الصليبي البيزنطي :

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطي أن يغفر للصليبيين موقفهم منه أمام شيزر ، فرد على ذلك الموقف رداً عملياً بأن دخل أنطاكية ومن حوله جنوده دخول

---

(1) Guillaume de Tyr. p. 656.
(2) Runciman : op. cit, II. p. 216.
(3) Setton : op. cit, I, p. 440.
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ ؟ . ابن القلانسي ص ٢٦٦ ؟ أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١١٣ — ١١٤ .
Chalandon : Comnens, II, p. 146.

السيد صاحب الحق الشرعى فى ملكية المدينة ، ثم استدعى أمامه ريموندى بواتيه وجوسلين الثانى ووبخهما على موقفهما وتقاعسهما عن الحرب ، وطالبهما بتسليم قلعة أنطاكية[١] . وكان أن ساء موقف ريموند ووجد نفسه فى قبضة الإمبراطور البيزنطى الذى سيطرت جيوشه على المدينة ، ولكن زميله جوسلين الثانى أمير الرها أنقذ الموقف ، فاتصل سراً بفرسان أنطاكية ، ومن بها وحولها من الفرنجة وأثار نفوسهم ضد البيزنطيين الأرثوذكس ، وخوفهم من نوايا الإمبراطور البيزنطى واتجاهاته ضد الصليبيين[٢] . ولم تلبث أن شبت ثورة عارمة فى أنطاكية ضد حنا كومنين ورجاله ، فتجمع الناس فى الطرقات واعتدوا على الجيش البيزنطى الذى أخذ على غرة . ولم يستطع الإمبراطور عندئذ سوى أن يغلق على نفسه أبواب قصره ليحمى نفسه من غضب الجماهير الثائرة ، فى الوقت الذى سمع بأن سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى غزوا قيليقية وأغاروا على أذنه — بإيحاء من زنكى — الأمر الذى جعل الإمبراطور ينسحب من أنطاكية عائداً إلى القسطنطينية بعد أيام[٣] .

ولا يخفى علينا أن تلك النهاية الفاشلة التى آل إليها أمر الحملة الصليبية — البيزنطية الفرنجية — سنة ١١٣٨ ، كان لها أثرها بالنسبة للموقف بين المسلمين والصليبيين فى الشام من ناحية وفى تقوية جبهة المسلمين من ناحية أخرى[٤] . ذلك أن الخلاف الذى دب بين البيزنطيين والفرنجة أمام شيزر ، وما تبع ذلك من انسحاب الصليبيين ، جعل زنكى يشعر بأنه فى غير حاجة إلى المساعدة التى وعد بها سلطان السلاجقة . والمعروف أن عماد الدين زنكى كان — كما وصفه

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 658.
(2) Brehier : op. cit, p. 324.
(3) Guillaume de Tyr, p. 662 – 665.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. p. 121 – 122.

ابن واصل — « عنده من الدهاء والمكر شيء كثير »[1] ؛ فأدرك بسرعة أن أن مصالحه بالشام تتعارض ومجيء حملة كبرى من قبل السلطان السلجوقي يقوى بها نفوذ السلطان — على حساب زنكي نفسه بالشام . لذلك أرسل زنكي على الفور يلغى طلبه السابق ويعلن عدم حاجته إلى مساعدة السلطان[2] .

ولم يكد الصليبيون ينسحبون من إقليم شيزر حتى أرسل زنكي قواته فاستولت على كفرطاب (حوالى ٢١ مايو سنة ١١٣٨) [3] وفى شهر سبتمبر من العام نفسه استولى زنكي على حصن بزاعه ، ثم على الأثارب فى أوائل شهر أكتوبر ؛ وبذلك ضاعت جميع المكاسب التى حققتها الحملة البيزنطية الفرنجية[4]

تجدد العداء بين حنا كومنين والصليبيين :

على أن الإمبراطور حنا كومنين لم يلبث أن عاد إلى الشام عن طريق قيليقية، ومعه جيش كبير سنة ١١٤٢ ليستولى على أنطاكية استيلاء فعلياً. وعند وصوله فى أواخر سبتمبر إلى قلعة بغراس — وهى قلعة كانت بيد الداوية تسيطر على الطريق بين قيليقية وأنطاكية — أرسل إنذاراً نهائياً إلى ريموند بواتيه بتسليمه أنطاكية فوراً [5] . وكان هذا الإنذار ضربة قاسية لأمير أنطاكية ، لاسيما فى الوقت الذى لم تفتأ جيوش المسلمين تغير على إمارته[6] . لذلك استشار ريموند فرسانه فى أنطاكية ، فأجمعوا على رفض الإنذار وعدم تسليم أنطاكية

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٩١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or, III, p 678)

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨٣ .

(5) Guillaume de Tyr, p 689.

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III. p. 683-684)

للامبراطور البيزنطى[١] . على أن الشتاء لم يلبث أن أقبل ببرده ، وصار الوقت غير مناسب للقيام بعمل حربى كبير ، فاكتفى الإمبراطور بالإغارة على الأقاليم والقرى المجاورة لأنطاكية ، ثم عاد ليقضى فترة الشتاء فى قيليقية قرب المصيصة.

وفى فترة الانتظار هذه ، أخذ حنا كومنين يعيد النظر فى موقفه من الصليبيين وموقف الصليبيين منه ، وانتهى تفكيره إلى أن حقوق الإمبراطورية البيزنطية فى بلاد الشام ثابتة لها سندها التاريخى ، فضلا عن اعتراف الصليبيين أنفسهم فى المعاهدات والاتفاقات التى عقدوها مع الإمبراطورية سنة ١٠٩٧ ، ١١٠٨ ، ١١٣٧ . ثم إن الإمبراطورية البيزنطية ليس لها الحق فى السيادة على أنطاكية وحدها ، بل على بيت المقدس أيضاً[٢] . لذلك فكر الإمبراطور فى إثبات سيادته على بيت المقدس ، فأرسل إلى الملك فولك مبعوثاً يخبره بأن الإمبراطور سيأتى على رأس جيوشه للحج[٣] . ولكن فولك رد على الإمبراطور البيزنطى رداً لبقاً أنكر فيه أى حق شرعى للامبراطور البيزنطى فى بيت المقدس . وقال إن الأحوال الاقتصادية فى المملكة لاتسمح بإيواء جيش الإمبراطور الضخم، وأنه إذا كانت هنالك ضرورة لحج الإمبراطور فليأت على رأس عشرة آلاف فقط من رجاله[٤] . ولم يعجب ذلك الرد الإمبراطور حنا كومنين ، فأخذ يستعد للقيام بحملة كبيرة شاملة على الشام عند ما توفى فجأة فى قيليقية فى ٨ إبريل سنة ١١٤٣ ، وبذلك تخلص الصليبيون بالشام من خطر جاثم[٥] .

على أنه يلاحظ أن العداء بين البيزنطيين والصليبيين لم ينته بوفاة حنا كومنين ،

---

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 690 691.
(2) Vasiliev : op, Cit, II, p. 416.
(3) Guillaume de Tyr p. p. 691 – 692.
(4) Brehier : op. cit, II. p. 325.
(5) Runciman : op. cit; II, p. 224.

وإنما استمر طالما قامت للصليبيين قائمة فى الشام . من ذلك أن ريموند أمير أنطاكية أسرع إلى إرسال جيش إلى قيليقية عند سماعه بوفاة حنا كومنين ، للاستيلاء على المراكز البيزنطية هناك. ولكن الإمبراطور البيزنطى الجديد — مانويل كومنين أرسل جيشاً وأسطولا طرد الصليبيين من قيليقية ، ثم هاجم أنطاكية نفسها وأنزل الهزيمة بريموند[1] .

وهكذا ساءت العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين،مما حال دون اشتراك الطرفين فى عمل سريع ضد زنكى ، هذا وإن كان سقوط الرها فى يد زنكى سنة ١١٤٤ ، واستفحال قوة الأخير فى شمال الشام ، جعل ريموند دى بواتيه يؤمن بأنه من المتعذر الاحتفاظ بأنطاكية فى وجه ذلك الخطر الجديد دون محالفة البيزنطيين ومساعدتهم . لذلك ذهب ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية إلى القسطنطينية سنة ١١٤٥ ، ليطلب مساعدة الامبراطور البيزنطى ، وهناك أعلن توبته وندمه عما بدر منه من قبل ، وزار قبر الامبراطور الراحـــل حنا كومنين ليترحم عليه ويشيد بمحاسنه !! وبعد أن أعلن ريموند ولاءه للامبراطورية البيزنطية وتبعيته للامبراطور القائم مانويل كومنين ، عفا مانويل عنه ووعد بمساعدته ضد زنكى[2] .

وليس معنى ذلك أن العلاقات عادت صافية بين البيزنطيين والصليبيين بالشام ، وإنما استمر العداء بين الطرفين يختفى حيناً ويظهر أحيانا ، حتى كان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى أوائل القرن الثالث عشر ، كما سنرى فيما بعد .

---

(1) Brehier ; op. cit, p. 328.

(2) Michel Le Syrien, III, p. 267.

